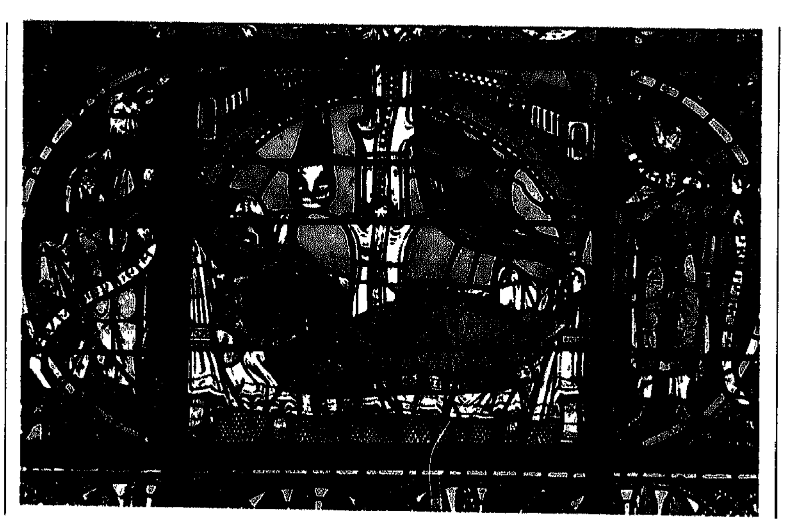




ترجمة : عبد الحميد الدواخلي

ستاندال

الأحمر و الأسود



محيي الدين اللباد

« تمر علىّ لحظات أعتقد فيها
أننى لم أتمكن بعد من معرفة
مايدور فى نفسك ، نظراتك
تبعث الرعب فى نفسى .
ياإلهى ، هل أحببتنى حقاً ؟ إن
صح هذا فلست أبالى أن يكشف
زوجى مابيننا من حب ، حتى
لو زجّنى فى سجن مقيم فى
الريف بعيداً عن أبنائى . ربما
كتب علىّ هذا المصير ، إنى
سأموت بعد قليل ، ولكنك
ستظل شيطانا . ألا
تحبنى ؟ » .



دار شرقيات للنشر والتوزيع

الأحمر والأسود

هذه ترجمة لرواية

Le Rouge et Le Noire

تاليف

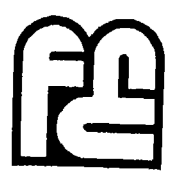
Standahl

دار شرقيات للنشر والتوزيع
٥ شارع محمد صدقى، من هدى شعراوى
باب اللوق ـ القاهرة . ت ٣٩٣٠٣٣٥

الغلاف والاشراف الفنى على الكتاب
محيى الدين اللباد

صدر هذا الكتاب
بالتعاون مع

البعثة الفرنسية
للأبحاث والتعاون
قسم الترجمة
القاهرة



ستاندال

الأحمر والأسود

ترجمة: عبد الحميد الدواخلي

دار شرقيات للنشر والتوزيع

الحقيقة ، الحقيقة المرّة

دانتون

الجزء الأول

الفصل الأول

مدينة صغيرة

إن وضع الآلاف معاً لا يضير، ولكن القفص يصبح أقل بهجة.

هوبز

مدينة ڤريير على صغرها من أجمل مدن مقاطعة فرانش كونتيه، فمنازلها البيضاء ذات السطوح المدببة المغطاة بالقرميد، تمتد فوق منحدر تل نمت فيه -مائلة قليلاً- بعض أشجار من الكستناء الباسقة القوية. وهناك يجري نهر الدو على بعد بضع مئات من الأقدام في أسفل حصون المدينة، وهي تلك الحصون التي أقامها الأسبانيون في الماضي، وأصبحت الآن أطلالاً بالية.

وفي شمالي المدينة جبل عال هو أحد شعب جبال چورا. وتتغطى قمم ڤيرا بالثلوج كل عام حين يبدأ البرد في شهر أكتوبر، وينحدر من الجبل سيل يمرّ بڤريير قبل أن يصب في نهر الدو، أتاح لأهل المدينة إقامة كثير من المناشر الخشبية، وهي صناعة بسيطة نَفَّست كربة العيش عن معظم السكان الذين يعتبرون في الواقع فلاحين أكثر منهم برجوازيين. ولا يرجع الرخاء في المدينة إلى المناشر وحدها، ولكنه يرجع إلى مصنع المنسوجات المرسومة التي تسمّى ميلهوز؛ فقد يسّر لأهل المدينة سبل العيش حتى أنّ كل منازل ڤريير تقريباً قد جدّد بناء واجهاتها منذ سقوط نابليون.

ولا يكاد داخل المدينة يطأ أرضها حتى تصافح أذنيه ضوضاء صاخبة، منبعثة من آلة ضخمة مزعجة: من نظر إليها رأى عجلة تديرها مياه السيل قد ركّب فيها عشرون مطرقة ثقالاً تهزّ طرقاتها الأرض هزاً عنيفاً، وتصنع كل مطرقة بضعة آلاف مسمار في اليوم. وأمام هذه المطارق نرى فتيات جميلات وكل إليهن وضع قطع صغيرة من الحديد سرعان ما تحيلها المطارق مسامير. وهذا العمل الشاق في مظهره يذهل المسافر الذي يعبر لأول مرة تلك الجبال التي تفصل فرنسا عن هلڤيسيا. وإذا ما سأل المسافر عن هذا المصنع الجميل الذي يصمّ آذان عابر الشارع الكبير في ڤريير، أجيب بلهجة بطيئة: إنه ملك حضرة العمدة!

وإذا ما تمهّل العابر في مشيته وهو يقطع الشارع الرئيسي الممتد من ضفة نهر الدو إلى قمة التل فكثيراً ما يلقى رجلاً مديد القامة يدلّ مظهره على الخطورة والجدّ في العمل. وإذا ما وقعت عليه الأبصار هناك رفعت القبعات في سرعة كبيرة تحية له وإجلالاً.

قد اشتعل رأسه شيباً ولبس ثياباً رمادية اللون، وأنعم عليه بأوسمة كثيرة، وهو ذو جبهة كبيرة وأنف أقنى، وإن كان وجهه لا يخلو بوجه عام من تناسق. وقد يشعر الناظر إليه لأول مرة بوقار يفرضه منصب عمدة القرية، ذلك الوقار الذي يطيب له نفس من كان في الثامنة والأربعين أو الخمسين من عمره. ولكنّ المسافر الباريسي سرعان ما يرى في مثل هذا الوقار زهواً لا يرضيه، وكبرياء تدلّ على ضيق في التفكير وجدب في الخيال. ولا شك أن مواهب هذا الرجل مقصورة على أن يحصّل بالدقة كل ما له عند الناس، مماطلاً في دفع ما عليه إلى أجل غير معلوم.

تلك هي صورة «السيد دى رينال» عمدة ڤريير الذي يجتاز الشارع في خطوات متئدة حتى إذا دخل مقر العمدية، اختفى عن عيني المسافر الذي يراقبه. أما إذا استمرّ المسافر في نزهته فإنه مُلاقٍ على بعد مائة خطوة منزلاً جميل المظهر تبدو من خلال قضبانه الحديدية حدائق رائعة غناء، خلفها سلسلة من تلال بورجونيا ممتدة وراء الأفق، فينسيه هذا المنظر الضاحك الجو الموبوء الذي كاد يخنقه من قبل، ينسيه جوّ المصالح المادية التافهة.

لقد علم المسافر إذاً أن هذا المنزل الجميل هو منزل «السيد دى رينال»، بناه من الأرباح التي يدرّها عليه المصنع العظيم، وأقامه من الأحجار المنحوتة ولا يزال مشغولاً بإتمام بنائه. وسمع المسافر كذلك أن العمدة من أسرة أسبانية يقال إنها عريقة، سكنت هذا الإقليم قبل أن يغزو لويس الرابع عشر أسبانيا بزمن طويل.

ومنذ سنة ١٨١٥ بدأ يخجل من أن يكون من رجال الصناعة لأنه أصبح عمدة ڤريير في تلك السنة. ويرى المرء جدراناً ذات شرفات بنيت لتكون أساساً لأجزاء الحديقة الرائعة، التي تقترب طبقة بعد طبقة من نهر الدو فتدلّ دلالة واضحة على معرفة السيد «دى رينال» وخبرته بتجارة الحديد.

ومثل هذه الحدائق الغناء التي تحيط بالمدن الصناعية الألمانية مثل ليبزج وفرنكفورت ونورمبرج - لا يوجد لها نظائر في فرنسا. أمّا في مقطاعة فرانش كونتيه، فإنه كلما كثرت جدران المباني، وكانت الممتلكات واسعة تحدها أحجار صفٌ بعضها فوق بعض، ازداد المالك تجلة واحتراماً في نظر جيرانه. وحدائق «السيّد دى رينال» مملوءة بالجدران التي يعجب بها مواطنوه إعجاباً شديداً، لأنهم يعلمون مقدار ما بذل من مال في شراء مساحات صغيرة من الأرض ليضمها إلى تلك الحدائق. فكان الداخل مدينة ڤريير منذ ستة أعوام مثلاً، يرى مصنع أخشاب على ضفّة نهر الدو في موقع فريد، قد كتب على لوح خشبي يعلو سطح هذا المصنع اسم سورل بحروف كبيرة. أما الآن فقد أصبح هذا المصنع أثراً بعد عين، إذْ حلّ مكانه جدار الشرفة الرابعة من حدائق «السيد دى رينال».

وعلى الرغم من كبرياء العمدة اضطرّ إلى أن يتردد كثيراً على سورل، ذلك الفلاح العجوز العنيد، ثم دفع له مبلغاً كبيراً من الذهب حمله على نقل مصنعه إلى مكان آخر.

وأما جدول الماء الذي كان يدير المصنع فقد تمكّن «دى رينال» بفضل المكانة التي تمتع بها فى باريس من أن يغيّر مجراه، وقد حصل على تلك الميزة على إثر انتخابات سنة ١٨٢٠.(١)

وقد أعطى العمدة لسورل أربعة أمثال المساحة التي أدخلها في حدائقه، وكان الموقع الجديد أكثر ملاءمة لتجارة ألواح أشجار الصنوبر، فهو على بعد خمسمائة خطوة من ضفاف النهر. وقد استغلّ الأب سورل -كما يسمّيه مواطنوه منذ أصبح غنياً- نفاد صبر جاره العمدة وسيطرة غريزة حب الاقتناء عليه فأخذ منه ستة آلاف من الفرنكات، ولم يشأ أن يذيع هذا السر بين مواطنيه من سكان ڤريير.

على أن الاتفاق كان موضع نقد من ذوي التفكير من أهل المدينة. عاد العمدة من الكنيسة منذ أربعة أعوام، في يوم من أيام الآحاد، فأبصر العجوز سورل وقد أحاط به أبناؤه الثلاثة، فابتسم سورل لما وقع نظره على «دى رينال». وقلق العمدة من هذه الابتسامة فاضطرب واعتقد أن في الصفقة غبناً كبيراً عليه، فقد كان في مقدوره أن ينال ما يبتغي بثمن بخس.

ولا يأخذ أهل ڤريير، على الرغم من كثرة الجدران التي يبنونها، بأيّ نمط إيطالي في بنائهم من تلك الأنماط التي يجلبها البناءون الذين يعبرون مضايق جبال چورا في كل ربيع وهم في طريقهم إلى باريس. ولو أنّ أحد الأهالي أخذ بهذا النوع من التجديد لوصفه مواطنوه بالغفلة وقلة الإدراك، ولأسقطه أهل الرأي والحجا، وهم أولئك الذين يتأثر بأحكامهم أهل مقاطعة فرانش كونتيه جميعاً. ويصدر عن هؤلاء من أهل الرأي طغيان شديد، يجعل الإقامة في المدن الصغيرة التي يسكنونها عسيرة على الذين عاشوا في تلك الجمهورية الكبيرة، التي تدعى باريس. ألا إنّ التعسف في الآراء سفه شديد يلقاه الإنسان في المدن الصغيرة الفرنسية كما يلقاه في الولايات المتحدة الأمريكية تماماً، ويا ليتهم كانوا ذوي رأي سديد!

---

(١) لم يشأ ستندال أن يعين تلك السنة التي تقع بعد عام ١٨٢٠، لأنه وإن كان يكتب تاريخ القرن التاسع عشر إلا أنه يخفي بعض الوقائع والتواريخ على القارئ. « المعرب »

الفصل الثاني

عمدة

ليست العظمة يا سيدي سوى أن يحترمك البلهاء،
ويحار فيك الأطفال، ويحسدك الأغنياء، ويحتقرك
العقلاء.

بارناف

كانت الحديقة العامة التي تقع على مجرى الدو وتمتد على حافة التل مسافة مائة قدم في حاجة شديدة إلى جدار يكون دعامة لها، وقد وطد هذا الجدار شهرة «دي رينال» الإدارية. وموقع الحديقة يعدّ من أروع المواقع الطبيعية في فرنسا، إلا أن أمطار الربيع كانت تسقط عليها فتغمرها، وتحفر فيها قنوات فلا ينتفع بها. وشعر الناس جميعاً بهذا الضرر، فهبّ «السيد دي رينال» ليخلد عهده ببناء جدار يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً وطوله ثلاثين أو أربعين توزا[1].

وقد اضطر «دي رينال» إلى أن يسافر إلى باريس ثلاث مرات من أجل هذا الحاجز، لأن وزير الداخلية الأسبق كان عدواً لدوداً لحديقة ڤريير. أصبح هذا الحاجز الآن يرتفع عن الأرض بمقدار أربع أقدام، وزين ببلاط من الحجر المنحوت استخفافاً بوزراء الداخلية جميعاً الحاليين منهم والسابقين.

وكم مرة وقفت أمام هذه الأحجار الضخمة ذات اللون الرمادي الضارب إلى الزرقة مستنداً إليها بصدري، مفكراً في مراقص باريس التي غادرتها بالأمس، ممتعاً بصري بجمال وادي نهر الدو !

وخلف الوادي يقع النظر على خمسة أودية أخرى أو ستة على الضفة اليسرى، تتراءى فيها على البعد جداول صغيرة تمر مياهها من مسقط إلى مسقط حتى تصب في النهر: أما شمس هذه الجبال فشديدة الحرارة خصوصاً حينما تكون عمودية. وإن أحلام المسافر لا تجد ملاذاً فوق الرصيف في تلك الهاجرة، إلا ظلال نباتات جميلة يرجع نموها السريع وخضرتها الزاهية التي تميل إلى الزرقة إلى ما وضعه العمدة من طين خلف الحاجز الضخم الذي أقامه، ثم وسع الحديقة بما يزيد على ست أقدام، على الرغم من معارضة المجلس البلدي. إن العمدة من المغالين وأنا من الأحرار، إلا أن هذا لا يمنعني من أن أثني عليه، فهو يرى أن سطح حديقة ڤريير يمكن أن يقارن بسطح حديقة «سان چرمان أن لي»،

(١) التواز مقياس قديم يبلغ ست أقدام أو ١/٩٤٩ متراً.

ويشاركه هذا الرأي السيد فالنو المدير المحظوظ لصندوق الإحسان في ڤريير.

وأنا لأجد ما آخذه على «ممرّ الإخلاص»[1] إلا الطريقة الوحشية التي تقطع بها هذه النباتات القوية الحية، وممر الإخلاص اسم رسمي أمر «السيد دى رينال» بنقشه على قطع من الرخام في أكثر من خمسة عشر أو عشرين موضعاً فأنعم عليه بصليب جديد بسبب ذلك. كانت الأشجار تقطع في غير رحمة ولا شفقة، ليت هذه النباتات تلقى من العناية والتنسيق ما تلقاه في انجلترا تلك النباتات التافهة ذات الرءوس المنخفضة المستديرة المسطحة، التي تستعمل في عمل الحساء. لكن رغبة العمدة يجب أن تنفذ ولا يقف أمامها شيء، وعلى هذا فكل أشجار الناحية تشذب مرتين في العام وتقطع أغصانها في كثير من القسوة والوحشية. ويدّعي الأحرار أن يد البستاني الرسمي أصبحت أكثر قسوة منذ أن اتخذ مالون نائب الأسقف عادة الاستيلاء على كل ما يقطع من هذه الأشجار، لكنهم مغالون في زعمهم هذا.

جاء مالون من بيزانسون منذ بضعة أعوام ليراقب الكاهن شيلان وبعض كهنة الضواحي. وأقام في ڤريير طبيب جراح كان ضابطاً عظيماً في جيش إيطاليا، وكان كما يقول «دى رينال» يعقوبياً من أنصار بونابرت، وسولت له نفسه يوماً أن يشكو إلى العمدة أمر تقطيع الأشجار على تلك الصورة الوحشية، فأجابه في لهجة تتفق مع مكانة الجراح الذي يحمل وسام الشرف، لكنها لا تخلو من كبرياء:

– إني أحب الظل، نعم أحبه وآمر بتشذيب أشجاري إبتغاء الظل، ويخيَّل إليّ أن الشجرة لم تخلق إلا لتظلنا، اللهم إلا إذا درّت علينا دخلاً كما تفعل شجرة الجوز.

وتمثل هذه النزعة النفعية فكرة عامة شائعة في ثلاثة أرباع سكان مدينة ڤريير. فإدرار الدخل تعبير له الصدارة في تلك البلدة الجميلة. والغريب الذي يفد عليها ويعجب بجمال وديانها وروعة مناظرها، يعتقد أن سكانها يحبون الجمال ويتأثرون به ويجري في عروقهم، وهم كثيراً ما يتحدثون عن جمال إقليمهم وإن كانوا لا يؤمنون بما يقولون، ولكنهم اتخذوها وسيلة ليهبط عليهم الأجانب فيغدقوا الأموال على أصحاب النزل الذين يدفعون بدورهم ضرائب للبلدية، وعلى هذا فهي وسيلة تدرّ على البلدة المال الوفير.

كان الفصل خريفاً واليوم جميلاً حين كان «السيد دى رينال» يتنزه مع زوجه التي أمسكت بذراعه، منصتة إليه، وهو يتكلم في لهجة رزينة وبصرها يتبع في قلق حركات ثلاثة أطفال، أكبرهم يبدو في الحادية عشرة من عمره، حين اقترب من الحاجز، ودلّت حركته على أنه يرغب في الصعود عليه، إلا أن صوتاً رقيقاً نادى: أدولف! فأعرض الطفل عن مشروعه الجرئ. و«مدام دى رينال» اليوم في الثلاثين من عمرها إلا أنها لا تزال جميلة. قال «دى رينال» لزوجه في غيظ ووجهه شاحب:

(١) ممر الإخلاص اسم موضع يطلق عليه في الفرنسية: Couts de la Fidélitê وكان يحسن أن يبقى الاسم الفرنسي كما هو إلا أننا آثرنا ألا نقحم التعبيرات الفرنسية في ترجمة القصة. «المعرب».

- هذا السيد الپاريسي الجميل سيندم على ما يفعل، إنّ لي أصدقاء في القصر[1]... .

ولو أني أحببت أن أتحدث إلى القارئ عن الريف لتحدثت طويلاً، ولسطّرت مائتي صفحة، ولكنني أعفيه من سماع طويل الأحاديث الريفية التي لا تخلو من الإطناب وتنطوي على الحذر والحيطة. والسيد الپاريسي الجميل الذي يكرهه عمدة ڤريير هو مسيو أپير[2]، الذي تمكن قبل ذلك بيومين من أن يجد طريقة يتسلل بها إلى سجن المدينة، ويزور صندوق الإحسان والمستشفى الذي يشرف عليه بالمجان عمدة ڤريير كما زار أهم الممتلكات في المدينة.

فقالت «مدام دى رينال» مجيبة زوجها في حياء:

- وماذا يضيرك من هذا السيد مادمت تشرف على أموال الفقراء في أمانة تامة؟

- إنه لا يبغي من وراء ذلك غير اللوم والقدح، وسيكتب مقالات في صحف الأحرار.

- وماذا يعنيك وأنت لا تقرأ هذه الصحف أبداً يا صديقي؟

- سيتحدث الناس عن هذه المقالات المتطرفة فنشغل بها، ونعرض عن عمل الخير، إنني لن أصفح مطلقاً عن القس.

---

(١) تعبير دارج زمن ستندال، يراد به بلاط الملك الذي كان مقره وقتذاك خاصة قصر سان كلو. «المعرب».

(٢) مسيو أبير كان محرر صحيفة السجون وعضواً بجمعية السجون، زار أنطوان برتيه في سجنه وطلب العفو عنه. وستندال حين يتحدث عنه منذ بداية قصته هذه، يطلعنا على رغبته في أن يؤرخ عصره. «المعرب».

الفصل الثالث
أموال الفقراء

إن القس الورع، الذي لا يعرف الدس، ليعد عناية إلهية لقريته.

فلوري

إن قس ڤريير ليتمتع بصحة جيدة وخلق صارم بفضل هواء الجبال، وإن كان قد بلغ الثمانين من عمره. وهو بحكم مركزه يستطيع أن يزور السجن والمستشفى وملجأ الفقراء كل ساعات النهار. وكان المسيو أپير قد وصل في الساعة السادسة صباحاً إلى تلك المدينة الصغيرة القريبة، حاملاً خطاب توصية إلى القس فذهب تواً إلى داره.

والخطاب من «المركيز دى لامول» الذى يحمل لقب سيد من سادة فرنسا، ويعدّ أغنى أصحاب الأموال في المقاطعة كلها، ولم يكد القس شيلان يفرغ من قراءة الخطاب حتى فكّر برهة ثم قال في صوت خفيض: أنا عجوز ومحبوب من جميع الناس، وعلى هذا فلن يجرؤوا! ثم التفت إلى السيِّد الپاريسي وألقى عليه نظرة تنبعث فيها النار المقدسة التي لم تخبِها الشيخوخة، والتي تنم عن السرور للقيام بمهمة خطيرة، ثم قال:

- تعال معي يا سيدي، وعليك ألا تبدي أية ملاحظة أمام حراس السجن، وألا يصدر عنك رأى أمام رجال ملجأ الفقراء، بل الزم الصمت، وشاهد ولا تتكلم.

فأدرك مسيو أپير أن القسّ طيب القلب ؛ ثم تبعه وزار السجن ومأوى الفقراء والمستشفى، وأخذ يسأل أسئلة كثيرة، أجيب عنها إجابات غامضة، لكنه لم يوجه إلى أحد لوماً. واستغرقت هذه الزيارة بضع ساعات، دعا بعدها الخوري مسيو أپير ليتناول معه طعام الغذاء، فاعتذر الپاريسي بكثرة الخطابات التي يريد أن يكتبها، لأنه لم يشأ أن يفسد الأمر على رفيقه الكريم. وكانت الساعة الثالثة فعادا إلى الملجأ ليتما تفقده، ثم رجعا إلى السجن، فوجدا بالباب سجاناً، فارع الطول، تبلغ قامته ست أقدام، مقوس الساقين، لئيم الوجه مرعبه، كريهه، ورأى السجان القسّ فابتدره قائلاً:

- آه ! أليس هذا السيد الذي معك هو السيد أپير ؟

- وماذا تعني ؟

- إن لديّ أمراً صريحاً منذ الأمس أصدره مدير المقاطعة وأرسل به شرطياً، جرى الليل بطوله ليبلغه إلينا، وهذا الأمر هو ألاّ ندع مسيو أپير يدخل السجن.

- أحبّ أن أخبرك يا سيد نوارو أن الشخص الذي معي هو مسيو أپير وعليك أن تعلم أن لي الحق في دخول السجن في أية ساعة من ساعات الليل والنهار، ولي الحقّ في أن يصحبني في زياراتي من أشاء من الناس.

فطأطأ السجّان رأسه وأجابه في صوت خفيض كأنه كلب خشى أن يضرب:

- لكن يا سيدي القسيس، إن لي زوجاً وأطفالاً وأخشى أن أفصل من عملي إذا أنا خالفت الأوامر. فقال الخوري متأثراً:

- ويحزنني أن أفقد أنا منصبي. فقال السجان في قوة وحميّة:

- يا للبون الشاسع يا سيدي! إن الناس يعلمون أن دخلك لا يقلّ عن ثمانمائة فرنك، وإنه لدخل عظيم . . . .

هذه هى الوقائع التي زيد عليها وبولغ فيها كثيراً، وأخذت عوامل البغضاء التي تملأ نفوس أهل تلك المدينة الصغيرة ترددها منذ يومين، وهي نفس الوقائع التي كان يتحدث عنها السيد «رينال» منذ لحظة إلى زوجه. وفي الصباح ذهب العمدة يتبعه السيد ڤالنو مدير ملجأ الفقراء إلى منزل القس ليخبراه بأنهما غضبا عليه غضباً شديداً من فعلته هذه. ولم يكن لهذا القس أحد يعتمد عليه في دفع الأذى عن نفسه فأدرك ما كانا يرميان إليه، ولم يتردد في أن يقول لهما:

- حسناً أيها السادة! لن أكون أول قس يعزل من منصبه وهو في الثمانين من عمره، فقد عزل قبلي قسيسان في هذه المقاطعة. إنني هنا منذ ست وخمسين سنة. ولم تكن ڤريير يوم وفدت عليها إلاّ قرية صغيرة، لقد عمّدت جميع سكانها تقريباً، وإني أزوج كل يوم شباناً، زوجت من قبل آباءهم وأجدادهم. إني أعدّ أهل ڤريير أيها السادة جميعاً أهلي وعشيرتي! وحينما رأيت هذا الرجل قلت في نفسي: إنه قادم من باريس، وقد يكون من الأحرار، لأنهم كثيرون في عاصمتنا، ولكن أي ضرر يلحق فقراءنا وسجناءنا مما لمتماني عليه؟

فاشتد غضب السيدين على القس العجوز، وكان ڤالنو أكثر حقداً عليه من العمدة، فصاح القس في صوت مضطرب:

- حسناً أيها السيّدان! إعملا على عزلي من منصبي إن أردتما ذلك، ولكن اعلما أنني سأظل مقيماً بڤريير. والناس جميعاً هنا يعلمون أنني ورثت حقلاً يدرّ على ثمانمائة فرنك سنويًا، وسأعيش من هذا الدخل، وما كنت أقتصد شيئاً من مرتبي فآسى عليه حين أعزل من منصبي.

كان السيّد «دى رينال» يعيش مع زوجه عيشة راضية، لكنّه كاد يغضب حين عجز عن أن يجد جواباً لسؤالها الذي وجهته إليه قائلة: أي ضرر يصيب المسجونين لو رآهم هذا الپاريسيّ؟ لكن صيحة زوجه حالت بينه وبين الغضب، صيحة أطلقتها حين رأت ابنها

الثاني قد تسلق الحاجز وأخذ يعدو عليه، فارتاعت لأن الجدار يعلو أشجار الكرم التي تنمو في الناحية الأخرى بمقدار عشرين قدماً. ولم تشأ أن تخيف ابنها بالتحدث إليه حتى لا يسقط في الهاوية، فكنت تراه يضحك معجباً بشجاعته، حتى إذا ما بدا لعينيه شحوب أمه، قفز في الحديقة ثم جرى نحوها، فأخذت الأم تؤنبه تأنيباً شديداً.

وغيّر هذا الحادث اليسير مجرى الحديث بين الزوجين، فقال لها «دى رينال»:

– أنا مصمم على أن أتخذ سورل ابن ناشر الأخشاب مربياً لأولادي ومشرفاً عليهم، فقد أصبحنا لا نقدر على ذلك. إنه قسّ شاب عالم باللاتينية، يستطيع أن يعين الأطفال على تحصيل الدروس ؛ وقد أخبرني القس بأنه فوق هذا كله على خلق عظيم. سأعطيه ثلاثمائة فرنك أجراً له على عمله ووجبات الطعام. لقد كنت أشك في خلقه من قبل، لأنه كان الطفل المدلّل لذلك الجرّاح العجوز الحاصل على وسام الشرف، والذي أقام عند أسرة سورل بحجة أنّه من ذوي قرباهم ؛ ويخيّل إليّ أن هذا الرجل لم يكن إلا جاسوساً للأحرار، وإن زعم أن هواء الجبال يشفيه من الربو، ولكنه زعم لم يتحقق بعد. لقد حارب هذا الرجل مع بونابرت في إيطاليا، ويقال إنه كان ضد الامبراطورية. وقد علّم هذا العجوز اللاتينية لابن سورل، وترك له عدداً كبيراً من الكتب التي كانت معه.

لهذا كلّه لم أشأ أن أضع أولادي من قبل بين يدي هذا الشاب، ولكنّ القس أخبرني قبل المشادة التي حدثت بيننا بليلة واحدة أن ابن سورل يدرس اللاهوت منذ ثلاث سنوات ليدخل المدرسة الإكليريكية، فهو إذاً ليس من الأحرار فضلاً عن أنه يعرف اللاتينية. ثم نظر «دى رينال» إلى زوجه نظرة لها مغزاها واستطرد: هذا الاقتراح يوافقنا لعدّة أسباب، منها أن ڤالنو معجب إعجاباً شديداً بالجوادين النورمنديين اللذين اشتراهما لعربته، ولكنه لم يحصل بعد على معلّم لأولاده.

– وفي استطاعته أن يأخذ منا هذا الذي تتحدث عنه.

فنظر «دى رينال» إلى زوجه وابتسم شاكراً لها الرأي الحصيف الذي أبدته وقال: أنت إذاً تقرّين المشروع، إننا متفقان.

– يا إلهي! إنك لسريع البتّ في الأمور يا صاحبي!

– إني ذو خلق، وقد رأى القس ذلك في وضوح وجلاء. على إني أحب أن نتكلم في صراحة فأنت تعلمين أننا محاطون هنا بالأحرار، وجميع تجار المنسوجات يحسدونني، وأنا واثق من هذا كل الثقة، وقد أصبح اثنان أو ثلاثة منهم أغنياء ؛ وعلى هذا أحب أن يروا أطفال السيد «دى رينال» يذهبون إلى الحديقة العامة ومعهم معلمهم! فهذا له أثره في نفوسهم. وكثيراً ما حدثنا جدّنا أنه قد كان له مرب في صباه. والمربي لن يكلفنا أكثر من مائة إيكو[1]، وهو مبلغ يجب أن يدخل في باب المصروفات الضرورية لنحافظ على

---

(١) الإيكو عملة فرنسية قديمة تبلغ قيمتها ثلاثة فرنكات أو ستة فرنكات. «المعرب».

مكانتنا.

وكان لهذا القرار المفاجئ أثره في نفس «مدام دى رينال»، ففكّرت في الأمر. و«مدام دى رينال» سيدة طويلة القامة معروفة بالجمال بين مواطنيها من سكان هذه الجبال، حتى كانوا يقولون عنها إنها أجمل النساء. لا يخلو سلوكها من روح البساطة والشّباب، ويستطيع الپاريسي أن يصف ظرفها القويّ الساذج، البرئ، بأنه مشوب بلذة رقيقة، ولو أنها علمت هذا الرأي لخجلت منه أشد الخجل، لا يعرف التكلف والدلال سبيلاً إلى قلبها النقي. وقد حاول مسيو ڤالنو المدير الفني لملجأ الأيتام أن يغازلها فلم يستطع أن يظفر منها بشيء، ولم يلاق إلا صدوداً وجفوة، وكان لمسلكها هذا صداه فألقى ضوءاً جديداً على مقدار عفافها وتمسكها بالشرف، لأن السيد ڤالنو من أولئك الذين يتصفون بالجلبة والفظاظة، وإن كان شابًا طويلاً، قوي الجسم، ورديّ الوجه، يتدلى شعره الأسود على عارضيه، إنه من أولئك الذين يعدُهم سكان الريف من أهل الجمال.

و«مدام دى رينال» شديدة الحياء، تدل الظواهر على أنها ذات خلق متغيّر، لا تحب من ڤالنو حركته الدائمة وجلبة صوته. وكان زهدها فيما يسمّيه أهل ڤريير سروراً، جعل الناس يعتقدون أنها معتزة بمحتدها فخورة به.

ولكن هذه الفكرة لم تتسلط على ذهنها في يوم من الأيام، وإن كانت سعيدة بعدم زيارة أهل البلدة لها. ولا نستطيع أن نخفي رأي سيدات ڤريير فيها، فقد كنّ يصفنها بالبله، لأنها لم تنتهز الفرص فتلبس القبعات الجميلة، التي تشترى من پاريس أو بيزانسون؛ ولو أنها أرادت ذلك ما وجدت تعسفاً ولا معارضة من زوجها، غير أنها لم تكن تبغي إلاّ العزلة، تتنزه منفردة في حديقتها الغناء. وكانت ساذجة النفس، لا يسمو فكرها إلى الحكم على زوجها أو الاعتراف بأنها تلقى في الحياة معه مللاً وسآمة. تعتقد في نفسها دون أن تعلن على الملأ أن العلاقة الزوجية أسمى العلاقات، فهي تحبّ زوجها حين يتحدث إليها عن المشروعات التي أعدّها لمستقبل أولادهما، وحين يفضي إليها بأنه يود أن يكون ولدهما الأول جنديًا والثاني قانونياً والثالث قسيساً، وهي ترى مع ذلك أن زوجها أقل إملالاً من جميع من تعرفهم من الرجال.

وقد كان هذا الرأي، الذي أملته الزوجية رأياً معتدلاً، فقد عرف عمدة ڤريير بالنكتة وخفة الظل لأنه ورث عن أحد أعمامه ست فكاهات، يردّدها في أحاديثه. وكان هذا العم قائداً عجوزاً يعمل بفرقة المشاة في جيش الدوق دورليان قبل قيام الثورة، ثم ذهب إلى پاريس فاستقبل في صالونات الأمير حيث قابل مدام دى مونتسون ومدام دى جنليس الذائعة الصيت ومسيو دوكريه مخترع باليه رويال[1].

---

(١) كانت مدام دى منتسون قد تزوجت سراً بفيليب إيجليتيه وعهدت إلى ابنة أخيها مدام دى جنليس: أمر تربية الدوق دورليان الذي حكم باسم لويس فيليب. أما ابن أخيها المركيز دو كريه فقد كان المحرض على التغيير الذي أصاب باليه رويال. « المعرب ».

وهذه الأسماء كثيراً ما تتردد في حديقة «السيد دى رينال»، ولكن ذكريات هذه الأشياء الدقيقة قد أصبحت عسيرة عليه بمرور الزمن، فهو لا يتحدث الآن بما كان يجري في أوساط أسرة دورليان إلا في المناسبات الكبيرة. إنه لجم الأدب إلا حينما يتحدث عن المال. وعلى هذا، كان «السيد دى رينال» يعدُّ بحق أكثر سكان ڤريير أرستقراطية.

الفصل الرابع

أب وابن

إذا صح هذا، فهل يقع الخطأ عليّ ؟

مكيافلي

نزل العمدة في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي متّجهاً إلى مصنع الأب سورل وهو يحدث نفسه: إن زوجي لعميقة التفكير حقّا! ذلك أنني لم أكاشفها برأيي إلا لأحتفظ لنفسي بما لي من تفوّق عليها، ولكني أعترف بأنني لم أفكر في أن مدير الأموال قد تطرأ عليه فكرة الاستعانة بسورل في تربية أولاده، وسورل يعرف اللاتينية معرفة دقيقة كما يقولون ؛ نعم لم أفكر في أن المدير الذي لا يستقر له قرار، يستطيع أن يأخذ مني هذا المربي إذا طرأت له نفس الفكرة، ثم بأية لهجة تنطوي على الكبرياء سيتحدث المدير عن مربي أولاده! لابدّ لي منه ... وحينما يصبح في خدمتي فهل يرتدي ثياب الكهنة؟

كان «السيد دى رينال» مستغرقاً في هذه الأفكار، حينما رأى عن بعد فلاحاً مديد القامة يبلغ طوله ست أقدام، مكبًّا على قياس قطع من الخشب، موضوعة على ضفة نهر الدو، في طريق جرّ السفن ؛ وبقدر ما سمح له الضوء الضئيل، استطاع أن يتبين أن الفلاح لم يسُرّ لرؤيته، لأنّ الأخشاب كانت تسدّ الطريق، ووضعها هنالك يعد مخالفة.

ولم يكن هذا الفلاح سوى الأب سورل، وقد دهش حين رأى العمدة، ثم سرّ كثيراً لاقتراحه الغريب بشأن ابنه «چوليان». وكان سورل ينصت إليه في هيئة تدلّ على حزن يخفي سروراً، ونزاهة تحجب وراءها أغراضاً، وهي علامات يتقن إبداءها سكان الجبال في مهارة فائقة، لأنهم لا يزالون عبيداً لاحتلال الأسپان، ولا يزالون يحتفظون بالطابع الذي نراه واضحاً على وجه الفلاح المصريّ.

كانت إجابة سورل، أول الأمر، مقصورة على ترديد عبارات التجلة التي حفظها عن ظهر قلب وتنطوي على الزيف والخداع، ثم ابتسم للعمدة ابتسامة خرقاء كست وجهه كذباً وخبثاً يكادان يكونان طبيعة فطر عليها. وكانت نفسه البسيطة، نفس الفلاح العجوز، تحاول أن تكشف سرّ إهتمام رجل عظيم كهذا بأمر ابنه الفاشل الذي أينما وجهه لا يأتي بخير، كان الأب سورل كاسف البال من ابنه «چوليان» الذي يريد العمدة الآن أن يأخذه إلى منزله ويعطيه مبلغاً عظيماً، يعطيه ثلاثمائة فرنك في السنة غير الطعام والكسوة. على

أن «دى رينال» لم يكن قد فكّر في أن يكسو «جوليان»، ولكن عبقرية سورل ألهمته بأن يقترح عليه ذلك، فلم يتردد العمدة في القبول. وإن أثّر هذا الاقتراح في نفسه حتى ظن أن سورل غير سعيد بما طلبه منه الآن، لأن ڤالنو قد سبقه إلى الحديث معه في هذا الشأن، ومن ذا الذي يحدثه في ذلك غير ڤالنو؟

وحاول «دى رينال» عبثاً أن يعجِّل في إنهاء الصفقة، فحال بينه وبين ذلك دهاء هذا الفلاح العجوز الذي أصرّ على الرفض، زاعماً أنه يريد مشاورة ابنه كما يأخذ الأب الغني رأي ابنه المفلس في أمر من الأمور على عادة أهل الريف مجاراة على الأقل لظواهر الأمور.

يتكوّن المنشار الذى يدار بالماء من سقيفة تقام على حافة جدول، يرتكز سقفها على أخشاب تحملها أربعة أعمدة من الخشب السميك؛ وفي وسط السقيفة يرى الإنسان على ارتفاع ثمان أو عشر أقدام منشاراً يصعد وينزل، ينشر خشبة تدفعها إليه حركة آلية سهلة، تبعثها إليه عجلة تحركها مياه الجدول التي تحرك المنشار، فتدفع الخشبة إليه دفعاً رفيقاً ليقطعها ألواحاً. واقترب الأب سورل من المصنع ونادى ابنه «جوليان» بصوت عال قويّ، ولكنّه لم يجب نداءه؛ ولم يَرَ من بعد إلا ابنيه الكبيرين بقامتيهما المديدتين يحمل كلٌّ منهما فأساً ضخمة ثقيلة، وقد أكبّا على جذوع بعض الأشجار الصنوبرية يقطعانها بطريقة مربعة لتحمل إلى المنشار داخل المصنع. وكانا مشغولين بتتبع العلامات السوداء التي رسمت في القطع الخشبية، وكانت كلّ ضربة من ضربات الفأس تفصل قطعاً كبيرة من النِّجارة، ولهذا لم يسمعا صوت أبيهما وهو ينادي أخاهما، فاتجه الأب إلى السقيفة يبحث عن «جوليان» في المكان الذي أعدّ له بجوار المنشار فلم يجده، ومدّ بصره فوجده راكباً خشبةً ترتفع عن الأرض خمس أقدام أو ستاً تقريباً، مكبًّا على القراءة معرضاً عن حركة المصنع، غير مبال بالآلات التي كلّف الإشراف عليها. وكان الأب سورل يكره كراهية شديدة أن يرى ابنه مكبًّا على القراءة، بل هو نفسه لا يعرف القراءة، وإذا جاز له أن يعفي «جوليان» لنحوله، من الأعمال البدنية التي يؤديها أخواه، فإنه لا يستطيع أن يصفح عن حين يراه وقد شغلته القراءة عن كل شيء.

رآه كذلك فناداه مرتين أو ثلاثاً فلم يسمع الابن النداء، لأن انتباهه محصور في الكتاب الذي بين يديه، ولأنّ المنشار يحدث ضوضاء شديدة فلم يتح له أن يسمع نداء والد المزعج. عندئذ قفز الأب بخفة على الرغم من شيخوخته إلى الشجرة التي كانت تنشر، ثم وصل منها إلى الخشبة المعترضة التي يرتكز إليها سقف المصنع، وهوى بضربة قوية على الكتاب أطارته من يد ابنه واستقرت به في الجدول، ثم لطمه لطمة قوية أخرى على رأسه، جعلت «جوليان» يفقد توازنه حتى كاد يسقط بين عجل الآلة الدائرة. ولولا أن أمسكه أبوه بيده اليسرى، وهو يسقط من هذا العلوّ الذي يبلغ اثنتي عشرة قدماً أو أكثر لقضى المسكين نحبه ومزقته الآلة شرّ ممزق، ثم قال له أبوه:

– تباً لك من كسول! أتقرأ هذه الكتب الملعونة وأنت موكل بالإشراف على المنشار! إقرأ في المساء كما يحلو لك حين تضيع وقتك عند القسيس. واقترب «چوليان» من المنشار، ولو أن الضربة أحدثت له دوارا وتقاطر الدم منه، وقد اغرورقت عيناه بالدموع لا للألم الذي أصابه ولكن لفقد الكتاب الذي كان يعتز به إعتزازاً شديدا. وصاح به الأب ثانيا:

– إنزل أيها الحيوان فإني أريد أن أتحدث إليك.

ولكنّ ضوضاء الآلة حالت بينه وبين سماع أمر أبيه.

ولمست قدما الأب في تلك اللحظة أرض المصنع ولم يشأ أن يصعد مرة أخرى إلى جوار الآلة، فذهب ليحضر خشبة طويلة دقيقة تستعمل في إسقاط ثمار الجوز، وضرب بها ابنه على كتفه.

ولم يكد «چوليان» يصل إلى الأرض حتى دفعه أبوه أمامه دفعة قوية تجاه المنزل، فأخذ الابن يقول في نفسه: لا يعلم إلا اللّه ما يُراد بي! ونظر إلى الجدول في أسى بالغ... لقد فقد كتابه العزيز: مذكرات سانت هيلانه الذي كان أحبّ كتاب إلى قلبه.

كان چوليان أرجوانيّ الخدين منخفض النظر في الثامنة عشرة أو التاسعة عشرة من عمره، يدلّ مظهره على الضعف، غير منتظم التقاطيع إلا أنه رقيقها. أنفه أقنى، وعيناه سوداوان واسعتان، كانتا تعبّران في تلك اللحظة عن الكراهية الشديدة، وإن كانتا تنمان في ساعات الرضى والاطمئنان عن ذكاء وجدّ وعمق في التفكير.

شعره كستنائيّ داكن يشغل حيزاً كبيراً فلا يترك له إلا جبهة صغيرة فأضفى عليه ذلك لوناً من ألوان الشرّ إذا ما غضب، وتلك علامة مميزة له، لا نجد لها نظيراً في وجوه البشر على اختلافها وتباينها، ذو قوام رشيق ممشوق يدلّ على الخفة أكثر من دلالته على القوة، شاحب اللون منذ طفولته، دائم الوجوم. فاعتقد أبوه أنه لن يعيش طويلاً، وإن عاش فسيكون عبئاً على الأسرة. وكان موضع ازدراء من يعيش معهم، فشبّ على كراهية أبيه وأخويه، وهو مغلوب على أمره دائماً، لا يصيبه التوفيق لا في ألعاب أيام الأحد، ولا في الميدان العام.

لكن جمال وجهه بدأ يغزو قلوب بعض الفتيات منذ عام واحد، كان محتقراً لضعفه، ولذلك أقبل على هذا الجراح الشيخ الذي جرؤ على أن يتحدث إلى العمدة يوماً في شأن النباتات، فأحبّه «چوليان» حباً شديداً.

وكثيراً ما كان الجراح يدفع للأب سورل أجر ابنه «چوليان» اليومي ليتركه له يعلمه اللاتينية والتاريخ، وعلى الأصح ما يعرفه من التاريخ وهو حرب عام ١٧٩٦ في إيطاليا. وقبل أن توافيه المنية ترك «لچوليان» صليب وسام الشرف، وبقايا دخل ضئيل، وثلاثين أو أربعين مجلداً، كان أعزها عليه ذلك الكتاب الذي ألقى به أبوه في الجدول العام الذي غير

الفصل الخامس
مفاوضات

عالج الأمر بالتريث

إينوس

– أجبني صادقاً إن استطعت إلى ذلك سبيلاً أيها الكلب اللئيم. أين تعرفت «بمدام دى رينال»؟ ثم متى تحدثت إليها؟

– لم أر هذه السيدة إلا في الكنيسة؟ ولم أتحدث إليها أبداً.

– ولكن ألم تنظر إليها أيها الماجن السفيه؟

فأجابه «چوليان» في نفاق أراد به أن يتجنب صفعات أخرى من أبيه: أبداً يا أبتاه! فأنت تعلم أنني حينما أكون في الكنيسة لا أتوجّه إلا لله وحده. فأطرق الفلاح الماكر برهة، ثم قال:

– في الأمر شئ لا تريد أن تفضي به إليّ أيها المنافق اللعين. لقد كسبت عطف القسيس أو أي إنسان آخر فحصلوا لك على عمل مربح، فاغرب عني الآن وأعدد عدّتك لأذهب بك إلى «السيد دى رينال»، فقد أصبحت معلّماً لأولاده.

– وماذا سيعطيني مقابل هذا العمل؟

– الطعام والكساء وثلثمائة فرنك.

– لا أريد أن أكون خادماً.

– ومن قال لك هذا أيها الحيوان؟ وهل أقبل أنا أن يكون ابني خادماً؟

– ولكن مع من سأتناول طعامي؟

وألقى هذا السؤال المفاجئ حيرة في نفس الشيخ سورل، ولم يشأ أن يتكلم خشية أن يرتكب حماقة، ثم أخذ يسبّ ابنه سباً شديداً ويتّهمه بالبطنة، وبعد ذلك تركه ليشاور ابنيه الآخرين في هذا الأمر الخطير.

وبعد برهة، رأى «چوليان» أخويه يتكئ كل منهما على فأسه ويتشاوران في أمره، فأخذ ينظر إليهما برهة لعلّه يدرك ما يتحدّثان به. ولم يفهم شيئاً من حديثهما، فانصرف إلى الجهة الأخرى من المصنع ليتفادى الاتهام باستراق السمع، وليخلو إلى نفسه من ناحية أخرى ليفكّر في هذا الخبر المفاجئ الذي سيغيّر مجرى حياته. وكان يشعر في قرارة نفسه

بأنه ليس أهلاً لهذا المنصب الجديد. وظل يفكّر في مصيره ولكن بلا حكمة ولا رويّة، لأن خياله طار به إلى تلك النفائس التي حواها منزل «السيد دى رينال»، فأخذ يحدّث نفسه يجب أن أرفض هذا العمل حتى لا آكل مع الخدم. إنّ والدي يريد أن يرغمني على قبوله، ولكنّ الموت خير لي من الإذعان.

إن لديّ خمسة عشر فرنكاًوبضعة سنتيمات اقتصدتها، فلأفرّ هذه الليلة إلى بيزانسون فأصلها بعد يومين، وسأحرص على أن أسلك طريقاً لا يغشاها رجال الشرطة. سأنتظم في سلك الجندية، وإذا اضطررت إلى السفر إلى سويسرة فلن أتردّد في ذلك على أني لن أطمع في أي تقدم أو أصيب أي نجاح في حياتي مادام قد حيل بيني وبين الحياة التي كنت أطمح إليها: حياة القسيس التي ينال فيها الإنسان كلّ ما يصبو إليه. لم يكن اشمئزاز «چوليان» من أن يأكل مع الخدم طبعاً فيه فإنه يفعل أكثر من ذلك في سبيل المال، بل كان تطبّعاً اكتسبه من قراءة اعترافات روسو، الذي كان يعلّمه الحياة ويرسم له الطريق، والذي جعل منه «چوليان»، مع كتابيْ مذكرات سانت هيلانه ومجموعة أخبار الجيش الكبير، إنجيلاً له وقرآناً يعتزّ بها ويفضلها على حياته، ولم يكن يؤمن بكتاب آخر غير هذه الكتب متأثراً في ذلك بكلمة للجراح الشّيخ حين قال له إنه يعد الكتب الأخرى سلسلة من الأكاذيب كتبها دجّالون ليصيبوا نجاحاً في الحياة الدنيا.

وكان «چوليان» ثائر النفس، قويّ الذاكرة لا يكاد ينسى شيئاً حتى ولو كان تافهاً، وقد أراد أن يكسب عطف القس العجوز شيلان ومحبته، فحفظ العهد الجديد باللغة اللاتينية عن ظهر قلب، ودرس كتاب مسيو دى متر عن البابا؛ وإن كان لا يؤمن بما جاء في هذين الكتابين. وفعل ذلك ليرضي شيلان الذي يتوقّف مستقبل حياة بطلنا على مقدار إرضائه. لم يتحدث الأب سورل في ذلك اليوم مع ابنه، ولم يكلم الابن أباه حتى حلّ المساء فذهب «چوليان» إلى القس ليأخذ درسه في اللاهوت، ولم يشأ أن يفاتحه في أمر ذهابه إلى منزل العمدة، وأخذ يحدث نفسه قائلاً: ربما كان الأمر مكيدة تدبر لي، فعليّ أن أتظاهر بنسيانها. ولكن «السيد دى رينال» بكّر في اليوم التالي ذاهباً إلى سورل، وظلّ ينتظره ساعة أو ساعتين حتى بدا العجوز بالباب ليقدّم إلى العمدة المعاذير مصحوبة بالتجلة والاحترام. وتكلما في الموضوع فاعترض سورل كثيراً، غير أن العمدة أفهمه صراحة أن ابنه سيتناول طعامه على المائدة التي يجلس إليها هو وزوجه إذا لم يكن هناك أضياف، وإلاّ تناول الطعام في غرفته مع الأطفال. وكان سورل يحرص بعد ذلك على أن يثير مسائل فرعية كلما رأى العمدة راغباً في إتمام الأمر، فطلب منه أن يرى الغرفة التي سيقيم فيها ابنه. فصدع العمدة بالأمر وذهب به إلى المنزل حيث رأى غرفة فسيحة حسنة الأثاث، ينقل الخدم إليها أسرة الأطفال. فاطمأن الفلاح حين شاهد ذلك، ثم طلب من العمدة أن يريه الملابس التي أعدها لچوليان، ففتح «دى رينال» مكتبه وأخذ منه ورقة مالية بمائة فرنك وقال لسورل:

- سيذهب ابنك إلى مسيو دوران تاجر المنسوجات ليشتري حلة سوداء.

فقال العجوز على الفور وقد نسي عبارات الاحترام:

- وستبقى له هذه الحلة عندما يعود إليّ، أليس كذلك؟

- بدون شك.

فقال سورل في صوته الجهوري:

- حسناً، لم يبقَ إذاً إلا شئ واحد يجب أن نتفق عليه: ذلك هو الأجر الذي تدفعه لابني. فغضب «دى رينال» وصاح قائلاً:

- كيف ذلك! لقد اتفقنا على الأجر منذ الأمس، ألم أقل لك أني سأدفع ثلثمائة فرنك؟ وهو مبلغ كبير، أكبر مما ينبغي أن يحصل عليه ولدك.

- لقد اقترحت أنت ذلك وأنا لا أنكره. قال العجوز هذه العبارة بصوت منخفض، ثم أوحت له عبقريته -عبقرية فلاحي هذه المقاطعة التي لا يدهش منها إلا من جهلها- أوحت له أن يقول:

- سنجد عند غيرك أجراً خيراً من هذا الذي اقترحته.

اضطرب «السيد دى رينال» حين سمع العبارة الأخيرة لكنّه تمالك نفسه، ثم تحدثا ساعتين كاملتين حديثاً لا يخلو من مراوغة ومكر وحذر، وانتصر دهاء الفلاح على دهاء العمدة الغني، فتمّ الاتفاق على جميع شروط الحياة الجديدة التي سيحياها چوليان ؛ وحصل سورل على أربعمائة فرنك سنوياً أجراً لابنه تدفع مقدماً أول كل شهر.

- سأعطيه أول كل شهر خمسة وثلاثين فرنكاً.

فقال الفلاح في صوت ينطوي على كثير من الدلال: إنّ رجلا غنياً كريماً مثل عمدتنا ليجدر به أن يدفع مبلغاً صحيحاً خالياً من الكسور، كأن يدفع ستة وثلاثين مثلا.

- إنّي موافق ولنفرغ من هذا الأمر.

ثم غاظه أن ينتصر عليه الفلاح، فغضب وبدا عليه الحزم، فأدرك سورل بفطنته أنه يجب أن يقف عند هذا الحد، فانتصر «دى رينال» بدوره لأنه لم يرد أن يدفع إلى سورل أجر الشهر الأول، ولو أن العجوز يتعجل أخذ المبلغ. وفطن «دى رينال» إلى أنه لابدّ أن يقصّ على زوجه الدور الذي لعبه في هذه المفاوضات، فقال للفلاح في غضب:

- ردّ إليّ مائة الفرنك التي أخذتها الآن، لأن مسيو دوران مدين لي، وسأذهب مع ابنك بنفسي لأشتري له الحلة السوداء.

ورأى سورل الصّراحة متجلّية على وجه العمدة، فعمد إلى الحيطة والحذر، وعاد إلى تملقه واحترامه. واستمر الحديث ربع ساعة أخرى، رأى بعدها الفلاح أنه لن يكسب شيئاً جديداً. فاستأذن منصرفاً بعد تحية طيبة، وودّع العمدة قائلاً:

- سأرسل ابني إلى القصر.

ويسرّ العمدة كثيراً أن يدعو الناس منزله قصراً، وكثيراً ما نالوا بهذه العبارة سامي رضاه.

عاد الأب إلى المصنع، وبحث عن «جوليان» فلم يجده. لقد خشي الفتى مغبّة هذا المشروع، فغادر المنزل في منتصف الليل ليضع كتبه وصليب وسام الشرف في مكان أمين، ذهب بها إلى صديق له يدعى فوكيه وهو تاجر أخشاب يقطن الجبل العالي الذي يشرف على مدينة ڤريير. ولما عاد بادره أبوه قائلاً:

- يا لك من كسلان لعين، لا يعلم إلا الله ما إذا كان عندك بقية من شرف تحملك على أن تدفع لي ثمن طعام قدمته إليك سنوات طويلة! خذ اسمالك واذهب إلى العمدة.

وعجب «جوليان» عجباً شديداً لأن أباه لم ينهل عليه بالضرب، فعجّل بالرحيل حتى إذا ما اختفى عن نظر أبيه، أبطأ ثانياً ليرضى نفاقه بأن يمر على الكنيسة ويبقى فيها قليلاً. وسيعجب القارئ من هذه الفكرة ولكنّه لو علم الأدوار التي مرّ بها تفكير ذلك الشاب القروي لزالت دهشته وعجبه: رأي «جوليان» -وهو لا يزال في مهد الطفولة الأولى- جنوداً من الفرقة السادسة للخيالة يلبسون معاطف طويلة بيضاء، وقد وضعوا على رؤوسهم خوذات تتدلّى منها خصل طويلة من الشعور السوداء. وكانوا عائدين من إيطاليا ورآهم يربطون خيلهم في قضبان نافذة أبيه، فأصبح منذ ذلك العهد محبّا للحياة العسكرية، راغباً فيها أشدّ الرغبة.

ثم أتيحت له فرصة الاستماع إلى الجراح العجوز بعد ذلك بسنوات طويلة، فأقبل على حديثه في شغف كبير، وأخذ الجراح يقص عليه أخبار معارك جسر لودى وأركول وريڤولي ؛ وكان «جوليان» يرى اللهب يشع من عيني ذلك العجوز وهو يلقي نظرة على وسام الشرف الذي يحمله.

ويلغ «جوليان» الرابعة عشرة من عمره، فرأى أهل البلدة يبنون كنيسة في ڤريير، تعدّ رائعة بالنسبة لهذا البلد الصغير ؛ وأعجب «جوليان» بأربعة أعمدة من الرخام تزينها، وقد أصبحت هذه الأعمدة مشهورة في هذا الإقليم كله، لأنها سبّبت عداوة شديدة بين قاضي الصلح ونائب الأسقف: ذلك الشاب الذي أتى من بيزانسون، وكان الناس يعدّونه جاسوساً لجمعية الإخاء. واعتقد أهل البلدة أن القاضي سيفقد منصبه بسبب هذا العداء ؛ ولم لا وقد جرؤ على أن يسبّب نزاعاً بينه وبين هذا القسّ الشاب الذي يزور بيزانسون كل خمسة عشر يوماً ويقابل الأسقف!

كان القاضي ربّا لأسرة كبيرة، وقد أصدر أثناء نزاعه مع نائب الأسقف بعض أحكام على من يقرأ الدستور من أهل ڤريير، رآها الناس قاسية شديدة. وإن كانت تنطوي على غرامات لا تعدو ثلاثة فرنكات أو خمسة. ووقعت إحدى هذه العقوبات على قريب لجوليان يتجّر في المسامير فغضب وصاح:

- يا للتغيّر الشديد! لقد كنّا نعتقد منذ أكثر من عشرين عاماً أنّ هذا القاضي رجل أمين!

مات الجراح صديق «چوليان» وأقلع الشاب بغتة عن التحدث عن ناپليون؛ واعتزم على أن يكون قسيساً، فكان يُرى دائماً داخل مصنع أبيه وفي يده نسخة من الإنجيل باللاتينية استعارها من القس. وقد أعجب هذا العجوز الطيّب إعجاباً شديداً بما أصابه «چوليان» من نجاح، فكان يقضي معه ليالي يعلّمه اللاهوت. وحرص الشاب على ألاّ يظهر أمام القسّ إلا بمظهر التقوى والصلاح. ومن ذا الذي يظن أن «چوليان» الذي يغلب حياء العذارى وجهه الشاحب الرقيق، قد وطّد العزم على أن يحصّل المال ولو لقي في سبيل ذلك حتفه؟

وكان يعتقد أن أولى الخطوات في سبيل الثروة هي مغادرة ڤريير، فهو يكره المدينة التي نشأ فيها لأن كل ما فيها يؤلمه ويؤذيه أشد الإيذاء.

وكان واقعاً منذ الطفولة تحت تأثير فكرة تملك عليه مشاعره. هي أنه سيتعرّف بالپاريسيات الجميلات يوماً من الأيام، وأنّه لن يعدم الوسيلة في لفت أنظارهن إليه. ولم لا تحبه إحداهن، وقد أحبت مدام بوهارنيه الرائعة الجمال بوناپرت قبل أن يصل إلى قمة المجد؟! وتسلّطت على «چوليان» كذلك منذ عدة سنوات فكرة كان يردّدها وهي أن بوناپرت، الضابط المجهول الفقير، استطاع بحدّ سيفه أن يصبح سيد العالم. وهي فكرة تخفف من آلام رآها شديدة الوطأة على نفسه ثم تزيد من سروره في ساعات فرحه.

على أن بناء كنيسة ڤريير والأحكام التي أصدرها قاضي المصالحات أنارت لچوليان السبيل، فقد جدّت له فكرة شغلت نفسه وتحمسّ لها كل التحمس كأنما أصابه منها جنون؛ مثله في ذلك مثل غيره من الثائرين الذين يعتقدون في كلّ رأي أنه جديد لم يسبقهم أحد إليه: حينما حمل بوناپرت الناس على أن يتحدثوا عنه، كانت فرنسا تخشى الغزو الأجنبيّ، وكان التفوق الحربي في زمنه ضرورة ملائمة لذوق العصر. أمّا اليوم، فقد أصبحنا نرى القسس يتقاضون مرتبات تبلغ مائة ألف من الفرنكات، وهم لا يزالون في الأربعين من عمرهم؛ وهذا المبلغ ثلاثة أضعاف مرتبات القواد المشهورين الذين كانوا في فرقة ناپليون؛ ثم نرى القسس مع ذلك في حاجة إلى شبان يعاونونهم في عملهم. ثم ألا نرى القاضي الذكيّ الفؤاد، الذي عرف بيننا بالأمانة حتى الآن، يدنّس نفسه بعد أن بلغ من الكبر عتيّا لأنه يخشى غضب نائب أسقف لا يزال في الثلاثين من عمره؟ إذاً يجب أن أكون قسيساً!

أخذ «چوليان» يدرس اللاهوت توطئة لأن يكون قسيساً، وكان قد قضى في دراسته عامين حين وقع فريسة لهجمة مباغتة من الحماسة تأججت بين ضلوعه: دعا الأب شيلان ذات يوم بعض القسس إلى منزله ليتناولوا معه الطعام، وقدّم إليهم «چوليان» على أنه آية من الآيات في العلم والمعرفة.

وبدا لچوليان عندئذ أن يمدح ناپليون، ويطري أعماله في تحمس وغيرة، فدفع في هذا ثمناً باهظاً، إذ أنه علّق ذراعه اليمنى على صدره شهرين كاملين. وكان إذا سئل عن سبب ذلك أجاب بأن ذراعه انخلعت وهو يحاول تحريك جذع شجرة من أشجار الصنوبر. ثم صُفح عنه بعد أن وقّعت عليه هذه العقوبة الرّادعة.

هذه هي صورة هذا الشاب الذي بلغ التاسعة عشرة من عمره؛ وتدلّ كلّ الدلائل الظاهرة على أنّه ضعيف الجسم، حتى يظن من يراه أنه في السابعة عشرة فحسب – هو يحمل الآن تحت إبطه صرّة صغيرة، ويدخل كنيسة ڤربير الرائعة الجميلة .... .

وجدها مظلمة خالية من الناس خاوية، يغَطي نوافذها نسيج قرمزيّ إحتفالاً بالأعياد. كانت أشعة الشمس حين تتسلط على النوافذ وتخترق هذه الستائر تخلق ضوءاً بديعاً يلقى في النفس روعة دينية صادقة ... رأى «چوليان» هذا المنظر فاهتز هزة عنيفة، وجد نفسه وحيداً في الكنيسة فجلس في أحسن مقاعدها الذي زين بأسلحة أسرة دى رينال. ووقع بصره على ورقة مطبوعة، وضعت على المركع بحيث أراد واضعها أن يقرأها من يراها. رفع «چوليان» عينيه فوقعت على ما يأتى: تفاصيل عن إعدام لويس جرنل في بيزانسون وآخر لحظات حياته في ... . وكانت تلك الورقة ممزقة، فقرأ فى الناحية الأخرى كلمتي: الخطوة الأولى. فتنهد وأخذ يقول:

– ياله من بائس! تُرى من وضع هذه الورقة هنا؟ إن اسم هذا الرجل المسكين ينتهي بنفس الحروف التي ينتهي بها اسمي ... ثمّ فرك الورقة بين أصابعه ورماها.

أبصر وهو يغادر الكنيسة بقعاً خالها دماء بالقرب من إناء الماء المقدّس، لكنها كانت مياهاً انعكست عليها أضواء الستائر فبدت حمراء اللون! وكم خجل «چوليان» حين دبّ فيه دبيب الرعب وما لبث أن قال:

– ترى هل أصبحت جباناً؟ إلى السلاح! نعم إلى السلاح!

وهذه الكلمة ترددت كثيراً في قصص الجرّاح العجوز وهو يقصّ عليه أخبار المعارك. ثم نهض «چوليان» من مكانه وأسرع إلى منزل «السيد دى رينال».

وعلى الرغم من الإقدام الذي بثّه في نفسه، فإنه لم يكد يرى المنزل وقد أصبح منه على بعد عشرين خطوة، حتى استولى عليه حياء شديد. كان الباب الحديدي مفتوحاً، وكم كان جميلاً رائعاً في عين هذا الشاب الريفي الذي كتب عليه أن يقيم في هذه الدار.

لم يكن «جوليان» وحده هو الذى اضطرب حين اقترب من المنزل، فكان هناك قلب آخر أكثر اضطراباً ونفس أشد قلقاً. كان الحياء الذي فطرت عليه «مدام دى رينال» يبلبل خاطرها لقدوم هذا الأجنبي الذي تضطرّه طبيعة عمله إلى أن يكون دائماً بينها وبين أطفالها. لقد اعتادت أن ترى أولادها ينامون معها في غرفة واحدة، وكم بكت في الصباح حين كان الخدم ينقلون أسرّتهم إلى الجناح الذي خصص لهذا المعلم الجديد! وكم ألحت على

زوجها أن يسمح لها بنقل سرير ستانيسلاس كزاڤيه، أصغر أبنائها إلى غرفتها! كانت رقيقة إلى أبعد حدود الرقة، وكم دفعتها رقتها وحدبها على أولادها أن تصوّر هذا المربي في صورة شخص فّظ القلب أشعث أغبر، يؤنب أولادها ويضربهم، وما ذلك كله إلا لأنه يعرف تلك اللغة الوحشية، ألا وهي اللاتينية!

الفصل السادس
السأم

لم أعد أعرف من أكون ولا ماذا أفعل

موزار (فيجارو)

كانت «مدام دى رينال» خارجة من باب صالونها المطل على الحديقة، بما فطرت عليه من نشاط وظرف، حين تكون بعيدة عن أعين الرجال، فوقع بصرها على شاب ريفي شديد الشحوب، واقف بجوار الباب وهو يبكي. عليه قميص ناصع البياض، وتحت إبطه حلّة من الجوخ بنفسجية نظيفة، أبيض الوجه، جميل العينين، فظنته «مدام دى رينال» بما فطرت عليه من خيال قصصيّ - فتاة تنكرت في ثياب رجل، وجاءت تطلب عوناً من العمدة. وأشفقت على هذا المخلوق البائس الذي ظل واقفاً بجوار الباب، لا يجرؤ على رفع يده ليدقّ الجرس. فاقتربت منه، وكان «چوليان» ينظر إلى الباب فلم يرها وهي مقبلة؛ فاضطرب حين سمع صوتاً رقيقاً قريباً من أذنه يقول:

- ماذا تريد منا يا بني؟ ووقع بصره على نظراتها الرقيقة حين التفت إليها في اندفاع، فزايله بعض حيائه، ثم رأى جمالها، فنسى كلّ شيء، حتى المهمة التي أتى من أجلها: وعادت «مدام دى رينال» تسأله فأجابها، وقد خجل من دموعه التي أخذ يجففها.

- أتيت يا سيدتي لأعلم الأطفال. فبهتت، وظلّت واقفة بالقرب منه لا تبدي حراكاً، ونظر كل منهما إلى الآخر. لم ير «چوليان» من قبل سيّدة متأنقة في ملبسها كمدام دى رينال، ولا وجها كوجهها في الجمال. ولم يسعد في حياته بحديث عطوف رقيق كحديثها. وكانت مشغولة بالنظر إلى الدموع التي سالت على خدّي هذا القرويّ الشاب فضرجتهما بالحمرة بعد الصفرة الشديدة. ثم طفقت تضحك ضحكاً جنونياً شديداً، لا تستطيعه إلاّ فتاة صغيرة. وسخرت من نفسها لأنها كانت سعيدة إلى أبعد حد: أهذا هو المعلم الذي صورته لنفسها من قبل في صورة قسيس قذر، رثّ الثياب، يأتي إليهم ليؤنب أطفالها ويضربهم؟ ثم قالت له:

- أحقًا يا سيدي أنك تعرف اللاتينية؟

فذهل «چوليان» حين سمع كلمة سيدي وأطرق برأسه لحظة ثم أجابها في حياء: نعم يا سيدتي.

وكانت «مدام دى رينال» في هذه اللحظة سعيدة إلى أبعد حد، فسمحت لنفسها بأن

تقول له: لن تؤنب أولادي كثيراً، أليس كذلك؟

فأجابها في دهشة وحيرة: أنا أؤنبهم، ولماذا؟

فقالت بعد صمت قصير، في نبرات يظهر فيها التأثر لحظة بعد أخرى: نعم يا سيدي! أتعدني بأن تكون معهم طيباً رقيق القلب؟

ولم يكد «جوليان» يسمع تلك السيدة الأنيقة تناديه بقولها سيدي، في لهجة تنطوي على الجدّ، حتى طار عقله فرحاً. لم يكن يتصور إطلاقاً، حتى في أحلامه التي يضطرب بها شبابه، أن سيدة جميلة أنيقة تتحدث إليه هذا الحديث الرقيق دون أن يكون لابساً حلّة جميلة. وعجبت «مدام دى رينال» بدورها من جمال وجهه وعينيه الكبيرتين السوداوين وشعره الحلو المجعّد، الذي كان فى تلك الساعة أكثر تجعداً منه في أى وقت آخر، لأنه أراد أن يستعيد بعض نشاطه فغمس رأسه في حوض النافورة العامة.

وسُرّت «مدام رينال» حين رأت على المعلم حياء العذارى! لأنها كانت تخشى على أبنائها من رجل قاس عبوس الوجه. إنها لمباغتة سارّة لنفسها الهادئة التي تولع دائماً بالوئام وتحب السلام ثم زالت دهشتها بعد قليل، ونظرت فإذا بها تكاد تكون ملتصقة بشاب جميل لا تعرفه من قبل، لا يكاد يستره إلا قميص، وكانا واقفين معا بجوار الباب. فقالت له في نبرات مضطربة: فلندخل المنزل يا سيدي.

وكانت بادية التأثر، شديدة الفرح، سعيدة بزوال مخاوفها من أن يقع أطفالها بين قسّ قذر فظ القلب، خشن الطباع، لأنها شديدة العناية بهم.

ولم تكد تدخل الردهة حتى التفتت إليه، وهو يتبعها في حياء شديد؛ وبهره جمال المنزل وفخامة الأثاث، فازداد وجهه في نظرها جمالاً على جمال، حتى كادت لا تصدق عينيها. وخيّل إليها أن المعلم يجب أن يلبس السواد، فوقفت سائلة. أحقيقة يا سيدي أنك تعرف اللاتينية؟

ألقت عليه هذا السؤال لأنها كانت تخاف ألا يكون هو معلم أولادها. لكنّ چوليان أحسّ في سؤالها جرحاً لكبريائه، بدّد الحلم الجميل الذي كان ينعم به منذ ربع ساعة، فأجابها في هدوء بارد:

- نعم يا سيدتي، أعرفها كما يعرفها كاهن المدينة. وكثيراً ما كان يتفضل عليّ فيقول إني أعرفها خيراً منه.

ورأت السيدة على وجهه دلائل الشرّ وهو واقف على بعد خطوتين منها فدنت منه وقالت له بصوت خفيض: أتعدني بأنك لا تضرب أبنائي في الأيام الأولى ولو لم يحفظوا دروسهم؟

نغمات عذبة حلوة نطقت بها غادة حسناء فنسي «جوليان» دفاعه عن نفسه، لأنها نغمات يشوبها التضرع. وكان وجهها قريباً جداً من وجهه، حتى إنه شم عطر ملابسها

الصيفية؛ وهو شيء لم يعتده فلاح مثله، فاحمر وجهه، وقال لها في صوت خافت مضطرب:

- لا تخشي شيئاً يا سيدتي فسأطيعك في كل ما تأمرين.

وتبددت مخاوف الأمّ على أطفالها، فآن لها أن ترى وجه «چوليان» على حقيقته، وعندئذ أذهلها جماله ... إنه كوجوه العذارى! ولم تعد تعجب باضطرابه وخجله، لأنها كانت بطبعها كثيرة الخجل شديدة الحياء.

وكان مظهر الرجولة الذي يحبه غيرها من النساء يخيفها ويزعجها. ودار بينها وبين الشاب الحديث التالي، فقالت له:

- كم عمرك يا سيدي؟

- سأكون عما قريب في التاسعة عشرة من عمري.

- إن ابني الأكبر في الحادية عشرة، ومن الممكن إذاً أن يكون لك صديقاً، فتحدث إليه حديثاً يلائم سنّه. لقد أراد أبوه مرة أن يضربه فصفعه صفعة خفيفة، فمرض أسبوعاً ولزم الفراش.

ولم يكد «چوليان» يسمع كلامها حتى أخذ يقول في نفسه: ما أعظم الفرق بيني وبين ابنها!

لقد ضربني أبي بالأمس، حقاً، إنّ هؤلاء الأغنياء لسعداء! وكانت السيدة شديدة الانتباه إلى كلّ ما يدور في نفسه، فأبصرت وجهه وقد غطّته سحابة خفيفة من الحزن ظنتها فرط حيائه منها فشجعته سائلة إياه عن اسمه في لهجة جذابة، أحسّ «چوليان» كلّ ما فيها من جمال دون أن يدرك مرماها ثم أجاب:

- أدعى «چوليان سورل» يا سيدتي، وإني لشديد الاضطراب، فهذه أول مرة في حياتي أعيش فيها في منزل لا أعرفه. أنا في حاجة إلى حمايتك يا سيدتي، وأرجو أن تصفحي عن الهفوات التي أقترفها في الأيام الأولى من حياتي معكم، فإنني لم أذهب مطلقاً إلى مدرسة لأنني كنت فقيراً، ولم أتحدث مع رجل، غير أبي وابن عمي الجراح العجوز الذي يحمل وسام الشرف، والقسيس السيد شيلان الذي سيشهد لي بشهادة طيبة. كان إخوتي يضربونني دائماً؛ فلا تصدقيهم إذا قالوا عني قولاً سيئاً؛ اغتفري لي أخطائي واعتقدي دائماً أنني لا أرتكبها عمداً.

وعاد الهدوء إلى نفسه بعد هذه الخطبة الطويلة، فتأمل السيدة التي كانت تبدو جميلة، ظريفة إذا كانت على سجيتها وكان من تتحدث إليه لا يتكلف الظرف معها. ولو أنّ «چوليان» سئل عنها في هذه اللحظة لقال صادقاً: أراها لم تتجاوز العشرين من عمرها بعد، وهو خبير بجمال النساء.

وبدا له أن يقبّل يدها، لكنه سرعان ما ندم على فكرته وخشي مغبة عمله. على أنه قال في نفسه: لو أنني أحجمت عن هذا العمل لعددته جبناً، ومن يدريني لعلّ فيه خيراً لي، وربّما أكسبني احتراماً في نظر هذه السيدة التي تراني عاملاً بائساً خرج من المصنع منذ قليل.

وتردّد، ثم شجعه ما ذكره من أن بعض الفتيات كن يصفنه بالجمال، حين كان يلتقي بهنّ أيام الآحاد، وكان ذلك منذ ستة أشهر. وتكلمت «مدام دي رينال»، وهو في صراعه النفسي، ترشده إلى الطريقة التي يعلّم بها أولادها أول الأمر. وكان صراعه النفسي قد أعاد الشحوب إلى وجهه الجميل، فقال لها وهو يحاول التغلب على ما في نفسه:

- لا يا سيدتي، لن أضربهم أبداً: وأقسم لك على ذلك أمام الله، ثم اندفع وتناول يدها وقبّلها. وأذهلتها هذه الحركة فكادت تغضب. كان الجوّ شديد الحرارة، وذراعها عارية لا يسترها إلا لفاع، فانكشفت حين رفع «چوليان» يدها إلى شفتيه. ومرّت لحظات ندمت بعدها السيدة على أنّها لم تؤنبه على ما فعل.

كان «السيّد دي رينال» في غرفة عمله، فسمع كلاماً في الردهة، خرج بعده، وسار نحوهما في هيئة تدل على حنوّ وعظمة. سار في تلك الهيئة التي يصطنعها في حفلات الزواج في دار العمدية، ثم قال لچوليان.

- يجب أن أتحدّث إليك قبل أن يراك الأطفال.

ولما دخلا الغرفة معاً وأغلق الباب، احتجز زوجه التي كانت تريد أن تتركهما معاً، ثم جلس «دي رينال» في وقار وقال:

- أخبرني السيّد القس أنك من الرعايا المخلصين، وسيعاملك جميع من هنا معاملة كلّها احترام. وإذا سرّني عملك، ساعدتك فيما بعد في الحصول على منصب. أما الذي أطلبه منك، فهو ألا ترى بعد الآن أحداً من أقاربك أو أصدقائك، لأن لغتهم لا تتفق مع ما أبتغيه لأبنائي من تربية سليمة. هاك ستة وثلاثين فرنكا، أجرك عن الشهر الأول، وعدني بشرفك ألا تعطي منها شيئاً لأبيك.

كان العمدة مغيظاً من الشيخ سورل لأنه كان أكثر منه ذكاء ودهاء في إتمام هذه الصفقة. ثم استطرد يقول:

- والآن أيها السيد لا يحسن أن يراك الأطفال في هذه الملابس. وقد أصدرت أمراً بأن يدعوك كل من في المنزل بالسيّد، وستشعر بعد قليل بالنفع الذي يعود عليك حين تعمل في منزل قوم محترمين. ثم سأل زوجه:

- هل رآه الخدم في هذه الثياب؟ فأجابت وعليها دلائل تفكير شديد.

- كلا يا صديقي.

فتناول العمدة ردنجوتاً من ملابسه الخاصة وهو يقول:

– حسناً، إلبس هذا، وسنذهب معاً إلى مسيو دوران تاجر الأصواف. وانصرفا، ثم عادا بعد ساعة، والمعلم الجديد في حلة سوداء، ولما دخل دى رينال ألفى زوجته في مكانها لم تبرحه. ولشد ما اطمأنت، حين وقع بصرها على «چوليان» حتى نسيت وهى تنظر إليه أنها كانت من قبل منزعجة منه.

كان «چوليان» لا يفكر فيها الآن، وعلى الرغم من أنه يحذر الأقدار والرجال فإن روحه في تلك اللحظة كانت روح طفل عابث. وخيّل إليه أنه عاش سنوات طويلة منذ وقف مضطرباً في الكنيسة قبل ذلك بثلاث ساعات. وألقى نظرة على «مدام دى رينال» فألفاها ضجرة فأدرك أنها لا تزال غضبى منذ قبّل يدها؛ غير أن ثيابه الجديدة بعثت في نفسه زهواً شديداً، لأنها تغاير ما اعتاد أن يلبسه من قبل، فكانت حركاته صاخبة جنونية، وحاول عبثاً أن يخفي فرحه، فأخذت السيدة تنظر إليه في دهشة وحتى قال له زوجها:

– عليك بالرزانة يا سيدي إذا أردت أن يحترمك الأطفال والخدم.

فقال له چوليان: معذرة يا سيدي، فإن الحلة الجديدة تضايقني فما كنت ألبس من قبل إلا ملابس الفلاحين الفقراء. أتسمح لي بالذهاب إلى غرفتي لأغلق عليّ الباب؟

وانصرف فسأل العمدة زوجه: ماذا ترين في هذا الكسب الجديد؟ فأشارت إليه إشارة أملتها عليها الغريزة، دون أن تفطن، ثم أخفت الحقيقة عن زوجها حين قالت:

– لست متحمسة مثلك لهذا الشاب الريفي، وإن مباداتك إياه بالبشاشة والكرم ستخلق منه شخصاً سيئ الخلق تضطرّ إلى طرده قبل أن يمضي على إقامته معنا شهر واحد.

– حسناً! سنرى ما تقولين، وإذا تحقق ظنك فلن أخسر في هذه التجربة إلا مائة فرنك فقط، على أن ڤريير ستعتاد أن ترى أطفال «السيد دى رينال» مع معلم خاص بهم. وهذا الغرض الذي أرمي إليه لا يتحقق إن تركت «چوليان» فى ملابس العمال. وإذا طردته، فسآخذ، ولاشك، الحلة السوداء الجديدة التي اشتريتها له من تاجر الصوف؛ ولن أترك له إلا ما وجدته عند الحائك وهو ما يلبسه الآن.

خيّل إلى «مدام دى رينال» أن الساعة التي قضاها «چوليان» في غرفته دهراً طويلاً، لأنّ أطفالها الذين علموا بقدوم معلمهم الجديد أرهقوها بوابل من الأسئلة، وأخيراً ظهر «چوليان»، فكان رجلا آخر، لم يكن رزيناً فحسب وإنما كان الرزانة بعينها. وقُدّم إلى الأطفال فتحدث إليهم حديثاً أذهل «السيد دى رينال» نفسه. وقبل أن يفرغ من حديثه قاللهم:

– لقد جئت إليكم لأعلمكم اللغة اللاتينية. وأنتم تعلمون، ولا شك، كيف يُلقي الإنسان درساً حفظه سأستمع غالباً إلى دروسكم فاستمعوا الآن إلى درسي. هذا الكتاب الصغير الأسود هو الكتاب المقدّس الذي يتحدث عن حياة سيدنا عيسى. إنه الجزء من

الإنجيل الذي يسمّى العهد الجديد. ثم أعطى الكتاب أدولف أكبر الأولاد سناً وقال له:

- افتح الكتاب في أي مكان، وقلْ لي الكلمة الأولى في أي جزء من الأجزاء، وسأتلو عليك ما تشاء مما حفظت من هذا الكتاب المقدس الذي يعد مثلنا الأعلى في الحياة، وسأقرأ حتى تكتفي بما أقرأ.

ففتح أودلف صفحة ثم قرأ كلمة، وأخذ «جوليان» يتلو حتى انتهى من الصفحة كلّها في يسر كبير، كما لو كان يتحدث بالفرنسيّة.عندئذ ألقى دى رينال على زوجه نظرة اغتباط وفوز. ورأى الأطفال حيرة أبويهم فذهلوا كذلك. ووقف خادم بباب الصالون، فسمع «جوليان» يتحدث باللاتينية، فأنصت لا يبدى حراكاً، ثم غاب عن الأبصار؛ ثم جاءت بعد قليل وصيفة «مدام دى رينال» والطاهية، ووقفتا بالباب. وكان أدولف حينذاك قد فتح الكتاب في ثمانية مواضع مختلفة، و«جوليان» يتلو كما بدأ في سهولة ويسر، عندئذ صاحت الطاهية في صوت مسموع:

- آه! يا إلهي! يا له من قسّ ورع جميل!

سُرّ «السيد دى رينال»، إلا أن كرامته قد جرحت، فأخذ يبحث في ذاكرته عن بضع كلمات لاتينية، غير مبتغ أن يمتحن معلّم أولاده، وأخيراً استطاع أن يتذكر بيتاً من شعر هوراس فأنشده. وعندئذ قطّب «جوليان» حاجبيه، لأنه كان لا يعرف إلا لاتينية إنجيله ثم قال:

- لقد حرَم عليّ الكهنوت أن أقرأ شعر هذا الشاعر الدنيويّ الدّنس.

وأنشد «السيد دى رينال» مرّة أخرى لهوراس، ثم تحدّث عنه لأطفاله؛ لكنّ إعجابهم بجوليان كان بالغاً فلم يلتفتوا إلى ما يقوله أبوهم، ولم يحولوا نظراتهم عن معلمهم الجديد.

كان الخدم لا يزالون واقفين بالباب، فأراد «جوليان» أن يؤثر في نفوسهم تأثيراً عميقاً لينال إعجابهم أكثر مما فعل، فقال لأصغر الأطفال: يجب أن تقرأ كلمة من هذا الكتاب لأتلو عليك بعض الفقرات. فازداد زهو ستانيسلاس كزاڤييه، وعالج قراءة كلمة حتى أفلح بقدر ما استطاع، فتلا «جوليان» صفحة كاملة. وكان انتصار «السيد دى رينال» كبيراً حين دخل عليه في تلك اللحظة السيد ڤالنو صاحب الجياد النورماندية، والسيد شاركودى موجيرون وكيل حاكم المقاطعة، فسمعا «جوليان» وهو يتلو الإنجيل عن ظهر قلب، فاستحق المعلم عن جدارة لقب سيد، ولم يجرؤ الخدم أن يضنوا عليه به.

وفي المساء أقبل كثير من أهل ڤريير إلى منزل «السيد دى رينال» ليروا بأنفسهم هذه المعجزة الخارقة، فكان «جوليان» يجيب عن أسئلتهم في إيجاز واعتزاز كبيرين. وسرعان ما أخذ الناس يتحدثون عنه في المدينة كلها حتى ذاع صيته، وحتى خشي «السيد دى رينال» أن يختطفه أحد الأغنياء، فاقترح عليه أن يوقع عقداً بعامين، إلاّ أن

«چوليان» قال في فتور:

- لا ياسيدي، لو أحببت أن تطردني لخرجت على الرغم مني، فالعقد الذي يقيّدني دون أن يقيدك بشئ عقد جائر لا أوافق عليه.

ولم يكد يمضى شهر على إقامة «چوليان» عند العمدة، حتى أصبح يتمتع منه باحترام كبير، لأنه كان يؤدي واجبه على أكمل وجه. وفسد الأمر بين القسيس الشيخ وبين «دى رينال» وڤالنو، فلم يعد «چوليان» يخشى من افتضاح سرّه القديم، وهو تحمسه لنابليون، الذي أصبح يتحدث عنه الآن بكل كره وازدراء.

الفصل السابع
التقارب المعيشي

لا يستطيع الناس أن يمسوا القلوب مساً رقيقاً دون أن تصيبها أيديهم بسوء

كاتب حديث

أحبّ الأطفال معلمهم حبًا شديداً، أما هو فلم يحبهم لأنه مشغول عنهم بأشياء أخرى. على أنه لا يضجر أبداً مما يفعلون. كان مرناً عادلاً، ثبت الجنان، محبوباً، لأن إقامته في منزل دى رينال خلقت له لوناً من البهجة لم يعتده من قبل، وفوق ذلك كله، كان معلماً ناجحاً. غير أنه كان يشعر في حياته الجديدة بالكراهية والاحتقار لتلك الطبقة التي يسمونها الطبقة الراقية. كان يجلس إلى الطرف الأسفل من المائدة، وربّما كان هذا سبب ما في نفسه من كره لهم. تقام في المنزل حفلات، يقدم فيها الطعام تظاهراً وفخراً، فيبذل «جوليان» جهداً كبيراً ليكبت كراهيته للحاضرين جميعاً. وحدث أن كان السيد ڤالنو يلعب النرد مع «السيد دى رينال»، في يوم القديس لويس، وهو يوم من الأيام الكثيرة التي يتردد فيها ڤالنو على منزل العمدة، فكاد يفتضح أمر «جوليان» في ذلك اليوم، لولا أن فرّ إلى الحديقة بحجة أن يرى الأطفال. وأخذ يحدث نفسه: يا له من ثناء مستطاب، يسمعه المرء فيظن العمدة الفضيلة بعينها! وهو لا يعدو أن يكون تبجيلاً وضيعاً واحتراماً رخيصاً! لأن ذلك الرجل قد ضاعف ثروته أو زادها إلى ثلاثة أمثالها منذ أن بدأ يشرف على أموال الفقراء! وأنا لا أشك في أن يده تمتد إلى أموال اللقطاء[1] الذين هم في أشد الحاجة إلى المعونة والإحسان! آه! يا لهم من وحوش! تبًا لهم من قساة جشعين! وأنا من أكون؟ إنني لقيط أيضاً، لأن أبي وإخوتي وأسرتي يكرهونني!

كان «جوليان» قبل يوم القديس لويس ببضعة أيام يتنزه وحده في غابة صغيرة يسمونها بلڤيدير (المنظر الجميل)، مطلّة على ممرّ الإخلاص ويقرأ في كتاب الصلوات، فرأى على بعد أخويه مقبلين، ولم يتمكن من أن يبتعد عن طريقهما، حتى لا قياه، فكانت غيرة هذين العاملين الفظين من أخيهما شديدة لا تحتمل، لأنه نظيف في ملابسه الجميلة السوداء، وهو ينظر إليهما في ازدراء شديد. من أجل ذلك انهالا عليه ضرباً، ولم يتركاه إلا مغشيا عليه، تسيل منه الدماء.

---

(١) في نسخة مخطوطة كتب (ستندال) عبارة توضح فكرته فقد أضاف قائلا: «كانوا يسرقون أربعة ملايين من الفرنكات باسم الأطفال اللقطاء». «المعرب».

وبعد قليل، مرت «مدام دي رينال» تتنزه مع ڤالنو ونائب الحاكم في هذه الغابة الصغيرة، فارتاعت كثيراً حين رأته ممدداً على الأرض، وظنت أنه فارق الحياة. وقد بعث خوفها عليه غيرة شديدة في نفس ڤالنو. وهكذا ارتاع ڤالنو قبل الأوان، مع أن «چوليان» كان يرى «مدام دي رينال» رائعة الجمال، ويكرهها لروعة جمالها. وهذه هي الصخرة الأولى التي كادت تصطدم بها مشروعاته في سبيل الحياة والثروة. كان لا يتحدث إليها إلا قليلا، حتى ينسيها ما أقدم عليه من تقبيل يدها في أول يوم قدم إلى منزلها.

أما إليزا وصيفة «مدام دي رينال» فقد أحبت هذا المعلم الشاب، وكثيراً ما كانت تتحدث عنه إلى مولاتها، وقد سبب حبها هذا كراهة أحد الخدم لچوليان، الذي سمع الخادم يتحدث إلى إليزا قائلاً:

– لم تعودي ترغبين في التحدث إليّ، بعد أن وفد علينا هذا المعلم القذر. ولم يكن «چوليان» في الواقع يستحق هذه الإهانة. إلا أن شعوره بجماله جعله يضاعف العناية بهذه الوصيفة. وأصبح ڤالنو كذلك يكرهه كثيراً. وطالما أعلن على الملأ أنّ الحرص على أناقة الملبس لا تتفق مع الروح الدينية التي يبغيها هذا الشماس الشاب. وكان «چوليان» يلبس حلة تقارب ثياب الكهنة.

لحظت «مدام دي رينال» أنّ «چوليان» يطيل الحديث في كثير من الحالات مع إليزا، ثم أعلمت بعد ذلك أنّ هذه الأحاديث الطويلة كانت لحاجته الشديدة إلى الملابس. لقد كان قليل الثياب، ولذلك كان يضطر غالباً إلى غسلها خارج المنزل، ومن يقوم له بهذا العمل الجليل غير إليزا ؟!

وفاضت نفس «مدام دي رينال» بالعطف عليه لما عرفت فقره المدقع، وودّت لو قدمت إليه بعض الهدايا، ولكن كيف السبيل؟ واعتركت في صدرها عوامل تتصارع، نشأ منها أولُ ألم سبّبه لها «چوليان». وكان من قبل، مرادفاً عندها لمعنى السرور البريء واللذة العقلية. وألح عليها الأمر وضايقها ما فيه «چوليان» من فقر شديد، ففاتحت زوجها وطلبت منه أن يقدم إلى المعلم بعض ثياب على سبيل الهدية. فما كان جوابه إلا أن قال:

– إنّ من الغفلة أن نقدم هدية إلى رجل يفنى في عمله، ولا نرى منه إلا الإخلاص والغيرة! لن نقدم إليه شيئاً إلا حين يفتر نشاطه فيكون هذا بمثابة حافز له على العمل.

فغضبت واشمأزت من طريقة تفكيره التي لم تدركها قبل أن يعيش معهم «چوليان» ؛ وأصبحت كلما رأت نظافة ثيابه البسيطة لا تتمالك أن تسائل نفسها: ماذا عسى أن يفعله ذلك الشاب المسكين، وكيف يعيش بهذا المال القليل؟ أصبحت تشفق عليه شيئاً فشيئاً وتأسى لفقره، لا تتضايق منه ولا تستاء.

إن «مدام دي رينال» من أولئك اللائي يعشن في الريف، ويحسب من يخالطهن في الخمسة عشر يوماً الأولى أنّهن على شيء من الغفلة. كانت قليلة التجارب بأمور الحياة، ولا تعبأ إذا لزمت الصمت ؛ نفسها رقيقة تترفع عن الدنايا ولا تأبه كثيراً بما يقترفه أصدقاء

المصادفة من سخافات، فتمتعت بقدر طبيعيٍّ من السعادة يتمتع به الناس جميعاً.

ولو أنها أوتيت حظًا يسيراً من التعليم لصقلت نفسها القوية وسجاياها الطبيعية، ولكنها كانت وريثة ثروة، فتلقت تعليمها في دير القلب المقدس للمسيح على أيدي راهبات قانتات متعصبات، يكرهن الفرنسيين المناوئين لليسوعيين كراهية شديدة. وعلى الرغم من كل ذلك فقد نسيت ما تعلمته في ذلك الدير. وهدتها سلامة ذوقها إلى أن هذا النوع من التعليم هراء لا طائل تحته. نسيت التعليم القديم ولم تتلق جديداً فأصبحت لا تعرف شيئاً. وكانت منذ شبابها مدلَّلة تسمع الكثير من المدح والثناء، لأنها ترث ثروة طائلة، لكنها بفطرتها كانت شديدة التُّقى والإيمان، فاختطت نهجاً جديداً في الحياة: انطوت على نفسها، ودلت كل الظواهر على أنها مطيعة إلى أبعد حدّ، تفنى إرادتها في إرادة زوجها، فضرب الأزواج في ڤرييز لزوجاتهم بسلوكها الأمثال. وكان هذا ولا شك، مبعث زهو «السيد دى رينال». ثم هي، على الرغم من ذلك كلّه، ذات نفس كثيراً ما يغزوها الكبر وتستولى عليها العظمة. وكانت هذه الأميرة المتكبرة تهتم بما يقوله لها السادة الذين يحومون حولها وتنتبه إليه، وتعيه أكثر مما تعي تلك الزوجة الرقيقة المتواضعة في الظاهر ما يقوله لها زوجها أو ما يصدر عنه من أعمال. وقبل أن يدخل «چوليان» في حياتها، لم تكن تهتم حقاً إلاّ بأطفالها ولا تصغى إلاّ إليهم: تُشغل بأمراضهم وأفراحهم وأتراحهم أكثر مما تشغل بأي شيء آخر في الحياة. ولم تعبد حقاً إلا الله أيام أن كانت في دير القلب المقدس ببيزانسون. وإذا أصيب أحد أبنائها بالحُمى، تألمت له كثيراً كما لو كان قد فارق الحياة. وهي مع كل ذلك لا تقف أحداً من الناس على حقيقة مشاعرها.

درجت «مدام دى رينال» في السنوات الأولى من حياتها الزوجية على أن تكاشف زوجها بكل ما يدور في نفسها من مخاوف على أبنائها. وكانت إجاباته دائماً على نمط واحد؛ يضحك ضحكة خشنة أو يهز كتفيه، ثم يقول بعض عبارات مرذولة عمّا يسميه جنون النساء حين يشفقن على أبنائهن. فتزيد هذه الدعابات الثقيلة ألمها حين تصدر من زوجها وأحد أبنائها مريض. وهذا هو لون المعاملة التي لقيته في حياتها الزوجية، بعد أن أعتادت الإطراء العذب والثناء المعسول في دير اليسوعيين الذي قضت شبابها فيه.

كان تعليمها مطبوعاً بطابع الألم، وعزة نفسها لا تسمح لها بأن تبوح بألمها حتى إلى صديقتها مدام درڤيل، وظنت أن جميع الرجال يشبهون زوجها أو السيدين ڤالنو وشاركودى موچيرون نائب الحاكم، أولئك الذين لا يصدر عنهم إلا الفظاظة والغلظة والوحشية في كل ما لا يدرّ عليهم مالاً أو يعطيهم حق الصدارة أو يجلب لهم وساماً. وكانوا يكرهون كثيراً من يخالفهم في الرأي، فأصبحت «مدام دى رينال» تعتقد أن هذه صفات لازمة للرجال جميعاً، ضرورية لهم كالأحذية والقبعات الصوفية تماماً. وعاشت «مدام دى رينال» سنوات طويلة مع عَبَدة المال. قضت عليها الحياة أن تعيش مع أشخاصهم، لكنها عاشت بمنأى عن أخلاقهم.

وكان هذا سرّ النجاح الذى لقيه «چوليان» الشاب الريفي حين بدأ يعيش في منزلها، فقد أخذت «مدام دى رينال» تحس لوناً جديداً من الحياة، فيه كثير من الظرف واللذة.

رأت نفساً شريفة عزيزة فشعرت نحوه بميل لم تعهده من قبل. وسرعان ما اغتفرت له جهله بكثير من الأشياء، وأصبح جهله في نظرها بعد ذلك مبعث ظرف ومثار أعجاب. ثم استطاعت أن تقوّم من حركاته الخشنة الفجائية. وقد وجدت لّذة في الاستماع إليه، ولو تناول الحديث أشياء عادية تافهة كمقتل كلب تحت عربة فلاح كانت تسير بسرعة. كان هذا المنظر المؤلم لا يثير في زوجها إلا قهقهة عالية، أما «چوليان» فكان حاجباه الأسودان الجميلان ينقبضان في تأثر وحزن. ومرّت الأيام، فأصبحت «مدام دى رينال» تعتقد أن شرف النفس والمشاعر الإنسانية وكرم الأخلاق لا محلّ لها إلا عند هذا الشاب الريفي، فزاد إعجابها به وأصبح محببًا إلى نفسها بقدر ما تخلق هذه الفضائل من قوة في النفوس الكريمة.

ولو أنهما كانا يعيشان معاً فى پاريس، لكان سلوك «چوليان» نحوها سهلاً واضحاً لا تعقيد فيه، لأن الحب في پاريس وليد القصص. وإذاً لوجد هذا المعلم الشاب في تلك القصص الخطة التي ينبغي له أن يتبعها مع سيدة طبعت على الخجل؛ نعم لو كانا يعيشان في پاريس لرسمت لهما الروايات أو بعض أشعار جيمناز الدور الذي يقوم به كلّ منهما، ولرسمت للشاب المثل الذي يحتذيه، والطريق الذي يترسمه، وإن خلا من سرور، فإن كبرياءه تفرض عليه أن يمضي فيه مهما يجد من عنت وصدّ.

أمّا في المدن الصغيرة من مقاطعتي أڤيرون أو البرانس، فإن أقلّ حدث يؤدي إلى النتيجة الأخيرة بفضل شدة الحرارة هناك. وأمّا في المدن التي تظلها الغيوم وتحجب سماءها السّحب، فإن الأمور تسير فيها في هوادة وبطء. ونحن هنا نرى شاباً فقيراً طموحاً، دفعته رقة نفسه إلى أن يبحث عن المال ليحقق بعض لذّات لا تتاح إلا لذوي الثراء، ويقع بصر هذا الشاب كلّ يوم على امرأة في الثلاثين من عمرها، وهي حقاً عفيفة شريفة مشغولة بأطفالها، ولا تحاول أبداً أن تتخذ من نماذج القصص مثلاً تحتذيها في حياتها. وفي الريف تتمّ الأمور رويداً رويداً وتسير الهوينا، وهذا يجعلها دائماً أميل إلى طبيعة الأشياء.

كانت «مدام دى رينال» حينما تفكر في فقر هذا المعلم تأخذها عليه الشفقة، حتى تسيل من عينيها الدموع. وباغتها «چوليان» يوماً وهي تبكي فقال لها:

– ماذا بك يا سيدتي؟ أأنت حزينة من شيء؟

– لا يا صديقي، أرجوك أن تستدعي الأطفال، وهيا بنا نتنزه. واستندت إلى ذراعه، وضغطت عليه بصورة لم يعتدها من قبل، فعجب وبخاصة لأنها قالت له لأول مرة: يا صديقي.

ولمّا كادوا يفرغون من نزهتهم، رأى «چوليان» وجهها وقد صبغته حمرة شديدة،

ورآها تبطئ في سيرها وتتحدث إليه دون أن تنظر إلى وجهه وتقول:

- لعلّك سمعت قبل ذلك أنني الوريثة الوحيدة لعمة ذات ثراء واسع تعيش في بيزانسون، وهي تغدق عليّ عطايا كثيرة. وقد تقدم أولادي تقدّماً كبيراً، ومن أجل ذلك أرجو أن تتقبل مني هدية صغيرة تدل على اعترافي بفضلك. إنه مبلغ زهيد أعرضه عليك لتشتري به ملابس لنفسك، ولكن ... .

ثم سكتت وزاد وجهها احمراراً فقال «چوليان»:

- ولكن ماذا يا سيدتي؟ فطأطأت رأسها قائلة:

- يحسن بك ألاّ تتحدث إلى زوجي عن هذا.

فأجابها وقد توقف عن المسير، والغضب يبدو في عينيه، وهو تحت سيطرة الكبرياء:

- أنا فقير يا سيدتي ولكنني لست وضيعاً، ويخيل إليّ أنك لم تدركي ذلك من قبل. ولو أخفيت عن زوجك شيئاً يتعلق بالمال، لكنت بذلك كأقل خادم في منزلكم.

فحزنت «مدام دى رينال» ولكن «چوليان» واصل حديثه:

- إنّ سيدي العمدة أعطاني منذ عشت معكم خمس مرات مبلغ ستة وثلاثين فرنكاً، وأنا على أتم استعداد لأن أطلع العمدة على الكراسة التي أقيد فيها نفقاتي كلها، أطلعه هو أو من يشاء من الناس حتى ولو كان السيد ڤالنو، الذي أعلم أنه مغيظ مني حانق عليّ!

وانتهت النزهة دون أن يستطيع أحدهما التحدث إلى الآخر أو أن يجد إلى الكلام سبيلاً. وظلت «مدام دى رينال» بعدها مضطربة شاحبة الوجه؛ وأوحى إلى «چوليان» قلبه المتكبر أنه لن يستطيع التعلّق بحب هذه السيدة؛ وأمّا هي فقد احترمته وأكبرته وأعجبت به، وأخذت تؤنب نفسها على مافعلت. ثم أرادت أن تصلح خطأها الذي جرحت به شعور صديقها دون أن تقصد، فأقبلت عليه تعنى به عناية شديدة في رقّة وعطف، ووجدت في ذلك لذة كبيرة، وشعرت بسعادة لا حدّ لها ثمانية أيام كوامل، واستطاعت أن تهدئ بعض الشيء من ثورة صديقها الذي ما كان يرى في عنايتها به إلاّ أنها تخضع لما تمليه عليها طبيعتها. وطالما حدّث نفسه قائلاً: هذه عادة الأغنياء، يزدرون الناس ثم يظنّون بعد ذلك أنهم يصلحون كلّ شيء بما يأتونه من أعمال تافهة!

فاضت نفس «مدام دى رينال» -وكانت تؤمن بأنها خالصة النية حين اقترحت على «چوليان» أن يتقبّل منها هدية يسيرة- فلم تستطع أن تخفي عن زوجها ما دار بينها وبين المعلم من حديث، فعجب زوجها ثم قال كمن جرحت كبرياؤه:

- وكيف استطعت أن تسمحي لخادم بأن يرفض لك طلباً؟

فصاحت في دهشة كبيرة، قال لها العمدة على إثرها:

- إنّني أتحدث إليك يا سيدتي كما تحدّث الأمير كونديه إلى زوجه الجديدة وهو يقدم

لها حجّابه إذا قال لها: «هؤلاء الناس جميعاً خدمنا» ولقد قرأت عليك هذه الفقرة من مذكرات بيزنڤال، وهي فقرة لا ينبغي لنا أن ننساها وهو يقول: «كل من لا ينتمي إلى طبقة الأشراف، ويعيش في منزلك ويتلقّى منك أجراً يعدّ خادماً لك» سأتحدث إلى هذا السيد «چوليان» ثم أعطيه بعد ذلك مائة فرنك.

فاضطربت «مدام دى رينال» اضطراباً شديداً ثم قالت:

– آه يا صديقي! أرجو ألاّ يكون هذا على مرأى وسمع من الخدم!

فأجابها وهو يغادرها مفكراً في جسامة المبلغ:

– أنت على صواب، فربما دبّ في نفوسهم الحسد، ويحقّ لهم أن يحسدوه.

ولم يكد «السّيد دى رينال» يغادر الغرفة حتى سقطت زوجه فوق كرسي، وكاد الألم يفقدها رشدها، ثم أخذت تحدث نفسها قائلة:

– هأنذا سأكون سبباً في جرح كبرياء «چوليان» مرة أخرى! وكرهت زوجها في هذه اللحظة أشدّ الكراهية، ثم أخفت وجهها بين يديها، وأخذت على نفسها ألاّ تتحدث إليه بعد ذلك بما يجول في نفسها من خواطر، أو ما تكنّه في قلبها من أسرار. وحينما رأت «چوليان»، كانت لا تزال شديدة الاضطراب، قد استولى الجزع على نفسها فلم تستطع أن تقول له شيئا، ووقعت في حرج شديد فأخذت يديه بين يديها وضغطت عليهما قائلة:

– حسنا يا صديقي، أ أنت مسرور بما فعل زوجي؟ فابتسم ابتسامة مرّة ثم قال:

– ولم لا وقد أعطاني مائة فرنك؟ فنظرت إليه نظرة المرتاب، ثم تشجّعت وقالت:

– هات ذراعك يا صديقي. فدهش لأنه لم ير فيها من قبل هذه الشجاعة. لقد أقدمت «مدام دى رينال» على الذهاب لأول مرة في حياتها إلى صاحب مكتبة ڤريير، وهو رجل سيئ السمعة في البلد كلها لأنه من الأحرار؛ ذهبت إليه واشترت منه كتباً دفعت فيها عشر لويسات، ثم وزعتها على أبنائها. وطلبت إلى كلّ منهم أن يكتب اسمه على الكتب التي تخصّه قبل أن يغادروا المكتبة، على حين كانت تعلم أنّ «چوليان» يودّ لو استطاع قراءة هذه الكتب. فعلت ذلك وكانت سعيدة بما فعلت، لأنها اعتقدت أنها أصلحت بعض الخطأ الذي وقعت فيه. كلّ ذلك و«چوليان» ينظر في دهشة كبيرة إلى الكتب الكثيرة المكدّسة فى هذه المكتبة. ولم يكن يفكّر مطلقاً في أن تطأ قدماه هذا المكان الدّنس، فاضطرب قلبه، ولم يشعر بما كان يشغل نفس «مدام دى رينال»، لأنّ ذهنه محصور في معرفة الطريقة التي يستطيع بها طالب اللاهوت الحصول على بعض الكتب التي يراها أمامه. وأخيرا خطر له أن يستعمل المهارة مع «السيد دى رينال» فيقنعه بأن أبناءه في حاجة إلى معرفة تاريخ مشاهير الرجال ذوي المحتد الكريم ممن ولدوا في الريف. فكّر في هذه المحاولة، وحدّث بها العمدة شهراً كاملاً، حتى انتزع منه الموافقة انتزاعا؛ ونجح مشروعه نجاحاً باهراً، فتمكنّ بعد قليل من أن يحمل «دى رينال» على الاشتراك في

مكتبة هذا الرجل الذي عرف بميول واتجاهات تخالف ما فطر عليه عمدة ڤريير الذي يساهم الآن بنصيب في جلب الثروة لمناهض له في المبادئ. ثم وافق على أنّه من الحكمة أن يطلع ابنه الأكبر على كثير من الكتب التي سيسمع اسمها حين يدخل المدرسة الحربية، لكنّه لم يوافق على أكثر من ذلك، ففطن «چوليان» إلى أنّ هناك أمراً لم يستطع أن يدرك كنهه، وذات يوم قال للعمدة:

– يخيل إليّ يا سيدي أنه لا يليق بكرامة فرد من أسرة دى رينال أن يكتب اسمه في هذا السجل القذر، سجلّ المكتبة. فضحكت لذلك أسارير العمدة، على حين استطرد «چوليان» في ضراعة وخشوع: كما أنّه لا يليق أن يكتب اسم طالب فقير في علم اللاهوت في هذا السجل، فهذا يشينه، ولو اكتشف الأحرار اسمي في دفتر رجل يؤجّر الكتب لاتهموني بأني كنت أستعير الكتب المخلة بالكرامة والشرف؛ وربّما ذهبوا إلى أبعد من هذا، فكتبوا عناوين هذه الكتب اللعينة أمام اسمي. وحمل هذا الاستطراد «چوليان» على أن يبتعد عمّا كان يرمي إليه. فقطّب العمدة وجهه من جديد، وبدأ الشك يساوره، فسكت «چوليان» ولم يشأ المضيّ في حديثه، لكنه قال في نفسه: إنّني لقدير على أن أوجّه هذا الرجل إلى حيث أريد.

ومضت أيام، فسأل الولد الأكبر معلّمه في حضرة أبيه عن كتاب أعلن عنه في صحيفة أخبار اليوم فقال «چوليان» مخاطبا الأب:

– لكي نتخلّص من مضايقات اليعقوبيين، ولا نتيح لهم أن ينتصروا علينا، أرى أن نكل إلى أقلّ رجالك شأنا أمر الاشتراك في المكتبة، فتصبح بين يدي المراجع التي أعتمد عليها في الإجابة عن أسئلة مسيو أودلف. فسرّ العمدة بذلك سروراً كبيراً ثم قال:

– لا بأس بهذا الرأي. فاصطبغ وجه «چوليان» بوقار لا يخلو من ذلّة ومسكنة تلائم الذين يحققون بعد لأي ما تصبو إليه نفوسهم، ثم قال:

– على أنّه يجب أن نتخيرّ الكتب، فينبغي للخادم ألاّ يحضر الروايات، لأنّها نوع خطر يفسد أخلاق بنات سيدتي وأخلاق الخدم أنفسهم. فقال له العمدة في عظمة وكبرياء:

– ولا تنس أيضاً الرسائل السياسية. وكان الأب يرمي من وراء هذا ألاّ يبدي إعجابه بالآراء التي تصدر عن معلم أولاده. وكذلك أصبحت حياة «چوليان» سلسلة من مفاوضات هيّنة كتب له التوفيق فيها، فشغله النجاح عن أن يقرأ في قلب «مدام دى رينال» ما سُطّر له فيه من عواطف حب وإجلال وإعجاب لا يستطيع أن يقرأها سواه.

وتجدّد في نفسه شعور قديم فطر عليه: كان يكره عمدة ڤريير ولو أنه مقيم في منزله، مشرف على تعليم أولاده. ومثله في هذا هو مثله في الفترة التي أقامها في مصنع أبيه يكره والده وأخويه وهم كذلك يكرهونه. وكان كلّ يوم يسمع قصصاً وآراء مختلفة يرويها العمدة والسيد ڤالنو ونائب الحاكم وغيرهم ممن يترددون على منزل «دى رينال»، فيراها مغايرة للحقيقة كلّ المغايرة، لأنّ ما يتحدثون عنه وقع تحت سمعه وبصره.

وإذا أعجب هو بشيء خالفوه، وصبّوا اللعنات على ما أعجب به، ولم يكن يردّ على كل ذلك إلاّ بصيحة داخلية تتردد في نفسه: يا لهم من حمقى ويالهم من شياطين!...
والغريب في أمره أنه لم يكن يستطيع أن يدرك بدقة كثيراً ممّا يدور حوله الحديث، على الرغم مما فطر عليه من عزة وكبرياء. لم يعتد من قبل أن يتحدث في صراحة إلاّ مع الجراح العجوز، فكانت الآراء القليلة التي يعرفها لا تعدو بعض معلومات عن حروب نابليون في إيطاليا، أو معلومات عن الجراحة. فكان يتحدّث عن العمليات الخطيرة مطنباً، كما يتحدّث شاب تدفعه شجاعته إلى أن ينزع الخوف من قلبه.

وبدا «لمدام دى رينال» يوما أن تتحدّث إليه في أشياء لا تتعلّق بتعليم الأطفال، فحدّثها عن العمليات الجراحية، فاصفرّ لونها ورجته ألاّ يمضي في حديثه.

كان هذا هو اللون الوحيد الذي يحسن «چوليان» التحدث عنه، من أجل ذلك كان يسود صمت طويل كلّما جلس إلى «مدام دى رينال». أمّا إذا جلس مع غيره من الرجال في الصالون، فإن السيدة كانت ترى في نظراته سمواً عقلياً لا يتاح لغيره من الحاضرين على الرغم من حقارة مظهره... وعلى نقيض ذلك إذا خلت به في أي مكان، فإنها تحسّ اضطراباً شديداً يخالج نفسه، فتتقلق لذلك لأنّ غريزتها النسوية أوحت إليها أنّ اضطرابه لا تبعثه فيه عاطفة رقيقة.

ولا تزال في ذهن «چوليان» فكرة تردّدها الطبقة الراقية، وعلمها من صديقه الجراح العجوز، هى أنه إذا اجتمع رجل وامرأة وساد بينهما الصمت، كان الذنب في ذلك ذنب الرجل وحده. فلحق «چوليان» من ذلك خزيٌ شديد تزايد إحساسه به كلّما انفرد «بمدام دى رينال».

وعلى الرغم من خياله الخصب الذي كان يمدّه بآراء مبالغ فيها، ذات طابع فكريّ أسباني، يستطيع الرجل أن يقولها لسيدة حين ينفرد بها، على الرغم من كل هذا كان لا يجد شيئاً يقوله «لمدام دى رينال» إلا بعض آراء تافهة. كانت نفسه دائمة التحليق، ولكن لسانه لا يجد ما يقول. وهو لذلك دائم العبوس في النزهات الطويلة التي يقضيها معها ومع أطفالها. كان فريسة لآلام نفسية شديدة زادته عبوساً وتقطيباً. فاحتقر نفسه لذلك؛ وإذا واتته الشجاعة وقال لها شيئاً جاء غثاً تافهاً.

ومما زاد الطين بلّة حساسيته التي تريه تفاهته وتغالي له فيها، حتى نسي «چوليان» وجهل تماماً أن له نظرات قوية تبعثها عينان جميلتان، نظرات توحي بمعان سامية تغنى بها النفس، هي كنظرات البارعين من الممثلين تضفي في بعض الأحيان جمالاً على ما لا جمال فيه.

ولحظت «مدام دى رينال» أنه لا يُحسن الكلام، إذا انفردت به، إلاّ إذا كان ذهنه منصرفاً للتفكير في شيء آخر، فهو لا يحاول أن يزين حديثة ليثني عليها؛ ولم يعتد المترددون على منزلها من الرجال أن يتحببوا إليها بما يُسمعونها من آراء جديدة طريفة،

ولذلك كانت تستمع في لذة كبيرة بخواطر «چوليان» السريعة التي كان يبديها.

ومنذ أن سقط ناپليون، أختفت جميع مظاهر الظرف والرقة من أخلاق الناس في الريف، وخشيّ كلّ إنسان أن يفتضح أمره إذا هو تظرف. ووجد الخبثاء دعامة قوية في جمعيات المؤاخاة، وصادف النفاق مرتعاً خصباً في جميع الطبقات والأحزاب، واستطاع كذلك أن يشقّ طريقه بين صفوف الأحرار. وعمّ الناس سأم، وانحصرت لذّاتهم في القراءة والزراعة.

نشأت «مدام دى رينال» غنية بفضل ميراث تركته لها عمة تقية، فتزوجت في السادسة عشرة من عمرها بسيّد من سادات قومه، من أجل ذلك لم تر في حياتها ولم تحسّ إطلاقاً ما يسمونه الحب، اللّهم إلا ما كانت تسمعه عنه من فم القسّ الورع الأب شيلان، حين كان يحدّثها عنه وهي تعترف له بمضايقات السيد ڤالنو لها - وكان القس يصوّر الحبّ لها في صورة كريهة، حتى أصبح اسمه يرادف في نفسها معنى الإباحية والانحلال. أما ما قرأته عن الحبّ في روايات قليلة وقعت بين يديها، فقد كان في نظرها شيئا خارقاً للعادة، لا وجود له في حياة الإنسان. وكانت سعيدة كل السعادة بجهلها، ولم تجد في نفسها لوماً أو عتاباً لعنايتها الشديدة بچوليان.

الفصل الثامن

حوادث صغيرة

حينذاك كانت هناك تنهدات زادها الإخفاء عمقاً،
ونظرات مختلسة زادها الاختلاس حلاوة، واحمرار
خجل ملتهب من غير ما خطيئة..

دون جوان: الفصل الأول، فقرة ٧٤

لمدام دي رينال ظرف ملائكي مستمدّ من خلقها وسعادتها في حياتها الحاضرة، يلازمها دائماً إلاّ إذا فكّرت في وصيفتها إليزا. كانت هذه الفتاة قد ورثت بعض المال، فذهبت إلى القس شيلان، واعترفت بأنها تريد أن تتزوج «چوليان» : فشعر القس بلذة لما توقعه من سعادة لصديقه الشاب : لكنه كاد يصعق حين أخبره «چوليان» في إصرار بأنه لا يقرّ مشروع إليزا فقطب القسيس حاجبيه وقال:

– كن على حذر يا بنيّ مما يدور الآن في نفسك : ولا يسعني إلاّ أن أهنئك بتقواك، إذا كان الورع وحده هو الذي حملك على رفض ثروة كهذه تعدّ ثروة كبيرة. ولقد مضى عليّ الآن ست وخمسون سنة وأنا قسّ ڤريير، والقرائن كلّها تدلّ على أني سأعزل من هذا المنصب عن قريب، وسيسبب لي فصلي حزناً عميقاً وإن بلغ دخلي في العام ثمانمائة فرنك. أقول لك هذا لتحتاط لأمرك، ولكيلا تبني في الهواء قصوراً باعتقادك أنك ستكون غنياً إذا صرت قسيساً. أما إذا فكرت في أن تتملق العظماء من أولي الأمر، فثق أنك مضيّع نفسك إلى الأبد. في مقدورك أن تصبح غنياً، ولكنّ الوسيلة إلى الغنى هي في أن تطمع في أموال الفقراء والمساكين، وأن تتقرب إلى العمدة ونائب الحاكم وكل ذي سلطان، وأن تكون طوع بنانهم، تنزل دائماً عند رغباتهم وشهواتهم : هذا هو الخلق الذي يجوز أن يتّصف به رجل من رجال الدنيا ويسميه: فن معرفة الحياة. وقد لا يتنافى مع مسلكه في الحياة، أما نحن، رجال الدين، فعلينا أن نختار بين الغنى والجاه في الدنيا وبين السعادة الأبدية في الآخرة. أمران لا ثالث لهما : فاذهب الآن يا بني وفكّر في الأمر مليًّا، ثم عُدْ إليّ بعد ثلاثة أيام لتخبرني برأيك الأخير. أكاد ألمح في نفسك لوناً معقّداً من الحماسة يدلّني على أنك لن تكون قسيساً صالحاً، معتدلاً، زاهداً في متاع الدنيا. وأنا كثير التشاؤم من ذكائك، واسمح لي أن أقول لك في صراحة وصدق إنك لن تكون قسيساً صالحاً! قال الكاهن الطيب هذه العبارة الأخيرة والدموع تترقرق في عينيه. خجل «چوليان» من تأثره وضعفه، فقد رأى نفسه، لأول مرة في الحياة، محبوباً تحاول فتاة أن تفنى فيه : فبكي بكاء الفرح والغبطة، وهُرع إلى الغابات الواقعة فوق مستوى ڤريير

ليخفي هنالك دموعه عن الناس، ثم أخذ يتحدث إلى نفسه: لماذا أشعر بهذا الاضطراب؟ إنّي لأحس في قرارة نفسي أنّي على أتمّ استعداد لأن أضحي بحياتي من أجل هذا القس الطيب القلب، ولو أنه برهن لي منذ لحظة على أنني غرّ أحمق. إني أحاول أن أخدعه هو من دون الناس جميعاً، ولكنّ محاولتي لم تخف عليه. والحماسة التي أخفيها بين جوانحي هي سري الذي أحرص عليه، هي رغبتي في أن أكون غنياً. إنه يعتقد أني لا أصلح قسيساً، على حين كنت أظنه يصفني بالزهد والتقى والصلاح حين أرفض على مسمع منه دخلا يقدّر بخمسين لويساً. تعلمت منه اليوم درساً جديداً هو أنني لا أعتمد في المستقبل إلاّ على النواحي الخلقية التي خبرتها، وعلمت بفضله كذلك أنّ في البكاء راحة ولذة! لشدّ ما أحببت هذا الرجل الذي دلّني على حماقة نفسي!

ثم عاد إليه بعد ثلاثة أيام ليجدّد أمامه رفضه زواج أليزا، وادّعى كذباً أنّها متّهمة في أخلاقها، وهي حجة كان ينبغي له أن يتذرع بها في المرة الأولى. وماذا يضيره لو افترى عليها أمام الكاهن؟

وقد اعترف له «چوليان» في كثير من التردّد بأنه لا يريد أن يخبره بالتفاصيل كلها حتى لا يؤذي شخصاً ثالثاً في سمعته، وسلوك إليزا هو الذي حال بينه وبين إجابتها إلى رغبتها. وتبيّن شيلان في لهجة صديقه الشاب حمية دنيوية شديدة لا يتّصف بها من أعدّ نفسه ليكون من رجال الدين، فقال له:

– استمع إليّ يا صديقي، خير لك أن تكون رجلاً برچوازياً محترماً ومثقفاً من أن تكون قسّاً غير تقي!

فأجاب «چوليان» على هذا الزجر الجديد إجابة قوية الأسلوب حين واتته كلمات وجيهة تجدر بطالب في علم اللاهوت يتصف بالحماسة؛ غير أنّ لهجته كانت تخونه، والحرارة التي تبدو في عينيه تخيف الأب شيلان. ويجب علينا ألاّ نتنبأ لچوليان بالفشل، لأنه كان يحسن انتقاء كلماته التي ينطق بها في نفاق يدل على مراوغة وحذر وفطنة. وهذا ولا شك نجاح بالنسبة إلى سنه الصغيرة؛ وأما لهجته وحركاته فقد كسبها من معاشرة الريفيين، لأنه لم تتح له من قبل فرصة يشاهد فيها النماذج الحسنة. ثم انّه لم يكد يعاشر سادته الجدد حتى تقدّم في حركاته وأحاديثه تقدّماً عظيماً.

عجبت «مدام دى رينال» حين رأت أن الثروة التي هبطت على وصيفتها لم تسعدها، بل أصبحت تتردّد على القس كثيراً، ثم تعود باكية حزينة، وأخيراً تحدّثت إليزا إلى مولاتها عن أمر زواجها بچوليان. وسمعت «مدام دى رينال» هذا، فسرت في بدنها العلة وانتابتها حمّى حالت بينها وبين النوم، لأنها لا تستطيع أن تعيش إلا إذا وجدت بجانبها وصيفتها أو «چوليان». ولم تتمكن من التفكير في شيء غير السعادة التي تنتظر الزوجين في حياتهما الجديدة، وإن كانا فقيرين لأن دخلهما لا يزيد على خمسين لويسا؛ تصورتهما يعيشان عيشة هانئة سعيدة، لأن «چوليان» يستطيع أن يكون محامياً في

مدينة براى، وهي مركز يبعد ميلين عن ڤريير؛ وإذا حدث هذا فهي تستطيع أن تراه بين حين وحين.

واعتقدت «مدام دى رينال» حقًا أنها ستفقد رشدها، وقد أفضت إلى زوجها بذلك ثم مرضت. وفي نفس المساء، رأت وصيفتها تبكي وهي قائمة على خدمتها، وكانت تحسّ كراهتها وقتذاك فنهرتها، ثم طلبت منها بعد ذلك أن تصفح عن خشونتها وجفوتها، فانهمرت دموع الوصيفة، ثم طلبت من سيدتها أن تأذن لها لتقصّ عليها سبب ألمها ونكبتها. فأجابتها «مدام دى رينال»:

- قولي.

- إنه يرفض أن يتزوّج مني، لقد قال له أهل الشر مقالة سوء فصدق!

فتنفّست «مدام دى رينال» بصعوبة ثم سألتها:

- ومن هذا الذي يرفض الزواج منك! فبكت الوصيفة قائلة:

- من يا مولاتي غير السيد «چوليان»؟ لم يستطع القس أن يقنعه بالعدول عن رأيه. وقد أخبرني القس نفسه أنه ليس محقاً في أن يرفض فتاة أمينة لأنها تعمل وصيفة، ومع كلّ فوالد السيد «چوليان» ليس إلا نجاراً، ثم كيف كان يعيش «المسيو چوليان» قبل أن يأتي إلى منزل مولاتي؟

فشعرت «مدام دى رينال» براحة وسعادة حين علمت ذلك، ولم تنصت إلى بقية الحديث لأنها شغلت بالتفكير في رفضه يد إليزا، بعد أن استعادت حديث وصيفتها عدة مرات، وتأكدت أن رفض «چوليان» كان نهائياً، ثم قالت لوصيفتها:

- سأحاول أن أعالج الأمر بنفسي، وسأتحدث إلى «السيد چوليان». وبعد الغداء في اليوم التالي، تحدّثت «مدام دى رينال» إلى «چوليان» في أمر غريمتها إليزا ساعة كاملة؛ ولشدّ ما كان سرورها عظيماً حين رأته يرفض يدها وثروتها رفضاً جازماً.

وهكذا آن لچوليان أن يتخلص شيئاً فشيئاً من أجوبته الرقيقة، فاستطاع أن ينقض في كثير من الفطنة حجج «مدام دى رينال» التي لا تخلو من تعقل ومداورة وحكمة. وانتهى الأمر برفضه الزواج فغمر السيدة تيار جارف من السعادة ملأ قلبها بعد أن نهشتها الآلام والأحزان أياماً طويلة. لم تستطع أن تقاوم سعادتها فشعرت بضعف وإعياء، وعادت إلى غرفتها فاستردّت قوتها، ثم طلبت أن تظل وحدها؛ فغادر الحجرة من كان فيها، فعجبت من أمرها أشد العجب ثم سألت نفسها: أتراني أحبّ چوليان؟

لم يثر هذا الاكتشاف في نفسها ما كان يثيره من قبل من وخز واضطراب شديدين، بل كان مثلها منه كمثل مشاهد يرى الأشياء ولا يتأثر بها. وقد أصبحت نفسها متعبة بسبب ما كشفته، فلم تعد تتأثر بما تمليه عليها المشاعر. وأرادت أن تقوم ببعض أعمال ولكن غلبها النوم، فاستسلمت له. ولما استيقظت لم تكن جدّ منزعجة، وكان عليها أن

تكون شديدة الفزع. لقد ملكت عليها السعادة نفسها فرأت الدنيا بمنظار جديد وما كانت هذه الريفية الطيّبة المطبوعة على السذاجة والطهر، لتعذّب نفسها فتستخلص منها بعض الحساسية لما يطرأ عليها من عواطف أو يصيبها من شر. كانت قبل وصول «چوليان» د ءوبا كثيرة العمل، ممّا يعد نصيب كل ربّة بيت فاضلة بعيدة عن پاريس، تفكر في الحب كما نفكر نحن في ألعاب النصيب: خديعة حقيقية وسعادة لا يبحث عنها إلا المجانين!

دقّ جرس الغداء، وسمعت «مدام دى رينال» صوت «چوليان» قادماً مع الأطفال فالتهبت وجناتها بحمرة شديدة؛ لكنها أصبحت ماهرة منذ أن أحبّت، وأرادت أن تخفي سبب إحمرارها فادعت أنها تعاني صداعاً شديداً. فضحك زوجها من ذلك قائلاً:

– هذا شأن كلّ النساء، هنّ كالآلات في حاجة دائمة إلى بعض الإصلاح!

وكانت قد اعتادت سماع مثل هذه النكات منه، ولكن صوته أزعجها فى هذه اللحظة؛ وأرادت أن تسري عن نفسها فنظرت في وجه «چوليان»؛ ولو أنه كان أقبح الرجال جميعاً في تلك اللحظة لأعجب «مدام دى رينال».

وكان «السيد دى رينال» حريصاً على أن يحاكي رجال البلاط في أعمالهم، لذلك كان يذهب إذا ما أقبل الربيع إلى قرية ڤرچي التي أصبحت شهيرة منذ المخاطرة الأليمة التي وقعت لجبرييل[1]. فعلى بعد بضع مئات من الخطوات من الأطلال البديعة التي كانت يوماً ما كنيسة قوطية، يرى الإنسان قصراً يملكه «السيد دى رينال»، وهو قصر قديم ذو أربعة أبراج وحديقة كحديقة التويللرى، فيها دوائر كثيرة من شجر البقس، وطرقات تحفّها أشجار الكستناء التي تشذب مرتين في العام. يجاورها حقل يتنزه فيه سكان القصر وقد غرست فيه أشجار التفاح، وكان في طرف البستان بعض أشجار من الجوز تبلغ ثماني شجرات أو عشراً، طول كل منها يقارب ثمانين قدماً. وقد أبدت «مدام دى رينال» إعجابها بهذه الأشجار فقال لها زوجها:

– إنّ كل شجرة من هذه الأشجار اللعينة تضيع عليَّ في العام محصول نصف فدان لأن القمح لا يستطيع النمو في ظلّها.

خيل «لمدام دى رينال» أنها ترى الريف للمرة الأولى، فكان إعجابها به شديداً، وقد سبغت عليها العاطفة الجديدة كثيراً من الفطنة والعزم. واقترح عليها «چوليان» أن يمهدوا في الحديقة طريقاً رملياً صغيراً، يدور حول جنباتها ويمرّ تحت أشجار الجوز، ليستطيع الأطفال أن يتنزهوا فيها منذ الصباح الباكر دون أن يؤذي الندى أحذيتهم. واستجابت «مدام دى رينال» إلى ما اقترح بعد وصولهم بيوم واحد. وكان زوجها قد غادر ڤرچى لأن

(١) كانت مغامرات صاحبة قصر ڤرچى مشهورة، ومما لا ريب فيه أن الكاتب كان يعرف «أوبرا كرافا» التي كانت تسمى جبرييلا دى ڤرچي، والتي تمثل بنجاح كبير في إيطاليا منذ عام ١٨١٦، وفضلاً عن هذا فقد ظهرت نسخة فرنسية لقصة شعرية ترجع إلى القرن الثالث عشر الميلادي وتسمى «صاحبة قصر ڤرچى» طبعها كريليه سنة ١٨٢٩. «المعرب».

مهام منصبه استدعته إلى ڤربير، وأحضرت عمالاً على نفقتها ليمهدوا الطريق، وقضت يوماً سعيداً مع «چوليان» في الإشراف على هذا العمل.

ذهل العمدة حين عاد من المدينة فرأى ممراً معبداً، وذهلت «مدام دى رينال» حين رأته، لأنها كانت قد نسيت وجوده. وظلّ الزوج غاضباً على امرأته شهرين كاملين لأنها جرؤت على عمل هذا الإصلاح الخطير دون أن تستشيره، وإن كانت حدته قد خفّت حين رآها قد دفعت من مالها أجر هذا العمل.

كانت تقضي أيامها مع أطفالها في الحديقة لاهية عابثة، تشاركهم مطاردة الفراش وصيده ؛ وهم يلبسون قلانس كبيرة من نسيج شفاف ليصطادوا بها الحشرات ذات الأجنحة الصدفية. وكان «چوليان» يقصّ عليها بعض ما قرأ في كتاب چودار عن عادات هذه الحشرات، وهو كتاب أحضرته له «مدام دى رينال» من بيزانسون. وكانوا يثبتون صيدهم من الحشرات في غير رأفة بدبابيس على ورقة غليظة أعدّها «چوليان» لذلك.

وهكذا لم يعد «چوليان» فريسة للآلام، لم يعد يجلس صامتاً معها لأنه وجد أخيراً موضوعاً للأحاديث، وبات الحديث بينهما غير منقطع بل أصبح متواصلاً في شغف ولذة وإن تناول دائما أشياء بريئة. وهذا اللون من الحياة القوية المرحة يستهوي من في المنزل جميعاً إلا الآنسة إليزا لأنها كانت مرهقة بالعمل ؛ وكانت تحدث نفسها قائلة: إن سيّدتي لم تعتد من قبل أن تعنى بالزينة هذه العناية الكبيرة حتى في أيام حفلات ڤربير، أما الآن فأراها تغير ملابسها ثلاث مرات كل يوم!

إنّنا لا نرمي أبداً إلى التحيز لأحد أشخاص هذه القصة، ولذلك لا ننكر أنّ «مدام دى رينال» قد عمدت إلى حياكة ثيابها بطريقة تكشف عن ذراعيها وصدرها، ليظهر لون بشرتها الناصع وجمالها الرائع، فكانت في ثيابها الجديدة آية فنية بديعة. لذلك كان أصدقاؤها الذين يفدون عليها من ڤربير لتناول الطعام في ڤرچى يقولون لها:

- إنّا لم نرك في حياتك يوماً أكثر شباباً منك الآن (وهي عبارة ألفها الناس في هذا الإقليم).

والشيء الذي لا نكاد نصدقه، أنّها كانت تقوم بكل هذه الأعمال دون أن تفكر في غرض أو ترمي إلى هدف، ولكنها تعمل لأنها تجد لذّة فيما تعمل؛ فساعاتها موزعة بين صيد الفراش مع «چوليان» وأولادها وبين صنع ثيابها الجديدة مع إليزا. ولم تذهب إلى ڤربير إلاّ مرة واحدة لتشتري لها ملابس صيفية كانت قد أُحضرت من مولهوز. ثم اصطحبت معها إلى ڤرچى مدام درڤيل إحدى قريباتها التي تربطها بها روابط وثيقة منذ كانتا معاً في دير القلب المقدّس. وكانت مدام درڤيل تضحك كثيراً مما تسميه الآراء الجنونية التي تصدر عن قريبتها، إلاّ أن «مدام دى رينال» كثيراً ما كانت تحدث نفسها قائلة: «لو أنني كنت وحدي ما فكرت على هذا النحو». وهذه الآراء المفاجئة التي ترد دائماً على خاطر «مدام دى رينال» كانت تخفيها وهي مع زوجها كما تخشى ارتكاب حماقة

كبيرة، وإن كان الباريسيون يعدّون مثل هذه الآراء ملحاً وطرائف. غير أن وجود مدام درڤيل بعث في نفسها الشجاعة، فكانت تفضي إليها بما يجول في خاطرها في خجل واستحياء وبصوت يكاد يكون همساً ؛ وإذا مكثتا معاً وقتاً طويلاً فإن نفس «مدام دى رينال» تقوى وتضطرم شيئاً فشيئاً، وكثيراً ما مرّت عليهما ساعات الصباح الطويلة وهما تتحدثان في فرح وسرور، دون أن تشعرا بملل وكأنهما بدأتا الحديث منذ فترة قصيرة، وقد لاحظت مدام درڤيل بما أوتيت من فراسة أن مدام دى رينال كانت في هذه المرة أكثر سعادة وأقل سروراً منها في المرات السابقة.

أما «چوليان» فكانت حياته في هذه القرية كحياة الأطفال، كلّها لهو وعبث. يجري وراء الفراش أكثر مما يجري تلاميذه. لقد أصبح بعيداً عن أعين الرجال، فليس في حاجة إلى اتباع سياسة ماهرة في ضبط عواطفه وكبت مشاعره، وأصبح لا يخشى «مدام دى رينال» بوحي من غريزته، فأطلق لنفسه عنان المرح والسرور، وما أشدّ الفرح بالحياة في مثل سنه وبين جبال هي أجمل جبال العالم!

وما كاد «چوليان» يرى مدام درڤيل حتى ظنّها صديقة له منذ أمد بعيد، فأسرع إلى مصاحبتها ليطلعها على المنظر الرائع الذي يبدو عند طرف الطريق الجديد تحت أشجار الجوز الباسقة ؛ وحقيقة إنّه كان منظراً رائعاً إن لم يفق مشاهد سويسرا وبحيرات إيطاليا فليس بأقل منها جمالاً وبهاء. يصعّد الإنسان فوق الجانب الجبليّ الواقع على بضع خطوات من الممرّ الجديد، فسرعان ما يصل إلى وهاد كبيرة تحفُّها غابات السنديان ممتدة حتى تكاد تصل إلى النهر. وكان «چوليان» يتسلق قمم الصخور العمودية فيشعر بالسعادة تغمر نفسه، وبالحرية المطلقة ثم بشيء أكثر من هذا وذاك هو أنه سيِّد هذا المنزل، يصطحب الصديقتين ويمتع نفسه بما تباديانه من إعجاب وتقدير لتلك المناظر الرائعة الجمال. وكثيراً ما كانت مدام درڤيل تقول: هذه المناظر تحدث في نفسي من التأثير ما تحدثه موسيقى موزار تماماً. لم يكن «چوليان» قد تمتع من قبل بجمال الريف في ضواحي ڤريير لأن غيرة أخويه منه، وشخص أبيه الطاغية الغضوب أفسد في ناظريه كلّ موجود. وتخلّص في ڤرچى من هذه الذكريات المريرة، وشعر لأول مرة أن ليس له عدو في الحياة. وإذا كان «السيد دى رينال» غائباً في المدينة جرؤ «چوليان» على القراءة، على أنّه كثيراً ما كان العمدة يتخلّف في ڤريير. كان يخفي مصباحه وهو يقرأ في زهرية يقلبها فوق المصباح، لكنّه كثيراً ما كان النعاس يحول بينه وبين القراءة في الليل. أمّا في النهار، فكان يتسلّل إلى الصخور في الفترات التي لا يتلقى فيها الأولاد درساً، مصطحباً كتابه الذي يقتبس منه مثله العليا وما يتأجج في نفسه من حميّة ونشاط ؛ ذلك الكتاب الذي كان يمدّه بالسعادة، ويبعث في نفسه الإعجاب والدهشة والعزاء في ساعات حزنه ويأسه. كان يقرأ بعض عبارات قالها ناپليون فى المرأة، وبعض مناقشات حول قيمة القصص المعروفة في عصره، فكانت هذه كلّها ثروة عقلية له، وإن كان أقرانه قد عرفوها قبله بزمن طويل.

اشتدّ القيظ في ڤرچى فأخذت «مدام دى رينال» ومن معها يقضون سهراتهم تحت شجرة زيزفون ضخمة على بعد خطوات من المنزل. وفي ليلة حالكة الظلام، جلس «چوليان» يتحدث في حماسة وقد غمرته سعادة كبيرة حين أحسّ أنه يحسن الحديث إلى سيدتين جميلتين لا تزالان في ريعان الشباب، كان كثير الحركات وهو يتكلم، فلمست يده يد «مدام دى رينال» التي كانت تتكئ بها على ظهر كرسيّ منقوش من تلك الكراسي التي توضع عادة في الحدائق، فسحبت السيدة يدها بسرعة خاطفة؛ فكرّ «چوليان» بعدها في أنّ واجبه يفرض عليه أن يعلّمها ألاّ تسحب يدها إذا لمستها يده، وسرعان ما تغيّر سروره إلى حزن، لأنّ فكرة القيام بالواجب أو السخرية منه أو على الأصح الشعور بمركب النقص قد استولت على نفسه، فغاض من قلبه في الحال كل سرور.

الفصل التاسع

سهرة في الريف

رآها في اليوم التالي، فأخذ ينظر إليها نظرات غريبة تنمّ عن عداوة حديثة العهد ؛ وأزعجتها نظراته إزعاجاً شديداً لأنها من نوع جديد يغاير ما ألفته منه إلى حدّ بعيد. لقد كانت رقيقة القلب كيّسة معه إلى درجة كبيرة، ومع ذلك كان يبدو على وجهه الغضب فلم تفارق عيناها عينيه لتعرف سرّ غضبه عليها.

وأتاح وجود مدام درفيل فرصة لالتزام الصمت، فتكلّم قليلاً وفكّر كثيراً فيما يعتمل في نفسه. وقضى يومه في قراءة كتابه ذي الأثر العجيب في تهدئة خواطره وإعادة السكينة إلى نفسه، حينما يكون حزيناً مهموماً ؛ ثم اشتغل قليلاً مع تلاميذه، ولما رآها تعنى به وتبذل له من نفسها ومشاعرها ما تبذل، عزم على أن يحملها بأي وجه لتبقى يدها في يده هذه الليلة.

وغربت الشمس وأزفت الساعة الموعودة، فدقّ قلبه سريعاً، ثم أرخى الليل سدوله، فرأى في فرح شديد أن الظلام سيكون حالكاً فزايله بعض ما كان يعانيه من ألم. كانت السماء مثقلة بسحب كبيرة متكاثفة تدفعها رياح حارة، والجوّ ينذر بهبوب عاصفة. وظلّت الصديقتان في نزهتهما إلى ساعة متأخرة، وبدا له أن كلّ ما تعملانه الليلة غريب عليه، لا عهد له به من قبل ؛ فقد كانتا تسعدان بهذا الجو الذي يزيد الأرواح الرقيقة فرحاً على فرح، ويذكي فيها جذوة الحب ... ثم جلستا بعد طول الانتظار، واتخذت «مدام دى رينال» مقعدها بجوار «چوليان»، وجلست مدام درفيل على مقربة من صديقتها. كان «چوليان» مضطرب النفس، مبلبل الخاطر لما اعتزم الإقدام عليه، فلم يجد ما يقوله لهما ، وفتر الحديث فأخذ يسائل نفسه: كيف أضعف هكذا وأضطرب في أول صراع؟! وما كان يرى نفسه على حقيقتها ؟ لحذره الشديد من نفسه ومن الناس كذلك.

كان ضيّق النفس كثير الاضطراب، وخيّل إليه أنه يهزأ بجميع الأخطار التي تعترض سبيله، ثم عاد فتمنّى أن يقع ما يضطر «مدام دى رينال» إلى مغادرة الحديقة والعودة إلى المنزل! وكان الصراع الداخليّ شديداً في نفسه، ظهر أثره ظهوراً واضحاً في صوته الذي تغيرت نبراته ؛ ومرت فترة فاضطرب صوت «مدام دى رينال»، ولكن «چوليان» لم يفطن

لذلك لأنه مشغول بالمعركة القاسية التي تدور في نفسه بين الواجب والخجل. فلم يتنبه إلى شئ سوى ذلك. ودقت ساعة القصر العاشرة إلا ربعاً والعجز لا يزال يقعده عن تنفيذ ما يريد، فأسخطه جبنه وقال في نفسه: سأنفّذ ما اعتزمت وما فكرت فيه طول يومي حينما تدقّ العاشرة تماماً، وإلا صعدت إلى غرفتني وقتّلت نفسي.

ومرّت لحظة كأنها دهر لما انتابه فيها من قلق واضطراب وفقد كلّ سيطرة على نفسه ؛ ثم دقت الساعة التي كانت فوق رأسه دقاتها العشر، فاضطرب قلبه في إثر كل دقة، وأحسّ صداها في نفسه حتى كأنها حركة جسمانية. وبينما كانت الدقة الأخيرة لا يزال صداها يرنّ في أذنه ونفسه، مدّ يده وأمسك بيدها، فأسرعت هي في استردادها ؛ وكان في حالة لا تسمح له بأن يفهم ما يعمل، فأمسك بيدها مرة أخرى، وهو ثائر النفس مضطرب المشاعر ؛ ولشدّ ما دهش حينما أحسّ أنها باردة لا حرارة فيها فضغطها في رعشة وارتجاف: وحاولت السيدة مرة أخرى أن تبعد يدها لكنه لم يمكنها من ذلك، بل ظلّت بين يديه يداعبها ويضغط عليها.

وغمرت السعادة نفسه لا لأنه كان يحبّ «مدام دى رينال»، بل لأنه تخلّص من عذاب أليم كان يساوره طول يومه. وبدأ يتحدث حتى لا يثير شكوك مدام درڤيل بصوت قويّ باهر في هذه المرة، أما صوت «مدام دى رينال» فكان مضطرباً متعثراً ينم عن انفعالات كثيرة، فظنتّها صديقتها مريضة واقترحت عليها أن تعود إلى المنزل. وعندئذ شعر «چوليان» بالخطر، وقال في نفسه: لو أنّها سمعت نصيحة صديقتها وذهبت إلى الصالون لعاودني الألم المرّ الذي صاحبني طول النهار، لأن إمساك يدها وقتاً قصيراً لا يعد نجاحاً ولا يشفي غليلاً.

واقترحت عليها صديقتها مرة أخرى أن تعود إلى البيت، فضغط «چوليان» يدها بشدة فلم ثستأ ولم تتألم. وكانت قد نهضت فجلست من جديد قائلة في صوت ضعيف خافت:

– حقًا إنني أشعر بدبيب المرض لكنني أظن أن الهواء الطلق ينعشني.

ووقعت هذه الكلمات من نفس «چوليان» موقعاً جميلاً وزادت في سعادته حتى أصبحت حقاً لا مرية فيه ؛ فتكلم في طلاقة ونسيّ مكره وخبثه، وخيّل للصديقتين وهما تنصتان إليه أنه أظرف رجل عرفه الوجود. غير أنّ فصاحته التي بدت فجأة كانت لا تزال فقيرة إلى الشجاعة، لأنه كان يخشى أن تكون مدام درڤيل شعرت بتعب من الرياح التي بدأت تهبّ والتي تنذر عادة بالعواصف، فتعود وحدها إلى الصالون ويبقى هو و«مدام دى رينال» منفردين. لقد واتته شجاعة عمياء، هبطت عليه مصادفة فأقدم على فعلته الجريئة، ولكنّه كان يشعر في قرارة نفسه بالعجز الشديد عن أن يقول لها كلمة واحدة. وخشيّ إن هي لامته في وحدتهما أن يُغلب على أمره، وأن يذهب أدراج الرياح ما ناله من توفيق وما أدركه من نجاح. على أنّ الحظ واتاه في هذه الليلة، فأعجبت مدام درڤيل

بحديثه البليغ المؤثر ؛ وكانت تصفه دائماً بأنه طفل أخرق يكون مسّليا في بعض الأحيان.
أما «مدام دى رينال» فكانت لا تفكر في شئ على الإطلاق، بل تركت نفسها على سجيتها ؛ وشعرت بلذة كبيرة ويدها في يد «چوليان». وأصبحت تلك الساعات التي قضتها تحت شجرة الزيزفون التي يقال إنّ شارل الجسور هو غارسها -أصبحت ساعات سعادة حقة. كانت تنصت في لذة وارتياح إلى هزيز الريح وحفيف ورق الزيزفون وقطرات المطر التي بدأت تتساقط على الشجر. ثم نهضت لتساعد صديقتها على إعادة إناء من أواني الزهر إلى مكانه بعد أن دفعته الريح عند أقدامها ؟ فاستلّت يدها من يده، لكنّها أرجعتها إليه من غير تأبٍ حين عادت إلى مجلسها كما لو كان ذلك شيئاً قد اتفق عليه من قبل، فسر «چوليان» لهذا كل السرور واطمأنت إليه نفسه اطمئناناً كبيراً.

كان الليل قد انتصف منذ وقت طويل، فغادروا الحديقة جميعاً ومضى كلّ إلى مخدعه. وكانت «مدام دى رينال» سعيدة بحبها كلّ السعادة ؛ غيّرها الحبّ فلم توجه لنفسها لوماً ولا عتاباً ؛ ولم تنم من سعادتها طول الليل. أمّا «چوليان» فقد أجهده الصّراع الداخلي الذي ثار في قلبه بين الكبرياء والخجل فنام ليلته نوماً عميقاً.

وأوقظ في الساعة الخامسة من اليوم التالي، فشعر بأنه قام بعمل مجيد، قام بواجبه وهو واجب ينطوي على البطولة ؛ وإنه لشعور يؤذي «مدام دى رينال» كثيراً لو أنها علمته أو خطر ببالها. ثم غلبه شعوره بالسعادة فأغلق الباب وبقى في غرفته يقرأ مغامرات بطله في لذة جديدة فائقة. ودقّ الجرس لتناول الغداء فنسي، وهو يقرأ نشرات الجيش الأكبر، ما أصاب البارحة من توفيق كبير فأخذ يقول في لهجة استهتار وهو هابط إلى الصالون: يجب أن أقول لهذه السيدة إني أحبها.

وكان يمّني نفسه بأنّه سيرى النظرات المشتهاه التي توقّع أن يراها، لكنه لم يكد يدخل الصالون حتى وقع بصره على الوجه القاسي، وجه «السيد دى رينال» الذي وصل إلى المنزل منذ ساعتين. وقد استاء لمّا علم أن «چوليان» قضى يومه في غرفته ولم يعلّم الأولاد شيئاً. ولشدّ ما يزداد «السيد دى رينال» قبحاً وشناعة حين يغضب، ويريد أن يظهر غضبه ؛ فكانت كل كلمة قاسية ينطق بها تجرح قلب زوجته. كان «چوليان» لايزال ينعم بذكرى تلك اللحظات السعيدة التي قضاها أمس ؛ من أجل ذلك كان في شغل عما يقوله «السيد دى رينال»، لكنّه حين نزل من علياء تفكيره ليسمع ما يقوله العمدة في خشونة وقسوة، أجابه على الفور في جفوة:

- لقد كنت مريضاً.

وكانت لهجة «چوليان» جارحة لا يحتملها من كان أقلّ نزقاً وسرعة انفعال من عمدة ڤريير، فخيل إلى «دى رينال» أنْ يجيبه في قسوة ويطرده في الحال من منزله، لكنّه تريّث نزولاً على الحكمة والأناة والصبر في كل أعماله، ثم أخذ يحدث نفسه: هذا الأحمق قد اشتهر في منزلي، ولن يتردّد ڤالنو في أن يتخذه معلّما لأولاده، وربّما تزوج إليزا. وعلى

كل حال فسيسخر مني لو تمّ له هذا أو ذاك، وإن كان هو لن يستطيع الجهر بهذه السخرية. وعلى الرغم مما تمليه عليه نفسه باتباع الحكمة، ثار ثورة عنيفة، وسبّ «چوليان» سبًا مقذعاً فغضب ؛ وكادت «مدام دى رينال» تنفجر باكية.

وانتهوا من الغداء، فطلبت زوج العمدة من «چوليان» أن يقدم لها ذراعه ويذهب معها إلى النزهة، وأخذت تضغط على ذراعه في صورة ظاهرة، وتتحدث إليه وهو يجيبها دائماً عن كل ما تقول في صوت منخفض:

– هكذا خُلق الأغنياء!

وكان الزوج يسير على مقربة منهما، وقد زاد وجوده «چوليان» غضباً على غضب. وشعر فجأة بأنّ «مدام دى رينال» تتكيء على ذراعه اتكاء ملحوظاً فآلمه هذا ودفعها بقوة وخلّص ذراعه من ذراعها، ولم ير «السيد دى رينال» من حسن الحظ هذا اللون الجديد من القحة ؛ لكنّ مدام درڤيل رأت ما حدث، وأبصرت صديقتها تبكي بكاء مراً، أما «دى رينال» فقد شغل بفتاة قرويّة رآها تعبر طريقاً يدخل في ممتلكاته وتسير في جانب من جوانب الحديقة، فأخذ يرجمها بالحجارة. عندئذ قالت له مدام درڤيل في سرعة ولهفة:

– خفف من حدتك يا سيد «چوليان» إن تفضّلت، ولا تنس أن للناس جميعاً لحظات يغضبون فيها. فنظر إليها نظرات تنطوي على التحقير الشديد، فعجبت من ذلك. ولو أنها استطاعت أن تفطن إلى ما تقوله نظراته لكان عجبها أشد وذهولها أقوى، ولقرأت في نظراته أملاً غامضاً في أن ينتقم لنفسه انتقاماً شديداً. ومما لا شك فيه أن مثل هذه اللحظات التي تصاب النفوس فيها بألم الازدراء هي اللحظات التي تخلق رجالاً أمثال روبسپيير. ثم حدثت مدام درڤيل صديقتها في صوت منخفض:

– إن « «چوليانك» لسريع الانفعال، شديد الغضب، إنه يخيفني!

– إنّه محق في غضبه ؛ لقد تقدّم الأطفال على يديه تقدماً كبيراً، فأي خطأ اقترفه حين قضى ساعات الصباح في غرفته ولم يعلم الأولاد شيئاً، يجب أن نعترف بأن الرجال قساة القلوب.

ولأول مرة في حياة «مدام دى رينال» أحسّت في نفسها شهوة الانتقام من زوجها. وقد ثار «چوليان» على الأغنياء ثورة عنيفة ؛ وأظهر ما يضمره لهم من كراهية وبغضاء. ومن حسن حظه استدعى «السيد دى رينال» البستانيّ وأخذ يعمل معه في وضع حواجز من الشوك في الطريق المؤدي إلى الحديقة. ولزم «چوليان» الصمت طوال النزهة فلم يجب عما وُجّه إليه من حديث، وأغفل ما أظهرته السيدتان من ودّ ورعاية، فإنه ما كاد «السيد دى رينال» يبتعد حتى استندت كلّ إلى ذراع من ذراعيه بحجة أنهما متعبتان.

وسار «چوليان» بينهما وقد احمر وجهاهما خجلاً واضطراباً، وأمّا هو فكان شاحباً في عظمة، يبدو على محياه صلابة وحزم وجدّ، تدلّ كلها على أنه يحقرهما ويستهين بكل

العواطف الرقيقة، فكان التباين بين حاليهما شديداً. على أنّه كان يقول في نفسه: ماذا! لو أنّ لي دخلا يبلغ خمسمائة فرنك لأتمّ به دراستي! آه! إذن ما أقمت له وزناً!

كانت تلك الآراء الصارمة تشغل لبّه، فلم يشأ أن يسمع من كلامهما الحلو إلا بضع كلمات حكم عليها بأنها تافهة، ضعيفة، سقيمة، هي في الجملة أحاديث نساء. وأرادت «مدام دى رينال» أن تتكلم من أجل الكلام ليظلّ الحديث متصلاً قوياً، فذكرت لهما أن زوجها قدم من ڤريير لأنه اشترى من بعض فلاحيه عيدان الذرة. (وقد اعتاد أهل هذا الأقليم أن يحشوا حشايا الأسرّة بهذه الأعواد). ثم استطردت تقول:

– إنّ زوجي لن يلحق بنا الآن لأنه يعمل مع البستاني وخادم آخر في تجديد حشو الفراش، وقد فرغ في الصباح من حشايا سرر الطابق الأول ويعمل الآن في حشايا الطابق الثاني.

فامتقع وجه «چوليان»، ونظر إليها نظرة غريبة، ثم انفرد بها بأن جدّ في سيره قليلاً، فأدركت مدام درڤيل ما يرمي إليه وتركتهما يبتعدان عنها، ثم قال لـ«مدام دى رينال»:

– أنقذي حياتي يا سيدتي فأنت وحدك التي تستطعين ذلك، إن الخادم يكرهني كما تعلمين حتى ليتمنى موتي، ويجب أن أعترف لك بأنني قد أخفيت صورة في حشية سريري. فامتقع لونها ولكنه ظلّ يقول:

– أنت وحدك يا سيدتي التي تستطيعين دخول غرفتي في هذا الوقت، فاذهبي وفتّشي حشيتي، دون أن يشعر أحد، وستجدين في الزاوية القريبة من النافذة صندوقاً صغيراً من الورق المقوّى أسود اللون ناعم الملمس. فتحاملت على نفسها ووقفت متهالكة تسأله:

– والصورة داخل الصندوق!؟

فانتهز «چوليان» ما رأى على وجهها من علامات القنوط وقال:

– لي رجاء آخر يا سيدتي هو ألا تلقى عليها نظرة واحدة، لأنّ هذا من أسراري.

فقالت في صوت خافت: هذا سرّ!

لقد نشأت بين أناس يعتزّون بالمال، ولا يبالون بشيء، إلا بالثروة، ولكن الحب أكسب نفسها طيبة ونبلاً، وهي، وإن جرحت جرحاً بالغاً، مخلصة لـ«چوليان» إخلاصاً شديداً ؛ فألقت عليه بعض أسئلة تمكنها من القيام بالمهمة على أتم وجه، ثم قالت له وهي تفارقه:

– إذن هو صندوق صغير مستدير ناعم الملمس من الورق المقوى.

فقال لها والجدّ يتمثل في وجهه إزاء خطر يتهدده:

– نعم يا سيدتي هو كذلك.

صعدت «مدام دى رينال» إلى الطبقة الثانية من المنزل شاحبة الوجه كأنما تساق إلى الموت ؛ وشعرت لسوء حظها أنها تكاد تسقط من الإعياء، لكن الفكرة التي تسلطت عليها وهي أنها تؤدي خدمة لـ«چوليان» شدّت من أزرها، فأسرعت خطاها وهي تقول:

– يجب أن أعثر على الصندوق.

وسمعت زوجها يحدّث الخادم في غرفة «چوليان»، ولكن التوفيق رافقها فذهبا إلى غرفة الأطفال، فأسرعت هي إلى حجرة «چوليان» ورفعت الحشية ودسّت يدها في عيدان الذرة بقوة شديدة ولهفة فجرحت أصابعها. وهي وإن كانت شديدة الحساسية لا تقوى عادة على أخف الالام، إلا أنها لم تشعر بجراحها هذه، لأنها وجدت الصندوق الصغير الأملس وقتما جرحت، فأخذته واختفت مسرعة.

ولما نجت من خطر أن يقع بصر زوجها عليها في غرفة «چوليان»، شعرت بكراهية شديدة لهذا الصندوق كادت تفقدها رشدها ؛ وقالت في نفسها: إنّه لابدّ عاشق وما هذه إلا صورة الحبيبة!

وجلست على مقعد عند مدخل الشقة التي كانت بها، فأحست آلام الغيرة. لكن جهلها بالحب أفادها، وخفّف أثر عجبها من شدة ألمها. ثم أتي «چوليان» وأخذ صندوقه دون أن يتكلم، أو يشكر وأسرع إلى غرفته وأحرقه في الحال. كان شاحب اللون مضعضع القوى، لأنه كان يبالغ في الخطر الذي يتهدده ؛ ولكنه سرعان ما قال في نفسه وهو يهز رأسه: صورة ناپليون تُخبأ في منزل رجل يعلن دائماً كراهيته البالغة لهذا الغاصب! صورة ناپليون يجدها «السيد دى رينال» الأهوج في غضبه، المبالغ في تطرفه! وبلغت حماقتي منتهاها حينما كتبت على الناحية الأخرى من الصندوق بضعة سطور بخطي تدل تماماً على إعجابي الشديد بناپليون! وكل عبارة بتاريخها، وآخرها كتبته أمس الأول فقط.

نعم، لو أنهم اكتشفوا سرّي لضاعت شهرتي في طرفة عين ولا محت تماماً تلك الشهرة التي أعدها ثروتي، والتي أعيش من أجلها ... ولكن أية حياة أحياها يا إلهي! قال هذا وهو يرى الصندوق تلتهمه النار.

ومرّت ساعة واحدة بعد تعب عاناه، وإشفاق من نفسه على نفسه، فبعث ذلك في قلبه رقة وليناً ؛ ورأى «مدام دى رينال» فأخذ يدها مقبّلا إياها في إخلاص شديد لم يشعر به من قبل. فغمرتها السعادة واحمرت وجنتاها، ولكن سرعان ما استولى عليها غضب الغيرة فدفعته عنها. وكانت كرامته لا تزال تعاني أثر ذلك الجرح القريب، فما كادت تفعل هذا حتى عاوده حمقه، فترك يدها في امتهان وإزدراء، وولّى مبعداً مسرعاً، لأنه كان لا يراها إلاّ بمنظار واحد وهو أنها سيدة غنية. ذهب بعد ذلك إلى الحديقة يتنزه مفكراً في أمره وسرعان ما ارتسمت على شفتيه ابتسامة مرة:

– إني أسير ههنا كأني سيّد حرّ طليق، لا أعبأ بتلاميذي! إنني أعرض نفسي لقوارص كلمات «السيد دى رينال» وهو محق إن فعل. ثم عاد إلى غرفة الأطفال.

وأخذ أصغر الأولاد يلاطفه ويداعبه، وكان «چوليان» يحبّه كثيراً، فهدأت ثورته وكاد يزايله الغضب، وأخذ يقول في نفسه:

– لم يتعلم هذا الطفل بعد كيف يحتقرني! وسرعان ما عاد يلوم نفسه على أن زايلها الغضب ويقول: إن هؤلاء الأطفال يداعبونني كما يداعبون الكلب الصغير الذي اشتروه بالأمس.

الفصل العاشر
قلب كبير ومال قليل

غير أن الحزن لا يغطي المظهر الحقيقي، بل قد يخدع بظلمته، كما تنبئ السماء الحالكة بأعنف العواصف.

دون جوان ١ فقرة ٧٣

جاب «السيد دى رينال» خلال غرف القصر كلها، ثم عاد إلى غرفة الأطفال يتبعه الخدم يحملون عيدان الذرة. فكان دخوله المباغت كقطرة طفح بها الإناء، فسرعان ما اشتدّ شحوب «چوليان» وازداد عبوسه، واندفع نحو العمدة الذي جمد في مكانه ينظر إلى خدمه، ثم قال له:

- أتعتقد يا سيدي أنّ أولادك كانوا يصيبون من التقدم ما أصابوا معي لو وكل أمرهم إلى معلّم آخر؟ وإذا كان جوابك بالنفي، فكيف تجرؤ على أن تلومني وتتّهمني بالتقصير في تعليمهم؟

فدب الخوف في نفس «دى رينال»، ولما أفاق من عجبه؛ استنتج أن لدى الفلاح الشاب طلبات أو مقترحات لحياة أيسر من حياته في منزل العمدة، وأنّ «چوليان» سيترك الأطفال. وكان غضب المعلّم يزداد شيئاً فشيئاً كلما مضى في الحديث إلى أن قال للعمدة:

- في استطاعتي أن أعيش لو غادرت منزلك يا سيدي!

فأجابه في تلعثم قليل:

- يؤسفني أن أراك شديد الانفعال.

وكان الخدم على بعد عشر خطوات، مكبّين على ترتيب حشايا السرر، فلم يبال بهم «چوليان» وقال في حدة بالغة:

- لا أقصد إلى ذلك، وعليك أن تفكرّ في بذاءة ما قلت، ومما زاد الطين بلّة أن سيدتين قد سمعتا ما قلت!

وخيّل إلى العمدة أنه يفهم تماماً ما يرمي إليه ««چوليان»»، فأثار هذا في نفسه آلاماً شديدة، وكان المعلّم في ذلك الحين قد وصل إلى حدّ كبير من الغيظ والحنق فصاح:

- أنا أعرف يا سيدّي أين أذهب إذا غادرت منزلك هذا.

ورأى العمدة بثاقب نظره أنّ «چوليان» قد اعتزم المعيشة في منزل ڤالنو، فتنهّد وامتقع لونه كما لو كان أمام جرّاح يدعوه إلى التهيؤ لأخطر العمليات ألماً ثم قال:

- حسنا أيها السيد! أنا أقبل ما تعرضه عليّ، وبما أنّ أول الشهر بعد غد فسيكون أجرك خمسين فرنكا في الشهر.

كان «چوليان» على وشك أن يغرق في الضحك، لكنّه ظلّ مذهولاً، وسكت عنه الغضب، ثم قال في نفسه: لم يكن احتقاري بهذا الحيوان كافياً، إنه يقدّم ولا شك أكبر اعتذار تقدم عليه نفسه الوضيعة.

وكان الأطفال ينصتون إلى حديثهما في ذهول وعجب، فجروا إلى الحديقة ليخبروا والدتهم بما يدور بين أبيهم ومعلمهم، فعلمت منهم حينئذ أنّ «چوليان» كان غاضباً كل الغضب، ولكنّ مرتبه الشهري ارتفع إلى خمسين فرنكاً، وتبع «چوليان» الأطفال بحكم العادة، دون أن يلقي نظرة على «دى رينال» المغيظ المحنق الذي يقول في نفسه: هذا مبلغ جديد أخسره بسبب ڤالنو، ثمانية وستون ومائة فرنك ضحيتها الآن من أجله وهذا يحملني على أن أتحدث إليه في صراحة عن مشروع التوريد للأطفال اللقطاء.

وبعد لحظات قليلة، ألفى «چوليان» نفسه أمام «السيد دى رينال» فقال له:

- أنا في حاجة إلى أن أعترف أمام الأب شيلان، فلي الشرف أن أخبرك بتغيّبي بضع ساعات.

فأجابه العمدة في رياء ظاهر وضحكة كاذبة:

- لك أن تتغيّب طول اليوم يا عزيزي «چوليان»، وإذا أحببت أن تغيب غداً كذلك يا صديقي فافعل، ثم خذ حصان البستاني لتركبه إلى ڤريير.

وعاد «دى رينال» يحدث نفسه قائلاً: ها هو ذا ذاهب إلى ڤريير ليلقى ڤالنو ويخبره بما اعتزمه، إنه لم يعدني وعداً صريحاً، ولكن علينا ألاّ نتعجل الأمور وأن نترك أفكار هذا الشاب تفتر قليلاً حتى تخمد حماسته.

وأسرع «چوليان» يخترق الغابات الكبيرة التي تصل بين ڤرجى وڤريير. ولم يشأ أن يذهب تواً إلى الأب شيلان لأنه لا يريد أن يمثل في النفاق دوراً جديداً، فحرص على أن يعرف حقيقة ما يدور بنفسه وأن يستمع في أناة وتؤدة إلى المشاعر المختلفة التي تهزّ قلبه هزاً عنيفاً. وابتعد عن أعين الناس جميعاً فأخذ يقول في نفسه: لقد كسبت معركة! نعم قد انتصرت في معركة!

وأضفت هذه الجملة على موقفه لوناً رائعاً جميلاً، وأعادت إلى نفسه الهدوء والسكينة، ثم قال: وأصبح أجرى خمسين فرنكا في الشهر، ولكن «السيد دى رينال» لم يوافق على ذلك اعتباطاً، بل إنه في خوف شديد، فيا تُرى ما مصدر ذعره؟

وتخيّل ««چوليان»» أنه استطاع أن يبعث الرعب في قلب هذا الرجل الغني الخطير وأنه تمكن من أن يثور في وجهه منذ ساعة، فبعثت هذه الفكرة في نفسه سكينة واستقرار. وبدأ يحسّ جمال الغابات التي هو فيها، ويشعر بروعة المناظر التي تحتلها

عيناه.

وسار في طريق تنتشر فيه صخور ضخمة عارية سقطت من الجبل من زمن بعيد واستقرت وسط الغابة التي نمت بها أشجار باسقة من الزأن. وألقت الصخور ظلالها على الأرض فلطفت من حرارة الشمس على حين كانت أشعتها على بعد ثلاث خطوات من الظل شديدة قاسية، لا يستطيع الماشي أن يتمهّل في سيره قليلاً من شدة وهجها.

واستراح «چوليان» فترة في ظلال الصخور ثم تسلّقها، فإذا به على مقربة من طريق ضيّق غير ظاهر، لا يطرقه إلاّ رعاة العنز. ورأى نفسه قائماً فوق صخرة ضخمة، واثقا أنه بمعزل عن الناس جميعاً. وجعله هذا الموقف الماديّ يبتسم، إذ صوّر له مكانة رفيعة يرجو من كل قلبه أن ينالها بين الناس.

وأسبغ عليه هواء الجبال المنعش سكينة، وأدخل في نفسه فرحاً وسروراً، حتى أحسّ أن قلبه لا ينطوي على حقد شخصيّ لعمدة ڤريير، بل هو يراه ممثلاً لطبقة الأغنياء السفهاء في كلّ أرجاء العالم، تلك الطبقة التي يزدريها «چوليان» أشدّ الازدراء، فهو إذن لا يكره «دى رينال» شخصياً على الرغم من الحركات العنيفة التي أقدم عليها أمامه وثورة الغضب التي أظهرها له. ولو أنّ الفرصة أتاحت لـ« «چوليان» » ألا يرى العمدة ثمانية أيام متوالية لنسيه تمام النسيان، ولنسى كذلك قصره وكلابه وأطفاله وأسرته. ثم أخذ يتحدث إلى نفسه: لقد أجبرته على أكبر تضحية وإن كنت لا أدري السرّ في ذلك؟ ماذا؟ أأصبح أجري أكثر من خمسين إيكو في العام؟ وقبل ذلك بلحظات نجوت من خطر شديد كاد يحيق بي، فانتصرت اليوم مرتين، انتصارين رائعين، إلاّ أن الانتصار الثاني لا فضل لي فيه، يجب أن أعرف كيف تم لي ذلك؟ ولكن من الخير أن أترك هذه البحوث العويصة حتى الغد.

وقف «چوليان» على الصخرة العالية ونظر إلى السماء، وقد التهب جسمه بشمس «أغسطس» المحرقة، وكانت الزيزان تغرّد في الحقول تحت الصخرة التي وقف عليها، وإذا ما سكتت، لفّ الكون حوله صمت عميق، وكان يرى تحت قدميه مساحات شاسعة تبلغ عشرين فرسخاً، وفوق رأسه زيزان تخرج من الصخور العالية بين الفينة والفينة لتطير في السماء في صمت وسكون. تطلّع «چوليان» إلى هذه الجوارح، وتتبعها في طيرانها بنظرات تلقائية، فأعجب بحركاتها الساكنة القوية، وحسدها على قوتها وعزلتها.

وقال في نفسه: كان هذا مصير ناپليون، فهل يصبح يوماً من الأيام مصيري؟!

الفصل الحادي عشر

سهرة

وأما چوليا فكانت لا تزال رقيقة رغم فتورها،
وانسحبت يدها الصغيرة الرخصة مرتعشة من يده بعد
أن ضغطتها ضغطاً رفيقاً هز كيانه، مع أنه كان رقيقاً
خفيفاً لم يعده العقل إلا طيف خيال.
دون جوان: فقرة ١:٧١

كان على «چوليان» أن يظهر في ڤريير، وقد خدمته المصادفات السعيدة، فلقى السيد ڤالنو وهو يهمّ بمغادرة دار الخوري. وأسرع فقصّ عليه زيادة أجره. ولما عاد إلى ڤرچى لم ينزل إلى الحديقة إلا بعد أن أرخى الليل سدوله، وكان مضعضع النفس من الانفعالات الكثيرة التي لقيها في يومه، والتي هزت مشاعره هزاً عنيفاً. ثم فكر في السيدتين سائلاً نفسه: ماذا أقول لهما؟ ذلك لأنه لم يكن الليلة على استعداد لأن ينزل إلى هذا المستوى العقلي التافه، حتى يجاري السيدتين فيما تخوض فيه أفكار النساء جميعاً ليزيد من اهتمامهما، وهما لا يتناولان إلا صغائر الأمور. حكمت مدام درڤيل وصديقتها على «چوليان» بالغموض، وكان هو لا يفهم من حديثهما إلاّ نصف ما يسمع منهما، وذلك للقوة، أو على الأصح لعظمة المشاعر التي تؤثر في كيان هذا الشاب الطموح، إن جاز لي أن أقول ذلك. لقد كان في نفس هذا المخلوق الغريب عاصفة في كل يوم تقريباً.

دخل الحديقة وهو مستعدّ لسماع ما تقوله هاتان القريبتان الجميلتان، وكانتا تنتظران قدومه بفارغ الصبر. واتخذ مكانه المعهود إلى جنب «مدام دى رينال»، واشتدت حلكة الظلام فأراد أن يمسك اليد البيضاء التي تتكيء على ظهر المقعد، والتي كان يراها منذ وقت طويل. وأمسكها فترددت «مدام دى رينال» قليلاً، ثم سحبتها في حركة غاضبة. ولم يكن «چوليان» يمانع أن يمسك من جديد تلك اليد الجميلة الرخصة، وهو مواصل حديثه الحلو الذي يسوده المرح، لولا أنّه سمع صوت «السيد دى رينال» وهو يقترب منهم. وكانت كلماته البذيئة لا تزال ترنّ في أذني «چوليان» منذ الصباح، فقال في نفسه: أليست خير وسيلة للاستهزاء بهذا الرجل القويّ الغني الخطير الشأن أن أتناول يد زوجه في حضوره؛ وإذاً سأقدم على هذا، أنا الذي قد بالغ في احتقاري!

ومنذ هذه اللحظة، شملته سكينة لم يعتدها خلقه من قبل، لكنها ما لبثت أن فارقته؛ وودّ في قلق شديد أن تترك له السيدة يدها، فلم يستطع التفكير في شئ آخر.

كان «دى رينال» يتحدّث عن السياسة وهو غضبان، لأن اثنين أو ثلاثة من أصحاب الصناعات في ڤريير أصبحوا أكثر منه مالاً، وهم يعملون الآن على الوقوف في وجهه في

الانتخابات، وكانت مدام درڤيل تصغي إلى حديث العمدة. أما «چوليان» فكان حانقاً على هذه الأحاديث، فاقترب بمقعده من «مدام دى رينال»، والظلام الدامس يخفي كل حركة، وجرؤ فوضع يده بالقرب من ذراعها الجميلة المكشوفة، فما لبث أن اضطرب وفقد كل سيطرة على نفسه. وقرب خدّه من ذراعها الجميلة ثم اندفع فوضع عليها شفتيه.

ارتعشت «مدام دى رينال»، لأن زوجها على بعد أربع خطوات، وأسرعت في مدّ يدها إليه، وحاولت في نفس الوقت أن تدفعه عنها قليلاً. كل هذا كان يحدث والزوج لا يزال مشغولاً بصبّ اللعنات على هذه المخلوقات التافهة وعلى اليعاقبة المتطرفين الذين أثروا ثراء واسعاً. أما «چوليان» فكان مشغولاً بتقبيل يد «مدام دى رينال» تقبيلاً حاراً يفيض بالعواطف الثائرة، أو هذا هو على الأقل ما بدا «لمدام دى رينال» من قبلات «چوليان»، مع أن هذه السيدة البائسة قد قام الدليل لديها اليوم على أن الرجل الذي تعبده دون أن تعترف هي بذلك يحبّ امرأة أخرى! وقد ظلّت فريسة لآلام شديدة أثناء غيابه جعلتها تفكر وتقول في نفسها:

- ماذا بي! هل أحببت وأنا السيدة المتزوجة؟ هل أصبحت عاشقة؟! إنّني لم أشعر من قبل في حياتى الزوجية بهذه الحماقة المضلة التي لا أستطيع معها أن أحوّل عن «چوليان» أفكاري. وهو في الواقع لا يزال طفلاً يجلّني كل الإجلال! هذا جنون عارض! وماذا يضير زوجي مهما تكن العواطف التي أكنّها لهذا الشاب؟ وزوجي لا يحب هذا اللون الخيالي من الحديث الذي يدور بيني وبين «چوليان»، لأنه لا يعنى إلا بأعماله ومصالحه، إذن فأنا لا أعطي «چوليان» شيئاً على حساب زوجي.

هذه النفس الساذجة الطاهرة التي أغراها الحبّ للمرة الأولى لا تعرف النفاق وقد ضلت دون أن تشعر، لكن الفضيلة التي طبعت عليها نفسها ظلّت قلقة مرتاعة. وكان هذا هو الصراع القائم في نفسها حين ظهر «چوليان» في الحديقة، وسمعته يتكلم ويتخذ له مقعداً بجوارها ؛ فسعدت بذلك سعادة عجبت منها أكثر ممّا فُتنت بها. لم تكن تتوقع شيئاً مما حدث، على أنها بعد لحظات قليلة قالت في نفسها: أيكفي أن يُرى «چوليان» ليغتفر له الناس كل خطاياه؟ وارتاعت لهذه الفكرة فانتزعت يدها منه.

كانت تلك القبلات الحارة، التي لا عهد لها بها، قد أنستها بغتة أن صديقها ربما أحبّ امرأة أخرى فصفحت عنه تماماً. ولمّا زايلها ألم الشكّ المرير، وسيطرت عليها السعادة التي لم تعرفها حتى في أحلامها، غمرتها موجة من الحب القوي والمرح الشديد. وسرّ الحاضرون بالسهرة الطيبة إلاّ «السيد دى رينال» الذي ما فتئ يذكر أولئك الذين درّت عليهم الصناعة مالاً كثيراً. ونسيَ «چوليان» طموحه القاتم، فلم يعد يذكر مشروعاته التي لا يستطيع تنفيذها بسهولة. ورأى نفسه تحت سلطان الجمال لأول مرة في حياته، وسبح في أحلام غامضة لذيذة لا عهد له بها من قبل، فأخذ يضغط ضغطاً خفيفاً على تلك اليد الجميلة التي فتنته. ولم يعد يسمع حركة أوراق الزيزفون التي تحركها ريح الليل، ولا

كلاب طاحون نهر الدو التي يسمع نباحها من بعيد. على أنّ شعوره هذا كان لذّة ولم يكن عاطفة؛ ولما عاد إلى غرفته لم يفكر إلا في سعادة واحدة وهي أن يكبّ على قراءة كتابه المختار ؛ ومن كان في سنّ العشرين لا يُعنى إلاّ بشيء واحد هو كيف يعيش في العالم وكيف يترك فيه أثراً.

وتخلّى عن كتابه المحبوب بسرعة لأنه دائم التفكير في انتصارات نابليون. ولمح في الانتصار الذي أحرزه لوناً جديداً فقال في نفسه: نعم لقد كسبت معركة، وعليّ أن أستفيد من هذا النصر. ينبغي أن أسحق كبرياء هذا الرجل الذي يعدّ من طبقة الأشراف، منتهزاً فرصة تقهقره -هذا هو نابليون بعينه قطعاً- يجب أن أطلب إجازة لمدة ثلاثة أيام أقضيها عند صديقي فوكيه، وإذا رفض طلبي فاوضته من جديد، ولابدّ أنه سيستجيب إلى ما أطلب.

أمّا «مدام دى رينال» فلم يغمض لها طرف طول ليلتها ؛ وخيّل إليها أنها لم تنعم بالحياة قبل اليوم، فلم تفكر في غير هذه السعادة التي غمرتها حين كان «جوليان» يطبع على يدها قبلاته الحارة القوية. لكنّ فكرة واحدة وثبت إليها في صورة كلمة واحدة شنيعة: زانية! وسرعان ما صوّرت لها الكلمة أبشع الرذائل التي يجرّها حبّ الشهوة، وازدحمت في رأسها الصور الأليمة وغذّاها خيالها، وزاد في قوتها ووضوحها. وقد حاولت تلك السيدة أن تستبقي في ذاكرتها الصورة الرقيقة التي رسمتها لنفسها عن «جوليان»، وعن السعادة التي يضفيها عليها حبه، لكن المستقبل أخذ يظهر لها في صورة كريهة حتى رأت نفسها -سلفاً- مهينة حقيرة.

لحظات قاسية شديدة الوطأة على نفس «مدام دى رينال»، سبحت روحها بعدها في أماكن مجهولة. لقد شعرت بسعادة كبيرة تملأ نفسها بالأمس، ولكنّها الآن فريسة لأشد الآلام قسوة. لم تكن تفكر فى هذا العذاب المرّ الذى بلبل خاطرها، وخطر لها أن تفضي إلى زوجها بأنها تخشى أن تحبّ «جوليان». لكنها تذكرت -لحسن الحظ- قاعدة تعلمتها من عمتها ليلة زواجها وهي أنّ من الخطر أن تَعترف المرأة لزوجها بما يدور في نفسها لأن الزوج سيّد متسلط. واشتدّ بها الألم فجعلت تقلب كفّيها. تراءت لها صور متعارضة مؤلمة، فكانت تخشى تارة ألاّ تكون محبوبة، وتخشى تارة أخرى فكرة الجريمة والخيانة، كما لو كانت ستشدّ في الغد إلى عمود بميدان ڤربير وبجوارها لوحة كبيرة تعلن للغوغاء جريمة الزنا التي ارتكبتها. هي امرأة لا تعرف شيئاً من تجارب الحياة وليس لها خبرة بأمورها. يستوي عندها حتى في أشد حالاتها يقظة وانتباها أن تكون مذنبة أمام الله أو أمام الناس، فهي تخشى الله خشيتها ضجة يثيرها الناس من حولها لزلة أو جريمة.

وما تكاد تهدأ عن مساورتها فكرةُ الجريمة وما تجره عليها من ذيول العار والفضيحة وتعود إلى تفكيرها في حياة سعيدة بريئة تحياها مع «جوليان» في المستقبل كما كانت معه في الماضي، حتى لا تلبث أن تقع فريسة لهذه الفكرة المخيفة وهي أن «جوليان»

يحب امرأة سواها. كان شحوبه لا يزال ماثلا أمام عينيها حين خاف على صورة حبيبته الضياع أو الفضيحة إن رآها الناس. ورأت للمرة الأولى الرعب والفزع يظهران على وجهه الهادئ النبيل. على حين أنه لم يبد مثل هذا التأثر خوفاً عليها أو على أولادها. وزاد هذا الخاطر من آلامها التي وصلت إلى حدّ لا تحتمله نفوس البشر، وأخذت تصيح بغير وعي حتى استيقظت وصيفتها، ورأت «مدام دى رينال» بعد قليل، وعلى مقربة من فراشها، ضوءاً تحمله إليزا فصاحت وهي تحت سلطان جنونها:

- أهي أنت التي يحبها؟

وشدّ ما ذهلت الوصيفة حينما رأت اضطراب مولاتها، ولكنّها -لحسن الحظ- لم تنتبه إلى تلك العبارة الغريبة التي قالتها إذ شغلها عن ذلك ذهولها. وأحسّت «مدام دى رينال» ما وقعت فيه من حماقة فقالت:

- إنني محمومة، ويخيل إليّ أنني أهذي، فكوني على مقربة مني. وجعلها وجود إليزا تتغلب على أفكارها، فشعرت ببعض الراحة، وثاب إليها رشدها تماماً بعد أن كاد يفلت منها زمامه وهي تحت سلطان غفوتها. ثم رأت وصيفتها تحملق في وجهها، فتخلصت من نظراتها بأن أمرتها أن تقرأ لها الجريدة، فأخذت الفتاة تقرأ مقالاً طويلاً أتاح للسيدة فسحة من الزمن تتخذ فيها قراراً لا يخلو من عفاف وفضيلة، إذ عزمت وهي تسمع صوت وصيفتها المملّ على أن تعامل «چوليان» حين تراه معاملة فاترة خالية من كل تودّد.

الفصل الثاني عشر

رحلة

يرى المرء في باريس أناساً متأنقين، وقد يرى في
الريف أناساً على خلق عظيم

سييس

استطاع «چوليان» أن يحصل في الساعة الخامسة من اليوم التالي على إجازة ثلاثة أيام منحها إياه «السيد دى رينال»، وكانت زوجه لا تزال في مخدعها، وأحس الشاب رغبة في لقائها لأنه لا يزال يفكر في يدها الجميلة ؛ فنزل إلى الحديقة ليلقاها، لكنها عمدت إلى أن تطيل مدة انتظاره. ولو كان «چوليان» يحبها حقاً، لرآها حين أسندت جبهتها على الزجاج، وهي في الطبقة الأولى خلف مصراع نصف مفتوح، وأخذت تنظر إليه طويلاً. وعلى الرغم من قرارها السابق نزلت إلى الحديقة لتلقاه، وتورد وجهها الذي ما فارقه الشحوب من قبل.

هذه السيدة الساذجة كانت مضطربة ولا شك ... ملكت نفسها مشاعر الكبت والغضب فغيرت طابع السكون العميق الذي يرتسم عادة على وجهها، ويوحي باحتقار كل ما هو ماديّ وضيع، ويطبع وجهها الجميل بطابع روعة وفتنة.

رآها «چوليان» فهرول إليها، وتأمل جمال ذراعيها تحت شال وضع على عجل فما حجب جمالهما عن الأبصار. كان هواء الصباح منعشاً فزاد بهاء وجهها الذي أفاضت عليه اضطرابات الليل حساسية شديدة، فأصبح أكثر قابلية للانفعال، يظهر عليه كل شيء واضحاً جلياً. وفعل الجمال المتواضع العميق، الذي ينطوي على رأي وحسّ لا يكون في الطبقة الدنيا، فعله في «چوليان» فكشف عن ناحية في نفسه لم يكن يعرفها. كان معجباً بجمالها، يمنّي نفسه بلقاء ينطوي على الحب والعاطفة المشبوبة، لكنه ذهل من هذا الفتور الذي لقيه من «مدام دى رينال» لأنها حاولت ألا يظهر على وجهها شيء مما تلقاه من حب وعذاب، فأفلحت، حتى اعتقد «چوليان» أنها ترمي إلى أن تفهمه حقيقة وضعه منها. ماتت على شفتيه ابتسامة الفرح، وتذكر بغتة مكانته من المجتمع، وعلى الأخص في نظر هذه السيدة الغنية التي ترث ثروة طائلة، فتجهم وانطبعت على وجهه آيات الكبر والغضب، وحنق على نفسه كثيراً وندم على أنه أخّر موعد رحيله أكثر من ساعة ؛ فلم يجد إلا لقاء فيه تحقير ومهانة. وقال في نفسه: ليس في العالم أشد حمقاً من رجل يغضب على الآخرين، إن الحجر ليسقط على الأرض لأنه ثقيل، فهل كتب عليّ أن أظل طول حياتي طفلاً صغيراً؟ متى أتعلم هذه العادة الحسنة فأبذل من نفسي لهؤلاء الناس بمقدار

ما آخذ من مالهم؟ وإذا أردت أن أكون موضع تجلة منهم ومن نفسي، فعليّ أن أظهر لهم أن فقري هو الذي كتب عليّ أن أعيش معهم ليستظل بغناهم، أما قلبي فهو عنهم جد بعيد لا تستطيع قحتهم أن تناله بسوء، إنه في كوكب عال لا يصل إليه ما يبذلونه من إكرام أو ما يظهرونه من احتقار. وأفاضت على وجه المعلم الشاب هذه المشاعر التي ازدحمت في نفسه، أمارات تدل على القسوة والكبرياء المجروحة، اضطربت لها «مدام دى رينال» اضطراباً شديداً، فتبدّل فتورها الذي جعلته وسيلة للمحافظة على عفافها حين لقيت «چوليان»، إلى رغبة حقة في معرفة ما دهاه، ولم تغيّر فجأة هذا التغيّر؟ وانتهت بغتة أحاديث الصباح التافهة التي تتناول الصحة وجمال الجو، فلم يجد أحدهما ما يقوله، لكن «چوليان» كان أكثر منها ثباتاً لأن أعماله لم تكن عن عاطفة مشبوبة، فوجد سبيلاً سريعاً إلى أن يقول لها: إنه لا يؤمن بصداقة تقوم بينهما. ولم يحدثها عن الرحلة التي سيقوم بها، ثم حياها وانصرف.

وبينما كانت تنظر إليه وهو يغادر الحديقة -حزينة كاسفة البال لكبريائه القاسية التي نمّت عنها نظراته اليوم، وقد كانت بالأمس ظريفة رقيقة- جرى إليها ابنها الأكبر من أقصى الحديقة وقبّلها قائلاً:

– نحن في عطلة لأن السيد «چوليان» مسافر في رحلة.

وبعد أن سمعت هذه العبارة شعرت ببرودة قاتلة تسري في جسدها، لقد كانت شقية لتمسكها بالفضيلة، وكانت بضعفها أكثر شقاء. واستولى هذا الحادث الجديد على تفكيرها كله، فجعلها تتراجع كثيراً في القرارات الحكيمة التي كانت وليدة ليلتها الليلاء، ولم تعد المسألة لديها أن تقاوم رغبات معشوقها الظريف، بل في أن تتخلص تماماً من سلطانه عليها.

كان عليها أن تتناول الغداء مع من تعيش معهم، فزاد في ألمها أن حديث زوجها ومدام درڤيل وقت الغداء لم يكن إلا عن رحيل «چوليان»، وذكر العمدة أن لهجة «چوليان» وهو يطلب الإجازة كانت حازمة غير عادية. ثم أردف:

– مما لا شك فيه أن لدى الشاب الريفي مقترحات أغراه بها شخص آخر. وإذا كان هو ڤالنو فلابد أن سيشعر بخيبة كبيرة حين يعلم أن مرتب المعلم أصبح ستمائة فرنك سنويا. ويخيل إليّ أن ڤالنو قد طلب منه بالأمس في ڤريير مدة ثلاثة أيام يفكر فيها. وأراد السيد الصغير في هذا الصباح أن يفرّ مني حتى لا يخبرني بما استقرّ عليه رأيه فيما عرضت أنا عليه، فذهب إلى الجبل. وقد وصلت بنا الحال إلى حدّ أننا أصبحنا مضطرين إلى مداراة عامل بائس أخذ يظهر السفاهة والقحة وعلينا نحن أن نتحمل سوء أدبه!

فقالت «مدام دى رينال» في نفسها عند ذلك: لقد جهل زوجي مقدار ما أساء به إلى «چوليان» ومع ذلك ظنّ أنه سيتركنا، فماذا يكون أمري أنا معه؟ آه! لقد رُسم كل شيء! ولكي تستطيع البكاء في حرية، وتفرّ من أسئلة مدام درڤيل، ادعت أنّها تعاني صداعاً

شديداً، ثم قامت إلى فراشها. ولم يفت زوجها أن يسخر منها قبل خروجه قائلاً لها:
- هكذا شأن النساء، وإن في هذه الآلات المعقدة دائماً بعض الخلل.

وبينما كانت «مدام دي رينال» فريسة لأقصى آلام الحب الذي دفعتها إليه الظروف دفعاً فاستولى على كلّ مشاعرها -كان «چوليان» يشقّ طريقه مرحاً بين المناظر الجبلية الرائعة ليعبر سلسلة الجبال العالية الواقعة شمال ڤرچي، وكان الطريق الذي يسلكه يعلو شيئاً فشيئاً بين غابات الزان الباسقة، ثم يكوّن طرقاً كثيرة ملتوية فوق منحدر الجبل العالي الواقع في شمال وادي نهر الدو. وتمرّ نظراته من فوق التلال القليلة الإرتفاع التي تشمل مجرى نهر الدو إلى الجنوب فتقع على السهول الخصيبة في بورجونيا وبوچوليه. وإن تكن نفس هذا الشاب الطموح قليلة التأثر بهذا اللون من الجمال، فإنه كان لا يملك إلاّ أن يقف بين حين وحين ليلقي نظرة على المنظر الشاسع الذي يترك في النفوس أجمل الآثار. وأخيراً وصل إلى قمة الجبل العالي القريب من ذلك الطريق المعترض الذي يؤدي إلى الوادي المنعزل حيث يسكن صديقه فوكيه تاجر الأخشاب.

ولم يكن «چوليان» يتعجّل لقاء صديقه ولا مقابلة إنسان في هذا الوجود. كان مختفياً بين الصخور العارية كأنه طائر جارح، يرى من أعلى الجبل كلّ من يقترب منه مهما يكن بعيداً. واكتشف كهفاً في منحدر يكاد يكون عمودياً في صخرة من الصخور، فقصد إليه ثم جلس فيه، ولمعت عيناه ببريق السرور، وجعل يحدث نفسه: أنا هنا بعيد عن أذى الناس جميعاً . . . .

وملكه شعور قويّ فأخذ يدوّن أفكاره في لذة كبيرة، وإن كانت آراء شديدة الخطورة عليه! واستعان على الكتابة بحجر مربع جعله درجاً يستند عليه، ثم شغلته الكتابة عن كل شيء حوله، إلى أن رأى الشمس تغرب خلف الجبال البعيدة في بوچوليه. فساءل نفسه: لماذا لا أقضي ليلتي هنا ومعي الخبز وأنا حرّ طليق!

وصافحت أذنه كلمةُ الحرية فسبحت نفسه في عوالم أخرى، فقد أوحى إليه نفاقه أنه لن يكون حراً حتى في منزل صديقه فوكيه. وظل جالساً ورأسه بين يديه تغمره سعادة لم يظفر بها في حياته، وتسيطر عليه أحلامه ونشوة الحرية. ثم رأى أشعة الشمس تخبو شعاعاً بعد شعاع حتى غطى الكون ظلام دامس، فظلّت نفسه في تأمل ما كان يصوره له خياله ممّا سيلقاه في پاريس يوم أن يعيش فيها. تصور پاريسية جميلة أنيقة ظريفة لم ير مثلها في الريف، تحبه ويحبها، وإذا غاب عنها بعض الوقت فما ذلك إلا ليستكمل مجده ليصبح جديراً بأن تفنى في حبه.

ولو أن شاباً له خيال «چوليان» نشأ بين الحقائق المرة التي نشهدها في مجتمع پاريس، لأصابه خزي عظيم حينما يصل إلى تلك النقطة من القصة التي ينسجها خياله، ولا ختفت تلك الأعمال المجيدة كما يختفي الأمل في تحقيقها ليحل محلها المثل السائر الذي يعرفه جميع الناس: إنّ الرجل حين يفارق خليلته يتعرض بكل أسف إلى أن تخونه

في كل يوم مرتين أو ثلاثا! وهذا الشاب القرويّ يؤمن بأن الشيء الوحيد الذي يحول بينه وبين الأعمال المجيدة هو أن الفرصة لم تتح له بعد.

واختفى النور وحلّ الظلام الحالك، وكان على «چوليان» أن يقطع فرسخين حتى يصل إلى كوخ صديقه فوكيه. وهمّ بمغادرة الكهف فأشعل ناراً وأحرق بعناية كل ما كتبه. ثم وصل إلى صاحبه في الساعة الواحدة صباحاً، فعجب فوكيه من وصوله في هذه الساعة المتأخرة وإن كان هو لا يزال مكبًا على كتابة حساب أمواله. وفوكيه شاب طويل القامة، قبيح الوجه، له تقاطيع كبيرة خشنة، وأنف ضخم؛ إلاّ أن قبحه يخفي من ورائه سذاجة غير قليلة فطر عليها. وما كاد يرى «چوليان» حتى قال له:

- هل فسد الأمر بينك وبين «السيد دى رينال» حتى أتيت على غرة في هذه الساعة؟ فقصّ «چوليان» بطريقته حوادث أمسه وما جرى بينه وبين العمدة. فقال له فوكيه:

- ابق معي، فإني أراك تعرف «السيد دى رينال» والسيد ڤالنو وموجيرون نائب الحاكم والخوريّ شيلان. لقد استطعت أن تدرك دقائق أخلاق هؤلاء الناس. أنت أعلم مني بالحساب، وعلى هذا فسأسند إليك حساب تجارتي التي أربح منها ربحاً عظيماً. غير أن تعذر القيام بكل شيء، والخشية من أن أقع على لصّ يسرق أموالي -إذا أشركته معي- يمنعاني من أن أقدم على أعمال أستطيعها كل يوم وأربح من ورائها ربحاً طائلاً. لا يكاد يمضي شهر واحد لا يربح مني فيه ميشو دى سانت أمان ستة آلاف من الفرنكات، مع أني قابلته عرضاً أثناء ضعفه في پونتارلييه، ولم أكن رأيته منذ ستة أعوام. فلماذا لا تكسب أنت هذا المبلغ أو على الأقل نصفه؟ واليوم الذي تشترك معي فيه سأدخل المزاد في تلك المجموعة من الأخشاب وسيتخلّى لي عنها المشترون جميعاً. فلتكن شريكاً لي.

غضب «چوليان» من هذا العرض لأنه صدم غروره وجنونه. ثم أعدّ الصديقان طعامهما بأيديهما كأنهما أبطال هومير، لأن فوكيه كان يعيش وحده؛ وأطلع «چوليان» على حسابه أثناء تناول الطعام، وبّين له ما تدره عليه تجارة الخشب من أموال طائلة. وكان فوكيه يؤمن تماماً بذكاء «چوليان» وقوة خلقه.

وخلا «چوليان» بنفسه في غرفة من خشب الصنوبر فأخذ يقول: لا شكّ أنني أستطيع أن أربح هنا بضعة آلاف من الفرنكات، ثم أنتظم بعد ذلك في الجيش أو في الكنيسة وفق ما ستكون عليه أهواء العصر في فرنسا! والمال الذي أبتغيه كفيل بأن يذلل العقبات التي تتعرض سبيلي. وحياة العزلة التي سأحياها في هذا الجبل ستتيح لي أن أتخلّص من بعض جهلي المطبق، وتمكنني من معرفة ما يدور على ألسنة الناس في الصالونات. ولكن فوكيه لا يريد أن يتزوج ويؤكد لي أنّ العزلة تشقيه، ولا شك في أنه حين يتخذني شريكاً وأنا لا مال لي - إنما يرمي من وراء ذلك إلى أن أبقى معه رفيقاً لا أفارقه.

ثم صاح غاضباً: أ أخون صديقي؟

وفي الحق أنه لم يستطع في هذه المرة أن يقبل فكرة تحمله على ألاّ يكون رقيقاً مع رجل يحبّه، وإن كان النفاق وانعدام التودّد هما ما يحققان لنفس «چوليان» السلام. على أنه شعر فجأة بسعادة، فقد وجد ما يعتذر به لصديقه حين أخذ يحدث نفسه: ماذا! أ أنفق من حياتي سبعة أعوام أو ثمانية أعيشها وضيعاً! ويصبح عمري بعد ذلك ثمانية وعشرين عاماً وهو العمر الذي انتهى فيه نابليون من القيام بأمجد الأعمال! حينما أكسب مالاً بطريقة مجهولة من متابعة بيع الأخشاب، وكسب مودة بعض اللصوص من المرءوسين، فمن يضمن لي أنّ النار المقدسة التي تتيح للمرء أن يبني مجده تظلّ متأججة في صدري لا تخبو حرارتها؟

وفي اليوم التالي اعتذر «چوليان» في هدوء لصديقه الطيب، وأخبره بأن ميله إلى الانخراط في سلك رجال الدين لا يسمح له أن يشتغل بالتجارة. وكان فوكيه قد بات ليلته معتقداً أنّ «چوليان» قد أصبح شريكه، فذهل عندما جابهه بهذا الرأي. وقال له:

– أتعلم أنني حين أشركك معي في تجارتي ستأخذ أربعة آلاف فرنك في السنة؟ ومع ذلك تأبى إلا أن تعود إلى هذا «السيد دى رينال» الذي يحتقرك كما يحتقر طيناً عالقاً بحذائه. وحينما تحصل على مبلغ مائتي لويس فما الذي يمنعك من أن تدخل المدرسة الأكليريكية؟ وإني أعدك بأكثر من هذا، فأتعهد لك بأن تسند إليك أحسن وظيفة لخوري في هذا الإقليم بأسره. ثم استطرد يقول بصوت منخفض: وذلك لأني أقدم أخشاب الوقود إلى السيد ... وإلى السيد ... وإلى السيد ... وهي من الزان الجيد، لكنهم يدفعون ثمناً بخساً، ثمن الخشب الأبيض، ولكن لا يمكن أن يستثمر المال بأحسن من هذا أبدا.

ولم يعدل «چوليان» عن رأيه على الرغم مما قاله صديقه، فظن فوكيه أن به لوثة في عقله. وحلّ اليوم الثالث فغادر «چوليان» صديقه في ساعة مبكرة ليقضي يومه بين صخور الجبل العالي. ووصل إلى كهفه الصغير هذه المرة وهو غير هادىء النفس لما عرضه عليه صديقه. ولم يكن في هذه المرة مثل هرقل متردداً بين الفضيلة والرذيلة، بل كان متردداً بين أن يعيش مغموراً عيشة تضمن له لوناً من الرخاء، وبين أحلام البطولة التي يتطلع إليها شبابه. قال في نفسه: لم أوهب بعد صلابة قوية ولا حزماً صحيحاً –وكان هذا هو الشك الذي يسبب له أذى شديداً– فأنا لست إذن من طينة العظماء ما دمت أخشى أن أمضي ثمانية أعوام في تحصيل قوتي فأفقد بهذا نشاطاً فياضاً هو السر في كل الأعمال الخارقة المجيدة.

الفصل الثالث عشر

الجوارب الأنيقة

القصة مرآة يجتلي فيها الإنسان حوادث الحياة طوال عمره.

سان ريال

لما رأى «چوليان» وهو في ڤرچي الآثار الرائعة التي خلفتها الكنيسة القديمة، فطن إلى أنه لم يفكر في «مدام دى رينال» مرة واحدة منذ يومين، فقال في نفسه: لقد ذكرتني هذه المرأة منذ يومين قبيل رحيلي بالفرق الشاسع الذي يفصل كلاً منا عن الآخر، فقد أشعرتني بأني ابن عامل، لتظهر لي -ولا شك- تدمها على أن تركتني أقبل يدها وأضغط عليها ليلة رحيلي. ولكن كم هي جميلة هذه اليد! كم هي ظريفة! وكم تنطوي نظرات هذه السيدة على نبل عظيم!

وأصبح «چوليان» أهدأ تفكيراً منذ أن أتيحت له فرصة الثراء لو عمل مع صديقه فوكيه، ولم يعد يغضب للفكرة التي تسلطت عليه من قبل وهي أنه فقير وضيع في نظر كل الناس. وأضحى كمن يقف فوق قمة عالية يستطيع الحكم على ما يسميه فقره المدقع ويتحكم فيه وهو ينظر إلى السعة التي يعدها غنى. ومع ذلك كله كان بعيداً عن أن يكون فيلسوفاً، لكنه أحس بعض حذق كسبه من رحلته في الجبل.

أذهله الاضطراب الذي سيحدث «لمدام دى رينال» حين تصغي إلى قصة رحلته عندما تطلب منه أن يقصها عليها.

كان فوكيه قد تحدث إلى «چوليان» عن مشروعات زواجه وعن حبه العاثر، وأفضى إليه في ذلك باعترافات طويلة شغلت حديث الصديقين كله. وأخبره بأنه سعد بالحب في سن مبكرة ولكنه اكتشف أنه لم يكن هو المحبوب وحده. أثارت هذه القصص دهشة «چوليان» وعلمته أشياء جديدة كثيرة، وكانت حياة العزلة القائمة على الخيال والحذر من الناس قد حرمته كل ما تستنير به البصيرة.

كانت «مدام دى رينال» فريسة لآلام شديدة أثناء غيابه عنها حتى لم تقو على احتمالها فمرضت ؛ ولما عاد قالت لها مدام درڤيل:

- إن حالتك لا تسمح لك بالنزول إلى الحديقة هذا المساء، فرطوبة الجو تزيد في تعبك.

وتطلعت مدام درڤيل في عجب شديد إلى تأنق صديقتها ؛ فقد لبست جوارب أنيقة

وحذاء صغيراً جميلاً اشترته من پاريس، وكانت من قبل لا تهتم بشيء من ذلك حتى أنّبها زوجها على بساطة ثيابها. وكانت مكبّة منذ ثلاثة أيام على حياكة ثوب جديد من نسيج جميل استهوى ذوق النساء فشاع بينهن. واستحثت إليزا في إنهاء هذا الثوب الصيفي الرائع، فانتهت منه الوصيفة قبل وصول «چوليان» بلحظات قصار، ثم ارتدته «مدام دى رينال» في الحال. لذلك أصبح شك مدام درڤيل يقيناً وقالت في نفسها: إنها تحبه فيالها من بائسة! ثم أدركت سرّ ما كان يعتريها من مظاهر عجيبة للمرض.

رأتها تحدّث «چوليان» وقد تبدلت حمرتها الشديدة صفرة، وبان القلق في عينيها اللتين شخصتا إلى عينى المعلم الشاب زمناً طويلاً وصبرها نافذ لتعرف ما عزم عليه: أيغادر منزلهم؟ أم، يا ترى، سيبقى معهم؟ ولم يكن «چوليان» قد فكّر في هذا الأمر، فلم يذكر عنه شيئاً. وبعد صراع نفسيّ شديد جرؤت هي على أن تسأله في صوت مضطرب يحمل ما في قلبها من حب شديد له:

– هل ستترك تلاميذك لتعمل في جهة أخرى؟

فذهل لاضطرابها ونظراتها، وقال في نفسه: هذه المرأة تحبني، ولكن كبرياءها ستجعلها تندم عمّا قليل على لمحة ضعفها الطارئ؛ وإذا ما اطمأنت إلى مقامي فلابد أن تعود إلى كبرها من جديد. وتصور «چوليان» موقفه في طرفة عين فتردد قليلاً ثم أجابها:

– يعزّ عليّ أن أغادر أطفالاً هم على غاية من الظرف وكرم المحتد، ولكنه يخيل إليّ أني سأضطر إلى ذلك اضطراراً، لأن لكل إنسان واجبات نحو نفسه. ونطق تلك الكلمات التي تعلّمها حديثاً مما يتردد غالباً على ألسنة الطبقة الأرستقراطية: «كريم المحتد» فملكته الكراهية والبغضاء حتى قال في نفسه: إنني في نظر هذه المرأة غير كريم المحتد.

كانت «مدام دى رينال» معجبة بنبوغه وجماله، تصغي إلى حديثه وقلبها يرتعد فرقاً من احتمال أن يرحل «چوليان» عنهم كما لمح لها في حديثه. وقد تعشى على مائدتها أصدقاء من ڤريير، و«چوليان» غائب فهنأوها بهذا المعلم الشاب الذي يعدّ كنزاً عثر عليه زوجها في عبارات تنمّ عن حسدهم وغيرتهم، وإن كانوا لا يعلمون شيئاً مما أصابه الأطفال من تقدّم على يدي «چوليان»، ولا يفهمون من ذلك كثيراً ولا قليلاً. لقد كان الإعجاب شديداً بهذا الاب الذي يحفظ الإنجيل باللاتينية عن ظهر قلب، وهو إعجاب قد يستمرّ قرناً كاملا عند أهل ڤريير جميعاً.

ما كان «چوليان» يعلم شيئاً عن إعجاب الناس به؛ لأنه ما كان يتحدث إلى أحد في ڤريير. ولو أنّ «مدام دى رينال» وهبت قليلاً من رباطة الجأش لأخبرته بما نال من شهرة وحسن سمعة بين السكان فأرضت بذلك كبرياءه، ولأصبح معها رقيقاً ظريفاً وبخاصة بعد ما أعجب بثوبها الجديد الذى كان يروقها كما راقها ما قاله لها «چوليان». فأرادت أن تتنزه

في الحديقة، وما لبثت أن قالت إنها غير قادرة على السير فاستندت إلى ذراعه، ولكنها زادت ضعفاً وفارقها ما بقيّ من قواها حين أحسّت ذراعه.

كان الليل قد أرخى سدوله، وما كادوا يجلسون حتى عمد «چوليان» إلى أن يتمتع بما يعدّه امتيازاً قديماً له، فأدنى شفتيه من ذراع جارته الجميلة وأمسك بيدها وهو يفكر في جرأة فوكيه مع خليلاته، لا في «مدام دى رينال»، لأن كلمة «كريم الأصل» كان وقعها لا يزال ثقيلاً على قلبه.

وضُغطت يده لكنه لم يشعر بلذة، وظلّ جامداً غير شاكر ولا فخور بما تبديه من حركات تعبّر عن الحب؛ ولم يتأثر بجمالها ولا أناقتها، كلاً ولا بسحر ثيابها. ومما لا شكّ فيه أن نقاء النفس وتحرّر الشاعر من البغضاء عامل يطيل أيام الشباب؛ وأن الشيخوخة تدرك الوجوه أول ما تدرك في معظم النساء الجميلات.

وظلّ «چوليان» عابساً طول السهرة؛ كان غضبه حتى الآن منصباً على المجتمع والمصادفات؛ ولكن منذ عرض عليه صديقه فوكيه تلك الطريقة الوضيعة التي تحقق له الثروة، انصبّ غضبه على نفسه. كان «چوليان» غارقاً في تفكيره تماماً، وإن تحدث إلى السيدتين بين الحين والحين ببضع كلمات، وكان قد تخلّى عن يد صديقته على غير وعي منه، فتألمت السيدة المسكينة مما فعل، واضطربت نفسها وتكشفت لها عاقبة أمرها.

لو أنها كانت واثقة من حبه لها، لدفعتها الفضيلة إلى أن تظهر أمامه بمظهر القوة، لكنها اضطربت مخافة أن تفقده إلى الأبد، وأضلها الحب ضلالاً بعيداً حتى حملها على أن تمدّ يدها لتمسك يد صديقها التي كانت ممدودة على ظهر أحد المقاعد، وهو غافل عن نفسه. فأيقظت بهذا نفس ذلك الشاب الطموح: ودّ لو رأى ما أقدمت عليه صديقته كلُّ أولئك الأشراف المتكبرين الذين ينظرون إليه وهو بين الأطفال على طرف المائدة المنخفض نظرات متعالية شامخة. ولكنه عاد يقول في نفسه: لن تستطيع هذه المرأة أن تحتقرني بعد ذلك. ولهذا ينبغي أن ألبي نداء جمالها، وواجبي نحو نفسي يفرض عليّ أن أكون خليلها. ولم يكن مثل هذا ليطرأ على باله، لولا ما أفضى به صديقه فوكيه إليه من اعترافات تدل على السذاجة.

وسرّى عنه هذا القرار الفجائي بعض ما يلقاه، فأخذ يقول: عليّ أن أختار إحدى هاتين المرأتين. وودّ لو أنه غازل مدام درڤيل، لا لأنها أجمل من صديقتها ولا أكثر جاذبية، ولكن لأنها تعرفت به وهو معلم أكسبه علمه مجداً وشرفاً. أمّا صديقتها فقد عرفته ابن نجار يحمل كساءه تحت إبطه.

لم تره «مدام دى رينال» ظريفاً كيوم أن أتى إلى منزلها عاملاً يافعاً وقف بالباب لا يجرؤ على أن يدقّ الجرس.

وجعل يستعرض موقفه في ذهنه فانصرف عمّا فكر فيه من مغازلة مدام درڤيل التي

يحتمل أن تكون قد رأت ما تظهره صديقتها له من حب وهيام، وعاد إلى التفكير في «مدام دى رينال» فقال في نفسه: ماذا أعرفه عن خلق هذه المرأة؟ أنا لا أدري من أمرها إلا أنها انتزعت يدها من يدي قبل رحيلي، واليوم أنتزع يدي من يدها فتأخذها وتضغطها، فيا لها من فرصة أرد فيها على احتقارها باحتقار مثله! ولا يعلم إلا الله عدد عشاقها في الماضي! ويخيّل إليّ أنها إن اتخذتني خليلاً فما ذلك إلا لأننا نتقابل بسهولة. وهذا مع الأسف ضرر المدنية المبالغ فيها! لأن الشاب حين يبلغ العشرين وقد أوتي قسطاً من التعليم يحيا حياة بعيدة كل البعد عن سجيته وطبعه، وبذلك يصبح الحبّ لديه أثقل الواجبات.

وقد شاءت كبرياء هذا الشاب أن يقول في نفسه: ومما يحملني على أن أتصل بهذه المرأة، أنني لو أصبحت في المستقبل ثريّا وعاب عليّ الناس هذا العمل الوضيع الذي أزاوله، فإنني سأجعل من اتصالي بها عذراً أعتذر به إلى اللائمين قائلاً: إن الحب وحده هو الذي حملني في الماضي على أن أكون معلماً.

وانتزع «چوليان» يده من يدها، ثم تناولها مرة أخرى وأخذ يضغط عليها ؛ وحين انتصف الليل سألته «مدام دى رينال» وهما في طريقهما إلى الصالون بصوت خافت:

- هل ستتركنا حقاً؟ هل سترحل؟

فتنهد «چوليان» مجيباً :

- يجب أن أرحل لأني أحبك حباً جماً ... إنها لخطيئة ... ويا لها من خطيئة يقترفها قس شاب!

فاتكأت على ذراعه ومالت عليه حتى أحسّ خدها حرارة خدّه.

كانت لياليهما مختلفة متباينة: «فمدام دى رينال» تسيطر عليها لذة معنوية قوامها شرف وعفاف، إن الفتاة المدلّلة التي تعرف الحب في حداثتها تعتاد ما يحدثه في النفس من اضطراب، وحتى إذا بلغت سن الحب الحقيقي، فإنها لا تجد في الحب ما يلقاه المحبون من جدة طريفة. لم تقرأ «مدام دى رينال» قصصاً من قبل، لذلك كانت هذه الألوان الدقيقة التي تسبغ عليها سعادة الروح، جديدة عليها. ولم تطفيء حرارة نفسها حقيقةٌ مرّة ؛ كلا ولا شبح المستقبل. خالت أن سعادة لحظتها هذه ستبقى كذلك لعشرة أعوام مقبلة. وأما تلك الفكرة التي اضطربت لها قبل ذلك بأيام، وهي فكرة الفضيلة ويمين الإخلاص «للسيد دى رينال»، فقد استبعدتها عن خاطرها كلما وثبت إليه كأنما هي ضيف ثقيل ؛ وكم حدثت نفسها قائلة: لن أسمح لـ«چوليان» أن ينال مني شيئاً، بل سنعيش في المستقبل كما عشنا منذ شهر، ولن يكون لي أكثر من صديق.

الفصل الرابع عشر
المقص الإنجليزي

كانت فتاة في السادسة عشرة من عمرها وردية اللون،
ومع ذلك تصبغ وجهها بالأحمر.

پولیدوري

قلق «چوليان» من اقتراح فوكيه لأنه لم يستطع أن يقرّ في أمره شيئاً، وقال في نفسه: واسوأتاه! هل فقدت كلّ خلق؟ لم أكن أصلح جندياً في جيش ناپليون؛ على أن تلك القصة الغزلية التي بدأتها مع ربة الدار ستسلّيني بعض الوقت.

ولم تكن نفسه -لحسن حظه- تؤمن بما يقول لسانه عن هذه المسألة التي يعدّها ثانوية؛ بعث ثوبها الجميل الخوف في قلبه وكان يعدّه مقدمة لثياب الپاريسيات الأنيقة التي سيراها حين ينزل العاصمة. وحملته كبرياؤه على أن يعدّ لكل شيء عدّته ولا يبت في أمر بما يكون عفو الخاطر. ففكرّ في رسم مفصل لهذه المعركة على ضوء الاعترافات التي سمعها من فوكيه، وما قرأه من قصص عن الحبّ في الانجيل. وكان مضطرب النفس غير معترف باضطرابه، فأخذ يكتب هذا المنهج المفصل لتلك المعركة الغرامية.

وفي اليوم التالي انفرد بمدام دى رينال في الصالون فقالت له:

- أليس لك اسم آخر غير «چوليان»؟

فهزّه هذا السؤال المدّلل لأنه لم يكن أعدّ العدّة للإجابة عنه في البرنامج الذي رسمه. ولولا حماقته في أن أعدّ لكل شيء عدته لأسعفته البديهة والذكاء؛ وزادت المفاجأة نظراته جدّة وحيوية.

وهكذا فشل في الرد عليها وبالغ في الفشل، لكنها غفرت له لما رأت طويته رقيقة سليمة، بعد ما اعتقدت أنها الصفة الوحيدة التي تنقصه ليكون رجلاً كاملاً في نظرها. كانت تراه ذكياً نابغاً إلاّ أن طيبة القلب لم تكن من صفاته، إلى حدّ أن قالت لها مدام درڤيل:

- إن معلمك الشاب ليحملني على كثير من سوء الظن به، لأنه دائم التفكير ولا يأتي أمراً إلاّ بمقدار، إنه كثير النفاق.

خجل «چوليان»، وعزّ عليه ألاّ يستطيع الإجابة عن هذا السؤال المباغت وأخذ يقول في نفسه: ينبغي لرجل مثلي أن يتدارك ما وقع فيه من فشل! وانتهز فرصة انتقالهما من غرفة الى أخرى فاعتقد أنّ واجبه يلزمه أن يقبلها. فلم تكن القبلة معرية ولا حسنة الوقع

في نفسيهما معاً، بل كانت من الحماقة بحيث كاد أمرهما يفتضح.

واعتقدت «مدام دى رنيال» أنه مجنون، فذعرت ونفرت. وذكرتها حماقته بما حاوله معها ڤالنو من قبل ؛ وحدثت نفسها قائلة: إذاً ماذا يحدث لو كنّا في خلوة؟ وعادت إليها الفضيلة كاملة لأنّ الحبّ توارى، وعملت على أن يكون أحد أبنائها بالقرب منها دائماً ؛ فضجر «چوليان» طول يومه، وقضى نهاره في تنفيذ البرنامج الذي رسمه لإغرائها، ولكنّه لم يحسن التنفيذ. ولم ينظر إليها مرّة إلا وسألتها عيناه: فيم الغضب؟ ومع ذلك فلم يكن من الحمق بحيث لم يدرك أنه فشل في أن يكون ظريفاً معها كما فشل أيضاً في إغرائها.

وعجبت «مدام دى رينال» كثيراً من سلوكه الأحمق الجريء، وقالت في نفسها وهي شديدة الفرح: هذا حياء الحبّ في نفس الرجل الذكي! هل أستطيع أن أفهم من هذا أن منافستي فيه لم تحببه؟

وبعد الغداء، ذهبت إلى الصالون لتستقبل شاركودى موچيرون نائب حاكم براى. وكانت مكبّة تعمل على منسج صغير مرتفع ومدام درڤيل إلى جوارها. وفي هذا الوضع في وضح النهار، أخذ بطلنا «چوليان» يضغط بحذائه على قدم «مدام دى رنيال»، دون أن يهتم بوجود الزائر الغَزِل الذي كانت الجوارب الأنيقة والحذاء الپاريسي الصغير قد جذبت نظراته. ذعرت «مدام دى رنيال» ذعراً شديداً وتركت في الحال مقصها ولفائف الصوف والإبر تسقط على الأرض لتفسر الحماقة التي ارتكبها «چوليان» بأنها حركة أراد بها أن يمنع المقص من السقوط حين رآه يفلت. ولحسن حظها سقط هذا المقص الذي كان من صلب انجليزي فانكسر ؛ وكم ندمت لأن «چوليان» لم يكن على بعد قريب منها وقالت له:

- لقد رأيته قبلي وهو يسقط، وكان في استطاعتك أن تتناوله قبل أن يصل إلى الأرض،. لكنك لم تفلح في استعمال نشاطك كلّه إلا في أن تركلني ركلة قوية.

فخدع نائب الحاكم، ولكن مدام درڤيل لم تخدع، وقالت في نفسها: إن لهذا الشاب الجميل حركات حمقاء. ذلك لأن فن الحياة في إحدى عواصم الأقاليم لا يغتفر مثل هذه الأخطاء. ووجدت «مدام دى رنيال» فرصة مواتية فقالت لـ«چوليان»:

- كن حذراً! وأنا آمرك بهذا.

وأدرك «چوليان» ما في عمله من حماقة، فامتعض وناقش نفسه طويلاً ليعرف ما إذا كان ينبغي له أن يغضب من هذه الجملة: « أنا آمرك بهذا ». وكان شديد الغفلة حين دارت في خلده هذه الفكرة: كان في استطاعتها أن تقول: «أنا آمر بهذا» .. لو أن الأمر يتعلق بشيء في تعليم الأطفال ولكن المسألة تتناول الحب، فكان عليها أن تفترض المساواة تلك التي لا يقوم حب بغير وجودها. وضلت نفسه في آراء مبتذلة مطروقة وهو يفكر في المساواة، وردّد قول كورنيّ غاضباً، ذلك القول الذي تعلمه من مدام درڤيل منذ أيام: «إن الحب يخلق المساواة ولا يبحث عنها». ثم أصرّ بعد ذلك كله على أن يمثل دور دون چوان وإن لم تتح له الفرصة من قبل ليتخذ خليلة واحدة، فخانه التوفيق طول نهاره.

وسئم من نفسه ومن «مدام دى رنيال». ولم يطرأ على فكره إلا رأي واحد صحيح، وهو أنه يرتعد ارتعاداً شديداً حين يرى نفسه بجوارها في الحديقة إذا أقبل الليل وخيم الظلام. فطلب من «السيد دى رينال» أن يسمح له بالذهاب إلى ڤريير ليرى الخوريّ. وغادر المنزل بعد العشاء ولم يعد إلاّ في ساعة متأخرة من الليل.

قابل «چوليان» الأب شيلان فرآه مكبًا على نقل أثاثه، لأنه عزل من منصبه وحلّ محله الخورى مالون. وساعد «چوليان» صديقه الشيخ، ثم كتب إلى فوكيه خطاباً يقول فيه إنه رفض أول الأمر عروضه السخية لتعلقه بأمور الدين ولرغبته في أن يكون من رجال الكنيسة ؛ ولكنّه رأى اليوم مثلاً من أمثلة الظلم الصارخ، ربما حمله على أن يعدل عن رأيه ويقبل ما اقترحه عليه.

وهنأ نفسه بأنه أفلح في أن يتخذ من فصل خوريّ ڤريير عبرة جعلته يحرص على أن يظلّ الباب مفتوحاً فيشتغل بالتجارة إن تغلبت في نفسه نزعة الحذر المبتئس على نزعة البطولة.

الفصل الخامس عشر

صياح الدين

الحب في اللاتينية يسبب الموت ؛ فالموت إذاً يأتي من الحب. أما ما قبل الموت فتعب مضن ودسائس، ونوح وألم ودموع.

هجاء الحب

لو رزق «چوليان» شيئاً من اللباقة التي يعتقد أنه فُطر عليها، لهنّأ نفسه بما تركته رحلته إلى ڤربير من أثر في نفس صديقته، فقد أنساها غيابه حماقته وسفهه وإن ظلّ مكتئباً طول يومه. وحلّ المساء فبدا له رأى غريب أخبر به «مدام دى رنيال» في جرأة شديدة. إذ ما كادوا يجلسون في الحديقة حتى اقترب منها «چوليان»، ولم ينتظر ظلمة الليل فجعلها عرضة للأحاديث، ثم أدنى فمه من أذنها قائلاً لها:

– سأحضر الليلة في الساعة الثانية إلى غرفتك لأفضى إليك ببعض الأخبار.

كان مضطرباً أشد الاضطراب خشية ألاّ تجيب طلبه؛ وكان دور الاغراء الذي يمثله قد أرهقه أشدّ الأرهاق؛ ولو أنه استمع إلى نفسه لذهب إلى غرفته وأقام فيها بضعة أيام حتى لا يرى هاتين السيدتين. وقد أدرك أنّ سلوكه المتكلّف بالأمس لم يكن موفّقا، حتى أضاع الأثر الجميل الذي تركه في نفس صديقته في اليوم السابق؛ وقد كان في الواقع شديد الحيرة لا يدري ما يفعل.

ردّت «مدام دى رينال» على طلب صديقها ردّ المغيظ المحنق، وكانت صادقة في سخطها على ما جرؤ فحدثها به. وظن أنّ ردها الموجز ينطوي على الاحتقار حتى كاد يجزم بأن جوابها الموجز الخافت الهامس ما كان إلا أن قالت: أفٍّ لك!

فنهض من مكانه متعللاً بأنه سيتحدث إلى التلاميذ ثم ذهب إلى غرفتهم. ولما عاد إلى الحديقة جلس بجانب مدام درڤيل وعلى بعد واسع من «مدام دى رنيال»، يطمئن معه تماماً إلى أنه لن يمسك يدها. واتخذ الحديث صبغة جدية فأجاد فيه «چوليان» كل الإجادة. وكان يسكت بين لحظة وأخرى ليعمل فكره وهو يقول في نفسه: ألا أستطيع أن أجد سبيلاً واضحاً يحملها على أن تصارحني بالحب، إنها جعلتني أعتقد منذ ثلاثة أيام أنها رهن إشارتي!

كان مضطرباً لفشله اضطراباً عظيماً، وكان أخوف ما يخافه ألا يصادف ما يطمع فيه من نجاح. وآذنت ساعة الفراق في منتصف الليل، فحمله التشاؤم على الاعتقاد بأن مدام درڤيل تحتقره وربما كان موقفه مع «مدام دى رينال» ليس خيراً من هذا.

أوى إلى مخدعه و،لكنه لم ينم لما شعر به من خيبة شديدة. كلّ هذا ولم يفكر أبداً في أن يترك التكلف والحيلة وما رسمه من مشروعات ليعيش معها يوماً ما قانعاً بالسعادة التي يجلبها له النهار كما يفعل الأطفال.

لقد أجهد نفسه وعقله في اختراع خطط خالها محكمة، حتى إذا ما طبقها تبيّن له أنها فاشلة لا تغنى عنه شيئاً. ودقت ساعة القصر الثانية صباحاً، فاستيقظ شديد التعاسة. أيقظته دقاتها كما كان صياح الديك يوقظ القديس بطرس، فرأى نفسه مُقدماً على أحرج عمل يعمله. ولم يكن قد فكّر في هذا الاقتراح السفيه منذ اللحظة التي عرضه فيها، والذي قوبل منها أسوأ مقابلة!

جعل يحدث نفسه وهو ينهض من فراشه: لقد أخبرتها بأني سأذهب إلى مخدعها فى الساعة الثانية، وقد أكون قليل الخبرة فظاً كما يكون ابن فلاح. لقد عرّضت لي بذلك مدام درڤيل، ولكنني على الأقل لن أكون ضعيفاً.

وكان «چوليان» على حقّ في أن يطرى شجاعته لأنه لم يقدم في حياته على أخطر من هذه المحاولة. واضطرب وهو يفتح باب غرفته، حتى كادت تخذله ساقاه فاضطر إلى أن يستند إلى الحائط. كان حافي القدمين حين ذهب إلى غرفة «السيد دى رينال» ليتسمّع على بابه، فسمع غطيطه في النوم فآسفه أن لم يعد هناك عذر يتذرع به ليعدل عن الذهاب إلى مخدعها. ولكن يا إلهي! ماذا يبتغي هناك؟ لم يكن لديه مشروع، وإذا كانت هناك خطة فإن اضطرابه الشديد جعله في حالة لا تؤهله لأن ينال ما يبتغي. وعلى الجملة فقد كان اضطرابه أكثر ألف مرة من اضطراب أولئك الذين يساقون إلى الموت ؛ وصل إلى الممرّ الصغير المؤدي إلى غرفة «مدام دى رينال». وفتح الباب بيد مرتعشة فأحدث جلبة شديدة.

ورأى في الغرفة ضوءاً من مصباح صغير سهر على المدفأة، فكان وجوده سوء حظ جديد. وأبصرته يدخل الغرفة فغادرت فراشها مسرعة غاضبة وصاحت قائلة:

- يا لك من تعس! ثم سادت فترة اضطراب أنسته مشروعاته العقيمة فذكر دوره الحقيقي ؛ واعتقد أنه إذا لم يوفق إلى أن ينال إعجاب هذه الحسناء كان هذا عليه بلاء عظيماً. لامته، فلم يكن جوابه على لومها إلا أن ارتمى عند قدميها مقبلاً ركبتيها. وأغلظت له في القول فبكى.

ولما غادر غرفتها بعد ذلك بساعات، استطعنا أن نقول كما يقول القصصيون: لم يعد هناك ما يشتهيه! وفى الحقيقة أن الحب الذي أوحى به إليها وظهوره الفجائي هما اللذان خلعا عليه ظرفاً أخاذا وحققا له نصراً ما كان يناله لو أنه عمد إلى مهارته الخرقاء.

على أنه كان فى أسعد لحظاته معها فريسة لكبريائه الغريبة، فخيّل إليه أنه إنما يمثل دور رجل اعتاد قهر النساء وإخضاعهن، وبذل كثيراً في سبيل أن يظل يقظاً فأفسد بذلك ما فيه من ظرف. وبدل أن ينتبه إلى المشاعر التي خلقها في نفسها وإلى الوخزات الشديدة

التي يحسها ضميره، ظلّ واضعاً نصب عينيه فكرة «الواجب». كان يخشى دائماً أن يبتعد عن الأنموذج المثالي الذي فرض على نفسه أن يحتذيه حتى لا يناله خزي شديد ولا يشعر بتأنيب لاذع من ضميره. وعلى الجملة، فقد كانت صفاته التي تخلق منه شخصاً ممتازاً هي نفس الصفات التي حالت بينه وبين أن يتمتع بالسعادة وهي تحت قدميه؛ مثله في ذلك مثل فتاة في السادسة عشرة لها وجه نضير، لكنها تحرص على أن تورّد خدّيها بالأحمر قبل ذهابها إلى المرقص.

كانت «مدام دى رينال» مضطربة منذ عادت إلى غرفتها، ودخل عليها چوليان فارتاعت ارتياعاً شديداً. ورأت دموعه وما بدا عليه من مرارة اليأس، فزاد اضطرابها وفزعها. وحتى بعد أن لم يبق هناك ما تضنّ به عليه، كانت تدفعه عنها في سخط حقيقي، ثم تعود فترتمي بين أحضانه. وكان سلوكها في كل ما تأتيه معه غير خاضع لخطة رسمتها. فظنت إلى أنها اقترفت إثماً عظيماً لن يغفره الله لها فأخفت بيديها عن ناظريها صورة جهنم وهي تداعب «چوليان» أحرّ مداعبة. وموجز القول أن سعادة بطلنا لم يكن ينقصها شيء، حتى ولا تلك الحساسية الجيّاشة في المرأة التي ملكها منذ قليل. وظلت نشوتها تهز كيانها على الرغم منها حتى بعد أن خرج «چوليان»، كما ظلت تصارع ندماً كان يمزق قلبها.

- يا إلهي! أهذه هى السعادة؟ أهذا هو الحب؟!

كانت هذه أول فكرة لچوليان حين عاد إلى غرفته. لقد وقع تحت سلطان الذهول والاضطراب المضل الذي يستولي على النفس حين تنال ما صبت إليه من زمن طويل. لقد تعودت أن ترغب، ثم لم يعدّ لها ما ترغب فيه، ومع ذلك فليس لها ذكريات بعد. أما «چوليان» فكان كجندي عاد من عرض عسكري فجعل يستعيد من جديد تفاصيل كل ما قام به مسائلاً نفسه:

- هل قمت بما كان يجب عليّ أن أقوم به نحو نفسي؟ وهل أتقنت تمثيل دوري؟ وأي دور؟ إنه دور رجل اعتاد أن يكون موفقاً مع النساء.

الفصل السادس عشر

في اليوم التالي

وأدنى شفتيه من شفتيها وتلمس بيده سبائب شعرها
المبعثر المتموج.

دون جوان

لحسن حظ «جوليان» ولكي يتحقق له الفخر، كانت «مدام دى رينال» كثيرة الاضطراب والذهول، فلم تفطن إلى الحماقة التي أتاها هذا الرجل الذي صار في لحظة واحدة كلّ شيء لها في الوجود. ولما طلبت منه أن يعود إلى غرفته لأنّ ضوء النهار قد بدأ يظهر قالت له:

- آه يا إلهي! لو أن زوجي سمع جلبة لضعت إلى الأبد.

وكان لا يزال لدى «جوليان» وقت يستطيع أن يقول فيه شيئاً، فتذكر هذه العبارة:

- أتندمين على الحياة؟

- أه! إنني أندم عليها الآن كثيراً! ولكنني لا أندم أبداً على أنني عرفتك.

فرأى «جوليان» أن من الكرامة أن يعود عامداً إلى غرفته بعد طلوع النهار وألاّ يبدي حذرا. ثم كسب ميزّة جديدة في نظرها من انتباهه الدائم إليها وتتبع كل ما تأتيه من أعمال، فعل ذلك وهو تحت سيطرة فكرة جنونية هي أن يظهر بمظهر الخبير المحنك. ولما رأى «مدام دى رينال» ساعة الغداء، كان سلوكه حيالها ينطوي على حذر رائع.

أما هي فكانت لا تستطيع أن تنظر إليه دون أن تشبّ في وجهها حمرة شديدة، ولم تكن تستطيع أن تعيش لحظة دون أن تنظر إليه. وفطنت إلى اضطرابه وإلى الجهود التي كان يبذلها ليخفيه ولكنها تزيده اضطراباً. لم ينظر إليها إلا مرة واحدة فأعجبت باديء الأمر بحذره، ثم ارتاعت حين لم يحاول النظر إليها مرة أخرى، وقالت في نفسها: ألم يعد يحبني؟ وا أسفاه! أنا عجوز بالنسبة إليه، فالفرق بيننا عشرة أعوام.

وغادرت غرفة الطعام إلى الحديقة فضغطت على يد «جوليان» حتى أذهلته هذه الأمارة التي تدل على حب شديد، فنظر إليها نظرة حبّ لا يقاوم، لأنه رآها على المائدة أروع ما تكون فتنة وجمالاً، وما أطرق ببصره على الطعام إلاّ ليستقصي محاسنها. وشغلتها تلك النظرة عمّا ألمّ بها، وإن لم تقض تماماً على قلق ساورها وأخفت صوت ضميرها حيال زوجها.

ولم يلحظ هذا الزوج شيئاً وهم على المائدة ؛ وكذلك كانت مدام درڤيل، لكنها كانت موقنة بأن صديقتها على وشك السقوط. وظلّت طول يومها تتحدث إلى «مدام دى رينال» في جرأة وصراحة مصورة لها الخطر الذي تسير نحوه في صورة قاتمة وبعبارة غير سافرة.

كانت «مدام دى رينال» تتحرق شوقاً إلى أن تنفرد بچوليان لتسأله هل لا يزال يحبها ؟ وعلى الرغم من الوداعة التي طبعت عليها، فقد كانت على وشك أن تصارح صديقتها بأنها لجوج ثقيلة الوطأة. وحلّ المساء وقد رتبت مدام درڤيل كل شيء أحسن ترتيب، فقد جلست في الحديقة بين «مدام دى رينال» وبين «چوليان». وكان في ذهن «مدام دى رينال» صورة طلّية للسعادة هي: أن تتناول يد «چوليان» ثم ترفعها إلى شفتيها، ولكنها لم تستطع أن تتحدث إليه بكلمة واحدة. وزاد هذا العائق في اضطرابها، فشملها الندم. لقد أنبت «چوليان» على حماقة الليلة الماضية حين دخل عليها مخدعها، ومع هذا فقد كانت تخاف ألاّ يأتي إليها الليلة، فغادرت الحديقة في ساعة مبكرة وذهبت إلى غرفتها. واستولى عليها القلق فذهبت تنصت إلى ما يجري في غرفة «چوليان»، ولكنها لم تجرؤ على دخولها وإن كانت فريسة للاضطراب والحب. وتذكرت وهي في موقفها مثلاً ريفياً فحكمت على عملها هذا بأنه أحقر الأعمال.

لم يكن الخدم قد أووا جميعاً إلى مضاجعهم فاضطرها الحذر أخيراً أن تعود إلى مخدعها. ساعتان من الانتظار كانتا كقرنين من العذاب! وكان «چوليان» جدّ أمين على ما سمّاه الواجب، فلم يشأ أن يتأخر عن تنفيذ ما بدأه خطوة خطوة وفقاً للخطة التي رسمها.

ودقت الساعة الواحدة فتسلّل من غرفته، ثم تأكد أن صاحب الدار مستغرق في نومه فدخل على مدام دى رينال. ونال في هذه الليلة من صاحبته سعادة لم تتحقق له في الليلة السابقة ؛ لأنه نسي أو كاد ينسى أنه يمثل دوراً. فكانت له عينان تريان وأذنان تسمعان، وأحس في نفسه بعض هدوء حين حدثته عن سنها فقالت:

- وا أسفاه! أنا أكبرك بعشرة أعوام! فكيف تحبني؟

وكانت تألم حقاً من هذه الفكرة. لم يكن «چوليان» قد أدرك بؤسها، فلما رأى أنه شقاء حقيقي، كاد ينسى خوفه من أن يكون سخرية.

وزايلته كذلك تلك الفكرة الحمقاء وهي أنه في نظرها عشيق وضيع، وذلك لنشأته الحقيرة. ولما هدأ فيض مشاعر «چوليان» من خجل خليلته، بدأت تحس شيئاً من السعادة وتواتيها القدرة لتحكم على خليلها. ومن حسن الحظ أنه لم يكن كما كان بالأمس يبدو عليه التطبع المستعار الذي صبغ ليلتها السابقة بصبغة الانتصار لا بصبغة السرور. لو أنها فطنت إلى أن غايته أن يمثل معها دوراً لقضى هذا الاكتشاف المؤلم على سعادتها تماماً ؛ ولكنها لم تكن ترى شيئاً إلا تلك الحقيقة المرّة وهي فارق السن بينهما.

ولو أن نظريات الحب لم تكن ترد على خاطر «مدام دى رينال»، لكنها تعلم أن الفارق في السن يأتي بعد الفارق في الثروة، وهو مثار نكتة في الريف إذا تحدّث أهله عن

الحب.

ومرت أيام قلائل فأصبح «چوليان» مغرماً بها بكل ما أوتي من عاطفة وما فيه من شباب. وكان يقول في نفسه: يجب أن اعترف بأن فيها طيبة الملائكة فوق جمالها الرائع.

ثم كاد ينسى فكرة أنه يمثل معها دوراً، وأفضى إليها في لحظة تجاوبت فيها نفساهما بكل ما ينتابه من هواجس. وبهذا الاعتراف بلغ حبه فى قلبها غايته. فأخذت تفكر في لذة بالغة وتقول في نفسها: لم تكن لي غريمة في هذه السعادة! ثم جرؤت مرة وسألته عن الصورة التي كان يحرص عليها ويهتم بها فأقسم لها أنها صورة رجل.

كانت إذا خلت بنفسها وفكرت في هدوء، يكاد يذهلها أن مثل هذه السعادة موجودة، وأنها لم تدر بخلدها من قبل، فتقول:

- آه! ليتني عرفته منذ عشرة أعوام أيام كنت لا أزال جميلة!

كانت هذه الأفكار لا تخطر على بال «چوليان»، لأن حبه لا يزال نوعاً من الطموح، وكان السرور يملأ نفسه حين يرى هذه المرأة الثرية الجميلة رهن إشارته وهو الفقير البائس الوضيع.

واطمأن قلبها قليلاً حين رأته معجباً بها ينتشي بلقائها، فلم يعد يقلقها ما بينهما من فارق السن. ولو أنها أوتيت من الخبرة بعض ما تعرفه أترابها اللاتي يعشن في أماكن أكثر مدنية لانزعجت حين تعلم أن حبًا يكاد لا يقوم إلا على عنصر المفاجأة وحب الذات، حب مداه قصير.

وكان «چوليان» يعجب بقبعاتها وثيابها كثيراً عندما ينسى طموحه، ولا يملّ أبدا رائحة عطرها الذي يفوح من أردانها فيحمل السرور إلى نفسه ؛ وكثيرا ما كان يفتح صوان ملابسها ويظلّ واقفا أمامه ساعات طويلة، يتأمل بإعجاب ما فيه من جمال وحسن تنسيق. وكانت صديقته تتكيء عليه ناظرة إليه وتشاركه النظر إلى جواهرها وثياب عرسها التي كانت تملأ ليلة الزفاف سلّة من سلال العرس.

وكانت مدام دى رينال تقول في نفسها بعض الأحيان: ليتني تزوجت رجلاً مثله! فيا لها من نفس متأججة! ويا لها من حياة سعيدة إلى جواره!

لم يعش «چوليان» من قبل على مقربة من هذه الآلات المعقدة في عالم النساء الصاخب. وكان يقول في نفسه: محال أن أرى في پاريس أجمل مما أراه الآن! وزالت من نفسه عوائق كانت تحول بينه وبين السعادة، لأن إعجاب خليلته به في إخلاص وفرحها بوصاله جعلاه ينسى نظريته الخاطئة التي خلعت عليه سخرية تدعو إلى الشفقة في اللحظات الأولى لهذا الوصال. وعلى الرغم من نفاقه الفطري، كانت هناك لحظات يلذ له فيها أن يعترف لتلك السيدة الكبيرة التي تعجب به بجهله كثيراً من صغائر الأشياء. لقد رفعته مكانة خليلته إلى منزلة فوق مستوى نفسه. وأما «مدام دى رينال» فكانت تجد لذة

معنوية كبيرة في أن توقف هذا الشاب النابغ على حقيقة ما يجهله من تافه الأشياء، هذا الشاب الموهوب الذي ينتظر له الناس مستقبلاً زاهراً. ولم يكتم إعجابه به أحد حتى السيد ڤالنو ونائب الحاكم اللذان أصبحا أقل حمقاً. وأما مدام درڤيل، فكانت لا تشارك المعجبين بچوليان رأيهم. ودخل إلى نفسها اليأس من أمر عرفته حزراً وتخميناً، ورأت أن النصائح الحكيمة قد أصبحت بغيضة عند امرأة قد عميت بصيرتها حقاً، فغادرت ڤرچى دون أن تكشف عن عذر لم يطلب منها. ذرفت «مدام دى رينال» دمعة أو دمعتين على رحيل صديقتها، ثم ما لبثت أن شعرت بأن سعادتها قد زادت؛ لأن هذا الرحيل أتاح لها أن تظل طول النهار مع حبيبها وجهاً لوجه.

وقد أصبح «چوليان» يجد لذّة في الجلوس إلى صديقته، لأنه كلما خلا بنفسه طويلاً وثب إلى فكره من جديد اقتراح فوكيه، ذلك الاقتراح الذي رماه به القدر، فتضطرب له نفسه.

وفي الأيام الأولى لهذه الحياة الجديدة كانت هناك لحظات يجد فيها، وهو الذي لم يحب ولم يحببه من قبل إنسان، يجد السرور اللذيذ في أن يكون مخلصاً فيكاد يفضي إلى «مدام دى رينال» بطموحه الذي لما يزل قوام وجوده. وكثيراً ما ودّ لو استطاع أن يشاورها فيما أغراه به صديقه فوكيه بما اقترح عليه، لكنّ حادثة صغيرة حالت بينه وبين كل صراحة.

الفصل السابع عشر

النائب الأول

كم يشبه ربيع هذا الحب تلك البهجة الخادعة ليوم من أيام إبريل، تشرق فيه الشمس بكل جمالها ثم لا تلبث سحابة أن تخفي معالمه!

سيدان من فيرونا

وذات مساء والشمس تغرب، كان «چوليان» جالساً بجوار صديقته في أقصى البستان بعيدين عن أعين الرقباء، غارقاً في أحلامه مسائلاً نفسه: تُرى هل تدوم هذه اللحظات السعيدة إلى الأبد؟ وكان مضطرب النفس لأنه متردد لا يستقر على أمر؛ وتألم للبؤس القاسي الذي خيّم على مرحلة طفولته، وأفسد السنوات الأولى من شبابه القليل الغني، ثم صاح قائلا:

- آه! لقد كان ناپليون الرجل الحق الذي أرسله الله إلى شباب فرنسا! فمن يا ترى سيأتي بعده؟ وماذا يكون أمر أولئك البائسين بدونه، بل وأمر أولئك الذين نالوا من المال أكثر مما نلت أنا؟ ماذا يفعل الذين ليس لهم إلا مال قليل يتيح لهم قسطاً وافراً من التعليم، ولا يسمح لهم بأن يشتروا رجلاً في العشرين من عمره، ولا يعينهم في الحصول على منصب! ثم تنهد تنهداً عميقاً واستطرد: ومهما يكن من أمر فإن هذه الذكرى التي كتبها علينا القدر تحول بيننا وبين السعادة إلى الأبد!

والتفت إلى «مدام دى رينال» فوجدها متهجمة غاضبة تد ل هيئتها على الفتور والاحتقار، لأن هذا النوع من التفكير لا يليق في نظرها إلا بالخدم. نشأت في بحبوبة من العيش، فخيل إليها أن «چوليان» نشأ كما نشأت، وهذا أمر طبيعي؛ إنها تحبه أكثر مما تحب الحياة ألف مرة فلم تدخل في حسابها المال.

لكن «چوليان» ما كان يعلم شيئاً مما يدور بخلدها؛ رأى تقطيبها فهوى من علياء السعادة، وأسعفته بديهته، فحوّر قليلاً في كلامه ليدخل في روع هذه السيدة الأرستقراطية الجالسة على العشب الأخضر قريباً منه أن ما قاله ليس من كلامه، وإنما هو يسمعها ما سمعه يوم رحلته إلى صديقه تاجر الأخشاب. وهذا تفكير لا يليق إلا بالمارقين.

كانت «مدام دى رينال» لا تزال في غمرة قليلة من الفتور بعد أن كانت رقيقة كل الرقة، وقالت له:

- إياك والاختلاط بأمثال هؤلاء الناس!

فكان هذا التقطيب بل هذا التأنيب على عدم حذره، أول فشل مني به «چوليان» فقال في نفسه: إنها طيبة رقيقة، تحبني ما في ذلك شك ولكنها نشأت في معسكر أعدائي. هؤلاء الذين يرتعدون فرقاً من ذوي العقول الجبارة الذين لا يجدون مالاً يرفعهم إلى المناصب بعد أن ينالوا قسطاً من التعليم. وماذا يكون أمر هؤلاء النبلاء لو أننا تصارعنا معهم بسلاح واحد؟ فلو أصبحت أنا مثلاً عمدة ڤريير لكنت أميناً نزيها كالسيد دى رينال تماماً! ولعزلت الخوريّ والسيد ڤالنو ولقضيت على مفاسدهما، ولساد العدل في ڤرير! أنا لا أخشى مواهبهم، لأنهم يتخبطون.

أوشكت سعادة «چوليان» في ذلك اليوم أن تكون أبدية، كانت الجرأة تعوز بطلنا ليكون مخلصاً، وكان عليه أن يتشجع فيثير في الحال عراكاً بينه وبين صديقته، لأنها ذهلت مما قال «چوليان»، ولأنها كثيراً ما سمعت ممن يغشون مجالسها أن عودة روبسپير محتملة الوقوع وقد يظهر مرة أخرى من هؤلاء الشبان الذين ينتمون إلى الطبقة الفقيرة الوضيعة، وينالون حظاً كبيراً من التعلم. وظلت على فتورها زمناً طويلاً، فأثر ذلك في «چوليان». ثم خشيت أن تكون قد أسمعته مالا يحب دون أن تقصد، فحل الخوف محل الاشمئزاز حين سمعت هذا الرأي البغيض وظهر شقاؤها في وضوح على قسماتها التي تبدو ساذجة نقية حين تكون سعيدة النفس بعيدة عن الثقلاء.

وتخلص «چوليان» من أحلامه فأصبح أكثر هدوءاً وأقل عشقاً، ورأى أن من الحذر ألا يدخل مخدع «مدام دى رينال»، بل من الخير أن تنتقل هي إلى غرفته، فلو أن خادماً رآها تعدو في منزلها عدواً لالتمس لذلك عشرين عذراً.

إلا أن مجيئها إليه كان لا يخلو من الأضرار، فقد تسلم «چوليان» من فوكيه كتباً لا يستطيع طالب اللاهوت أن يشتريها من إحدى المكتبات، ولا يستطيع أن يقرأها إلا إذا أوى إلى غرفته في الليل. ولم يكن يسرّه أن تحول زيارتها بينه وبين القراءة، وهو يعلم أن مجرد انتظار موعدها كفيل وحده بأن يمنعه من المطالعة، كما حدث بالأمس على إثر الخلاف الذي نشب بينهما في الحديقة. إنه مدين لها بلون جديد من ألوان فهم ما يقرأ، فقد علمته الكثير من الأشياء الصغيرة التي استطاع أن يسأل عنها. وكان ذكاؤه لا يسعفه في التغلب على جهله بها، نشأ بعيداً عن المجتمع وإن سلمنا له بالنبوغ الطبيعي.

وفي مدرسة الحب وعلى يد امرأة جاهلة، تعلّم «چوليان» فكان سعيداً بما تعلّم. وتمكن من معرفة المجتمع كما هو قائم معرفة مباشرة. فلم يعد الوصف الذي يقرؤه يسدل ستاراً على نفسه حين يتناول كتباً تتحدث عن حالة المجتمع منذ ألفي عام أو منذ ستين عاماً فقط، أيام ڤولتير ولويس الخامس عشر. سقط الحجاب عن عينيه، فسر كثيراً حين استطاع أن يفهم ما يجري في ڤريير فهماً صحيحاً.

أدرك أول كل شيء سر الدسائس المعقدة التي حيكت منذ عامين لدى حاكم بيزانسون، وكانت هذه المكايد تستند إلى خطابات قادمة من پاريس كتبها رجال لهم قيمة

وخطر، وطلبوا أن يعين رجل يدعى السيد دي موارو -عرف في الإقليم كله بالتقوى- نائباً أول لعمدة ڤريير لا نائباً ثانياً. وكان ينافسه فى هذا المنصب رجل غني من أصحاب الصناعات لا يجدر به إلا أن يكون نائباً ثانياً.

وقد استطاع «چوليان» أخيراً أن يفهم تلك الكلمات الغامضة التي سمعها من رجال الطبقة العليا حين كانوا يتناولون الطعام على مائدة «السيد دي رينال». كان هذا المجتمع الراقي مشغولاً باختيار النائب الأول، وبقية السكان وبخاصة الأحرار لا يتوقعون أن يتّم هذا الأمر. ومما زاد في أهمية المسألة علم الجميع بأن الجهة الشرقية للشارع الرئيسي في ڤريير يجب أن توسع أكثر من تسع أقدام، لأنّ هذا الشارع سيصبح طريقاً ملكياً.

وإذا صح أن يختار السيد دي موارو نائباً أول لڤريير ثم عمدة لها إذا أصبح «السيد دي رينال» عضوا بمجلس النواب، فإنه سيغضّ الطرف عن هذا المشروع لأنه يملك ثلاثة منازل في الجهة التي يتسع فيها الشارع، ويستطيع أصحاب المنازل المطلة على الشارع العام أن يدخلوا عليها بعض إصلاحات لا تلحظ، فتبقى هذه البيوت مائة عام. وعلى الرغم من ورعه الشديد فإنه سيكون سهلاً لينا في مقابلة الناس لأن له أولادا كثيرين. ومن بين تلك المنازل التي تدخل في توسيع الشارع تسعة منازل يملكها وجهاء ڤريير.

كان «چوليان» ينظر إلى تلك الدسائس ويرى أنها أكثر خطراً من تاريخ معركة فونتينوا التي يطالع تفاصيلها لأول مرة في كتاب من تلك الكتب التي أرسلها إليه صديقه فوكيه. وكانت هناك أشياء تثير دهشة «چوليان» واهتمامه منذ خمسة أعوام ولا يستطيع الاستفسار عنها. كان يراها منذ أصبح يتردّد على الخوريّ مساء كل يوم، ولا يقدر على توجيه أسئلة إليه؛ لأن التواضع والخشوع صفات ضرورية لطالب اللاهوت.

وفي أحد الأيام كانت «مدام دي رينال» تأمر خادم زوجها، عدو «چوليان»، أمراً فردّ قائلاً لمولاته: ولكن يا سيدتي، إنّ اليوم هو آخر جمعة في الشهر.

فقالت له: إذهب!

عندئذ قال چوليان:

- حسناً! إنه سيذهب إلى دكان العلف الذي كان يوماً ما كنيسة، وأصبح الآن موطناً لهذا المذهب، ولكن ماذا يصنعون هناك؟ هذا اللغز لم أستطع فهمه حتى الآن.

فقالت له صديقته:

- إنه نظام ملائم جداً وإن كان شديد الغرابة، لأن النساء لا يقبلن فيه، وكل ما أعرفه عنه أن الناس هناك سواسية. فأنت ترى هذا الخادم مثلاً يلتقى بالرجل المتكبر السيد ڤالنو فلن يظهر اشمئزازا حين يخاطبه خادمنا سان چان بصيغة المفرد، ثم يردّ عليه هو بنفس الصيغة. وإذا أردت أن تعرف ما يدور في هذه المجتمعات، فسأطلب من السيد دى موچيرون ومن السيد ڤالنو بعض المعلومات. ونحن ندفع في الشهر عن كل خادم من

خدمنا عشرين فرنكا حتى لا يذبحنا هؤلاء القوم في يوم من الإيام.

كان الوقت يمضي سريعاً، وكان ظرف «مدام دى رينال» قد قضى على الطموح القاتم الذي يظلل نفس «جوليان».فعاهد نفسه ألا يتحدث إليها فيما يثير الحزن، أو يدعو إلى التفكير مادام مشربهما مختلفاً. فزاد هذا -دون أن يحس- في سعادته التي كانت هي سببها، وقوّي من سلطانها عليه.

كانا لا يتحدثان إلا بتلك اللغة الجافة لغة العقل إذا كان معهما الأطفال وهم شديدو الذكاء، إذا استثنينا نظرات الحب العميقة التي كان «جوليان» يلقيها على حبيبته وهو يستمع في خشوع إلى آرائها في الحياة. وكثيراً ما سبحت نفسها فجأة في آفاق بعيدة فلامها «جوليان» وهي تقص عليه قصة سرقة، أحسن فيها التدبير، وقعت في توريد أو في مرفق من المرافق. وكانت تتبع معه في الحديث نفس الحركات الودية الخالصة التي تتعبها مع أبنائها. كانت لا تلجأ إلى هذا إلاّ لأنها تخال أنها تحبه، كما تحب أحد أبنائها ؛ أليست تجيب دائماً على أسئلة ساذجة يوجهها إليها؟ أسئلة تتناول آلافاً من التوافه لا يجهلها فتى في الخامسة عشرة، نشأ في بيئة كريمة. ولكنها بعد مضي لحظة، تعجب به كما تعجب بسيدها. وأثر فيها نبوغه كثيراً حتى أخافها، وبدا لها مع الأيام في وضوح أنها ترى العظيم المنتظر في شخص هذا القس الشاب: رأته باباً ورأته رئيس وزارة مثل ريشيليو، وكثيراً ما قالت:

– هل أعيش حتى أراك في مجدك؟ ستكون عظيماً: إن الملكية والدين معاً في حاجة إليك.

الفصل الثامن عشر

ملك في ڤربير

أهكذا أصبحتم قوماً لا خير فيكم؟ وعادت أجسامكم
ولا روح فيها، وعروقكم لا تجرى فيها دماء؟

من موعظة الأسقف في كنيسة القديس كليمنت

في الساعة العاشرة من مساء يوم الثلاثاء الثالث من سبتمبر، أيقظ جندي سكان ڤربير من نومهم وهو يركض بجواده في الشارع الرئيسي، وأبلغهم أن صاحب الجلالة مليكه... سيصل إلى بلدتهم يوم الأحد القادم. وقد صرح الحاكم أو على الأصح طلب حاكم المقاطعة تكوين حرس شرف، وألاّ يدخر الأهالي وسعاً في تجميل البلد وتزيينه. وأرسلت الرسل ليلاً إلى ڤرچي يطلبون العمدة. ووصل «السيد دى رينال» إلى ڤربير فرآها على قدم وساق. كلّ يعد عدته لينتهز فرصة الزيارة الملكية، وكان أقلّهم طموحاً أولئك الذين أجّروا الشرفات ليرى الناس منها الموكب الملكي وهو يدخل المدينة.

من الذي يرأس حرس الشرف؟ رأى «السيد دى رينال» في الحال أن السيد دى موارو خير من يتولّى قيادة هذا الحرس، وما أملى عليه هذا إلا المنازل التي تحول دون توسيع الشارع الرئيسي. وستعزز هذه الرياسة منصب النائب الأول لعمدة ڤربير. لم يكن إخلاص السيد دى موارو ولاصلاحه موضع الشك، لأنه أحسن أهل ڤربير جميعاً وإن لم يركب جواداً من قبل. كان في السادسة والثلاثين من عمره كثير الحياء خجولاً، يخشى أن يعرض نفسه لسخرية مواطنيه ويخاف أن يسقط عن ظهر الجواد.

استدعاه العمدة في الساعة الخامسة صباحاً ثم قال له:

– طلبتك يا سيدي لأعرف رأيك كما لو كنت عينت في المنصب الذي ترشحك له الطبقة الراقية الأمينة ؛ إن الصناعات تدرّ أموالاً كثيرة على هذه البلدة البائسة، وقد أصبح الأحرار أغنياء إلى حد كبير، لذلك يأمل حزبهم أن يتقلّد مناصب الحكم، مستعيناً بكل الوسائل، معداً لكل شيء عدّته. فلنضع نحن نصب أعيننا مصلحة الملكية والملك بعد مصلحة ديننا القومي. فإلى من إذن نكل رياسة حرس الشرف؟

كان ركوب الخيل يبعث في نفس السيد موارو خوفاً شديداً، لذلك قبل، بعد لأي، شرف قيادة الحرس ؛ كأنه قبل أن يكون شهيداً ثم قال للعمدة: «أنا أعرف كيف أتّخذ اللهجةالمناسبة».

ولم يبق أمام أولي الأمر إلا وقت قصير يصلحون فيه الحلل التي لبست قبل ذلك

بسبعة أعوام، حين مرّ بفريير أمير من الأسرة المالكة. وحلّت الساعة السابعة، فوصلت «مدام دى رينال» من فرجي يصحبها «چوليان» وأبناؤها. ودخلت منزلها فرأت صالونها مزدحما بنساء من حزب الأحرار، جئن ينادين باتحاد الأحزاب ولتطلب منها كل منهن مكاناً لزوجها في رجال الحرس. وقد زعمت إحداهن أن زوجها سيحزن حزناً شديداً يؤدي إلى إفلاسه إذا لم يكن في رجال الحرس. لكنّ «مدام دى رينال» سرعان ما تخلصت منهن جميعاً، وكان يبدو عليها أنها مشغولة إلى أبعد حدّ.

ذهل «چوليان» ثم غضب، لأنها لم تفض إليه بما فى نفسها، وأخذ يقول في حزن شديد: لقد أدركت ذلك من قبل، وفطنت إلى أنّ حبها لي قضت عليه سعادتها لأنها ستستقبل في منزلها ملكاً. وهذه الضوضاء الشديدة تفتنها وتسحرها، لكنها لا تلبث أن تحبني من جديد إذا لم يضطرب عقلها من الآراء التي تسيطر على عقول طائفتها.

ومن الغريب في أمر «چوليان»، أنه أصبح مع ذلك أكثر حباً لها. وانتظر فرصة يتحدث فيها إليها قليلاً، لكنه لم يتمكن لأن عمال المفروشات كانوا يملأون المنزل ويضطربون في كل مكان. ثم لقيها وهي تهمّ بمغادرة غرفته حاملة ثوباً من ثيابه، فأراد أن يتكلم معها، لكنها انصرفت دون أن تصغي إليه. فقال فى نفسه: لقد ارتكبت حماقة لا تغتفر حين أحببت هذه المرأة، إن حبّ الظهور قد قضى على عقلها وعقل زوجها!

كانت «مدام دى رينال» فرحة حقاً، وقد أخفت سبب سرورها عن صديقها لئلا تجرح كبرياءه ؛ ذلك أنها كانت تودّ من كل قلبها أن يخلع «چوليان» ملابسه السوداء القاتمة، ويلبس أخرى ولو يوماً واحداً. واستعملت ما فطرت عليه من مهارة وحذق، فحصلت على موافقة السيد دى موارو ونائب الحاكم دى موچيرون أن يتولى «چوليان» قيادة خمسة من الشبّاب أو ستة في حرس الشرف، وهؤلاء الشبان أبناء رجال أغنياء من أصحاب الصناعات في ڤريير، عرف اثنان منهم بالورع الشديد. ووافق السيد ڤالنو على أن يعير «چوليان» جواداً من جواديه النورمنديين، وكان قبل ذلك يطمع في أن يعير عربته لأجمل سيدات ڤريير، ليعجب الناس بجمال جواديه، وافق على هذه الإعارة وإن كان لا يضمر لچوليان إلاّ الكره الشديد. بقي بعد ذلك الثوب العسكري الأزرق السماوي المحّلى على الكتفين بجديلين مفضضين، وهو الثوب الذي يجب أن يرتديه كل من يشترك في حرس الشرف. وكان بعض الشبان يقتنون هذه الحلة التي تزينوا بها قبل ذلك بسبعة أعوام واستعارها بعضهم. وكانت «مدام دى رينال» كثيرة الطموح، فلم ترد أن يكون صديقها كغيره من الشبان، فأرسلت إلى بيزانسون تطلب حلة جديدة، وأسلحة وقبّعة وغير ذلك، طلبتها في عجلة شديدة، لأنه لم يبق أمامها إلا أربعة أيام، وهي حريصة على أن يظهر «چوليان» في أبهى زينة وأفخر ثياب. وقد ذهبت إلى أبعد من هذا، فلم تشتر الحلة من ڤريير، لأنها أرادتها مفاجأة لچوليان، ولأهل البلدة جميعاً.

انتهى العمدة من تنظيم حرس الشرف وتهدئة الخواطر، وأخذ ينظم حفلة دينية

كبيرة، لأن الملك لم يشأ أن يمرّ بقريير دون أن يزور في براى لي هو، رفات القديس كليمنت الشهير -الواقع على بعد فرسخ من المدينة. كانوا في حاجة إلى كثيرين من القسس فلاقوا في ذلك عنتاً شديداً، لأن الخوري الجديد الأب مالون لا يريد أن يحضر الأب شيلان هذه الحفلة الدينية. وعبثاً حاول العمدة أن يقنعه بأن في هذا خطراً شديداً عليهم جميعاً: لأن «المركيز دى لامول» الذي ظلّ أجداده حكاماً لهذه المقاطعة زمناً طويلاً هو الذي وقع عليه الاختيار ليرافق الملك في رحلته. والمركيز يعرف الأب شيلان منذ ثلاثين عاماً، فهو لابد سائل عنه، مستقص أخباره إذا ما أتى إلى ڤريير. وإذا علم أنه مغضوب عليه فلن يتردد في الذهاب إلى المنزل الصغير الذي اعتكف فيه الأب، وسيكون في صحبته ما يستطيع أن يكوّن من موكب، فيالها من صفعة!

فقال الخوري مالون: لو حضر شيلان الحفلة لافتضحت هنا وفي بيزانسون. إنه متعصب يا آلهي لمذهب ينسينيوس.

فأجابه العمدة: مهما يكن من أمر يا سيدي الخوري، فأنا لا أعرض إدارة بلدتنا إلى لطمة من «المركيز دى لامول». أنت لا تعرفه، هو رجل له خطورته في البلاط، أما هنا فهو هجّاء مقذع، كثير السخرية والاستهزاء بالناس، لا يحلو له إلاَّ أن يحرجهم، وفي استطاعته أن يسخر منا جميعاً على مرأى من الأحرار، لا يبغى من وراء ذلك إلا اللهو والعبث.

وظلت المفاوضات بين العمدة والخوري ثلاثة أيام، وأخيراً نزل الخوري عن كبريائه في مساء السبت، حين رأى أن خوف العمدة قد انقلب إلى شجاعة، وكان عليهم أن يكتبوا إلى الأب شيلان خطاباً معسولاً يرجون فيه أن يتفضل بحضور الحفل الديني في براى لى هو، إن سمحت شيخوخته وضعف صحته بالحضور. ولكن الأب شيلان طلب منهم أن يوجهوا خطاب دعوة إلى «چوليان» الذي يحب أن يرافقه كمساعد شماس، فاستجابوا لطلبه.

وحلّ صباح الأحد، فازدحمت شوارع ڤريير بألوف من القرويين هبطوا من الجبال المجاورة؛ وكانت الشمس ساطعة، ثم دقت الساعة الثالثة فاضطربت الجموع الحاشدة، حين رأت ناراً عظيمة تضطرم فوق صخرة على بعد فرسخين من ڤريير، إيذانا بدخول الملك أرض الأقليم. وطنطنت النواقيس تدقّ، ودوّت في الأرجاء طلقات مدفع أسباني قديم تملكه المدينة، إعلاناً للسرور العام الذي شمل النفوس لهذه المناسبة السعيدة. وصعد نصف سكان ڤريير سطوح المنازل ووقفت النساء في الشرفات، وتحرك حرس الشرف فعجب الناس بالحلل الزاهية الجميلة، وتعرف كلّ على قريب أو صديق، وسخروا من السيد دى موارو الذي دفعه الخوف في كل لحظة إلى أن يمسك بقربوس سرجه خشية أن يقع على الأرض، ثم شغل الناس بعد ذلك بملاحظة أخرى كان وقعها كبيراً على نفوسهم، وهي أن الفارس الأول على رأس القسم التاسع شاب جميل، نحيف القوام، لم يعرفوه حين رأوه. وسرعان ما انبعثت

من قوم صيحات الاستنكار، وصمت آخرون من شدة الذهول، لأن الفارس لم يكن إلا «چوليان سورل» ابن النجار، وقد ركب حصاناً نورماندياً للسيد ڤالنو وعليه أفخر الثياب. وعندئذ انبعثت صيحات ضد العمدة، كانت على الأخص من الأحرار الذين قالوا: ماذا نرى! أيعيّن في حرس الشرف هذا العامل الوضيع الذي يلبس لباس رجال الدين لأنه معلم أبنائه، ويترك السادة الأغنياء أصحاب الصناعات أمثال فلان وفلان!

ثم قالت إحدى السيدات الغنيات: يجب أن يلحق هؤلاء السادة العار بهذا الحقير الذي نشأ نشأة وضيعة. فقال أحد جيرانها:

- إنه مراء يحمل سيفاً، وهو خائن جدير بأن يمزّق وجوههم بسيفه.

أما حديث الطبقة الراقية فكان أشد خطراً من حديث الأحرار، إذ تساءلت النساء عمّا إذا كانت هذه الإهانة من العمدة وحده؟ وعلى العموم فقد أنصفوا في احتقاره لوضاعة أصله.

كانت هذه الأحاديث تدور حول «چوليان»، وقت أن كان أسعد الناس قاطبة. وأمدته جرأته بشجاعة كبيرة، فبدا على ظهر جواده خيراً من أولئك الذين نشئوا جميعاً في هذه البلدة الجبلية. وكان يقرأ في نظرات السيدات أنّهن يتحدثن عنه، وشارتا كتفيه براقتان لأنهما جديدتان، وحصانه يشب في كل لحظة فيضفي عليه سعادة كبيرة.

وبلغت سعادته أقصاها حين مرّ على مقربة من الحاجز القديم، فسمع ضجة شديدة أحدثتها طلقات المدفع الصغري، فجمح حصانه، لكنه لم يسقط على الأرض لحسن حظه، فأحسّ كأنه أصبح بطلاً، وخيّل إليه أنه ضابط في جيش ناپليون، وقد كلّف الإشراف على المدفعية.

أجل، كان سعيداً. ولكن هناك من كان أسعد منه، وهي تلك التي رأته من إحدى نوافذ مبنى البلدية، ثم ركبت عربتها وسارت مسرعة فقطعت منحنى طويلاً، ووصلت ليقع في قلبها الذعر حين رأت الجواد يبتعد بعد خارجاً من الصف! كانت «مدام دى رينال» تتبع الموكب على بعد عشرين خطوة بين سحابة من التراب. وكانت عربتها مسرعة، فخرجت من أحد أبواب المدينة، ثم سلكت الطريق التي يمرّ منه الملك. وفي ذلك الوقت صاح عشرة آلاف من الريفيين: فليحي الملك! حين كان العمدة يخطب بين يدي جلالته.

واستمرت الخطب ساعة كاملة، ثم دخل المدينة فأطلق المدفع طلقات متتابعة. عندئذ وقع حادث، ليس لأولئك الذين كانوا يطلقون المدفع فاعتادوا عليه من قبل في ليبزج وفي مونمراى، ولكنه وقع لنائب العمدة المنتظر السيد دى موارو. لقد القى به جواده في يسر إلى المكان الوحيد الذي تراكم فيه الوحل فوق الطريق، فكانت فضيحة كبرى، وكان لابدّ من إخراجه من الطين قبل أن تصل عربة الملك.

دخل جلالته كنيسة ڤريير الجديدة الجميلة التي زينت في ذلك اليوم بالستائر القرمزية، ثم ذهب يتناول غداءه، ليركب عربته بعده مباشرة إلى حيث يمجّد رفات القديس

كليمنت، لوم يكد الملك يدخل الكنيسة حتى عدا «چوليان» بجواده إلى منزل «السيد دى رينال». وخلع زيّه العسكرى الأزرق وهو يتنهد أسفاً عليه، وترك سيفه وشارتي كتفيه ليرتدي لباسه الأسود البالي، ثم امتطى جواده، ووصل بعد دقائق معدودات إلى براى لاهو، الواقعة على قمة تل جميل، وأخذ يقول: إن الحماسة لتزيد عدد هؤلاء الريفيين، والمرء لا يستطيع أن يتحرك في قربير، وها أنذا أرى الآن أكثر من عشرة آلاف من الأنفس في هذا الدير القديم.

هدم الثوار جزءاً من هذا الدير في وحشية، ولكنه جدّد تجديداً رائعاً منذ أن عادت الملكية، وأخذ الناس يتحدثون عن المعجزات. عنّف الأب شيلان «چوليان» تعنيفاً شديداً حين لاقاه، ثم أعطاه ثوباً من ثياب الكهنة وقميصاً يلبس فوق الثوب، فارتدى «چوليان» ذلك في سرعة، وتبع الكاهن الذي ذهب ليلقى رئيس أساقفة آجد، وهو شاب عُيّن حديثا في هذا المنصب، يمتّ بصلة القرابة إلى «المركيز دى لامول»، وقد عهد إليه بأن يُري الملك رفات القديس. ولكن رئيس الأساقفة كان قد اختفى، ولا يعلم أحد أين هو.

فقد صبر القساوسة وهم ينتظرون الرئيس في الرواق القوطي المظلم لهذا الدير القديم، واجتمع في الرواق أربعة وعشرون خورياً ليعرضوا الفصل القديم الخاص ببراى لاهو والذي عرضه أربعة وعشرون كاهناً قانونياً قبل عام ١٧٨٩. وبعد أن ظلوا ثلاثة أرباع الساعة في أسف على شباب الرئيس، اقترحوا على عميدهم أن يذهب إلى مونسنيور ليخبره بأن جلالة الملك سيأتي بعد قليل، وبأن الوقت قد حان ليغادر الرواق إلى المحراب. عُيّن الأب شيلان عميداً لهم بحكم السن، وعلى الرغم من غضبه على «چوليان»، أشار إليه أن يتبعه، وكان القميص الذي ارتداه فوق الثوب يلائمه ملاءمة كبيرة، ولسنا ندري كيف استطاع أن يجعل من شعره الجميل المجعد شعراً سبطا مسترسلاً، ولا نعرف وسائل التجميل الكنسيّة التي استعان بها في هذا الأمر، ونسي «چوليان المهماز» الذي وضعه أثناء حرس الشرف، فظهر من تحت طيات ثوبه الطويل، فزاد هذا في غضب الأب شيلان عليه.

وصلا إلى حيث رئيس الأساقفة، فوجدا بالباب خدماً في أبهى زينة، وأفخر ثياب، أخبروا الكاهن العجوز في كبر شديد أن الرئيس لا يريد مقابلة أحد، وسخروا منه حين قال لهم بأن مركزه كعميد في فصل براى لاهو المجيد يسمح له بأن يلقى الرئيس في أي وقت يشاء.

وعزّ على «چوليان» أن يعامل الأب بمثل هذه القحة، فأخذ يذرع أبهاء الدير القديم، ويجوس خلال مضاجعه، ويفتح الأبواب التي تصادفه، حتى عالج باباً صغيراً، ففتحه. وسرعان ما رأى نفسه في حجرة غصّت بخدم رئيس الأساقفة، وقد ارتدوا السواد وعلّقوا في أعناقهم سلاسل، ولما رأى الخدم سرعته ولهفته ظنّوا أنّ رئيس الأساقفة طلبه، فتركوه يمرّ، وتقدّم «چوليان» بضع خطوات، فرأى نفسه في غرفة واسعة، قوطية البناء، حالكة

الظلمة، مكسوة الجدران بخشب البلوط الأسود، سدّت نوافذها الصغيرة بالطوب من وقت قريب، إلاّ نافذة واحدة، فنال بذلك مظهر النوافذ المسدودة لخشونة بنائه من مظهر فني جميل يبدو للعين في أخشاب هذه الجدران. والجانبان العظيمان في هذه الغرفة المشهورة يعرفهما الأثريون البرجينيون جميعاً، فقد بناهما شارل الجسور قبيل سنة ١٤٧٠ ليكفر بهما عن ذنوب ارتكبها، وكانا مزينين بكراسي خشبية دقيقة الصنع، مختلفة الألوان تعبّر عن ألغاز رؤيا القديس يوحنا الإنجيلي.

اكتأب «جوليان» لما رأى هذه الروعة الحزينة وقد أتلفتها الأحجار العارية والجبس الذي لا يزال أبيض حتى الآن، فوقف صامتاً. ثم رأى في الناحية الأخرى من الغرفة على مقربة من النافذة الوحيدة التي يدخل الضوء منها، رأى مرآة من خشب الكابلي غير ثابتة، وشاباً إلى جوار النافذة على بعد ثلاث خطوات من المرآة، عليه رداء بنفسجي وقميص من الدنتيلا، عاري الرأس. ولا بدّ أنّ هذه المرآة، التي لا تليق بحرمة هذا المكان المقدّس، قد أحضرت من المدينة. كان الشاب يبارك بيده اليمنى بجانب المرآة، وعلى وجهه دلائل الغضب، فقال جوليان في نفسه: ماهذا؟ أهذا هو القسّ الشاب يعدّ العدة للحفل الديني؟ ربما كان سكرتير رئيس الأساقفة ... وربما كان سفيهاً كالخدم ... وماذا يعنيني فلأحاول.

وتقدّم في بطء شديد ناظراً دائماً إلى النافذة الوحيدة، وعيناه لا تفارقان الشاب، وهو ينثر البركات في تؤدة وكثرة لا حدّ لها، دون أن يستريح لحظة واحدة.

ورأى «جوليان» أنه كلما تقدّم إليه خطوة، اشتدّ ظهور الغضب على وجه القسيس؛ وراعته فخامة قميصه، فوقف على بعد خطوات من المرآة دون أن يشعر، وقال في نفسه: من الواجب أن أتحدث. ولكن جمال الغرفة بهره، وخشي مقدّماً أن يسمعه القس كلمات غليظة. ورآه القس خلال المرآة المتحركة فاستدار إليه وقد زايله غضبه، وقال في لهجة رقيقة:

- حسنا! هل تمّ إصلاحه أخيراً يا سيدي؟

فذهل «جوليان» ولم يدر ما يقول، ثم رأى الصليب معلّقاً على صدره بعد ما استدار إليه، فعرف أنّ هذا الشاب رئيس أساقفة آجد! فقال «جوليان»: أيكون رئيساً للأساقفة وهو في هذه السنّ؟ إنه لا يكبرني إلا بستة أعوام أو ثمانية على الأكثر! ... وخجل من المهماز خجلاً شديداً، ثم قال في حياء:

- أنا رسول العميد إليك، مونسنيور.

فأجابه الرئيس في لهجة خورية زادت من سرور جوليان:

- آه! لقد أوصوني به خيراً، وألحوا في ذلك، ومعذرة يا سيدّي فقد ظننتك من كلّفته إحضار تاجي. لقد أساءوا لفه في باريس فأفسدوا النسيج الفضّي في أعلى التاج؛

وهذا شيء لا يليق أبداً، وسيكون له أثره السيء ومع ذلك فأنا لا أزال حتى الآن أنتظره.

فقال «چوليان»: اسمح لي يا منسنيور، فسأذهب لأحضره.

ونظر إلى الأسقف بعينيه الجميلتين، فأحدثتا في نفسه أحسن الآثار، وقال له في أدب ظاهر: اذهب يا سيدي، فيجب أن يحضروه حالاً، لأنه يؤسفني جداً أن أدع جماعة الكهنة القانونيين ينتظرونني.

ولما وصل چوليان إلى منتصف القاعة، التفت خلفه فإذا برئيس الأساقفة ينثر البركات من جديد فسأل نفسه: ماذا يقصد من ذلك؟ يخيل إليّ أنه يتدرّب على ما سيقوم به في الحفلة الدينية. ثم وصل إلى حيث يجتمع خدم رئيس الأساقفة، فنظر إليهم نظرة سيطرة وتعال، فقدّموا إليه تاج الرئيس. وهنا شعر بفخر وهو يحمله، وقطع الغرفة سائراً في تؤدة وبطء ممسكاً بالتاج في احترام كبير. وكان الرئيس لا يزال جالساً إلى المرآة، ويده اليمنى تنثر البركات بين لحظة ولحظة، وإن شعر بالتعب. وعاونه «چوليان» في لبس التاج، فهزّ الرئيس رأسه قائلاً في فرح ظاهر:

– آه! أستطيع الآن أن ألبسه، فهل لك أن تبتعد قليلاً؟ ثم أسرع الرئيس إلى منتصف القاعة، وعاد يقترب من المرآة رويداً رويداً، مستعيداً ما كان ينطبع على وجهه من أمارات الجد، وبدأ ينثر البركات في تؤدة ووقار.

وظلّ «چوليان» واقفاً يعجب مما يرى، ويودّ أن يفهم ما يرمي إليه الرئيس، لكنه لم يجرؤ على أن يسأله. ثم وقف الرئيس ونظر إليه نظرة خففت من وقاره بعض الشيء، وسأله قائلاً:

– ما رأيك في تاجي هذا يا سيدي؟ أيوافقني؟.

فأجابه چوليان: إنه لجميل جداً يا منسنيور.

– ألست تراه راجعاً إلى الوراء؟ ولو تركته كذلك لكنت في هيئة البلهاء. لكنه لا ينبغي لي أن أنكسه إلى الأمام وإلاّ كان مثل قلنسوة الضباط.

– يخيّل إليّ أن وضعه جميل جداً.

– إنّ ملك ... اعتاد أن يرى قساوسة مبجّلين فيهم وقار. وأنا لا أحبّ أن أظهر في شيء من الخفة أو الطيش بالنسبة إلى سنيّ.

وجعل يمشي من جديد في بطء ووقار وينثر البركات، فقال «چوليان» في نفسه: لقد أصبح الأمر جلياً، إنه يتمرّن على مباركة الناس.

وقال له الرئيس بعد لحظة:

– أنا الآن مستعدّ، فاذهب يا سيّدي وأخبر بذلك السيد العميد والسادة القسس.

وسرعان ما دخل الأب شيلان يتبعه قسّان هما أكبر القساوسة سنّاً، من باب كبير

واسع قد زيّن برائع النقوش، ولم يكن «جوليان» قد رآه من قبل؛ وأسرع باقي رجال الدين في دخول القاعة. وبقى «جوليان» هذه المرة في المكان اللائق به، حيث كان في مؤخرة الجمع فلم يستطع رؤية الرئيس إلاّ من فوق أكتاف القسس.

قطع الرئيس أرض الغرفة في بطء، ولما وصل إلى عتبتها، وقف القساوسة في شكل موكب. وساد الإضطراب لحظة قصيرة، سار الموكب بعدها وهم يرتلون مزموراً من المزامير. وكان الرئيس في المؤخرة بين الأب شيلان وخوري كهل عجوز؛ وفي هذه اللحظة اقترب «جوليان» من مونسنيور بحجة أنه متصل بالأب شيلان. وساروا في ردهات دير براى لاهو المظلمة الرطبة، وإن كانت الشمس مشرقة ساطعة.

وصل الموكب أخيراً إلى باب الدير، و«جوليان» في ذهول من أثر الروعة لأنه لم يشهد من قبل حفلاً دينياً يشبه ما رآه الآن. لقد امتلأ قلبه صراعاً من طموحه الذي عاوده حين رأى رئيس الأساقفة لا يزال شاباً، ومن تأثره بأدب الرئيس الجم، وهو أدب لم يره للسيد دى رينال حتى في أحسن أيامه، وهنا قال في نفسه: لا شك أن المرء يرى صفات أطيب وأرق كلّما ارتفع إلى الطبقة الأولى من المجتمع.

ودخل الموكب الكنيسة من باب جانبي، فسمعت ضجة مفاجئة شديدة هزت قبابها القديمة، حتى خيّل إلى «جوليان» أنها تتداعى، ولكنها كانت ضجة المدفع الذي وصل إلى جوار الكنيسة منذ لحظة، قصيرة، تجره ثمانية جياد راكضة. ولما وصل أطلق منه مدفعيو ليبتزج خمس طلقات في كل دقيقة، كأنما كانوا يدفعون به البروسيين.

لم تؤثر هذه الجلبة الشديدة في نفس «جوليان»، فلم يعد يفكر في نابليون أو في المجد العسكرى، لأنه كانَ يقول: يالله! إن رئيس أساقفة آجد صغير السن! ولكن أين تقع آجد؟ وكم يدر عليه منصبه؟ لعله يأخذ مائتى ألف فرنك أو ثلثمائة ألف.

ثم ظهر خدم مونسنيور يحملون مظلة رائعة يستظل بها الرئيس، وأمسك الأب شيلان إحدى عصيها، وإن كان «جوليان» في الواقع هو الذي يحملها، واستطاع الرئيس وهو تحت المظلة أن يظهر بمظهر كبير السن، فأعجب به «جوليان» وقال في نفسه: إن المهارة لا تعرف حداً فيما تتناوله من الأعمال.

وصل الملك، وأتيحت لجوليان فرصة أن يراه عن قرب. وخطب رئيس الأساقفة بين يديه في طلاوة وعذوبة، ولم ينس أن يشير إشارة خفيّة مؤدبة إلى الثناء على جلالة الملك. ونحن لا نريد وصف حفلات براى لاهو لأنها ملأت أعمدة صحف الأقاليم طوال خمسة عشر يوماً. وعرف «جوليان» من خطاب رئيس الأساقفة أن الملك من سلالة شارل الجسور. ثم علم أن مصروفات حفلة براى لاهو وحدها كلفت «المركيز دى لامول» ثمانمائة وثلاثة آلاف من الفرنكات، لأن المركيز جامل قريبه رئيس الأساقفة فتحمل المصروفات كلها بعد أن عاونه في الوصول إلى المنصب. علم «جوليان» بكل هذا بعد أن التحق بخدمة المركيز.

انتهى الرئيس من خطابه فردّ عليه الملك، ثم وقف جلالته تحت المظلة، وركع خاشعاً على وسادة بالقرب من الهيكل. وكان حول القسس المرتلين كراسيّ ترتفع عن الأرض درجتين و«چوليان» يجلس عند قدمي الأب شيلان على آخر درجة، كأنه من الذين يحملون أطراف ثوب الكاردينال في كنيسة سكستين بروما. وكان ترتيل «الحمد لله» يتردد في أرجاء الكنيسة ورائحة البخور تملأ الخياشيم، وطلقات البنادق والمدفع تتردد في الخارج بلا انقطاع، فشعر الفلاحون بسعادة كبيرة، وامتلأت قلوبهم بالإيمان. ومثل هذا اليوم العامر بحوادثه يبطل أثر مائة صحيفة من صحف اليعاقبة الثائرين.

كان چوليان على مقربة من الملك، فرآه يصلي في ورع شديد، ورأى لأول مرة رجلاً قصير القامة نحيف القوام يشعّ من نظراته الذكاء ويرتدي ثياباً لا زينة فيها ولا ترقيش، وفوق حلته البسيطة شريط أزرق. كان أقرب إلى الملك من أولئك السادة الذين زينوا ملابسهم بالذهب، وغالوا في ذلك حتى وارى الذهب «القماش» على حد تعبير «چوليان»؛ ثم علم بعد قليل أن هذا السيد القريب من الملك هو «المركيز دى لامول»، وقد رأى فيه «چوليان» كبراً وقحة، فقال في نفسه: إنّ ذلك المركيز ليس في أدب هذا الرئيس الجميل. آه! إنّ الكنيسة لتضفي على المرء وداعة وعقلاً، وقد أتى الملك ليبجل رفات القديس، ولكني لا أرى رفاتاً، فأين القديس كليمنت إذن؟ وأخبره شماس شاب يجلس إلى جواره أن الرفات المقدس في أعلى البناء في مكان أوقدت فيه الشموع.

جرت العادة بأن الكهنة القانونيين لا يرافقون رئيس الأساقفة في زيارة رفات القديس كليمنت إذا مازار الكنيسة أمير من البيت المالك؛ لكنّه ما كاد الركب الملكيّ يتحرك إلى الرفات، حتى استدعى رئيس أساقفة آجد الأب شيلان وطلب منه أن يرافقه الكهنة ؛ وجرؤ «چوليان» فسار في رفقة صديقه وأستاذه الشيخ.

صعدوا سلماً عالياً، ووصلوا إلى باب صغير جداً، زيِّن إطاره القوطيّ بزينة بديعة كأنما نفض منها الصانع يديه بالأمس، يركع أمامه أربع وعشرون فتاة من أعرق الأسر في ڤريير، وقبل أن يفتح رئيس الأساقفة الباب، ركع بين هؤلاء الفتيات الرائعات؛ وأخذ الرئيس يصلّي بصوت مرتفع، وهنّ ينظرن إليه معجبات بأناقته وظرفه وجمال وجهه ورقة شبابه، فقضى هذا المظهر الساحر على بقية بقيت من عقل «چوليان»! فُتح الباب بغتة وظهر مكان الرفات سابحاً في ضوء قويّ، فقد وضع على المذبح أكثر من ألف شمعة قسمت ثمانية أقسام، تتخللها طاقات من الأزهار، على حين عبق جوّ المكان برائحة بخور نقيّ شذي. أمّا الكنيسة فقد زينت حديثاً بالذهب الخالص، وهي مرتفعة جداً على الرغم من أنها صغيرة، وأما الشموع التي وضعت على هيكلها فكان طول كل منها يزيد على خمس عشرة قدماً. ولم تستطع الفتيات أن يتغلبن على مافي نفوسهنّ فانبعثت منهن صيحة إعجاب، ولم يدخل ردهة الكنيسة إلا الفتيات والخوريان و«چوليان».

ووصل الملك بعد قليل يتبعه «المركيز دى لامول» وكبير حجابه، وبقي الحراس

أنفسهم خارج الكنيسة الصغيرة راكعين مؤدين بأسلحتهم التحية. ودخل الملك الكنيسة مسرعاً ليصلّي، فأتيح لچوليان في هذه اللحظة، وهو ملتصق بالباب المذهّب، أن يرى من فوق كتف فتاة عارية الذراع تمثال القديس كليمنت الجميل الذي كان مخبئاً تحت الهيكل، وعليه ثوب جندي روماني شاب، وفي رقبته جرح واسع كأنّ الدم لا يزال يقطر فيه. لقد أجاد المثّال صنع هذا التمثال كل الإجادة: كانت العينان تفارقهما الحياة، لكنهما تفيضان بمعان بالغة الرقة، وقد أغلقتا كأنهما عيون بين الحياة والموت وله شارب حديث العهد زيّن فماً دقيقاً لطيفاً، شفتاه منفرجتان كأنه لا يزال يصلي! ورأت الفتاة التي تجاور «چوليان» جمال التمثال، فضجّت بالبكاء. وسقطت دمعة من دموعها على يد بطلنا الشاب.

وانقضت فترة الصلاة في صمت عميق لا يقطعه إلا صوت النواقيس تدقّ بعيداً في القرى المجاورة. انقضت الصلاة، فطلب رئيس الأساقفة من جلالة الملك أن يأذن له بالكلام، ثم ألقى خطاباً قصيراً بليغاً عميق التأثير، كأنّه تحدّث به إلى القلوب، وقد خاطب الفتيات قائلاً:

- اذكرن دائما أيتها المسيحيات أنكن رأيتن ملكاً من أعظم ملوك الأرض ساجداً أمام أولياء الله العزيز الجبار. ألا إنّ أولياء الله لمستضعفون في الأرض، يضطهدون ويقتلون كما ينبئكن هذا الجرح الذي لا تزال تسيل منه دماء القديس كليمنت. هم يُستضعفون في الأرض ولكنهم ينتصرون في السماء! هل تعدنني أيتها المسيحيات أن تظلّ ذكرى هذا اليوم خالدة في قلوبكن، وأنكن ستكرهن كل كافر أثيم؟ هل تعدنني بأن تكن مؤمنات مخلصات لهذا الإله العظيم المنتقم الرحيم؟

ثم نهض الرئيس بعد ذلك في وقار وعظمة، ومدّ ذراعه في إيعاز وتلقين وسألهن:

- أتعدنني بذلك؟

فسالت دموع الفتيات وقلن: نعم، نعدك.

فقال لهن في صوت جهير: تقبلت وعدكن باسم الإله الجبار.

وانتهى الحفل، وقد بكى الملك نفسه، وظلّ «چوليان» مضطرب النفس وقتا طويلاً، ثم عاوده الهدوء فسأل عن رفات القديس كليمنت التي أرسلت من روما إلى فيليب الطيب دوق برجونيا، فقيل له: إنها مخبأة داخل هذا التمثال الشمعي الجميل.

وسمح جلالة الملك للفتيات اللائي رافقنه إلى الكنيسة، أن يحملن أشرطة حمراء، طرزت بهذه الكلمات: الكراهية للكفار، عبادة أبدية.

ثم أمر «المركيز دى لامول» بأن توزع على الفلاحين عشرة آلاف زجاجة من النبيذ. وفي المساء كان أحرار ڤريير قد وجدوا سبباً يقيمون من أجله زينات خيراً من زينات الملكيين مائة مرة. وقد زار الملك قبل رحيله السيد دى موارو.

الفصل التاسع عشر
التفكير وسيلة الآلام

إن سخف الحوادث اليومية ليحجب عنك الآلام الحقة
التي تضطرم بها العواطف.

بارناف

عثر «چوليان» في الغرفة التي أعدت لإقامة «المركيز دى لامول» على أربعه ورقات سميكة مطوية، وذلك حين كان الخدم يرتبون أثاث الغرفة بعد رحيل المركيز. وقرأ «چوليان» في أسفل الصفحة الأولى هذه الكلمات: إلى حضرة صاحب السعادة «الماركيز دى لامول»، عضو المجلس الفرنسي الأعلى، وحامل وسام الملك ... ثم قرأ الرجاء التالي، وقد كتب بخط كبير كخطوط الطاهيات:

سيدي المركيز

«لقد تمسكت طول حياتي بمبادئ الدين، وكنت في ليون معرضاً للقنابل أثناء الحصار عام ٩٣، خلال تلك الفترة الأليمة. إني أتناول القربان وأذهب إلى كنيسة خوريتنا في أيام الآحاد لأؤدي فرضي نحو ربي: ولم أنقطع مرة واحدة عن أداء واجبي الفَصحيّ حتى في عام ٩٣، عام الذكرى الأليمة المرة. وطاهيتي لا تطعم اللحوم في أيام الجمعة، ويسعدني أن أخبركم أنني قبل الثورة كنت من ذوي اليسار وكان لي خدم وأتباع. وأنا أتمتع في ڤريير بثقة كبيرة وأستطيع أن أقول: إنني جدير بها. أسير في المواكب العامة تحت المظلة بجوار الخوريّ والعمدة، وأحمل في المناسبات الكبيرة شمعة ضخمة أشتريها من مالي، وكل ما يختص بي من أوراق وشهادات في وزارة المالية في باريس. أما طلبي من سيدي المركيز فهو أن يتفضّل بتعييني في مكتب يا نصيب ڤريير في الموضع الذي سيخلو قريباً، لأن شاغل هذا المنصب قد اشتدّ به المرض، وهو بعد يسئ استعمال صوته في الانتخابات ...»

دى شولان

وفي هامش هذا الرجاء حاشية وقّعها دى موارو جاء في أولها :

« أتشرف بأن أرجو سعادتكم في إجابة ملتمس حامله؛ وهو من الرعايا المخلصين...»

قرأ چوليان هذا الطلب فقال في نفسه: حتى هذا الأحمق دى شولان يرشدني إلى الطريق الذي يجب أن أتبعه!

كانت زيارة ملك ... لڤريير مثار أحاديث مختلفة، نشأت منها أكاذيب لا حدّ لها ومناقشات تافهة، واستنتاج لا طائل من ورائه، تتناول الملك تارة، ورئيس أساقفة أجْد تارة

أخرى، وكذلك «المركيز دى لامول»، وعشرة آلاف زجاجة النبيذ، وسقوط المسكين دى موارو عن ظهر جواده، وما إلى ذلك. وقد حرص دى موارو على الاعتكاف في منزله شهراً كاملاً، لعلّه يحصل على وسام جزاء سقوطه عن الجواد. لكن أهمّ ما شغل أهل ڤريير وجعلهم يتحدثون عنه ثمانية أيام بعد زيارة الملك، هو إقحام «چوليان سورل» في حرس الشرف، فتساءلوا ساخطين: كيف يتاح له هذا وهو ابن نجار وضيع؟ ومن الطريف أن تسمع رأى الأغنياء من أصحاب المصانع في ڤريير الذين كانوا يجتمعون صباحاً ومساء في المقهى، ينادون بالمساواة حتى بُحّت أصواتهم؛ فقد رأوا أن «مدام دى رينال» السيدة المتكبرة هي التي حملت زوجها على أن يزجّ بچوليان في حرس الشرف، إنها هى التي ارتكبت هذه الحماقة الكبرى، فما السبب في ذلك؟ إن جمال عيون «چوليان» ونضارة وجهه وشبابه تجيب في صراحة عن هذا السؤال.

عادت أسرة دى رينال من ڤرجى إلى ڤريير، ومرّ زمن قصير فمرض ستانيسلاس كزاڤييه أصغر الأبناء بالحمى، فجزعت أمه جزعاً شديداً ولامت نفسها في عنف على خيانتها لزوجها وحبها لچوليان. شعرت لأول مرة بوخز ضمير لا يفارقها لحظة، وخيّل إليها أن مرض ابنها انتقام من السماء نزل عليها لعظم جرمها وشناعة إثمها. وهي على تدينها العميق لم تفكر من قبل في أن الله لا يرضى عن ذلك الإثم العظيم.

أحبّت الله حبًا شديداً وهي في «دير القلب المقدس»، وأصبحت الآن تخشاه خشية عظيمة ونفسها فريسة لصراع أليم، وحال خوفها العظيم بينها وبين أن تسمع صوت العقل. ووجد «چوليان» أنّ كلّ محاولة إلى إقناعها بالهدوء لا تجدي، وأن المنطق في الحديث يغضبها ويثير حفيظتها؛ وكأنما كانت حججه في نظرها صوت نذير من جهنم. وكان «چوليان» يحب الطفل كثيراً، ويتحدث إليها عن مرضه فيلقى الحديث في نفسها صدى، ويبعث فيها شيئاً من الهدوء والرزانة. لكنّ وخزات ضميرها كانت شديدة فأقلقت حياتها وأقضت مضجعها، وعقلت لسانها عن الكلام فكان صمتها طويلاً مخيفاً، وإن تكلّمت فلا لشيء إلا لتعترف بإثمها لله والناس. ولقيها «چوليان» وحدها يوماً فقال لها:

– أتوسل إليك ألاّ تتحدثي إلى غيري، تكلّمي إليّ وحدي، وبثيني آلام نفسك، وإن كنت لا تزالين تحبينني فكفي عن الكلام؛ إن حديثك إلى الناس لن يشفي عزيزنا ستانيسلاس من الحمى.

ولم تُجد نصائحه ومشاركتها آلامها شيئاً، ولم يكن يعلم أن «مدام دى رينال» وطّدت عزمها على أن تكرهه أو على أن ترى ابنها يموت بين يديها لتخفّ عنها نقمة الله. وكانت حزينة متألمة لأنها لا تجد سبيلاً إلى كراهية حبيبها، فقالت له يوماً:

– أستحلفك بالله أن تغادرني، اترك المنزل، فإن وجودك فيه يقتل ابني. ثم استطردت في صوت خفيض:

– إن الله يعاقبني على جريمتي، وإنه عادل، وقد وطدت نفسي على تحمّل العقاب.

جرمي فظيع! كنت أحيا من قبل حياة لا أعرف فيها وخزات الضمير! هذه أول علامة تخلّي اللّه عني، وسيكون عقابي شديداً مضاعفاً.

تأثّر «چوليان» تأثراً عميقاً لأنه لم ير في كلامها نفاقاً ولا مبالغة، وقال في نفسه: هي تعتقد أنها تقتل ابنها بحبها إياي، ومع ذلك فهذه البائسة تحبني أكثر من ابنها، وأنا لا أشكّ أبداً في ذلك. إن وخز ضميرها يقتلها قليلاً قليلاً، وعواطفها تحوي قوّة نبيلة، ولكن كيف استطعت أن أنال منها هذا الحب العنيف، وأنا الذي قد نشأت بين جهل وفقر، لا تخلو حركاتي أحياناً من فظاظة وغلظة؟

بلغ الألم بالطفل منتهاه في إحدى الليالي. اشتدت عليه الحمى والتهبت وجنتاه وجاء أبوه في الساعة الثانية صباحاً ليراه، فلم يعرف الطفل والده. وهنا ارتمت «مدام دى رينال» فجأة عند قدمي زوجها، ففطن «چوليان» إلى أنها ستعترف بكل شيء، وفي ذلك هلاك محقق. لكن «السيد دى رينال» غضب من حركاتها لحسن حظهما وانصرف قائلاً:

- الوداع! الوداع!

فصاحت زوجته وهي راكعة أمامه، تحاول أن تستبقيه:

- لا، لا تذهب. يجب أن تعرف الحقيقة كاملة. إنني أنا التي أقتل ولدي! لقد كنت سبب وجوده، وها أنذا أكون سبب موته. إن السماء تعاقبني لأنها تعتبرني سفّاكة أثيمة، فيجب أن أهين نفسي وأذلّها لتكون التضحية وسيلة إلى غفران آثامي!

ولو أن «السيد دى رينال» كان خصب الخيال لعرف كل شيء ؛ لكنه صاح بامرأته وهي تحاول أن تستوقفه وتقبل ركبتيه قائلاً لها:

- هذه آراء خيالية! أمّا أنت يا «چوليان» فاستدع الطبيب في الصباح الباكر.

ثم عاد إلى غرفته لينام. وأمّا «مدام دى رينال» فقد هوت على ركبتيها وكاد يغمى عليها. وهفّ إليها «چوليان» ليغيثها فدفعته عنها في شدة ؛ فظلّ في مكانه مذهولاً يقول في نفسه: هذه هي الزانية! فهل لي أن أعتقد أن القسس على وضاعتهم ... صائبو الرأي؟ إنهم يرتكبون كثيراً من الذنوب، لكنهم هم أصحاب الامتياز في أن يعرفوا النظرية الصحيحة للآثام، فيالها من مهزلة!

وظلّ عشرين دقيقة يرى المرأة التي يحبها بعد أن غادرهما زوجها، وقد أسندت رأسها إلى السرير الصغير الذي ينام عليه الطفل المريض، ساكنة لا تتحرك ولا تحسّ. فقال في نفسه: ها هي ذي امرأة عظيمة عبقرية ومع ذلك بلغ بها الأسى منتهاه وهدّها الحزن لأنها عرفتني.

الوقت يمضي سريعاً، فماذا أستطيع أن أفعل من أجل محنتها ؟ ينبغي أن أعرف ذلك في الحال. عليّ أن أرحل من ذلك المكان. وماذا يهمني من الرجال ومصانعتهم التافهة؟ ماذا أستطيع أن أفعله من أجلها ؟ أأتركها وحدها فريسة لآلامها القاسية؟ هذا الزوج الآليّ

يضرّها أكثر مما ينفعها. سيسمعها كلمات قاسية لأنه فظ غليظ، وقد تفقد رشدها وتلقي بنفسها من النافذة. وأنا إذا تركتها، ولم أعد أرقبها وأسهر عليها عن كثب، ستعترف له بكل شيء. ومن يدري! إنه ربما أثار فضيحة على الرغم من الميراث الذي سترثه عن عمتها. وربما اعترفت، يا إلهي إلى هذا الوغد، إلى الخوري مالون! وإذا فعلت هذا لزم الخوري منزلها لأمر في نفسه، واتخذ مرض الطفل ذريعة لإقامته. وهي في ألمها وخوفها من الله تنسى كل ما تعرفه عن الرجل، ولا ترى فيه إلا القسّ. وفتحت «مدام دى رينال» عينيها، وقالت له بغتة: اذهب عني!

فقال لها «جوليان»: إني لأهب حياتي ألف مرّة لأعلم ماذا ينفعك ... لم أحبك قبل اليوم كما أحبك الآن يا ملكي العزيز، لقد بدأت أعبدك منذ هذه اللحظة فحسب كما ينبغي لك أن تُعبدي. وماذا يكون مصيري حين أصبح بعيداً عنك، وضميري يؤنبني لأنك أصبحت بائسة بسببي؟! لا أحبّ أن أتحدث إليك عن آلامي، سأرحل، نعم سأرحل ياحبيبتي. ولو تركتك ولم أسهر عليك، واقفاً بينك وبين زوجك، إذن لا عترفت له بكل شيء وفي هذا هلاكك. فكري في أنه سيطردك شر طردة تحملين فضيحة وعاراً، وسيتحدث أهل ڤريير جميعاً عنك وأهل بيزانسون عن هذا العار. وسيحملونك وحدك الوزر والآثام، وسيظل العار يطاردك أينما تكونين. فنهضت وصاحت قائلة:

– هذا ما أريد، ومن الخير لي أن ألقى العذاب.

– لكن هذا العار الشنيع سيؤذي زوجك كما يؤذيك!

– ولكني سأعمل على امتهان نفسي، سألقي بها بين الأوحال لعلي أنقذ ولدي. وربما كان إذلالي إياها أمام الناس جميعاً توبة عامة، وإن حال ضعفي بيني وبين الإقدام. أليس هذا تكفيراً خالصاً يرضاه الله؟ ... ربما قبل هواني وتوبتي وأبقى لي طفلي! ودلّني على ما هو أعظم مما سأقدم عليه، وكن على يقين من أنني لن أتردّد!

– دعيني أنزل العقاب بنفسي، فأنا كذلك معتد أثيم. أتريدين أن أعيش وحدي وأعتزل الناس جميعاً؟ إن خشونة هذه الحياة وقسوتها قد تهدئان من غضب الله ... آه! لم لا أستطيع أن أحمل عن ستانيسلاس قسوة مرضه؟

فنهضت «مدام دى رينال» وارتمت بين أحضانه قائلة:

– آه! إنك تحبه كذلك.

ولكنها سرعان ما تخلصت من ذراعيه ودفعته عنها في فزع ورعب، ثم ركعت أمامه واستطردت تقول:

– إني أصدقك! إني أصدقك! يا صديقي الوحيد! لماذا لم تكن أنت والد ابني ستانيسلاس؟ لو أنك كنت أباه ما كان في حبي لك إثم ولا حرج حين يكون أكثر من حبي لابنك ستانيسلاس.

- أتسمحين لي بالبقاء، على أن يكون حبي إياك منذ الآن حب أخ لأخته؟ وهذا هو المخرج الوحيد المعقول، وعسى أن يخفف من غضب الله علينا. فصاحت ممسكة برأسه بين يديها، وهي تنظر في عينيه:

- وأنا، أفي وسعي أن أحبّك كما تحب أخت أخاها؟ أأستطيع أنا ذلك؟

فبكى «چوليان» وارتمى تحت قدميها قائلاً:

- سأطيعك، سأنزل على إرادتك في كل ما تأمرين. وهذا كل ما أستطيعه الآن. لقد أصابتني غشاوة فأصبحت لا أدري ما أنا فاعل، لو أني تركتك لاعترفت لزوجك بكل شيء، وفي هذا هلاكك وهلاكه! ولن يصبح يوماً ما نائباً إن حلّت به هذه المصيبة. وإذا بقيت بجانبك أعتقدت إني سبب موت ابنك فيقتلك الألم. أتريدين أن تجربي أثر رحيلي؟ إن شئت عاقبت نفسي على إثمنا، وعشت بعيداً عنك ثمانية أيام في أي مكان تختارينه بعيداً عن الناس: في دير «براى لاهو» مثلا. ولكن أقسمي لي بأنك لن تعترفي لزوجك وأنا غائب. وتذكرّي دائماً أنني لن أستطيع الرجوع إذا بحت له بشيء.

فوعدته، ورحل، ولكنه استدعي بعد يومين. ورأته فقالت:

- من العسير عليّ أن أفي بوعدي وأنت بعيد عني. إن لم تكن بجانبي في كل لحظة لتأمرني نظراتك بالصمت أفضيت إليه بكل ما بيننا. فكلّ ساعة من هذه الحياة المريرة تمرّ عليّ وكأنها يوم كامل.

وأخيراً رحمت السماء هذه الأم البائسة، وبدأ الخطر يزول عن ستانيسلاس شيئاً فشيئاً، ولكن الأم علمت شيئاً جديداً: فقد أدركت عظم جريمتها، فلم تعد تملك السيطرة على نفسها، ولم تفارقها وخزات ضمير وجدت مرتعاً خصباً في قلبها المخلص. كانت حياتها جنة تارة وتارة سعيراً، تشقى كل الشقاء حين لا ترى «چوليان»، وتسعد كل السعادة حين تكون عند قدميه. وكثيراً ما قالت له وهي في تلك اللحظات التي يكون الحب فيها قد ملك عليها نفسها ومشاعرها:

- لست أحبّ أن أخدع نفسي، فأنا أعلم أني أثيمة، صبّت عليّ السماء غضبها. أما أنت فشاب صغير السن قد أستجاب لغوايتي، فلابد أن يغفر لك الله. لا غفران لي بعد اليوم! وأنا أعلم هذا حقّ العلم من أمارة لا تخلف! أنا خائفة، ومن ذا الذي لا يخاف حين يرى الجحيم؟ لكنني لا آسف على شيء، ولو أن الخطأ الذي وقعت فيه يُرتكب مرة أخرى ما تردّدت في ارتكابه، على أني أرجو ألاّ تعاقبني السماء في الدنيا بأن تقتصّ مني في أبنائي، وإن كنت أعلم أن جزائي في الآخرة أدهى وأشدّ تنكيلاً.

وفي لحظات أخرى كانت تقول له: ولكن خبرني يا عزيزي «چوليان» أأنت سعيد؟ وهل تشعر بما أكنّه لك من حب جارف؟

فطر چوليان على الحذر وعلى أنه مجروح الكبرياء، لذلك كان في حاجة إلى حب

مُضحّ مخلص. وقد زايله الحذر والكبرياء حين رأى ما تضحي به صديقته من أجله في كل ساعة، تضحية صادقة لا رياء فيها؛ فعبدها عبادة. وكثيراً ما ناجى نفسه قائلاً: مهما تكن كريمة المحتد ومهما أكن أنا ابن عامل فقير فهي تحبني ولا شك ... لست في نظرها خادماً أمر بأن يؤدي مهمة العاشق.

ولما تبدّد الخوف من نفسه، غمرته ألوان الحب الجنوني بما فيه من شك أليم. وكانت «مدام دى رينال» ترى شكوكه هذه فتقوله له:

- أريد على الأقلّ أن أسعدك في الأيام القليلة التي نعيشها معاً! فلنسرع في انتهاز الفرصة. ومن يدري، ربما انقضى كل ما بيننا غداً! فلو أن السماء عاقبتني بأن اقتصت مني في أبنائي، فإني لا أستطيع أن أعيش في هذه الدنيا لأحبك، ولن أتمكن من أن أقنع نفسي بأنّ جريمتي لم تقتل ولدي. لو أصابتني هذه الصدمة ما عشت من بعدها. ولو رغبت في الحياة، ما وجدت إليها سبيلاً، ولأصابني الجنون. آه! ليتنى أستطيع أن أحمل عنك وزرك، كما عرضت في كرم بالغ أن تحمل الحُمّى الخبيثة عن ولدي ستانيسلاس!

وغيرت هذه الأزمة الخلقية الشديدة الطابع العاطفيّ الذي يربط «چوليان» بخليلته، فلم يعد حبه مقصوراً على الإعجاب بجمالها، ولا على الفخر بأنها في متناول يده يملكها ويسيطر عليها، بل أصبحت سعادتهما أكثر عمقاً وأحلى مذاقاً، وأصبح حبهما أشدّ قوة ورواء. وكانت تعتور نفسيهما اضطرابات جنونية. وكأنهما كانا سعيدين إلى أبعد الحدود، لكنهما في الواقع لم يعودا يشعران بالطمأنينة الهادئة ولا بالسعادة الصافية التي لا يُغطي سماءها سحاب، سعادة أيام حبهما الأولى. وذلك لأن «مدام دى رينال» تخشى الآن كثيراً أن يكون هوى «چوليان» قد فتر، وصارت سعادتهما تتخذ في بعض الأحيان صورة الجريمة. أما في اللحظات السعيدة الهادئة، فإنها كانت تصيح بغتة وهي تضغط على يده بيد مرتعشة وتقول:

- آه! يا إلهي! إني لأرى جهنم! يا للعذاب الأليم! إني استحقه.

ثم تضمه إليها في قوة وحب وتلتصق به كما يلتصق اللبلاب بالجدار. وحاول «چوليان» عبثاً أن يهدئ اضطراب نفسها، فأمسك يدها وأمطرها بالقبل لكنها فكرت في الجحيم من جديد، وأخذت تقول:

- ستطهرني جهنم من آثامي، ولكن لا تزال لي بضعة أيام أعيشها معه على الأرض. غير أنّي أخشى جحيم الدنيا، وهو أن أفقد أولادي ... وربما يعفو الله عني لو عاقبني هذا العقاب الصارم ... آه! يا إلهي؟ أرجو ألا يكون صفحك عني جزاء فجيعتي في أبنائي. إنهم أطفال أبرياء لم يغضبوك ولم يقترفوا إثماً، ولكنني أنا وحدي الآثمة لأنني أحب رجلاً ليس زوجي.

وكان «چوليان» يراها في بعض الأحيان هادئة الظاهر لأنها كانت تحاول التغلب على

مخاوفها لتهيئ لحبيبها هدوءاً وسعادة. وأخذت الأيام تمضي سراعاً وحياتهما كلها حب ولذة وندم، ولم يعد «چوليان» يعمد إلى التفكير الطويل.

ذهبت الآنسة إليزا يوماً إلى ڤريير لتحضر قضية تافهة، فلقيت السيد ڤالنو وألفته مغيظاً من «چوليان» ناقماً عليه، وكانت هي كذلك تكرهه منذ أن رفض أن يتزوجها. ولما تحدثت إلى ڤالنو قالت له:

– لو أنني أفضيت إليك بالحقيقة يا سيدي، لكان في ذلك هلاكي! .. فالسادة جميعاً لا يختلفون فيما بينهم في الأمور الخطيرة ... ولا يصفحون عن الخدم أبداً إذا اعترفوا ببعض ما يعرفون.

وسمع السيد ڤالنو هذه العبارات المألوفة، فدفعه حب الاستطلاع إلى أن يحمل إليزا في مهارة على الإفضاء بما تعرف، فأخبرته بما آلمه وجرح كبرياءه جرحاً بليغاً. فهذه السيدة التي تعد من أرقى نساء الإقليم، كثيراً ما تملقها السيد ڤالنو وغازلها وحاول أن يتقرب منها، ومما يؤسف له أن ذلك كان على مرأى ومسمع من الناس ؛ لكنها كثيراً ما أحرجَته فأخجلته. هذه المرأة المتكبرة قد اتخذت خليلاً، وياله من خليل! إنه عامل حقير تنكرّ في ثياب معلم! وبلغ حزن السيد مدير التصرفات غايته حين علم أنها تعبد هذا الخليل. ثم قالت إليزا للسيد ڤالنو وهي تتنهد:

– إن السيد لم يبذل في هذا الغزو جهداً كبيراً، بل إنه ليظهر لسيدتي دائماً ما جبل عليه من فتور.

ثم أخبرته أنها لم تتأكد من صلتهما إلا بعد أن ذهبوا إلى الريف، وإن كانت تعتقد أنها صلة قديمة. ثم قالت له في حسرة وحزن:

– ولا ريب في أنّه رفض الزواج بي من قبل لعلاقته بسيدتي. فيالي من بلهاء لجأت إلى «مدام دى رينال» أطلب منها النصح وأرجوها أن تتحدث عني إلى المعلم!

وما حلّ مساء اليوم، حتى تسلّم «السيد دى رينال» من المدينة مع الصحيفة كتاباً طويلاً بدون توقيع، ذكر فيه كاتبه كل ما يدور في منزله بإسهاب. وكان «چوليان» يرقب العمدة وهو يقرأ الخطاب، فرأى لونه وقد امتقع امتقاعاً شديداً، ونظر إليه نظرات تنطوي على الشر. وكان الخطاب مكتوباً على ورق يضرب إلى الزرقة، وقد ظلّ العمدة مضطرباً جداً طوال السهرّة. وحاول «چوليان» عبثاً أن يتملقه بأن أخذ يوجه إليه أسئلة كثيرة يستفسر بها عن نسب الأسر العريقة في بورجونيا.

الفصل العشرون
الخطابات المجهولة

لا تطلق العنان كثيراً لمتعك، فإن الأيمان المغلظة
كالهشيم لذلك السعير الذي يضطرم في الدم.

العاصفة

همَّ «چوليان» بمغادرة الصالون في منتصف الليل، فأتيحت له فرصة أن يتحدث إلى صديقته فقال: يجب أن لا نلتقي في هذه الليلة، لأنَّ نفس زوجك قد ساورتها الشكوك، وأقسم أن هذا الخطاب الطويل الذي كان يقرؤه متنهداً إنما هو خطاب أرسله إليه مجهول.

ثم احتاط «چوليان» للأمر، فأغلق باب حجرته من الداخل. وجنّ جنون «مدام دى رينال» حين ظنت أنه زهد في لقائها فاعتذر لها بما قال، وفقدت رشدها حين ذهبت إلى غرفته في الساعة الموعودة، لأنه لم يكد «چوليان» يسمع جلبة في الردهة حتى أطفأ المصباح. وسمع محاولات عنيفة ليُفتح باب الغرفة فساءل نفسه: أهذه هي مدام دى رينال؟ أم هذا زوجها الغيور؟

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى، دخلت عليه طاهية كانت تحبه وتعطف عليه، وفي يدها كتاب خط على غلافه باللغة الإيطالية هذه الكلمات: أنظر صفحة ١٣٠.

ارتعدت فرائصه فرقاً من تلك الغفلة، وفتح الكتاب حيث الصفحة المطلوبة فوجد خطاباً قد كتب على عجل وتساقطت على رقعته دموع غزيرة، وكثرت فيه الأخطاء الإملائية على غير عادة كاتبته «مدام دى رينال»، فتأثر حتى كاد ينسى الحماقة التي قد تجر عليهما الويل والثبور، كتبت «مدام دى رينال» لصديقها تقول:

«لم أبيت أن تستقبلني في الليلة الماضية؟ تمرّ عليّ لحظات أعتقد فيها أنني لم أتمكن بعد من معرفة ما يدور في نفسك. نظراتك تبعث الرعب في نفسي. أنا خائفة منك. يا إلهي! هل أحببتني حقاً؟ إن صحّ هذا فلست أبالي أن يكشف زوجي ما بيننا من حب، وحتى ولو زجني في سجن مقيم في الريف بعيداً عن أبنائي، ربما كُتب عليّ هذا المصير، إني سأموت بعد قليل، ولكنك ستظل شيطاناً. ألا تحبني؟ هل أتعبتك بما يعتريني من نوبات جنونية ومن وخزات ضميري أيها العاقّ؟ أتريد هلاكي؟ سأدلك إن كنت تريد على طريقة هينة سهلة، فاذهب بخطابي هذا وأطلع عليه أهل ڤريير جميعاً، أو أطلع عليه السيد ڤالنو وحده، وقل له إنني أحبك، استغفر الله بل قل له إنني أعبدك، وما عرفت الحياة ولا تمتعت بها إلا من يوم لقياك. قل له إنني يوم كنت شابة طائشة لم أكن أحلم بما

سبغته عليّ من سعادة أنا مدينة لك بها. وقل له: إني ضحيت من أجلك حياتي، وأضحي من أجلك بروحي، وأنت تعلم أني أضحيّ بما هو أعز من ذلك وأغلى!

«ولكن هل يفهم هذا الرجل قيمة التضحية؟ ثم خبّره لتزيد غضبه من أني لا أبالي بالأشرار، وأن ليس في العالم كله إلا شر واحد يصيبني، هو أن أرى الرجل الوحيد الذي أعيش من أجله قد تغيّر. وكم يطيب لي أن أفقد حياتي، مضحية بها لأنجو من خوف يساورني على أطفالي!».

«ثق يا صديقي العزيز بأن كاتب الخطاب المجهول -إن صحّ أن هناك خطاباً- هو هذا المخلوق الذميم، الذي طاردني ستة أعوام بصوته الجهير، وبقصصه عن قفزات الجياد وهو على ظهرها، وبرقاعته وسخفه حين يعدّد لي محاسنه ومزاياه».

«هل تلقّى زوجي خطاباً من مجهول؟ أردت أن أبحث هذا معك أيها القاسي، ولكنك أحسنت صنعاً بما فعلت، فلو كنت بجانبك أعانقك عناقاً ربما كان الأخير، استطعت أن أبحث الأمر في هدوء وفتور كما أبحثه وحيدة، لم تعد سعادتنا سهلة المأخذ منذ الآن كما كانت من قبل، فهل يؤذيك هذا؟ نعم، إنه يؤلمك في الأيام التي لا تتلقى فيها كتاباً مسلياً من المسيو فوكيه. لقد وقعت التضحية، وسأخبر زوجي غداً بأنني تسلمت خطاباً غفلاً، سواء أكان قد وصله خطاب من مجهول أم لم يصله، وسأطلب إليه أن يسدي إليك خيراً فيخلق عذراً مقبولاً يسوّغ به إرسالك إلى والديك في الحال».

«وا أسفاه أيها الصديق العزيز! سنفترق خمسة عشر يوماً، وربما طال الفراق فصار شهراً! يالله! يجب أن أكون عادلة معك لأني أعلم أنك ستلقى عذاباً كالذي ألقاه، وليس أمامنا من سبيل نسلكه إلاّ هذا السبيل، لنمحو أثر هذا الخطاب اللعين، على أنه ليس أول خطاب يتسلمه زوجي؛ فقد أرسلت إليه من قبل خطابات تناولتني بالسوء. وا أسفاه! كم كنت أضحك ساخرة منها قبل ذلك!»

«إنني أرمي من وراء ما أفعل أن أحمل زوجي على الاعتقاد بأن كاتب هذا الخطاب هو السيد ڤالنو، وأنا واثقة من ذلك كل الثقة. وإذا ما غادرتنا فلا تتردّد في الإقامة في ڤريير. وسأقنع زوجي بالذهاب إليها والإقامة فيها خمسة عشر يوماً حتى نبرهن لأولئك الحمقى على أني أنا وزوجي على وفاق كامل. وإذا ما كنت في ڤريير، فصادق جميع الناس حتى الأحرار! وأنا أعلم أن أولئك السيدات سيتملقنك ويتقربن منك».

«حذار أن تغضب من السيد ڤالنو، أو أن تنفذ ما توعدته به من قبل، فتقطع أذنيه، أوصيك أن تظهر له خير صفاتك ورقة حاشيتك، حتى يعتقد أهل ڤريير جميعاً أنك ستصبح مؤدب أولاد ڤالنو أو أي شخص آخر! وهذه هي النقطة الأساسية الحساسة».

«لن يصبر زوجي على هذا ولن يطيقه. ولكن هل يقتنع بذلك؟ ستسكن على كل حال في ڤريير، وسأراك بين آن وآخر، وسيراك أولادي لأنهم يحبونك كثيراً. يا إلهي! لكأنما زاد حبهم في قلبي حين رأيتهم يحبونك. كم ألوم نفسي! وعلى أي وجه سينتهي هذا

الأمر؟ ... لقد ضللت الطريق المستقيم ... يخيّل إليّ أنك تعرف الآن ما يجب أن تعمله: كن رقيق الحاشية، مؤدباً، وأضرع إليك ألاّ تحتقر هؤلاء الأفظاظ، أتوسل إليك، فهم وحدهم الذين يتحكمون في مصيرنا، وثق تماماً أن زوجي لن يرضى عنك إلاّ بمقدار ما يمليه عليه «الرأي العام».

«أنت الذي ستهيئ لي الخطاب الغفل الذي سأقدمه إلى زوجي، فتذرع بالصبر، وتسلح بمقصّ. واقطع من أي كتاب كان هذه الكلمات التى ستقرؤها ثم ثبتها بالغراء على الورقة الضاربة الزرقة التي أرسلها إليك. وسأدعي أنا أن هذا الخطاب من السيد ڤالنو؛ وتوقع دائماً أن تفتش غرفتك، فأشعل النار في الكتاب الذي قصصت بعض صفحاته. وإذا لم تجد الكلمات معدّة فاصبر وكونها حرفاً حرفاً. وقد جعلت الخطاب موجزاً لكيلا أجهدك كثيراً. وا أسفاه! إن كنت لا تحبني حقاً كما أخشى فستجد خطابي هذا طويلاً مملاً!».

خطاب غفل

«سيدتي

«قد عرفت جميع دسائسك الوضعية؛ على أنّ الأشخاص الذين يحرصون على كتمانها قد أخطروا بها. وأنا أدعوك إلى أن تهجري هذا الفلاّح الحقير هجراً تاماً باسم ما بقي في قلبي لك من صداقة. وإذا تغلبت عليك الحكمة واستمعت إلى نصحي، اعتقد زوجك أنّ ما بلغه عنك كذب وهراء، وعلى هذا فسنتركه في ضلاله. تذكري دائماً أنني أعلم أسرارك، فارتعدي أيتها البائسة، ويجب أن تكوني من الآن طوع بناني».

«وإذا ما انتهيت يا «چوليان» من لصق كلمات هذا الخطاب فأخرج من غرفتك وسألقاك في المنزل. (ولعلك قد عرفت فيه أسلوب المدير وطريقة كلامه) سأذهب إلى القرية وأعود منها مضطربة مكفهرة الوجه، وفي الحق أني سأكون كذلك. يا إلهي! علام أقدم؟ أكلّ هذا لأنك ظننت أن زوجي تسلم خطاباً غفلاً من الإمضاء؟ سألقاه بوجه غضوب، وأقدم إليه الخطاب مدعية بأن قروياً لا أعرفه سلمه إليّ. وعليك أنت أن تذهب بالأطفال إلى طريق الغابات الكبيرة بحيث لا تعود من نزهتك إلا وقت الغذاء».

«وتستطيع أن ترى من فوق قمم الصخور برج الحمام، فإذا سارت أمورنا على ما نهوى فسأرفع منديلاً أبيض، وإلاّ فلن يكون هناك شيء».

«هل يجد قلبك، يا جحود، سبيلاً إلى أن يقول لي قبل أن تذهب إلى النزهة إنه يحبني؟ ومهما يكن فأرجو أن تثق أنني لن أعيش يوماً واحداً بعد أن نفترق فراقاً أخيراً. آه! يا لي من أمّ فاسدة! على أن هذه الجملة الأخيرة لا قيمة لها عندي، فلا أفكر إلا فيك يا «چوليان» في هذه اللحظة، ولم أكتبها إلا مخافة لومك وعتابك. أرى أني سأفقدك وشيكاً، فلم أخفي عنك الحقائق؟ نعم، فلتر إذا شئت أن نفسي تنطوي على وحشية قاسية، ولكن ينبغي لي ألاّ أكذب الرجل الذي أعبده! لقد خدعت من قبل طول حياتي الماضية. ومع كلّ فأنا أصفح عنك إذا كان حبك قد تضب معينه. ليس لديّ وقت كاف لقراءة ما سطرت لك. لقد قضيت بين أحضانك أياماً سعيدة تتضاءل أمامها حياتي؛ وأنت تعلم أن سعادة هذه الأيام ستكلفني أكثر من حياتي».

الفصل الحادي والعشرون

حوار مع سيد

أسفاً، إن ضعفنا هو السبب ولسنا نحن : فهكذا خلقنا
وكما خلقنا نكون

الليلة الثانية عشرة

أكبّ «چوليان» على العمل الذي كلّفه ساعة كاملة يجمع الكلمات في لذة وشغف كأنما هو طفل. ولما غادر غرفته لقى تلاميذه وأمهم، فأخذت منه الكتاب في بساطة وشجاعة حتى أخافه هدوؤها ، ثم قالت له:

– هل جفّ الصمغ تماماً؟

فأخذ يسائل نفسه: أهذه هي المرأة التي كاد الندم يذهب بفضلها ؟ ما مشروعاتها التي تدور الآن في رأسها يا ترى؟ ومنعته كبرياؤه أن يسألها عمّا يخامرها ، ولكن هذا لم يقلل من إعجابه بها. واستطردت صديقته تقول في هدوء تام:

– لو لم تسر الأمور كما أهوى جرّدت من كل شيء؛ فخبئي هذه الأمانة في الجبل، لأنها ربما أصبحت يوماً ما هي كل ما أملكه في الحياة.

وأعطته وعاء من زجاج في غلاف من الجلد الأحمر، مليء ذهباً وبه بعض ماسات، ثم قالت: إرحل الآن. ثم قبلت الأطفال، وقبلت ابنها الأصغر مرتين، وظلّ «چوليان» في مكانه لا يتحرك، أما هي فقد غادرته مسرعة دون أن تلقي عليه نظرة واحدة.

كانت حياة «السيد دى رينال» مؤلمة إلى أبعد الحدود منذ أن تسلّم ذلك الخطاب المجهول؛ لم يضطرب في حياته هذا الاضطراب، إلا يوم أن كاد يبارز في سنة ١٨١٦، ويقتضينا العدل أن نقول: إنّ اضطراب «السيد دى رينال» من هذا الخطاب كان أشدّ من اضطرابه من رصاصة كادت ترديه في يوم المبارزة. لقد فحص الخطاب من كل النواحي ثم جعل يسائل نفسه: أليس هذا الخط خطّ أمرأة؟ وإذا كان الأمر كذلك فمن تكون؟ واستعرض جميع النساء اللائي يعرفهن في ڤريير فلم يهتد إلى الكاتبة، فقال: هل أملى هذا الخطاب رجل؟ ولكن من يكون هذا الرجل؟ ولم يكن حظه في هذه المرة أسعد منه في المرة الأولى ؛ كان أغلب عارفيه من الرجال يكرهونه ويغارون منه. نهض من مقعده متثاقلاً وقد أعياه التعب ثم قال كعادته: عليّ أن أشاور زوجتي في الأمر.

لكنه ضرب رأسه بيده بعد ما نهض وقال: يا إلهي! يجب أن أحذرها هي خاصة، فإنها الآن عدوّي! ثم أبكاه غضبه وغيظه.

كان جامد المشاعر معروفاً في المقاطعة كلها بحكمة عملية. فكان جزاؤه العادل في محنته هذه أنه خشي رجلين من دون الناس جميعاً، وهما صديقان حميمان، فقال في نفسه: ربما كان لي عشرة أصدقاء إذا استثنيت هذين الصديقين. وبدأ يستعرض الأصدقاء ويتحسّس ما قد يجده عند كل صديق من عزاء، لكنه سرعان ما صاح في غضب: إنهم سيسرون جميعاً بهذه الفضيحة المرّة سروراً لا حدّ له! ومن حسن حظه قد كان يعتقد أنه محسود من جميع الناس، وكان محقّا؛ لأنه يملك في ڤربير منزلاً جميلاً، زاده شرفاً على شرفه أن الملك قد نام فيه. وهو بعد قد أصلح قصره في ڤرجى إصلاحاً بديعاً، فطليت واجهة القصر بالأبيض، ومصاريع النوافذ بالأخضر. وحدّت هذه الروعة من غضبه وغيظه بضع لحظات. كان القصر في الواقع يرى على بعد ثلاثة فراسخ أو أربعة، وكان يفوق كل المنازل الريفية روعة وبهاء، تلك المنازل التي سميت، تجوزاً، بالقصور المجاورة، والتي خلع عليها مرور الأيام لوناً رمادياً وضيعاً لم تمتدّ إليه يد فتغيّره.

وكان «السيد دي رينال» يؤمن بإخلاص وكيل الكنيسة الذي تنهمر دموعه وتسيل نفسه شفقة ولوعة على العمدة إن خبّره بمحنته، وهو على حمقه يبكيه كل أمر، لكنّه في نظر العمدة الرجل الوحيد الذي يعتمد عليه. عند ذلك استولى الغيظ على نفس الزوج وصاح: أية مصيبة تضارع مصيبتي؟ يا لي من بائس يعيش في عزلة تامة! ويا لغرابة موقفي! أيصدق إنسان أنني في محنتي لا أجد صديقاً ألتمس منه المشورة وأجد عنده مخرجاً مما وقعت فيه؟ لقد ضلّ عقلي وأنا أشعر بهذا تمام الشعور! آه يا فالكو! آه يا دوكرو! وردّد هذين الاسمين في مرارة أليمة، وهما صديقا الطفولة. وقد حملتهما كبرياؤه على التخلي عنه سنة ١٨١٤ ؛ ولم يكونا كريمي المحتد، ولم يرقه منهما هذا الأسلوب الذي يدلّ على المساواة والذي درجا عليه منذ الطفولة.

أمّا أحدهما وهو فالكو فرجل حسن الطوية ذكيّ الفؤاد، تاجر في الورق في ڤربير ثم اشترى مطبعة في عاصمة المقاطعة، وأصدر صحيفة. ثم عزم المجمع على إلحاق الخراب به. فهوجمت جريدته واتهمت بشتى التهم، ثم سحب منه تصريح الطبع. وفى هذه الظروف الأليمة لجأ صديقه إلى «السيد دى رينال» فكتب إليه بعد عشر سنوات، للمرة الأولى، فبدا لعمدة ڤربير أن يردّ على رسالته بلهجة روماني قديم فقال له: لو أن وزير الملك شرفني واستشارني في الأمر لقلت له: «عليك أن تلحق الخراب بجميع أصحاب المطابع في الريف بلا رحمة أو شفقة، ثم احتكر الطباعة كما تحتكر التبغ».

تذكّر «السيد دى رينال» هذه العبارات في اشمئزاز كبير، لقد كُتبت إلى صديق حميم كانت ڤربير كلها تعجب به في ذلك الوقت أيما إعجاب، فندم على ما فعل وقال: من ذا الذي كان يعلم أنني سأندم على ما أفعل على الرغم من مكانتي وثروتي وأوسمتي؟

---

(١) يشير ستندال هنا إلى اثنين من معاصريه هما فالكو، وكان صاحب مكتبة ودو كرو الذي كان يعمل أمين إحدى المكتبات. وقد تحدث عنهما المؤلف في إعجاب كبير في «حياة هنرى برولار». « المعرب »

وقضى ليلته متألما حائراً، غاضباً على نفسه تارة وعلى كل من حوله تارة أخرى، لكنه لحسن الحظ لم يفكر في أن يتجسس على زوجته.

ثم قال في نفسه: لقد اعتدت أن أحيا مع لويز وهي تعلم كل أعمالي ؛ ولو أنني كنت حراً في أن أتزوج أخرى من غد ما وجدت من تملأ فراغها. وساير هذا الرأي الذي بدا له، وهو أن زوجته بريئة، ولم يكن هذا الرأي بطبيعته يفرض عليه ضرورة إظهار الحزم وصرامة الخلق ومناقشته في جدّ ؛ وكم رأينا كثيرات يُتهمن في أعراضهن بالباطل!

وسرعان ما صاح بغتة وهو يسير بخطوات مضطربة من الغضب: ولكن ما هذا! أأصبر على الهوان كالذي لا قيمة له ولا كرامة؟ أأصبر على هذا العبث بي وأدعها تسخر مني هي وعاشقها؟ أأسكت حتى يسخر من لبني معها أهل ڤريير جميعاً؟ أيكون مصيري مصير شارمييه الزوج الذي خانته امرأته جهاراً نهاراً؟أليست تعلو الابتسامة جميع الشفاه حين يذكر اسمه؟ إنه محام بارع، ولكن من ذا الذي يذكر عبقريته في فنّ الكلام؟ آه! شارمييه! إنهم يقولون عنه: شارمييه دى برنارد، ويدعونه كذلك باسم الرجل الذي يمتهن شرفه.

ثم كان يقول في لحظات أخرى: أحمد الله على أني لم أنجب بنات، ولن يؤثر ما أعاقب به زوجي في مستقبل أبنائي ؛ في استطاعتي أن أباغت هذا الفلاح الوضيع وهو في خلوته معها فأقتلهما معاً، وعند ذلك قد تغطيّ مرارة المأساة على سخرية الناس.

وصادف هذا الرأي هوى في نفسه، فدرس جميع تفاصيله، ثم قال: إنّ قانون الجنايات في صالحي، ومهما يكن فستنقذني جمعيتنا وأصدقائي المحلّفون. ونظر إلى سكينة الصيد فرآها حادة، لكنه ما لبث أن أرتاع من منظر الدماء: وقال في استطاعتي أن أضرب المعلم الوقح فأهشم عظامه ثم أطرده من منزلي، ولكن يا لها من فضيحة عامة في ڤريير بل في المقاطعة كلها! لقد ساهمت في المشروع الذي كنا نرمي من ورائه أن يفقد رئيس تحرير جريدة فالكو بعد خروجه من السجن ستمائة فرنك بعد أن اتهمنا جريدته فعطلت. ويقال إن هذا الكويتب جرؤ على الظهور ثانية في بيزانسون، وفي استطاعته أن يفضحني بمهارة بحيث لا أتمكن من مقاضاته. وكيف أحاكمه! إن الخبيث سيعمد إلى ألف طريقة ليشير من طرف خفيّ إلى أنه ذكر الحقيقة. وإن رجلاً كريم الأصل، يحافظ على مكانته مثلي، لهو مكروه من السوقة والعامة دائماً. آه يا إلهي! والصحف الباريسية الكريهة ستتناول عرضي ؛ يا لها من هوة سحيقة تلك التي يتردى فيها الاسم القديم الكريم: اسم دى رينال! وأية سخرية وعبث سيُلاقى بها! .. لو أنني اعتزمت السفر يوماً ما لغيرّت اسمي؛ ولكن أأتخلى عن هذا الإسم الذي يمدّني بالقوة والجاه؟ فيا لتعاستي وشقائي! لو أنني لم أقتل زوجي وطردتها في مهانة وذلة لوجدت عمتها في بيزانسون ولأعطتها العمة كل ثروتها فتستطيع أن تذهب لتعيش مع «چوليان» في پاريس، ثم يعلم أهل ڤريير قصتها، فأُتهم بالغفلة والحماقة.

فطن هذا الرجل البائس حين نظر إلى مصباحه ورأى شحوب نوره إلى أن ضوء النهار قد بدأ يظهر، فذهب يستنشق نسيم الصباح في الحديقة بعد أن قرر ألاّ يعالج الأمر في ضجة وجلبة، لأن ذلك يشرح صدور أصدقائه المخلصين من أهل ڤريير.

وأفادته تلك النزهة وخففت عنه بعض ما كان يلقاه، فتحدث إلى نفسه قائلاً: لا، لا أريد أن أحرم نفسي من زوجتي، إنها لجمة المنافع، ثم تصور منزله يوم يخلو منها فبدا بشع المنظر، ولم يكن له قريبات غير المركيزة دى ر .. وهي عجوز شريرة حمقاء.

وطرأت له فكرة على جانب كبير من الصواب، لكن تحقيقها يتطلب قوة خلق ليست لهذا الرجل المسكين، فقال في نفسه: لو أنني أبقيت عليها ما سلم الأمر من أن ألومها على خطئها يوماً من الأيام، وهي متكبرة معتزة بنفسها، وعلى هذا يفسد الأمر بيننا، وسيحدث هذا كله قبل أن ترث عمتها. كم سيسخر القوم مني! إنها تحب أولادها، وأنا واثق من أن ثروتها ستكون من نصيبهم. ولكن سأكون حديث أهل ڤريير؛ سيقولون إني لم أعرف كيف أنتقم منها! ألا يحسن ألاّ أثير هذه الشبهات، وأعرض عن هذه الشكوك فلا أسعى وراء التأكد من صحتها! وعلى هذا أنفض يدي من الأمر كله، ولن أقدر بعد ذلك على أن أوجّه إليها لوماً.

ومرّت لحظةٌ عادت بعدها إلى «السيد دى رينال» كرامته المجروحة، وتذكر في اهتمام ما كان يدور من حديث في صالة «البلياردو» بالمقصف الذي يعدّ ندوة الأشراف في ڤريير، تذكر أن أحد العابثين كان يقف اللعب لحظة ليمرح ساخراً من زوج تخونه امرأته؛ ولشد ما أصبحت تلك الدعابات في هذه اللحظة ثقيلة الوطأة على نفسه!

يا إلهي! ليتها ماتت! إذن لكنت بعيداً عما سألاقي من سخرية وعبث. ليتني كنت أيّماً! إذن لقضيت ستة شهور في أحسن مجتمعات باريس. وبعد هذه اللحظة التي فيها أسبغت عليه فكرة الترمل بعض السعادة، عاد به خياله إلى الطرق التي يستطيع بها معرفة الحقيقة. أيضع في منتصف الليل بعد أن ينام من في المنزل طبقة رقيقة من النخالة أمام باب «چوليان». وفي ساعة مبكرة من الصباح التالي يذهب ليرى آثار الأقدام؟ لكنه سرعان ما صاح غاضباً: هذه الطريقة لا تُجدي ستعرف الأمر إليزا اللئيمة، وما أسرع ما يذاع في المنزل أني غيور. ثم تذكر طريقة أخرى سمعها في المقصف، وهي أن زوجاً تحقق من خيانة امرأته بأن ألصق شعرة بباب غرفتها وشعرة أخرى بباب غرفة حبيبها. وظل القلق يساوره ساعات حتى اقتنع بأن الطريقة الأخيرة خير الطرق وأجداها، وعزم على أن يلجأ إليها، لكنه التقى فجأة في إحدى طرقات الحديقة بالمرأة التي كان يتمنى أن تموت.

كانت عائدة من ڤرچى حيث ذهبت لتستمع إلى القداس في كنيستها. وقد تناقل الناس طويلاً أن هذه الكنيسة الصغيرة التي يصلون فيها الآن كانت مصلىً لقصر سيد ڤرچى في يوم من الأيام. وهذه فكرة آمنوا بها، وإن كانت رأياً لا يقتنع به مفكر متحرّر. واستولى على «مدام دى رينال» خاطر صاحبها طوال صلاتها في الكنيسة وهو أن زوجها

لابد قاتل «چوليان» في الصيد، ثم يدّعي أنه أصابه خطأ، ثم يطعمها من قلبه عندما يحل المساء. ظنت هذا فقالت في نفسها: إن مصيري يتوقف على ما يفكّر فيه وهو يصغي إليّ، وبعد ربع الساعة المنكود قد لا أجد سبيلا إلى أن أتحدث معه. إنه ليس عاقلاً تتغلب عليه الحكمة، وفي استطاعتي أن أعرف ما سيعمله أو ما سيقوله بعقله الصغير. إنه وحده هو الذي يقرر مصيرنا، وهو قادر على تقرير المصير: لكن نهايتي تتوقف على مهارتي، وعلى مقدار الفن في توجيه هذا المخلوق الغريب الذي أعماه الغضب فعاد لا يرى إلا أنصاف ما يرى. يا إلهي! أنا في حاجة إلى البراعة والهدوء، فمن لي بهما؟

لكنها لم تكد تدخل الحديقة وترى زوجها من بعيد حتى شملها الهدوء كأنما أتاها بفعل ساحر. كان مشعث الشعر غير مرتب الهندام، تدل هيئته على أنه لم ينم. وقدمت إليه خطاباً مفتوحاً لكنه مطوي، فنظر إليها كالمجنون ولم يفتح الخطاب. فقالت له:

- فحشاً وعاراً، لقيني رجل قبيح يدّعي أنه يعرفك، وأنه مدين لك بالفضل، ثم أعطاني هذا الخطاب وأنا سائرة خلف حديقة المسجل. إني أريد منك شيئاً واحداً وألحّ فيه، وهو أن تبعث بهذا السيد «چوليان» إلى أهله في الحال.

قالت له هذا كله بسرعة، وربما كان من الخير ألا تواجهه بما قالته إلا بعد لحظات، لكنها أرادت أن تتخلص من هذا العبء الثقيل بأن تفضي إليه بما قالت.

وسرى الفرح في نفسها حين رأتْ ما أحدثته لزوجها من هدوء وأدركت أن «چوليان» كان على صواب فيما ذهب إليه حين أخذ العمدة ينظر إليها نظرات ثابتة، فحدثت نفسها قائلة: يا له من عبقريّ! وياله من شاب وهب ذوقاً سليماً! إنه لم يجزع من هذا البلاء العظيم، ولو أنه لا يزال شاباً لا دراية له بالحياة! إنه جدير بأن يصل إلى أعلى المراتب، ولم لا؟ ولكن وا أسفاه! سيحمله النجاح على أن ينساني.

وأنساها إعجابها بمعبودها اضطرابها وقلها، وارتاحت نفسها إلى مسلكها، وأخذت تقول في لذة ونشوة: أنا حقًا جديرة بچوليان.

لزم العمدة الصمت لئلا يتورط في شيء وأخذ يفحص الخطاب الثاني الذي جمع من كلمات مطبوعة ألصقت على ورقة تضرب إلى الزرقة كما يذكر القارئ، ثم تحدث إلى نفسه قائلاً وقد أعياه التعب إنهم يسخرون مني على أي حال. هذه إهانات جديدة يجب أن أفحصها.. وكل ذلك من أجل امرأتي! وكاد يوجه إليها أقذع الشتائم، لكنّ الميراث المنتظر الذي سيأتي من بيزانسون أسكته على كره. كان يريد أن يطفئ غيظه في أي شيء ففرك ورقة الخطاب الثاني براحة يده، وأخذ يسير في الحديقة مسرعاً لأنه كان في حاجة إلى أن يبتعد عنها. ومرت لحظات قليلة عاد إليها بعدها، وهو أكثر هدوءاً من قبل. ورأته زوجه فقالت له:

- يجب أن تبت في الأمر وأن تطرد «چوليان»! إنه ابن عامل لا أكثر ولا أقل،

وستعوضه عن فقد منصبه بالقليل من المال، على أنه سرعان ما يجد منصباً آخر نظراً لعلمه الغزير؛ وربما التحق بالعمل عند السيد ڤالنو أو نائب الحاكم دى موچيرون، وكلاهما له أولاد. وعلى هذا فلن يلحقه منك ضرر كبير .... .

فصاح زوجها في صوت مخيف:

– إنك تتحدثين كالبلهاء. وهل نبتغي عند امرأة سلامة تفكير؟ أنت لا تأبهين أبداً بما فيه الجدّ والحزم، فكيف تظنين أنك على شيء من العلم؟ إن فتورك وكسلك لا يبعثان فيك نشاطاً إلاّ حين تصيدين الفراش. أنت من المخلوقات الضعيفة، ومن البؤس أن تكون مثيلاتك في أسرتنا!

فتركته يتكلم، وتكلم كثيراً لينفّس عن غضبه كما يقال في هذا الإقليم. وأخيراً قالت له: أنا أتحدث إليك يا سيدي كامرأة أسئ إليها في عرضها ، وشرف المرأة أغلى ما تملك.

وصاحبها أثناء هذا النقاش الأليم، الذي يتوقف عليه مصيرها ومصير حبيبها ، هدوء شديد، وكانت حريصة أشد الحرص على أن تعيش معه يظللهما سقف هذا المنزل. فجرت في حديثها وراء كل رأي يبعث في نفس زوجها الغضب الأعمى، وأما شتائمه المقذعة فكانت لا تسمعها لأنها كانت تفكر في «چوليان»، وتسائل نفسها: هل سيسر مني؟ ثم خاطبت زوجها قائلة:

– هذا الفلاح الصغير الذي بسطنا عليه من رعايتنا ونعمتنا ، وأتحفناه بهدايانا الكثيرة. قد يكون بريئاً، ولكنه على كل حال سبب في أن وجهت إليّ أولى الأهانات ... إنني حين قرأت هذه الورقة المهينة عزمت يا سيدي على أحد شيئين، فإما أن يغادر المنزل، وإما أن أغادره أنا.

– هل تريدين أن تجرّي عليّ وعلى نفسك الفضيحة والعار؟ أنت بذلك تتيحين لكثير من أهل ڤريير فرصة أن يسخروا منا.

– حقاً إنهم جميعاً يحسدونك على رخائك ونعمتك، وما ذلك إلا لإدارتك الحكيمة التي جعلتك أنت وبيتك والمدينة بأسرها في خير .. وعلى هذا فسأوحي إلي «چوليان» أن يطلب منك إجازة شهر يقضيه في الجبل عند صديقه تاجر الأخشاب، ذلك الصاحب الجدير بصداقة هذا العامل الوضيع. فأجابها «السيد دى رينال» في هدوء:

– احذري أن تفعلي هذا! وأنا أطلب منك قبل كل شيء ألا تتحدثي إليه في أيّ أمر، فإنك إن كلمته غضب وفسدت العلاقة بيني وبينه، وأنت تعلمين أن كثيراً من الناس يتطلعون إلى هذا السيد الناشئ.

– هذا الشاب لم يوهب من سلامة الذوق شيئاً أبداً، قد يكون غزير العلم، وأنت وحدك من يستطيع الحكم عليه في هذا، لكنه في الواقع فلاح غير مصقول، وقد غيّرت

رأيي فيه منذ رفض الزواج بإليزا، وقد كان أمامه ثروة مؤكدة فاعتذر متعللاً بأنها تزور السيد ڤالنو خفية بين حين وحين. فسألها وقد علا حاجباه علواً شديداً:

- آه! ماذا تقولين؟ هل أخبرك «چوليان» بهذا؟

- لا، لم يقل هذا في صراحة، بل كان يتحدث إليّ دائماً عن رغبته في اللحاق بالكنيسة، ولكني أؤكد لك أن أول ما يشغل مثله من الشبان هو أن يحصلوا على القوت، وقد لمح لي كثيراً بأنه لا يجهل أمر هذه الزيارات السرية.

فغضب مرة أخرى وصاح يقول وهو يتدبر ما ينطق به:

- وأنا! أنا! أأجهل هذا الذي يرتكب في منزلي؟ إن هذا لأمر عجاب! ... أهناك علاقة بين إليزا وڤالنو؟ فضحكت قائلة:

- هي قصة قديمة يا صديقي العزيز! ومن يدري؟ لعلهما لم يرتكبا فاحشة قط. كان ذلك يجري أيام كان صديقك العزيز السيد ڤالنو مرتاحاً حين كان أهل ڤريير يعتقدون أنّ بيني وبينه حباً طاهراً ناشئاً.

فصاح العمدة وضرب رأسه في غضب كمن ينتقل من اكتشاف إلى اكتشاف، ثم قال لزوجه: لقد عنّت لي من قبل هذه الفكرة، ولكن لم لم تخبريني بذلك؟

- لم أشأ أن أفسد صداقة رجلين لغرور سيطر على نفس مديرنا العزيز. وهل هناك في المجتمع سيدة واحدة لم يرسل إليها ڤالنو بضعة خطابات رقيقة طريفة لا تخلو من الغزل؟

- وهل كتب إليك؟

- كثيراً ما كتب.

- أريد أن أراها في الحال، وآمرك بهذا.

وبدت قامته وكأنها قد طالت ست أقدام. فأجابته في لطف قد يكون فتوراً وعدم مبالاة: لن أفعل، بل ستراها يوماً حين تصبح أكثر هدوءاً.

فصاح وقد أثمله الغضب، لكنه أحسّ بسعادة كانت فارقته منذ اثنتي عشرة ساعة:

- لا. بل أريدها في الحال!

فأجابته في رزانة وتؤدة:

- أتقسم لي بأنك لن تتشاجر مع المدير يوماً من جراء هذه الخطابات؟

- سواء أتشاجرت أم لم أتشاجر فإن في استطاعتي أن انتزع منه اللقطاء، ثم استطرد في غضب شديد: أريد هذه الخطابات حالاً، فأين هي؟

- في أحد أدراج مكتبي، ولكن ثق أنني لن أعطيك المفتاح.

فجرى إلى غرفتها وهو يصيح قائلاً: أنا أعرف كيف أكسره.

ولم يتردد في تحطيم المكتب الفخم الذي صنع في باريس من خشب شجر الكابلي، واستعان على كسره بوتد من الحديد، مع أنه كان يعتز به من قبل ويحافظ عليه حتى كان ينظفه بذيل ثوبه إذا توهم أن هناك ما يعلق به.

صعدت «مدام دى رينال» مائة وعشرين درجة في سرعة كبيرة حتى إذا ما وصلت إلى برج الحمام، ربطت منديلاً أبيض في قضيب حديدي من قضبان النافذة الصغيرة. وكانت في تلك اللحظة تشعر بأنها أسعد النساء. ثم نظرت إلى الغابات الكبيرة التي تجاور الجبل، ودموع الفرح تترقرق في عينيها، وحدثت نفسها قائلة: لا ريب أنّ «چوليان» يترقب هذه العلامة السعيدة واقفاً تحت شجرة باسقة من أشجار الزان، ثم تسمعت وقتاً طويلاً فلم يصل إلى مسامعها إلا الضجة المملة، ضجة تغريد الطيور. ولولا هذه الجلبة الملعونة لوصلت إلى مسامعها صرخة فرح انبعثت من بين هذه الصخور الكبيرة. كانت عينها المتلهفة تلتهم هذا المنحدر الشاسع الأخضر القاتم، الذي تلاقت فيه ذوائب الأشجار واجتمعت ؛ فبدا للعين كأنه مرج. ولما أيقنت أنها لن تسمع صوتاً ولن ترى شبحاً ساءلت نفسها في حنان بالغ:

- لم لم يمل عليه ذكاؤه أن يعمد إلى إشارة تخبرني بأن سعادته تضارع سعادتي؟ ولم تغادر برج الحمام إلاّ بعد أن خشيت أن يصعد إليها زوجها باحثاً عنها.

ثم عادت فوجدته مغيظاً. كان يتصفح الجمل التافهة التي كتبها السيد ڤالنو والتي لم تقرأ من قبل بمثل ما تقرأ به الآن من جزع واضطراب. وانتهزت فرصة رأتها ملائمة لتسمع زوجها صوتها فقالت:

- لازلت متمسكة برأيي، إنه من الخير أن يقوم «چوليان» برحلة، ومهما يكن علمه باللغة اللاتينية وتعمقه فيها، فهو قبل كل شيء فلاح غليظ سيئ المعاملة، وإن كان حريصاً على أن يظهر لي أدبه دائماً بما يوجه إليّ من ثناء مبالغ فيه بعيد عن الذوق السليم، أظنه قد حفظه من إحدى القصص ... .

- إنه لا يقرأ قصصاً أبداً وقد تأكدت من ذلك. أتعتقدين أنني رب بيت أعمى لا يعرف ماذا يدور في منزله؟

- حسناً! هب أنه لم يحفظ هذا الثناء من بعض القصص وأنه أنشأه. فأنا كذلك لا أبالي به. ولكني أخشى أن يتحدث عني بهذه اللهجة في ڤريير ... ثم استطردت كأنها وفقت إلى كشف جديد: ولم تذهب بعيداً؟ هبه تحدث بهذا الأسلوب أمام إليزا ألا يكون بذلك كأنه قد تحدث إلى السيد ڤالنو تقريباً؟

فأهوى «السيد دى رينال» على المنضدة بضربة قوية عنيفة دوت بها أرجاء الشقة، وصاح قائلاً : آه! هذا الخطاب المجهول المطبوع وخطابات ڤالنو كلها مكتوبة على ورق من نوع واحد.

فتحدثت إلى نفسها قائلة: وأخيراً! وتصنعت الحزن لما اهتدى إليه زوجها، ولم يعد

في مقدورها أن تضيف جديداً إلى ما قالت، فذهبت لتجلس على أريكة في أقصى الصالون.

وهكذا بدأت تربح المعركة، وبقي عليها أن تمنع زوجها من أن يتحدث إلى الكاتب المزعوم الذي بعث الخطاب المجهول، فقالت له:

- ألا تعلم أن الخلاف مع السيد ڤالنو على أمر لم تتحقق بعد منه، لأنه تعوزه البراهين القاطعة، عمل لا يخلو من حماقة؟ أنت محسود يا سيدي، فمن المسئول عن هذا الحسد؟ أهي مواهبك؟ إن الإدارة الرشيدة التي تصرف بها الأمور، ومنازلك التي تدل على الذوق السليم، والمال الذي حملته بائنة لك، ثم الميراث الكبير الذي نأمل أن يئول إلينا من عمتي الطيبة، والذي قد بالغ فيه أهل ڤربير كثيراً، كل أولئك خلقت منك أهم شخصية في ڤربير كلها. فابتسم قليلاً ثم قال:

- عليك ألا تنسي محتدي الكريم.

فأجابته مسرعة: أنت من أكرم رجال المقاطعة كلها! ولو أن الأمر بيد الملك وحده وأراد أن ينصف رعاياه من ذوي الحسب الفاضل، لكنت عضواً في المجلس الأعلى ما في ذلك من ريب ... فهل تريد وأنت جدير بهذا المنصب الرفيع أن تمكن أعداءك الحاسدين من سلاح يحاربونك به؟ لو تحدثت إلى السيد ڤالنو عن هذا الخطاب المجهول لأذيع الحديث في ڤربير، استغفر الله، بل في بيزانسون وفي الإقليم كله، ولقيل: إن هذا البرجوازي الوضيع الذي عاشر دى رينال -وما كان ينبغي لنا أن نصطفيه- قد وجد سبيلاً إلى الإساءة إليه. على أنك إن وجدت في الخطابات التي بين يديك ما يدلّ على أني أجبت ڤالنو إلى مايبتغي أو جاريته في هواه، وجب عليك أن تقتلني شر قتلة، فأنا في هذه الحالة أستحق هذا المصير، ولكني أرجوك ألا تظهر له غضبك من هذه الخطابات، وفكر دائماً في أن جيرانك جميعاً ينتظرون في لهفة ما يساعدهم على أن يثأروا منك لتفوقك عليهم ؛ ولا تنس أنك ساهمت سنة ١٨١٦ في القبض على بعض أشخاص. إن هذا الرجل الذي كان قد اختبأ فوق سطح منزله .... .

فصاح «السيد دى رينال» صيحة تدلّ على أسف شديد، أثارته هذه الذكرى، وقال:

- يخيّل إليّ أن نفسك لا تكنّ لي صداقة ولا تبجيلاً، ومع ذلك لم أعيّن عضواً في المجلس الأعلى!

فابتسمت قائلة:

- ويخيل إليّ يا صديقي أنني سأكون أكثر منك مالاً، وأنا قرينتك منذ اثني عشر عاماً، وعلى هذا فمن حقي أن أدلي إليك برأيي وعلى الأخص في موضوع اليوم. ثم استطردت تقول في غيظ لم تحسن أن تظهره: إذا كنت تفضل عليّ السيد «چوليان» هذا، فأنا مستعدة أن أقضي عند عمتي فصل الشتاء.

وكانت جملتها الأخيرة موفقة جداً أصابت بها الهدف. كانت لهجتها كلها حزم يشوبه الأدب، فحملت «السيد دى رينال» على أن يبتّ في الأمر على ما تهوى؛ وإن تحدث إليها وقتاً طويلاً كعادة أهل الريف، وتناول من جديد كل الحجج والبراهين بالبحث وتركت هي زوجها يتحدث ويتحدث وكلامه لا يزال مشوباً بالغضب؛ فظل ساعتين يثرثر بما لا طائل تحته حتى نفذت قوى هذا الرجل الذي ظلّ ليلة كاملة وهو فريسة لغضب شديد. وأخيراً رسم لنفسه الخطة إزاء السيد ڤالنو و«چوليان» وإليزا كذلك.

كادت «مدام دى رينال» تحسّ في نفسها ميلاً نحو هذا الرجل الذي ظلّ صديقها اثنتي عشرة سنة، حين كان تحت سلطان الألم أثناء هذا النقاش الحاد. كادت عواطفها تميل إليه مرة أو مرتين، ولكن الحب الحقيقي لا تفارقه الأنانية، فقد توقعت في كل لحظة تمرّ أن يفضي إليها زوجها بخبر الخطاب المجهول الذي تسلمّه بالأمس، لكنه أمسك عن الكلام، ولم تتمكن هي على الرغم من ثباتها أن تعرف ما أثاره الخطاب في نفسه، وهو الذي يملك البتّ في مصيرها؛ لأن الأزواج في الأرياف لهم الكلمة العليا دائماً على زوجاتهم، والزوج الذي يشكو من امرأته لا يعفى من العبث والاستهزاء، على أن هذا يعدّ في فرنسا دائماً أمراً غير ذي بال. ولكن امرأته إذا لم يعطها مالاً أصبح مثلها مثل العاملة التي تتناول خمسة وسبعين سنتيما يومياً، ومع ذلك فالنفوس الكريمة تتحرج من أن تسند إليها عملاً.

إن الجارية في قصر من قصور السلاطين تستطيع أن تحبّ مولاها حباً قوياً، وهو قوي جبار لا تتمكن من أن تنزع منه سلطانه مهما يكن دهاؤها ومكرها، وانتقام السيد شديد تسيل فيه الدماء، لكنه انتقام عسكري كريم، وطعنة من خنجر تقضي على كل شيء. والرجل الذي يقتل زوجه في القرن التاسع عشر يحتقره الناس وتقفل في وجهه الصالونات.

استولى على «مدام دى رينال» شعورها بالخطر، ولما عادت إلى غرفتها آلمها ما رأت فيها من الفوضى. فقد كسرت أقفال الخزائن الجميلة الصغيرة، وانتزع خشب بعض أرض الغرفة، فحدثت نفسها قائلة: لقد كان قاسياً عليّ كل القسوة! وهكذا أفسد الأخشاب الجميلة الملونة التي يحبها إلى حد أنه كان يغضب إذا دخل أحد أبنائه الغرفة ووطئ أرضها بحذائه المبلل، ها هو ذا قد أتلفها ولم يعد هناك أمل في إصلاحها! وحينما وقع بصرها على آثار القسوة والعنف زال من نفسها بعض لوم كان خامرها لانتصارها السريع.

ثم عاد «چوليان» مع الأطفال قبل أن يدق جرس الغداء بقليل، وأخذوا يطعمون الحلوى بعد أن خرج الخدم من غرفة الطعام. فقالت له «مدام دى رينال» في جفوة وغلظة:

- كنت أظهرت لي رغبتك في أن تقضي في ڤريير خمسة عشر يوماً، لذلك قد تفضل «السيد دى رينال» ومنحك عطلة ... تستطيع إذن أن ترحل في أي وقت تشاء، ولكيلا يضيع وقت الأطفال عبثاً، فسنرسل إليك يومياً ما يترجمونه إلى اللاتينية

لتصححه. وقال «السيد دى رينال» كذلك في لهجة جافة: هذا صحيح، ولن أسمح لك فيما بعد إلا بأسبوع واحد.

وقرأ «چوليان» في وجهه قلقاً شديداً دلّ على ما لاقاه من عذاب، فقال لصاحبته في لحظة عزلة أتيحت لهما وهما في الطريق إلى الصالون:

- إنه لا يزال في حيرة من أمره.

فقصت عليه مسرعة ما فعلت معه منذ الصباح. ثم ضحكت قائلة.

- سأقصّ عليك الليلة كل التفاصيل.

فقال في نفسه: يا لفساد النساء! أي غريزة وأي لذة تدفعانهن إلى خيانة الرجال! ثم قال لها في شيء من الفتور:

- أرى أن الحب قد هداك وها هو ذا يضلك من جديد؛ لقد كنت اليوم رائعة المسلك، ولكن ألا ترين معي أن من الخير ألا نلتقي في هذا المساء؟ لأن المنزل غاصٌ بالأعداء ؛ ولا تنسي تلك الكراهية الشديدة التي تضمرها لي إليزا.

- بغضاؤها شديدة كزهدك في لقائي تماماً.

- إن صحَّ هذا وكنت زاهداً في لقائك، فواجبي أن أنقذك من خطر عرضتك له. لو تحدث «السيد دى رينال» إلى إليزا فقصت عليه أمرنا ، أفلست تعتقدين أنه أهل لأن يختفي على مقربة من غرفتي مدجّجاً بالسلاح؟ فأجابته بكل ما فطر عليه الأشراف من كبرياء:

- ما هذا! أليس في قلبك شيء من الشجاعة؟

فقال في فتور: لا أريد أن أحط من قدري حين أتحدث عن شجاعتي، فحديث المرء عن شجاعته يزري بنفسه. ليحكم الناس بالأفعال. ثم أمسك يدها وقال:

- ولكن ألا ترين مقدار تعلقي بك؟ ألا تقدرين ما يملكني من نشوة وسرور حين أتمكن من لقائك قبل هذا الفراق الأليم؟

الفصل الثاني والعشرون

ضروب من التصرفات في عام ١٨٣٠

ما وهب الناس الكلام إلا ليخفوا رأيهم.

ر.پ.مالاجريدا

ما وصل «چوليان» إلى ڤريير حتى أخذ يلوم نفسه التي قست على «مدام دى رينال»: لو أنها أخفقت في مسعاها وانتصر زوجها لاحتقرتها وعددتها امرأة خاملة ضعيفة الحيلة، لكنها خرجت من الأزمة منتصرة كما ينتصر السياسي، وإن كنت أعطف على هذا الرجل المغلوب مع أنه عدوّي. في عملي هذا وضاعة برچوازية. لقد جرح كبريائي أن «السيد دى رينال» رجل أي رجل! ينتمي إلى الطائفة الكبيرة المجيدة التي أتشرف بالاتصال بها، إنني لأحمق.

رفض الأب شيلان المساكن التي عرضها عليه كبار الأحرار في الإقليم حينما جرّ عليه فصله من منصبه طرده من دار الخوري. واستأجر غرفتين ازدحمتا بكتبه. فأراد «چوليان» أن يقف أهل ڤريير جميعاً على قيمة القسيس، فذهب إلى أبيه ومعه اثنا عشر لوحاً من خشب الصنوبر، حملها بنفسه على ظهره سائراً بها في الشارع الرئيسي، واستعار من أحد أصدقائه القدماء أدوات صنع بها مكتبة وضعت فيها كتب الأب شيلان.

فرح الشيخ فرحاً شديداً حتى بكى وقال له:

– كنت أعتقد أن الحياة أفسدتك باللهو والغرور، ولكن عملك هذا أنساني عبثك الصبياني يوم لبست الحلة الفاخرة مع حرس الشرف، وقد خلق لك عملك هذا أعداء كثيرين.

كان «السيد دى رينال» قد أمر «چوليان» قبل رحيله أن يقيم في منزله أثناء وجوده في ڤريير. ولهذا لم يفطن أحد إلى ما حدث، وفي اليوم الثالث لوصوله صعد إلى غرفته رجل خطير الشأن ليلقاه وهو السيد دى موچيرون نائب الحاكم. وتحدث معه ساعتين كاملتين بحديث تافه تناول الشكوى المرة من شرور الرجال وعدم أمانة الذين يؤتمنون على الأموال العامة، والأخطار المحدقة بفرنسا البائسة، وما إلى ذلك ... وبعد هذا الحديث الممل الطويل، بدأ «چوليان» يدرك سرّ الزيارة. وكان وزائره قد وصلا إلى درج السلم حيث أخذ المعلم المسكين الذي يكاد يكون مغضوباً عليه يودّع الحاكم المنتظر لإحدى المقاطعات السعيدة في تجلة وإكبار، فبدا للحاكم أن يتفضل بالاهتمام بأمر «چوليان»، وأخذ يثني

على زهده في المال ... .

وأخيرا احتضنه السيد دى موچيرون في حنان الآباء واقترح عليه أن يغادر «السيد دى رينال» ليشرف على تربية أبناء أحد الموظفين، وهو سيشكر الله كثيراً، كالملك فيليب لا لأنه منَّ عليه بالأبناء فحسب، بل لأنهم ولدوا قريباً من مقام السيد «چوليان». والمعلم الذي سيعهد إليه بتربية هؤلاء الأولاد وتثقيفهم يمنح ثمانمائة فرنك مقدّما لكل ثلاثة أشهر، لأن الدفع الشهري لا يتفق مع الكرامة والشرف.

وأخيرا جاء دور «چوليان» في الكلام، بعد أن ظلّ ساعة ونصف ساعة يترقبه في سأم وملل، وكانت إجابته بارعة طويلة كأنها منشور؛ لمح فيها لمحدثه بكل شيء لكنه لم يصرح بشيء؛ وحفل حديثه بالاحترام الكامل «للسيد دى رينال» وبإجلاله لأهل ڤريير وباعترافه بجميل نائب الحاكم الجليل الخطير.

فذهل السيد دى موچيرون حين رأى «چوليان» أكثر منه دهاء، وحاول عبثاً أن يسمع منه رأياً قاطعاً صريحاً. وإن انتهز «چوليان» فرصة رغبة محدثة فأعاد من جديد ما قاله أولاً مغيّراً أساليب حديثه الأول. ولو أن وزيراً ذكيّ الفؤاد واسع الحيلة أراد أن يقضي على مناقشة تمسك مجلس النواب أن يثيرها، ما قال أكثر مما قاله «چوليان». ثم غادر السيد دى موچيرون المنزل، فأغرق «چوليان» في ضحك شديد. انتهز فرصة توقد قريحته فكتب خطاباً في تسع صفحات إلى «السيد دى رينال» يخبره بكل ما حدث ويرجوه أن يتفضل بإدلاء النصح إليه. ثم أخذ يقول: لم يخبرني هذا الخبيث باسم من يعرض عليّ هذا العرض السخيّ! ربما كان السيد ڤالنو بعد أن رأى أن خطابه إلى العمدة قد أثمر ثمرته فنفيت هنا في ڤريير.

وشمله سرور وفرح بعد أن أرسل إلى العمدة خطابه هذا كأنه صيّاد قد بكّر إلى سهل كثير الصيد في يوم جميل من أيام الخريف؛ ثم غادر المنزل ليستطلع رأى الأب شيلان. وكأنما أرادت السماء له ألاّ يسرف في فرحه. فذكرته بالسيد ڤالنو قبل أن يصل إلى منزل الخوري الطيب، ثم لم يَخْفَ على الأب أن قلبه نهب الوساوس والهموم، لأن شاباً مسكيناً مثله، صرفته الحياة الدنيا أو كادت، عن أن يستجيب إلى دعوة الله التي ملكت عليه نفسه ولبّه، يجب أن يتعلم لكي يكون هادي الناس. يرشدهم إلى الصراط المستقيم، ينبغي أن يأخذ قسطاً وفيراً من العلم حتى لا يكون أقل من زملائه العلماء الأفذاذ؛ إذن فليلتحق بالمدرسة الاكليريكية ببيزانسون ليقضي عامين قد يرهقانه في النفقات؛ لذا يجب أن يقتصد بعض المال، وقد يتيسر له ذلك لو أن مرتبه ثمانمائة فرنك يدفع كل ثلاثة شهور أكثر مما يتيسر لو كان ستمائة فرنك يدفع مشاهرة ولا يبقى منه شيء آخر الشهر. على أن المقادير قد ساقته إلى أبناء «السيد دى رينال» وغرس الله في قلبه حباً لتلاميذه، أليس ذلك دليلاً على دفعه إلى البقاء معهم وعدم الإقبال على غيرهم من أبناء الأسر الأخرى؟

كان «چوليان» يجيد فن الكلام، واتصف بالبلاغة التي حلت محل سرعة العمل في زمن الامبراطورية، لكنه كاد يمّل فصاحته ويكره وقع كلامه في أذنيه.

وعاد إلى المنزل فوجد أحد أتباع السيد ڤالنو بملابسه الجميلة يحمل إليه رقعة يدعوه فيها سيده للغداء في نفس اليوم، وأخبره الخادم أنه بحث عنه في كل مكان بالمدينة ليبلغه دعوة مولاه. لم يكن «چوليان» قد دخل منزل ڤالنو من قبل، وكان يفكر قبل ذلك بأيام في طريقة تتيح له أن يضربه بالعصا عدة ضربات، بحيث لا يقع في يد الشرطة. وقد أخبره الخادم أنّ الغداء في الساعة الواحدة، لكنّ «چوليان» رأى أن من الاحترام أن يذهب إلى مكتب السيد مدير المخازن قبل الميعاد بنصف ساعة. ودخل عليه فرآه معتزاً بمكانته بين ملّفات من الورق المقوى، فلم يأبه «چوليان» بشعر عارضيه الأسود، ولا بشعر رأسه الغزير، ولا بقبعته اليونانية التي لبسها منحرفة في أعلى رأسه، ولا بغليونه الضخم ولا ببابوجه المزركش، ولا بتلك السلسلة الذهبية الغليظة التي تزين صدره من أعلاه إلى أسفله ومن يمينه إلى شماله، ولا بكل تلك الأدوات التي يقتنيها صيارفة الريف، ولم يصرفه ذلك كله عن رغبته الملحة في أن يهوي عليه بعصاً غليظة كما فكر من قبل. ثم طلب «چوليان» إلى السيد ڤالنو أن يكرمه بتقديمه إلى مدام ڤالنو، فأخبر بأنها لا تستطيع الآن مقابلة أحد لأنها مشغولة بزينتها. إلا أنه شهد السيد المدير وهو يرتدى ثيابه، ثم ذهبا معاً إلى مدام ڤالنو، التي قدمت إليه أولادها والدموع تترقرق في عينيها. وكانت هذه السيدة التي تعدّ من فضليات نساء ڤريير، ذات وجه ضخم كوجوه الرجال، صبغ بالأحمر استعداداً لهذا الحفل الكبير. وقد أظهرت أثناء الحفل ما جبلت عليه من شقشقة، تبالغ فيها الأمهات وتتقنها.

ورآها «چوليان» فتذكر «مدام دى رينال»، ولكن حال حرصه وحذره بينه وبين ذكرياتها اللذيذة التي أثارتها في نفسه رؤية الضد، ثم أخذ يفكر فيها في لذة وهيام. وزاد الفرق بين الأسرتين عظماً حين رأى منزل مدير المخازن بدعوة من صاحبه. كلّ شيء وقع عليه بصره جديد، وأخبر بثمن كل قطعة من الأثاث. لكن موقع ذلك في نفسه كان غير مريح فكأنه اشتم فيه رائحة المال المسروق وأوحى إليه كل ما في المنزل أن يحتقر جميع من يرى حتى الخدم.

ثم حضر إلى المنزل محصل الضرائب، والموظف المختص بفرض ضرائب غير مباشرة، وضابط الشرطة، وموظفان أو ثلاثة من الموظفين العموميين ومعهم نساؤهم. ثم جاء بعض الأحرار الأغنياء، وانتقلوا جميعاً لتناول الطعام. وكان «چوليان» ضيق النفس بما يرى، يحسّ أنّ في الناحية الأخرى من غرفة الطعام سجناء بائسين ربما اقتطع من قوتهم ما اشترى به هذا الأثاث الغالي الذي يدل على مزاج سقيم وذوق معتل، وإن عرضوه على «چوليان» ليبهروه. ثم قال في نفسه: ربما كانوا الآن جائعين. فانقبض حلقه، وأصبح من العسير عليه أن يأكل، بل من العسير عليه أن يتحدث. وازدادت حاله سوءاً بعد ذلك بربع

ساعة، لأنهم سمعوا من بعيد كلمات أغنية عامية فاحشة يترنّم بها أحد السجناء. فنظر السيد ڤالنو إلى رجل من رجاله يلبس ملابسه الرسمية، فسرعان ما اختفى وسرعان ما سكت السجين. كان أحد الخدم في هذه اللحظة يصبُّ لجوليان نبيذ الرين في كوب أخضر، وحرصت ربة الدار على أن تخبر «چوليان» بأن ثمن زجاجة هذا النبيذ تسعة فرنكات في مكان تعبئتها. فأمسك «چوليان» بكأسه قائلاً للسيد ڤالنو:

– لم نعد نسمع الآن تلك الأغنية الفاحشة التي تردّدت منذ لحظة.

فأجابه المدير في نشوة المنتصر:

– يا إلهي! هذا ما يجب أن يكون، لقد أمرت بإسكات هؤلاء الصعاليك. ووقعت هذه الكلمات على نفس «چوليان» موقعاً شديداً، لأنه وإن قبس من هؤلاء السادة عاداتهم فإنه لم يوهب قلوبهم أبداً فسالت دمعة كبيرة على خدّه حزناً وأسفاً، وإن كان من الذين يجيدون النفاق.

وحاول أن يخفيها بكوبه الأخضر، لكنه لم يتمكن بعدُ من أن يذوق النبيذ. قال لنفسه: لقد منعه أن يغني! وكيف أحتمله؟ ولم يلحظ –لحسن حظه– أحد من الحاضرين حزنه الذي قد يؤاخذ عليه. وبدأ محصل الضرائب يغني أغنية ملكية ردّد المدعوون بعض مقاطعها في جلبة، على حين كان «چوليان» يستمع إلى صوت ضميره: هذا هو الغنى الملوّث الذي تطمح إليه، ولن تصل إليه إلاّ بمثل هذه الوسائل، وبين أمثال هؤلاء الأصدقاء! قد تصل إلى منصب يدر عليك عشرين ألفا من الفرنكات، ولكن عليك أن تمنع هذا السجين البائس من الغناء وأنت تزدرد اللحوم! وا أسفاه عليك يا ناپليون! لقد كان الناس ينالون الثراء في عصرك بعد أن يواجهوا أخطار المعارك، أما الآن فإننا نزيد بؤس البائسين في جبن ورعونة!.

ولكن دعني أعترف بأن الشفقة التي أبداها «چوليان» في حديثه هذا، قد صورته لي صورة غير كريمة، لأنه لا يعدو أن يكون زميل هؤلاء المتآمرين من ذوي القفازات الصفراء، الذين يزعمون أنهم يريدون قلب أوضاع الحياة، وهم مع ذلك يخفون أيديهم خشية أن تصيبها خدوش لا تضير.

طُلب من چوليان بغتة أن يقوم بدوره؛ لأنه لم يدع إلي الطعام مع هذه الطبقة الراقية ليلزم الصمت أو يسترسل في الأحلام. وكان بين الحاضرين أحد صناع المنسوجات المرسومة، اعتزل عمله وأصبح عضواً مراسلاً لمجمع بيزانسون ومجمع أيزيس، فسأل هذا «چوليان» من طرف المائدة عما إذا كان نجاحه الباهر وتقدمه السريع في دراسة العهد الجديد حقيقة من الحقائق؟

فساد الجمع صمت سريع، وكان في يد عضو المجمعين نسخة لاتينية من العهد الجديد. قرئت منها على «چوليان» كلمات من جملة لاتينية كما طلب هو، فأخذ يتلو عن ظهر قلب، ولم تخنه ذاكرته. فدهش الحاضرون وأعجبوا بالمعجزة في ضجة وجلبة أحدثهما

الذين فرغوا من تناول الطعام.

ونظر چوليان إلى وجوه السيدات التي زينت بالأحمر فرأى بينها وجوهاً جميلة، وأجمل ما فيها وجه زوج محصل الضرائب ذلك الفتى البارع. فنظر إليها وقال:

– يخجلني حقاً، أنني تحدثت باللاتينية وقتاً طويلاً بين يدى هؤلاء السيدات الفضليات. فإذا تفضل السيد روبينيو -عضو المجمعين- وقرأ أية جملة لاتينية فإنى أحاول أن أترجمها في الحال إلى الفرنسية بدل أن أقرأ النص باللاتينية.

ونجح ببراعة في هذا الامتحان الثاني وكلل بالمجد والفخار. وكان بين الحاضرين جماعة من أغنياء الأحرار، آباء سعداء بأطفالهم المجدّين، الذين قد يحصلون على إعانات مالية من الدولة لأنهم مجتهدون، وقد أصبح هؤلاء الآباء من نصراء الحكومة منذ زمن البعثة الأخيرة. لكنه على الرغم من هذه السياسة الحاذقة، رفض «السيد دى رينال» أن يستقبلهم في منزله، فلم ير هؤلاء الأمجاد «چوليان» إلاَّ يوم زيارة ملك ... وهو على صهوة الجواد. ولم يشهدوا نبوغه عن قرب وإن كان ذائع الصيت بين أهل ڤريير جميعاً، لذلك كانوا أكثر الحاضرين إعجاباً بچوليان وأكثرهم صخباً وجلبة. ثم قال «چوليان» في نفسه: متى يملّ هؤلاء الحمقى سماع أسلوب الأنجيل، الذي لا يفهمون منه شيئاً؟ إنهم لم يملوا ولم يسأموا، وإن كان هذا الأسلوب غريباً فإنهم يعبثون ويضحكون، ولكن «چوليان» دبّ إلى نفسه الملل.

نهض في تؤدة حين دقت الساعة السادسة ثم تحدث إليهم عن فصل في علم اللاهوت الجديد لليجوريو، وكان «چوليان» قد كلّف حفظه ليتلوه في اليوم التالى على الأب شيلان. ثم قال لهم في ظرف ودعابة:

– إن مهنتي تقتضيني أن أسمع الدروس التي تتلى عليّ، وأن أتلو أنا أيضاً دروساً أخرى.

فضحكوا معجبين؛ لأن هذا اللذع من النكتة كان سائداً وقتذاك في ڤريير. كان «چوليان» واقفاً فوقف جميع الحاضرين واغفلوا الفارق الاجتماعى بينه وبينهم، وقفوا احتراماً لنبوغه. وهَم بالانصراف فاستوقفته مدام ڤالنو ربع ساعة ليسمع أبناءها وهم يتلون دروسهم في الدين؛ فأخطئوا خطأً شنيعاً لم يتبينه إلا هو وحده، ولم يشأ أن يصحح لهم الأخطاء، ولكنه قال في نفسه: وا أسفاه على الجهل بمبادئ الدين الأولية! ثم حيا الحاضرين ظانّاً أنه يستطيع الهرب، ولكنه كان عليه أن يتحمل سماع قصة من قصص لافونتن، فقال لمدام ڤالنو:

– إن لافونتن مؤلف فاسق، في بعض قصصه عن السيد چان شرار، سخرية بما هو مقدس، وقد لامه على ذلك خير الشراح وأفضل المفسّرين.

وقبل أن ينصرف دعى إلى خمس مآدب أو ست. وصاح المدعوون جميعاً في فرح وسرور: هذا الشاب فخر لإقليمنا. ثم أخذوا يتحدثون عن مده ببعض المال من خزانة

البلدية، حتى يتمكن من إتمام دراسته في باريس.

كان هذا الرأى يتردّد في أرجاء غرفة الطعام، حين خرج «چوليان» في خفة ونشاط من الباب الذي تخرج منه العربات، وهو يقول في صوت منخفض. آه! يا لكم من لصوص! ويا لكم من أوغاد! وردد هذه العبارة ثلاث مرات أو أربعاً، وهو يجد لذة في استنشاق الهواء النقي.

شعر في هذه اللحظة بأنه أرستقراطي، وقد كان من قبل يتألم من الابتسامات التي تحمل الازدراء، ومن الكبر المتعالي الذي تنم عنه عبارات المجاملة في منزل «السيد دى رينال». ولم يجد بدّاً من الموازنة بين الأسرتين فوجد البون شاسعاً، وتحدّث إلى نفسه وهو في طريقه إلى المنزل قائلاً: لنتناس أن أموال ڤالنو حرام، اختلسها من السجناء البائسين الذين يحرم عليهم أن يغنوا! «فالسيد دى رينال» لا يقدم أبداً على أن يخبر ضيفانه بثمن زجاجة نبيذ يقدّم إليهم. والسيد ڤالنو حين يحصي ممتلكاته، وكثيراً ما يرد ذكرها في حديثه، لا يستطيع أن يتحدث عن منزله وممتلكاته في حضور زوجته إلا أن يقول: منزلك وممتلكاتك.

وهذه السيدة التي تميل في الظاهر إلى حبِّ التملك لامت خادمها لوماً عنيفاً؛ لأنه كسر كوباً ذا قاعدة فنقص عدد أكوابها إلى أحد عشر، ولم يسكت الخادم عمّا فعلت بل أجاب على حدتها بقحة شديدة. ثم استطرد «چوليان»: إنها لمجموعة غريبة! لو أعطوني نصف ما يسرقون ما قبلت أن أعيش معهم، لأنني سأكشف لهم يوماً ما حقيقة شعوري، وأظهر لهم احتقاري الشديد.

كان عليه أن ينزل على إرادة «مدام دى رينال» ويشهد بعض مآدب مثل مأدبة السيد ڤالنو؛ فأصبح مشهوراً بين موطنيه. وغفر له الناس زلّة ثوب حرس الشرف، وإن كانت تلك الحماقة سبب ما لقيه من نجاح بعد ذلك، ثم شغل أهل ڤريير جميعاً بمعرفة من سيكون المنتصر: من ذا الذي سيستميل الشاب العالم إليه: العمدة أم مدير المخازن؟ وكان هذان السيدان والسيد مالون يؤلفون ثالوثاً، حتى أرهقوا البلدة منذ سنوات عديدة. والناس يحسدون العمدة، والأحرار يشكون منه دائماً، ولكنه على الرغم من ذلك، كان كريم المحتد خُلق ليتبوأ أعلى المناصب، أما أبو السيد ڤالنو، فإنه لم يترك إلاّ دخلاً يبلغ ستمائة فرنك. وقد كان الناس جميعاً يشفقون عليه في صغره وهو يرتدى الحلة الخضراء المهلهلة، أما الآن فقد أصبحوا يحسدونه على الجياد النورماندية وسلاسله الذهبية، وملابسه الباريسية وثرائه العظيم.

وخيّل إلى «چوليان» أنه قد كشف في هذا العالم الجديد الذي لا عهد له به، رجلاً أميناً يدعى جرو[1]، هو مهندس يقال عنه إنه يعقوبي مشاغب، وكان «چوليان» معاهداً

(١) جرو مدرس الهندسة، الذي كان يعلم الشاب «هنرى بيل» فى «جرينوبل» وكان الشاب معجباً إعجاباً كبيراً بوطنية أستاذه، وقد أشار إليه مرات عديدة خلال مؤلفاته كما تحدث عنه حديثاً طويلاً في قصته «لوسيان ليفان» تحت اسم «جوتييه». «المعرب».

نفسه على ألاّ يقول إلا ما يراه كاذباً لا يصدقه هو نفسه، لكنه خالف العهد حين تحدّث إلى السيد جرو. تسلّم «چوليان» من ڤرچي أوراقاً كثيرة ترجمها تلاميذه من اللاتينية إلى الفرنسية، وأشير عليه أن يزور والده كثيراً، فخضع على كره منه، وعلى الجملة فإنه أخذ يعمل على أن يشتهر أمره بين مواطنيه وأفلح. وفي صباح يوم وهو لا يزال في فراشه ذهل حين شعر بيدين توقظانه وهما تغميان عينيه.

قدمت «مدام دى رينال» بصحبة أولادها إلى المدينة. وصعدت سلم المنزل مسرعة حتى تصل إلى غرفة «چوليان» قبل أولادها لحظة، وتركتهم يعبثون بأرنب شغلوا به طول الرحلة وأرادوا أن يطلعوا معلّمهم عليه. وقد كانت اللحظة التي سبقت فيها أبناءها إلى «چوليان» قصيرة ولذيذة .. ثم غادرت الغرفة حين دخل الأولاد، فاستقبلهم أحسن استقبال، وفرح بهم وبأرنبهم، وخيّل إليه أن أسرته قد عادت إليه؛ كان يشعر بأنه يحب الأطفال، ويلذّ له أن يثرثر معهم. وأذهلته رقة أصواتهم، وبساطتهم ونبل حركاتهم، وقد كان في حاجة إلى أن يمحو ما علق بخياله من أعمال مرذولة، وأفكار سقيمة رآها وسمعها وهو مقيم في ڤرييير. كان الصراع شديداً بين الفقر والغنى، وكان الخوف من الفاقة كبيراً بليغاً، وقد سمع ممن استضافوه أحاديث حطت من قيمتهم وبعثت الاشمئزاز في نفس سامعها.

فقال لمدام دى رينال عندما قصّ عليها خبر المآدب التي حضرها:

– أنتم يا معشر الأشراف محقون فيما تظهرون من كبرياء.

– أراك أصبحت الآن هوية أهل ڤرييير!

ثم أغرقت في الضحك، مستحضرة في ذهنها صورة وجه مدام ڤالنو، الذي كان يصبغ بالأحمر حتماً كل مرة ترى صاحبته «چوليان» فيها، ثم قالت:

– يخيل إليّ أن لها مشروعات تريد بها أن تستولي على قلبك.

وتناولوا طعاماً لذيذاً وزاد وجود الأطفال في سعادتها، وإن كان في الحقيقة مصدر تضييق عليهما، وكان هؤلاء الأطفال البرآء عاجزين عن أن يظهروا فرحهم برؤية «چوليان». ولم يتردد الخدم في أن يخبروهم بأن السيد ڤالنو عرض على «چوليان» مائتي فرنك زيادة على مرتبه ليعلم أبناءه.

وسأل ستنسيلاس كزاڤييه وهم يأكلون، ولا يزال شاحب اللون من أثر المرض، سأل أمه بغتة عن ثمن الأدوات الفضية التي يأكل بها، وعن ثمن القدح الذي يشرب فيه، فقالت له: ولماذا تسأل يا بني؟

– أريد أن أبيعها وأمنح السيد «چوليان» ثمنها حتى لا يكون مغبوناً، إن بقى معنا.

فقبله «چوليان» والدموع تترقرق في عينيه. أما أمه فقد بكت كثيراً، ثم أجلسه

«چوليان» على ركبتيه وجعل يعلمه أن استعمال كلمة مغبون "dupe" التي وردت في حديثه لا تليق إلا بالخدم في المعنى الذي قصد إليه. ورأى السرور الذي شمل صديقته، فأخذ يبيّن للأطفال بأمثلة شائقة معجبة، كيف يكون المرء مخدوعاً. فقال ستنسيلاس:

- أنا أفهم ما تقول، فقد ارتكب الغراب حماقة حين خدعه الثعلب، فترك قطعة الجبن تسقط منه، فأخذها هذا الثعلب المتملق.

فاستطيرت «مدام دى رينال» فرحاً وقبلته قبلات كثيرة، ولم يكن في استطاعتها أن تقبله هو دون أن تستند قليلاً على «چوليان».

وفتح الباب فجأة ودخل «السيد دى رينال». كان صارم الوجه عبوساً، فاختفى المرح والسرور حين وقعت عليه الأبصار. وامتقع وجه «مدام دى رينال»، ولم تجد في نفسها القوة على إنكار شيء. وأخذ «چوليان» يتحدث إلى العمدة في صوت مرتفع ويقصّ عليه ما قاله ستنسيلاس من بيع أدواته الفضية وقدحه. وكان على ثقة مقدماً من أن القصة لن ترضي هذا الوالد الشحيح، فقد قطب حاجبيه على عادته حين سمع ذكر الفضة، وكان ذكر هذا المعدن أمامه مقدمة، كما يقول، إلى طلب نقود معه.

أمّا الآن فلم يعن كثيراً بالمال، بل زادت شكوكه حين رأى زوجه متكئة على «چوليان»: ولم يكن مظهر السعادة الذي يغمر أسرته في غيابه مما يساعد على تهدئة رجل مغرور. كانت زوجه تطري تلك الطريقة التي لا تخلو من ظرف وذكاء والتي عمد إليها «چوليان» في تعليم تلاميذه. فقال لها:

- حقاً! حقاً! أنا على علم بطريقته، إنه يحاول أن يضع سداً بيني وبين أولادى، وفي استطاعته أن يكون أكثر ظرفاً مني مائة مرة، ونسي أنني رب البيت. إنه يبذر لي الجفاء في نفوس أبنائي، وأي غرابة في ذلك مادام كل شيء في هذا القرن يرمي إلي تشويه كل سلطة شرعية؟ فيا لبؤسك يا فرنسا!

لم تعر «مدام دى رينال» لقاء زوجها لها أي التفات، ولم تهتم بمعرفة الأفكار الدقيقة التي تدور الآن بخلده، لقد جاءت لتقضي اثنتي عشرة ساعة مع «چوليان». وكانت تريد شراء أشياء كثيرة من حوانيت المدينة، وتتناول قطعاً الغداء في الحانة؛ وأصرّت على رأيها مهما يقل زوجها أو يفعل، وسرّ الأطفال من كلمة حانة التي كانت تنطق في ذلك العصر نطقاً كله لذة على الرغم من التظاهر بالوقار.

ترك «السيد دى رينال» زوجه في أول حانوت دخلوه وذهب ليزور بعض الأصدقاء. وزاد حزنه عن وقت الصباح لأنه كان واثقاً أن المدينة كلها مشغولة به وبچوليان. والحقيقة أن أيّ امرئ في ڤريير لم يظهر له شيئاً يكشف عن الناحية التي تجرح كبرياءه وشرفه؛ وكل ما قيل هو: هل يبقى «چوليان» عند العمدة بأجر يبلغ ستمائة فرنك أو ينتقل إلى مدير المخازن بثمانمائة فرنك؟

كان المدير يلقى العمدة بفتور حين يقابله في المجتمعات؛ وكان مسلكه هذا لا يخلو

من مهارة، وقلما تلقى نزقاً في الريف: فالتأثرات هناك نادرة، والريفيون لا يؤمنون بها. والسيد ڤالنو مثل صادق للاسم المستعمل على بعد مائة فرسخ من پاريس: فهو متغطرس ذو سليقة وقحة سفيهة وإن كان نجاحه في الحياة منذ عام ١٨١٥ قد قوى مواهبه الجميلة. وكان يحكم في ڤريير إذا صحّ هذا التعبير تحت أوامر «السيد دى رينال»، إلا أنه كان أكثر نشاطاً من العمدة، لا يستحيى من شيء بل يتدخل في كل شيء، يذهب إلى كل مكان ويكتب ويتكلم، وينسى الإهانات، ولا يعتز أبداً بنفسه، فتمكن بهذا من التخلص من سلطان العمدة عليه في نظر رجال الدين. كان مثله مثل من قال لبدالي الأقليم: هاتوا اثنين من أكثركم حماقة، ولرجال القانون: دلوني على اثنين من أكثركم جهلاً، ولرجال الصحة: أخبروني عن اثنين من مدّعي الطب، فلما اجتمع من كل المهن أكثر رجالها سفاهة وحمقاً قال: لنحكم مشتركين.

كانت طرق هؤلاء الناس تؤذى «السيد دى رينال». وكانت قحة ڤالنو لا تبالي بشيء ولا يؤثر فيها لوم، فلم يكن يهتم بتكذيب الخوري مالون له أمام الناس. كان على الرغم من ثرائه في حاجة إلى أن يتسلح بشيء من السفه، ليدفع ما يواجهه به الناس من حقائق كثيرة لا سبيل إلى إنكارها. ثم ازداد نشاطه لأن زيارة السيد أپتر تركت في نفسه مخاوف جمة، فذهب ثلاث مرات إلى بيزانسون، وأرسل خطابات كثيرة في كلّ بريد يغادر ڤريير، ثم أرسل أخرى بأشخاص مجهولين كانوا يفدون عليه تحت جنح الظلام. وقد يكون مخطئاً في عزل الخوري الشيخ من منصبه، لأن عزل الأب شيلان جعله شريراً في أعين كثيرات من الصالحات، اللاتي ينتمين إلى أعرق الأسر. ومع كلّ فقد أصبح ڤالنو منذ عزل الأب رهن إشارة مونسنيور ڤريلير كبير الأساقفة، الذي كان يطلب منه القيام بمهام غريبة نظير استجابته إلى طلبه.

انتهت سياسته إلى هذا الحدّ الذي وصفنا حين استجاب إلى لذاته النفسية فكتب الخطاب المجهول، وزاد الأمر تعقيداً أن طلبت منه زوجه أن يقيم «چوليان» في منزلها، وقد لاقت هذه الفكرة قبولاً حسناً في نفسه التي فطرت على الغرور. كان السيد ڤالنو يتوقع شجاراً وقطيعة بينه وبين شريكه «السيد دى رينال» مادامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحدّ. لقد وجه إليه العمدة كلاماً قاسياً، وإن كان لا يأبه كثيراً بما يقال. وقد يكتب العمدة إلى بيزانسون وإلى پاريس إذا شاء، فيأتي إلى ڤريير بغتة قريب لأي وزير من الوزراء ليتسلم مخازن الصدقات من ڤالنو. من أجل ذلك، فكرّ في أن يتقرب إلى الأحرار؛ فدعا بعضهم لتناول الغداء يوم كان «چوليان» يتلو بعض مقطوعات من العهد الجديد. قد يكون في التقرب من الأحرار توطيد كبير لمركزه ضد العمدة، وقد تكون هناك انتخابات، ومن الواضح أن التصويت السئ لا يتفق مع احتفاظه بمركزه.

كانت «مدام دى رينال» خبيرة بسياسة ڤالنو، فحدثت عنها «چوليان» وهي مستندة إلى ذراعه متنقلين من حانوت إلى حانوت، ثم حدثته عنها كذلك حين ذهبا إلى حديقة

الاخلاص، وقضيا فيها ساعات هادئة كأنهما في ڤرچي.

وكان هذا يدور والسيد ڤالنو يحاول جاهداً أن يؤجل موعد القطيعة بينه وبين رئيسه القديم، فعمد إلى طريقة أفلحت معه في ذلك اليوم وإن زادت غضب العمدة: ذلك أنه ظهر أمام رئيسه بمظهر الجرأة.

إن الكبرياء إذا خالطها الحرص الشديد على المال، ذلك الحرص الذي يؤدى إلى الحقارة والتفاهة، لتدفع المرء أن يكون صعلوكاً حقيراً، وهذه هي صورة «السيد دى رينال» حين دخل الحانة. فانقبض أولاده لدخوله على حين أنهم كانوا قبل ذلك فرحين مسرورين، وزاده حزناً وألماً ما رآه من تناقض، فقال بصوت تحمل نبراته سيطرة وسيادة:

- يخيل إليّ أنني دخيل على أسرتي!

ولم تجبه زوجه ولكنها انتحت به ناحية وأخبرته بضرورة إبعاد «چوليان»؛ ذلك لأن السعادة التي لقيتها في الساعات التي قضتها مع «چوليان» بعثت في نفسها الحزم واللين الضروريين لمتابعة تطبيق منهج فكرت فيه منذ خمسة عشر يوماً. وزاد في اضطراب العمدة المسكين أنه يعلم أن أهل ڤريير جميعاً يسخرون من حرصه على المال. أما السيد ڤالنو فهو كريم ككل اللصوص. وقد حرص على أن يظهر بمظهر الحذر في التبرعات الخمسة الأخيرة أو الستة التي جمعت لحساب إخوة القديس يوسف ولجماعة العذراء ولجمعية السر المقدس وما إلى ذلك ... .

أما اسم «السيد دى رينال» فكان يرد كثيراً في آخر القائمة التي فيها أسماء عمد ڤريير والبلاد المجاورة. وكان القسس الذين يجمعون الصدقات حريصين على أن يرتبوا الأسماء في القوائم، وفقاً للمبالغ التي يتبرع بها. وعبثاً كان يدّعى أنه لا يربح شيئاً، ورجال الدين لا يعرفون المزاح في مثل هذه الأمور.

الفصل الثالث والعشرون

أحزان موظف

لذة أن يرفع المرء رأسه طول العام يدفع ثمنها غالياً في ربع ساعة لا مفر من مواجهته.

كاستي

لنترك هذا الرجل التافه فريسة لمخاوفه الوضعية ؛ فلماذا أدخل بيته رجلاً عالي النفس، وهو في حاجة كبيرة إلى وضعاء النفوس؟ لماذا لا يعرف كيف يختار رجاله؟ والعرف المتبع في القرن التاسع عشر هو أن الرجل القويّ الذي ينتمي إلى طبقة الأشراف، لا يلبث إذا هو لاقى عظيم النفس أن يقتله أو ينفيه أو يلقي به في غياهب السجون، أو يزدريه كثيراً، فيحزن الأحمق ويموت غيظاً وكمداً. ولكن المصادفات أرادت أن يكون المعذّب في هذه المرة هو القوي الشريف. ومن أكبر البلايا التي تمنى بها المدن الفرنسية الصغيرة، وأكبر المحن التي تمنى بها الحكومات الانتخابية كحكومة نيويورك، أنها لا تستطيع أن تنسى وجود قوم مثل «السيد دى رينال». ففي بلدة يبلغ عدد سكانها عشرين ألفاً من الأنفس يكوّن هؤلاء الرأي العام فيها. والرأي العام في بلد دستوري شديدُ الوطأة. وذو النفس العالية الكريمة الذي اتخذته صديقاً، ولكنه يقطن بعيداً عنك بمائة فرسخ؛ يحكم عليك بما يمليه عليه الرأي العام المسيطر على بلدك، وهو عادة يتحكم فيه الحمقى الذين ولدوا أشرافاً أغنياء معتدلين. والويل لمن يمتاز عن أقرانه فيظهر بين مواطنيه!

وبعد تناول الغداء سافرت الأسرة إلى ڤرچى ؛ ثم مرّ يومان فعادت الأسرة كلها إلى ڤريير. وما مضت ساعة على وصولها حتى اكتشف «چوليان» أنّ «مدام دى رينال» تخفي عنه شيئاً، فذهل ذهولاً عظيماً. كانت تمسك عن الكلام مع زوجها حين يدخل عليهما، وتودّ لو أنه غادرهما. على أنه لم يكن في حاجة إلى أن ينّبه إلى هذا الأمر مرتين. وأصبح فاتراً محتاطاً؛ وأدركت «مدام دى رينال» هذا المسلك الجديد، لكنها لم تشأ أن توجه إليه أي استفسار. كان يفكر في أمرها مسائلاً نفسه: هل ستتخذ خليلاً غيري؟ لقد كانت حتى أمس الأول صافية النفس صادقة الودّ! ولكنه يقال: إن سيدات الطبقة الراقية يفعلن هذا دائماً. هنّ كالملوك لا يظهرون وداً وعطفاً إلاّ للوزير الذي يخرج من حضرتهم راجعاً إلى داره فيجد هنالك خطاب عزله بانتظاره. ولحظ «چوليان» أنّ المناقشات التي كانت تدور بين العمدة وزوجه وتنقطع بغتة حين يقترب منهما، تدور غالباً حول منزل كبير تملكه بلدية ڤريير، منزل قديم لكنه مريح واسع يقع تجاه الكنيسة في أحسن موضع تجاري

في المدينة، فأخذ يسائل نفسه: ولكن ما العلاقة بين هذا المنزل والخليل الجديد؟

وكان في حزنه هذا يردد أشعاراً جميلة كانت جديدة بالنسبة إليه، لأن «مدام دى رينال» هي التي أنشدته هذه الأشعار قبل ذلك بأقل من شهر. ولطالما أثبتت وهي تنشد في كل بيت من الأبيات، أن هذه الأشعار التي أنشأها فرانسوا الأول كاذبة، أثبتت ذلك بأيمان ومداعبات كثيرة لطيفة! المرأة سريعة التحول، لا يركن إليها إلا كلّ مخبول.

سافر «السيد دى رينال» إلى بيزانسون، وقد تقررت هذه الرحلة في ساعتين، وكان يبدو أنه فريسة لعذاب شديد. ولما عاد ألقى على المائدة حزمة كبيرة مغطاة بورق رمادي، ثم قال لزوجه:

– لقد انتهى هذا الأمر اللعين.

ومرت ساعة فجاء لاصق الإعلانات وحمل الحزمة فتبعه «چوليان» على عجل، وهو يقول: سأعرف سرّ هذا الأمر الغامض عند أول منعطف للطريق.

وقف خلف الرجل وصبره نافذ، وأمسك الرجل «فرشاة» كبيرة بلّل بها ظهر الإعلان. ثم ألصقه على الحائط، فأقبل عليه «چوليان» يقرؤه. كان يتناول بالتفصيل استئجار المنزل القديم الذي تردّد ذكره في الحديث بين «السيد دي رينال» وزوجه، على أن يكون الإيجار بالمزاد العلني، وميعاده الساعة الثانية من اليوم التالي في قاعة البلدية، حينما تنطفيء الشمعات الثلاث. خاب أمل «چوليان» حين رأى المدة المحددة للمزاد قصيرة جداً: فكيف يتاح للمتزايدين جميعاً أن يعلموا الموعد؟ على أن تاريخ الإعلان سابق لإلصاقه بخمسة عشر يوماً. وقرأه «چوليان» في ثلاثة أماكن مختلفة، لكنه لم يستفد منه شيئاً. ثم ذهب يستطلع المنزل المعلن عنه، ولم يكد البواب يراه يقترب حتى قال لجاره في غموض:

– آه! آه! إنه لجهد ضائع. لقد وعده السيد مالون أن سيستأجره بثلاثمائة فرنك، لكن العمدة لم يقبل فاستُدعي إلى الاسقفية، ليلقى السيد دى فريلير النائب الأول للأسقف.

وكان وصول «چوليان» إلى مكان الصديقين داعية إلى أن يكفّا عن الكلام، وبدا عليهما من حضوره انزعاج وقلق. وحرص في اليوم التالي على أن يشهد المزاد، فذهب إلى القاعة فألقاها مزدحمة بالناس في نورها الضئيل. وكل من فيها ينظر شزراً، والأبصار متجهة إلى منضدة رأى عليها «چوليان» وعاء من القصدير به بقايا ثلاث شمعات مضيئة. وكان الحاجب يصيح قائلاً:

– ثلثمائة فرنك أيها السادة!

فقال أحد الحاضرين لجاره بصوت منخفض وچوليانُ واقف بينهما:

– ثلثمائة فرنك! هذا كثير. المنزل يساوي ثمانمائة فرنك، إني أريد أن أعلى المزاد.

– لن يجديك هذا نفعاً. وماذا تستفيد من معاداة السيد مالون والسيد ڤالنو

والأسقف وهذا الفظ الغليظ دى فريلير، وكل هذه العصبة الخاسرة.

فقال الآخر ضاحكاً: ثلثمائة وعشرون فرنكا.

فقال له جاره وهو يشير إلى «چوليان»: يالك من بهيمة! إنّ بجوارك أحد جواسيس العمدة.

فالتفت «چوليان» إلى الرجلين في سرعة وغضب لينتقم لهذه الإهانة لكنهما لم يعيراه انتباها، فبعث هدوؤهما في نفسه السكينة. وفي اللحظة نفسها كانت البقية الباقية من الشمع قد ذابت وانطفأت، فأعلن الدلال أن المنزل قد استأجره السيد دى سان چيرو رئيس قسم في ولاية ... لتسعة أعوام بإيجار قدره ثلثمائة وثلاثون فرنكا. وغادر العمدة القاعة فتوالت الأحاديث. قال أحد الحاضرين:

– لقد كسبت خزينة البلده ثلاثين فرنكاً من حماقة جروچو.

فأجابه آخر:

– ولكن السيد دى سان چيرو سينتقم منه على ما فعل، لن يترك الأمر يمر بسلام.

ثم قال رجل ضخم كان إلى يسار چوليان:

– يا للعار! لو كان الأمر بيدي لاستأجرت المنزل لمصنعي بثمانمائة فرنك، ولكنت رابحاً في هذه الصفقة.

فأجابه صاحب مصنع ينتمى إلى الأحرار:

– صه! أليس السيد دى چيرو منتمياً إلى الجمعية؟ ثم أليست الخزانة العامة تنفق على أولاده؟ فياله من رجل بائس! يجب أن تعينه خزانة ڤريير بمبلغ خمسمائة فرنك وهذا هو كل شيء.

وقال ثالث: ويقال إن العمدة لم يتمكن من منعه! لأنه هو أيضاً من المتطرفين ولكنه لا يسرق.

فاستدرك آخر قائلاً:

– لكنه لا يسرق؟ إنه لحمامة تطير. على أنّ كل ما يختلس يدخل الخزانة العامة ويقسم آخر العام. ولكن ها هو ذا الصغير سورل، فلننصرف.

عاد «چوليان» إلى المنزل غاضباً ثائراً، فألفى «مدام دى رينال» حزينة مكتئبة، وقد سألته حين رأته: أ أنت آت من المزاد؟

– نعم يا سيدتي، وتشرفت بأن قيل عني: إني جاسوس حضرة العمدة.

– لو أنه استمع إليّ لغادر ڤريير.

ودخل «السيد دى رينال» في هذه اللحظة مكتئباً عبوساً. وتناولوا الغداء جميعا في صمت، ثم أمر العمدة «چوليان» أن يذهب بالأطفال إلى ڤرچى، فكانت رحلة تسودها

الكآبة، وأخذت «مدام دى رينال» تهوّن الأمر على زوجها قائلة:

– لقد اعتدت مثل هذا يا صديقي.

وفي المساء التفت الأسرة كلها حول الموقد وهي صامتة، وكانت الضوضاء التي تنبعث من الخشب المتأجج هي لذة المجلس الوحيدة. ومثل هذه اللحظات الحزينة توجد حتى في أشد الأسر ارتباطاً. وبينما هم كذلك، صاح أحد الأطفال في مرح وهو يقول:

– الجرس يدقّ! الجرس يدق!

فردّ العمدة في قلق:

– يا إلهي! إنه السيد دى سان چيرو، جاء يطاردني حجة أنه يشكرني سأقول له كل ما يجول بخاطري، هذا شيء لا يطاق. إنه لمدين لڤالنو بالشكر؛ أما أنا فقد أصبحت متهماً. ما العمل، لو أن الصحف المشاغبة الكريهة تناولت القصة بالنقد، وسخرت مني كما تسخر من السيد بونانت سانك؟

دخل في هذه الحظة رجل جميل الهيئة، شعره أسود غزير على العارضين، وقد سار أمامه خادم، ثم خاطب ربّ الدار قائلاً:

– سيدي العمدة، أنا السنيور چيرونيمو[1]، وهاك خطاباً من السيد دى بوڤيزى الملحق بسفارة نابلى، سلمنيه ساعة رحيلي، أي قبل تسعة أيام. ثم نظر إلى «مدام دى رينال» مستطرداً في سرور:

– وابن عمك السنيور دى بوڤيزى صديقي الحميم، وقد حدثني يا سيدتي أنك تتكلمين الإيطالية.

وكان مرح هذا القادم من ناپولى وظرفه سبباً في أن تبدلت سهرة الأسرة من حزن وكآبة إلى فرح وسرور. وأرادت «مدام دى رينال» أن تقدّم إليه طعاماً، فأقامت المنزل كله وأقعدته، لأنها حريصة على أن تدخل السرور على قلب «چوليان» لتنسيه صفة ألصقت به اليوم ظلماً وعدواناً وهي التجسس، التي سمع مواطنيه يتهمونه بها. كان السنيور چيرونيمو مغنّياً بارعاً، لطيف المعشر، مرحا إلى أبعد الحدود، وهي صفات لا تتاح لأحد من الفرنسيين، فأخذ يغني بعد الطعام هو و«مدام دى رينال» أغنية ثنائية، ثم قص عليهم قصصاً طريفة. وفي الساعة الأولى صباحاً طلب «چوليان» من تلاميذه أن يأووا إلى فراشهم، فتصايحوا رافضين وقال كبيرهم:

– نريد أن نسمع أيضاً هذه القصة.

فأجابه السنيور چيرونيمو:

---

(١) يخيل إلينا أن ستندال، وهو يخلق هذه الشخصية، كان يفكر في المغنى «لابلاش» الذي كان يغني وقتذاك دور «دون جيرونيمو» بباريس في «متريمونيو سجريتو» غير أن بعض النقاد يرى أن ستندال يشير هنا إلى «كريسنتينى» مغني الامبراطور. «المعرب».

- إنها قصتي يا عزيزي السنيور: كنت منذ ثمانية أعوام تلميذاً صغيراً مثلك في مدرسة الفنون بناپولي، أعني أنني كنت في سنك وإن لم يكن لي شرف انتسابك إلى هذا الرجل الخطير عمدة ڤريير الجميلة.

فتنهدّ «السيد دى رينال» حين سمع هذا الكلام ثم نظر إلى زوجه، واستطرد المغني الشاب يقصّ قصته على الأطفال مبالغاً في نطق كلماته حتى ضحك الأطفال منه ضحكاً شديداً:

- كان السنيور زنجاريللى[1] معلماً صارماً، من أجل ذلك لم يكن محبوباً في المدرسة، ولكنه كان حريصاً على أن يظهر تلاميذه دائماً بمظهر المحبين له. وكنت أغادر المدرسة في كثير من الأحيان لأذهب إلى مسرح سان كرلينو حيث أسمع موسيقى رائعة. ولكن يا للسماء! كيف السبيل إلى جمع أربعين سنتيماً لأحصل على مكان في بهو المسرح؟ ثم نظر إلى الأطفال فأغرقوا في الضحك وقال:

- يا له من مبلغ كبيرا لقد سمعني مدير مسرح سان كرلينو أغنّي وكنت إذ ذاك في السادسة عشرة من عمري، فقال: هذا الطفل كنز. ثم سألني:

- أتريد أن تعمل معنا هنا أيها الصديق العزيز؟

- وكم أجري؟

- أربعون دوكاً شهرياً أي مائة وستون فرنكا أيها السادة. فاعتقدت أن أبواب السماء فتحت لي. ثم قلت لچيوڤنوني:

- ولكن كيف السبيل إلى إقناع زنجاريللي القاسي بتركي أغادر المدرسة؟

فقال لي: لاسيكا ڤارى آمى Lascia fare a me

وهنا صاح أكبر الأطفال مترجماً ما قال: دعني أقم بهذا الأمر.

فقال المغني الشاب: هذا حقّ يا سيدي الصغير. ثم قال لي چيوڤانوني:

- وقع أولاً هذا العقد البسيط، فوّقعت، فأعطاني ثلاث دوكات؛ فبهرني المال الكثير الذي لم يتح لي أبداً من قبل، ثم أطلعني على ما يجب أن أعمله. وجاء اليوم التالي فطلبت مقابلة زنجاريللي الطاغية فادخلني خادمه العجوز إلى مكتبه. فقال لما رآني:

- ماذا تريد أيها الطالب الذميم؟

- مايسترو، إني لنادم على أخطائي، وأعدك بأني لن أغادر المدرسة مرة أخرى من فوق السور الحديدي. وستراني بعد ذلك مجداً كل الجد.

- لولا أنني أخشى دبيب الفساد إلى صوتك الذي يعد أجمل صوت حنون سمعته

(١) مؤلف إيطالي ومدير معهد الموسيقى بناپولى ؛ وهي المدينة التي ولد فيها «لابلاش» وتلقى بها علومه الأولى. «المعرب».

في حياتي لوضعتك في السجن خمسة عشر يوماً، وقضيت عليك ألا تتناول إلا الخبز والماء أيها الأحمق.

- مايسترو، سأكون نموذجاً لحسن السيرة في المدرسة كلها وأرجو أن تصدقني هذه المرة. لكنني أطلب منك طلباً أودّ أن تجيبني إليه: إذا جاءك أحد يرجوك في أن تسمح لي بأن أغني خارج المدرسة فلا تستمع إليه، واعتذر من عدم استطاعتك السماح بذلك. أرجو أن تفعل هذا من أجلي سيدي المدير.

- ومن ذا الذي يطلب شقّياً مثلك ليغني له؟ وهل أسمح أنا لك بمغادرة المدرسة؟ أتريد أن تسخر مني؟ ثم قال وهو يحاول أن يركلني وأنا أولي الأدبار:

- اذهب! اذهب! وإلا فالويل لك من السجن والخبز القفار.

وبعد ساعة أتى السنيور چيوڤانوني ليلقى مدير المدرسة ثم قال له:

- جئت أطلب منك أن تؤدي إلى خدمة فيها سعادتي وثرائي: أحب أن تتفضل بالسماح لچيرونيمو بالغناء على مسرحي. إذا أجبتني إلى طلبي فأؤكد لك أنني سأزوج ابنتي هذا الشتاء.

- أتريد خيراً من وراء هذا الأحمق؟ أنا لا أوافق على ذلك. ولن تحصل عليه. وهب أني أجبتك فإنه لا يريد أبداً أن يغادر المدرسة؛ ولقد أكد لي هذا منذ قليل.

فأجابه چيوڤانوني في تؤدة ثم أخرج من جيبه العقد قائلاً:

- إذا كان الأمر متوقفاً على إرادته فإليك توقيعه!

فغضب زنجاريللي غضباً شديداً وهو على الجرس يدقه وصاح:

- ليطرد چيرونيمو من المدرسة في الحال.

وطردت وأنا أضحك. وحلّ المساء وأنا أغني أغنية «دل مولتپليكو» وكانت پولنشينل تريد أن تتزوج، فأخذت تحصي على أصابعها ما تحتاجه في منزل الزوجية، لكنها كثيراً ما كانت تخطئ في حسابها.

عند ذلك قالت له «مدام دى رينال»:

- آه! هل لك أن تسمعنا هذه الأغنية؟

فأخذ چيرونيمو يغني وهم يضحكون، حتى سالت دموعهم من فرط الضحك. ولم يأو السنيور إلى مخدعة إلاّ في الساعة الثانية صباحاً، بعد أن أدخل المرح والسرور على القلوب ونال إعجاب الأسرة لظرفه ومرحه وكياسته.

وفي اليوم التالي أعطاه «السيد دى رينال» وزوجه خطابات التوصية التي طلبها لتشدّ من أزره في بلاط فرنسا.

قال «چوليان» في نفسه: إن الكذب والبهتان في كلّ مكان. فها هو ذا السنيور

چيرونيمو يذهب إلى لندن ليغني بستين ألفاً من الفرنكات. ولولا براعة مدير مسرح سان كارلينو ما عُرف صوته الجميل وما ذاع صيته إلا بعد عشرة أعوام. إني أفضل أن أكون مثل چيرونيمو فذلك خير من أن أكون كالسيد «دى رينال»، لأن الأول، وإن فقد المكانة الاجتماعية والتبجيل الذي يلقاه العمدة، فلن يصيبه حزن أو أسف في مزاد كمزاد هذا اليوم، إنه يحيا حياة يسودها المرح والسعادة.

عجب «چوليان» من أن الأسابيع التي قضاها في ڤريير وحده بمنزل «السيد دى رينال»، كان سعيداً فيها تماماً؛ لم يشعر بالبغضاء ولا الكراهية ولم يتألم من الأفكار السقيمة إلا في المآدب التي كان يغشاها. ألم يقرأ ويكتب ويفكر وهو في عزلته دون أن يزعجه أحد؟ ولم ينتزعه في هذه الفترة من أحلامه منتزع، ليرى حركات أثيمة تصدر من نفوس دنيئة، ولا ليخدع نفوس الناس بما يمليه عليه النفاق.

ذكر هذا فقال في نفسه: أيقرب منال السعادة إلى هذا الحد؟

إن قضاء الحياة على هذا النحو سهل مستطاع، ففي وسعي أن أتزوج الآنسة إليزا، وأن أشاركه فوكيه في تجارته كما أشاء ... ولكن المسافر الذي يصعد جبلاً وهو مسرع، يجد اللذة في أن يجلس على القمة ليستريح قليلاً. ولكن هل يشعر بنفس السعادة لو اضطر إلى راحة دائمة؟

أما «مدام دى رينال»، فقد كتب عليها ألاّ تخفي شيئاً عن «چوليان». وعلى الرغم من عزمها على ألاّ تطلعه على شيء فقد أخبرته بأمر المزاد، ثم قالت لنفسها: إنه ينسيني إذاً كل قسم! كانت من قبل لا تتردد في أن تضحي بنفسها لتنقذ حياة زوجها إن رأته في خطر، ونفسها من تلك النفوس النبيلة التي يتحكم فيها الخيال، والتي إذا أتيح لها أن تفعل خيراً ولم تفعله استهدفت لألم وتأنيب، حتى كأنها ارتكبت جريمة. لكنها اليوم تمرّ عليها أيام وهي في بؤس وحزن؛ لأن فكرة تسلطت عليها فألقت في روعها أن السعادة الكاملة في أن تفقد زوجها هذا لتستطيع أن تتزوج بچوليان.

وكان هو يحب أولادها فوق ما يحبهم أبوهم؛ وكان معبود تلاميذه على الرغم من عدله القاسي. وكانت «مدام دى رينال» تدرك أن عليها مغادرة ڤرچى إذا ما تزوجت «چوليان»، وإن كانت ظلالها جدّ عزيزة عليها. تصورت نفسها مقيمة في پاريس، دائبة على تعليم أولادها بالطريقة التي أعجب بها الناس، وتصورت أنها هي وأطفالها و«چوليان» سعداء كل السعادة.

لشدّ ما أصبح الزواج عجيباً في القرن التاسع عشر! إن السأم الذي يصيب الحياة الزوجية يقضي ولا ريب على الحب، إذا ما سبق الحبُّ الزواج ومع ذلك فإن فيلسوفاً يقول بأن الأغنياء وحدهم هم الذين يشعرون بالملل ويزهدون في ملذات الحياة الهادئة لأنهم لا يعملون؛ فتبعث البطالة في نفوسهم ما يعانون. أما النساء اللاتي لا تتهيأ للحب نفوسهن، فهنّ جامدات العواطف.

ورأي هذا الفيلسوف يحملني على أن ألتمس عذراً لمدام دى رينال، وإن كان أهل ڤرير لا يلتمسون لها عذراً، فأصبحت المدينة كلها مشغولة بفضائح غرامها وهي لا تعلم، ولم يحسوا سأماً طول فصل الخريف، لأنهم في شغل بهذا الحدث العظيم.

ثم انقضى الخريف وجزء من الشتاء كذلك في سرعة، وأصبح من المحتم أن تغادر الأسرة غابات ڤرچى. وبدأت الطبقة الراقية في ڤرير تتأذى من مسلك «السيد دى رينال»، وتعجب له لأنه لم يبد اهتماماً بالمؤاخذات التي اتهمت بها زوجه. وفي أقل من ثمانية أيام، أثار بعض الناس في نفسه شكوكاً مُرّة ألقوها إليه في عبارات حذرة متحفظة، وهم من الذين عرفوا بالوقار، فهم إنما يدخلون على أنفسهم بما يفعلون سروراً يدفع عن قلوبهم ملل جدّ فطروا عليه.

أما السيد ڤالنو فكان يلعب دوره فطناً بصيراً، فقد أدخل إليزا منزل أسرة من الأشراف لها مكانتها بين الناس، وإن كان بالمنزل خمس سواها. وقد زعمت هي أنها تخشى ألا تجد عملاً في الشتاء فلم تطلب من الأسرة إلا ثلثي الأجر الذي كانت تأخذه في منزل العمدة. وذهبت من نفسها إلى الخوريّ السابق الأب شيلان لتعترف أمامه ثم إلى الخوري الجديد، مبتغية من وراء ذلك أن تقص عليهما تفصايل المغامرات الغرامية بين «چوليان» و«مدام دى رينال».

وفي الساعة السادسة من صباح اليوم التالي لوصولها، استدعى الأب شيلان «چوليان» وقال له:

– لا أطلب منك أن تقول لي شيئاً فأرجوك بل آمرك إذا اقتضى الأمر ألا تفضي إليّ بشيء؛ لكنني أريد منك أن تذهب إلى بيزانسون بعد ثلاثة أيام لتدخل المدرسة الاكليريكية، أو اذهب إلى صديقك فوكيه فأقم معه وهو لا يزال على أتم استعداد لأن يهيىء لك مستقبلاً مجيداً. لقد توقعت كلّ شيء وأعددت لكل أمر عدته، فعليك أن ترحل وألاّ تعود إلى ڤرير قبل أن ينقضي عام على غيابك.

لم يجب «چوليان»، وفكر فيما إذا كان شرفه أهين باهتمام الأب شيلان بأمره، والخوري على الرغم من كل هذا ليس أباه. ثم قال بعدما فكر:

– سأتشرف غداً بلقائك في مثل هذه الساعة.

فأراد الأب شيلان أن يكسب المعركة فتكلم كثيراً. لكنّ «چوليان» انطوى على نفسه متظاهراً بالخضوع والخشوع ولزم الصمت. ثم أسرع من عنده إلى «مدام دى رينال» ليخبرها بما جرى بينه وبين الخوري، فإذا بها فريسة لليأس، لقد حدثها زوجها في شيء من الصراحة، وإن حمله ضعف خلقه الطبيعي، والميراث المنتظر، على أن يؤمن بأنها بريئة. وكاشفها بالحالة العجيبة التي رأى الرأي العام عليها في ڤرير. إلاّ أنّ الناس مخطئون وإنما أضلّهم الحسّاد، ولكن ما العمل؟

ووقعت هي تحت سلطان أمل باطل بعض الوقت، فاعتقدت أن في وسع «چوليان» أن

يقبل المنصب الذي عرضه عليه ڤالنو ليبقى في ڤريير. لم تعد هي تلك الساذجة الخجول كما كانت في عامها الماضي، لأن نفسها استنارت بحبٍّ قُدّر، وبألم عظيم ووخز ضمير.
ولشد ما تألمت وهي تستمع إلى زوجها وتقدر في نفسها أن تبتعد مؤقتاً عن «چوليان».

قالت في نفسها: إذا ابتعد عني عاودته مشروعاته التي ترمي إلى الطموح، وهي مشروعات طبيعية جداً بالنسبة إلى كل فقير. أما أنا يا إلهي فغنية جداً! ولكن ثرائي لا يحقق لي لوناً من ألوان السعادة! سينساني «چوليان». سيحبُّ غيري وتحبه امرأة سواي؛ لأنه خلق ظريفاً، آه! يا لي من بائسة! ولكن ممَّ أشكو؟ إن السماء لعادلة، ولا فضل لي في أن أقف الجريمة عند هذا الحدّ. لقد غُلبت على أمري. وكان في استطاعتي أن أسكت إليزا بما أغدقه عليها من المال، وما كان أهونه، لكنيّ لم أفكر فيه في وقت من الأوقات، لأن حب «چوليان» شغل كل أوقاتي. لقد هلكت.

ولما أفضى إليها «چوليان» بخبر رحيله، لم يمل عليها حبها نفسها أن تعترض بأي اعتراض، فذهل، وما كان يعلم أنها بذلت مجهوداً كبيراً حتى لا تجهش بالبكاء، ثم قالت له:

- نحن يا صديقي في حاجة إلى العزم.

وأهوت على شعرها فقصّت خصلة منه، ثم قالت بعد ذلك:

- لست أعلم يا «چوليان» ما أنا مقدمة عليه، فعدني بألاّ تنسى أولادي إذا فارقت الحياة. حاول أن تخلق منهم رجالاً أمناء على بعدك عنهم أو على قربك منهم. وإذا شبت ثورة جديدة فاعلم أن الأشراف جميعاً سيقتلون. وربما هاجر أبوهم بسبب الفلاح الذي قتل فوق أحد سطوح المنازل. اسهر على الأسرة .. هات يدك: وداعاً يا صديقي! هذه آخر لحظة نقضيها معاً. وما دمت قد أقدمت على هذه التضحية الهائلة، فأنا أرجو أن تتاح لي الشجاعة، حتى أفكر في إصلاح عار لحقني أمام الناس.

كان يعتقد أن ساعة الوداع ستكون أليمة شاقة، ولكن بساطة وداعهما تركت في نفسه أكبر الأثر، فقال لها:

- لا، لا أريد أن يكون وداعنا على هذه الصورة. سأرحل قطعاً لأنهم يريدون ذلك، وأنت نفسك حريصة على رحيلي. سأرحل وسأعود بعد ثلاثة أيام لأراك في منتصف الليل.

تغيرت حياة «مدام دى رينال». إنّ چوليان يحبها إذاً حباً صادقاً مادام قد اخبرها بأنه سيعود ليراها! وتحول حزنها الأليم إلى فرح شديد لم تحسّه نفسها من قبل. وأصبح كل شيء في نظرها سهلاً يسيراً! لأن ثقتها برؤية حبيبها مرة أخرى نزعت من نفسها مرارة الفراق وموقف التوديع، فتكلمت قسماتها وحركاتها بنبل وثبات ووقار.

ثم عاد «السيد دى رينال» بعد قليل مغيظاً حانقاً. وتحدّث أخيراً إلى زوجه عن

الخطاب المجهول الذي تسلّمه منذ شهرين قائلاً لها:

– أريد أن أحمل هذا الخطاب معي إلى المقصف لأبين للناس أن كاتبه هو الحقير ڤالنو الذي انتشلته من وهدة الفقر، وجعلته من أغنى البرجوازيين في ڤريير. سأحقّق له خزياً وعاراً أمام الناس، ثم أقاتله بعد ذلك. إنّ هذا شيء فظيع.

فقالت في نفسها: سأكون إذن أرملة يا إلهي! لكنها قالت في نفس اللحظة: إذا لم أمنع هذه المبارزة كنت قاتلة زوجي. وما أيسر أن أحول بينهما وبين القتال.

واستطاعت أن تخفي كبرياءها في مهارة لم تتح لها من قبل. وفي أقلّ من ساعتين؛ تمكنت من إقناعه بأنّ عليه أن يظهر الصداقة والود للسيد ڤالنو، وحملته على أن يدللّ بنفسه على صواب رأيها. وذهبت إلى أبعد من هذا فاقترحت عليه أن يعيد إليزا إلى عملها في المنزل. وكانت «مدام دى رينال» في حاجة إلى كثير من الشجاعة لترجع هذه الفتاة إلى منزلها لأن إليزا سبب ما نزل عليها من بلاء. ولكنه رأي أوصى به «چوليان» ولابدّ لها من أن تطيع.

وأخيراً هدت زوجها إلى الطريق ثلاث مرات أو أربعاً، وأخذ هو يفكر من تلقاء نفسه في تلك المسألة المالية المعقدة المرهقة: لأن أخوف ما يخافه أن يبقى «چوليان» في ڤريير معلماً لأولاد السيد ڤالنو، بين هذا الهياج العام وتلك الأقاويل التي تدنسّ شرفه. ومصلحة «چوليان» تقضي عليه أن يقبل ما عرضه عليه مدير الصدقات، ومجد «السيد دى رينال» يحتم عليه أن يغادر «چوليان» ڤريير ليدخل المدرسة الاكليريكية في بيزانسون أو مدرسة ديچون. ولكن كيف السبيل إلى إقناع «چوليان» بذلك؟ ثم كيف يعيش في المدرسة لو اقتنع برأى العمدة؟

ورأى «دى رينال» أن التضحية بالمال قاب قوسين أو أدنى فيئس أكثر من يأس امرأته التي أصبحت بعد هذا الحديث زاهدة في كل شيء، كأنها رجل شجاع كافح الحياة حتى زهدها فتجرع الداتورة، وصارت حركاته آلية لأنه زهد في كل شيء. وهذا ما وصلت إليه حالة لويس الرابع عشر فقد قال وهو يموت: «حينما كنت ملكاً» فياله من قول بارع!

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، تسلّم «دى رينال» خطاباً غفلاً كتب بأسلوب بذئ. ينطوي كل سطر من سطوره على كلمات جارحة تحطّ قدره ومكانته. إنه من عمل أحد مرؤوسيه الذين يحسدونه على نعمته، وأعاد إليه هذا الخطاب فكرة قتال السيد ڤالنو، حتى سولت له شجاعته أن ينفذ رأيه في الحال، فخرج وحده إلى صانع أسلحة واشترى منه مسدسات حشاها بالرصاص.

ثم قال في نفسه: حقاً إن الإدارة الحازمة التي كانت من سمات عصر الإمبراطور نابليون ستعود إلى الدنيا من جديد، وإذا ما كان هذا فلن يستطيع أحد أن يتهمنى بأني سرقت سنتيماً واحداً؛ إنّ كل ما فعلته أني أمرت أن أغضّ الطرف عن السرقات كما تشهد بذلك خطابات حفظتها في مكتبي، لقد صدعت بما أمرت ولم أفعل سوى ذلك!

اضطربت «مدام دى رينال» كثيراً للغضب الهادىء الذي استولى على زوجها وذكرته بما جاشت له نفسها ولم تستطع له دفعاً، وهو أنها ستصبح أرملة. وانفردت به ساعات طويلة تتحدث إليه فذهب حديثها أدراج الرياح، لأن الخطاب المجهول الجديد خلق فيه عزماً لا يدفع. ثم استطاعت أن تحول شجاعته التي تريد صفع ڤالنو إلى ستمائة فرنك يأخذها «جوليان» وهي مصروفات المدرسة الإكليريكية لمدة عام. وكم نقم «السيد دى رينال» بعد ذلك على اليوم المشئوم الذي فكر فيه أنّ يتخذ لأبنائه معلماً حتى أنسته نقمته هذه ما بعثه في نفسه الخطاب المجهول.

ثم سرى عن نفسه بفكرة لم يصارح بها امرأته، وهي أنه يستطيع أن يستغل أفكار هذا الشاب التي تميل إلى الخيال، ويأمل، إن هو استعمل المهارة، أن يرفض «جوليان» اقتراح السيد ڤالنو ويعمل عنده بمبلغ أقل من المبلغ الذي عرضه عليه مدير إدارة الصدقات.

صادفت «مدام دى رينال» مشقة كبيرة في إقناع جوليان بأنه مادام قد ضحّى من أجل زوجها بعمل يدرّ عليه ثمانمائة فرنك عرضه عليه السيد ڤالنو كما يعلم الناس جميعاً، فليس عليه من ضير إذا قبل تعويضاً عن تضحيته، ولكن «جوليان» كان يقول لها دائماً!

– ما فكرت أبداً في قبول ما عرضه عليّ السيد ڤالنو. وأنتم قد عودتموني الحياة الرافهة الناعمة الرقيقة. وفظاظة أمثال هؤلاء الناس كفيلة بأن تقضي عليّ.

ثم تغلبت وطأة الفقر فأضعفت إرادة «جوليان». وإن خيّل إليه غروره أنه يستطيع قبول المبلغ المعروض من عمدة ڤريير على أن يكون قرضاً بصكٍ عليه يدفعه بعد خمس سنوات مع أرباحه.

وكانت «مدام دى رينال» لا تزال محتفظة ببضعة آلاف من الفرنكات خبأتها في مغارة الجبل. فعرضت عليه هذا المبلغ وهي مضطربة واثقة من أنه سيرفض في غضب شديد، فقال لها «جوليان»:

– أتريدين أن تكون ذكرى حبنا أليمة مرة؟

ثم غادر ڤريير. فشعر «السيد دى رينال» بعد ذلك بسعادة لا تحدّه. غادر ڤريير بعد أن قدّم إليه العمدة المال في لحظة كان فيها «جوليان» جريح القلب، فرفض المال بإباء وشمم، فلم يسع العمدة إلا أن يعانقه في فرح شديد والدموع تترقرق في عينيه. ثم طلب منه «جوليان» شهادة بحسن السلوك، فلم يجد في مثل هذه الساعة الفرحة السعيدة، كلمات رائعة ولا تعابير جميلة، يستعين بها على تسطير ما يجول بخاطره مثنياً على سلوكه الرفيع. ولم يكن مع بطلنا سوى خمسة لويسات كان قد اقتصدها. وقد عزم على أن يقترض مثلها من صديقه فوكيه.

كان بالغ التأثر لكنه لم يكد يبعد عن ڤريير بفرسخ واحد حتى فكر في السعادة

التي سيلقاها حين يرى عاصمة كبيرة، ومدينة حربية عظيمة مثل بيرانسون. فكرٌ في هذا وإن خلف وراءه في ڤريير حباً مخلصاً عميقاً.

وفي غيبته القصيرة التي لم تكون سوى ثلاثة أيام وقعت «مدام دى رينال» فريسة لعاطفة قوية عنيفة، وإن كانت تعتقد أنها ستصبر على فراق الحبيب، كانت حياتها مجرد زمن يمرّ، وإن حال بينها وبين الشقاء العظيم ما سيكون من لقاء «چوليان» للمرة الأخيرة. كانت تعد الساعات والدقائق التي بقيت بينها وبينه. ثم حلت ليلة اليوم الثالث، فسمعت من بعيد الإشارة المتفق عليها، وبعد أن عرّض «چوليان» نفسه لكثير من المخاطر رأته ماثلاً بين يديها.

لم تعد تفكر في هذا الوقت إلا في شيء واحد هو أنها رأت حبيبها لآخر مرة. كانت نفسه تفيض بالحيوية والفرح، أما هي فكانت جسداً فيه بقية أنفاس، تدبّ فيه الحياة دبيباً خفيفاً. فإذا ما حملت نفسها على أن تقول: إنني أحبك، خرج الكلام من بين شفتيها خالياً من الحرارة والمهارة وكأنه ينبيء بعكس ما تقول. ولم يكن في الدنيا كلها ما يستطيع أن يبعد عن ذهنها فكرة الفراق إلى غير عودة. أما «چوليان» فصوّر له حذره أنها قد نسيته. ولم يكن ردّها على ما ظنه حبيبها بها إلا دموعاً كبيرة تتساقط على الخدين في صمت، وضغطاً شديداً على يدي «چوليان». وإن آلمها ما يقول وبرّح بها ما يزعم. ثم وجهت إليه لوماً، فجاء فاتراً خفيفاً فقال لها:

- ولكن، يا إلهي! كيف تريدين مني أن أصدقك؟ وأنت تظهرين لمدام درڤيل من الصداقة أكثر مما تظهرينه لي مائة مرة، وما هي إلا إحدى صويحباتك.

فانزعجت، ولكنها لم تعرف كيف تجيب، وقالت له:

- لقد بلغت تعاستي غايتها ... وأرجو أن أموت ... إني لأشعر بأن قلبي لم تعد فيه حرارة الحياة وهذه أطول إجابة استطاعتها.

وبدأ ضوء النهار يغمر الكون ويفرق الشمل، فجمدت دموع «مدام دى رينال» تماماً. ورأته يربط في النافذة حبلاً دون أن يتكلم أو يتزود منها بقبلة. وعبثاً حاول أن يعيد إليها بعض قوتها أو يبعث في حركاتها شيئاً من النشاط حين قال لها:

- ها نحن أولاء قد وصلنا اليوم إلى ما كنت تؤملينه من زمن طويل. وفي وسعك الآن أن تعيشي في غير لوم أو أسى، وإذا أصاب أطفالك أقل سوء فلا تنزعجي فإنهم لن يموتوا.

فقالت في فتور:

- يؤسفني أنك لا تستطيع تقبيل ستانيسلاس.

لقد ذهل «چوليان» كثيراً من قبلاتها التي كانت لا حرارة فيها، كأنها قبلات جثة هامدة؛ وتسلطت على نفسه هذه الفكرة لعدة فراسخ. كان حزين النفس. وحينما كان يستطيع أن يرى ناقوس كنيسة ڤريير، قبل أن يعبر الجبل، فإنه لم يفتر عن أن يتلفّت.

الفصل الرابع والعشرون

عاصمة

يا له من صخب! ويا لكثرة المشغولين بأعمالهم! ويا لتلك الأفكار التي تملأ رأس شاب في العشرين من عمره عن مستقبله! ويا لكثرة ما يجد الحب من لهو وعبث.

بارناف

طالعته وهو على قمة جبل بعيد أسوار سوداء، تبيّن منها قلعة بيزانسون؛ فتنهد وقال: إنه بون شاسع، ليتني دخلت هذه المدينة الحربية المجيدة، برتبة الملازم الثاني في فرقة كلفت بالدفاع عن المدينة!

ليست بيزانسون من أجمل مدن فرنسا فحسب، ولكنها كذلك مكتظة بقوم أذكياء شجعان، وإن لم تتح لجوليان الفلاح الساذج وسيلة التقرب من رجالها الممتازين، ولا فرصة مخالطتهم.

أخذ «جوليان» من فوكيه ثوباً من ثياب الطبقة البرجوازية، كان يلبسه وهو يعبر الجسور القلابة. وكان يذكر تماماً تاريخ حصار سنة ١٦٧٤ فأراد أن يرى أسوار القلعة قبل أن تُغلق عليه أبواب المدرسة الإكليريكية، وأوشك أن يقع في أيدي الحرس مرتين أو ثلاثاً، لأنه دخل أماكن حرمت الأوامر الحربية على الناس أن يدخلوها، حتى يباع منها في كل عام حشائش باثني عشر أو خمسة عشر فرنكاً. وشغل ساعات برؤية الأسوار المرتفعة، والحفر العميقة والمدافع الضخمة المزعجة. وكان لا يزال يفكّر في هذا كله وهو يمر أمام المقهى الكبير في الشارع الرئيسي، وأعجب بما رأى، ثم وقف حائراً دهشاً حين قرأ كلمة المقهى التي كتبت بحروف كبيرة في أعلى البابين ولكنه لم يصدق عينه. وأخيراً تغلّب على حيائه، ودخل إلى حيث رأى بهواً طويلاً يبلغ ثلاثين خطوة أو أربعين، عليه سقف يرتفع إلى عشرين قدماً على الأقل. وكان «جوليان» في ذلك اليوم لا يرى شيئاً إلا أعجب به.

احتشد حول منضدتين «للبلياردو» جمع عظيم، والندل يصيحون بالأعداد في كل مرّة يفوز فيها أحد اللاعبين من الذين يهرولون حول المنضدتين، وحولهم لفيف من المتفرجين. وتصاعدت حلقات متتابعة من الدخان من أفواه الحاضرين، فعقدت حولهم سحابة زرقاء. وأثار انتباه «جوليان» قامات هؤلاء الرجال وأكتافهم المستديرة وخطواتهم الثقيلة وشعرهم الغزير المتدلي على وجوههم وثيابهم الطويلة التي تسبغ على الأجسام،

وكان كل شيء يثير انتباه «چوليان» : هؤلاء الشرفاء أبناء بيزانسون القديمة العريقة الذين لا يتكلمون إلا صائحين، ويسبغون على أنفسهم هيئة المحاربين الأمجاد. وعجب «چوليان» بما رأى وهو في مكانه لا يريم، وأخذ يفكر في ضخامة العاصمة وروعتها المجيدة. ولم تواته الشجاعة ليطلب فنجاناً من القهوة من أحد السادة ذوي النظرات المتكبرة والذين يصيحون معلنين أعداد البلياردو.

ولكن الآنسة التي عهد إليها بالوقوف خلف «بنك» المقهى رأت وجه هذا الريفي الجميل البرجوازي المظهر، وهو على بعد ثلاث خطوات من المدفأة، يحمل تحت ذراعه صرّة صغيرة، مستغرقاً في تأمل تمثال نصفي للملك، صنع من الجص الأبيض الجميل. والآنسة من مقاطعة فرانس كونتي، فارعة القامة متسقة الجسم، أحسن اختيارها لتحبب المقهى إلى الرواد. فنادت «چوليان» مرتين بصوت خفيض؛ لكيلا يسمعها سواه قائلة: سيدي! سيدي!

والتفت إليها فصادفت عيناه عينين زرقاوين كبيرتين، يشع منهما حنان ورقة، وعلم أنه هو المقصود بالنداء. فسار نحوها مسرعاً واقترب من «البنك» مهرولاً كأنه يسير للقاء عدو، فسقطت لسرعته الصرّة التي يحملها.

ولو أن طلاب المدارس الثانوية الپاريسيين رأوا هذا الريفي لأشفقوا عليه لأنهم يحسنون دخول المقاهي بطريقة ممتازة وهم في الخامسة عشرة من العمر! لكن هؤلاء الأطفال الممتازين في هذه السنّ لا يكادون يبلغون الثامنة عشرة حتى يصبحوا عاديّين. والحياء الشديد الذي تراه في الريف يتغلب عليه أحياناً ويحمل على أن يُشتهى.

كان «چوليان» يقترب من تلك الفتاة الجميلة التي تفضلت عليه بالحديث، وهو عازم على أن يخبرها بالحقيقة بعد أن خلع عذار الحياء. فخاطبها قائلاً:

- سيدتي، جئت إلى بيزانسون اليوم لأول مرة في حياتي وأريد خبزاً وفنجان قهوة، وسأدفع الثمن.

فابتسمت الآنسة قليلاً، ثم اصطبغ وجهها بالحمرة، لأنها خشيت أن ينتبه لاعبو «البلياردو» إلى هذا الشاب الجميل فيعبثوا به ساخرين، فينصرف ولا يعود. فأشارت إلى منضدة من الرخام يكاد يخفيها «البنك» الكبير الذي اتخذ من خشب الكابلي وشغل جزءاً من القاعة، وقالت له:

- اجلس هنا.

ولما تمايلت الآنسة خارج البنك، ظهر قوامها الفارع الرائع. ورآها «چوليان» فتغيرت آراؤه. ثم وضعت أمامه قدحاً وسكراً وخبزاً؛ وترددت طويلاً في مناداة الخادم ليصب له القهوة، لأنها تعلم أن وجوده يحول بينها وبين أن تخلو به.

فكّر موازناً بين جمالها الأشقر المرح، وبين ذكريات كثيراً ما هزت مشاعره. وسيطرت

عليه فكرة الحب الذي لقيه من قبل، فنزعت من نفسه ما فطرت عليه من حياء وخجل. ولم يكن أمام الآنسة الجميلة إلا لحظة قصيرة، فقرأت في نظرات «چوليان» ما يدور بنفسه. ثم قالت:

- إن دخان «الشبكات» يجلب لك السعال، فتعال غداً في الصباح قبل الساعة الثامنة لتتناول الفطور، وسأكون وحدي تقريباً في هذا الميعاد. فابتسم «چوليان» ابتسامة لطيفة تفيض بالحياء السعيد، وقال:

- ما اسمك؟

- أماندا بينيه.

- أتسمحين أن أرسل إليك بعد ساعة صرّة صغيرة كهذه التي أحملها؟

ففكرت أماندا الجميلة قليلاً قبل أن تقول:

- بعض العيون ساهرة عليّ: وما تطلبه الآن قد يعرضني لقيل وقال؛ ومع ذلك فسأكتب عنواني على بطاقة تضعها فوق الصرّة التي تريد إرسالها، ثم افعل ولا تبال بشيء.

- أنا «چوليان سورل»؛ ولا أقارب لي ولا معارف في بيزانسون.

- آه! أدركت الآن، أجئت لتلحق بمدرسة الحقوق؟

- وا أسفاه! بل أرسلوني لأدخل المدرسة الإكليريكية.

فارتسمت على وجه أماندا علامات يأس أليم، ثم نادت الخادم.

ها قد عادت إليها شجاعتها الآن. وصب الخادم القهوة في قدح «چوليان» دون أن يلقي عليه نظرة.

وشغلت أماندا خلف «البنك» بأخذ النقود، وكان «چوليان» فخوراً بنفسه، لأنه جرؤ على أن يتحدث إلى هذه الفتاة الجميلة؛ وفي هذه اللحظة نشب حول منضدة من مناضد البلياردو شجار. وكانت القاعة تدوّي بصيحات اللاعبين وتكذيب بعضهم بعضاً، فذهل «چوليان» ذهولاً شديداً. أما أماندا فكانت تفكر حالمة، وقد غضت من بصرها.

فقال «چوليان» فجأة في ثقة وعزم:

- إن شئت يا آنستي زعمت أنني ابن عمك.

فأعجبت بما في نبراته من معاني السيطرة، وقالت في نفسها: ليس هذا الشاب تافهاً كغيره من الشبان. ثم قالت في عجلة دون أن تنظر إليه، لأن عينها تراقب ما إذا كان أحد يقترب من «البنك»:

- أنا من چنليس الواقعة على مقربة من ديچون، فادع أنك من چنليس كذلك وأنك ابن عم أمي.

- لك ذلك.

- إن تلاميذ المدرسة الإكليريكية يمرّون أمام المقهى في الساعة الخامسة من أيام الخميس أثناء الصيف.

- إذا كنت تفكرين فيّ فاحملي في يدك باقة من البنفسج حين أمرّ من هنا.

فنظرت إليه أماندا في دهشة؛ وحولت هذه النظرة شجاعته إلى جرأة عظيمة، ومع ذلك فإن وجهه احمر من الخجل وهو يقول:

- إنني أشعر بأنني أحببتك حباً عنيفا.

فقالت وهي مرتاعة:

- تكلم بصوت خافت.

ذكر «چوليان» أنه قرأ شيئاً من جزء فريد في كتاب هيلويز الجديدة حين وجده في ڤرجي. فاستعان بذاكرته على استعادة ما قرأ، ولبث عشر دقائق يسمع أماندا الجميلة دون أن تخونه الذاكرة، ولشدّ ما كانت مرتاحة إلى ما تسمع، ولشدّ ما كان هو سعيداً بشجاعته وجرأته. ثم تبدل محيّا وجهها الجميل فجأة وعلاه فتور شامل، وذلك لأن أحد عشاقها ظهر عند الباب. ثم اقترب من «البنك» وهو يصفّر، هازاً كتفيه ونظر إلى «چوليان» فظن بطلنا أنه يسخر منه حتى بدا له أن يبارز الرجل، لأنه ذو خيال من طبعه المغالاة والمبالغة في كل ما يعالج من أمر، وعلاه شحوب، ثم نحّى القدح بعيداً عنه، واتخذ هيئة الواثق بنفسه، وهو ينظر إلى غريمه في انتباه شديد. أحنى الغريم رأسه على البنك وصبّ فوقه كأساً بطريقة ودّية لا تكلف فيها، فانتهزت أماندا هذه الفرصة ونظرت إلى «چوليان» تأمره أن يغضّ من بصره. فامتثل وبقي دقيقتين في مكانه لا يتحرك لكنه شاحب، تبدو عليه دلائل العزم، لا يفكر إلا فيما سيحدث. وكم كان رائعاً في هذه اللحظة! عجب الغريم من نظرات «چوليان» إليه وجرع كأسه دفعة واحدة ثم قال لأماندا كلمة، ووضع يديه في الجيبين الجانبين «لردنجوته» السميك، سائراً نحو إحدى مناضد البلياردو، وهو يهمس بكلمات وينظر إلى «چوليان». فوقف هذا غاضباً، لكنه لم يعرف كيف يكون وقحاً. ووضع صرته ثم سار إلى منضدة «البلياردو» متبختراً على قدر ما يستطيع.

وهنالك ثاب إليه رشده فقال: لو أني بارزته عقب وصولي إلى بيزانسون فعلى مهنتي الكنسية السلام. ثم عاد فقال:

- ليكن ذلك، ولا يقال: إنني تحمّلت إهانة رجل وقح.

رأت أماندا شجاعته التي تتعارض مع سذاجته، فسرعان ما فضلته على ذلك الشاب الطويل الذي يلبس «الردنجوت». فنهضت مسرعة حتى وقفت بين «چوليان» وبين المنضدة، وهي تتصنع النظر إلى الخارج كأنها تُتبع بصرها إنساناً في الشارع. ثم قالت له:

- احذر أن تنظر إلى هذا السيد نظرة تحدّ أو احتقار فإنه صهرنا.

- وماذا يعنيني؟ لقد نظر إليّ هو.

- أتريد أن تكون سبباً في شقائي؟ لا شكّ في أنه نظر إليك، وربما عاد إليك ليحدثك؛ لأنني أخبرته أنك قريب أمي وقد هبطت من جنليس. أما هو فمن مقاطعة فرانش كونتي ولم يذهب بعيداً عن «دول» التي هي في طريق بورجونيا؛ وعلى هذا فقل ما تشاء ولا تخش شيئاً.

فتردد «چوليان» قليلاً، على حين استطردت هي في سرعة تحذقها مثيلاتها في المهنة، لأن الخيال يسعفهن بأكاذيب لا حدّ لها:

- لا شكّ في أنه نظر إليك، وكان ذلك في اللحظة التي سألني فيها عنك؛ إنه رقيق الحاشية مع جميع الناس، ولم يقصد إهانتك إطلاقاً.

كانت عينا «چوليان» لا تكّفان عن متابعة الصهر المزعوم؛ فرآه يشترى رقماً في لعبة البولة وهي ضرب من ألعاب البليارد، وسمعه يقول بصوته الأجش الغليظ مهدّداً: لك الويل! فمرّ سريعاً خلف الآنسة أماندا وخطا نحو «البلياردو» خطوة، فأمسكته هي من ذراعه قائلة:

- تعال ادفع أولا ثمن ما طلبت.

فقال في نفسه: إنها على صواب؛ لعلها تخشى أن أغادر المقهى، دون أن أدفع الحساب. وكانت أماندا بدورها ظاهرة الاضطراب. تكسو وجهها حمرة ملتهبة. وقد تمهّلت كثيراً وهي تعيد إليه باقي نقوده، وتقول في صوت منخفض:

- أخرج حالاً وإلاّ أعرضت عن حبك؛ أخرج فأنا أحبك حباً جماً.

أطاع أمرها لكنه خرج في بطء ثقيل وهو يحدث نفسه: أليس من واجبي أن أذهب لأنظر بدوري إلى هذا الوقح البذئ ثم أصفعه؟

وحملته هذه الفكرة على البقاء ساعة في الشارع أمام المقهى ينتظر خروج هذا الشاب، فلم يره يغادر المقهى فابتعد سائراً في طريقه. وهكذا أصاب «چوليان» شيء من الخزي قبل أن تمرّ عليه في بيزانسون بضع ساعات. وكان الضابط الجراح العجوز قد علّمه دروساً في المبارزة بالسيف -وإن كان مصاباً دائماً بمرض النقرس- فكانت هي كلّ عدته إذا غضب. لم يكن يعرف طريقة سواها وسوى الصفع، ولو كان يعلم ثالثة ما وقع فيما وقع فيه من الارتباك، ولو أنه لاكم غريمه لقهره الغريم، وجعل منه سخرية للناس لأنه رجل ضخم.

ثم قال في نفسه: لست أنا إلا شخصاً فقيراً لا عضد له في المدينة، فالمدرسة إذن والسجن عندي سواء. يجب أن أضع ملابسى البرجوازية هذه في نزل وأرتدى الملابس السوداء. وعلى أن ألبس الأولى إذا خرجت من المدرسة ساعة من زمن لأقابل بها الآنسة أماندا. وكان تفكيراً سليماً جميلاً، لكنه مرّ بجميع فنادق المدينة ولم يجرؤ على دخول

واحد منها.

ثم سار مرة أخرى أمام فندق السفراء فالتقت عيناه الحائرتان بعيني امرأة بدينة لا تزال شابة، وضاحة اللون، عليها علامات السعادة والمرح، فاقترب منها وقصّ عليها قصصه. فقالت صاحبة فندق السفراء:

- لا ريب أنني سأحتفظ بملابسك البرجوازية، أيها الخوري الشاب الجميل. وسأنظفها كثيراً مما يعلق بها من غبار، لأنه لا يجوز في هذا الوقت أن تترك ملابس الصوف مدة طويلة بدون تنظيف. ثم تناولت مفتاحاً وقادته بنفسها إلى غرفة، وطلبت منه أن يكتب مذكرة بما سيتركه، ثم قادته إلى المطبخ وقالت له:

- يا إلهي ما أجملك في هذه الملابس أيها السيد الخوري سورل، سأذهب لأحمل لك بنفسي طعاماً شهياً. واستطردت في صوت منخفض: وهذا الطعام لن يكلفك أكثر من فرنك واحد على حين يدفع فيه غيرك فرنكين ونصفاً وبضعاً. يجب ألاّ نرهق مالك القليل. فأجابها في كبر كثير:

- معي عشرة لويسات. فارتاعت وقالت:

- آه! يا إلهي، لا ترفع صوتك هكذا ففي بيزانسون كثير من السفلة. وهم على استعداد ليسرقوا منك مالك في لمحة العين. لا تتردّد على المقاهي لأنها مليئة بالرعاع. وأثارت كلماتها تفكيره فسألها.

- أحقًا ما تقولين!

- تعال إليّ دائماً وسأقدم إليك القهوة. ولا تنس أبداً أن هنا صديقة وطعاماً شهيّاً بفرنك واحد، بهذا أعدك فأرجو أن تجيب رجائي. هيّا اجلس إلى المائدة لأقدم لك الطعام بنفسي.

- أنا لا أشتهي الطعام لأنني جدّ مضطرب. سأدخل المدرسة توّاً بعد أن أفارقك.

ولم تتركه هذه المرأة الطيبة يغادر فندقها إلا وجيوبه مليئة بالطعام. ثم اتجه أخيراً إلى المكان المخيف، وصاحبة الفندق واقفة بالباب ترشده إلى طريق المدرسة.

الفصل الخامس والعشرون

المدرسة الاكليريكية

ست وثلاثون وثلثمائة وجبة غداء، ثمن كل منها ثلاثة وثمانون سنتيما . وست وثلاثون وثلثمائة وجبة عشاء، ثمن كل منها ثمانية وثلاثون سنتيما، وشوكولاته لمن له الحق، فما الربح في هذه المناقصة؟

فالنو اليهزانسوني

رأى «جوليان» الصليب الحديدي المذّهب من بعد قائماً على باب المدرسة؛ فاقترب منه في بطء؛ وساقاه لا تقويان على حمله، ثم قال: ها أنذا أرى الجحيم أمامي ولن أستطيع منه فكاكاً! وأخيراً واتته الشجاعة فدقّ الجرس. فرنّ صداه كأنه يدقّ في القفار. ومرت عشر دقائق قبل أن يأتي رجل شاحب، عليه ثياب سود ليفتح له الباب. نظر إليه «جوليان» ثم سرعان ما غض من بصره. لقد كانت هيئة البواب عجيبة: عينان جاحظتان خضراوان مستديرتان كأنهما عينا قط، وجفنان مستديران لا يكادان يطرفان، منظر لا يدفع إلى الشعور بمودة أو حبّ، أما الشفتان فرقيقتان ممتدتان في نصف دائرة فوق الأسنان البارزة. وهيئة الرجل لا تدلّ على الإجرام، وإن بعثت في نفوس الشباب رعباً خلقته بلادة حسه المطلقة. والعاطفة الوحيدة التي أحسّها «جوليان» حين ألقى نظرة سريعة على هذا الوجه الطويل الورع، هي عاطفة الاحتقار الشديد لكل ما يتحدث إليه فيه ما لم يتناول الحديث أموراً دينية عليا.

ثم رفع بصره بعد محاولة شاقة، وأخبر الرجل في صوت مضطرب، لجلجلته دقات قلبه الشديدة، بأنه يريد مقابلة السيد پيرار مدير المدرسة. ولم يجبه الرجل، بل أشار إليه أن يتبعه. وصعدا طبقتين بسلم كبير، حاجزه خشبي، ودرجاته مهدمة كأنها تتداعى للسقوط من الناحية التي تقابل الحائط. وفتح باب صغير عليه صليب كبير كصلبان المقابر، باب من الخشب الأبيض الذي دهن باللون الأسود، فتح بصعوبة وأدخل البواب «جوليان» إلى غرفة مظلمة واطئة السقف، مجصّصة الجدران، تزينها صورتان كبيرتان عليهما غبار الزمن. وبقي «جوليان» فيها وحده، منقبض النفس، سريع دقات القلب، حتى ودّ لو استطاع البكاء؛ ليخفف عن نفسه انقباضها بين صمت هذا المكان الرهيب.

مضى ربع ساعة يكاد يكون يوماً، قبل أن يظهر البواب بوجهه الكئيب على عتبة باب في الناحية الأخرى من الغرفة، وأشار إلى «جوليان» أن يتقدم، ولم يتفضل عليه بكلمة. فدخل غرفة أكبر من الأولى ولكنها شبه مظلمة، جدرانها مطلية بالجير أيضاً ولكنها عرية من الأثاث. ورأى وهو يسير فيها سريراً من الخشب الأبيض وكرسيين من

القش ومقعداً صغيراً من خشب الصنوبر ليس عليه حشية. وفي الطرف الآخر من الغرفة -على مقربة من نافذة صغيرة، صفراء الزجاج، عليها زهريات قذرة- رأى «چوليان» رجا جالساً إلى منضدة، وعليه ثوب ممزق من ثياب الكهنة؛ يبدو عليه الغضب، وأمامه مجموعة من الأوراق المربّعة، يتناول منها الواحدة بعد الأخرى ليكتب عليها كلمات، ثم يرصها على المنضدة، لم ينتبه الرجل إلى وجود «چوليان» الذي ظلّ واقفاً وسط القاعة لا يتحرك، وقد تركه البواب وخرج ثم أغلق عليهما الباب.

وظلا كذلك عشر دقائق لأن ذا الملابس الممزقة مكبّ على الكتابة. وچوليان بادي الذعر والتأثر حتى خيّل إليه أنه سيسقط على الأرض. قال فيلسوف: إنه الأثر الشديد للقبح في نفس فطرت على عشق الجمال. وربما كان مخطئاً فيما قال.

رفع الرجل رأسه؛ فلم ينتبه «چوليان» إليه إلا بعد لحظات. وبعد أن تبيّن له أنه ينظر إليه ظلّ جامداً في مكانه كأنه تمثال. وذعر من نظراته القاسية؛ وتبيّنت عيناه الزائغتان وجهاً طويلاً تنتشر فيه بقع حمراء لا تصل إلى جبهته الشاحبة. وبين الخدود الحمراء والجبهة البيضاء عينان صغيرتان سوداوان خلقتا لتبعثا الرعب في أشد القلوب، وفوق جبهته العريضة شعر غزير ناعم، لونه كلون حجر أسود لماع. ولما نفد صبر الرجل صاح به:

- أتريد أن تقترب مني أم لا تريد؟

فتقدّم بخطوات مرتبكة، والوجه شاحب، والقوى خائرة والرعب شديد، لم يستول عليه مثله طول حياته. ووقف على بعد ثلاث خطوات من المائدة الخشبية الصغيرة البيضاء التي تغطيها الأوراق المربعة. فقال له الرجل:

- اقترب أكثر. فاقترب ماداً يده كأنه يتحسس شيئاً يستند إليه.

- ما اسمك؟

- چوليان سورل.

فنظر إليه نظرة مخيفة وقال:

- تأخرت كثيراً في الحضور.

فلم يقو على تحمل النظرة؛ ومدّ يده كمن يستند إلى شيء فسقط على الأرض. ودقّ الرجل الجرس؛ فسمع «چوليان» خطوات تقترب؛ لأنه لم يفقد في غشيته إلا قدرته على الإبصار وقوته على الحركة. وأنهض ثم أجلس فوق المقعد الخشبي الأبيض. وسمع ذلك الرجل القاسي يقول للبواب:

- لقد خرّ ساقطاً بدون سبب، لقد كملت السخرية!

ولما استطاع «چوليان» أن يفتح عينيه، كان هذا الرجل ذو الوجه الأحمر مكبًا على الكتابة، أما البواب فلم يكن موجوداً. فأخذ بطلنا يقول في نفسه: عليّ أن أتشجع وأن

أحاول إخفاء ما أحسّه. كان يشعر بحاجة ملحة إلى القيء، وإذا غُلبت على أمري فيعلم الله ما يقال عني، وسيظنون بي الظنون. وأخيراً توقف الرجل عن الكتابة، ونظر إليه نظرة جانبية وسأله:

– هل تستطيع أن تجيبني!

– نعم يا سيدي. وقالها بصوت ضعيف.

– آه! حسناً إذاً.

وهَم بالوقوف وأخذ يبحث بصبر نافد عن خطاب في درج المنضدة المتخذة من خشب الصنوبر، والتي إذا فتح درجها أحدث صَريراً، ولما عثر عليه، جلس في بطء شديد وهو ينظر إلى «چوليان» من جديد كأنه يريد أن ينتزع من بين جانبيه ما بقي من حياته وهو قدر ضئيل. ثم قال له:

– لقد أوصاني بك السيد شيلان خيراً، والسيد شيلان كان أحسن خوريّ في الأسقفية كلها، رجل فاضل وصديق قديم منذ ثلاثين عاماً.

فقال چوليان في صوت ضعيف هامس:

– آه! (أتراني اشرف الآن بالتحدث إلى السيد پيرار) ؟

فأجاب مدير المدرسة وهو ينظر إليه غاضباً:

– يظهر لك.

وازداد بريق عيني ذلك المدير، وتحركت عضلات فمه من جانبيه حركة غير إرادية، كأنه نمر يداعبه السرور، قبل أن ينشب أنيابه في الفريسة، ثم قال بصوت خفيض كأنه يحدث نفسه:

– خطاب شيلان موجز، والإيجاز خير من الإطناب عند الحكماء، وقليل ما هم، والناس في عصرنا لا يعرفون أن يوجزوا. وقرأ بصوت مسموع:

«أقدم إليك چوليان سورل. وهو من هذه الرعيّة؛ وقد عمدته أنا؛ وعما قريب سيمضي على تعميده عشرون عاما. إنه ابن نجار غني ولكن أباه لا يعينه بشيء، وسيكون «چوليان» من خير خدام الكنيسة؛ قويّ الذاكرة، حاد الذكاء، كثير التأمل الروحي. فهل يبقى له استعداده هذا؟ وهل هو استعداد صادق؟».

– صادق!! وكرّر الأب پيرار هذه الكلمة في عجب ودهشة وهو ينظر إلى «چوليان»؛ لكن نظراته هذه المرة كانت أقل وحشية وقسوة، ثم خفض صوته ليقول ثانياً:

– صادق! ثم تابع قراءة الخطاب:

«أطلب إليك أن ترتب معاشاً لچوليان سورل. وسترى أنه يستحقه حين يؤدي الامتحان اللازم. لقد علمته طرفاً من علم اللاهوت القديم الرفيع، كما تناوله تلاميذ

بوسويه وأرنولد وفلوري. وإن كنت لا ترضى عن علمه في هذه الناحية فأعد چوليان إليّ؛ فإن مدير الصدقات الذي تعرفه حقّ المعرفة، يعرض عليه أن يعلم أولاده بأجر قدره ثمانمائة فرنك. أحمد الله على أنني طاهر الضمير، قد عوّدت نفسي على احتمال الشدائد. وداعاً، وأتمنى لك العافية».

ثم خفض الأب پيرار صوته وهو يقرأ توقيع الأب شيلان ـتنهد وهو ينطق باسم «شيلان» ثم قال:

- إنه هادىء النفس،وفضائله جديرة حقاً بهذه المكافأة، لشدّ ما أود أن يمنّ الله عليّ بهذه النعمة الكبيرة!

ثم نظر إلى السماء ورسم الصليب. ورأى «چوليان» هذه العلاقة المقدسة، فقلّ اشمئزاز نفسه من هذا المكان. وأخيراً قال الأب پيرار في صوت شديد لكنه غير قاس:

- إن عندي هنا واحداً وعشرين وثلثمائة طالب يريدون جميعاً أن يهبوا أنفسهم للكنيسة؛ وبين هذا العدد الكبير سبعة أو ثمانية، أوصاني بهم بعض زملائي من أمثال الأب شيلان، وستكون أنت التاسع ولكن حمايتي لك أو لغيرك ليست مجاملة أو ضعفاً، وإنما هي مضاعفة العناية ومحاربة الرذائل في النفوس. اذهب وأغلق الباب بالمفتاح.

فبذل «چوليان» مجهوداً كبيراً حتى لا يسقط وهو يسير، وقد أفلح، ثم رأى بجوار الباب نافذة صغيرة تطلّ على الريف، فأخذ ينظر منها إلى الأشجار. ولقد أفاده ما فعل، كأنما التقى بأصدقائه القدماء. ولما رجع سأله الأب پيرار:

- أتتكلم اللاتينية؟

- نعم أيها الأب الكريم.

وعاوده اطمئنانه، وإن رأى الأب پيرار قبل ذلك بنصف ساعة أقسى رجل على ظهر البسيطة. واستمرّ الحديث بينهما باللغة اللاتينية. وأخذت نظرات الكاهن پيرار تهدأ قليلاً قليلاً، وتذرع «چوليان» بالاطمئنان والهدوء وأخذ يقول في نفسه: يا لي من ضعيف! لقد أثرت فيّ مظاهر التقوى، ومن يدريني لعل هذا الرجل لص كالسيد مالون تماماً. وهنأ نفسه حين ذكر أنه خبّأ في حذائه نقوده كلها على وجه التقريب.

أخذ الأب پيرار يوجّه إليه أسئلة في علم اللاهوت. وقد عجب لما رأى من غزير علمه؛ وزاد عجبه حين سأله عن الأسفار الآلهية. لكنه ما كاد يصل إلى نظرية آباء الكنيسة حتى رأى أن «چوليان» يجهل حتى أسماء القديسين چيروم وأوجستان دون اڤنتير وبازيل ومن إليهم. فتحدث الأب إلى نفسه قائلاً: هذه هي الناحية التي كثيراً ما لمت عليها الأب شيلان، إنه ينزع في ذلك إلى الپروتستنتية. وتلميذه غزير العلم ذو دراية كبيرة بالأسفار المقدسة.

(أخذ چوليان يتحدث إليه من تلقاء نفسه عن هذا الموضوع، ويشير إلى الزمن

الحقيقي الذي كتب فيه سفر التكوين والأسفار الخمسة ...)

ثم عاد الأب پيرار يسائل نفسه: لم كلّ هذه المعلومات المفصلة عن الأسفار المقدسة؟ وما فائدة التفكير في ذلك؟ النتيجة الحتمية لهذا هي الاختبار الشخصيّ، أعني البروتستنتية الممقوتة. وبجانب هذا العلم الشائك الذي تظهر فيه معرفته الواسعة أراه يجهل آباء الكنيسة جهلاً تاماً، ولو أنه عرفهم لقلّل ذلك من خطورة ميله البروتستنتي.

وبلغ عجب مدير المدرسة حداً كبيراً حين ألقى على «چوليان» أسئلة حول نفوذ البابا، فردّد على مسامعه ما قرأه في كتاب السيد دي متر في دقة وإطناب بدل أن يشير إلى المبادئ التي تنادي بها الكنيسة الفرنسية القديمة.

فقال پيرار في نفسه: حقاً إن شيلان رجل عجيب، هل أطلعه على هذا الكتاب ليعلّمه كيف يسخر منه؟

وحاول عبثاً أن يتبيّن رأي «چوليان» في نظرية دي متر، فألقى عليه أسئلة عديدة لم يجب عنها الشاب إلا بما وعته ذاكرته. وفي هذه اللحظة شعر بأنّ قواه ثابت إليه جميعها حتى أصبح مسيطراً على نفسه. ثم تبيّن بعدَ هذا الامتحان الطويل أن قسوة الأب پيرار قسوة مصطنعة. وفي الحقّ أن الأب پيرار ودّ لو قبّل «چوليان» على سلامة منطقه وما رآه في إجاباته من وضوح ودقة. ودّ هذا من كل قلبه، لولا أنه فرض على نفسه مظهر القسوة والجدّ والخطورة أمام التلاميذ، وظلّ كذلك خمسة عشر عاماً. ثم قال الأب في نفسه: نفس هذا الشاب قوية جريئة، لكنّ جسمه ضعيف. ثم سأل «چوليان» بالفرنسية مشيراً بأصبعه إلى أرض الغرفة.

- هل حدث لك أن وقعت كثيراً على الأرض؟

فاحمرّ وجهه خجلاً كما تحمرّ وجوه الأطفال، ثم أجابه:

- بل هي أول مرة في حياتي، لقد بعث وجه بواب المدرسة الرعب في قلبي.

فكاد الأب يبتسم حين سمع ذلك، وقال:

- هذا أثر المظاهر الخادعة التي رأيتها في الحياة؛ لقد اعتدت يا بنيّ أن ترى وجوهاً ضاحكة لكنها تحجب كذباً ورياء. والفضيلة الشاقة عسيرة المنال يا سيدي. ولكن أليست مهمتنا في هذه الحياة شاقة عسيرة كذلك؟ علينا أن نحمي ضمائرنا من أن يصيبها الضعف، فلا تتأثر نفوسنا بالمظاهر الخارجة الخادعة التافهة.

ثم تحدث إليه باللاتينية التي كان يجد في التكلم بها لذّة ظاهرة وقال: لو لم تأتّ إليّ من طرف الأب شيلان لتحدثت إليك باللغة التافهة، لغة الحياة التي يخيّل إليّ أنك اعتدتها تماماً. وأنا أصارحك بأن الإعانة التي تطلبها بعيدة المنال، كأصعب شيء في هذا الوجود. ولكن الأب شيلان خدم الكنيسة ستة وخمسين عاماً، فلا أقلّ من أن يحصل على مكان لتلميذه بالمجّان. ثم حذّر الأب پيرار «چوليان» من أن ينتمي إلى جمعية أو هيئة

سرية دون أن يقرّه على ذلك.

فتفتح قلب «چوليان» عن أمانة الرجل وقال:

– أعدك بشرفي ألاّ أفعل، وأن أنزل دائماً عند رأيك.

فابتسم المدير للمرة الأولى قائلاً له:

– كلمة الشرف لا محلّ لها هنا، إنها تذكرنا بالشرف المزيف، الذي يتمسك به الناس في الحياة الدنيا ويقودهم إلى الأخطار الكثيرة بل غالباً ما يدفعهم إلى ارتكاب الجرائم. إن القسم السابع عشر من منشور القديس بيوس الخامس، يفرض عليك الطاعة المقدمة. وأنا رئيسك الديني، وتعاليم المدرسة يا بني تقضي عليك أن تسمع وتطيع. والآن، كم تحمل من النقود؟

فقال چوليان في نفسه: وصلت الآن إلى الغرض الحقيقي الذي دعاني من أجله بابنه العزيز، وأجاب المدير:

– خمسة وثلاثين فرنكا يا أبي.

– قيدّ في دقة ما تنفقه من هذا المال مبيّناً وجوه إنفاقه، لأنني سأحاسبك.

ودامت هذه الجلسة الشاقة ثلاث ساعات؛ واستدعى «چوليان» البواب ؛ فقال له ناظر المدرسة:

– اذهب بچوليان سورل إلى الغرفة رقم ١٠٣.

وكان هذا تشريفاً كبيراً لچوليان أن يقيم وحده في غرفة خاصة. ثم استطرد المدير قائلاً للبواب:

– واحمل حقيبته إلى الغرفة.

ونظر «چوليان» فرأى حقيبته أمامه بعد أن ظلّ ينظر إليها ثلاث ساعات دون أن يعرفها.

ثم وصل إلى الغرفة رقم ١٠٣، هي غرفة صغيرة مساحتها ثماني أقدام مربعة، في الطبقة العليا، مطلة على الأسوار، يرى الناظر فيها السهل الجميل الذي يفصله عن المدينة نهر الدو. ورأى «چوليان» ذلك فصاح: إنه منظر بديع! قال ذلك وهو لا يعي ما ترمي إليه كلماته، لأن المشاعر القوية التي استولت على نفسه في ذلك الزمن القصير الذي قضاه في بيزانسون أضعفت قواه إلى حد كبير. ثم جلس إلى النافذة على الكرسي الخشبي المنفرد ونام نوماً عميقاً. حتى إنه لم يسمع دقات جرس العشاء، ولا دقات جرس الصلاة، وكان كل من في المدرسة قد نسي وجوده.

وأيقظته شمس الصباح التالي بأشعتها الأولى، فألفى نفسه ممتداً على أرض الغرفة.

الفصل السادس والعشرون

العالم أو ما يفتقر إليه الغني

أعيش وحدي فوق ظهر الأرض، لا يهتم إنسان بأن يفكر فيّ. وكل الذين أراهم يجمعون المال ذوو قحة وقسوة لا تجد سبيلاً إلى قلبي. إنهم يكرهونني لطيبة فطرت عليها. آه ! سأموت عما قريب من الجوع أو من الحزن، وذلك لما أراه من قسوة الرجال.

يونج

أسرع «چوليان» فنظّف ثيابه ثم نزل على عجل لأنه تأخر. فلامه معلم مساعد لوماً عنيفاً؛ ولم يحاول «چوليان» أن يدلل على براءته بل وضع يديه على صدره قائلاً باللاتينية في تواضع وذلة:

- لقد أذنبت، وإني معترف بخطئي يا أبتاه!

فكان هذا بدءاً حسناً. أما النابهون من طلبة المدرسة فقد رأوا أنهم أمام رجل ليس في حاجة إلى معرفة المبادىء الأولى لهذه المهنة. وحل موعد الراحة فرأى «چوليان» نفسه موضع استطلاع من كل الزملاء، لكنهم لاقوا منه حذراً وصمتاً. وطبقا للمبادئ التي اختطها لنفسه عدّ من أعدائه جميع زملائه البالغين واحداً وعشرين وثلثمائة: أما الكاهن پيرار فهو أخطرهم جميعاً في نظره.

ومرت أيام قليلة كان على «چوليان» بعدها أن يختار قسيساً يعترف أمامه، وقرأ قائمة الأسماء. فقال في نفسه: يا إلهي! آه! هل يظنون أنني لا أعرف أن الكلام وخيم العواقب؟ ثم اختار لنفسه الأب پيرار.

وهو لا يدري أنه يُقدم على عمل حاسم. ثم أخبره أحد التلاميذ وهو شاب من مواليد ڤريير، أظهر له الودّ والصداقة من اليوم الأول - بأن الفطنة كانت تقضي عليه أن يختار السيد كاستانيد نائب المدير، وهمس في أذن «چوليان» قائلاً له:

- والأب كاستانيد عدوّ الأب پيرار الذي يتهمونه باتباع تعاليم ينسينيوس.

دلّت أعمال «چوليان» في الأيام الأولى على حماقة وغفلة، وذلك كاختياره قساً يعترف أمامه، وإن آمن هو بأنه حذر، فلم يكتب له التوفيق، ألا إنما أضلّه زهو كل ذي خيال واسع، فهو يأخذ نواياه على أنها أفعال، ويعتقد أنه منافق بارع. وذهب به الجنون إلى حدّ أنه لام نفسه على نجاحه في هذا الفن من الضعف. ثم قال في نفسه: وا أسفاه! هذا هو سلاحي الوحيد! أما في وقت آخر فإني كنت أواجه عدوي بأعمال تعلن عن نفسها

لأكسب قوتي.

كان «جوليان» راضياً عن مسلكه؛ ونظر حوله فما رأى إلا قشور الفضيلة الكريمة. وكان بين التلاميذ ثمانية أو عشرة يحيون حياة طهر وقداسة، ويزعمون أنهم يرون الذات الإلهية كما رأتها القديسة تريزا والقديس فرنسوا، وهو على جبل ڤرنا في الأبنين. ولكن هذا كان سراً لا يذاع، فأخفاه أصدقاؤهم. وهؤلاء المساكين الذين يرون الذات الإلهية لا يكادون يبرحون المستشفى.

ثم هناك مائة طالب آخرون يجمعون بين العقيدة المتينة والعمل المتواصل. يعملون كثيراً إلى حدّ أنهم يمرضون، فلا يكادون يحصّلون شيئاً. ثم هناك تلميذان أو ثلاثة وهبوا ذكاء خارقاً وعبقرية فذة، ويدعى أحدهم شارل. ولكن «جوليان» أخذ على نفسه أن يبتعد عنهم فلم يتقربوا منه.

وأما بقية الواحد والعشرين والثلثمائة من التلاميذ فشبان غلاظ جفاة الطبع، لا يكادون يدركون معاني الكلمات اللاتينية التي يردّدونها طول النهار. كانوا جميعاً على التقريب أبناء الفلاحين، فضلوا كسب القوت بترديد كلمات لاتينية، على أن يفلحوا الأرض. ولما رأى «جوليان» زملاءه، وكونّ عنهم فكرته هذه منذ أيامه الأولى، أملّ في التقدم السريع، قائلاً في نفسه: كل مصلحة تستلزم الأذكياء، لأن هناك عملاً يؤدى. فلو أنني عاصرت نابليون لكنت جاويشاً، ولكنني سأكون بين هؤلاء الزملاء نائباً أول لأسقف حينما يصبحون هم خوارنة. واستطرد: هؤلاء البائسون الأجراء منذ الطفولة عاشوا على اللبن الرائب والخبز الأسود إلى أن دخلوا هذه المدرسة، لا يطعمون اللحوم في أكواخهم إلا خمس مرات أو ستا في كل عام. هؤلاء الفلاحون الغلاظ سعداء جداً بما يلقون في المدرسة من نعيم، كأنهم الجنود الرومانيون الذين رأوا الحرب راحة ونعيما.

وكان «جوليان» لا يرى في عيونهم البليدة النظرات إلاّ رغبة جسمية بعد الغداء، ولذّة بدنية متوقعة قبل كلّ وجبة. وهؤلاء هم الأشخاص الذين كان يريد هو أن يتفوق عليهم، وما أرشده قلبه ولا أرشده أحد إلى أنّ السبق في كل الدروس التي يتلقاها: من عقيدة وتاريخ كنسيّ وما إليهما يُعدّ في نظرهم إثماً عظيماً. فمنذ زمن ڤولتير ومنذ سيطرت على فرنسا حكومة ذات مجلسين، لا تعدو في الواقع إلا أن تسير بحذر وتتبع قاعدة الاختبار الشخصي، وتعلّم الناس منها تلك العادة السيئة وهي الحذر. ويخيل إلينا أنه منذ ذلك الوقت أدركت كنيسة فرنسا أن الكتب هي عدوها الأصيل. وأصبح خضوع القلوب هو كل ما يعني الكنيسة. فالنجاح في الدراسة إذاً أمر يدعو حقاً إلى الريبة، حتى ولو كانت دراسات مقدسة. فمن ذا الذي يحول بين الرجل الممتاز وبين الخروج على الكنيسة كما فعل سيس أو جريجوار[1]؟ والكنيسة في فرقها وخشيتها تتمسك بالبابا تمسكاً

(١) انتخب الكاهن جريجوار نائباً عن جرينوبل سنة ١٨١٩. وكان بيل يقيم بمسقط رأسه وقتذاك حيث توفي والده في ٢١ يونيو من نفس السنة، فاشترك في الانتخابات وانتخب القس جريجوار. «المعرب».

شديداً، وتعدّه الوسيلة الوحيدة لنجاتها. فالبابا وحده هو الذي يستطيع القضاء على الاختبار الشخصي، وهو الذي يتمكن من التأثير في نفوس الناس التي أصابها السأم والمرض، بما يقيمه في بلاطه من حفلات دينية رائعة.

علم «چوليان» عن هذه الحقائق بعض العلم، وإن كان ما يسمعه في المدرسة يرمي إلى تكذيب ما أشيع، فشعر بحزن عميق. اشتغل كثيراً وتعلّم كثيراً في سرعة كبيرة تفيد القس فائدة جمة، وإن كان يراها كذباً وبهتاناً ولا يعنى بها أقل عناية. ثم اعتقد أن مهمته في المدرسة لا تتطلب منه شيئا آخر وتنحصر فيما يقوم به.

فقال في نفسه: هل نسيني أهل الأرض جميعاً؟ ألم يعد يذكرني أحد؟ وذلك لأنه لم يعلم أن الأب پيرار تلقى خطابات عليها خاتم بريد ديچون فألقاها في النار، وكانت هذه الخطابات على الرغم من أسلوبها الرصين البارع، تفيض منها عواطف حب قوية، وكان هذا الحب القوي الثائر مشوباً على ما يظهر بوخزات الضمير. فسرّ الأب پيرار وأخذ يقول: أحمد الله على أن المرأة التي أحبها هذا الشاب ليست كافرة على الأقل.

وفي يوم، فتح الكاهن پيرار خطاباً محت الدموع نصف عباراته، لأنها دموع وداع أخير، وكان فيه: وأخيراً منّت عليّ السماء فبعثت في قلبى الكراهية، لا كراهية الذي دفعني إلى ارتكاب الوزر، لأنه سيظلّ عندى أغلى مخلوق، بل كراهية الخطيئة نفسها. لقد قمت بالتضحية أيها الصديق العزيز، لكنها لم تكن سهلة فقد سكبت دموعاً غزيرة على ما ترى، مطالبة بسلامة من معي ممن عرفتهم وأحببتهم حباً كثيراً، وهذا ما حملني على التضحية العظيمة. وإن الإله العادل المنتقم الجبار، لن ينتقم منهم بعد ذلك على آثام جنتها أمهم. وداعاً يا «چوليان»، ولتكن عادلاً مع الناس.

كانت خاتمة الخطاب قد محتها الدموع حتى لا تكاد تقرأ. وجعل العنوان في ديچون. وإن كان الأمل ضعيفاً في أن يردّ «چوليان» على الخطاب، وإذا رد فإنه سيعمد إلى عبارات لا تخجل منها، حين تراها، امرأة أعرضت عن الرذيلة وتابت إلى ربها.

كان فريسة للحزن، وكان الطعام الذي يُقدّم في المدرسة بطريق المتعهد رديئاً؛ ثمن وجبة الغذاء منه ثلاثة وثمانون سنتيما فأثّر هذا في صحته.

صعد ذات صباح إلى غرفته صديقه فوكيه وقال له:

- وأخيراً استطعت الدخول. لقد زرت بيزانسون خمس مرات لأراك فيها فما كنت أرى فى كل مرة إلا الوجه الخشبي، وإنساناً رابضاً على الباب، فياللشيطان! لماذا تلازم المدرسة هكذا؟

- هو امتحان فرضته على نفسي.

- لشدّ ما تغيرت، وهأنذا قد استطعت أن أراك. لقد علّمتْني قطعتان جميلتان من ذات خمسة الفرنكات، أنني لم أكن فى المرات السابقة إلا غراً أحمق، وكان ينبغي لي أن

أقدمهما منذ الرحلة الأولى.

وظلّ الحديث بين الصديقين زمناً طويلاً. وتغيّر وجه «چوليان» حين قال فوكيه:

- ولهذه المناسبة، أتعرف أن أم تلاميذك قد أصبحت تقية ورعة؟ وتحدث بهذه اللهجة الطليقة، وهو لا يعلم أنه يمسّ قلب صديقه مسّاً شديداً، لأنه تناول أعز الذكريات وأغلاها.

- نعم يا صديقي، لقد أصبحت ورعة تقية إلى حدّ بعيد، وسمعت أنها تحج كثيراً، لكنها قد سددت نحو الأب مالون ضربة شديدة وأظهرت له الاحتقار لتجسّسه زمناً طويلاً على الأب المسكين شيلان، فلم ترد أن تعترف أمامه، وهي تفضل الاعتراف في بيزانسون أو ديچون. فالتهب وجه چوليان بالحمرة وسأله:

- أهي تتردّد على بيزانسون؟ .... فأجابه دهشاً كأنه يستفهم:

- تتردد كثيراً.

- أمعك من جريدة الدستور بعض أعدادها؟

- ماذا تقول؟ فقال «چوليان» في صوت هادئ: أسألك عما إذا كان معك بعض أعداد جريدة الدستور، إنها تباع هنا بفرنك ونصف فرنك.

- ماذا! وحتى في هذه المدرسة أحرار! مسكينة يا فرنسا! قال ذلك بصوت منافق وبلهجة رقيقة عذبة، كتلك التي يصطنعها الأب مالون حين يتكلم.

وتركت هذه الزيارة في نفس «چوليان» أثراً كبيراً، حتى أنه في اليوم التالي سمع من مواطنه هذا التلميذ الصغير الذي عدّه چوليان طفلاً، كلمة كشفت له عن شيء خطير: هو أن سلوكه منذ دخل المدرسة كان سلسلة من أعمال زائفة، فسخر «چوليان» من نفسه سخرية مرة.

والواقع أنه كان في حياته المدرسية لا يعنى إلا بالأعمال الكبيرة، فيقوم بها خير قيام ويدبرها في مهارة وذكاء، غير عابئ بعد ذلك بالتفاصيل، على حين كان الماهرون من التلاميذ لا يعنون إلا بالتفاصيل. فأصبح هذا معروفاً بين أصدقائه بالزندقة، التي دللوا عليها بكثير من التوافه التي صدرت عنه دون أن ينتبه إليها.

اعتبروه زنديقاً لأنه يفكّر ويحكم على الأشياء بنفسه، بدلاً من أن يتبّع الآثار الدينية اتباعاً أعمى، ويقتدي بالمثل الصالح، وذلك إثم عظيم، ولم يمدّ إليه الأب پيرار يد المساعدة في شيء، ولم يتحدث إليه مرة واحدة خارج كرسي الاعتراف، وحتى في هذا المكان كان يسمع منه أكثر مما يتكلم إليه. ولو أن «چوليان» اختار الأب كاستانيد لتغير موقفه تماماً.

وأدرك أخيراً ما جرّه عليه حمقه فلم ييأس، بل حاول أن يعرف مدى الأذى الذي سيصيبه، ولكي يحقق خطته، خرج قليلاً من صمته الذي التزمه، والذي صدّ عنه زملاءه في كبر وعناد. ولما خرج من صمته بدءوا هم ينتقمون منه، فأعرضوا عنه في احتقار لما

تقرب منهم، وتبيّن أنه كان حديث إخوانه منذ دخل المدرسة، كان حديثهم طول النهار وبخاصة في أوقات الراحة، يذكرونه بالخير ويذكرونه بالشرّ فيزداد أعداؤه أو يدافع عنه بعض الصالحين، أو بعض من هم أقل غلظة وفظاظة. وهنا واجه مهمة شاقة عسيرة، فقد كان عليه أن يصلح ما أفسده في الأيام الخوالي، فزاد انتباهه لكل شيء، وترقبه كلّ صغيرة وكبيرة، وأخذ على نفسه أن ينحو نحواً جديداً في معاملة الإخوان، وأن يتخلّق بخلق جديد.

فكانت نظراته فيما مضى تسبب له المتاعب الكثيرة، فأدرك الحكمة في غضّ الطرف في هذه الأماكن الدينية. وقال في نفسه: لشدّ ما كنت مخدوعاً وأنا في ڤريير! كنت أعتقد أنني عرفت الحياة، ولكني كنت لا أزال أعدّ لها العدة؛ فهأنذا أعيش في الدنيا يحيط بي الأعداء الحقيقيون. كم كانت حياةً شاقة تلك التي ما مرّت عليّ لحظة فيها إلاّ وأنا منافق! إنه جهد شاق ينوء به هرقل. إن سكست الخامس هو هرقل العصر الحديث، ظلّ خمسة عشر عاماً متوالية يخدع ببساطته وخضوعه أربعين كردينالاً عرفوه في شبابه مفطوراً على الدأب والتعالي والنشاط.

ثم قال في مرارة: لا قيمة هنا للعلم! وتقدم المرء في العقيدة والتاريخ المقدّس وما إليهما، ليس له إلا قيمة ظاهرية تافهة. وكلّ ما يقال في هذا الصدد شباك ينصبونها لأمثالي من الحمقى. وا أسفاه! لقد كانت ميزتي الوحيدة في تقدمي السريع، وفي حفظ ما نتعلمه من هذيان. ولكن هل يأخذون هذا الهذر مأخذ الجد أو يحكمون عليه كما أراه؟ كنت غراً حين افتخرت بهذه الميزة! ولم يجلب عليّ تقدمي إلا أعداء ألدّاء. فشارل وإن كان أكثر مني علماً يكتب في أوراق الامتحان ما يدلّ على البلادة والبلاهة، فيحتلّ المكان الخامس؛ وإذا وقع له أن يحتلّ المكان الأول في الترتيب فذلك سهو منه وشئ لا يقصد إليه.... آه! كلمة واحدة ؛ نعم كلمة واحدة من الأب پيرار، تنفعني كثيراً.

ومنذ أن تفتحت عينا «چوليان» أضحت فروض الزهد والتقوى خير ساعاته وأحبها إلى قلبه، بعد أن كانت ثقيلة الوطأة على نفسه من قبل، يستولي عليه السأم سريعاً من المسبحة التي تناولها خمس مرات في الأسبوع، والترتيل في القلب المقدس وما إلى ذلك. كان يفكر في مسلكه تفكيراً صارماً، ويحاول ألاّ يغالي في الطرق التي يتبعها، لكنه لم يكن يطمع أول الأمر في أن يكون كزملائه الذين يُتخذون مثلاً يحتذى، لم يكن يطمع أن يقوم بأعمال مجيدة، بأن يتقن نوعاً من التعاليم الدينية النصرانية. فيأكل بيضة مسلوقة غير كاملة النضج، على العادة المتبعة في المدرسة مع من يظهر تقدماً في مجال الورع.

قد يبتسم القارئ ولكن ليذكر كل الأخطاء التي وقع فيها الأب ديليل وهو يأكل بيضة، حين دعي للغداء على مائدة سيدة كبيرة من بلاط لويس السادس عشر.

حاول «چوليان» أول الأمر ألاّ يقع في الإثم، وهذه حالة طالب المدرسة الأكليريكية الذي ينبغي له أن يكون مسلكه وحركات ذراعيه وعينيه لا تمت إلى الحياة الدنيوية

بسبب، وهذا لا يعني أنه قد أقبل على الآخرة تماماً وآمن بأن الدنيا فناء وزوال.

وكان يرى على جدران ممرات المدرسة عبارات كُتبت بالفحم جاء فيها: ما قيمة ستين عاماً يقضيها المرء في محنة، إذا قيست بالنعيم الأبديّ في الجنة، أو المهل المغْلي في الجحيم! فأصبح لا يشمئز من مثل هذه العبارات وأدرك أنّ عليه أن يذكرها أبداً. وساءل نفسه: ماذا أعمل طول حياتي؟ سأبيع للمؤمنين دائماً أماكن في الجنة. ولكن كيف السبيل إلى أن أريهم المكان مع اختلاف ما بيني وبينهم في المظهر الخارجي؟

وقضى شهوراً وهو مثابر، يبدو عليه أنه مازال «يفكّر». وطريقته في تحريك عينيه وفمه لا تدلّ على الإيمان الذي تنطوي عليه أعماله الدينية، ولا تحمل على أنه يؤمن بكل شيء ويسلم بكل شيء، حتى لو لقي في ذلك العذاب. وكان يغضب غضباً كبيراً حين يرى الفلاحين الغلاظ يفوقونه في ذلك، مع أن هناك أسباباً كثيرة تحملهم على ألاّ يكونوا مفكرين.

لقد بذل جهداً جبّاراً في أن يظهر بالمظهر الذي يدلّ على عقيدة ملتهبة وطاعة عمياء، ويدعو إلى الإيمان بكل شيء، وتحمل العذاب في سبيل الدين، مظهر نراه كثيراً في أديرة إيطاليا، وصوّره لنا جرشان تصويراً بديعاً في نماذجه الكنسية.

وفي الأعياد الكبيرة يعطى تلاميذ المدرسة النقانق والكرنب. وقد لحظ جيران «چوليان» على المائدة أنه لا يهتّم بهذا النعيم! فأخذوا عليه ذلك وعدّوه من أكبر ذنوبه. أما أصدقاؤه فعدّوه لوناً كريهاً من ألوان النفاق؛ وكان إعراضه عن الطعام الشهيّ سبباً في زيادة أعدائه، فقد أخذوا يقولون: أنظروا إلى هذا البرجوازي، أنظروا إلى هذا المتكبر الذي يزدرى خير زاد يقدّم إلينا! إنه يعرض عن النقانق والكرنب! فياله من لعين! وياله من متكبر! وياله من هالك أثيم!

وبلغ به الأمر أنه كان يصيح في ساعات قنوطه: وا أسفاه! إن جهل أصدقائي من أولئك الريفيين ميزة كبيرة لهم. فالمعلم غير محتاج إلى أن يخلصهم ساعة وصولهم إلى المدرسة، من الآراء الدنيوية الكثيرة، التي تملأ رأس مثلي، والتي تظهر في وضوح على وجهي مهما حاولت أن أخفيها.

وأنعم النظر في الفلاحين الأجلاف، الذين يفدون على المدرسة، وأعارهم انتباهاً يقرب من الحسد. وهم أولئك الذين كان كلّ تعليمهم، بعد أن يدخلوا المدرسة ويخلعوا ستر الجوخ ليلبسوا الثياب السوداء، لا يتجاوز احترام «النقود» وإجلالها العظيم سواء في ذلك سائلها وصلبها كما يقولون في مقاطعة فرانش كونتيه. وهذه هي الطريقة التى تحمل البطولة والأسرار الدينية في نظرهم، حين يعبرون عن الفكرة الرائعة فكرة النقد المعجّل.

كانت سعادة هؤلاء الطلبة تنحصر في أن يملئوا بطونهم عند الغداء، مثلهم في هذا مثل أبطال قصص ڤولتير. واكتشف «چوليان» أنهم يكادون جميعاً يحترمون من يلبس الملابس الغالية. إن هذه العاطفة لتقدر «العدالة الوازعة» حق قدرها أو أقل من قدرها كما

تريها لنا المحاكم. وكثيراً ما كان يسائل بعضهم بعضاً حين ينفردون: ماذا نكسب من مخاصمتنا لرجل بدين؟

ويستعمل أهل أودية الجورا كلمة (بدين) مريدين بها معنى الغنيّ، وإذا كان هذا هو رأيهم في الرجل الغني، فما بالك برأيهم في الحكومة، وهي أغنى من أي رجل يجلّونه كل هذا الإجلال! وإذا لم يبتسم السامع في تجلة واحترام، حين يذكر اسم السيد المدير، فإن هذا يعد في نظر فلاحي فرانش كونتيه حماقة! والحماقة إذا إرتكبها فقير عوقب حالاً بحرمانه من القوت.

تبدلت عاطفة «چوليان» نحو أولئك الفلاحين البائسين، فبعد أن كان يحتقرهم أخذ يحنو عليهم: فكثيراً ما كان يعود آباء زملائه إلى أكواخهم في الشتاء، فلا يجدون فيها خبزاً ولا بطاطس ولا كستناء. قال «چوليان» في نفسه: ليس عجيباً إذاً أن يرى هؤلاء الزملاء أن السعيد هو من يحظى بطعام جيد، ثم يرتدي ملابس حسنة! إن زملائي أصحاب عقيدة ثابتة، يؤمنون بأن الحياة الدينية تضمن لهم هذه السعادة: يأكلون حتى يشبعوا ويلبسون دفئاً يقيهم قرّ الشتاء.

وسمع «چوليان» طالباً صغير السن واسع الخيال يقول لزميل له:

– أمن البعيد أن أكون «بابا» مثل سكست الخامس الذي كان من قبل يحرس الخنازير؟ فأجاب الصديق:

– لا يختار البابا إلاّ من الإيطاليين؛ ولكن مما لاريب فيه أن سيكون منّا نواب الأساقفة والكهنة القانونيون، وربما كان منا مطارنة أيضاً، فمطران شالون السيد ب ... أصله ابن صانع براميل، وأنا شخصياً أبى من صنّاع البراميل.

أرسل الأب پيرار يوماً في طلب «چوليان» وهو في أحد دروس العقائد، فسُرّ الشاب المسكين بمغادرة هذا الجو الذي أرهق نفسه وجسمه. واستقبله المدير نفس الاستقبال الذي بعث الرعب في قلبه يوم دخل المدرسة. ونظر إليه نظرات مخيفة وقال له:

– خبّرني بما كتب على هذه الورقة من أوراق اللعب، وفسر لي. فقرأ چوليان: «أماندا بنييه بمقهى الزرافة قبل الساعة الثامنة. وقل إنك من چنليس وابن عم أمى.»

فأردك «چوليان» في الحال جسامة الخطر، إن شرطة الأب كاستانيد سرقوا منه هذا العنوان. فنظر إلى جبهة المدير فراراً من عينيه المخيفتين وقال:

– كنت شديد الاضطراب في اليوم الذي أتيت فيه إلى المدرسة، لأن الأب شيلان أخبرني بأن للشرور والوشايات مرتع خصيب، وبأن التجسس والوشاية يكثران بين الزملاء ويجدان تشجيعاً. والسماء تريد أن تكون الحياة هنا على هذا المنوال؛ ليراها على حقيقتها الذين سيكونون قساوسة المستقبل، حتى تشرب نفوسهم كراهة الدنيا وزخرفها.

فغضب الأب پيرار وقال له:

- تريد أن تضللني بما تقول؟ يا لك من خبيث!

فاستطرد چوليان في هدوء:

- كثيراً ما ضربني إخوتي وأنا في ڤريير، حين كانت تدبّ في صدورهم عقارب الغيرة مني .. فقاطعه الأب في غضب شديد:

- حقيقة! حقيقة!

لكنه لم يخف ولم يجبن بل استطرد قصته:

- ويوم وصلت إلى بيزانسون وشعرت بالجوع قبيل الظهر، فدخلت مقهى وإن كنت أحب مثل هذه الأماكن الدنسة. لكني اعتقدت أن وجبة الغذاء فيه تكلفني أقل مما تكلفني في نُزُل. وأشفقت على سذاجتي سيدة خيل إليّ أنها صاحبة المقهى وقالت لي: إ بيزانسون كثيرة الأشرار وأنا أخاف عليك. فإذا أصابك مكروه فالجأ إليّ، وارسل رسولاً قبل الساعة الثامنة. وإن رفض بوابو المدرسة أن يبلغوني رسالتك فقل لهم: إنك ابن عمي وإنك من جنليس ... .

فصاح الكاهن پيرار قائلاً، وهو يسير في الغرفة لأنه لا يستطيع البقاء في مكان واحد:

- سأتحقق صحة هذه الثرثرة. والآن إلى غرفتك!

ثم تبعه إلى الغرفة ليغلق بابها عليه وأخذ «چوليان» يفتش الحقيبة التي كان مخفياً الورقة في قاعها بمهارة كبيرة. لم يضع شيء مما في الحقيبة، وإن كان نظامها قد تبدّل كثيراً، مما يدل على أن يداً عبثت بها وإن لم يهمل مفتاحها لحظة من اللحظات. ثم أخذ الشاب يحدّث نفسه: إنني اليوم سعيد لأنّني لم أغادر المدرسة إطلاقاً، وإن صرّح لي بذلك كاستانيد في طيبة ورقة أدركت الآن معناها. أما قبل ذلك فكنت غراً أتخبط! ومن يدري؟ لعلّي لو خرجت يوم ذلك، لسولت لي نفسي أن أغير ثيابي لألقى أماندا الجميلة وكان في ذلك ضياعي إلى الأبد. لقد أخفقوا في إغرائي من هذه السبيل. ولما لم يصلوا إلى معلومات من هذه الناحية، أرادوا أن ينتفعوا بما ظفروا به فوشوا بي!

ثم استدعاه المدير بعد ساعتين. وقال له وهو ينظر إليه في شيء من الإشفاق:

- لم تكذب فيما حدثتني به، ولكن احتفاظك بهذا العنوان حماقة لا تدرك الآن خطورتها. فيالك من طفل أخرق! مثل هذا العنوان قد يجرّ عليك الشقاء ولو بعد عشرة أعوام.

الفصل السابع والعشرون
التجربة الأولى في الحياة

يا للوقت الحاضر يا إلهي العظيم! إنه حرم مقدس.
والويل لمن يمسسه.

ديدرو

ليلتمس لنا القارئ عذراً في أننا لم نتناول سرد أمور جلية واضحة في هذه الفترة من حياة «چوليان». وما ذلك لأن علمنا بها ناقص بل لأنها مظلمة على كثرتها، قاتمة تلائم الحياة وراء جدران المدرسة، ولا تلائم هذه الصفحات التي نحرص على أن تكون مضاءة قدر المستطاع. وإن معاصرينا الذين يتألمون من أمور معينة لا يذكرونها إلاّ وضاقت نفوسهم بها، وحال السأم بينهم وبين أن يستمتعوا بأي شيء حتى ولو كان قراءة قصة.

أصاب «چوليان» بعض نجاح في إشاراته التي تحمل النفاق؛ لكنه كثيراً ما أصابه اشمئزاز وقنوط كبير. لم يحالفه التوفيق في هذه المهنة المرذولة، وكان أقلُّ معونة من الحياة في الخارج، يشغل قلبه ويذكره بها ويتسلل إلى نفسه بسهولة ويسر.

كان في عزلة عن الناس جميعاً، كأنه زورق تُرك في مجاهل المحيط. وكان يحدث نفسه قائلاً: إن نجحتُ كُتب عليّ أن أقضي حياتي بين أولئك الرفاق الأشرار! إنهم شرهون لا يفكرون إلا في بطونهم، أو هم كأمثال كستانيد؛ يرتكبون الجرائم ولا يراعون في ذلك عهداً ولا ذمة! سيصلون إلى الحكم: ولكن بأي ثمن يا إلهي!

إن إرادة الرجل قوية كما تقول الكتب التي أقرؤها؛ ولكن أتبلغ بها القوة حدّ أن تتغلب على هذا الاشمئزاز؟ إن مهمة العظماء سهلة لأن الخطر مهما يكن جسيماً فإنهم يجدون فيه جمالاً، ومن ذا الذي يستطيع غيري أن يرى قبح ما يحيط بي؟

كانت هذه الفترة أسوأ فترة في حياته. وقد كان من السهل عليه أن يلحق بأحدى الفرق الجميلة في ثكنات بيزانسون! أو أن يكون معلماً للاتينية، ويكفيه القليل ليعيش! ولكنه بذلك يضحي بالمهنة التي يسعى وراءها، وبالمستقبل الذي رسمه خياله، إنه يحكم على نفسه بالموت.

وهذه هي خطوات تفكيره في يوم من أيامه الحزينة. قال في نفسه ذات صباح:

لقد صوّر لي الوهم أني خير من زملائي الريفيين! ولكنني عشت حتى أدركت أن «التفاوت يولد الكراهية»، وعرف هذه الحقيقة الهامة من فشل كبير مُنِّي به. لقد حاول أن يتقرب من تلميذ يحيا حياة قدسية وبذل في ذلك جهداً كبيراً ثمانية أيام كاملة ثم سار

«چوليان» يتنزه مع القديس في فناء المدرسة، ويستمع في خضوع إلى حماقاته المملة التي تبعث في نفسه السأم، فباغتتهم زوبعة وأرعدت السماء وأبرقت. فما كان إلا أن دفع القديس الورع «چوليان» دفعة وحشية وهو يصيح به قائلاً:

– أصغ إليّ، كل إنسان في الوجود يعمل لنفسه وحدها، وأنا لا أريد أن تحرقني الصاعقة. والله قادر على أن يصعقك لأنك كافر، لأنك ڤولتير.

فاصطكت أسنان «چوليان» غيظاً، ونظر إلى السماء التي شققتها الصاعقة وصاح قائلاً: لو أنني كنت ممن ينامون وقت العاصفة لحقّ عليّ الغرق! فلأحاول التقرب من مغرور آخر.

ودقّ الجرس مؤذناً ببدء محاضرة الأب كاستانيد في التاريخ المقدس. وفي هذا اليوم كان الأب كستانيد يعلّم التلاميذ، الذين يخشون العمل الشاق ويرتعدون من فقر آبائهم، أن هذا الشبح المخيف الذي يسميّ الحكومة ليس له سلطان حقيقي شرعي إلا ذلك الذي يوافق عليه البابا ويُستمد منه، لأنه نائبُ الله في أرضه. ثم قال لهم:

– اعملوا كي يرضى عنكم البابا، وتمسكوا بالحياة الطاهرة المقدسة، وبالطاعة ولتكونوا كالعصا بين يديه. فأنتم إن فعلتم هذا، تقلدتم مناصب خطيرة ترأسونها بلا محاسب ولا رقيب؛ وتدفع الحكومة لكم ثلث الأجور ويدفع ثلثيها الباقيين المؤمنون الذين تستميلون قلوبهم بالمواعظ.

وانتهت محاضرته، فوقف في الفناء حيث التفّ حوله التلاميذ فقال:

– الناس ينظرون إلى الخوري معجبين قائلين: هكذا يكون الرجال، وهكذا تكون المناصب، لقد عرفت قرى جبلية يبلغ الدخل العارض للخوريّ فيها أكثر من الدخل الأصلي لخوري المدائن. وهذه القرى تدر على الخوري أموالاً طائلة، وديكة سمينة وبيضاً وزبداً طازجاً وغير ذلك من ملذات لا حصر لها. والخوري هناك صاحب الكلمة العليا غير مدافع: لا تقام وليمة ولا مأدبة إلا دُعي إليها واحتُفي به. وقيسوا على ذلك.

ثم صعد الأب إلى مسكنه فانقسم التلاميذ أقساماً ووقفوا جماعات.

وظلّ «چوليان» بمعزل وحده كأنه عنز جرباء، وجعل كل تلميذ في الجماعة يقذف بقطعة نقود في الهواء، فإذا أصاب تخمينه الوجه الذي ستقع عليه آمن أصدقاؤك بأنه سيكون خوريّ قرية من القرى الغنية.

وجاء دور القصص والحكايات. فهذا القسيس الشاب الذي لم يكن يمضي على ترقيته عام، قد قدّم لخادم الخوري العجوز أرنباً فعين نائباً للخوري، وبعد بضعة شهور مات الخورى فعينّ نائبه في مكانه فكسب مالاً كثيراً. وتمكّن آخر أن يعيّن خلفاً لخوريّ في بلدة كثيرة الخيرات، على أن يشهد جميع الوجبات التي يتناولها الخوري الكسيح، ويقطع له أجزاء الدجاج في أناقة. هؤلاء التلاميذ ككل الشبان في كل المهن، يبالغون في قيمة هذه التوافه

التي يرونها خارقة للعادة، فتطغى على خيالهم حتى تملكه.

قال «چوليان» في نفسه: يجب أن أشترك في نقاشهم. فهم حين لا يتحدثون عن النقانق والخوريات الغنية، يتناولون الناحية الدنيوية للنظريات الدينية، والخلافات التي تقع بين حكام الولايات والعمدة من ناحية، والخوارنة من ناحية أخرى. ثم رأى أن فكرة بدأت تتسلط عليهم وهي أنهم يتخذون البابا إلهاً آخر، يخلعون عليه من القوة والجبروت أكثر مما يخلعون على الله. وحينما يعلمون أن الأب پيرار لا يسمعهم، يقولون بصوت منخفض: إنّ البابا حين لا يُعنى بتعيين كل حكام الولايات، وكل عمد فرنسا، فهو إنما يترك هذه المهمة لملك فرنسا، الذي اختاره ابناً أكبر للكنيسة.

ولما وصل الحديث إلى هذا الحد، اعتقد «چوليان» أنه يستطيع أن يظهر لهم بعض ما جبلت عليه نفسه من إجلال لكتاب «البابا» من تأليف دى متر. وفي الحق أنه أذهلهم بما تحدّث، فكان هذا عليه نحساً جديداً. لقد كرهوه لأنه شرح آراءهم خيراً منهم. وذلك أن الأب شيلان لم يكن فطناً حين علم «چوليان»، كما لم يكن لبقاً إزاء نفسه. عوّد تلميذه التفكير السليم وأخذ عليه ألاّ يتأثر بقول تافه، ولكنه أهمل أن يعلمه أن هذه العادة جريمة في نظر الحمقى الذين لا يؤبه لهم، لأنّ التفكير السليم يؤذي المشاعر.

كان الحديث الحسن المرتب الذي حدثهم به إثماً جديداً، لأنهم كثيرو التفكير، فيه، وكلمة واحدة قالوها بكل قلوبهم تدلّ على مقدار بغضهم الشديد له فقد أطلقوا عليه اسم: مارتن لوثر. وحجتهم في ذلك كما يزعمون، المنطق الجهنمي الذي كان يبعث الغرور في نفس زميلهم. وكان بينهم من يفوقون «چوليان» جمالاً بنضرة اللون، ولكنه امتاز عنهم ببياض اليدين. ولم يكن يستطيع أن يخفي بعض عادات تدلّ على نظافة طريفة. على أن هذه الميزة لا تعدّ فضيلة في هذا المنزل الموحش، الذي كتبت عليه المقادير الإقامة فيه. أما الفلاحون القذرون الذين هم معه، فكانوا يقولون إنه مفطور على عادات ناعمة مسترخية.

إنا لنخشى أن نتعب القارئ إذا استعرضنا المآسي التي تعرّض لها بطلنا؛ فقد أراد بعض زملائه الأقوياء أن يضربوه، فاضطر إلى أن يتسلح بفرجار حديدى، وأشار إليهم أنه سيضرب به إن هم اعتدوا عليه. والإشارات في تقرير الجواسيس ليست لها قيمة الكلمات.

الفصل الثامن والعشرون

موكب ديني

كانت القلوب جميعاً شديدة التأثر، حتى لكأن روحاً من الله قد هبطت إلى هذه الشوارع القوطية الضيقة المتشعبة، التي فرشها المؤمنون بالرمال.

يونج

ولما حاول «چوليان» عبثاً أن يظهر بمظهر الخضوع والغفلة، لم يعجبهم ما فعل؛ لأنه لم يكن مثلهم. قال في نفسه: ولماذا لا يحبّ المدرسون استكانتي وخشوعي وهم دقاق الحس، مختارون من بين آلاف الأساتذة؟ لم يكن فيهم إلا رجل واحد يظهر لچوليان الودّ، ويحمله على الاعتقاد بأنه يصدق كل ما يقول، وهذا هو الأب شاس برنارد مدير الحفلات في الكتدرائية، الذي يعمل هناك منذ خمسة عشر عاماً، على أمل أن يسند إليه منصب كاهن قانوني. وهو يدرس البلاغة المقدسة في المدرسة حتى يتحقق له هذا الأمل. وقبل أن تنكشف لچوليان الحقائقُ المرة، كان يسارع إلى محاضرات الأب شاس حريصاً على أن يكون أول الداخلين؛ لذلك ولدت بينهما صداقة. وكثيراً ما اصطحب الأب شاس «چوليان» بعد المحاضرات سائرين معاً في الحديقة.

وساءل «چوليان» نفسه: ما أمد هذه الصلة؟ وكان يعجب حين يحدثه الأب شاس ساعات طويلة عن الزينات التى تملكها الكتدرائية. أخبره بأن فيها للكاهن سبع عشرة حلة تزينها الضفائر، وذلك غير زينات الحداد.

ونحن نرجو خيراً كثيراً من الرئيسة العجوز دى روبمپرى[1]، فهذه السيدة البالغة من العمر تسعين سنة، تحتفظ منذ سبعين عاماً على الأقل، بثياب زفافها التى صنعت من نسيج ليون الفاخر الموشى بالذهب. ثم وقف الأب شاس فجأة، وقال في عجب شديد: تصور يا صديقي أن هذا النسيج لا يتكسر لكثرة ما به من ذهب، وقد أذيع في بيزانسون أن وصية هذه السيدة ستزيد كنز الكتدرائية أكثر من عشرة أثواب من حلل الكهنة، غير أربعة أو خمسة من أغطية الرأس التي تستعمل في الحفلات الكبيرة. ثم خفض الأب شاس صوته وقال: وأعتقد أنها ستترك لنا ثمانية مشاعل بديعة من الفضة المحلاة بالذهب،

(١) هو اسم إحدى قريبات الرسام الكبير أوجين ديلكروا. وكانت سيدة غريبة الأطوار، عاشرها الكاتب بضعة شهور من عامى ١٨٢٨ - ١٨٢٩. ولم يطلق اسمها فحسب على الرئيسة العجوز؛ بل استوحى من خلقها وعاداتها وصفاتها الكثير حين رسم بطلة قصته في الجزء الثانى «ماتيلد دى لامول». «المعرب».

ويقال إن شارل الجسور دوق برجونيا اشتراها من إيطاليا، وكان أحد أحفاده وزيراً مقرّبا.

فأخذ «چوليان» يسائل نفسه: ولكن ماذا يقصد هذا الرجل من ذكر هذه الثياب البالية؟ إن هذا الاستعداد الماهر قد بدأ منذ قرن. وإن لم يكن هناك ما يدل على ذلك. إنه ولا شك يحذرني حذراً شديداً! والأب شاس أمهر من أولئك المدرسين جميعاً الذين تنكشف نواياهم بعد خمسة عشر يوماً. وأنا أدرك السبب، فطموحه في كف القدر من خمسة عشر عاماً!

وفي إحدى الأمسيات والتلاميذ في درس من دروس الأسلحة، نودي «چوليان» ليقابل الأب پيرار. ولما مثل بين يدي المدير قال له:

– سيحتفل غداً بعيد الإله. والسيد الأب شاس برنارد في حاجة إليك لتعاونه في تزيين الكنيسة، فاذهب وأطع.

ثم ناداه الأب پيرار مرة أخرى بعد ما سار وقال له في حنان:

– سنرى ما إذا كنت ستنتهز هذه الفرصة لترتاد بعض أحياء المدينة. فأجابه «چوليان» باللاتينية:

– إن لي أعداء مقنعين يظهرون الودّ ويضمرون البغضاء.

ذهب «چوليان» إلى الكتدرائية في الصباح الباكر منكّس البصر. وقد استفاد كثيراً من منظر الشوارع التي فرشت احتفاء بالموكب، ومن النشاط الذي دبّ في المدينة. وخيل إليه وهو يسير أنه لم يمض عليه في المدرسة إلا زمن يسير. كانت أفكاره متجهة نحو ڤرجى، ونحو الفتاة الجميلة أماندابنييه، التي قد يلقاها وهو يسير على مقربة من مشربها. ورأى من بعيد الأب شاس برنارد على باب الكتدرائية، والأب رجل بدين يشرق وجهه بالبشر وتملك عليه الصراحة كلّ نفسه. وكان عليه في هذا اليوم دلائل العظمة والسرور. ولما رأى «چوليان» من بعيد صاح به.

– أنا في إنتظارك يا بني العزيز، فمرحباً ... إنّ عملنا اليوم طويل شاق، فلنستعن عليه بالفطور الأول، أما الفطور الثاني فسيكون في الساعة العاشرة أثناء القداس الأكبر. فأجاب «چوليان» في وقار:

– أحب يا سيدي ألاّ أكون وحدي لحظة واحدة، فهل لك أن تتفضل بملاحظة أنني حضرت في الساعة الخامسة إلا دقيقة واحدة؟ قال ذلك وهو يرفع رأسه نحو الساعة المعلقة على الحائط.

– آه! إنّ هؤلاء الأشقياء الذين معك في المدرسة بثوا في نفسك الرعب! إنك لطيب حقاً حين تفكر فيهم. وهل يعيب الطريق الحسن أن في السور الذي يحفّه أشواكاً؟ إن المسافرين يأخذون طريقهم ولا يعبئون بالأشواك التي تبقى حيث هي، حتى يبليها الزمن. دعنا من هذا وإلى العمل يا صديقي العزيز، نعم إلى العمل!

كان الأب شاس على صواب حين قال: إن العمل سيكون شاقاً. كان في الكتدرائية أمس مأتم كبير، عوّق الحفل الدينيّ عن أن يعدّ له شيء. وكان عليهم في هذا الصباح أن يغطوا الأعمدة القوطية كلها بنسيج دمشقيّ أحمر، إلى إرتفاع ثلاثين قدماً. وهذه الأعمدة تُكوّن في الكتدرائية ثلاثة مواضع كل موضع منها كأنه وسط الكنيسة. وكان رئيس الأساقفة قد أحضر من باريس أربعة نجارين في عربات البريد، وهؤلاء السادة لا يستطيعون أن يعملوا وحدهم، فدعوا زملاءهم من أهل بيزانسون. وبدل أن يُغضوا عن عيوبهم وعدم مهارتهم، سخروا منهم فزادوهم فشلاً وارتباكاً.

رأى «جوليان» أن عليه أن يصعد السلم بنفسه، وساعده نشاطه على أن يصعد. ثم تولّى أمر توجيه نجاري بيزانسون. فسرّ الأب شاس سروراً كبيراً، وهو يراه يتنقل من سلم إلى سلم في خفة ورشاقة. ثم تمت تغطية الأعمدة كلها بالنسيج الدمشقي، وأصبح عليهم أن يضعوا خمس باقات كبيرة من الريش فوق المظلة الكبيرة التي تعلو الهيكل الرئيسي. وكان هناك تاج مذهب من الخشب، يقوم على ثمانية أعمدة كبيرة عليها تماثيل من رخام إيطاليا. وليصل الإنسان إلى منتصف المظلة فوق بيت القربان المقدس، كان عليه أن يسير على حافة خشبية، ربما كانت آهلة بالسوس، على ارتفاع أربعين قدماً.

بعث منظر هذا الطريق الشاق في نفوس النجارين الپاريسيين رعباً قضى على مرحهم، فنظروا كثيراً وتناقشوا طويلاً. ولم يجرؤ أحدهم على الصعود. أما «جوليان» فإنه أمسك بباقات من الريش، وصعد السلم مسرعاً حتى وضعها في دقة على هيئة تاج في منتصف المظلة، ثم نزل فاحتضنه الأب شاس برنارد بين ذراعيه، وصاح به القس الطيب:

– لقد قمت بعمل رائع، وسأقصّ ذلك على مونسنيور.

كانت وجبة الساعة العاشرة يسودها المرح، لأن الأب شاس لم ير كنيسته من قبل مزّينة بمثل هذه الزينة، وأخذ يحدث «جوليان» قائلاً:

– كانت أميّ أيها التلميذ العزيز، تؤجر مقاعد هذه الكنيسة الفخمة، فكان لهذا البناء الكبير الفضل في تربيتي. إنّ الرعب الذي بثه روبسپيير في نفوس الناس قضى علينا، وكنت إذ ذاك في الثامنة من عمري، أقيم القداس في الغرف؛ فكنت أطعم في الأيام التي يقام فيها القداس. وكنت أتقن طيّ ثياب القداس فلا تتلف أشرطتها. ولما أعاد ناپليون إقامة الشعائر الدينية من جديد، سعدت بالإشراف على كل شيء في هذه الكنيسة المقدسة، ومتعت نظري بزينتها البديعة خمس مرات في كل عام. لكنني لم أرها في مثل هذه الزينة كما أراها اليوم، فالثقوب التي في النسيج الدمشقي لم ترفأ في الماضي كما رفئت اليوم، ولم يلف النسيج على الأعمدة كما لفّ الآن. فقال «جوليان» في نفسه:

– لقد آن للأب أن يفضي بسرّه؛ لأنه يتحدث إليّ الآن عن نفسه مدفوعاً بميله نحوي، فلابدّ أن يكاشفني بما ينطوي عليه قلبه. وهذا الرجل المتحمس لم يقل شيئاً يدل

على الحماقة. ثم استطرد يقول:

– لقد عمل كثيراً، ومع ذلك فهو سعيد. وشرب كثيراً من النبيذ الطيب، فيا له من رجل! ويا له من مثل ينبغي أن أحتذيه! إنه يستحق كل تقدير.

ودقت أجراس القداس الأكبر، فأراد «چوليان» أن يرتدي قميصاً فوق ثيابه كما يفعل الأكليروس ليسير مع رئيس الأساقفة في الموكب. فصاح به الأب شاس:

– اللصوص يا صديقي! أنت لا تفكر في اللصوص! سيخرج الموكب الآن فتبقى الكنيسة خالية، فعلينا أن نظل هنا لنحرسها. إننا نكون جدّ سعداء إذا لم يسرق منا إلاّ بعض الأشرطة التي في أسفل الأعمدة. هذا الشريط هدية من مدام دى روبمبرى، جاءها من والد جدها الكونت المشهور. ثم اقترب الأب شاس من أذن «چوليان» وهمس متحمساً:

– إنه من الذهب الخالص يا صديقي، ليس فيه زيف! وحراسة الجناح الشمالي موكولة إليك فلا تغادره. وعليّ أنا حراسة الجناح الجنوبي وصحن الكنيسة الكبير. انتبه جداً إلى كراسي الاعتراف، فجواسيس اللصوص ينتهزون هناك فرصة نغفل فيها فيسرقون الكنيسة.

كانت الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً حين دقّ الناقوس الكبير دقات عنيفة، دوّت في كل الأرجاء مؤذنة بالعيد الديني. فتأثرت بها نفس «چوليان» حتى هام في آفاق بعيدة من الخيال. وزادت في حماسته رائحة البخور وأوراق الورد التي يلقيها الأطفال وهم متنكرون في زي القديس يوحنا، أمام السر المقدس. ما كان ينبغي أن يوقظ رنين الأجراس في نفس «چوليان» إلا فكرة العمل الذي يقوم به عشرون رجلاً، أجر كل منهم خمسون سنتيماً، يساعدهم فيه خمسة عشر أو عشرون آخرون من الأتقياء. كان ينبغى أن يفكر في تقطع الحبال أو تكسّر الخشب. أو في الخطر الذي ينجم عن سقوط الناقوس، وهو يسقط مرة كل قرنين. وكان ينبغى أن يفكر في كيفية خفض أجور الذين يقرعون الناقوس، أو أن يجعله صفحاً ومغفرة عن آثامهم، أو يفكر في فضل تمنحه الكنيسة دون أن يؤثر في كنوزها. ولكنه ما كان يفكر في شيء من هذا الذي تفرضه عليه الحكمة والكياسة، بل تأثرت نفسه بتلك الأصوات القوية الجبارة، فسبحت في عالم بعيد الآفاق. إنه لن يكون قساً صالحاً أبداً، ولا إدارياً حازماً؛ لأن النفوس التي تتأثر على تلك الصورة لا تصلح إلا لأن تكون نفوس فنانين فحسب. وهنا يظهر اعتداد «چوليان» بنفسه في أقوى مظاهره. فخمسون غيره من زملائه في المدرسة يسمعون رنين هذا الناقوس الضخم فلا يفكرون إلا فى أجور قارعيه، لأنهم أكثر منه علماً بالحياة المادية. تعلموها من كراهية الناس لهم، من العصيان الذي يظهر لهم في كلّ كمين وخلف كل حاجز. إنهم لينظرون في فراسة شديدة؛ ليتبينوا ما إذا كان تأثر الجمهور برنين الأجراس يعادل ما دفع للقارعين من أجر. ولو أن «چوليان» أراد أن يفكر في الفوائد المادية للكتدرائية لجمح به خياله؛ ولفكر في كيف يقتصد أربعين فرنكاً في مصنع، فيضيع بذلك فرصة اقتصاد خمسة وعشرين سنتيماً.

كان الموكب يسير متهادياً في بيزانسون، واليوم رائع جميل، ويقف عند المذابح المزينة لذبّاح القربان التي أقيمت في جميع أرجاء بيزانسون، وإن لم تصادف ارتياحاً من أولي الأمر وذوي الشأن في المدينة. كان كلّ هذا يجري في المدينة، والكنيسة يخيم عليها سكون عميق، ويسودها ظلام خفيف، ويتردد في أرجائها هواء بارد لطيف لا يزال عبقاً برائحة البخور والأزهار. وحمل كل هذا «چوليان» على أن يسترسل في الأحلام الجميلة. ولم يعد يخشى أن يزعجه الأب شاس؛ لأنه مشغول بجزء آخر من البناء. كانت روحه كأنها فارقت جسده؛ لأنها سبحت في آفاق بعيدة حين مشى الهوينى في الجناح الشمالي الذي وُكلت حراسته إليه؛ وزاد اطمئنانه حين لم ير في أماكن الاعتراف إلاّ سيدات تقيات عددهن قليل، وقد كان ينظر ولكنه لا يرى. ثم ذهب عنه بعض ذهوله حين رأى سيدتين أنيقتين تركع إحداهما في كرسيّ الاعتراف، وتجلس الثانية على مقعد بالقرب منها، ولحظ -وإن كان ينظر ولا يرى- أن ليس في مكان الاعتراف قسيس، ولعلّ ذلك راجع إلى إحساسه بالواجب إحساساً غامضاً، أو إلى إعجابه بملابس السيدتين التي كانت لا تخلو من بساطة ونبل. فقال حين رآها:

- عجباً! كيف لا تركع الجميلتان أمام المذبح إن كانتا تقيتين، أو تجلسان في المقاعد الأمامية بإحدى الشرفات إن كانتا من الطبقة الراقية. إنّ هذا الثوب جميل حقاً! فياللأناقة! ثم سار ببطء محاولاً أن يراهما.

وسمعت الراكعة خطواته في هذا الصمت الشامل فأدارت رأسها ملتفتة، ثم صاحت صيحة مخنوقة أغمى عليها على أثرها، ثم خارت قواها فسقطت إلى الخلف. وعندئذ أسرعت صديقتها القريبة منها إلي نجدتها. ورأى «چوليان» في هذه اللحظة كتفي المرأة التي أغمى عليها ثم رأى عقدها الماسيّ الثمين، الكبير الماسات فذهل لأنه يعرفه. وكانت المفاجأة شديدة حين عرف كذلك شعر «مدام دى رينال»! إنها هي بعينها ما في ذلك شك. أمّا التي خفت إلى نجدتها وحالت بينها وبين السقوط، وأمسكت رأسها فلم تكن إلا مدام درڤيل. فقد «چوليان» شعوره وأسرع نحوها وحال بينها وبين السقوط لأن «مدام دى رينال» كادت تهوى بصديقتها إلى الأرض. ثم طالع وجه صديقته فألفاه مائلاً على كتفيها، وهو شاحب لا أثر فيه للعواطف. فساعد مدام درڤيل على إسناد هذا الرأس الجميل إلى حافة كرسي من القش؛ ثم ركع. والتفتت إليه مدام درڤيل فلما عرفته قالت له في غضب شديد:

- ابتعد يا سيدي، اختف في الحال! واحذر أن يقع بصرها عليك مرة أخرى، لأن رؤيتك قد آذت نفسها. وكم كانت سعيدة قبل أن تعرفك! إنك فظيع في كل ما تعمل. اختف حالاً، إن كان لايزال فيك من الحياء بقية.

قالت هذا في سيطرة كثيرة، وكان «چوليان» ضعيفاً إلى أبعد حد في ذلك الوقت فأطاع وابتعد. وأخذ يقول في نفسه وهو يفكر في مدام درڤيل: لقد كانت تكرهني دائماً.

كانت الكنيسة في هذا الوقت تدوّي أرجاؤها بترتيل جميل يردده القسس الذين هم في طليعة الموكب، حين عودته إلى الكتدرائية. ونادى الأب شاس «چوليان» عدة مرات، فلم يصل صوته إلى مسامعه أول الأمر. فذهب إليه فإذا هو خلف أحد الأعمدة متضعضعاً خائر القوى. فأخذ بذراعه ليقدمه إلى رئيس الأساقفة. ولكنه رآه شاحب اللون لا يستطيع السير ولا يقوى على الحركة، فمدّ ذراعه له قائلاً:

- إنك تشعر بالإعياء يا بني العزيز، فقد عملت كثيراً. تعال واجلس على هذا المقعد الصغير الذي يجلس عليه خلفي قسّ يوزع الماء المقدس، وسأحول بينك وبين نظرات الناس. وكانا إذ ذاك بجوار الباب الكبير، فقال الأب شاس:

- هوّن عليك فلن يحضر الرئيس قبل عشرين دقيقة على الأقلّ، فاجتهد أن تستردّ قواك. وحين يمرّ مونسنيور فسأنهضك من مكانك؛ لأني قوي فتي وإن كنت متقدم السن. ولكنه عندما أتى رئيس الأساقفة كان «چوليان» لا يزال بادي الاضطراب، فأعرض الأب عن فكرة تقديمه لمونسيور قائلاً له:

- خفّف عليك ولا تحزن فلن أعدم فرصة أخرى.

وفي المساء حمل الأب شاس إلى كنيسة المدرسة عشر ليبرات من الشمع اقتصدوها من حفلة الكتدرائية. وزعم الأب أن «چوليان» كان في ذلك صاحب الفضل لأنه كان سريعاً في إطفاء الشموع. وما كان هذا صحيحاً فقد فقد المسكين كل قواه منذ وقع نظره على «مدام دى رينال».

الفصل التاسع والعشرون
أول نجاح

لقد عرف عصره، وعرف الإقليم الذي يعيش فيه،
وكان غنياً

لى بريكورسير

كان «چوليان» لا يزال متأثراً بحلمه العميق وتفكيره في حادث الكتدرائية، حين استدعاه الأب القاس پيرار ذات صباح وقال له:

– إن السيد الأب شاس برنارد كتب إليّ يوصيني بك، وسلوكك على وجه الإجمال يعجبني. وإن كان فيك غفلة كبيرة، وحماقة فطرت عليها لا يظهر أثرها عليك في سهولة ويسر. ومع كل ذلك، فقلبك حتى الآن طيب كريم، وذكاؤك قوي جبار، وعلى الجملة فإني أرى فيك قبساً لا يجب إهماله، أنا على وشك مغادرة هذه المدرسة بعد أن خدمتها خمسة عشر عاماً، والجريمة التي يتهمونني بها هي أنني تركت لتلاميذ المدرسة حرية التصرف ولم أشجع أو أحارب هذه الهيئة السرية التي حدثتني عنها، وأنت على كرسي الاعتراف. وأريد قبل رحيلي أن أعمل لك شيئاً، وكان عليّ أن أفعل هذا قبل الآن بشهرين، لأنك تستحق ذلك، لولا الوشاية التي تستند إلى أصل صحيح عن أماندابينيه، التي وجدنا عنوانها في حقيبتك. وعلى هذا فسأعينك معيداً للعهدين الجديد والقديم.

فخفق قلب «چوليان» خفقة الفرح، وهمّ أن يسجد لله شكراً على نعمته. ولكنه عمد إلى حركة أخرى أكثر صدقاً، فاقترب من الأب پيرار وقبلّ يده. فغضب المدير وصاح:

– ما هذا؟

ولكن نظرات «چوليان» نمت عن أكثر مما فعل، معبِّرة عن أصدق الشكر والاعتراف بالجميل. فنظر إليه الأب في ذهول كأنه رجل فقد العواطف الرقيقة منذ سنوات طوال، فكشفت عاطفة «چوليان» عن حقيقة نفس المدير واضطرب صوته وهو يقول:

– حسناً! إنني يا بنيّ عطوف عليك حقاً، ويعلم الله أن هذا على الرغم مني. كان ينبغي لي أن أكون عادلاً لا أحب أحداً ولا أبغض أحداً. ستكون حياتك شاقة عسيرة لأنني أرى فيك شيئاً يغيظ العوامّ، وسيلاحقك طول الحياة حقد وغيرة. ستلقى الكراهية من رفاقك أينما ذهبت، والذين يدّعون أنهم يحبونك خادعون يريدون الوقيعة بك. وليس لهذا إلا دواء واحد: هو أن تعتمد على الله وحده في كل ما ينزل بك، والله وحده هو الذي أراد أن يعاقبك على اعتدادك بنفسك، فبث كراهتك في نفوس الناس؛ ليكن سلوكك

نقياً، فهذا هو الطريق القويم الذى يجدر بك أن تسلكه. وإذا تمسكت بالحقيقة تمسكاً قوياً، فسيغلب أعداؤك على أمرهم عاجلاً أو آجلاً.

لم يسمع «چوليان» منذ وقت طويل صوتاً صادقاً عطوفاً، لذلك يجب أن نغفر له ضعفه لأنه بكى، ففتح المدير ذراعيه وعانقه. وكانت هذه اللحظة من أسعد لحظات حياتهما.

فرح «چوليان» كثيراً؛ وكان هذا التقدم أول نجاح أصابه، ومزاياه كثيرة لا حصر لها. ولكي نقدر هذه المزايا يجب أن نضع أنفسنا في مكان أولئك الذين حكم عليهم أن يقضوا شهوراً طويلة، لا يستطيعون أن يخلوا بأنفسهم ساعة من نهار، وهم يعيشون دائماً مع رفاق خير صفاتهم الوقاحة، وهم غالباً لا يطاقون، فصيحاتهم وحدها كفيلة بأن تهد كيان الرقيق العواطف الدقيق المزاج: فسرور أولئك الفلاحين الذين يطعمون شهيّ الطعام ويلبسون جيد الملابس، سرور صاخب، وعلامة المرح عندهم هي أن يصيحوا بكل ما فيهم من قوة. يتناول «چوليان» طعامه الآن وحده، بعد موعد تلاميذ المدرسة بساعة واحدة، ويحمل مفتاحاً للحديقة التي يتنزه فيها حين تكون خالية من التلاميذ.

لقد ذهل كثيراً حين رأى زملاءه لم يعودوا يظهرون له الكراهية الشديدة التي كانوا لا يخفونها من قبل، وكان يتوقع أن تزداد. وكانت هذه الرغبة السرية التي تحملهم على ألا يوجهوا إليه حديثاً لم يعد سببها أنه ينظر إليهم بكبرياء وغرور، خلقا له من قبل أعداء كثيرين، وإنما أصبح هؤلاء الأفظاظ الذين يعيشون معه، يفسرونها بأنها عاطفة صادقة تدلّ على احتفاظه بكرامته. وقلّت كراهيتهم له كثيراً وخاصة بين حديثي السن من زملائه الذين أصبحوا تلاميذه، فكان يعاملهم معاملة تنطوي على الأدب الجم. والتفّ حوله بعض الأنصار شيئاً فشيئاً ولم يعد أحد يستسيغ أن يلقبه بمارتن لوثر.

ولكن ما فائدة تسمية أصدقائه وأعدائه؟ كل هذا قبيح، ويزيده قبحاً أن وصفه صادق! ومع ذلك فمعلمو الأخلاق وحدهم هم الذين يسيطرون على الناس، ولست أدري ماذا يكون مصير الناس إن فقدنا هؤلاء المعلمين؟ وهل تغني الصحيفة عن الخوري وتحل محله؟

ومنذ أسند المنصب الجديد إلى «چوليان»، حاول المدير ألاّ يتحدث إليه على انفراد، فكان هذا منه مسلكاً حذراً حكيماً، يفيد تلاميذه وإن كان امتحاناً له على كل حال. والمبدأ الذي سار عليه هذا المدير القاسي؛ ولم يغيره إطلاقاً هو: إذا رأيت رجلاً له ميزات فضع العقبات في سبيل ما يريد وما يفعل، فإذا ما كانت صفاته حقيقية، فإنه سيعلم كيف يتغلب على العقبات أو يتجنبها.

كان موسم الصيد قد حلّ، فبدا لفوكيه أن يرسل وعلاً وخنزيراً برياً إلى المدرسة باسم والدي «چوليان». ووضع الحيوانان في الممر بين المطبخ وغرفة الطعام، ورآهما الطلبة وهم ذاهبون إلى الغذاء فكانا موضع غرابة واستطلاع منهم جميعاً. فالخنزير البري وإن كان

ميتاً تماماً يبعث الرعب في قلوب صغار التلاميذ، وكانوا يقتربون منه ويلمسون أنيابه. وظلّ هذا الصيد موضع حديث المدرسة أسبوعاً كاملاً.

وقد جعلت هذه الميزة أسرة چوليان في صفّ الطبقة الاجتماعية التي يجب أن تحترم، فكان هذا سبباً جديداً لحسد الزملاء، إذ ظنوا أن «چوليان» أكثر منهم ثروة، وللمال عندهم قوة وسلطان. فأخذ شارل وزملاؤه الممتازون من التلاميذ يتقربون منه ويكادون يشكون من أنه لم يخبرهم بثراء أسرته ليظهروا الاحترام اللازم لسلطان المال.

ثم طلب «چوليان» للتجنيد لكنه أعفي لأنه طالب في المدرسة الأكليريكية، فحزن لذلك كثيراً وأخذ يقول: لو طلبت للتجنيد قبل ذلك بعشرين عاماً لعشت عيشة الأبطال! لقد مضى ذلك الزمن المجيد.

وسار يتنزه في حديقة المدرسة وحده، فسمع بنائين يتحدثون وهم يعملون في جدار السياج، ودار بينهم الحديث التالي:

– حسنا! يجب أن نرحل فهذا تجنيد جديد.

– مرحى بالتجنيد في زمن ولى! لقد كان البناء يعمل ضابطاً ثم يرقى إلى درجة قائد، أجل لقد رأينا ذلك.

– انظر ماذا يحدث الآن! إن البائسين هم الذين يلحقون بالجيش، وأما الذين يستطيعون أن يعيشوا فهم لا يبرحون ديارهم.

– من ولد فقيراً مات وهو فقير.

– آه! أحقيقة ما يقولون إنه مات؟ قال هذا بناء ثالث.

– الأغنياء وحدهم هم الذين يذيعون هذا لأنه يدخل في قلوبهم رعباً!

– يا للفارق العظيم! كان كل شيء سيتم في أوانه! لقد خانه القواد الذين معه! وهل ينبغي للإنسان أن يكون خائناً؟

سرى في نفس چوليان شيء من الراحة بهذا الحديث، وابتعد عنهم وهو يقول متنهداً: إن الملك الحقيقي هو الذي تظلّ ذكراه أبداً في نفوس الرعية!

وحلّ موعد الامتحان، فأجاب عن الأسئلة بطريقة بديعة، ولحظ أن شارل نفسه يحاول أن يظهر ما عنده من علم. ورأى المتحنون في أول يوم، أنّ اسم «چوليان سورل» يرد في قوائمهم الأول أو الثاني فحنقوا، لأن الذي عينهم جميعاً هو الرجل الشهير ڤريلير نائب الأسقف. وقد أحيطوا علماً بأن «چوليان» هو الابن العزيز للأب پيرار. وقامت في المدرسة مراهنات على أنه سيكون الأول في امتحان هذا العام، فينال بذلك شرف تناول الطعام على مائدة مونسنيور رئيس الأساقفة. ثم حدث في نهاية جلسة من جلسات الامتحان أن تنوول آباء الكنيسة، فوجّه إليه ممتحن لبق بعض أسئلة عن القديس جيروم، وذكر شغف القديس بشيشرون؛ ثم تحدث عن هوراس وڤرچيل وغيرهما من زنادقة

المؤلفين. وكان «چوليان» قد حفظ مقطوعات كثيرة لهؤلاء المؤلفين على غير علم من زملائه. وفتنه نجاحه فنسى المكان الذي هو فيه حتى أجاب الممتحن إلى ما طلبه وأنشد في حماسة بعض أشعار هوراس وعلّق عليها. وظل كذلك عشرين دقيقة يتورط فيما خدعته به نفسه. وأخيراً تغيّر وجه الممتحن بغتة وأخذ يؤنبه تأنيباً شديداً على الوقت الذي أضاعه في دراسة هذا الكفر وعلى الآراء التافهة بل الإجرامية التي حشا بها رأسه. أنبه بعد أن ألح عليه من قبل أن يتحدث إليه عن هذه الأشعار. فقال له «چوليان» في تواضع بعد ما تبين المناورة الماهرة التي ذهب ضحيتها:

- حقاً يا سيدي ما أنا إلاّ غر أحمق.

هذا التغرير الذي عمد إليه الممتحن تغرير حقير، وبخاصة في أوساط المدرسة وبين التلاميذ. لكنّ هذا لم يحل بين الأب ڤريلير وبين أن يكتب بيده القوية الباطشة رقم ١٩٨ بجوار اسم ز. ووجد في ذلك لذة لأنه قد وجه بما فعل ضربة إلى عدوه پيرار. والأب فريلير رجل حاذق، نظّم الهيئات الأجتماعية في بيزانسون بمهارة فائقة، ورسائله إلى باريس يضطرب لها القضاة والمديرون، وكذلك الضباط العظام في ثكناتهم.

وكان مهتماً منذ عشر سنوات بأن يعزل الأب پيرار من إدارة المدرسة، لأن الأب پيرار كان يطبق على نفسه المنهج الذي رسمه لچوليان تطبيقاً صارماً، وهو مخلص تقيّ لا يعرف الدسائس، ويؤدي واجبه في دقة شديدة. لكن السماء غضبت عليه فأعطته مزاجاً سوداوياً جعله يحس إحساساً عميقاً كلّ ما يوجه إليه من سباب أو كراهة، فكان يتأثر بها ولا ينساها لفرط حسّه وثورة نفسه: وكم ودّ أن يستقيل من منصبه هذا، وحال بينه وبين ذلك اعتقاده أنه قد كتب عليه هذا المنصب ليؤدي واجبه، وليحول دون تقدم اليسوعية وعبادة الأوثان.

وقبيل الامتحانات كان قد مضى عليه ما يقرب من شهرين لم يتحدث خلالهما إلى «چوليان». ومع ذلك فإنه مرض ثمانية أيام حين وصل إليه الخطاب الرسمي الذي يحمل النتيجة، ورأى فيه أن ترتيب «چوليان» الثامن والتسعون بعد المائة، وهو التلميذ الذي عدّه فخراً لمدرسته. وكان عزاؤه الوحيد أن يوجه إلى تلميذه كل عناية ورعاية على الرغم مما فطر عليه ذلك المدير من خلق شديد. وكم كان سعيداً حين رأى أن «چوليان» ليس غاضباً ولا ناقماً ولا يائساً.

ومضت أسابيع، تسلّم بعدها «چوليان» خطاباً دلّ طابعه على أنه من باريس، فذهل وقال في نفسه: وأخيراً برّت «مدام دى رينال» بما وعدت به!

ولكنه وجد الخطاب من شخص يدعى پول سورل يزعم فيه أنه أحد أقاربه. وقد أرسل إليه حوالة بمبلغ خمسمائة فرنك وأخبره أنه إذا ثابر بنجاح على دراسة المؤلفات اللاتينية القيمة، فإنه سيتسلم فى كل عام مبلغاً كالمبلغ الذي أرسل إليه اليوم. فقال في نفسه في حنان شديد: إنها هي ولا شك، وهذه الطيبة لا تصدر إلا عن قلبها! لقد أرادت أن تعزّي

نفسي، ولكن لماذا لم تقل كلمة تعبر عن الصداقة أو الحب؟

لكنه قد أخطأ التقدير، فمدام دى رينال قد أسلمت زمامها إلى مدام درفيل، وكانت فريسة لندم شديد على ما فرط منها. لكنها كانت تفكر في هذا المخلوق العجيب الذي ساقته إليها الأقدار فقلب حياتها رأساً على عقب؛ كانت تفكر فيه وإن حرّمت على نفسها أن تكتب إليه.

ولو استعرنا لغة المدرسة لقلنا: إن إرسال هذا المبلغ إلى «چوليان» معجزة سماوية، وإن الأب ڤريلير نفسه هو سبب المنحة. وقبل ذلك باثني عشر عاماً، وصل الأب إلى بيزانسون، رقيق الحال، وقد أصبح الآن من أغنى ملاك المقاطعة، واشترى ضمن أملاكه أرضاً أصبح نصفها له، وآل نصفها الآخر إلى «السيد دى لامول»، فقامت بين هذين الشخصين قضية كبيرة.

وعلى الرغم من مكانة «المركيز دى لامول» في باريس ومن الأعمال الكثيرة التي كان يقوم بها في البلاط فإنه تبينّ مقدار الخطر الذي يحيق به إن حارب الأب ڤريلير في بيزانسون، لأن نائب الأسقف هذا بيده عزل حكام الأقليم وتوليتهم. وكان في استطاعة «المركيز» أن يلتمس الإنعام عليه بخمسين ألفاً من الفرنكات تدخل في أي باب من أبواب الميزانية ثم يترك للأب ڤريلير هذه القضية التافهة التي يتنازعان فيها خمسين ألفاً من الفرنكات؛ كان في استطاعة «المركيز» أن يفعل ذلك لكنه كان مغيظاً حانقاً على الأب، معتقداً أنه على صواب: فياله من سبب وجيه! ثم لتسمح لنا بأن نقول: أيّ قاض ليس له ابن أو ابن عم على الأقل يحب أن يرقى به إلى أعلى المناصب؟

وبعد أن صدر أول حكم في صالح الأب ڤريلير بثمانية أيام، ركب عربة الأسقف؛ وذهب بنفسه يحمل رسالة الشرف إلى محاميه ليظهر سلطانه للذين يتعامون عن تقديره حقّ قدره. أما «المركيز دى لامول» فكان يجهل مكانة الأب ڤريلير؛ ولما شعر بضعف من يتولون الدفاع عن قضيته، شاور الأب شيلان في الأمر فأرشده إلى الأب پيرار.

وظلت العلاقات قائمة بين «المركيز» والأب پيرار بضعة أعوام في زمن هذه القصة. وأظهر پيرار حماسة شديدة في هذا الأمر : كان يرى محامي المركيز في أغلب الأحيان فدرس القضية، وعرف أن المركيز على حق فناصره في غير ما مواربة، على ذلك الرجل القوي نائب الأسقف. فغضب الأب ڤريلير غضباً شديداً من قحة رجل، لا يقام له وزن، معدود من أنصار بنسينيوس وهذا ما هو أمرّ وأدهى!

قال الأب ڤريلير لبعض خاصته: أنظروا إلى هؤلاء الأشراف المتصلين بالبلاط كم يزعمون أنهم أقوياء! فالسيد دى لامول لم يرسل وساماً تافهاً لوكيله في بيزانسوان، وسيعزل هذا الوكيل من منصبه من غير أن يهتم به. ومع ذلك فقد كتبوا إليّ من باريس قائلين: إنه لا يمضي أسبوع لا يذهب فيه «المركيز» إلى صالون حارس الأختام ليفاخر بوسامه الأزرق.

ومع نشاط الأب پيرار وعلاقة «المركيز دى لامول» الوطيدة مع وزير العدل وموظفي الوزارة جميعاً، فإن «المركيز» بعد كفاح ستة أعوام لم ينل شيئاً أكثر من أنه لم يفقد قضيته نهائياً.

وكان «المركيز» يراسل الأب پيرار دائماً بشأن هذه القضية التي كانا يتتبعانها في قوة وحماسة. وقد أدىّ هذا التراسل الى أن «المركيز» قدّر ذكاء الكاهن حق قدره؛ وبدأت الرسائل المتبادلة تحمل معاني الصداقة، وإن كان بينهما فارق اجتماعي كبير. وكتب الأب پيرار إليه يخبره بأنهم يعملون على أن يضطروه إلى الاستقالة من منصبه، ووجهوا إليه عبارات تحمل الذلة والمهانة. وقد حملته السياسة الدينية التي رسمها أعداؤه على أن يقصّ على المركيز ما فعلوه مع «چوليان».

كان هذا السيد الكبير غنياً جداً ولم يكن بخيلاً. وقد حاول أن يقنع الأب بأن يقبل بعض ما ينفقه من مال في سبيل التنقلات التي توجبها القضية، لكنه رفض. فانتهز «المركيز» فرصة سنحت وأرسل إلى «چوليان» مبلغ خمسمائة الفرنك لعلمه بأنه تلميذ عزيز على مدير المدرسة. وكتب الخطاب الذي أرسله إلى «چوليان» بنفسه، وقد حمله هذا على التفكير في الأب پيرار.

ثم حدث أن تسلّم المدير رقعة يُطلب منه فيها أن يذهب في الحال إلى نزل في ضاحية من ضواحى بيزانسون لأمر هام. ولما وصل إلى هناك وجد وكيل المركيز دى لامول الذي قال له:

- لقد أمرني المركيز بأن أضع عربته تحت تصرفك. وهو يأمل أن تقتنع بالذهاب إلى پاريس إذا ما قرأت هذا الخطاب، على أن يكون سفرك بعد أربعة أيام أو خمسة. وسأنفق الوقت الذي تقضيه هنا قبل رحيلك في ممتلكات المركيز في فرانش كونتيه؛ ثم نرحل معاً إلى پاريس في اليوم الذي ترتضيه.

كان الخطاب موجزاً يقول له المركيز فيه:

«تخلص يا سيدي العزيز من مضايقات الريف، وتعال إلى پاريس لتستنشق هواء نقياً. وهذه عربتي، وستظل أربعة أيام في انتظار قرارك. سأنتظرك بنفسي في پاريس حتى يوم الثلاثاء، ولا أنتظر منك إلا الموافقة، وحينذاك سأقبل باسمك خورية من أغنى خوريات ضواحي پاريس. وإن أغنى سكان خوريتك المنتظرة لم يرك إطلاقاً، ولكنه مخلص لك أكثر مما تظن، إنه المركيز دى لامول».

كان الأب پيرار يحب المدرسة على الرغم من قسوته وكثرة أعدائه فيها، وقد وقف عليها جهوده وأفكاره منذ خمسة عشر عاماً. ولما وصل إليه خطاب المركيز، كان ظهوره بمثابة جرّاح كلفّ أن يقوم بعملية خطيرة. لكنها ضرورية. وكان عزله من نظارة المدرسة أمراً محتوماً، فواعد الوكيل ثلاثة أيام. وظل ثمانياً وأربعين ساعة وهو فريسة لتردّد شديد. ثم كتب خطاباً إلى «المركيز»، وآخر إلى مونسنيور رئيس الأساقفة، جاء آية من آيات البيان

الكنسي وإن كان طويلاً. لقد كان من العسير أن يجد المرء عبارات لا يلام عليها، وتحمل في ثناياها احتراماً حقيقياً. ومع ذلك فقد قصد إلى أن يحرج مركز الأب ڤريلير أمام رئيسه. ثم تناول الأسباب الخطيرة التي حملته على الاستقالة، وذكر بعد ذلك الأمور التافهة الخسيسة التي احتملها بصبر ستة أعوام كوامل، حتى اضطرته الآن إلى مغادرة الأبرشية فقد سرق خشبه، ودس السم لكلبه وهكذا ... .

ولما انتهى من كتابة هذا الخطاب، أرسل من يوقظ «چوليان» من نومه في الساعة الثامنة مساء، لأنه هو وجميع تلاميذ المدرسة ينامون قبل هذا الموعد. ثم قال له حينما رآه في أسلوب لاتيني جميل:

- أتعرف أين الأسقفية؟ اذهب بهذا الخطاب إلى مونسنيور. ولا أخفي عنك أنني أرمي بك وسط الذئاب. ولتكن كل جوارحك عيوناً وآذاناً. واحذر أن تكذب إذا ما سئلت؛ ولكن اذكر دائماً أن سائلك ربما يجد لذة كبيرة في أن يوقع بك ويؤذي سمعتك. إني لأشعر براحة يا بني حين أمكنك من القيام بهذه التجربة، قبل أن أفارقك لأن الخطاب الذي تحمله، ولا أخفي عليك، ينطوي على استقالتي.

ظل «چوليان» جامداً في مكانه، لأنه يحب الأب پيرار وكانت فطنته تقول له: سيعمد حزب القلب المقدس إلى التنكيل بي بعد رحيل هذا الرجل الأمين، بل ربما طردوني.

ولم يستطع في هذه اللحظة أن يفكر في نفسه. وكان كل ما يشغله هو تكوين عبارة رقيقة مهذبة، وإن لم يسعفه الذكاء ولم تواته البديهة.

- حسنا يا صديقي! ألا ترحل؟

فأجاب «چوليان» في استحياء شديد:

- علمت يا سيدي أنك لم تقتصد شيئاً في الفترة الطويلة التي قضيتها في إدارة المدرسة، ولدي ستمائة من الفرنكات. فقال الأب في فتور:

- لن أنسى لك ذلك أيضاً. اذهب الآن إلى الأسقفية فالوقت متأخر. وشاءت المصادفات أن يكون الأب دى ڤريلير في تلك الليلة قائماً بالعمل في صالون رئيس الأساقفة، أما مونسنيور فكان يتناول العشاء في دار المديرية. فسلم «چوليان» الخطاب إلى السيد دى ڤريلير على غير معرفة به. وقد عجب من جرأة هذا الرجل الذي فضّ خطاباً ليس له، وإنما هو لرئيس الأساقفة. وسرعان ما رأى هذا الوجه الجميل، وجه نائب الأسقف، تبدو عليه الدهشة التي يخالطها سرور شديد، ثم زاد عليه الوقار وتأمل «چوليان» جماله الباهر وهو يقرأ الخطاب، فذهل لشد ما يكون وجهه وقوراً، لولا هذه الكياسة الشديدة التي تظهر في بعض تقاطيعه، والتي تدل على الزيف لولا أن صاحبها يتعهدها في كل لحظة، كان أنفه ممتداً إلى الأمام على شكل خط مستقيم، والمنظر الجانبي لوجهه -لسوء الحظ- يشبه هيئة الثعلب شبهاً تاماً وإن فاض رقة وظرفاً. وعلى الجملة فقد

كان هذا القسيس، الذي شغل تماماً باستقالة السيد پيرار، يلبس ملابس أنيقة، أعجبت «چوليان» لأنه لم ير من قبل قساً في أناقته. ولم يعرف إلاّ أخيراً نوع عبقرية الأب ڤريلير: فهو رجل يتقن كيف يدخل السرور إلى قلب رئيس الأساقفة العجوز الطيب. وقد خلق ليعيش في باريس، ويعدّ الإقامة في بيزانسون كأنها منفى. ورئيس الأساقفة ضعيف البصر، ويحبّ أكل السمك حباً بالغاً، فكان على الأب ڤريلير أن ينزع عن السمك الذي يقدم لرئيسه كل شوك يضايقه.

نظر «چوليان» إلى القسيس في صمت وهو يقرأ استقالة پيرار مرة ثانية. وفتح الباب على مصراعيه بغتة في ضجة وجلبة. ومرّ خادم عليه ملابس أنيقة في سرعة كبيرة، والتفت «چوليان» نحو الباب فرأى عجوزاً قصير القامة على صدره صليب رئيس الأساقفة. فسجد وحيّاه الرئيس بابتسامة رقيقة: واستمرّ في مسيره. ثم تبعه القسيس الجميل، فظلّ «چوليان» وحده، وأتيحت له فرصة أن يرى ما يحتويه الصالون من روعة تقيّة أخّاذة.

ورئيس أساقفة بيزانسون رجل يشهد له بالذكاء، لم يؤثر فيه شقاء الهجرة كما أثّر في غيره كثيراً. في الخامسة والسبعين من عمره، لا يعبأ إطلاقاً بما يصيبه بعد عشرة أعوام. وسأل رئيس الأساقفة الأب ڤريلير:

– من ذلك التلميذ ذو النظرات الذكية الذي يخيل إليّ أني رأيته وأنا في طريقي؟ ألم أصدر من قبل أمراً بأن يكونوا في فراشهم في مثل هذه الساعة؟

– أقسم أنه تلميذ يقظ جداً، وهو يحمل إلينا مونسنيور نبأ عظيماً؛ لقد أتى باستقالة آخر واحد من أنصار ينسينيوس في أسقفيتك. وكأن الأب پيرار المتعنت فهم أخيراً سوء عاقبة الكلام. فضحك مونسنيور قائلا له:

– حسناً؛ عيّن مكانه رجلاً له مثل قيمة پيرار وكفايته. وسأدعوه لتناول العشاء غداً على مائدتي لتستطيع أن تعلم مقدار قيمته وكفايته.

وأراد نائب الأسقف أن يقول ما يوحي باختيار خلف للأب پيرار، وما فيه توجيه لمونسنيور، لكنّ الرئيس لم يكن مستعداً لسماع شيء، ولا متهيئاً للكلام عن الأعمال فقال:

– قبل أن يعود التلميذ إلى مدرسته ادخلوه لأسمع منه سبب استقالة ناظره، فالحقيقة دائماً في فم الأطفال. واستدعي «چوليان» للمثول بين يديه فقال في نفسه:

– سأقف بين يدي مفتشين ناقدين فاحصين. ولكنه أحس شجاعة كبيرة، ورأى وهو يدخل الغرفة خادمين، أكثر أناقة من السيد ڤالنو نفسه، يخلعان عن مونسنيور ثيابه. وقبل أن يطرق الرئيس موضوع الأب پيرار رأى لزاماً عليه أن يسأل «چوليان» عن دراسته فتكلم في العقائد قليلاً فأذهلته غزارة علم التلميذ.. وانتقل الحديث بعد ذلك إلى ڤرچيل

وهوراس وشيشيرون، فقال «چوليان» في نفسه:

هذه الأسماء هي التي ألصقت بي رقم ١٩٨، فماذا يضيرني الآن؟ إذن فلأجب في ذكاء. وقد نجح نجاحاً باهراً سرّ رئيس الأساقفة سروراً كبيراً، لأنه خبير بالآداب القديمة. وفي حفلة العشاء التى أقيمت في دار المديرية، ألقت فتاة معروفة قصيدة مادلين[1]. فأخذ الرئيس يتحدث عن الأدب حتى نسي الأب پيرار وكل ما يتعلق به. وأخذ يناقش التلميذ فيما إذا كان هوراس غنياً أو فقيراً. ثم ألقى الأسقف الأول بعض قطع من الشعر خانته فيها ذاكرته كثيراً، فتطوع «چوليان» بإلقائها كاملة في تواضع شديد. وقد عجب مونسنيور عجباً شديداً من أنه كان يلقي الشعر كما لو كان يتحدث؛ يلقى عشرين بيتاً أو ثلاثين بيتاً من الشعر اللاتيني، كأنه يتحدث عن شيء وقع في مدرسته. ثم تحدث بعد ذلك طويلاً عن ڤرچيل وشيشرون. وأخيراً أثنى عليه رئيس الأساقفة ثناء مستطاباً وقال:

– من العسير أن يدرس المرء خيراً مما درست.

– إن مدرستك، مونسنيور، تستطيع أن تقدم إليك سبعة وتسعين ومائة تلميذاً هم جميعاً خير مني، ويستحقون تقديرك أكثر مما أستحق.

– وكيف ذلك؟ ... سؤال ألقاه رئيس الأساقفة وهو في عجب من هذا الرقم.

– إني أعتمد على دليل رسمي فيما تشرفت بقوله لكم. فقد أجبت في الامتحان السنوي للمدرسة عن أسئلة تناولت المواد التي شرّفتني الآن بثنائكم عليّ، وكان ترتيبي في الامتحان ١٩٨.

فضحك مونسنيور ونظر إلى دى ڤريلير وصاح قائلاً:

– آه! إنه التلميذ الذي يعتزّ به القس پيرار. كان علينا أن نتوقع هذا، ولكنها حرب طريفة. ثم التفت إلى «چوليان» قائلاً:

– ألم يوقظوك من النوم ليرسلوك إلينا؟

– نعم، مونسنيور، لم أغادر المدرسة قبل الليلة إلا مرة واحدة في حياتي، يوم غادرتها ذاهباً إلى الكتدرائية، لمساعدة الأب شاسى برنار في تزيينها ليوم عيد الإله.

– حسناً، أهو أنت الذي أظهرت شجاعة نادرة حين حملت باقات الريش لتزين بها المظلة؟ هذا العمل يدخل الرعب في نفسي كل عام، لأنني أخشى أن يكلفنا وضعها في هذا المكان حياة رجل. أنت يا صديقي تبني لنفسك مستقبلاً سعيداً. وأنا لا أريد أن أهدم هذا المستقبل الرائع بأن أميتك جوعاً. ثم أصدر أمراً بإحضار «بسكويت» ونبيذ ملقا فأكل وشرب، وكذلك فعل الأب ڤريلير الذي يعرف عن رئيسه أنه يحب أن يرى الناس يطعمون وهم فرحون مسرورون.

---

(١) لامادلين: قصيدة للشاعر دلفين جيى، كان ينشدها في عدة صالونات. «المعرب».

كان رئيس الأساقفة سعيداً بسهرته المتعة، فتحدث عن تاريخ الكنيسة فرأى أن «چوليان» لا يعرف شيئاً عن هذه المادة. ثم تحدّث عن الحالة الخلقية في الامبراطورية الرومانية تحت حكم أباطرة عصر كونستنتين. كانت نهاية الوثنية مصحوبة بحالة من القلق والشك كتلك التي تضطرب لها النفوس الحزينة الملول في القرن التاسع عشر. وقد لحظ رئيس الأساقفة أن «چوليان» يجهل حتى اسم تاسيت. فأجاب «چوليان» في وداعة على دهشة مونسنيور بأن كتب هذا المؤلف ليست في مكتبة المدرسة. فقال الرئيس في مرح:

- إنّي مسرور كل السرور فقد أنقذتني من الحرج، لأني منذ عشر دقائق جادّ في البحث عن طريقة أعبّر لك بها عن شكري لهذه السهرة المتعة التي جعلتني أسعد بها على غير انتظار. ولم أكن أتوقع أن أجد في مدرستي تلميذاً عالماً لا يقلّ عن المتخصصين في ثقافتهم. أريد أن أعطيك مؤلفات تاسيت، وإن كانت هدية غير كنسيّة.

وأمر فأحضرت ثمانية مجلدات حسنة التجليد، وأراد أن يكتب بنفسه عند عنوان المجلد الأول منها الإهداء لچوليان سورل باللغة اللاتينية التي يحبها، لكنه عاد فقال لچوليان بلهجة جادة رزينة، تخالف لهجته في الحديث الذي دار بينهما:

- أصغ إليها أيها الشاب، إن كنت عاقلاً فستحصل يوماً على أحسن خورية في أبرشيتي، وليست بعيدة كثيراً عن قصر الأسقفية، ولكن يجب أن تكون عاقلاً.

ثم غادر «چوليان» دار الأسقفية في منتصف الليل حاملاً كتبه، مذهولا كل الذهول، ولم يقل له مونسنيور كلمة عن الأب پيرار. وقد أعجب كثيراً بأدب الأساقفة لأنه لم يكن يتوقع أن يعامل بمثل هذا التمدن الذي تحليه تقوى طبيعية. وأحس الفرق بين الرجلين واضحاً، حين وقع بصره على الأب پيرار، الرجل العنيف الذي ينتظره في قلق وصبر نافد، والذي صاح حين رآه من بعيد قائلاً باللاتينية:

- ماذا وراءك؛ فاضطرب قليلاً وهو يترجم حديث رئيس الأساقفة إلى اللغة اللاتينية، فقال له المدير السابق بلهجته القاسية وطرائفه الخالية من الوداعة.

- تكلم بالفرنسية وقل ما قاله مونسنيور دون تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان.

ثم أخذ يقلب بين يديه المجلدات الفخمة التي أهديت إلى «چوليان»، حتى لكأن الخط الذهبي قد بعث في نفسه اشمئزازاً كبيراً، ثم قال:

- يا لها من هدية غريبة يقدّمها رئيس الأساقفة إلى تلميذ شاب في المدرسة الأكليريكية! ودقت الساعة الثانية صباحاً فأذن لچوليان بالذهاب إلى غرفته، بعد أن شرح له هذا التلميذ العزيز كل ما دار في إطناب كبير، وقال له:

- اترك لي الجزء الأول من تاسيت الذي كتب لك مونسنيور عليه ما مدحك به، فإن هذا السطر الذي كتب باللاتينية سيكون لك في هذا المكان، كأنه مانعة الصواعق بعد أن

أرحل، لأن خلفي يا بنيّ أسداً يحاول افتراسك.

وأصبح الصباح فأحس «چوليان» أن أصدقاءه يتحدثون إليه بطريقة غريبة، فأخذ حذره، وقال في نفسه: هذه نتيجة استقالة الأب پيرار. وصل نبأ تخليه عن العمل إلى كل من في المدرسة وهم جميعاً يعلمون أني الأثير عنده. وكانت طرقهم ولا ريب تنطوي على الاحتقار، ولكنه لم يكن سافراً. كان لا يجد في النظرات الموجهة إليه بغضاً حين قابل زملاءه في غرف النوم، فسائل نفسه: علام يدلّ هذا؟ إنه لشرك منصوب، فلأحذر. وأخيراً تحدث إليه هذا الطالب الصغير الذي جاء من ڤريير قائلاً: جميع مؤلفات تاسيت.

وسمع أصدقاؤه هذه العبارة فهنئوه لا على تلك الهدية الفخمة التي قدّمها مونسينور فقط، بل على ذلك الشرف الذي حظى به كذلك حين تحدّث مع الرئيس ساعتين. كانوا يعرفون كل ما دار حتى أدقّ التفاصيل. ومنذ هذه اللحظة، زهد في كل ما يحيط به، لأنهم تملقوه جميعاً في حقارة: فالقسيس كاستانيد الذي أظهر له بالأمس سفاهة لا حدّ لها، أتى وأمسك بذراعه، ثم دعاه لتناول الغداء معه. وخلق «چوليان» لا يقبل إطلاقاً سفالة هؤلاء القوم، الذين فطروا على الضعة حتى آذاه مديحهم. أما ضعتهم في تؤلمه ولا تسرّه.

غادر الأب پيرار تلاميذه عند الظهر، ولم يشأ أن يتركهم دون أن يلقى عليهم خطاباً قاسياً، وقال:

«هل تريدون ملاذّ الدنيا وزينتها؟ وتطمعون في المزايا الاجتماعية وفي لذة الحكم، والعبث بالقوانين والرغبة في أن تكونوا سفهاء مع الناس؟ أم تريدون الراحة الأبدية الدائمة؟ إن أقلكم علماً وذكاء وهداية، ليس لهم إلا أن يفتحوا عيونهم ليروا أي الطريقين خيراً وأهدى سبيلاً».

ثم غادرهم، فذهب الأتقياء من أتباع قلب المسيح المقدس إلى كنيسة المدرسة، يقدمون الشكر إلى الله. على أن الجميع لم يأخذوا خطاب مديرهم السابق مأخذ الجد. وكان «چوليان» يسمع في كل جانب في جوانب المدرسة أن المدير السابق مغيظ لعزله، ولم يرزق أي واحد منهم لوناً من ألوان البساطة يملي عليه أن الأب پيرار قد استقال من تلقاء نفسه. فهم لا يؤمنون بأن الإنسان يترك بمحض إرادته مثل هذا المنصب، الذي يجعله على صلة دائمة بكبار المتعهدين.

أقام الأب پيرار في أحسن فنادق بيزانسون، محتجاً بأن لديه أعمالاً تتطلب منه أن يقيم به يومين، وإن لم يكن له عمل في بيزانسون. وكان رئيس الأساقفة قد دعاه ليتناول معه العشاء، وأراد أن يغيظ نائبه الأب ڤريلير، فأتاح لپيرار فرصة يظهر فيها ذكاءه وعلمه. ثم جعلوا يتناولون الحلوى، فجاءهم من پاريس نبأ غريب، هو أنّ الأب پيرار عيّن في الخورية الجميلة، خورية .... التي لا تبعد عن العاصمة إلا بأربعة فراسخ. هنأه رئيس الأساقفة في إخلاص، لأنه رأى حسن التدبير في هذا الأمر، فسرّ سروراً عظيماً، وقدر مواهب الأب پيرار حق قدرها، ثم كتب الرئيس له باللاتينية شهادة قيمة، وأسكت الأب

ڤريلير حين سمح لنفسه بأن يثني الرئيس عن عزمه.

ثم أظهر رئيس الأساقفة في المساء إعجابه الشديد بالأب پيرار عند المركيزة دى روبمپرى، وكانت استقالة ناظر المدرسة وتعيينه في تلك الخورية الجميلة، حديث الطبقة الراقية في بيزانسون كلها. وكانوا يتوقعون أن يعين الأب پيرار رئيساً للأساقفة بعد قليل. وأكثر الناس فطنة يعتقدون أن «المركيز دى لامول» سيعيّن وزيراً عما قريب. وسمحوا لنفسهم في ذلك اليوم أن يسخروا من الطريقة التي تنطوي على السيطرة والعظمة، طريقة الأب ڤريلير التي يظهر بها أمام الناس.

وفي صباح اليوم التالي، سار خلف الأب پيرار في الشوارع جمع غفير، وخرج التجار إلى أبواب حوانيتهم وهو يمرّ بهم في طريقه إلى قضاة المركيز، يسعى لديهم في شأن القضية. ولأول مرة استقبل استقبالاً حسناً. غضب هذا الرجل الصارم غضباً شديداً لما رأى، وأخذ يعمل في نشاط وجدّ مع المحامين الذين اختارهم بنفسه للدفاع عن «المركيز دى لامول»، ثم غادر بيزانسون إلى پاريس. وقد أفضى إلى اثنين أو ثلاثة من أصدقائه الذين جاءوا ليودعوه قبل رحيله: بأنه ظل ناظراً للمدرسة خمسة عشر عاماً، ومع هذا لم يقتصد إلا عشرين وخمسمائة من الفرنكات. وبهت الأصدقاء من روعة العربة التي يسافر فيها وزينتها وبهجتها، ثم قبّلوه والدموع تتساقط من عيونهم، لكنهم تحدثوا فيما بينهم قائلين: ما كان أغنى هذا القسّ الطيب عن أن يكذب، لقد كان مدعاة للسخرية.

هؤلاء الأدنياء الذين أعماهم حب المال، لم يكن فى مقدورهم أن يفهموا أن إخلاص الأب پيرار هو الذي أمدّه بقوة يقف بها ستة أعوام في وجه مارى ألاكوك، وقلب المسيح المقدس، واليسوعيين ورئيس الأساقفة.

الفصل الثلاثون

طموح

لم يعد في طبقة الأشراف إلا لقب الدوق، أما لقب
المركيز فإنه يدعو إلى السخرية، ولكن الناس
يتلفتون دائماً إذا ما سمعوا لقب الدوق.
أدينبورج ريفيو

استقبل «المركيز دى لامول» الأب پيرار استقبالاً ليس فيه شيء من تلك الطرائق التافهة التي يتقنها كبار الأشراف؛ وهي وإن كانت مؤدبة جداً، لكن فيها سفاهة شديدة يحسها من يدركها.

كان «المركيز» لا يحب إطلاقاً أن يضيع وقته هباء، لأنه في ذلك الوقت كان مشغولاً بأعمال كبيرة. وهو يبذل جهداً جباراً منذ ستة أشهر ليقنع الملك بتشكيل حكومة يقبلها هو وترضى عنها الأمة، وستمنحه هذه الحكومة لقب دوق اعترافاً بفضله.

وكان «المركيز» يطلب عبثاً من محاميه في بيزانسون من زمن طويل أن يوافيه بعمل واضح عن سير قاضاياه المتعلقة بفرانش كونتيه. ولكن كيف السبيل إلى ذلك؟ إنه طلب شاق مادام هذا المحامي الكبير لا يفهم شيئاً من هذه القضايا، وليس له دراية بها، ولكن الورقة المربعة التي أعطاها الأب پيرار للمركيز أوضحت له كل شيء. قال له «المركيز» بعد أن انتهى من عبارات المجاملة والمسائل الشخصية في أقل من خمس دقائق:

- أيها القس العزيز، إنني بين هذا الرخاء والسعادة ينقصني الوقت لأعنى بشيئين صغيرين لكنهما هامان مع ذلك. وهذان الشيئان هما أسرتي وأعمالي. أنا معنّي بثروة أسرتي جملة، وفي مقدوري أن أزيد هذه الثروة كثيراً ولكني مقبل على ملذاتي، ويخيل إليّ أن هذا أهم شيء في نظري! قال هذا وهو ينظر في عيني القس پيرار فرأى الدهشة تبدو فيهما، والقس رجل عاقل يدرك الأشياء على حقيقتها، ومع هذا فقد عجب من أن يرى شيخاً يتحدّث عن لذاته في مثل هذه الصراحة.

واستطرد المركيز يقول: مما لا ريب فيه أن العمل يوجد في پاريس ولكن لا يقوم به إلا ساكنو الأدوار العليا؛ ولكني لا أكاد أقرب رجلاً حتى يستأجر مسكناً في الدور الثاني ويعيّن زوجته يوماً للاستقبال؛ ثم لا يلبث أن يعرض عن العمل، ولا يبذل فيه من الجهد إلا بمقدار ما يجعله رجلاً عصرياً أو يظهره كذلك. وهذا هو أهم ما يشغلهم بعد أن يحصلوا على خبز يعيشون به.

وإذا ذكرت لك قضاياي فإن لكل قضية محامين يموتون، قد مات أمس الأول أحدهم

بمرض صدري. أتتصور أنني يا سيدي يئست منذ ثلاثة أعوام من أن أجد رجلاً يفكر جيداً إذا ما كتب إليّ! وعلى كلّ فكلامي هذا مقدمة لما أعرضه عليك.

أنا أجلك! وأستطيع أن أقول إني أحبك، وإن كانت هذه أول مرة أراك فيها. فهل تقبل أن تكون سكرتيري بثمانية آلاف فرنك أو بضعفها إذا شئت؟ وسأكسب كثيراً من وراء ذلك وأقسم لك على ذلك؛ وسأعمل جهدي على أن أحتفظ لك بخوريتك الجميلة التي تعمل فيها يوم ألاّ نتفق معاً في العمل.

ولكن الأب پيرار رفض ما عرضه المركيز ووجد نفسه محرجاً فى نهاية الحديث فاهتدى إلى رأى أفضى به إلى محدثه:

– لقد تركت في مدرستي شاباً فقيراً يخيل إليّ أنه سيضطهد كثيراً، ولولا أنه لا يزال طالباً دينياً بسيطاً لألقى به في سجون الرهبان. هذا الشاب لا يعرف حتى الآن إلاّ اللاتينية والكتابة المقدسة؛ وإن كنت لا أستبعد أن تظهر مواهبه بعد ذلك، فيكون واعظاً ماهراً أو ذا أثر بالغ في نفوس الناس. وأنا أجهل ما يريد أن يعمله، ولكنه خلق ليكون من رجال الدين، وسيكون له بينهم شأن. وكنت أريد أن أوصي به رئيس أساقفتنا، لو أننا رزقنا رئيساً وهب بعض ما وهبت أنت من معرفة الرجال والحكم على الأشياء.

– ومن أين هذا الشاب؟

– يقال إنه ابن نجار من سكان جبالنا، ولكني أعتقد أنه ابن طبيعي لرجل غني. رأيته يتسلم خطاباً مجهولاً أو كالمجهول فيه حوالة بمبلغ خمسمائة فرنك.

– آه! أنت تتحدث إذن عن «چوليان سورل».

فذهل الأب پيرار وسأل المركيز:

– ومن أنبأك باسمه؟ ثم خجل من سؤاله، فقال المركيز:

– لا أريد أن أجيبك عن هذا السؤال.

– حسناً! في استطاعتك أن تسند إليه عمل سكرتيرك، فهو نشيط، عاقل، وعلى الجملة فهي تجربة يحسن ألاّ نغفلها.

– ولم لا؟ ولكن أهو شخص قد يغريه حاكم المقاطعة بشيء أو يغريه شخص آخر فيكون جاسوساً في منزلي؟ هذا هو كلّ ما قد أعترض به.

فأكد الأب للمركيز أن «چوليان» أمين، وأثنى عليه كثيراً. فأخرج المركيز ورقة بألف فرنك وقال: أرسل هذا إلى «چوليان سورل» لنفقات الرحلة وأت به إليّ.

– أرى أنك تعيش حقاً في پاريس. فأنت لا تعلم مقدار الظلم الذي يقع علينا معاشر الريفيين المساكن، وبخاصة على القسس الذين ليسوا أصدقاء لليسوعيين، فإنه قد لا يسمح لچوليان سورل بالرحيل؛ وقد يتذرعون بأمهر الحيل في ذلك، فيزعمون أنه

مريض أو أنّ الخطاب فُقد في البريد أو بغير ذلك من الأسباب.

- سأطلب من الوزير أن يكتب إلى رئيس الأساقفة.

- نسيت أن أخبرك باتخاذ احتياط جديد: هذا الشاب كبير النفس وإن كان غير عريق النسب، فليس من المصلحة أن نجرح كبرياءه ؛ وإلاّ انقلب أحمق.

- هذا خلق يعجبني، سأجعله صديقاً لابني، فهل يكفي هذا ؟

ومضت أيام تسلّم بعدها «چوليان» خطاباً لا يعرف خط كاتبه، وعليه طابع شالون، وفضّه فإذا بداخله حوالة على تاجر في بيزانسون وأمر بالسفر فوراً إلى باريس. وهو موقع عليه باسم مستعار، واستولت على «چوليان» قشعريرة شديدة وهو يفض الخطاب؛ لأن ورقة من أوراق الشجر سقطت منه عند قدميه؛ وهى العلامة المتفق عليها بينه وبين الأب پيرار.

وبعد ساعة واحدة، استُدعي «چوليان» إلى دار الأسقفية حيث استقبل في طيبة كبيرة، وأخذ مونسنيور يتلو شعر هوراس ويهنيء «چوليان» بالمستقبل الباهر الذي ينتظره في باريس ويثني عليه ثناء عظيماً ؛ وكان يتوقع أن يشكره «چوليان» ويخبره بما سيقوم به من عمل في پاريس. لكنه لم يقل شيئاً؛ لأنه لم يكن يعرف شيئاً عما سيعمل، فزاد احترام مونسنيور له. وكتب أحد صغار قساوسة الأسقفية للعمدة الذي أسرع فأحضر جوازاً بنفسه، موقعاً عليه، وترك اسم المسافر على بياض.

وقبل منتصف الليل من اليوم نفسه، كان «چوليان» في منزل صديقه فوكيه الذي عجب أكثر مما سرّ من مستقبل ينتظر صديقه؛ وقال له هذا الناخب الحر:

- سيؤدّي هذا بك إلى منصب حكومي، يضطرك إلى ارتكاب أمور تكون مجالاً لسخرية الصحف. وسأعرف أخبارك من الفضائح التي ستذاع عنك. وإذا واجهنا المسألة من الناحية المادية، فتذكر أنه خير لك أن تربح مائة لويس من تجارة الأخشاب، وأنت سيد نفسك، من أن تربح أربعة آلاف فرنك من حكومة، حتى لو كانت حكومة سليمان.

ولم ير «چوليان» في كل ما سمعه من صديقه إلاّ قصر نظر برجوازي ريفي ؛ فقد أتيحت لبطلنا الفرصة في أن يظهر على مسرح الحوادث الجسيمة. وكانت سعادته بالذهاب إلى پاريس قد حجبت كل شيء عن ناظره، پاريس التي تصورها آهلة بالأذكياء الماكرين المنافقين المؤدبين في وقت واحد، كمثل رئيس أساقفة بيزانسون أو رئيس أساقفة آجد. وقد رأى صديقه أن خطاب الكاهن پيرار قد أفقده حرية التصرف.

وحلّ ظهر اليوم التالي فهبط ڤرييز كأسعد رجل في الوجود لأنه أمّل أن يرى «مدام دى رينال». وذهب أولاً إلى حاميه الأول الأب شيلان. فاستقبله في قسوة حتى لم يردّ عليه التحية وقال:

- أتعتقد أنك مدين لي بشيء؟ ستتناول طعام الغداء معي، وفي أثناء ذلك سنؤجر

لك حصاناً آخر فتغادر ڤريير دون أن ترى أحداً. فأجابه «چوليان» في تواضع التلاميذ:
– سمعاً وطاعة. ولم يتناول الحديث سوى اللاهوت واللاتينية الجميلة.

ثم ركب جواداً وسار فرسخاً حتى رأى غابة فدخلها دون أن يراه أحد، وأوغل في السير خلالها. وغربت الشمس، فترك الحصان، ودخل منزل فلاح، واتفق معه على أن يبيعه سلماً ويحمله له حتى تلك الغابة الصغيرة، المطلة على منتزه الإخلاص في ڤريير. وقال الفلاح وهو يغادره:

– إنني أتبع فاراً مسكيناً من الجندية ... أو مهرباً، ولكن ماذا يعنيني ما دمت أخذت ثمناً حسناً لسلمي؟ على أنني قد ارتكبت في حياتي مثل هذه الأعمال.

كان الليل حالك الظلمة. وحين دقت الساعة الأولى بعد منتصف الليل، حمل «چوليان» سلمه داخلاً ڤريير. وأسرع فنزل في مجرى السيل الذي يعبر حدائق «السيد دى رينال» الغنّاء، والذي يبلغ عمقه عشر أقدام ماراً بين جدارين .. ثم تسلّق السلم صاعداً بكل سهولة، وهو يسائل نفسه: أي لقاء ستلقاني به كلاب الحراسة؟ وهذا هو كل ما يشغله. ونبحته الكلاب مسرعة إليه، فصفّر لها برفق وخفوت فأقبلت تداعبه. واجتاز الحديقة متنقلاً من رصيف إلى آخر، على الرغم من أن الأسوار كلها كانت مغلقة حتى وصل في سهولة تحت نافذة الغرفة التي تنام فيها «مدام دى رينال»، والتي لا يزيد ارتفاعها عن الأرض من ناحية الحديقة عن عشرة أقدام.

كانت في مصاريع النوافذ فتحة على شكل قلب، يعرفها «چوليان» حق المعرفة. وكم حزن حين رأى هذه الفتحة لا ينبعث منها ضوء، لأن في الحجرة مصباحاً صغيراً يظل عادة يضيؤها طول الليل.

فقال في نفسه: يا إلهي! إن هذه الغرفة لا تشغلها الليلة «مدام دى رينال»! فأين إذاً تنام؟ الأسرة في ڤريير ما في ذلك شك ما دامت الكلاب هنا. أيّ فضيحة تكون إن لقيت في هذه الغرفة المظلمة «السيد دى رينال» نفسه أو شخصاً غريباً آخر؟

وأشار عليه الحرص بأن يرجع لكنه أنف واستكبر. وقال محدثاً نفسه. إن وجدت فيها غريباً فررت مسرعاً وتركت السلم ؛ وإن وجدتها هي فيها فأي لقاء ينتظرني؟ وأنا أعلم أنها الآن تابت توبة صادقة، وأصبحت تقية صالحة. لكنها ما زالت تذكرني وإلاّ ما أرسلت إليّ خطاباً. وأقنعته هذه الحجة فمضى فيما عزم. كان خائفاً وعازماً على أن يلقاها أو يموت، فشرع يقذف خشب النافذة بحصىً صغير، ولكن ما من مجيب! فأسند سلّمه إلى جانب النافذة وطرقها خفيفاً أول الأمر، ثم طرقها بعنف بعد ذلك. وأخذ يقول: قد يصيبني مقذوف ناري وإن كان الظلام حالكاً وما لبثت هذه الفكرة أن حولّت المشروع الجنوني إلى مسألة شجاعة فقال: إما أن تكون هذه الغرفة خالية الليلة، وإما أن يكون من فيها قد استيقظ الآن. إذن فلا ينبغى أن أبالي، ولكني ينبغي أن أتخذ الحيطة حتى لا يسمعني النيام في الغرف الأخرى.

ونزل فأسند سلمه إلى مصراع وصعد مرة ثانية، وأدخل يده في الفتحة التي على هيئة القلب، فعثر سريعاً على السلك الحديدى المعلق بالمزلاج فجذبه؛ ولشدّ ما فرح حين شعر أن المصراع قد انفتح حين دفعه بيده. فكان عليه إذن أن يفتحه قليلاً قليلاً وأن يتحدث في هدوء ليعرف صوته، ففتحه بمقدار ما يدخل رأسه وأخذ يقول بصوت هامس: إنه صديق!

وأنصت في انتباه شديد فرأى السكون لا يزال مطبقاً. وتبيّن أخيراً أنّ المصباح الصغير لا وجود له على المدفأة ولا كان نصف مضيء، وهذه علامة لا تطمئن كثيراً.

حذار من المقذوف الناري! وفكّر قليلاً ثم جرؤ على أن يدقّ زجاج النافذة بأصبعه: ليس هناك من مجيب؛ فدقّ دقاً أقلّ ليناً وهوادة، وقال: يجب أن أنتهي من هذا الموقف الشائك ولو كلّفني كسر الزجاج. ثم خيّل إليه وهو يدقّ دقاً عنيفاً أنه يرى شبحاً في الغرفة وإن كان الظلام حالكاً وتأكد بعد قليل، أن شبحاً يتقدم إلى النافذة في بطء شديد. ثم رأى خداً يوضع فوق الزجاج الذي يحدّق بطلنا من ورائه.

فارتعد وابتعد قليلا لأن الظلمة الحالكة لم تمكنه من أن يميز من يرى وإن كانت المسافة قريبة: أهي «مدام دى رينال»؟ وخشى أول صيحة من صيحات الاستغاثة؛ وسمع الكلاب تمر بجوار السلم مزمجرة فقال في صوت يكاد يكون مسموعاً: إنه أنا، إنه صديق. لكنه لم يسمع جواباً واختفى الشبح الأبيض. فاستطرد يقول: تكرمي وافتحي لي، لابدّ من أن أتحدث إليك لأنني بائس جداً! ودقّ من جديد في عنف حتى كاد الزجاج ينكسر. فسمع صرّة خافتة خشنة فتحت بعدها حديدة النافذة، فدفع الزجاج وقفز في الغرفة بخفة وسرعة.

ابتعد عنه الشبح الأبيض فأمسك «چوليان» بذراعه فإذا به ذراع امرأة. وفى هذه اللحظة زايلته آراؤه في الشجاعة؛ وأخذ يسائل نفسه: إذا كانت هي فماذا تقول لي يا ترى؟ ولا تسل عنه حين سمع صيحة خافتة عرف منها أنها هي بعينها، إنها «مدام دى رينال»! فاحتضنها بقوة، فارتعشت بين ذراعيه، محاولة التخلص وإن كانت قوتها لا تسعفها.

- لك الويل! ماذا تفعل؟

كان صوتها مضطرب النبرات، فخرجت الكلمات بعسر شديد، وأحسّ «چوليان» أن فيها سخطاً حقيقياً شديداً.

- أتيت لأراك بعد الفراق الأليم الذي ظلّ أربعة عشر شهراً.

- أخرج، انصرف عني حالاً. آه! لم لم تتركني أكتب إليه أيها الأب شيلان؟ لقد كنت أتوقع أن تحدث هذه القبائح. ثم دفعته بقوة كانت حقاً خارقة للعادة، صائحة في صوت متهدج. لقد استغفرت الله من آثامي: وقد قبل الله توبتي. فاخرج! ودعني!

- بعد أربعة عشر شهراً قضيتها في شقاء، لن أنصرف قطعاً قبل أن أتحدث إليك.

أريد أن أعرف كل ما فعلته. آه! لقد أحببتك حباً يجعلني جديراً بثقتك ... أريد أن أعرف كل شيء.

وأثرت في قلب «مدام دى رينال» هذه اللهجة المسيطرة دون أن تحسّ. وكان «چوليان» لا يزال يحتضنها في شغف وقد لفّ ذراعيه حولها حتى لا تفلت منه، وإن كانت هي تحاول ذلك. ثم خفف من ضمه إياها، فاطمأنت قليلاً، وعاد هو يقول:

– سأرفع السلم حتى لا تحوم حولنا الشبهات ؛ إذا كان هناك خادم قد استيقظ على الضوضاء فقام بجولة. فقالت في غضب حقيقي:

– آه! اخرج، اخرج بدلاً من أن ترفع السلم. وماذا يعنيني من الرجال؟ إنّ الله هو الذي يطّلع على هذا العمل الأثيم الذي تتخذه إزائي، وسيعاقبني عليه. أنت تستغل العواطف التي ملكت عليّ نفسي فيما مضى استغلالاً دنيئاً، ولكنها قد انقضت الآن. فهل تسمع ما أقول يا «سيد چوليان»؟

رفع السلم في هدوء حتى لا تحدث جلبة وسألها لا ليشجعها، ولكنها عادته من قبل:

– هل زوجك في المدينة؟

– أرجو ألا تتحدّث إليّ هكذا وإلاّ استدعيت زوجي. لقد اقترفت إثماً كبيراً بأني لم أطردك في الحال مهما تكن العواقب. ثم حاولت أن تجرح كبرياءه التي تعلم حق العلم أنها حساسة، فاستطردت تقول:

– لقد أشفقت عليك.

ولم تشأ أن تخاطبه بضمير المفرد، فأثرّ هذا في نفسه كما أثرت فيه الطريقة الخشنة في قطع علاقة محببة إلى قلبه يودّ هو أن تظل قائمة، فزاد حبه زيادة عنيفة حتى كانت أشبه شيء بالهذيان. فقال في حب محتدم، صادق، من العسير ألاّ يتأثر به من يسمعه:

– ماذا! أيمكن أن يكون حبك قد انتهى تماماً!

ولما لم ترد عليه استرسل يبكي بكاء حزيناً. وكانت قواه قد وهنت حقاً فلم يعد يستطيع الكلام.

– وهكذا نسيني تماماً الشخص الوحيد الذي أحبني في هذا الوجود! فلم أعيش بعد ذلك؟

وزايلته شجاعته بعد أن اطمأن إلى أنه لن يلقى في الغرفة رجلاً، واستبعد من ذهنه هذا الخطر، وتولّى عن قلبه كلّ شيء إلاّ الحب.

وظلّ صامتاً طويلاً وهو يبكي، ثم أخذ يدها فأرادت أن تستردّها منه، ثم تركتها بين يديه بعد أن صدرت منها حركات مضطربة. وكان الظلام حالكاً، وهما جالسان معاً على سريرها. وتذكر «چوليان» ما كان بينهما فقال في نفسه: ما أعظم الفرق بين حالينا منذ أربعة عشر شهراً، وبين ما ألقاه الآن منها! وسالت دموعه غزيرة وقال: إن البعد يميت حقاً

كلّ عواطف الرجل! ثم قال لها وهو مضطرب من طول صمته، والعبارات تقطعها العبرات:

– اسمحي واذكري لي ما حدث لك. فأجابته في صوت قاس ولهجة تنمّ عن جفاء وعتاب:

– لاشكّ أن آثامي عُرفت في المدينة كلّها منذ رحيلك. فقد كنت أحمق غير محتاط في كل ما فعلت! وبعد ذلك بزمن أتى هذا القسّ المبجل الأب شيلان ليراني، وأنا إذ ذاك فريسة ليأس شديد. وحاول عبثاً أن ينال منّي اعترافاً. ثم بدا له مرة أن يقتادني إلى كنيسة ديجون حيث أعطيت المقاولة الأولى. وجرؤ هناك على أن يبدأ هو الحديث ... ثم سالت عبراتها، واستطردت بعد قليل تقول: أيّ خزي أصابني في تلك اللحظة! لقد اعترفت له بكل شيء. ولم يشأ هذا الرجل الطيب أن يزيدني ألماً على ألم، فلم يحتقرني، بل شاركني الأحزان والآلام. وكنت في ذلك الوقت أكتب إليك كل يوم خطابات، لم أجرؤ على إرسالها وأخفيها بعناية تامة. وحينما كنت أشعر بأني فريسة لآلام شديدة، أدخل غرفتي وأغلق بابها وأعيد قراءة ما كتبت من خطابات.

وأخيراً استطاع الأب شيلان أن يأخذها مني ... وقد أرسلت إليك منها ما كان ينطوي على الحذر؛ إلا أني لم أتلق منك رداً.

– مطلقاً، وأقسم لك أنني لم أتسلم أية رسالة وأنا في المدرسة الإكليريكية.

– يا إلهي! فمن ذا الذي حجزها عنك؟

– تصوّري مقدار ألمي قبل ذلك اليوم الذي رأيتك فيه في الكتدرائية، إذ لم أكن أعرف أنك لا زلت على قيد الحياة.

– لقد أنار الله بصيرتي ؛ فعرفت جسامة الأوزار التي ارتكبتها في حقه، وفي حق أبنائي وزوجي. إنه لم يحببني بمقدار ما أحببتني أنت كما كنت أعتقد في ذلك الحين ...

فارتمى «جوليان» بين أحضانها على غير وعي، فدفعته واستطردت تقول في حزم:

– قال لي الأب شيلان إنني إذ تزوجت بالسيد دى رينال فقد وهبته عواطفي كلها، حتى تلك التي لم أكن أعرفها إلاّ بعد هذه العلاقة التي قُدّر أن تقوم بيني وبينك ... ومنذ أن ضحيت بالخطابات التي كانت جدّ عزيزة عليّ، أصبحت حياتي مطمئنة إن لم تكن سعيدة. فلا تدخل عليها الاضطراب من جديد، كن صديقي ... كن خير صديق. فأخذ «جوليان» يقبل يديها بحرارة، وأحست أنه مازال يبكي. فقالت:

– لا تبك أكثر مما بكيت، لأنك تؤلمني كثيراً .. أخبرني بدورك عما فعلته. فلم يستطع الكلام. فقالت:

– أريد أن أعرف كيف كنت تحيا في المدرسة، ثم تنصرف بعد هذا.

فتكلم دون أن يفكر فيما يقول، وقصّ عليها الدسائس الكثيرة والغيرة والحسد، وجميع ما كان يلقاه أول الأمر من متاعب. ثم حدثها عن الحياة الهادئة المطمئنة منذ أن

عين معيداً. واستطرد يقول:

- وبعد أن طال صمتك، هذا الذي كنت ترمين من ورائه إلى أن تفهميني ما أراه الآن منك في وضوح وجلاء، وهو أنك قد نسيت حبي!! فضغطت على يده ... نعم وبعد أن طال صمتك، أرسلت إليّ مبلغ خمسمائة فرنك!

- لم أرسل إليك شيئاً !

- إنه خطاب عليه طابع باريس ووقع عليه من سمى نفسه پول سورل لينفي الشبهات.

ثم دارت مناقشة صغيرة على أصل هذا الخطاب، ومن ذا يكون مرسله. وتغيرّ الوضع بينهما. وعلى غير وعي منهما، لم يعودا يتحدثان باللهجة المتكلفة، وأخذ حديثهما يصطبغ بصبغة الصداقة الرقيقة. وكان كل منهما لا يرى الآخر لأن الظلام حالك. ولكن نبرات الصوت كانت تعبّر عن كل شيء. ومدّ «چوليان» ذراعه حول خصر صديقته، وهى حركة لها خطرها. فحاولت أن تبعد ذراعه، لكنه استطاع بمهارته أن يلفت انتباهها في هذه اللحظة إلى حادثة هامة في قصته، فأنسيت ذراعه حتى ظلت تطوق خصرها.

وتناول موضوع الخطاب ذي خمسمائة الفرنك وتناقشا في مصدره، ثم عاد «چوليان» يقص قصصه من جديد. وكان قد أصبح مسيطراً على نفسه أكثر من قبل حين تحدث عن حياته الماضية التي شغل عنها بما هو فيه الآن، ولم يعد يهتم بها كثيراً. وانحصر انتباهه في معرفة ما تنتهي إليه زيارته لصديقته. وكانت تقول له بين آن وآخر بلهجة موجزة:

- ألا تغادرني؟ ألا تخرج من هنا؟

فقال في نفسه: لو تخلصت مني الآن فسيكون ذلك خزياً كبيراً، يقلق حياتي دائماً ويقضي على راحتي، ولن تكتب إليّ أبداً لو تخلصت مني على هذه الصورة. ويعلم الله متى أعود ثانياً إلى هذا الإقليم!

ومنذ هذه اللحظة، اختفت من قلب «چوليان» صفات الفضل وهو في موقفه هذا. كان يجلس إلى جوار امرأة يعبدها، وهو يضمها بين ذراعيه في غرفة طالما سعد فيها، في مثل هذا الظلام الحالك. وكان قد شعر منذ لحظة أنها تبكي وأحس بكاءها من حركات صدرها، فعمد إلى سياسة فاترة، كتلك التي يتبعها مع الطلاب حين يتعرض لسخرية أحد الأصدقاء وهو في فناء المدرسة. فأطنب في الحديث عن حياته، وعمّا لقيه من شدة وبؤس منذ غادر ڤريير. فقالت في نفسها: لقد رحل عني منذ عام ولم يصله مني ما يذكره بي، لكنه لا يزال يذكر تلك الأيام السعيدة التي قضيناها في ڤرجى معاً. أمّا أنا فقد نسيته.

واشتدّ بكاؤها، ورأى «چوليان» أثر قصته في نفسها ونجاحه في سياسته، وأدرك أنّ عليه محاولة أخرى تكون فصل الختام، فذكر بغتة الذي أرسل إليه من پاريس أخيراً وقال:

- لقد استأذنت مونسنيور رئيس الأساقفة.

- ماذا تقول! ألا تعود إلى بيزانسون؟ أهو فراق إلى الأبد؟

فأجاب في حزم وثبات.

- نعم، سأرحل عن بلد نسيني أهله، ونسيتني تلك التي أحببتها حباً لم أعرف مثله طول حياتي، سأرحل عنه إلى غير رجعة. سأذهب إلى باريس. فصاحت بصوت مرتفع:

- أذاهب أنت إلى باريس! وخنقتها العبرات، ودلت نبراتها على ما تلقاه من عذاب أليم.

وقد كان «چوليان» في حاجة إلى التشجيع منها، وكان عليه أن يقدم على عمل قد لا يكون في مصلحته إطلاقاً، على أنه قبل أن تبدر منها هذه الصيحة، لم يكن يعرف مقدار أثر قصته في نفسها. عزم على ألا يتردّد بعد ذلك؛ وكان خوفه من لوم نفسه قد جعله مسيطراً عليها سيطرة تامة فنهض من مكانه وقال لها في فتور:

- نعم يا سيدتي، سأتركك إلى الأبد، فكوني سعيدة، وداعاً!!

وسار نحو النافذة ثم فتحها، فأسرعت إليه وارتمت بين أحضانه.

وبهذا نال ما كان يتمناه في شغف عظيم خلال الساعتين الأوليين من حديثهما الذي استمرّ ثلاث ساعات. وسرعان ما عادا إلى حديثهما القديم، حديث العواطف الرقيقة؛ واختفت وساوس «مدام دى رينال» بما أبداه من مهارة وفن، فاستمتعا بالوصال في لذة وسرور. وصمم چوليان على أن يوقد المصباح، على الرغم من إلحاح صديقته في ألا يفعل. فقال:

- أتريدين ألا يبقى في ذاكرتي أثر من لقائك؟ أتحبّين ألاّ أرى ما ينبعث من عينيك الجميلتين من حب ومودّة على أن أرى بياض هذه اليد الجميلة؟ تذكرى أني سأفارقك لأظل بعيداً عنك زمناً غير قصير!

وكانت «مدام دى رينال» لا ترفض له طلباً منذ ذكر لها هذا الأمر الذى جعلها تضج بالبكاء. ولكن الفجر قد بدأ يرسل أنواره على ذوائب أشجار الصنوبر القائمة على الجبل في شرقي ڤريير. وكان «چوليان» ثملاً باللذة، فلم يشأ أن يرحل بل طلب منها أن يقيم في غرفتها مختفياً طول النهار فلا يتركها إلا في الليلة القادمة.

- ولم لا؟ هذه السقطة الجديدة التي كتبت عليّ، قد أفقدتني كل احترام لنفسي وستكون سبباً في شقاء دائم لي ما حييت. وضمته إلى قلبها قائلة: لقد تغير زوجي حتى أصبحت نفسه تحيط بها الشكوك، وهو يعتقد أنني جررت عليه كل هذا، فهو لذلك مغيظ مني. ولو أنه سمع أقل جلبة لكان في هذا ضياعي ولطردني كامرأة شريدة، وأنا تلك الشريدة.

- آه! هذه إحدى عبارات الأب شيلان، لم تكن طريقتك معي في الكلام هكذا، قبل أن تفرق بيننا المدرسة هذا الفراق الأليم! كم كنت تحبينني في ذلك الحين!

قال هذا في فتور شديد، فكوفيء على فتوره: فقد أنّس صديقته الخطر الذي يتهددها من زوجها، وجعلها تفكر في خطر آخر أشد وأمر وهو أن يشك «چوليان» في حبها إياه.

وطلع النهار وملأ نوره نواحي الغرفة ؛ فملأ الكبر نفسه حين رأى هذه الغادة الجميلة بين ذراعيه ورهن ما يشيره به، هذه التي لم يحبب غيرها في حياته، والتي كانت قبل ذلك بساعات تخشى الله المنتقم، فوقفت جهودها على واجبها وظلت عاماً تسلح نفسها وتقوي إرادتها؛ لئلا تسقط مرة أخرى، لكن محاولاتها لم تجد أمام شجاعة صديقها فتيلاً، ثم سمعت بعد قليل في المنزل وقع أقدام، فطرأت عليها فكرة لم تواتها من قبل، وقالت لصديقها:

– ستدخل الغرفة هذه الفتاة اللعينة إليزا، فأين أضع هذا السلم الضخم؟ وأين أخفيه؟ وصاحت بغتة كمن وجدت حلاً سعيداً: سأحمله إلى السطح.

فأجابها وهو ذاهل.

– إن فعلت هذا كان عليك أن تمري بحجرة الخدم.

– سأترك السلم في الردهة وأنادي الخادم وآمره بما أريد.

– فكري في كلمة تقولينها إذا ما مر الخادم بالسلم في الردهة ورآه.

فقبلته قائلة:

– نعم يا ملاكي الكريم، وعليك أن تختفي سريعاً تحت السرير طول غيابي، لأن إليزا تدخل الحجرة.

وأذهله فرحها الفجائي فقال في نفسه: إن هناك خطراً مادياً يتهددها لكنها لا تضطرب له، بل يعود إليها مرحها لأنها نسيت الوساوس! فيا لها من امرأة رائعة! آه! إنه قلب يفخر به من يملكه! وقد كان «چوليان» سعيداً.

حملت «مدام دى رينال» السلم فألفته ثقيلاً، فأسرع إليها يعاونها على حمله معجباً بقوامها المشوق الذي لا يدل ظاهره على القوة، ولكنه عجب حين رآها ترفعه وحدها بغتة، كما لو كانت ترفع مقعداً. ثم أسرعت به إلى ردهة الطبقة الثالثة ووضعته ممدداً بجوار الجدار. ونادت الخادم وصعدت إلى أبراج الحمام لتتيح له أن يرتدي ملابسه. وبعد خمس دقائق عادت إلى الردهة فلم تجد السلم. فماذا حدث؟ لو أن «چوليان» لم يكن بالمنزل ما عبأت بهذا الخطر. ولكن لو رأى زوجها السلم الآن لوقعت الواقعة! وأخذت «مدام دى رينال» تجري في كل مكان حتى وجدته أخيراً تحت السقف حيث وضعه الخادم مخفيا إياه. ورأت في هذا التصرف غرابة فحسب، ولو أنه حدث لها قبل ذلك لراعها.

قالت في نفسها: ماذا يهمني مما سيحدث بعد أربع وعشرين ساعة حين يرحل «چوليان»؟ ألن يكون كل شيء في نظري فحشاً وندماً؟ وكانت تطرأ عليها فكرة غامضة

بأنها ينبغي لها أن تموت، ولكن ماذا يعنيها؟ فبعد فراق ظنته أبدياً عاد إليها ورأته من جديد، وقد خاطر مخاطرة شديدة في سبيل الوصول إليها، وهذا حب عظيم!.

وقصت على «جوليان» قصة السلم ثم قالت له:

- بم أجيب زوجي لو أخبره الخادم بأنه عثر على سلم؟ وغرقت في أحلامها لحظة واستطردت تقول: لن يكتشفوا الفلاح الذي باعك السلم قبل أربع وعشرين ساعة ثم ارتمت بين أحضانه وضمته إليها ضماً قوياً وهي تقول: آه! ما أحلى الموت بين ذراعيك! وقبلته قبلة حارة وهي تقول ضاحكة: على أنه ينبغي ألا تموت جوعاً. تعال فاختف أولاً في غرفة مدام درفيل، التي هي دائما مغلقة.

وذهبت إلى آخر الردهة لتتأكد من أن أحداً لا يراقبهما، أما هو فقد جرى إلى الغرفة، ثم عادت لتغلق بابها بالمفتاح وقالت له: حذار من أن تفتح الباب إن طرقه طارق، لأن الأطفال يفعلون ذلك وهم يلعبون فقال:

- أحضريهم إلى الحديقة تحت النافذة لأسعد برؤياهم وتحدثي إليهم. فقالت وهي تنصرف:

- نعم، نعم، سأفعل.

ثم عادت اليه بعد قليل، تحمل برتقالاً وبسكوتاً وزجاجة من نبيذ ملقا. وكان من العسير عليها أن تسرق خبزاً، فسألها «جوليان»: ماذا يفعل زوجك؟

- إنه يكتب مشروع صفقات سيعقدها مع الفلاحين.

وفي الساعة الثامنة صباحاً، عجّ المنزل بسكانه، ولو لم تخرج «مدام دى رينال» إليهم في هذا الوقت، لبحثوا عنها في كل مكان: فاضطرت إلى مغادرة حبيبها، ولكنها عادت إليه بعد قليل غير هيابة ولا وجلة، تحمل إليه قدحاً من القهوة، وكانت مضطربة لأنها تخشى عليه أن يكون جائعاً. وأفطر الأطفال فذهبت بهم إلى الحديقة تحت نافذة مدام درفيل. فوجد «جوليان» أنهم شبوا وكبروا، لكنهم قد طبعوا بالطابع العاديّ، أو هكذا خيّل إليه؛ فقد تكون آراؤه هي التي تغيرت.

وتحدثت إليهم أمهم عن «جوليان»، فأبدى ابنها الأكبر صداقة لمعلمه السابق، وأسفاً شديداً على فراقه، أما الآخران فكانا قد أنسياه.

لم يغادر «السيد دى رينال» منزله في هذا الصباح، وكان دائم الصعود والنزول مشغولاً بعقد صفقاته مع الفلاحين الذين يشترون منه محصول البطاطس، ولم تجد «مدام دى رينال» إلى ما بعد الغداء لحظة فراغ ترى فيها سجينها. وانتهى الغداء ففكرت أن تسرق له شيئاً من الحساء الساخن.

واقتربت من باب الغرفة حذرة، وهى تحمل في يدها إناء الحساء، فلقيت الخادم الذي أخفى السلم في الصباح، وهو يسير في الردهة من غير جلبة كأنه يتسمّع على الباب. ربما

كان «چوليان» يسير في الغرفة على غير حذر! ابتعد الخادم وقد اضطرب قليلاً، فدخلت «مدام دى رينال» على «چوليان» في جرأة، وقد أزعجه هذا اللقاء، فقالت له صديقته:

- أنت خائف أما أنا فأستطيع أن أواجه الأخطار دون أن تطرف لي عين، أنا لا أخشى إلاّ شيئاً واحداً وهو اللحظة التي أبقى فيها وحدي بعد رحيلك. ثم غادرته مسرعة.

فحدث «چوليان» نفسه قائلاً في لذة: آه إن الندم وحده هو الذي يخيف هذه النفس السامية الرفيعة! وأخيراً أتى المساء، وذهب «السيد دى رينال» إلى الكازينو، وادعت زوجته أنها مصابة بصداع شديد، وذهبت إلى غرفتها وأسرعت في صرف إليزا، ونهضت لتطلق «چوليان» من سجنه.

كان جائعاً حقاً إلى أقصى غاية الجوع، فذهبت إلى المطبخ لتبحث عن خبز: فسمع «چوليان» صيحة عالية، وعادت إليه فأخبرته أنها كانت تقترب من خزانة الطعام في الظلام، ومدّت يدها فلمست ذراع امرأة، وإذا بها إليزا التي سمع «چوليان» صيحتها.

وماذا كانت تفعل هناك! قالت في غير اكتراث: ربما كانت تسرق بعض الحلوى أو كانت تتجسّس علينا. ولكني من حسن الحظ وجدت إداماً ورغيفاً كبيراً.

فأشار إلى جيوب ميثرتها وهو يسأل: ولكن ما هذا إذن؟

وقد نسيت «مدام دى رينال» أن جيوبها مليئة بالخبز منذ العشاء.. فأحتضنها «چوليان» بين ذراعيه في قوة وحب، وبدت له جميلة رائعة! فقال في نفسه: لن ألقى في باريس نفسها امرأة على هذا الخلق، لم تكن لها دراية المرأة التي اعتادت أن تعمل ما تعمله هي الآن لكنها كانت تتصف في نفس الوقت بشجاعة كاملة، شجاعة شخص لا يخاف إلاّ الله.

كان «چوليان» يتناول عشاءه في شهية، وصديقته تسخر من بساطة ما قدّم إليه من طعام لأنها لم تشأ أن تتحدث إليه حديثاً جدّياً، وبينما هما كذلك طرق الباب فجأة وبقوة. وكان الطارق هو «السيد دى رينال».

- لماذا أغلقت عليك الباب؟

واختفى «چوليان» في الحال تحت الأريكة.

- ما هذا ألا تزالين بملابسك وتأكلين، وقد أغلقت الباب عليك بالمفتاح؟ كان مثل هذا السؤال في الأيام العادية، وبهذه اللهجة يثير الاضطراب في نفس «مدام دى رينال»، ولكنها تعلم الآن أن زوجها إذا نظر قليلاً إلى أسفل رأى «چوليان»، لأن «السيد دى رينال» جالس على المقعد المقابل للأريكة، والذي كان «چوليان» جالساً عليه منذ لحظة قصيرة.

إنّ الصداع يتخذ عذراً لكلّ شيء وجلس الزوج يقص عليها في اطناب تفاصيل

لعبة البولة، التي درّت عليه ربحاً قدره تسعة عشر فرنكا، فرأت «مدام دى رينال» قبعة چوليان على مقعد يبعد عنهما ثلاث خطوات. فازداد ثباتها، وأخذت تخلع ملابسها، ثم مرت مسرعة من خلف زوجها وألقت بثوبها على المقعد فأخفت القبعة.

وأخيراً غادر «السيد دى رينال» الغرفة، ورجت «چوليان» أن يبدأ من جديد قصة حياته في المدرسة قائلة له: لم أكن مصغية إليك بالأمس، وكنت أفكر وأنت تتحدث كيف أتغلب على نفسي لأدعك تغادرني.

لم تكن مبالية بشيء فقد كانا يتحدثان بصوت مرتفع، وفي الساعة الثانية صباحاً دقّ باب الغرفة في عنف شديد. وكان الطارق مرة أخرى هو «السيد دى رينال»:

– افتحي بسرعة، إن بالمنزل لصوصاً! فقد وجد سان چان سلّمهم هذا الصباح.

فارتمت بين أحضان چوليان وقالت له:

– هذه هي الخاتمة. إنه سيقتلنا معاً، فهو لا يؤمن بوجود لصوص في المنزل. سأموت بين ذراعيك، فألقى في موتي سعادة لم أنلها في حياتي. ولم تجب زوجها الذي أخذ منه الغضب كل مأخذ، وانهالت على «چوليان» تقبيلاً في حرارة وثورة. فنظر إليها نظرات آمرة وقال لها:

– أنقذي أم ستانيلاس. وسأقفز إلى الفناء من نافذة دورة المياه وأفرّ من الحديقة فإن الكلاب عرفتني. لُفّي ثيابي واجعليها حزمة، وألقي إليّ بها في الحال. ولا تفتحي الباب قبل أن تفعلي كل ذلك، بل اتركيه يكسره. حذار أن تعترفي بشيء إطلاقاً! إني أحرم عليك ذلك، فخير عندي أن يكون شاكاً من أن تصبح ظنونه صدقاً ويقيناً.

– ستقتل نفسك إذا قفزت! كانت هذه العبارة هي كل ما أبدته من إجابة وقلق.

وذهبت معه إلى النافذة، ثم أخفت ملابسه على مهل، وفتحت الباب لزوجها أخيراً وهو يكاد يتميز من شدة الغيظ. وأخذ ينظر في الغرفة وفي دورة المياه دون أن يقول شيئاً ثم انصرف. وألقت هي ملابس «چوليان» إليه، فأخذها وجرى في سرعة إلى داخل الحديقة في الجهة المطلّة على نهر الدو.

وبينما هو يجرى سمع رصاصة تمر قريباً، فهو لا يحسن الرماية. وكانت الكلاب تجري إلى جانبه في سكون. ثم أطلقت رصاصة أخرى فأصابت كلباً في رجله، فصاح صيحات موجعة. قفز «چوليان» من أحد جدران الحديقة. ثم سار خمسين خطوة وغيّر اتجاهه مولياً الأدبار. وسمع أصواتاً تنادي، ورأى بوضوح الخادم الذي كان عدواً له من قبل يطلق النار من بندقية. وكان فلاح يطلق النار من الناحية الأخرى من الحديقة؛ ولكنّ «چوليان» كان قد وصل إلى شاطيء نهر الدو حيث ارتدى ثيابه.

وبعد ذلك بساعة، كان على بعد فرسخ من ڤريير سائراً في طريق چنيف، لأنه قال في نفسه: إذا كانت شكوكهم متجهة إليّ فإنهم سيبحثون عني على طريق باريس.

الجزء الثاني

الفصل الأول

لذات الريف

أيها الريف متى أنعم برؤياك ! ؟
فرجيل

قصد «چوليان» إلى نزل ليتناول فيه غداءه، فقال له صاحبه:

– لا شكَّ أن السيد ينتظر عربة باريس، أليس كذلك؟

– عربة اليوم أو عربة الغد فذلك عندي سواء!

ووصلت العربة، و«چوليان» لا يبدي اهتماماً بموعد سفره، وكان بها مكانان خاليان. وصعد «چوليان» إليها مع مسافر آخر، فسمع ذلك المسافر يقول مخاطباً شخصاً آتياً من جهة چنيف:

– ماذا، أهذا أنت يا فالكو ؟

فأجابه فالكو :

– لقد ظننتك مقيماً بإحدى ضواحي ليون، في واد جميل على مقربة من نهر الرون! أليس كذلك؟

– إقامة سعيدة، إنّي أولّي الأدبار. فضحك فالكو قائلاً:

– ماذا تقول؟ أتولّي الأدبار يا سان چيرو؟ إنّ هيئتك لتدل على عقل ورزانة، فهل ارتكبت جرماً على الرغم من ذلك؟

– لا أخفي عليك أنّ حالي كحال من ارتكب جريمة. إني آفرّ من هذه الحياة الكريهة التي نحياها في الريف. وأنت تعرف أنني أحبّ الهواء المنعش، هواء الغابات؛ والهدوء الجميل، هدوء الحقول. وكثيراً ما اتهمتني أنت بأني خيالي. لم أحب أبداً أن أتحدث عن السياسة أو أن أخوض غمارها.

– ولكن إلى أيّ الأحزاب تنتمي؟

– لا أنتمي إلى أيّ حزب وفي هذا ضياعي. أما السياسة المحبّبة إلى نفسي فهي أني أهوى الموسيقى والرسم. وإذا وقع لي كتاب قيمّ، عددت هذا حدثاً عظيماً. وسأبلغ الرابعة والأربعين من العمر بعد قليل، فماذا يبقى لي من أيام أحياها؟ خمسة عشر عاماً أو عشرون عاماً على الأكثر؟ حسبنا يخيّل إليّ أن الوزراء بعد ثلاثين عاماً سيكونون

أكثر مهارة منهم الآن، ولكنهم سيكونون في أمانة وزراء اليوم! وتاريخ انجلترا مرآة أستخدمها في معرفة مستقبلنا: سيكون هنا دائماً ملك يريد أن يوسع في امتيازاته، وسيظلّ الطموح في التمثيل النيابي مسيطراً على النفوس، وكذلك المجد والحصول على مئات الآلاف كما فعل ميرابو: كل هذا يحرم الأغنياء في الريف لذة التمتع بالراحة، وهم مع ذلك يزعمون أنهم أحرار وأنهم يحبون الشعب. والرغبة الملحة في أن يكون الإنسان نبيلاً أو سيداً من سادات مجلس النواب، تدفع بالمغالين إلى الركض الشديد. وكم يودّ كل رجل أن يحتل مكاناً في هذه السفينة الحكومية، مادام العمل فيها يدرّ عليه مالاً وفيراً. وبعد، ألا يجد المسافر البائس فيها مكاناً متواضعاً؟

- حقاً، حقاً، إنّ هذا لا يتفق مع ما فطرت عليه من وداعة وهدوء. ولكن ترى أهي الانتخابات الأخيرة التي تطوّح بك بعيداً عن الأقليم الذي تعيش فيه؟

- الشرّ الذي ألقاه أعمق من ذلك أثراً، فمنذ أربعة أعوام كنت في الأربعين من عمري وكانت ثروتي خمسمائة ألف من الفرنكات. أما اليوم فقد زاد عمري أربعة أعوام ونقصت ثروتي ما يقرب من خمسين ألفاً من الفرنكات سأخسرها في بيع قصري في مونفليرى على مقربة من الرون في موقع بديع. لقد زهدت الحياة الپاريسية نظراً لتلك المهزلة المتكررة التي تسمونها حضارة القرن التاسع عشر، والتي نضطر إليها اضطراراً. كنت متعطشاً إلى حياة السذاجة والبساطة، فاشتريت أرضاً في الجبال القريبة من الرون في موقع جميل لا يضارعه مكان آخر في العالم كله. وكان قس القرية وعمد الأماكن المجاورة يتملقونني وظلوا كذلك ستة شهور وكنت أدعوهم إلى العشاء عندي فقلت لهم مرة: إنني غادرت پاريس حتى لا أتكلم في السياسة ولا أسمع عنها حديثاً ولا أخوض في ذكرها. وأنتم ترون أني لست مشتركاً في صحيفة من الصحف. وكلما قلّت الرسائل التي يحملها إليّ ساعي البريد، زادت بذلك سعادتي.

ولم يرض هذا المسلك خوريّ القرية، فشعرت بعد قليل بوطأة آلاف من الطلبات التي تخلو من كل لياقة، وانهالت عليّ المضايقات وكنت أرغب في أن أوزع على الفقراء مائتين أو ثلثمائة من الفرنكات في كل عام، ولكني طولبت بمثل هذا المبلغ للجميعات الدينية كجمعية القديس يوسف أو جمعية العذراء وما إليهما. ولما رفضت دفع ما طلب مني، لحقتني إهانات كثيرة. ولم أكن أستطيع الخروج صباحاً لأتمتع بجمال الجبال دون أن ألقى مضايقات تنتزعني من أحلامي وتذكرني في قسوة شديدة ما فطر عليه الناس من شرّ وغلظة. وكان الخوريّ في الصلوات التي تقام من أجل خصوبة الأرض، يرفض أن يبارك حقولي بحجة أن صاحبها كافر، مع أنّ الترتيل في هذه الصلاة يعجبني، فعلّلت العجوز موت بقرتها لمجاورتها لبركة يملكها كافر، فيلسوف وفد عليهم من پاريس. وبعد ذلك بثمانية أيام، وجدت سمكي ميّتاً كلّه؛ لأنهم وضعوا في البركة جيراً فمات السمك مسموماً. وهكذا لا حقتني مضايقات من كل جانب وفي صور شتى. أما قاضي الصلح

فهو رجل أمين لكنهّ جدّ حريص على مركزه، ولذلك كان يدينني دائماً. لقد أصبحت أرى هدوء الحقول جحيماً؛ لأن الناس ما كادوا يرون علاقتي بالخوريّ قد ساءت، وهو كما تعلم رئيس اتحاد القرية، وما كادوا يتبينون أن القائد المحال إلى المعاش قد تخلّى عني، وهو رئيس الأحرار في تلك المنطقة، ما كادوا يرون هذا حتى أضمروا جميعاً لي الشرّ؛ فالبنّاء الذي عُلته أعواماً قلب لي ظهر المجن، والنجار الذي يصلح المحاريث أراد أن يسرقني علانية.

وأخيراً عنّ لي أن أنتمي إلى الأحرار ليشتد أزري وأكسب بعض قضاياي وأتت هذه الانتخابات اللعينة كما قلت أنت وطلب صوتي مني . . . .

– لشخص لا تعرفه؟

– لا، أبداً، بل لشخص أعرفه حق المعرفة ورفضت الطلب، ويا له من حمق شديد! فقد أصبح الأحرار ضدي منذ ذلك الوقت، وصار مركزي شديد الحرج. ويخيّل إليّ الآن أن الخوريّ إن فكرّ في اتهامي بقتل خادمتي لوجد عشرين شاهداً من الحزبين يقسمون بأنهم رأوني متلبساً بالجريمة.

– أتريد أن تعيش في الريف دون أن تعاون جيرانك في الوصول إلى ما يطمحون إليه، ودون أن تستمع إلى ثرثرتهم؟ لقد أتيت أمراً إدّاً!

– وأصلحت أخيراً ما وقعت فيه من خطأ. سيباع قصر مونفليرى، وعزمت على أن أخسر فيه خمسين ألف فرنك؛ ومع كل هذا تراني أشعر بفرح لا حدّ له، لأني سأغادر جحيماً آهلاً بالنفاق والمضايقات وسأذهب إلى حياة العزلة والهدوء الريفي في المكان الوحيد الذي يتوافران فيه في فرنسا؛ وهو طابق رابع مطلّ على الشانزلزيه. على أنني مع ذلك سأجد كثيراً من المشقة إذا بدأت حياتي السياسة في حيّ «دى رول» دون أن أحمل الخبز المقدس إلى الخَوَرنّية.

فقال فالكو والشرّ يتطاير من عينيه والحسرة تفيض من نظراته:

– لو أنّ بوناپرت كان لا يزال في الحكم ما حدث لك شيء من هذا كله!

– حسناً، ولكن لم لم يتمكن بوناپرت الذي تشيد بذكره من الاحتفاظ بمركزه؟ إنّه سبب كلّ ما أشكوه الآن.

ولما وصلا في الحديث إلى هذا الحدّ، زاد انتباه «چوليان». فقد أدرك منذ الكلمة الأولى أنّ المتعصب لبوناپرت هو فالكو صديق الطفولة للسيد دى رينال، الذي تخلّى عنه عمدة ڤربير في سنة ١٨١٦. أما الفيلسوف سان چيرو فلابدّ أن يكون أخاً للرئيس الذي استطاع أن ينال المناصب العامة بأثمان ضئيلة، والذي يعمل رئيس مكتب في مديرية. . . .

– كلّ هذه الأشياء من عمل بوناپرت، فالرجل الأمين المسالم الذي يبلغ الأربعين من عمره وتبلغ ثروته خمسمائة ألف فرنك لا يستطيع أن يقيم في الريف ولا أن يجد فيه ما

يبتغيه من راحة وهدوء لأن قسس بوناپرت وأشرافه بالمرصاد لهذا الرجل يطاردونه أينما حلّ.

– آه! لا تذكره بسوء، فإن فرنسا لم تبلغ مكانة عالية بين الشعوب كمكانتها في الثلاثة عشر عاماً التي حكمها. كان كلّ ما يصدر منه عظيما خطيراً!

– لم يكن إمبراطورك عظيما إلاّ في ساحات القتال وحين نظّم مالية فرنسا سنة ١٨٠٢. فليذهب إمبراطورك إلى الجحيم، وماذا ينطوي عليه مسلكه منذ ذلك الوقت؟ لقد وقع في تلك الحماقات الملكية بما اتخذه لنفسه من حجّاب، وبالأبهة التي اعتادها والاستقبالات التي كان قصر التويلري مسرحاً لها. فأعادها في طبعة منقحة قُدّر لها أن تعيش قرناً أو قرنين آخرين. وأراد الأشراف والقسس أن يعودوا إلى حياتهم القديمة، لكنهم لم يكونوا أقوياء فيروّجوا لما يريدون بين طبقات الشعب.

– هذه لغة ناشر قديم! فاستطرد الناشر في غضب:

– من الذي يطردني من أملاكي؟ هم القسس الذين عقد ناپليون معهم اتفاقاً بدل أن يعاملهم كما تعامل الدولة الأطباء والمحامين والفلكيين كمواطنين، لا أكثر ولا أقل بغضّ النظر عن المهنة التي يمتهنونها طلباً للرزق. لو أن بوناپرت لم يمنح ألقاب بارون وكونت جزافاً، وما رأينا اليوم سادة جبلوا على الغلظة والقحة، لأنّ ذلك العصر كان قد انتهى تماماً. لقد لقيت الأمرّين من القسس أولا ثم من أعيان الريف الذين سبّبوا لي آلاماً كثيرة واضطروني إلى أن أكون من الأحرار.

وظلّ الحديث على هذه الوتيرة مدة طويلة، لأنّ هذه الآراء ستظلّ تشغل فرنسا نصف قرن. وبينما كان سان چيرو يؤكد لصديقه في ثقة أن الحياة في الريف لا تطاق، ذكر «چوليان»، في حياء، «السيّد دى رينال» على سبيل المثال لمن يعيشون في الريف سعداء. فصاح فالكو قائلاً:

– يا إلهي! أنت طيب القلب أيها الشاب! لقد جعل من نفسه مطرقة حتى لا يكون سنداناً، وقد كان مطرقة شديدة الوطأة. ولكني أرى أن ڤالنو سيطغى عليه؛ فهل تعرف هذا الرجل الحقير؟ إنه دنئ حقّا. وماذا يقول السيد دى رينال حين يرى نفسه قريباً قد خلع من منصبه وحلّ محله ڤالنو!

– إنه سيفرغ لمواجهة الآثام التي ارتكبها. أتعرف ڤريير أيها الشاب؟ حسناً! لتنزل السماء الخزي والعار ببوناپرت وبالآثار البالية للملكية، لأنه هو الذي مكّن لأمثال «دى رينال» وشيلان ومن سيأتي من أمثال ڤالنو ومالون.

أذهل «چوليان» هذا الحديث السياسى القاتم وانتزعه من أحلامه اللذيذة انتزاعاً شديداً. ولم يتأثر بمنظر پاريس وهي ترى من بعد وكانت الآمال الكبيرة التي يبنيها على مصيره في العاصمة تتضارب تضارباً شديداً مع ذكريات اليوم الذي قضاه في ڤريير، هذه

الذكريات الماثلة أمامه والتي طغت على مشاعره. لقد أقسم ألاّ يهجر أبناء صديقته، وحلف ليتخلينّ عن كل شيء إذا ما كانوا في حاجة إلى حمايته إن سولت للقسس نفوسهم بأن يقلبوا الحكم جمهورياً، وأملى عليهم السّفه أن يحرضوا على الأشراف.

ماذا كان عساه أن يحدث لو أن «چوليان» ليلة وصوله إلى ڤريير وساعة أن أسند السلم إلى نافذة غرفة صديقته وجد فيها رجلاً غريباً أو وجد «السيد دى رينال»؟

ولكن أية لذة نالها في الساعتين الأوليين، حين كانت صديقته مصرة باخلاص على أن يفارقها، وهو جالس إلى جوارها في الظلام يدافع عن نفسه دفاعاً حاراً!

إن نفساً كنفس «چوليان» لتهيم في مثل تلك الذكريات طول الحياة. أما بقية حديثهما فقد أشبهت حديث أيام حبهما الأولى، أحاديث حياتهما المشتركة قبل ذلك بأربعة عشر شهراً. وانتبه «چوليان» من أحلامه العميقة حين وقفت العربة بعد أن دخلت في فناء موقف شارع چان چاك روسو. ورأى عربة صغيرة تقترب منه فقال لسائقها:

أريد أن أذهب إلى مالميزون.

- في هذه الساعة يا سيدي! وماذا تريد أن تعمل هناك؟

- وما شأنك أنت! سر في طريقك.

إنّ العاطفة الصادقة لا تُشغل إلا بنفسها فحسب. ولهذا يخيل إليّ أن العواطف في پاريس مدعاة إلى السخرية لأن كل جار يزعم أنّ جاره يفكر فيه كثيراً. وسأتجنب الحديث عن مشاعر «چوليان» حين وصل إلى مالميزون. لقد بكى. ماذا؟ أيبكي على الرغم مما يرى من جدران بيضاء بنيت لعامها فمزقت الحديقة شرّ ممزق؟ نعم يا سيدى لقد بكى! لأنه هو وأمثاله من الشبان، لا يفرّقون بين أركول وسانت هيلانه ومالميزون.

ثم تردّد «چوليان» في المساء طويلاً قبل أن يدخل في غمار الحياة الپاريسية لأن أفكاراً غريبة شغلت ذهنه فاعتقد أن هذا المكان مثوى هلاك وتلف. وحذر حذراً حال بينه وبين أن يعجب بپاريس اليقظة الحية، بحيث لم تؤثر في نفسه إلا الآثار التي خلّفها بطله.

وكان يقول في نفسه: أنا الآن في المكان الذي تحاك فيه الدسائس ويستعلي النفاق؟ هنا يتحكم الذين يبسطون حمايتهم على الأب ڤريلير.

وفي مساء اليوم الثالث، تغلّب حب الاستطلاع في نفس چوليان فأراد رؤية كل شيء قبل أن يذهب إلى الأب پيرار. وحينما لقى مديره السابق تحدث الكاهن إليه في فتور عن الحياة التي سيحياها عند «المركيز دى لامول» قائلاً له:

- إذا مضت عليك بضعة شهور، وتبين أنك لا تصلح لما يسند إليك من عمل فستدخل المدرسة من جديد ولكن في كرامة. و«المركيز» من أكبر سادة فرنسا وستقيم في قصره، وتلبس الملابس السوداء كأنك في حداد لا على غرار رجال الدين. على أني أريد أن تتابع دراستك في اللاهوت ثلاث مرات في الأسبوع في مدرسة سأصحبك إليها. وفي

ظهر كل يوم، تذهب إلى مكتبة «المركيز» الذي يريد أن يسند إليك كتابة خطابات قضاياه وأعماله الأخرى. وسيكتب لك «المركيز» في هامش كل خطاب يتلقاه كلمتين توضحان لك نوع الاجابة التي ينبغي أن تكتبها. وقد زعمت له أنك بعد ثلاثة شهور ستتمكن من كتابة الردود وحدك، وأنه سيوقع ثمانية خطابات أو تسعة من اثني عشر خطاباً تقدمها إليه. وفي الساعة الثامنة مساء، عليك أن ترتّب مكتبه وفي الساعة العاشرة تماماً ينتهي عملك.

واستطرد پيرار: ومن المحتمل أن تغريك امرأة عجوز أو رجل رقيق الحديث بمنافع كثيرة وفوائد جمة أو بعبارة مبتذلة يقدّم لك ذهباً لتطلعهما على المكاتبات التي ترد إلى المركيز ... .

فاحمرَّ وجه چوليان وصاح قائلاً:

- آه يا سيدي! فابتسم پيرار ابتسامة مرّة وقال:

- يدهشني أنك لازلت تغضب للفضيلة على الرغم من فقرك وأنك قضيت في المدرسة عاماً، ومما لا شك فيه أنك كنت أعمى البصر والبصيرة! ثم سا ءل الأب نفسه في صوت خفيض: أيرجع هذا إلى كرم محتده؟ ونظر إلى «چوليان» وقال له:

- من العجيب أن يعرفك «المركيز» ... وأنا لا أدري كيف تأتىً له ذلك. سيعطيك مائة لويس مرتباً تبدأ به عملك عنده حتى إذا ما سُرَّ منك زادك إلى ثمانية آلاف من الفرنكات.

واستطرد الكاهن في لهجة قاسية يقول:

- ولكنك تعلم جيداً أنه لا يعطيك هذا المال الكثير لسحر عيونك. فعليك أن تؤدي العمل في صدق وإخلاص. ولو أنني كنت مكانك لتكلمت بمقدار، ممسكاً عن الخوض فيما لا أعرفه. آه! لقد حصلت لك على معلومات، وأنسيت أن أتحدث إليك عن أسرة المركيز دى لامول. هو أب لولدين فتاة وفتى في التاسعة عشرة من عمره، أنيق كل الأناقة، لكنه أحمق لا يعرف في الظهر ماذا سيعمل في الساعة الثانية، وهو ذكيّ شجاع حارب في أسبانيا. و«المركيز» يرجو أن تصبح صديق ابنه الشاب الكونت نوربير، ولا أعلم أنا سبباً لذلك. وأخبرت الأب بأنك تجيد اللاتينية، فلعلّه يرجو أن تعلّم ابنه بعض جمل من شيشيرون وڤرجيل.

لو كنت مكانك ما تركت فرصة لهذا الشاب الجميل يسخر فيها مني، وقبل أن أتقبل منه ما يقوله أتركه يعيد حديثه على مسامعي غير مرة، على الرغم من أن ما يقوله كله أدب وإن كان لا يخلو من سخرية لاذعة. ولست أخفي عليك أن الكونت الشاب دي لامول سيحتقرك أول الأمر، لأنك لا تزيد على أن تكون برچوازياً صغيراً. وقد كان أحد أجداده يعيش في البلاط، وختم حياته بشرف كبير حين قطع رأسه في ميدان جريف في ٢٦ أبريل سنة ١٥٧٤، على إثر مؤامرة سياسية. أما أنت فابن نجار من ڤريير تعمل عند أبيه؛

فضع هذه الفروق نصب عينيك دائماً، وادرس تاريخ هذه الأسرة في موريرى؛ وكل المتملقين الذين يطعمون على مائدة دى لامول يعمدون إلى ذكر بعض حوادث هذه الأسرة بين آن وآخر، زاعمين أن هذا يعدّ إشارة رقيقة لا غنى لهم عنها. خذ حذرك وأنت تجيب الكونت نوربير دى لامول رئيس فرقة الفرسان وعضو المجلس الأعلى بعد قليل، فأنا لا أحبّ أن تأتي إليّ شاكياً منه. فاحمرّ وجه «چوليان» وقال:

– يخيل إليّ أنه لا ينبغي إطلاقاً أن أجيب رجلاً يحتقرني.

– أنت لا تعلم شيئاً عن هذا الاحتقار، لأنه مشوب دائما بثناء كثير قد يكون مبالغاً فيه. فإذا كنت غراً كان في استطاعتك أن تغضى عنه، وإذا أردت أن يكون لك شأن فعليك ألاّ تقيم وزناً لما تسمع.

– لو أنّ كل ما حدثني به لم يعد يلائمني، فهل أُعدّ ناكراً للجميل إذا عدت إلى غرفتي الصغيرة رقم ١٠٣؟

– لا شك أن كل المرائين من المتردّدين على آل دى لامول سيصبون عليك جام غضبهم، ولكني سأكون عضداً لك، وسأخبرهم بأنني أشرت عليك بهذا.

كان «چوليان» مغيظاً من هذه اللهجة القاسية الجافة التي تحدّث بها الأب پيرار؛ وأفسدت هذه اللهجة تماماً آخر عبارة من عبارت بطلنا. وفي الحق أن الكاهن كان فريسة للوم شديد من ضميره، لأنه أحب «چوليان»، ولقي عذاباً دينياً كبيراً حين تدخل في مصيره بطريقة مباشرة. واستطرد يقول بتلك اللهجة النابية، كما لو كان يريد أن يفرغ من واجب ثقيل الوطأة على نفسه:

– سترى أيضاً المركيزة دى لامول، وهى سيدة طويلة القامة شقراء، متديّنة، متعالية، جمّة الأدب، لكنها تافهة. وهي كريمة العجوز دوق شون المشهور بترهات في الحسب والنسب. وهذه السيدة الكبيرة صورة موجزة لما تنطوى عليه أخلاق سيدات الطبقة المنتمية إليها. وهي لا تزال تذكر أنّ كلّ إعجابها في الحياة مقصور على أن لها أسلافاً اشتركوا في الحروب الصليبية، وهذا هو المقياس الوحيد الذي تقيم له وزناً. أمّا المال فثانوي بالنسبة إليها. أيدهشك هذا؟ إننا لم نعد نعيش في الريف يا صديقي العزيز.

سترى في صالونها الكثيرين من كبار السادة يتحدثون عن الأمراء في استخفاف شديد؛ أما هي فتخفض صوتها إكباراً وإجلالاً كلما ورد على لسانها اسم أمير. ويزداد إكبارها إذا ذكرت إحدى الأميرات. وأنا لا أنصح لك أن تذكر أمامها أن فيليب الثاني أو هنري الثامن كانا فظّين غليظي القلب، فقد كانا ملكين، وهما بهذا يستحقان الإكبار والتبجيل من كل الناس، ولا سيما من أولئك الذين لا يعدّون من ذوي المحتد الكريم مثلي ومثلك!

وبعد فنحن قسيسون، لأنها ستعتبرك قسيساً، وهي تضعنا في صف خدمها

وحشمها اللازمين لراحتها، الساهرين على سلامتها.

- سيّدي يخيّل إليّ أني لن أبقى في پاريس طويلاً.

- حسناً، ولكن لاحظ أننا في حاجة إلى هؤلاء السادة إذا ما أردنا أن نشقّ طريقنا في الحياة. في خلقك شيء لا أستطيع أن أصفه لك أو هذا على الأقل ما يتراءى لي، فلو أنك لم تصل إلى مركز مالي مرموق لا ضطهدت، وليس أمامك إلاّ هذه الطريقة؛ فلا تخدع نفسك. فالناس لا يرون أنهم يدخلون السرور على نفسك إذا ما تحدثوا إليك؛ والشقاء مصيرك في بلد نظامه الاجتماعي على ما ترى إذا لم تنل إكبار الناس واحترامهم. ماذا يكون مصيرك في بيزانسون لولا هذه النزوة التي بدرت من «المركيز دى لامول»؟ ستدرك يوماً غرابة ما أقدم عليه من أجلك، وإذا لم تكن شيطاناً فستظلّ تذكر له ولأسرته هذا الجميل. كم خوريّ فقير أكثر منك علماً عاش سنوات طويلة في پاريس لا يتناول إلا خمسة وسبعين سنتيماً من القداس، وخمسين سنتيماً من السربون! ... ثم تذكر ما قصصته عليك في الشتاء الماضي عن السنوات الأولى التي قضاها الكردينال ديبوا، ذلك الشرير. فهل يملي عليك غرورك أنك أكثر منه نبوغاً؟

ولأضرب لك بنفسي مثلاً، فأنا رجل فطرت على التواضع والهدوء. كنت أعتقد أنني سأبقى في المدرسة حتى يوافيني الأجل، وكنت غراً حين تعلقت بها. وتعلم أنني كنت على وشك أن أفصل من منصبي فيها حين قدّمت استقالتي! فهل تعرف كم كانت ثروتي؟ ... كان رأس مالي خمسمائة وعشرين فرنكا لا تزيد، ولم يكن لي صديق، وإنما كنت أعرف شخصين أو ثلاثة. لم أكن قد رأيت السيد دى لامول من قبل، ومع ذلك فقد انتشلني من هذه الوهدة. وحينما أشار إليهم إشارة رفيقة، عينت في خَوَرنية كلّ رعاياها أغنياء، يترفعون عن ارتكاب الرذائل الممقوتة، وأصبحت أخجل من كثرة ما تدرّه عليّ من مال، لأن دخلي أكثر من عملي الذي أقوم به.

لم أتحدث إليك هذا الحديث الطويل إلاّ لأعلمك الرزانة والحكمة. وأحبّ أن أقول لك كلمة أخرى: من سوء حظي أنني سريع الغضب؛ ومن المحتمل أننا لن نتكلم سوياً بعد هذا.

لو ضقت ذرعًا بكبرياء المركيزة أو تهكم ابنها بك، وأصبحت لا تطيق العيش معهم فأنصحك أن تكمل دراستك في مدرسة تبعد عن پاريس ثلاثين فرسخاً إلى الشمال لا إلى الجنوب. فحضارة الشمال أرقى من حضارة الجنوب، وهو أقل جوراً وظلماً. ثم قال بصوت منخفض: عليّ أن أعترف بأن مجاورة الصحف الپاريسية تدخل الرعب في قلوب صغار الطغاة.

وإذا ظلت العلاقة بيننا على خير ما يرام، ولم تحل لك الإقامة في منزل «المركيز» فإني أعرض عليك منصب نائبي ونقتسم مناصفة ما تدره علينا الخَوَرنية. فأخذ «جوليان» يشكره فقاطعه قائلاً: إنّي مدين لك بهذا وبأكثر منه للعرض الكريم الذي عرضته عليّ في

بيزانسون. ولو أني لم أكن أملك عشرين وخمسمائة من الفرنكات لأنقذتني أنت بما عرضته عليّ.

تخلت عن الكاهن لهجتهِ الجافة وأحسَ «چوليان» دموعاً تترقرق في عينيه على كره منه؛ ووَدّ لو نهض ليحتضن صديقه، ولم يتمكن من أن يمنع نفسه من أن يقول في لهجة تنطوي على الرجولة:

– كان أبي يكرهني منذ الطفولة وهذا هو علّة شقائي ؛ ولن أشكو بعد الآن من المصادفات لأني قد وجدت فيك أباً يا سيدي.

فارتبك الرجل وقال بلغة مدير المدرسة تلك العبارة التي أنقذته:

– هذا حسن، هذا حسن، ولكن عليك يا بنيّ ألا تقول المصادفات وقل دائماً إنها العناية الإلهية.

وقفت العربة ورفع الحوذي مقرعة من النحاس ركبت على باب ضخم، فكانا أمام قصر دى لامول. ولكيلا يشكّ المارة في أن هذا القصر هو قصر دى لامول، كتبت هذه العبارة على رخامة سوداء من فوق الباب: «قصر دى لامول». وكره «چوليان» هذا التكلّف وقال في نفسه: إنهم لشديدو الرعب من الثائرين! يرون خلف كلّ حاجز عربةً تقلّ روبسپيير، ومع ذلك فهم يعلنون عن منازلهم ليعرفها الرعاع فيسلبوها إذا ما اشتعلت ثورة!

وأطلع «چوليان» الأب بيرار على أفكاره هذه فقال له:

– آه! ستصبح يا بني المسكين نائباً لي بعد قليل، فما هذا الرأي البغيض الذي يدور بخلدك؟!

– أعتقد أنّ هذا رأى يسير.

أعجب چوليان بوقار البواب ونظافة الفناء تحت الشمس الساطعة الجميلة، فقال لصديقه:

– يا لها من هندسة معمارية جميلة!

وكان القصر في الواقع من تلك القصور ذات الواجهة المسطحة التي تُرى في حيّ سان چرمان، بنيت زمن أن مات ڤولتير. ولم يتنافر الجمال وذوق العصر من قبل إطلاقاً كما تنافرا في بناء هذه القصور.

الفصل الثاني

مخالطة الناس

> إنها لذكريات عزيزة وإن كانت تدعو إلى السخرية: تلك التي تذكر الإنسان بأول صالون غشيه وهو في الثامنة عشرة من عمره لا سند له ولا نصير! ونظرة امرأة نحوي كانت تبعث الخجل في نفسي، وكلما أردت أن أعجب من حولي كثرت أخطائي وكانت أحكامي على الأشياء خاطئة، فكنت أركن إلى الناس دون ما سبب أو أعد من ينظر إلي نظرة رزينة عدوا لي. لكنه على الرغم من حيائي الشديد وما جره على من آلام ومتاعب، فإنني عشت عيشة سعيدة! ليتها دامت!
>
> **كانت**

وقف «چوليان» في وسط الفناء تبدو عليه علامات الدهشة والحيرة، فقال له الأب پيرار:

- عليك إذن بالفطنة وتمسّك بالبصيرة، فإن آراء منكرة تدور في ذهنك، وأنت لاتزال طفلاً! أنسيت مبدأ هوراس الذي يدعو إلى عدم الانفعال؟ وتذكر أنّ هذا العدد الكبير من الخدم والأتباع حينما يرون أنك ستقيم هنا سيحاولون جاهدين أن يسخروا منك، وسينظرون إليك على أنك واحد منهم، وإن كنت تشغل بالباطل مرتبة أعلى من مراتبهم. سيتظرفون معك ويبذلون لك النصح ويظهرون الرغبة في إرشادك إلى سواء السبيل، ولكنهم يخفون من وراء كلّ هذا الرغبة الحقة في أن يقودوك إلى ارتكاب حماقة شديدة.

فعضّ «چوليان» على شفتيه واستعاد هدوءه وحذره ثم قال:

- لن أمكّنهم من هذا.

كانت الصالونات التي اجتازها هذان السّيدان في الدور الأول، قبل أن يصلا إلى مكتب المركيز، تبدو لك أيها القارئ قاتمة وإن كانت رائعة. ولو أنها عرضت عليك لتقطنها على حالتها الراهنة لرفضت. فهي تبعث على التثاؤب والتفكير الحزين، وإن زادت «چوليان» إعجاباً على إعجاب فأخذ يقول:

- كيف يمكن أن يكون المرء شقيًا إذا أتيح له أن يقضي بعض أيام حياته في مثل هذا المكان الجميل!؟

وأخيراً وصلا إلى أقبح غرفة في هذه الشقة البديعة، كان الضوء فيها ضئيلاً، وفيها رجل قصير صغير الجسم، قويّ النظرات، يلبس شعراً مستعاراً أشقر. التفت الأب إلى

«چوليان» وقدّمه إلى «المركيز دى لامول»، فعانى «چوليان» مشقة كبيرة في أن يتعرف عليه لأنه كان بادي الأدب في ذلك اليوم. لم يكن ذلك السيد المتعجرف الذي رآه في دير براى لاهو. وخيّل إليه أن شعره المستعار اليوم أكثر منه غزارة من قبل. وقوّت هذه الأحاسيس من نفسه فلم يستول عليه الخجل ولم يضطرب. وظنّ أول الأمر أن سليل صديق هنرى الثالث ذو هيئة تبعث على الرحمة والشفقة لشدة ضآلة جسمه وحركته الدائبة.

ولكنّه لحظ بعد قليل، أن المركيز قد أوتي من أدب الحديث ما لم يؤته رئيس أساقفة بيزانسون نفسه. ولم يدم اجتماعهما بالمركيز أكثر من ثلاث دقائق، خرجا بعدها فقال الأب پيرار لچوليان:

– لقد كنت تنظر إليه نظرة فاحصة كأنك سترسم له صورة. وأنا لست من أولئك المتشدديّن فيما يسمونه الأدب، وستعرف بعد قليل من هذا الأدب أكثر مما أعرف أنا منه، ولكنني لا أحب أن أخفي عليك أنّ نظراتك الجريئة لا توصف إلا بالقحة على ما أعتقد.

وركبا العربة مرة ثانية، فإذا ما وصل الحوذىّ بهما إلى شارع كبير وقف ؛ وذهب الأب إلى مبنى به عدة صالونات ومعه «چوليان» الذي لحظ أن هذه الصالونات تكاد تكون خالية من الأثاث. ورأى ساعة مذهبة فخمة معلقة على جدار تمثل إنساناً عدّه «چوليان» متهتكا؛ وبينما هو ينظر إلى ما حوله دخل عليهما رجل أنيق صبوح الوجه، فحياه چوليان تحية خفيفة، فابتسم الرجل ووضع يده فوق كتفه ففزع «چوليان» وارتدّ قليلاً إلى الخلف، واشتدّ به الغضب، فضحك الكاهن پيرار ضحكاً شديداً على الرغم من وقاره لأن هذا السيد لم يكن إلاّ حائكاً.

وبينما هما يغادران الحائك، قال الأب پيرار لچوليان:

– سأطلق سراحك يومين كاملين تتقدم بعدهما إلى السيدة المركيزة دى لامول. ولو كان غيري موكلاً بك لحافظ عليك كما يحافظ على عذراء وخاصة في هذه الأيام الأولى التي تقضيها في المدينة التي تعد بمثابة بابيلون الجديدة. تنقّل فيها كما تشاء وسأكفي نفسي مؤونة التفكير فيك؛ وبعد غد صباحاً، سيحمل إليك هذا الحائك ثوبين، وعليك أن تعطي العامل الذي يقيسهما لك خمسة فرنكات. وأوصيك ألا تسمع هؤلاء الپاريسيين صوتك، لأنك إن نطقت بكلمة وجدوا سبيلاً إلى السخرية منك؛ وهذه هي عبقريتهم. ثم تعال إليّ في ظهر بعد غد ... إذهب وتنقّل في پاريس كما تشاء ... لقد نسيت ... اشتر أحْذية وقمصاناً وقبعة من المتاجر التي بهذه الرقعة.

أخذ «چوليان» يتأمل الخط الذي كتبت به العناوين، فقال له الأب:

– إنه خط المركيز ؛ وهو رجل نشيط يفكر في كل شيء ويحبّ أن يعمل بنفسه أكثر مما يأمر الناس بعمل ما يريد. وسيدخلك في خدمته لتوفر عليه مثل هذه الأعمال التافهة. فهل أنت على جانب كبير من الذكاء، يمكنك من تنفيذ كل ما يأمر به هذا الرجل النشيط؟ لن يقول لك إلاّ بضع كلمات وعليك أنت أن تفهم ما يرمي إليه. وسيرينا

المستقبل ما إذا كنت جديراً بهذا، فخذ حذرك!

دخل «جوليان» على العمال الذين أرسله إليهم الأب پيرار دون أن يتكلم، ولحظ أنه استقبل في حفاوة وتبجيل حتى أنّ الحذاء وهو يدوّن اسمه في سجله كتب: السيّد جوليان دي سورل.

ثم ذهب إلى مقربة «پيرلاشزّ» فتطوع رجل جمّ الأدب، متطرف في آرائه وعرض عليه أن يدلّه على قبر الماريشال «ني» الذي حالت السياسة بينه وبين شرف كتابة عبارة تدلّ المرء على قبره. ولكنه حين فارق هذا الرجل - الذي كانت الدموع تترقرق في عينيه وهو يودعه، وأبى إلاّ أن يحتضن «جوليان» - تفقّد ساعته لم يجدها. وأفادته هذه التجربة كثيراً، حتى أنه وفى بوعده فذهب إلى الأب پيرار في ظهر اليوم الموعود ونظر إليه الأب طويلاً ثم قال له في لهجة قاسية:

- يخيل إليّ أنك ستكون غراً أبله.

وقد كانت هيئته تدلّ على أنه شاب في مقتبل العمر يلبس ثياب الحداد. كان في الواقع جميلاً أنيقاً لكنه لا يزال يحرك كتفيه في سيره على عادة أهل الريف الذين يعدون هذه الحركة أناقة وعظمة. وهذا الأب الطيب كان بدوره ريفياً كذلك، فلم ينتبه إلى هذه الحركة المعيبة. ولما وقع نظر «المركيز» على «جوليان»، كان له في أناقته رأى يخالف رأى الأب پيرار؛ فسأل الأب قائلاً:

- أتمانع في أن يتعلم «السيد سورل» بعض دروس في الرقص؟

فذهل الأب ذهولاً شديداً؛ ثم أجاب المركيز بعد برهة:

- لا، لأنه ليس قسيساً.

صعد المركيز سلّماً جانبياً ليدلّ بطلنا بنفسه على المسكن الذي أعدّ له، وكان يصعد كل درجتين في وثبة واحدة حتى وصل إلى سطح جميل مطلّ على حديقة القصر. ثم سأله عن عدد القمصان التي اشتراها. واستولى الحياء على «جوليان» حين رأى هذا السيد الخطير يشغل نفسه بمثل هذه التفاصيل التافهة وقال له:

- لقد اشتريت قميصين.

فقال المركيز في جدّ وفي لهجة تنطوي على الإيجاز والأمر، جعلت «جوليان» يفكر في أمره:

- حسناً، حسناً! اشتر اثنين وعشرين قميصاً أخرى. وهاك مقدار الربع الأول من مرتبك.

ثم نزلا من السطح، فنادى المركيز رجلاً مسناً:

- آرسين، أنت الموكل بخدمة السيّد سورل.

وما مضت دقائق حتى وجد «جوليان» نفسه في مكتبة فخمة، فأحسّ بأنه في أجمل

ساعات حياته. وأراد أن يخفي مشاعره، فذهب ليختفي في جانب مظلم من جوانب المكتبة، وتطلع في شغف كبير إلى ظهور الكتب البراقة وهو يقول في نفسه: في استطاعتي أن أقرأ كل هذه الكتب، فكيف إذن لا ترضينى الإقامة هنا؟ لو أن «السيد دى رينال» عمل لي جزءاً من مائة مما عمله المركيز لعدّ نفسه مسلوب الشرف إلى الأبد.

وبدأ عمله في الخطابات المطلوبة منه، حتى إذا ما انتهى أحسّ جرأة في نفسه فاقترب من الكتب. وكم كان سروره عظيماً حين عثر على مؤلفات ڤولتير. أسرع ففتح باب المكتبة حتى يأمن من أن يفاجأ وهو مكبّ على القراءة؛ ثم أخذ يتصفح في سرور كبير هذه الكتب الثمانين كتاباً بعد كتاب. وكانت كلها مجلدة تجليداً فاخراً عند خير عمال لندن، فزاد ذلك من سروره وسعادته.

ودخل عليه «المركيز» بعد ذلك بساعة، وتصفح الخطابات التي كتبها ولشدّ ما عجب حين رآه قد كتب Cela [1] بلامين لا بلام واحدة. فقال في نفسه: هل خدعني الكاهن پيرار حين تحدّث إليّ عن علمه الغزير؟ وأصيب بقنوط إلاّ أنه قال في حنان:

– ألست مستوثقاً من قواعد الإملاء؟

فأجابه «جوليان» دون تفكير فيما وقع فيه من خطأ، وكان متأثراً برقته التي ذكرته لهجة «السيد دى رينال» القاسية الخشنة:

– الحقّ أني ضعيف في الإملاء.

فقال «المركيز» في نفسه: إنها تجربة فاشلة تلك التي دفعني إليها الكاهن، ولكني كنت في أشدّ الحاجة إلى رجل أمين أثق به! ثم قال لجوليان:

– Cela تكتب بلام واحدة، وإذا ما انتهيت من كتابة الخطابات فتصفح المعجم لتبحث عن الكلمات التي تشكّ في هجائها. ثم استدعاه المركيز في الساعة السادسة، ولما مثّل بين يديه نظر إلى حذائه في ألم شديد وقال له: لقد ارتكبت خطأ لا أغتفره لنفسي لأني لم أقل لك إنه ينبغي أن ترتدي ثياباً أنيقة في منتصف الساعة السادسة من مساء كل يوم.

فنظر «جوليان» إليه دون أن يدرك ما يرمي إليه، فقال «المركيز»:

– أعني أنه يجب أن ترتدي الجوارب. وأرسين سيذكرك بهذا. أما اليوم فإن لك عذراً.

وحينما انتهى «المركيز» من هذه العبارة، تقدم «جوليان» إلى صالون مذهب رائع. وتذكر «جوليان» أن «السيد دى رينال» كان يسرع في خطاه في مثل هذه المناسبات

(١) كان هنرى بيل قد أخطأ في كتابة هذه الكلمة أول يوم عمل فيه بمكاتب قريبة بيير دارو راجع آخر صفحة «جـ» من مقدمة الجزء الأول . «المعرب».

ليكون هو أول الداخلين. فحمله غرور مولاه السابق على أن يسير في أثر «المركيز» على مقربة شديدة منه، فسبّب هذا للمركيز ألماً شديداً، لأنه كان مريضاً بالنقرس فقال في نفسه:

- آه! إنه فوق ذلك كله أبله! ثم قدم «چوليان» إلى سيدة ممشوقة القدّ، كثيرة التعالي، وما كانت سوى «المركيزة». رآها «چوليان» فوجدها تكاد تشبه مدام دى موچيرون عقيلة وكيل والي المقاطعة التي تقع فيها ڤريير، فهيئتها تنطوي على القحة يوم رآها في عشاء سان شارل. وأذهلته روعة الصالون وأبهته فلم ينصت إلى ما قاله «المركيز دى لامول» ؛ وتنازلت المركيزة ونظرت إليه نظرة خاطفة، وكان بعض الرجال يجلسون معها. ولشدّ ما فرح «چوليان» حين نظر فوجد من بينهم رئيس أساقفة «آجد» الذي تفضّل فتحدث إليه منذ بضعة شهور قبيل الحفلة التي أقيمت في براى لاهو. ومّما لا شك فيه أنّ هذا القس الشاب قد اضطرب قليلاً حين رأى أن نظراته التي تحمل الحنان والحياء لا تفارق وجهه؛ على أنه لم يعبأ كثيراً بالتعرف على هذا الريفي الذي يطيل النظر إليه.

رأى «چوليان» في وجوه المجتمعين في الصالون حين تصفحها معاني من الحزن والتزمت، فهم يتحدثون في پاريس بصوت منخفض ولا يبالغون في توافه الأشياء. وفي منتصف الساعة السابعة، دخل شابّ له شارب شاحب اللون ممشوق القامة، صغير الرأس إلى حدّ بعيد، فقبل يد «المركيزة» التي قالت له:

- إنك تتأخر دائماً عن الميعاد.

وأدرك «چوليان» أن هذا الشاب هو الكونت دى لامول؛ وقد أحبّه بطلنا لأول نظرة. وقال في نفسه: أهذا هو الرجل الذي ستطردني سخريته اللاذعة من هذا المنزل؟

ثم نظر طويلاً إلى الكونت نوربير، فرآه قد لبس حذاء ركوب ومهمازا ؛ فقال في نفسه: أما أنا فيجب أن ألبس حذاء لأنني أقلّ شأنا منهم كما توحى بذلك الظواهر. ثم انتقل الجميع إلى المائدة. وسمع «چوليان» المركيزة وهي تنطق بعبارة شديدة، وقد رفعت بها صوتها قليلا. وفي نفس الوقت رأى فتاة جدّ شقراء، على جانب كبير من الجمال تأتي فتجلس تجاهه، ولم يعجب بها «چوليان» باديء الأمر، لكنّه لما أمعن النظر فيها، رأى أن لها عينين لم ير مثلهما من قبل وإن كانتا تدلان على نفس جبلت على فتور شديد. ثم رآهما تنمّان عن الملل، وتذكر أن «مدام دى رينال» كانت لها عيون ساحرة يثني عليها الناس ثناء كثيراً، لكنها لا تشبه عيون هذه الشقراء في شيء. وكان لا يعرف أن ما يراه من نظرات لامعة في الفينة بعد الفينة، إنما يدلّ على حيوية النفس وقوتها؛ وقد سمع بعض الحاضرين ينادي هذه الفتاة باسم «ماتيلد». وحينما كانت تلمع نظرات «مدام دى رينال»، فما ذلك إلا استجابة إلى عواطفها القوية أو اشمئزازاً من قصة كريهة تقص عليها وتنطوي على الشر. ولما انتهت الوجبة، وفّق «چوليان» إلى ما يصف به جمال عيون «الآنسة دى لامول» فقال: إنهما براقتان متلألئتان، وفيما عد هذا فهي تشبه أمها شبهاً

كبيراً، تلك «المركيزة» التى أخذ «چوليان» ينفر منها قليلاً قليلاً حتى لم يعد ينظر إليها. أما الكونت نوربير فقد كسب محبته حتى رأى «چوليان» فيه الكمال بكل ألوانه وأعجب به اعجاباً كبيراً، ولم يفكر في أن يغار منه أو يكرهه ما دام أكثر منه مالا وأشرف محتداً. وأمّا «المركيز» فقد كان يستولي عليه السأم لو صح ظن «چوليان».

كان الخدم يقدمون اللون الثاني من الطعام فقال «المركيز» لابنه:

- نوربير، أوصيك خيراً بالسيّد چوليان سورل الذي عينته لخدمتي وكم أود أن أجعل منه رجلاً لو صحّ هذا. ثم قال لأحد جيرانه:

- إنه سكرتيري غير أنه يكتب Cela بلامين!

ونظر إليه الحاضرون فحياهم بخفض رأسه بحركة رأى نوبير أنه بالغ فيها؛ ولكنهم سروا بنظراته على كل حال. ولاشك أن «المركيز» قد حدّثهم عن ثقافته لأن أحد المدعوّين سأله وتحدّث إليه عن هوراس. فقال «چوليان» في نفسه: لقد نلت رضا رئيس أساقفة بيزانسون حين تحدثت إليه عن هوراس. ويخيّل إليّ أن هؤلاء الناس لا يعرفون غيره من الأدباء. ومنذ هذه اللحظة أصبح مسيطراً على نفسه، وتخفف من عبء أولئك الذين يراهم لأول مرة. وقد خيل إليه أنّ «الآنسة دى لامول» لن تكون يوماً ما امرأة يفتن بها. أما الرجال فقد ساء بهم ظنه منذ أن لقي منهم في المدرسة شراً وعنتاً، وأصبح لا يخشاهم في سهولة ويسر. ولو أن غرفة الطعام كانت أقلّ روعة وزينة مما كانت عليه، لاستمتع بهدوئه وسيطر تماماً على نفسه. كان في الغرفة مرآتان كبيرتان ارتفاع كل منهما ثماني أقدام، فكان «چوليان» ينظر إلى محدثه خلالهما وهو يتكلم عن هوراس بجمل قصيرة على غير عادة أهل الريف، وعيناه الجميلتان البراقتان يتجلي فيهما حياء وسعادة، ويزداد بريقهما كلّما أجاب أجابة حسنة حتى سرّ منه الحاضرون. وألقى هذا اللون من الامتحان بعض اللذة خلال هذا العشاء الوقور. وقد أشار «المركيز» إلى محدث «چوليان» أن يشتدّ عليه في الأسئلة، قائلاً في نفسه: أيعقل أن يعرف هذا الشاب شيئاً!

فكان يجيب عن هذه الأسئلة، وسرعان ما فارقه حياؤه، لا ليظهر ظرفاً لأن هذا لا يتيسر لمن يجهل لغة الپاريسيين، بل أدلى بآراء جديدة وإن لم تقدم لمستمعيها في طراقة وظرف، لكنها كانت برهاناً قويّا على أنه يجيد اللاتينية.

كان محدث «چوليان» عضواً فى مجمع الآثار، ومن غريب المصادفات أنه يعرف اللاتينية. فلما رأى الشاب يجيد الآداب القديمة بحيث لا يخشى عليه أن يخجل أمام الناس اشتدّ عليه فى الأسئلة والنقاش، واحتدمت المعركة، ونسى «چوليان» روعة الغرفة وجمال أثاثها، فأدلى عن الشعراء اللاتينيين بآراء لم يذكر محدثه أنه قرأها من قبل. فأثنى الرجل على هذا السكرتير الشاب ثناء مستطاباً. وأخذ الحاضرون -لحسن الحظ- يناقشون في ثروة هوراس، وهل هو غني أو فقير، وهل كان ظريفاً محباً للذاته مقبلاً عليها، يقرض الشعر للذته الشخصية مثل شاپل صديق موليير ومثل لافونتن؟ أو كان

شاعراً بائساً ينال قصب السبق بما يقرضه من شعر يوم عيد ميلاد الملك، مثله في ذلك مثل سوزى الذى اتهم اللورد بيرون؟ وعرضوا بعد ذلك إلى حالة المجتمع في حكم أوجست وچورج الرابع، أثناء هاتين الفترتين اللتين كانت الأرستقراطية فيهما في أوج قوتها، ثم عرضوا إلى ضعفها في روما حيث انتزع منها ميسين سلطانها، مع أنه لم يكن إلا فارساً عادياً غير ذي بال. أما في انجلترا، فقد جعلت الأرستقراطية من الملك چورج الرابع شخصاً كرئيس مشيخة البندقية. وأثار هذا النقاش «المركيز» وانتزعه من الخمول الذي كان سابحاً فيه في بدء العشاء من شدة السأم.

كان «چوليان» لا يدري شيئاً عن هذه الأسماء الحديثة مثل سوزى ولورد بيرون وچورج الرابع، فقد سمعها هنا لأول مرة في حياته. ولكن لم يفت على الحاضرين أنّ معرفته بالأحداث القديمة التي تتصل بروما وبالمؤلفين القدماء أمثال هوراس ومارسيال وتاسيت ومن إليهم، معرفة صحيحة عميقة لا يجارى فيها. وأخذ «چوليان» يعرض كثيراً من الآراء التي تعلمها من رئيس أساقفة بيزانسون ليلة تحدثا معاً؛ وكان لهذه الآراء قيمتها عند السامعين.

ثم ملّ الحاضرون الحديث عن الشعراء، وتفضلت المركيزة فنظرت إلى «چوليان» لأنها فطرت على الإعجاب بكل ما يسرّ زوجها، واتخذت هذا المبدأ قانوناً تسير عليه في حياتها. وقال لها عضو المجمع الذي كان يجلس على مقربة منها: يخيّل إليّ أنّ هذا الخوريّ شاب واسع الثقافة على الرغم من أن في طرقه خرقاً وغفلة. وقد سمع «چوليان» بعض ما قاله هذا المجمعي، وكانت الجمل والعبارات التي تقال على هذا النحو تعجب المركيزة؛ حتى اقتبست العبارة التي سمعتها عن «چوليان» لتتمثل بها فيما بعد، ثم دعته إلى تناول العشاء اعترافاً بفضله عليها قائلة:

– إنه يدخل السرور على نفس «المركيز دى لامول».

الفصل الثالث
الخطوات الأولى

هذا الوادي الشاسع الذي تشع في أرجائه أضواء متلألئة كثيرة ويزدحم فيه الناس يعشي بصري. لا يعرفني واحد من هؤلاء، وهم جميعاً خير مني. إن عقلي ليضل!

بؤثمي دلآف رينا

جلس «چوليان» في المكتبة في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي يكتب خطابات، فدخلت عليه الآنسة ماتيلد من باب جانبي صغير، أخفته ظهور الكتب عن أن تراه العيون. كان هو معجباً بهذا الاختراع حين رأى باباً ينفذ في الجدار، وكانت هي في حيرة من أمرها لأنها لم تكن تتوقع أن تراه في المكتبة. فتضايقت حين وقع بصرها عليه. رآها وقد لفت شعرها تريد تجعيده فكانت قاسية الهيئة متعالية، ليس فيها شيء من الأنوثة. أمّا دخولها المكتبة فكان لأنها اعتادت أن تسرق من مكتبة أبيها كتباً دون أن ينتبه أحد إلى ما تفعل؛ وقد حال وجود «چوليان» بينها وبين ما تريد. فغضبت لاسيما وقد حضرت لتأخذ المجلّد الثاني من «أميرة بابليون» تأليف ڤولتير، وهو ضرب من الاطلاع يعتبر تتمة محترمة لتعليم ملكيّ متطرف، وروح دينية خالصة شبّت عليها في معاهد القلب المقدس! وهذه الفتاة البائسة، وهي في التاسعة عشرة من عمرها، لا تزال في حاجة إلى ما يستهوي نفسها لتقرأ قصة.

وفي الساعة الثالثة، ذهب الكونت نوربير إلى المكتبة يدرس صحيفة يومية ليستطيع التحدث في السياسة مساء؛ وسُرّ بلقاء «چوليان» وكان قد أنس بوجوده. كان جمّ الأدب معه حتى عرض عليه أن يصحبه في نزهة على ظهر جواد قائلاً:

– إن أبي يعطينا إجازة حتى وقت العشاء.

فهم «چوليان» نون الجماعة في قوله يعطينا، وسرّ من هذه اللفتة الكريمة وقال له:

– يا إلهي! لو أن سيّدي الكونت طلب مني أن أقطع شجرة يبلغ ارتفاعها ثمانين قدماً، ثم أنحتها وأقطعها ألواحاً لجرؤت على أن أقول: إنني سأقوم بهذا العمل خير قيام، أما أن أمتطي جواداً فإني لم أفعل ذلك من قبل أكثر من ست مرات في حياتي.

– ستكون هذه هي المرة السابعة.

والواقع أن «چوليان» تذكر دخول ملك ...ڤريير، وظنّ أنه يجيد ركوب الجياد. ولكنه عند عودته من غابة بولونيا سقط عن ظهر جواده، فتلطخ بالأوحال في وسط شارع باك حين أراد أن يتفادى عربة من العربات. ومن حسن الحظ أن قد اشتروا له حلتين، وأراد

«المركيز» أن يتحدث إليه وقت العشاء فسأله عن نزهته؛ فأسرع نوربير في الإجابة بعبارات عامة، لكنّ «چوليان» قال:

– إنّ سيدي الكونت لكبير الطيبة معي إلى أبعد حد، وإني لأشعر بهذا وأقدره حقّ قدره وأشكره عليه كثيراً ؛ فقد تفضل فأعطاني خير الجياد وأجملها وأسلسها قياداً، ولكنه نسي أن يربطني على ظهر الجواد فسقطت وسط ذلك الشارع الطويل القريب من الجسر.

وحاولت «الآنسة ما تيلد» أن تخفي ضحكة عالية عندما سمعت حديثه، وسرعان ما دفعها فضولها إلى أن تطلب منه التفاصيل. فأجابها «چوليان» إجابة فيها كثير من البساطة، ولا تخلو من ظرف غير مقصود، فقال «المركيز» لعضو المجمع:

– إني أتفاءل خيراً لهذا القسّ الشاب. يا له من ريفي ساذج في مثل هذه الأحوال! لم أر له نظيراً ولن أرى له مثيلاً! والأدهى من ذلك أنه يقصّ علينا ما أصابه من سوء على مسمع من السيدات!

وسرّ المدعوون بما قصه عليهم «چوليان» سروراً كبيراً، حتى أن «الآنسة ماتيلد» سألت أخاها في نهاية العشاء عن هذا الحادث المؤلم. وطرق الضيفان موضوعاً آخر أخذوا يتحدثون فيه، على حين ظلت أسئلتها وقتاً طويلاً، وچوليان ينظر إلى عينيها ويجيب عن أسئلتها مباشرة دون أن تسأله. وكان ثلاثتهم يضحكون كما يفعل شبان ثلاثة من سكان قرية في داخل غابة.

وفي اليوم التالي، ذهب «چوليان» يتلقى درسين في علم اللاهوت ثم عاد ليكتب عشرين خطاباً، رأى في المكتبة على مقربة منه شاباً أنيقاً لكنّ هيئته تدلّ على الحقارة ووجهه ينمّ عن الحسد.

دخل «المركيز» وخاطب هذا الشاب في لهجة شديدة:

– ماذا تفعل هنا يا سيّد تانبو؟

فابتسم الشاب فى حقارة قائلاً: كنت أظن . . . .

– لا يا سيدي، أنت لا تظن شيئاً. لقد كانت تجربة إلاّ أنها فاشلة.

فنهض تانبو غاضباً واختفى. وتانبو هذا حفيد عضو المجمع صديق «مدام دى لامول»، وكان مكلفاً بكتابة الخطابات. وقد استطاع عضو المجمع أن يجعله سكرتيراً «للمركيز». كان تانبو يعمل في غرفة بعيدة، ولما علم بما يلقاه چوليان من عطف ومودة، أراد أن يشاطره هذه العواطف الكريمة فأتي في الصباح بأدوات الكتابة وجلس في المكتبة.

وفي الساعة الرابعة جرؤ «چوليان» على أن يتقدم إلى الكونت نوربير بعد أن تردّد طويلاً، وكان الكونت الشاب على وشك أن يمتطي جواده، فلما ظهر «چوليان» اضطرب لأنه جم الأدب وقال له:

- يخيل إليّ أنك ستذهب قريباً لترويض الخيل، وبعد بضعة أسابيع سأكون سعيداً جداً حين تستطيع أن تشاركني نزهاتي.

فقال «چوليان» في لهجة جادّة:

- أردت أن أتشرّف بشكرك على ما أظهرته لي من عطف ورعاية، وإني لأقدر هذا العطف حقّ قدره، ثم إني أودّ أن أمتطي جوادك اليوم إذا لم يكن قد جرح أمس من سوء تصرفي، أو إذا لم يكن سيركبه الآن غيري.

- لك ما تريد يا عزيزي سورل ولكن أنت المسئول عمّا يحدث لك. وهب أنني عارضت في اصطحابك كما يملي عليّ الحذر والفطنة، فلا شك أني سأضيع وقتي سدى والساعة الآن الرابعة. ولما امتطى «چوليان» الجواد سأل الكونت:

- ماذا يجب أن أفعل حتى لا أقع؟

فضحك الشاب ضحكاً عالياً وقال:

- أشياء كثيرة كأن يكون جسمك دائماً إلى الخلف.

وكانا قد وصلا إلى ميدان لويس السادس عشر فأخذ «چوليان» يعدو بجواده فقال نوربير:

- آه! يا لك من شاب جريء! إنّ الطريق مزدحم بعربات يسوقها الحمقى! ولو أنك سقطت لمرت على جسمك هذه العجلات دون أن يعنوا كثيراً بشدّ أعنّة الجياد ليوقفوها من أجلك؛ وذلك حتى لا يجرحوا أفواهها.

وكم من مرة رأى نوربير «چوليان» وهو يكاد يسقط عن ظهر الجواد، ولكنّ نزهتهما انتهت مع هذا في سلام! ثم عادا إلى القصر فقال الكونت لأخته:

- أقدّم إليك شاباً جريئاً غير هيّاب ولا يخاف المخاطر!

وتحدث إلى والده أثناء العشاء، وكان عند طرف المائدة وأبوه عند الطرف الآخر، فأثنى على جرأة «چوليان»؛ وأخبره بأن الجرأة هي خير ما يمدح فيه حين يمتطي جواداً.

وكان الكونت الشاب قد سمع في الصباح سوّاس الخيل يتحدثون عن سقوط «چوليان» في الشارع ويتناولونه بالسخرية اللاذعة.

وعلى الرغم من كل هذا العطف وهذه الرقة، فسرعان ما شعر چوليان بأنه غريب عن هذه الأسرة، لأن عاداتهم غريبة عليه لا علم له بها من قبل، ولأن أخطاءه مصدر سرور الخدم.

أما الأب پيرار فقد سافر للاستشفاء قائلاً في نفسه: إذا كان «چوليان» شخصاً ضعيفاً فليهلك؛ أما إذا كان قويّا شجاعاً فلن يحتاج إلى من يعتمد عليه وسينجو من كل ما يصيبه.

الفصل الرابع
قصر دى لامول

ماذا يعمل هنا؟ هل تعجبه الإقامة؟ وهل يفكر في أن الإقامة هنا سترضيه؟

رونسار

إن بدا كلّ شيء غريباً على «چوليان» في هذا الصالون الفخم، صالون قصر دى لامول، فقد كان هذا الشاب الشاحب المتشح بالسواد يبدو بدوره غريباً كذلك لأولئك الذين كانوا يتفضلون فينظرون إليه. واقترحت مدام دى لامول على زوجها أن يكلفه عملاً خارج القصر في الأيام التي يدعون فيها شخصيات كبيرة لتناول الطعام على مائدتهم.

فقال لها زوجها:

- في نيتي أن أطبق هذه التجربة حتى النهاية، لأن الأب پيرار يزعم أننا مخطئون حين نعمد إلى جرح كبرياء أولئك الذين يعملون عندنا. والمرء لا يعتمد إلاّ على من يستطيع المقاومة ... ولا عيب في «چوليان» إلا وجهه الغريب على من يترددون علينا، أمّا ماعدا هذا فهو أصمّ أبكم.

وكان «چوليان» قد تحدث إلى نفسه قائلاً: لكي أعرف هذه الوجوه التي تتردّد على الصالون، يجب أن أكتب أسماءهم وكلمة عن أخلاق كل واحد منهم.

ثم وضع في رأس القائمة أسماء خمسة أو ستة من أصدقاء المنزل الذين يتملقون «چوليان» ويتقربون إليه في كل فرصة، مؤمنين بأنه مقرّب إلى «المركيز» إرضاء لإحدى نزواته. إنهم أناس فطروا على المذلة والهوان ؛ ولكن يجب أن نعترف، إنصافاً لهذه الطبقة من الرجال التي نراها في صالونات الأرستقراطيين اليوم، أنها لا تقبل الذلة والهوان من جميع الناس. فمنهم من يقبل الإهانة من «المركيز» ولكنّه يثور إذا سمع كلمة قاسية من مدام دى لامول.

وخلق المركيز والمركيزة ينطوي على كبر شديد وسأم مميت، لقد اعتادا أن يتخلصا من سأمهما مما يوجهان إلى الناس من إهانة وسبّ، فأصبح لا يبقى عليهما إلاّ أخلص الأصدقاء. وفيما عدا الأيام العصيبة واللحظات التى يستولي عليهما فيها الملل -وما أقل ذلك- كانا يتّصفان دائماً بأدب جمّ. لو أن هؤلاء الخمسة أو الستة من الرجال غادروا قصر دى لامول، لشعرت المركيزة بوحدة قاتلة. والوحدة في نظر سيدات هذه الطبقة مخيفة مؤلمة، لأنها علامة مقت وغضب، لذلك حرصت على بقاء هؤلاء الذين كانوا يظهرون

لجوليان صداقة كبيرة وعطفاً أبوياً.

وكان «المركيز» مهذّباً مع امرأته إلى أبعد الحدود ؛ دائم العناية بصالونه، حريصاً على أن يؤمه الكثير من الناس. وكان يرى أن زملاءه أعضاء المجلس الأعلى ليسوا عريقين في الأرستقراطية ليترددوا عليه كأصدقاء، وليسوا مسلّين ليدخلوا صالونه كتابعين.

ولم يكتشف «چوليان» هذا السرّ إلا بعد وقت طويل من إقامته في القصر. فالسياسة الموجّهة التى تتحدث بها الطبقات البرچوازية دائماً لا تعرض لها الطبقات الأرستقراطية إلا في الأوقات العصيبة.

وظاهرة الرغبة في أن يسري الإنسان عن نفسه في هذا القرن الذي استولى عليه الملل تتجلّى حتى في أيام الولائم التي تقام في القصر، إذ ما يكاد «المركيز» يغادر الصالون حتى يفر المدعوون فراراً. ويستطيع الإنسان أن يتحدّث في كل شيء ما لم يسخر من الله أو من القسس أو من الملك أو من ذوي الشأن، أو من الفنانين الذين يحميهم البلاط، أو من كل ما هو ثابت مقرر. ويستطيع كذلك أن يتحدث في كل شيء: يمدح بيرانجيه أو صحف المعارضة، ما لم يذكر فضل ڤولتير وروسو وأضرابهما ممن يشيدون بحرية الرأي، وما لم يخض على الأخصّ في أمور سياسية.

وأولئك الذين يبلغ دخلهم مائة ألف إيكو، أو يحليهم الوسام الأزرق، عاجزون عن محاربة القواعد التى تسير عليها هذه الصالونات. وكل رأي فيه شيء من القوة يوصف بأنه رأي وقح. كان الملل يُقرأ في وجوه جميع من يغشون صالون المركيز على الرغم من لهجتهم الظريفة وأدبهم الجم، ورغبتهم الأكيدة في أن يكونوا موضع إعجاب الحاضرين. أما الشبّان الذين كانوا يزورون دى لامول، أداء لواجب يفرض عليهم، فإنهم يخافون خوفاً شديداً من أن يفضحهم رأي يدلون به، أو قراءة حرّمت عليهم، فيلزمون الصمت بعد أن ينطقوا بعبارات طريفة عن روسينى وحالة الجو.

ولاحظ «چوليان» أن الحديث يظلّ قوياً حين يتولاه اثنان بلقب ڤيكونت، وخمسة من البارونات عرفهم «المركيز دى لامول» أثناء هجرته. وكان كل واحد من هؤلاء السادة يبلغ دخله ستة آلاف أو ثمانية آلاف من الفرنكات ؛ يتحزب أربعة منهم لجريدة «لاكوتدين» ويتحزب الثلاثة الآخرون لجريدة «جازت دى فرانس». وكان أحدهم يقصّ كل يوم قصصاً تقابل بالاستحسان، وقد لاحظ «چوليان» أنه يتحلى بخمسة أوسمة، أما الآخرون فليس لكل منهم عادةً إلا ثلاثة أوسمة فقط.

ويمتاز قصر «المركيز دى لامول» بشيء آخر: ففي ردهته خدم عليهم ملابس فاخرة، يقومون على راحة المدعوّين ويقدّمون لهم المثلجات أو الشاي في كل ربع ساعة. وفي منتصف الليل يقدّم لهم طعام ونبيذ وشمپانيا. وكان هذا هو السبب الذي يحمل «چوليان» على البقاء حتى نهاية السهرة. وفيما عدا ذلك لم يكن يستطيع أن يدرك كيف ينصت

الإنسان في جدّ ووقار إلى تلك الأحاديث التي تدور في هذا الصالون الذي زين أفخر زينة. وكان ينظر في بعض الأحيان إلى المتحدثين ليرى ما إذا كانوا يسخرون هم أنفسهم مما يقولون. وكثيراً ما كان يقول في نفسه: إن السيد دى ميتر الذي حفظ كلامه عن ظهر قلب قال كلاماً خيراً من هذا مائة مرة، ومع ذلك فهو يبدو لي مملاً.

لم يكن «چوليان» وحده هو الذي يشعر بوطأة هذا الاختناق الأدبي. لكن غيره كانوا يتناولون مثلجات كثيرة تخفف عنهم ما هم فيه؛ وآخرون يمكثون ليفاخروا بأنهم قضوا السهرة في قصر دى لامول حيث حدثوا بأن روسيا ... .

وعلم «چوليان» من أحد المتملقين أن مدام دى لامول كافأت البارون لى برجونيون منذ ستة أشهر على مواظبته التامة طوال عشرين عاماً، فعيّن حاكماً بعد أن كان حاكماً بالنيابة من عهد إعادة الملكية. فزاد هذا الحادث الكبير من همة هؤلاء السادة ومن نشاطهم. وقد كانوا من قبل يغضبون لأقل شيء، فأصبحوا الآن لا يغضبون من شيء إطلاقاً. وكان المترددون على آل دى لامول يعاملون بالحسنى، لكن حدث أن استمع مرتين أو ثلاث مرات إلى حديث دار على المائدة بين المركيز وزوجه؛ حديث قصير موجز لكنه يجرح الذين كانوا على مقربة منهما؛ لأن هؤلاء الأشراف يخفون احتقارهم للذين هم من غير سلالة من اصطحبوا الملوك. وقد لحظ «چوليان» أن كلمة صليبية هي الكلمة الوحيدة التي تطبع على وجوههم علامة الجد العميق الذي يخالطه الاحترام. أما التجلة العادية فكان فيها شيء من الملاطفة والخفة.

وكان «چوليان» لا يهتم إلاّ بالمركيز دى لامول على الرغم من هذا الترف الذى يعيش فيه وهذا السأم الذى يلازمه؛ وكم سرّ حين سمعه يوماً يحتج على ما نسب إليه من ترقية لي بورجونيون، وكانت هذه لفتة منه لصالح المركيزة، وعرف «چوليان» الحقيقة من الأب پيرار: فبينما كان يعمل هو والكاهن پيرار ذات صباح فى المكتبة مكبّين على دراسة القضية العتيقة: قضية فريلير، سأله «چوليان» بغتة قائلاً:

- هل العشاء يا سيّدي مع المركيزة في كل ليلة واجب من واجباتي أو هو عطف عليّ منهم؟ فأجابه پيرار كأنه صعق مما سمع:

- إنه شرف عظيم! إنّ عضو المجمع السيد. ن .. الذي يتملقها منذ خمسة عشر عاماً لم يستطع أن ينال مثل هذا الشرف لحفيده السيد تانبو.

- أنا أعدّ هذا العشاء يا سيدي أشقّ شيء عليّ في عملي الحاضر. كنت في المدرسة لا ألقى ما ألقاه الآن من الملل أثناء هذه الوجبات. وإني لأرى الكل يتثاءب حتى «الآنسة دى لامول» التي اعتادت رؤية الأصدقاء المتردّدين على المنزل. وأنا أخشى أن يغلبني النعاس. فرفقاً بي يا سيدي، واحصل لي على إذن لأغيب عن العشاء، فخير لي أن أتناول طعاماً بفرنكين في نزل حقير.

كان الأب پيرار من المحدثين الذين يرون في تناول الطعام على مائدة سيد عظيم

شرفاً كبيراً، فجعل يحاول جهده أن يفهم «چوليان» هذا الشعور ويقنعه به. وبينما هما كذلك إذْ سمعا ضوضاء خفيفة فالتفتا فوقع نظر «چوليان» على «الآنسة دى لامول» التي كانت تنصت إلى حديثهما، فاحمرّ وجهها خجلاً. لكنها قالت في نفسها: ليس لهذا الشاب مثل وضاعة هذا الكاهن العجوز، فيا له يا إلهي من كهل قبيح!

لم يجرؤ چوليان على النظر إليها أثناء العشاء، فتلطفت معه ووجهت إليه بعض عبارات. وفي ذلك اليوم كانوا ينتظرون زيارة كثيرين من المتردّدين عليهم، فطلبت منه أن يبقى. والفتيات الپاريسيات لا يحببن من تقدمت بهم السن من الرجال وخاصة إذا تأنقوا في ملبسهم. ولم يكن «چوليان» في حاجة إلى كثير من الفطنة ليدرك أن أصدقاء لى بورجنيون الذين ظلوا جالسين في الصالون نالوا شرف سخرية لاذعة من «الآنسة دى لامول». وسواء أكانت تتظاهر بهذا في ذلك اليوم أم كان هو طبعها الحقيقي، فإنها كانت قاسية شديدة الوطأة على أولئك الذين بعثوا الملل في نفوس الحاضرين. كانت «الآنسة دى لامول» المحور الذي يدور حوله فريق من الشبان، يجتمعون كل مساء خلف المقعد الكبير الذي تجلس عليه المركيزة. فيأتي المركيز دى كروازنوا والكونت دى كايلوس والڤيكونت دى لوز واثنان أو ثلاثة من الضباط الشبان من أصدقاء الكونت نوربير أو من أصدقاء أخته؛ ثم يجلس هؤلاء السادة جميعاً على أريكة زرقاء. أما «چوليان» فكان يجلس على مقعد منخفض صغير من القش، وضع إلى طرف أريكة تقابل تلك التي كانت تجلس عليها «ماتيلد». وكان كثير من المتملقين يحسدونه على مكانه المتواضع. كان «چوليان» يلزم الصمت إلا أن الكونت نوربير كان يرعاه لأنه كان سكرتير أبيه، فيوجّه إليه بعض كلمات أو يذكر اسمه مرة أو مرتين أثناء السهرة وفي ذلك اليوم سألته «الآنسة دى لامول» عن مقدار ارتفاع الجبل الذي تقوم عليه قلعة بيزانسون، فلم يستطع أن يجيب لأنه لم يكن يعرف ما إذا كان هذا الجبل أعلى من مونمارتر أو أقلّ منها ارتفاعاً. وكثيراً ما كان يضحك في سرور كبير مما يقوله هؤلاء الشبان؛ ولكنه كان يشعر بأنه عاجز تمام العجز عن أن يقول مثل ما يسمع. كان كأنه يسمع لغة أجنبية، يفهمها ولا يستطيع التحدث بها.

وكان أصدقاء ماتيلد في هذه الليلة بالمرصاد لكل الوافدين على هذا الصالون الواسع. والأصدقاء المترددون على القصر أولى بالتجريح لأنهم أكثر معرفة بهم من سواهم. ولسنا في حاجة إلى أن نقول إن «چوليان» كان شديد الانتباه لما يقال؛ لأنه معجب بطريقة نقد هؤلاء الناس والعبث بهم. قالت «ماتيلد» لأصدقائها:

– آه! ها هو السيد ديكولى، إنه لم يعد يضع شعراً مستعاراً على رأسه. أيبغي أن يصل إلى أن يكون حاكماً بفضل عبقريته؟ إنه يعرض علينا هذه الجبهة الصلعاء التي يقول إنها تحوي آراء قيمة. فقال المركيز كروازينوا:

– إنه يعرف الأرض ومن عليها، وكثيراً ما يتردد على عمّى الكردينال. وله مائتان أو ثلثمائة صديق يعرف كيف يكذب على كل منهم، ويتعهد كذبه سنوات عديدة.

وعبقريته تظهر في حرصه الشديد على صداقة أصدقائه. وهو كما ترونه يذهب إلى منزل من منازل أصدقائه شتاء في الساعة السابعة صباحاً، ولو كان الوحل عالقاً بملابسه. وقد تسوء العلاقة بينه وبين صديق في يوم من الأيام، فيكتب لهذا الصديق سبعة خطابات أو ثمانية يعلنه فيها بانتهاء الصداقة بينهما، ثم تعود الصداقة من جديد. وهو كما يكتب خطابات للقطيعة فإن لديه ثمانية خطابات تعبّر عن مشاعر الصداقة الخالصة. وأهمّ ما يمتاز به ميله إلى الصراحة والإخلاص، مثله في هذا مثل الرجل الطيب القلب الذي لا تنطوي نفسه على الكراهية والبغضاء. وهذه الصفة تظهر بوضوح وجلاء حين تكون له حاجة عند إنسان. وإن أحد نواب عمي الكردينال يصوّر حياة السيد ديكولى منذ عودة الملكية تصويراً بارعاً حقاً، وسأحضر لكم هذا النائب. فقال الكونت دى كيلوس:

– آه إنّي لا أصدق ما يقال، لأن مصدره الغيرة بين أمثال هؤلاء الناس الذين يعملون في مهنة واحدة فقال المركيز:

– إنّ السيد ديكولى سيُذكر اسمه في التاريخ ؛ فهو الذي أعاد الملكية هو والكاهن دى برادت والسيدان تاليران وبوزودى بورجو. وقال نوربير:

– لقد قاد هذا الرجل الملايين من الناس، ويخيل إليّ أنه لا يأتي هنا ليأخذ من أبي نقوداً على ما يسمعه من هجاء مقذع في كثير من الأحيان. لقد قال له أبي منذ أيام: كم خنت صديقاً لك يا عزيزي ديلكو؟ وكان يقول له ذلك من طرف المائدة ليسمعه وهو في الطرف الآخر.

فسألت «الآنسة دى لامول»:

– ولكن هل خان أصدقاءه حقاً؟ ومن ذا الذي لم يخن؟

فقال الكونت دى كيلوس لنوربير:

– مَنْ أرى؟ أهذا هو السيد سينكلر؟ إنّه لشهير بين الأحرار. يا للشيطان! لماذا جاء هنا؟ يجب أن أقترب منه وأن أتحدث إليه وأحمله على أن يتكلم معي. لقد قيل لي أنه شديد الفطنة!

فسأله المركيز دى كروازينوا:

– ولكن خبّرني كيف تحمل والدتك على استقباله؟ إنه لرجل متطرف في آرائه، حر العقيدة والفكر ... فقالت «الآنسة دى لامول»:

– أنظروا لتروا هذا الرجل، ذا العقيدة الحرة والآراء الشخصية، كيف يحيي السيد ديكولى. إنه لينحني حتى يكاد يلمس الأرض! وقد كدت أعتقد أنه يمسك بيده ليقبلها. فقال دى كروازينوا:

– يخيل إليّ أن ديكولى على صلة بأولي الأمر أكثر مما نظن.

فقال له نوربير:

- إن سينكلر يتردّد علينا ليختار عضواً في المجمع، فانظر يا كروازينوا كيف يحيي البارون ل ... فقال السيد دى لوز:

- لو أنه ركع أمامه ما كان أقلّ حطّه وضعة من موقفه الحالي. ثم قال نوربير:

- عزيزي سورل، إنك لذو ذكاء ولكنك وفدت علينا من الجبال، فحذار أن تحييّ الناس كما يفعل هذا الشاعر الكبير. لا تفعل مثله إلاّ وأنت تصلّي لله.

ثم قالت «الآنسة دى لامول»، وهى تحاكي صوت الخادم الذي يعلن قدوم الزائرين بأسمائهم:

- آه ها هو ذا الرجل الذكيّ حقاً البارون باثون. فقال السيد دى كايلوس:

- يخيل إليّ أن خدمكم يسخرون منه، فياله من اسم: البارون باثون! فقالت ماتيلد:

- لقد قال لنا منذ أيام إنّ الاسم لا يضير حامله واستطرد يقول: تصوّروا أن شخصاً يسمّى الدوق دى بويّون ينطق اسمه لأول مرة أمام الجماهير، قد يعجبون لهذا الاسم حين سماعه ولكنهم سرعان ما يعتادونه بعد ذلك.

غادر «چوليان» مقعده بجوار الأريكة ولم يتأثر كثيراً بما يبديه هؤلاء الشبان من سخرية لاذعة تنمّ عن روح لطيفة ونفس رقيقة، زاعماً أنّ النكتة لا تضحك إلاّ إذا كان التفكير عنصراً أساسياً فيها. ولم يلمح في كلام هؤلاء الشبان إلاّ لهجة تنطوي على الازدراء، فتألم منها. وقد صوّر له حياؤه الريفي أو الانجليزى أنهم يحسدون من ينقدونهم من الرجال، وقد أخطأ في ظنه هذا خطأ كبيراً.

أخذ يتحدّث إلى نفسه قائلاً: لقد أراد الكونت نوربير أن يكتب لرئيسه الكولونل خطاباً لا يزيد على عشرين سطراً فسوّد هذا الخطاب ثلاث مرات على مرأى مني. وكم كان سعيداً لو أنه استطاع أن يكتب في حياته صفحة واحدة من تلك الصفحات التي يكتبها السيد سينكلر!

وأخذ «چوليان» ينتقل بين الجماعات لا يشعر به أحد لأنه ليس ذا خطر. ثم عمل على أن يتبع ما يقوله البارون باثون وينصت من بعيد إليه. وخيّل إليه أن هذا الرجل الشديد الذكاء كان يبدو عليه القلق؛ وتبيّن لچوليان أن البارون لم يطمئن إلى نفسه إلاّ حين عثر على بعض عبارات مثيرة، فبدا لبطلنا أن مثل هذا اللون من الذكاء في حاجة كبيرة إلى فضاء واسع لتظهر مواهبه.

والواقع أنّ هذا البارون كانت لا تنفعه الكلمات، فقد كان في حاجة إلى أربع جمل تتكون كل منها من ستة سطور ليظهر ذكاؤه اللامع، حتى أن أحد الحاضرين ممن كانوا يقفون خلف «چوليان» قال:

- هذا الرجل لا يتكلم وإنما يفاوض!

التفت «چوليان» مسروراً حين سمع اسم الكونت شلفيه الذي يعدّ ألطف رجال العصر

نفساً وأرقهم حساً. وكثيراً ما صادف چوليان هذا الاسم وهو يقرأ مذكرات سانت هيلانه والأخبار التاريخية التي أملاها ناپليون بنفسه. كان الكونت شلڤيه يتوخّى الإيجاز الشديد في أحاديثه. وكلماته صائبة قوية عميقة كأنها البرق؛ إذا طرق أمراً دار فيه الحديث بين الحاضرين بسرعة كبيرة. لكنه يدلي فيه بوقائع صائبة، يدخل بها السرور على قلوب سامعيه. أما في السياسة فهو سفيه كلّ السفاهة. وكان في هذه الليلة يتحدث إلى سيد زُيّن صدره بثلاثة أوسمة، وكأنّ شلڤيه كان يسخر منه حين قال:

– إني مستقلّ. ولماذا تطالبني بأن أتمسّك بنفس الرأي الذي أبديته منذ ستة أسابيع؟ إنّي إن فعلت هذا كنت عبداً لرأيي.

وكان يقف بجوار الكونت أربعة رجال تظهر على وجوههم دلائل الجدّ والوقار. وسمعوا حديثه فبدا عليهم الامتعاض، لأنهم لا يحبّون هذا اللون من المزاح والسخرية. فأدرك الكونت أنه ترك نفسه يقول أكثر مما ينبغي؛ ومن حسن حظه أن رأى السيد بلّلان، الرجل الأمين، المنافق في أمانته، فتحدث إليه واقترب منهما بعض الحاضرين، وقد أدركوا أن هذا الرجل التعس سيكون ضحية من ضحايا شلڤيه بما سيسمعه من سخرية مريرة. ذلك أن السيّد بلّلان بدأ حياته بدءاً يصعب علينا أن نعرض له. وعلى الرغم من أنه قبيح الوجه إلى أبعد حدّ، فقد تمكن من أن يتزوج سيدة كبيرة الثراء بفضل ما كان يزعمه من تمسك بالأخلاق والسيرة الحميدة. وماتت هذه السيدة فتزوج أخرى كثيرة المال لكن الناس لم يعودوا يرونها في المجتمعات. وقد أصبح السيد بلّلان يتمتع بدخل يبلغ ستين ألفاً من الفرنكات، أتاح له أن يحاط بالمتملقين في غدواته وروحاته. تحدث إليه الكونت شلڤيه في هذا كله، دون أن تأخذه به رأفة أو رحمة؛ وسرعان ما التفّ حول الرجلين عدد كبير من الحاضرين يبلغ ثلاثين شخصاً، وأخذوا يبتسمون جميعاً حتى أولئك المتوقرون من الشباب الذين هم أمل عصرهم الحاضر.

أخذ «چوليان» يسائل نفسه: لماذا يأتي هذا الرجل إلى قصر المركيز دى لامول، وهو موضع سخرية واستهزاء فيه؟ ثم اقترب من الكاهن پيرار علّه يجد عنده جواباً، فرأى السيد بللان ينصرف وسمع نوربير يقول:

– حسناً! لقد غادرنا جاسوس من جواسيس أبي ولم يبق إلا هذا الصغير الأعرج ناپييه. فقال «چوليان» في نفسه: هل تكشف لي هذه العبارة عن السر؟ وإذا صحّ هذا فلماذا يستقبل المركيز السيد بلّلان؟

كان الكاهن پيرار في ركن من أركان الصالون يكفهرّ وجهه حينما يسمع الخدم يعلنون أسماء القادمين، فأخذ يقول كما قال بازيل:

– كأن هذا الصالون كهف لا أرى فيه إلاّ الذين خلعوا عذار الحياء. ذلك لأن هذا الكاهن الصارم لا يعرف ما يدور في المجتمع الراقي ولا فيما يمت إليه بصلة. ولكنه علم من أصدقائه المتعصبين مثله لمذهب يَنسينيُوس أشياء كثيرة دقيقة عن المتردّدين على

الصالونات. علم أنهم لا يبتغون من وراء ذلك إلاّ خدمة الأحزاب جميعاً، أو يبغون نفعاً خاصاً، لا يراعون في سبيل الحصول عليه عهداً ولا ذمّة. ظل پيرار بضع دقائق يجيب على أسئلة «چوليان» وبطلنا يوجه إليه السؤال إثر السؤال، ثم توقف عن الإجابة بغتة وهو حزين كاسف البال لأنه لم يتناول الناس في إجاباته إلاّ بالذم والعيب ويصفهم بالإثم والعدوان. كان الأب غضوباً متعصباً، مؤمناً بالمبادئ المسيحية في التسامح؛ من أجل ذلك كانت حياته في المجتمع معركة مشبوبة الأوار. ولمّا اقترب «چوليان» من أريكة «الآنسة دى لامول» سمعها تقول:

– يا له من وجه ... هذا الذي يحمله الأب پيرار!

أحسّ «چوليان» الغضب يسري في نفسه، وإن كانت محقة فيما تقول. على أنّ الكاهن پيرار كان خير الذين هم في الصالون في هذه الليلة، وأعفَّهم قلباً وأشرفهم نفساً، وإن كست وجهه حبوب حمراء، وبدا عليه ما يُسره ضميره من آلام، فظهر وجهه كأقبح ما يكون. ثم قال «چوليان» في نفسه: هل أومن بعد هذا بما يبدو على الوجوه؟ والأب پيرار تبدو على وجهه القسوة إذا أحسّ أنه ارتكب خطأ يسيراً، أما وجه ناپيبه فالسعادة ترتسم عليه دائماً خالصة صافية، مع أن الناس جميعاً يعلمون بأنه جاسوس. ومع ذلك فالأب پيرار قد خرج على تقشف حزبه إذ اتخذ خادماً ولبس الملابس الأنيقة. ثم لاحظ «چوليان» في الصالون شيئاً عجيباً: فقد اتجهت الأبصار كلها إلى الباب وخفتت الأصوات حين أعلن الخادم قدوم البارون دى تولّلي، الذي حولت الانتخابات إليه الأنظار، فعرفه كل الناس، فاقترب منه «چوليان» متفرّساً فيه. كان البارون رئيساً للجنة انتخابية مقرها إحدى المدارس، فطرأت له فكرة فذّة وهي أن يخفي تلك الأوراق المربعة التى تحمل اسم حزب من الأحزاب، ولكيلا يفتضح الأمر، وضع مكانها أوراقاً تحمل اسم حزب يميل إليه. ولكن بعض الناخبين أدركوا ما عمله فسارعوا إلى تهنئته. وكان البارون دى تولّلي لا يزال شاحب اللون من هذه الفعلة الشنعاء، وكانت بعض النفوس السيئة قد ذكرت السجن، واستقبله «المركيز دى لامول» بفتور؛ فأسرع البارون التعس في الهروب. عندئذ بدا للكونت شلڤيه أن يقول:

– إنه ذاهب إلى السيد الكونت[1] ... مادام قد غادرنا بهذه السرعة. فضحك الحاضرون مما قال.

كان تانبو الصغير واقفاً مع بعض السادة الذين يؤثرون الصمت وبعض الرسامين ذوي النفوس الوضيعة وإن كانوا قد عرفوا بالذكاء. والصالون في هذه الليلة غاص بمختلف الطبقات لأن الإشاعات انتشرت بتولّي «المركيز دى لامول» إحدى الوزارت. وكان تانبو يعدّ العدّة في هذه الليلة ليكسب قلب «المركيز»، وهو إن لم يوهب الإدراك العميق ولطافة

---

(١) ورد في تعليق سنة ١٨٥٤ أنه كان مشعوذاً معروفاً في ذلك العصر. «المعرب».

الحسّ في مواجهة الأمور، فإنه كان يتكلم في حمية وقوة، كان يقول ساعة أن اقترب «چوليان» من الجماعة التي وقف بينها:

– لم لا يزجّ بهذا الرجل في غياهب السجن عشرة أعوام كاملة؟ يجب أن تلقى هذه الحشرات في أعماق الحفر وأن تموت في الظلام، وإلا انتشرت سمومها وأصبحت أشد خطراً ممّا هي الآن. ما قيمة ألف الايكو التى يدفعها غرامة؟ إنه فقير، هذا حق، ولكنّ حزبه يدفع له الغرامة. كان يجب أن يحكم عليه بخمسمائة فرنك غرامة وعشرة أعوام يقضيها فى السجن.

عجب چوليان من لهجة زميله التي تحمل الشرّ، ومن حركاته المضطربة؛ وأخذ يسأل نفسه: يا إلهي! من هذا الشيطان الذي يتحدّث عنه تانبو؟ وكان وجه هذا الشاب الذي يرعاه قريبه عضو المجمع مطبوعاً في هذه اللحظة بطابع قبح وشرّ. وبعد قليل علم «چوليان» أنّ الذي يتحدث عنه تانبو هو أكبر شاعر في عصره[1]، فترقرقت فى عينيه الدموع من شدة الغيظ، وصاح في صوت يكاد يكون مسموعاً:

– آه! يا لك من شيطان رجيم! ويا لك من صعلوك! لن أغفر لك أبداً ما قلت.

ومع ذلك فإنه من أولئك الشبان الضالين الذين ينتمون إلى الحزب الذي كان المركيز أحد رؤسائه! وإن هذا الرجل العظيم الذي يصبّ عليه جام حقده لو أنه أراد أن يبيع نفسه ومواهبه، ولا أقول لحكومة السيد دى نرڤال[2]، ولكن لأحد الوزراء الذين عرفوا ببعض العفة والشرف والذين رأيناهم يتلو بعضهم بعضاً في الحكم – لو أنه أراد أن يبيع نفسه لانهالت عليه الأوسمة والأموال دون أن يقوم بأى عمل!.

أشار الكاهن پيرار إلى «چوليان» من بعيد، وقال له «المركيز دى لامول» كلمة، واقترب «چوليان» ينصت إلى الكاهن غاضاً بصره، ولما انفرد الكاهن بنفسه إتجه إليه چوليان فرآه مغيظاً محنقاً من هذا الشاب الوضيع تانبو، الذي أخذ يتملقه ويتقرب إليه، وإن كانت نفسه تنطوي على الكراهية والبغضاء؛ لما له من فضل على «چوليان» ولاعتقاده أنه وليّ نعمته.

كان هذا الشاب المدعي الأدب يتكلم بعبارات قوية ركيكة كعبارات الإنجيل متسائلاً: متى يقضي الموت على هذا الفساد العتيق؟ وكان تانبو يتحدث هذه المرة عن هذا اللورد المبجّل، اللورد هولاند الذي تظهر مزاياه في معرفة حياة الرجال المعاصرين معرفة دقيقة؛ وكان في هذه الآونة يعرض عرضاً سريعاً أولئك الذين يأملون خيراً من العهد الجديد، عهد ملك انجلترا الذي ولي حديثاً.

---

(١) أشارة إلى «بيرانجيه» الذي كان الاحرار يبالغون في تمجيده ومدحه، وقد حكم عليه بالسجن والغرامة سنة ١٨٣٨. «المعرب». (٢) لقد عرف من خلال هذا الاسم المستعار، الوزيران فيليل، وبولينياك. «المعرب».

ذهب الكاهن پيرار إلى صالون مجاور وتبعه «چوليان»، وحينما أصبحا وحدهما قال الكاهن:

- إنّ «المركيز» لا يحب صغار الكتاب، وهذه هي الطبقة الوحيدة التي ينفر منها، فلا تنسى هذا. تعلّم اللاتينية واليونانية إذا استطعت، واعرف تاريخ المصريين والفرس وغيرهم، وستجد منه مقصداً وحامياً لك ولعلمك؛ ولكنك إذا كتبت صفحة واحدة بالفرنسية تناولت فيها أشياء خطيرة تسمو على مركزك الاجتماعي فإنه سيسميك كُوَيْتِباً ويعدك شؤماً عليه، أنت تقيم في قصر سيّد كبير، وكيف لا تعرف عبارة الدوق دى كاسترى التى قالها في دلمبير وروسو: هو شخص، أيجب أن يفكر هذا الشخص في كل شيء، ودخله لا يبلغ ألف إيكو؟

فأخذ «چوليان» يقول في نفسه: كل شيء يعرف هنا كما كان يُذاع في المدرسة؛ ذلك أنه كان قد كتب ثماني صفحات أو عشراً بأسلوب لا يخلو من تفخيم، يمدح فيها الجراح العجوز ويؤرخ له؛ لأنه قد جعل من «چوليان» رجلاً على حدّ تعبير بطلنا، الذي يخبرنا بأن هذه الكراسة كانت مخبأة في مكان ظنّ أنّ الأيدي لا تصل إليها فيه؛ ثم صعد إلى مسكنه وأحرق ما كتب وعاد إلى الصالون، فوجد أن الخبثاء الأذكياء قد غادروه، ولم يبق إلاّ أولئك الذين يحملون الأوسمة.

أحضر الخدم مائدة عليها أنواع مختلفة من الطعام والشراب، وجلس إليها سبع سيدات أو ثمان كلّهن عريقات الأصل، تقيات صالحات، متصنعات متكلفات، تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين. دخلت امرأة المشير دى فرڤاك، وهى سيدة وضاءة، معتذرة لوصولها في ساعة متأخرة؛ فقد أتت بعد أن انتصف الليل. ثم اتجهت إلى المركيزة دى لامول لتجلس بجوارها، واضطرب «چوليان» حينما وقع بصره على هذه السيدة لأن عينيها ونظراتها كانت تشبه عيون «مدام دى رينال» ونظراتها.

أما فريق «الآنسة دى لامول» فكان لا يزال على كثرته ووفرة عدده. اقترب «چوليان» منهم فوجدهم مشغولين بالسخرية من هذا الكونت التعس دى تالر[1]، وهو الابن الوحيد لذلك اليهودي المشهور بثرائه العريض، الذي حصل عليه من إقراض الأموال للملوك ليحاربوا بها الشعوب. مات هذا اليهودي وترك لابنه دخلاً يبلغ مائة ألف إيكو في الشهر واسماً لا يجهله أحد مع كل أسف؛ وكان هذا الموقف العجيب يتطلب بساطة في الطباع أو قوة إرادة شديدة. ولكن الكونت مع الأسف قد أفسده المتملقون الملتفون به فأدخلوا الغرور والزهو في نفسه بعد أن كان رجلاً متواضعاً. ورغم دى كايلوس أن هؤلاء المتملقين قد أدخلوا في روعه أنه جدير بالزواج من «الآنسة دى لامول» (التي يغازلها المركيز دى كروازينوا الذي سيصبح دوقاً ويبلغ دخله مائة ألف فرنك) فقال نوربير في

(١) اشارة إلى البارون «روتشيلد». «المعرب».

إشفاق:

- آه! لا تتهمه بأن له إرادة.

إن ما كان يعوزه الكونت دى تالير هو معرفة ما يريد ؛ وهو لهذا جدير بأن يكون ملكاً. وهو وإن كان كثير المشاورة لمن حوله فإنه ليس لديه الشجاعة في أن يتتبع رأياً حتى النهاية. وقد قالت «الآنسة دى لامول»: إن وجهه يكفي وحده لإدخال السرور الدائم إلى نفسها. فقد كان وجهه يعتوره القلق ويرتسم عليه اليأس، لكنه يُلمَح فيه بين آونة وأخرى دلائل الخطورة وتُسمع منه لهجة حازمة تميز أغنى رجل في فرنسا، لا سيما وأنه ليس قبيح الوجه والجسم، ولم يبلغ بعد السادسة والثلاثين من عمره. وقال دى كروازينوا: إنه سفيه شديد السفاهة. وأخذ نوربير والكونت دى كايلوس واثنان أو ثلاثة من الشبان ذوي الشوارب يسخرون منه سخرية شديدة دون أن يشعر؛ وحينما وافت الساعة الأولى صباحاً تخلصوا منه إذ قال له نوربير:

- أهي جيادك العربية التي تنتظرك بالباب في مثل هذا الجو؟

- لا، إنهما جوادان أقل ثمناً من الجياد العربية؛ فالحصان الأيسر قد اشتريته بمائة ألف فرنك، أما الأيمن فثمنه مائة لويس فقط؛ ولكني أرجو أن تعرف أنهما لا يجران عربتي إلاّ ليلا، وإن كانا يشبهان الجياد العربية.

فهم الكونت تالير من سؤال نوربير أنه لا يحسن برجل يحب الخيل ويشغف بها أن يترك جياده تبللها الأمطار فانصرف، وتبعه بعد قليل هؤلاء السادة وهم يسخرون منه. وحينما سمع «چوليان» ضحكهم وهم يهبطون درجات السلم قال في نفسه: لقد أتيح لى الليلة أن أرى حرج موقفي! فدخلي لا يبلغ عشرين لويسا، وقد كنت بجوار رجل يبلغ دخله عشرين لويساً في الساعة، ولكنهم يسخرون منه ... إنّ في مثل هذا ما يشفي القلوب من الحسد.

الفصل الخامس

الحساسية وسيلة كبيرة تقية

إن رأياً فيه بعض الحرارة يبدو كأنه غلطة؛ لأن الناس تعودوا سماع الكلام التافه، وويل لمن يقول جديداً إذا ما تكلم!

فوبلاس

قضى «چوليان» بضعة شهور في قصر «المركيز» يعمل ويراقب مولاه عمله، وحدث أن سلمه مدير القصر الربع الثالث من راتبه. وكلفه «المركيز» الإشراف على إدارة أراضيه في نورمانديا وبريتانيا. فأصبح «چوليان» بهذا كثير التنقل إلى هذه الأصقاع، كما صار كبير الكتاب المشرفين على القضية المشهورة: قضية «المركيز» والأب فريلير، وأمد الكاهن پيرار «چوليان» بالمعلومات الكافية.

كان «چوليان» يحرر الخطابات معتمداً على الملاحظات القصيرة التي يكتبها على هامش ما يصله من أوراق؛ وكان «المركيز» يوقع أكثر الخطابات التي يكتبها «چوليان».

ولما كان بطلنا في مدرسة اللاهوت كان معلموه كثيري الشكوى من سوء مواظبته، وإن كانوا يعدونه من خير التلاميذ وأكثرهم اطلاعاً. وكان مقبلاً على الأعمال المتنوعة، التي وكلت إليه في قوة وحمية، مدفوعاً بالطموح المسيطر عليه؛ حتى فقد لونه الوردي الجميل الذي سبغه عليه هواء الريف، وكان شحوبه يعد ميزة في نظر أصدقائه الشباب من تلاميذ المدرسة؛ فاعتبروه أقل شراً وأزهد في المال من زملائه البيزنسيين الذين كانوا يقولون إنه مصاب بداء الصدر، وأعطاه «المركيز» جواداً. وكم كان يخشى أن يلقاه أحد زملائه وهو يركب الجواد. لذلك عزم على أن يخبرهم بأن ركوب الخيل تمرين رياضي فرضه عليه الأطباء. واصطحبه الكاهن پيرار معه في مجتمعات دينية جانسينيسية، فذهل حين رأى قوماً أتقياء صارمين، لا يفكرون أبداً في المال. وقد كان من قبل يؤمن بأن فكرة الدين مرتبطة بالنفاق والأمل في جمع المال. وأخلص كثير من هؤلاء الجانسينيسيين النصح لبطلنا واتخذوه صديقاً، فظهرت له آفاق جديدة في الحياة. وتعرف في اجتماعات هؤلاء القوم بالكونت[1] ألتاميرا الذي تبلغ قامته أكثر من ستّة أقدام، وهو من الأحرار الذين حكم عليهم بالإعدام في بلده إلا أنه متدين. وقد دهش «چوليان» من رجل يجمع بين النقيضين التدين وعشق الحرية. وكانت العلاقة بينه وبين الكونت الشاب يسودها شيء من

(١) يشير ستندال إلى أحد أصدقائه هو «دى فيودى» من نابولي وقد حكم عليه بالإعدام، ولكنه هرب ولجأ إلى باريس. «المعرب».

الفساد، لأن نوربير رآه يردّ في كثير من الجرأة والقوة نكات بعض أصدقائه. وقد خالف «جوليان» القواعد التي يسير عليها مرة أو مرتين، فأخذ على نفسه ألاّ يتحدّث مع «الآنسة ماتيلد». لكن أهل دى لامول كانوا يراعون الأدب التام معه، وكان هو قد لاحظ أنّ مكانته لم تعد كما كانت عليه من قبل. وأوحت إليه فطنته الريفية أنّ هذه الظاهرة يفسرها المثل العامي: كل جديد جميل.

ربما أصبح «جوليان» أكثر بصيرة بالأمور، أو ربما فارقته النزعة التي سيطرت عليه أول أيامه، وهي سحر باريس. وإذا ما فرغ من عمله وقع تحت طائلة من ملل قاتل لا يجد لنفسه مخرجاً منه؛ إنه الأثر الجاف للأدب الجمّ الذي يطبع الطبقة الراقية فتظهره بمقاييس دقيقة، تختلف باختلاف المراكز الاجتماعية. والنفس التي فطرت على قليل من الحساسية تدرك هذا التصنع الظاهر. ولا ريب أنّ أهل الريف طبعوا على لهجة عامة قد لا تحمل كثيراً من الأدب؛ لكنهم يتحمسون قليلاً حينما يجيبونك. لم تجرح كرامة «جوليان» مرة واحدة في قصر دى لامول، ولكنه كثيراً ما كان يجد في نفسه حاجة ملحة إلى البكاء إذا ما انتهى يومه.

إنّ العامل في مقهى ريفي يهتم بك إذا حدث لك حادث وأنت تدخل مقهاه ؛ أما إذا كان في الحادث ما يجرح كرامتك فإنه يتألم لك وإن لم يمنعه ذلك من أن يكرر على مسامعك عشرمرات كلمة تسوءك. وفي باريس يعمد الناس إلي الضحك مستترين، وهم يرون فيك دائماً رجلاً غريباً عنهم.

لا نريد أن نعرض للمخاطرات التافهة التي ارتكبها «جوليان»، والتي عرضته للسخرية، لو أنّه من أولئك الذين تنال السخرية من كرامتهم. وكانت حساسية الجنون تحمله على ارتكاب هفوات لا حصر لها؛ ولذاته جميعاً لم تكن إلاّ لوناً من الحيطة والحذر: فكان يتعلم إطلاق النار كلّ يوم، وكان من خير تلاميذ أشهر معلم للمسابقة. وإذا وجد لديه فراغاً جرى إلى حظيرة الخيل وطلب أشدّ الجياد عسراً. ولم يعد يقبل على القراءة كما يفعل من قبل: كان يخرج إلى النزهة مع رئيس ترويض الخيل وكثيراً ما كانت تُلقي به الجياد عن ظهورها.

وجد «المركيز» في «جوليان» شخصاً يقبل على العمل إقبالاً شديداً، يؤثر الصمت ويتصف بالذكاء، فأخذ يعهد إليه قليلاً قليلاً بجميع الأمور المعقدة التي تحتاج إلى روية وصبر. وفي اللحظات التي يبرأ فيها «المركيز» من طموحه الشديد، كان يقوم بأعمال تدلّ على الفطنة والكياسة، أنه لعلى صلة بالأخبار فكان يعقد صفقات رابحة: اشترى منازل وغابات ولكنه سريع الغضب، يعطي في سخاء مئات من اللويسات ويتشاحن لبضع مئات من الفرنكات، لأن الأغنياء ذوي النفوس الكبيرة يهتمون باللذة التي يجلبها العمل أكثر مما يهتمون بالنتائج التي يحصلون عليها. وكان «المركيز» في حاجة حقاً إلى رئيس يتعهّد معاملاته المالية فيضع لها نظاماً واضحاً سهلاً يسيراً.

أما مدام دى لامول، ذات الأدب الجم، فقد كانت تسخر من «چوليان» في بعض الأحيان، لأن كل طارئ جديد تخلقه الحساسية، تشمئز منه نفوس هؤلاء السيدات الراقيات اللاتي يرين أنه يغاير ما تواضعن عليه من عرف. وقد أخذ «المركيز» يناصر «چوليان» مرتين أو ثلاثة قائلاً لزوجته:

- إذا ظهر بمظهر السخرية في صالونك فهو دائم الانتصار في مكتبه. أما «چوليان» فقد خيّل إليه أنه أدرك سرّ «المركيزة»، فهي تهتمّ بكل شيء حينما يعلن الخادم قدوم البارون دى لاچومات. وهو كائن فيه فتور، ذو وجه لا تعرف المشاعر إليه سبيلاً، قصير القامة نحيل الجسم قبيح الخلقة، أنيق الملبس، يقضي حياته في القصر، وهو عادة لا يقول شيئاً أبداً. وكان «چوليان» يعتقد أن «المركيزة» دى لامول ستلقى السعادة لأول مرة في حياتها؛ لو أتيح لها أن تعمل على أن يتزوج البارون دى لاچومات من ابنتها.

الفصل السادس

طريقة النطق

تنحصر مهمتهم الكبيرة في أن يحكموا في هدوء على الحوادث الصغيرة التي تجري في حياة الناس. وإن فطنتهم لتدرك ما يعتور الناس من اضطراب بسبب أمور تافهة أو حوادث تجسمها الشهرة حين ينتقل بها الصوت من مكان إلى مكان بعيد.

جيراثيوس

لم يرتكب «چوليان» كثيراً من الحماقات في حياته الجديدة، على الرغم من أن كبرياءه لم تسمح له بأن يسأل عمّا لا يعلم. أراد يوماً أن يتقي مطراً هطل بغتة، فآوى إلى مقهى بشارع سانت أونوري، فأذهلت نظراته الصارمة رجلاً مديد القامة يرتدي الردنجوت، فلفت ذلك نظر «چوليان»؛ ورأى أنّ هذه النظرات كتلك التي وجّهها إليه عشيق الآنسة أماندا في إحدى مقاهي بيزانسون، والتي كثيراً مالام نفسه على أنه لم ينتقم من ذلك العاشق لنظراته تلك التي تحمل معاني الإهانة. ولما سأل ذا الردنجوت عن سبب نظراته، صب عليه في الحال أقذع الشتائم، وسرعان ما التفّ حوله جميع من بالمقهى، ووقف المارة أمام الباب. كان «چوليان» يحتفظ دائما بمسدسات صغيرة على عادة الريفيين، فأمسك بها في حركة مضطربة؛ لكنه عاد فآثر الحكمة واكتفى بأن يقول للرجل في فترات متباعدة: أيها السيد، هات عنوانك. إنني أحتقرك.

وكان العزم الذي ينطوي عليه حديثه، وهو ينطق بهذه الكلمات، عزما وطيداً أذهل السامعين فأخذوا يقولون:

يا للّه! إنّ هذا الرجل الذي يتحدث وحده يجب أن يعطيه عنوانه. فقذف الرجل في وجه «چوليان» بخمس بطاقات أوست، نزولاً على حكم الجماهير وقد أخذوا يرددونه. ولم تمسّ البطاقات وجه بطلنا لحسن الحظ؛ وكان عازماً على ألاّ يستعمل سلاحه إلاّ إذا مست وجهه إحداها. ثم انصرف الرجل متلفتاً متوعّداً بالضرب. ناثراً حوله الشتائم. فتصبب «چوليان» عرقاً وامتلأ غضباً، وأخذ يقول في نفسه: أفي استطاعة أحطّ الرجال أن يستثيرني إلى هذا الحد! فكيف أستطيع القضاء على هذه الحساسية المهينة؟

من أين لي بشاهد؟ ذلك لأنه لم يكن له صديق في باريس؛ كان يعرف بعض الناس ولكن معرفته لا تدوم أكثر من ستة أسابيع، ثم يعتزلونه جميعاً؛ فقال في نفسه: لست مدنياً بطبعي ككلّ إنسان، وهأنذا ألقى جزائي. ثم فكّر أخيراً في ملازم سابق بالفرقة السادسة والتسعين إسمه ليفن، وهو شخص تعس، كثيراً ما كان يتدرّب معه على استعمال السلاح، وكثيراً ما أخلص له «چوليان».

قال له ليڤن حين التقيا وأطلعه «چوليان» على الأمر:

- أنا أقبل أن أكون شاهدك ولكن على شرط أن تقاتلني في الحال إذا لم تجرح خصمك. فسرّ بطلنا وأجاب صديقه إلى ما طلب ؛ ثم ذهبا يبحثان عن السيد ش. دى بوڤوازى في عنوان بطاقاته في ربض سان جرمان.

كانت الساعة السابعة صباحاً حينما ذهبا ، ودخل الخادم يعلن قدوم الزائرين لسيده فتذكر «چوليان» أن غريمه قد يكون قريباً لمدام دى رينال، وهو الذي كان يعمل من قبل في سفارة روما أو نابولى، والذي أعطى چيرونيمو المغنيّ خطاب التوصية.

وقدم «چوليان» للخادم الطويل الذي استقبله بطاقة من التي ألقيت بالأمس في وجهه وبطاقة أخرى تحمل إسمه. ثم ظلّ هو وشاهده ينتظران ثلاثة أرباع الساعة، حتى أدخلا مسكناً على جانب كبيرة من الأناقة والرّوعة. ووقع بصرهما على شاب طويل، أنيق الملبس، تدلّ تقاطيعه على الجمال الإغريقى في أروع صوره، كما تمثل تفاهته. أما رأسه فضيّق جدا يحمل شعراً غزيراً جميل الشقرة، جعّد في عناية شديدة حتى لا ترى فيه شعرة من الشعرات قد نشرت عن موضعها. فقال ملازم الفرقة السادسة والتسعين: ما جعلنا هذا الغرّ اللعين ننتظر هذا الوقت الطويل إلاّ ليجعد شعره على هذا النحو الجميل. كان يلبس (روب دى شامبر) مزخرفاً وسراويل الصباح وبابوجاً مزيّناً. وكلّ ذلك يدلّ على عنايته الشديدة بهندامه وعلى حسن ذوقة. ويدلّ وجهه على محتد كريم وتفاهة بالغة ويلمح فيه الإنسان ما ينطوي عليه من آراء لها قيمتها وغرابتها ؛ وعلى الجملة فهو المثل الأعلى لما يكون عليه الرجل الظريف، يكره الأشياء المباغتة كراهية شديدة ولا يحبّ الفكاهة لأنه جبل على الوقار الشديد.

وأفهم الملازم «چوليان» أن خصمه قد ألحق به إهانة شديدة حين تركه ينتظر طويلاً، فدخل في جفوة على السيد دى بوڤوازى؛ وصممّ على أن يكون سيء الأدب معه ولكن بطريقة مستترة.

ولشدّ ما ذهل حين رأى وداعة السيّد دى بوڤوازى وحسن طباعه وما هو عليه من اتزان وأناقة كبيرة فى كل ما يحيط به، فرجع في الحال عن عزمه في أن يكون سيء الأدب. لم يكن هذا السيّد هو الرجل الذي أهانه بالأمس، فعجب «چوليان»، حتّى لم يستطع أن ينطق بحرف حين رأى هذا السيد المهذب بدل أن يرى ذلك الفظّ الغليظ الذي لقيه بالأمس. فقدم إليه بطاقة من تلك التي قذفت في وجهه، فقال له هذا الرجل المتحضر الذي بعث الثوب الأسود في نفسه شيئاً من الاحتقار «لچوليان» حين طرق بابه في الساعة السابعة صباحاً.

- هذا اسمي ولكن لم يكن لي الشرف أن ... وألقت الطريقة التي قال بها كلماته هذه غضباً في نفس «چوليان» فقال:

- لقد جئت يا سيدي لأبارزك. ثم قصّ عليه ما حدث أمس في المقهى.

فكّر السيد شارل دى بوڤوازى في الأمر جدّياً، وهو ينظر إلى «چوليان» منصتاً إلى حديثه فسرّته طريقة حياكة ثيابه السوداء، فقال في نفسه: من المحقق أن من عمل ستوب، فهذه الصدرية بديعة، وهذا الحذاء جميل. ولكن يا إلهي! هذا الثوب الأسود في تلك الساعة المبكرة من النهار! .. لقد لبس هذه الملابس لينجو من الرصاصة. ثم عاد إلى أدبه الجم مع «چوليان»، وعامله معاملة الأنداد. وظلّ الحديث بينهما وقتاً طويلاً لأن الأمر كان دقيقاً، ولكن «چوليان» رأى في جلاء ووضوح أنّ هذا الكريم المحتد الذي يراه لا يشبه الفظّ الغليظ الذي أهانه أقل شبه.

شعر «چوليان» في نفسه باشمئزاز إذا ما انصرف دون أن يلقى غريمه، فأطال الحديث وتأمل حسن طباع الفارس دى بوڤوازى، وهو الاسم الذي أطلقه على نفسه، لأنه لم يرض أن يناديه «چوليان» بالسّيد وهو يتحدث إليه. أعجب «چوليان» بوقاره وإن كان فيه غطرسة لا تفارقه لحظة من اللحظات، لكنها غطرسة لا مبالغة فيها. وذهل من طريقته العجيبة التي يحرك بها لسانه حين يتكلّم ... ولكنه على الرغم من كلّ هذا لم يجد مسوغاً لأن يختلف أو يتشاجر مع هذا السيد. عرض السياسي الشاب في كثير من الظرف أن يبارز «چوليان»، ولكن الملازم السابق في الفرقة السادسة والتسعين قرّر أنّ صديقه «السيد سورل» ليس من خلقه أن يبارز رجلاً سرقت بطاقته واستغلّت استغلالاً سيئاً. وكان هذا الملازم يجلس طيلة الوقت مفتوح الساقين، ويداه على فخذيه ومرفقاه لا يرتكزان على شيء.

ثم غادر «چوليان» الفارس دى بوڤوازى غاضباً أشدّ الغضب. وكانت عربة الفارس تنتظره في الفناء أمام السلم الخارجي ولما رفع «چوليان» بصره إليها رأى الرجل الذي أهانه بالأمس، ولم يكن سوى سائق العربة، فجذبه من سترته الكبيرة في سرعة خاطفة حتى هوى من أعلى المقعد وانهال عليه ضرباً بالسوط. وأراد خادمان أن ينصرا زميلهما فضربا «چوليان»، فأطلق عليهما النّار فولّيا الأدبار. وجرى كلّ هذا في دقيقة واحدة.

هبط الفارس درجات السلم في وقاره الذي يدعو إلى السخرية، سائلا بطريقته العجيبة في النطق، طريقة السيد العظيم: ما هذا؟ ما هذا؟

ولا ريب أن حبّ الاستطلاع كان مالكاً عليه نفسه في هذه اللحظة، ولكنّ خطورة السياسيين حالت بينه وبين أن يظهر اهتماماً بما حدث. ثم أطلع على ما جرى، فكانت تقاطيع وجهه فريسة للكبر والهدوء اللذين يتّسم بهما كلّ من يعمل في السلك السياسى.

أدرك الملازم أن السيد دى بوڤوازى يريد مبارزة «چوليان»، فأراد أن يحتفظ لصديقه بميزات البادئ بطلب المبارزة، فصاح قائلاً:

– إنّ هذا الأمر يستدعي المبارزة. فأجاب الفارس:

– أنا أشاركك هذا الرأى. ثم قال لخدمه:

- إني أطرد هذا الوغد من خدمتي، فليصعد إلى مكانه شخص آخر.

وفتح باب العربة ليركب ثلاثتهم، وأكرمهما الفارس حين قدمهما على نفسه. ثم ذهبوا ليحضروا شاهداً لدى بوفوازي، وهو صديق له، دلّهم على مكان هادئ يتبارزان فيه. وكان الحديث بينهم في الذهاب هادئاً وديّاً، ولم تكن هناك ظاهرة غريبة إلا أن يرتدى رجل في السلك السياسي مبذلاً (روب دى شامبر).

لاحظ «چوليان» أن هذين السيدين ليسا مملّين، وإن كانا كريمى المحتد، كأولئك الذين يختلفون إلى موائد «المركيز دى لامول». وبعد قليل أخذ يقول في نفسه: أدركت الآن السبب في أنهم يسمحون لأنفسهم أن يقولوا الفُحش حينما يتحدثون. لقد تناولا في حديثهما راقصات تلن إعجاب الجمهور وتقديره في قطعة راقصة مثلت بالأمس. وكان هذان السيدان يقصّان قصصاً لاذعة يجهلها «چوليان» وصديقه الملازم جهلاً تاماً. ولم يشأ «چوليان» أن يرتكب حماقة فيدّعي أنه على علم بها، بل آثر أن يخبرهما بأنه يجهل ما يقولون، وإن لم يخل اعترافه من ظرف كبير. وأعجب صديق الفارس دى بوفوازى بصراحة «چوليان»، فأخذ يقصّ عليه هذه القصص في إطناب، وفي أسلوب جذّاب.

كان في وسط الشارع مذبح مزين لذباح القربان بمناسبة موكب عيد الإله، فوقفت العربة قليلاً. وكم ذهل «چوليان» حين سمع السيدين يتهكّمان ويسخران قائلين إن الخوريّ ابن لرئيس الأساقفة. وهذا تهكم لم يسمعه في قصر «المركيز دى لامول» الذي يريد أن يكون دوقاً، ولا يجرؤ إنسان على أن ينطق بمثل هذه الكلمة في القصر.

انتهت المبارزة في وقت قصير حين أصيب «چوليان» برصاصة في ذراعه، وضمدّوها له بمناديل بلّلت بالخمر، ورجا الفارس دى بوفوازى «چوليان» في أدب جم أن يسمح له بأن يوصله في العربة إلى مسكنه. ولما أعطاه الجريح عنوان قصر المركيز دى لامول، تبادل الفارس وصديقه النظرات.

وآثر «چوليان» أن يبقى في عربة الفارس، وإن كانت عربته بانتظاره لأن حديث السيدين كان أمتع من حديث صديقه الملازم. وأخذ بطلنا يتحدث إلى نفسه قائلاً:

يا إلهي؟ أهذه هي المبارزة؟ كم أنا سعيد بأني لقيت هذا الحوذي! ولو أنني أهنت مرة أخرى في مقهى لكنت أشقى الناس جميعاً! وظلّ الحديث الطليّ بين الصديقين مستمراً طوال الوقت، وأردك «چوليان» أن تكلف رجال السلك السياسي له فائدته.

ثم قال في نفسه: إنّ السأم لا يعرف سبيله إلى نفوس هؤلاء السادة ما داموا يتحدثون فيما بينهم بمثل هذا الحديث الطريف! هم يسخرون من موكب الاحتفال بعيد الإله، ويجرؤون على تناول قصص شاقة عسيرة فيتحدثون في أدق تفصيلاتها، لا يعوزهم إلا المنطق على الأمور السياسية، وهذا النّقص يعوضه ما جبلوا عليه من ظرف في لهجتهم حين يتحدثون وما يستعملون في كلامهم من عبارات رقيقة. ثم شعر نحوهما بميل كبير، وأخذ يقول: ليتني أسعد بلقائهما كثيراً!

ولم يكادوا يفترقون حتى أسرع الفارس دى بوڤوازى في الاستعلام عن غريمه، لكن ما علمه عنه لم يكن مشرفاً. كان في حاجة شديدة إلى أن يعرف شيئاً عن هذا الغريم، وهل يستحقّ أن يُزار؟ على أنّ ما وصل إليه من معلومات ضئيلة لم يشجع على هذه الزيارة. قال لشاهده:

– هذا أمر جدّ عسير على نفسي! لا أستطيع أن أعترف أني بارزت شخصاً لا يعمل إلاّ سكرتيراً للمركيز دى لامول! ولم بارزته؟ لأن سائق عربتي سرق بطاقاتي!

– سيجد الناس ولا شكّ في هذا موضعاً للسخرية بك.

وما حلّ المساء حتى أذاع الفارس دى بوڤوازى وصديقه في كل مكان أن «السيد سورل»، فضلاً عن صفاته الكاملة، ابن طبيعي لصديق من أكثر الأصدقاء مودّة للمركيز دى لامول. وصدّق الناس ما قالوه في سهولة ويسر. ولما وجداهم آمنوا بما قالا، تفضلا فزارا «چوليان» بضع مرات حين اعتكف في غرفته خمسة عشر يوماً. واعترف لهما «چوليان» وهما يزورانه بأنه لم يذهب إلى الأوپرا في حياته إلاّ مرة واحدة.

– هذا أمر عجيب! إننا لا نذهب إلاّ إلى هناك. ويجب أن يكون أول شيء تشاهده حين تخرج هو تمثيل رواية الكونت أورى. ثم قدّمه الفارس إلى المغنّي جيرونيمو الذي نال نجاحاً كبيراً.

تملّق «چوليان» الفارس وتقرّب منه، لأنه كان معجباً باحترامه لنفسه، وبالخطورة الغامضة والكبرياء اللتين تبدوان على وجهه، فقد كان مثلاً يتمتم قليلاً إذا ما تكلم، لأنه كثيراً ما كان يشرف بلقاء سيّد كبير في لسانه لكْنه، ولم ير «چوليان» من قبل إنساناً اجتمعت فيه في وقت واحد سخرية عابثة وشمائل طيبة، فجعل يعمل على محاكاته فيها. ثم تردّد على دار الأوپرا في صحبة الفارس دى بوڤوازى فأخذ اسمه يذيع بين الناس لهذه الصلة الجديدة. وقد قال له «المركيز دى لامول» في يوم من الأيام.

– حسناً! هل علمت أنك ابن طبيعي لأحد أصدقائي المقربين وهو سيّد ثرى من فرانش كونتيه؟

فشاء «چوليان» أن يحتج على هذه الإشاعة قائلاً: إنه لا دخل له في ترويجها، لكن «المركيز» قاطعه بعد أن قال:

– إنّ الفارس دى بوڤوازى لم يرد أن يبارز ابن نجّار. أعلم هذا، نعم أعلمه، وعليّ الآن أن أؤيد هذه الرواية التي تنفعني ؛ ولكن أودّ أن أكلفك عملاً لن يستغرق من وقتك إلاّ نصف ساعة على الأكثر، أريد أن تذهب كل مساء إلى ردهة الأوپرا في منتصف الساعة الثانية عشرة لترى الناس وهم يخرجون ... إني أرى فيك جفوة أهل الريف وعليك أن تتخلص منها، وعلى كلّ فمن الخير أن تعرف هذه الشخصيات الكبيرة فربما كلفتك عملاً وأرسلتك إليهم .. عليك أن تعرفهم ولو شكلاً ... إذهب إلى مكتب تأجير الأماكن بالأوپرا ليعرفوك ؛ لقد أتيح لك الدخول.

الفصل السابع

أزمة مرض النقرس

لم تكن مواهبي سبب رفعتي وإنما ارتقيت لأن سيدي
كان مريضاً بداء المفاصل.

برتولشي

ربما عجب القارئ من هذه اللهجة الوديّة الصريحة التي يتحدّث بها «المركيز» إلى «جوليان»، ولقد أنسينا أن نذكر أن «دى لامول» معتكف في قصره منذ ستة أسابيع لأن أزمة حادة من مرض النقرس قد حلّت به. و«الآنسة دى لامول» وأمها في هيير عند جدّتها أم «المركيز»، والكونت نوربير لا يرى أباه إلاّ لحظات قصيرة، ولو أن العلاقة وطيدة بين الأب وابنه لكنهما لا يجدان ما يقولانه إذا ما اجتمعا. ولم يجد «المركيز» غير «جوليان» يتردّد عليه ويعنى بشئونه، ولشدّ ما دهش حين رأى أن هذا الشاب ذو رأي وذكاء وفطنة. كان «جوليان» يقرأ للمركيز الصحف كل يوم ولكنّه بعد قليل، استطاع أن يقرأ من تلقاء نفسه القطع التي تعجب «المركيز». وكان «دى لامول» يكره صحيفة صدرت أخيراً حتى أقسم ألاّ يقرأها أبداً. ومع ذلك كان يتحدث عنها كل يوم، و«جوليان» يضحك من هذا التناقض العجيب. وكان «المركيز» ناقماً على حياة عصره فطلب من «جوليان» أن يقرأ له تيت ليف، وكم كان يُسرّ من تلك الترجمة المرتجلة لهذا النص اللاتيني.

حدث «المركيز» «جوليان» يوماً بلهجته التي تنطوي على الأدب الجم والتي كثيراً ما كان ينفد صبر «جوليان» عند سماعها، فقال:

– إسمح لى يا عزيزي سورل أن أقدم إليك حلة زرقاء هدية مني، وإذا راقك أن تقبلها، فستكون في نظري إذا ما لبستها الأخ الأصغر للكونت شون أعني ابن صديقي الدوق العجوز.

فلم يدرك «جوليان» تماماً ما يرمي إليه، على أنه لبس في نفس المساء هذه الحلة الزرقاء وذهب إليه «المركيز» معاملة الأنداد. كانت نفس «جوليان» تدرك الأدب الكامل حق الإدراك، لكنّه ما كان يعرف الدقائق التي لا تفوت شباب الأرستقراطيين. يعلم حق العلم أن «المركيز» يحسن وفادته دائماً، وقد أكرم قبل ذلك مثواه حتى جعل يقول في كل فرصة: يا لعبقرية هذا الرجل! ولمّا نهض تلك الليلة منصرفاً، اعتذر له «المركيز» من عدم استطاعته القيام مودّعاً لأنه مريض.

وشغلته هذه الفكرة الغريبة فأخذ يسائل نفسه: أهو يسخر مني؟ وذهب إلى الأب

بيرار يشاوره في الأمر، فوجد الكاهن لا يحظى بأدب «المركيز»، فأخذ يصفر وهو يجيبه، ثم تحدث إليه في أشياء أخرى. وحلّ اليوم التالي، فذهب إلى «المركيز» بملابسه السوداء حاملاً حقيبته وخطابات للتوقيع، فاستقبله مولاه كما كان يستقبله قبل أن يرتدي الحلة الزرقاء. وجاء المساء فلبس هذه الحلة فكانت لهجة «المركيز» معه وطريقته تنطويان على الأدب الجمّ كما كان بالأمس تماماً، وقال له:

- أصبحت أرى أن الزيارات التي تتفضل عليّ بها لا تبعث في نفسك الملل، وأنا اليوم شيخ مريض، فينبغي أن تتحدث إليّ بما جرى لك في حياتك الماضية دون أن تخفى عني شيئاً مهما يكن تافهاً. قصّ عليّ كل شيء في وضوح وبطريقة مسليّة، لأنه يجب على المرء أن يتسلّى؛ فليس في الحياة شيء حقيقي إلاّ اللهو واللذة. ليس من المستطاع أن يتاح لي كلّ يوم رجل ينجيني من الموت في الحرب، أو يعطيني كل يوم مليوناً من الفرنكات. ولو أنّ ريڤا رول كان بجوار مقعدي هنا لانتزعني من الألم والسأم ساعة في كل يوم. لقد خالطته كثيراً أثناء الهجرة في همبورج.

ثم قصّ «المركيز» على «جوليان» قصص ريڤا رول مع أهل همبورج الذين كانوا يجتمعون أربعة أربعة ليتعاونوا على فهم فكاهات ريڤا رول.

وهكذا أصبح «المركيز دى لامول» لا يعاشر في تلك الحقبة، على الرغم منه، إلاّ هذا الشاب الذي يعدّ نفسه للكنيسة فأراد أن يدخل عليه السرور. وحرك فيه نزعة الشرف حين طلب إليه ألاّ يقول إلا الحق. فعزم «جوليان» على أن يعترف له بكل شيء ماعدا أمرين: أولهما تعصبه الشديد وإعجابه بشخص يغضب «المركيز» غضباً لا حدّ له إذا ما ذكر اسمه، أما الثاني فهو عدم إيمان «جوليان» وجحوده جحوداً تاماً مما لا يتمشى مع الحياة الكنسية التي يعدّ نفسه لها. وجعل يتكلم فأعجبت «المركيز» قصته الصغيرة مع الفارس دى بوڤوازي، وضحك حتى سالت دموعه مما حدث بين «جوليان» والحوذي في مقهى شارع سانت أونوري، ومن الشتائم القذرة التي قالها له الحوذي. كانت هذه الفترة من حياة «جوليان» في قصر «المركيز» فترة صريحة في علاقة الفتى بمولاه. وأخذ «المركيز دى لامول» يهتمّ بهذا العجيب. كان في بادىء الأمر يتقبل من «جوليان» ما يقع فيه من خطأ، وكان في ذلك مصدر سرور له؛ ولكنه سرعان ما أصبح يهتّم بإصلاح أخطائه في رفق وهوادة، وينبهه إلى ما في طرائفه وطباعه من شذوذ لا يليق بالحياة التي يحياها الآن. وكثيراً ما كان «المركيز» يقول في نفسه: إن الريفيين الذين يفدون على باريس يعجبون بكل شيء، أما هذا الشاب فيكره كلّ شيء؛ في طباعهم كثير من الزيف والتصنع، أما هو فينقصه بعض هذا، ولكن الحمقى يعدّونه أحمق.

طالت أزمة المرض على «المركيز» من برد الشتاء فاستمرت شهوراً. وطالما حدث نفسه قائلاً: كثيراً ما يتعلق الإنسان بكلب، فأيّ ضير عليّ من أن أتعلّق بهذا الشاب؟ وأيّ خزي يصيبني من وراء ذلك؟ إنه لفريد من نوعه. إني أعامله معاملة الأب لابنه، فلعمري

أي عيب فيم أعمل؟ وإن دامت هذه النزوة كلفتني ماسة ثمنها خمسمائة لويس ينالها «جوليان» بعد مماتي، وأنصّ عليها في وصيتي.

رأى «المركيز» صرامة خلق «جوليان» فعهد إليه كل يوم بأمر جديد. وارتاع «جوليان» حين رأى أن هذا السيد الخطير يعطيه قرارات متعارضة في مسألة واحدة. وأدرك أنّ هذا قد يجر عليه متاعب لا حدّ لها، فأخذ لا يعمل معه إلا وبيده سجلّ كبيرٌ يدوّن فيه القرارات ويوقّع عليه «المركيز». واتخذ له كاتباً يدون القرارات الخاصة بكل مسألة على انفراد في سجل خاص، تكتب فيه أيضاً صور الخطابات المتعلقة بها.

وبدا هذا النظام أول الأمر مصدر سخرية وإملال، لكن «المركيز» أحس فائدته كاملة بعد شهرين من العمل به. واقترح عليه «جوليان» أن يتّخذ له كاتباً تعلّم عند صيرفيّ ليقيد جميع حساب الدخل والمنصرف لكل الأراضي التي يشرف «جوليان» على إدارتها.

وأضاءت هذه الإجراءات السبيل للمركيز في أموره الماليه، حتى قام بنفسه بعمليتين ماليتين، دون أن يلجأ إلى من كان يقوم بهذه الصفقات من قبل؛ وقد تبين له أن هذا الشخص يسرقه. وقال «المركيز» يوماً ما لوزيره الشاب:

– خذ لنفسك ثلاثة آلاف من الفرنكات.

– سيّدي، قد يعاب مسكلي إن فعلت هذا، فغضب «المركيز» وسأله:

– ماذا تريد إذن؟

– أن تتفضل فتكتب بخطك في السجل قراراً بإعطائى هذا المبلغ ؛ على أن الأب بيرار هو صاحب الفكرة في طريقة المحاسبة التي أسير عليها الآن. وتجهّم وجه «المركيز» كما يفعل «المركيز» دى مونكاد[1]، وهو يصغي إلى حسابات السيد پواسون مدير أعماله، ثم كتب لـ«جوليان» القرار.

ولما رجع إليه في المساء مرتدياً حلّته الزرقاء، لم يتحدث إليه «المركيز» إطلاقاً في الأمور المادية؛ وهذا حسن معاملة دائم من «المركيز» يرضي كرامة «جوليان» المعذبة دائماً إرضاء تاماً، فشعر على الرغم منه برابطة نفسية قوية تربطه بهذا الشيخ الظريف. ولم تكن حساسيته السبب في هذا كما يذهب الپاريسيون، ولكنه لم يكن وحشيّ الخلق، لم يتحدث إليه إنسان منذ مات الجراح العجوز بهذه الطيبة التي يظهرها له «المركيز». وقد لحظ أن يتحاشى جرح كبريائه بطرق لم يعهدها في صديقه الجراح، لأنها تنطوي على الأدب الكثير. وأدرك أخيراً أن الجراح كان أشد فخراً بوسام الصليب من «المركيز» بوسام الحبل الأزرق. وكان أبو «المركيز» سيداً له مكانته وخطره.

وفي جلسة من جلسات الصباح التي يرتدي فيها «جوليان» ملابسه السوداء، سُرّ

(١) يشير ستندال هنا إلى مسرحية طالما شاهدها وهي تمثل وكثيراً ما ذكرها في مؤلفاته هي: مدرسة البرجوازيين من تأليف دى لينفال سنة ١٧٢٨. «المعرب».

منه «المركيز» سروراً عظيما واستبقاه ساعتين، وأراد أن يمنحه بعض أوراق مالية أحضرها له المتعامل باسمه من البورصة، وأصر «المركيز» على أن يقبلها «چوليان»، لكنه قال له:

- أرجو يا سيدي «المركيز» ألاّ أبتعد عن الاحترام العميق الذي أكنه لك إذا رجوتك في أن تتفضل فتسمح لي بكلمة.

- تكلم يا صديقي.

- ليسمح لي سيدي «المركيز» أن أرفض هذه الهبة. إنها لم تقدم إلى ذي الملابس السوداء، وستفسد تماماً الطرق التي تتفضل فتغضي عنها حين تصدر من ذي الحلة الزرقاء. ثم حيّاه في احترام كبير وانصرف دون أن ينظر إاليه.

سُرّ «المركيز» كثيراً من هذا التصرف، ثم قصه في نفس المساء على الأب پيرار:

- يجب أن أعترف أخيراً لك بشيء يا عزيزي الكاهن. أنا أعرف نشأة «چوليان»، وأرجو ألا يكون ما قلته لك سراً. ثم قال في نفسه: إن تصرفه معي هذا الصباح لا يصدر إلاّ من شريف، وأنا أعمل على أن يكون شريفاً.

واستطاع «المركيز» الخروج بعد ذلك بوقت قصير، فقال لـ«چوليان»:

- إذهب لتقضي شهرين في لندن. وسيحمل إليك البريد السريع وغيره الخطابات التي تصلني وعليها ملاحظاتي. وستكتب أنت رد كل خطاب وترسله إليّ، على أن ترفقه بالخطاب. وقد قدرت أن التأخير لا يعدو خمسة أيام. وكان «چوليان» في طريقه إلى كاليه، فأخذ يستعرض الأعمال التي كلف أداءها في لندن فوجدها تافهة لا تحتمل هذه الرحلة.

ولا نريد أن نعرض إلى الكراهية والاحتقار اللذين استوليا على نفس «چوليان» حين وطأت قدماه الأراضي الإنجليزية، لأن القارئ يعرف شغفه الكبير ببونابرت. فقد كان يرى في كل ضابط تقع عينه عليه «السير هدسون لو» وفي كل سيد كبير لورد باثورست الذي ارتكب أموراً شائنة في سانت هيلانه، وكوفئ على ذلك بأن ظل وزيراً عشرة أعوام. رأى في لندن الغطرسة بأجلى مظاهرها: وصادق شباباً من الروس كرام المحتد علّموه ما كان ينبغي له أن يعلم، قالوا له:

- أنت قد أُعددت خير إعداد يا عزيزنا سورل، إن وجهك ليبدو فيه الفتور ولا تظهر عليه أبداً أحاسيس عصرنا، وهذا ما نتمناه جميعاً لأنفسنا وقال له الأمير كورازوف.

- إنك لم تفهم القرن الذي تعيش فيه: إعمل دائماً عكس ما ينتظر منك. وأقسم لك أن هذا هو المبدأ الذي يسير عليه عصرنا الحاضر. لا تكن مجنوناً ولا متصنعاً، لأن الناس يتوقعون منك إذاً أعمالا جنونية أو زيفاً، وعلى هذا فلن يتم تطبيق المبدأ.

نال «چوليان» مجداً كبيراً في صالون الدوق فيتزفولك الذي دعاه هو والأمير كورازوف لتناول الطعام. فتأخر «چوليان» عن موعده ساعة كاملة. والطريقة التي اتبعها

وهو يدخل على عشرين شخصاً ينتظرون قدومه جميعاً لا يزال يرددها كل الشبان من موظفي السفارات في لندن، إذ كان وجهه عجيباً إلى أبعد الحدود.

ذهب ليرى فيليب ڤان الرجل الشهير والفيلسوف الوحيد الذي ظهر في انجلترا بعد لوك، ذهب ليراه في السجن وقد أتم السنة السابعة في غياهبه؛ وكان أصدقاء «چوليان» المدلَّلون قد نصحوا له بألا يفعل فلم يستمع. ولما رأى ڤان قال في نفسه: إن الارستقراطية في هذا البلد لا تعرف المزاح وفضلاً عن هذا فإن ڤان مشرد محقر. رآه «چوليان» رجلاً مديد القامة، يتميز غيظاً من الطبقة الأرستقراطية. فقال في نفسه وهو يغادر السجن: هذا هو الرجل المرح الوحيد الذي لقيته في انجلترا كلها.

قال له ڤان: الفكرة التي تقدّم للطغاة أجل الخدمات هي فكرة الإله ... ولا نريد أن نعرض لبقية آرائه لأنها من بدع الفلاسفة.

ولما عاد إلى فرنسا سأله «المركيز دى لامول»:

– أى فكرة سارة حملتها إليّ من انجلترا فسكت «چوليان»، وعاد «المركيز» يقول في قوة: أى فكرة سارة أو غير سارة حملت إلينا؟ فأجاب «چوليان»:

– أولا: أكثر الإنجليز يجنّ ساعة في كل يوم، وشيطان الانتحار الذي يعد إله انجلترا يزوره ويتردد عليه. ثانياً: الذكاء والعبقرية يفقدان ٢٥٪ من قيمتهما حينما يصلان إلى انجلترا. ثالثاً: ليس في العالم كله ما هو أجمل ولا أعجب ولا أدق من المناظر الطبيعية الإنجليزية.

– والآن – يقول «المركيز» – سأتحدث أنا إليك. أولا: ما الذي حملك على أن تقول في حفل الرقص الذي أقامه سفير روسيا: إن في فرنسا ثلثمائة ألف شاب في الخامسة والعشرين من عمرهم يودون من صميم أفئدتهم أن تشتعل نار الحرب؟ أتعتقد أن قولك هذا يرضي الملوك؟!

– لا يعرف الإنسان فى الواقع كيف يتكلم مع كبار السياسيين فهم يتظاهرون بأنهم يفتحون باب مناقشات جدية. وإذا اقتصر المسئول على الآراء العامة التي ترددها الصحف قيل عنه إنه غر أحمق، وأما إذا سمح لنفسه بأن يقول جديداً صحيحاً ذهلوا ولم يعرفوا كيف يجيبون، وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالى يرسلون إليه السكرتير الأول للسفارة ليقول له: إنك قد جاوزت الحد. فضحك «المركيز» قائلاً:

– لا بأس. ولكني أراهن أيها السيد البعيد النظر على أنك لم تعرف سبب ذهابك إلى انجلترا.

– معذرة سيدي، فقد ذهبت إليها لأتناول العشاء مرة كل أسبوع على مائدة سفير الملك الذي أعدّه أكثر الناس أدباً.

– ذهبت لتبحث عن هذا الوسام. لا أريد أن أحملك على أن تتخلى عن ثيابك

السوداء، ولقد اعتدت تلك اللهجة المسلية التي أتحدث بها مع الرجل ذي الثوب الأزرق. أصغ إليّ واعمل بما أقول حتى أصدر إليك أوامر أخرى: حينما أحصل على هذا الوسام، ستكون الابن الأصغر لصديقي الدوق دى شون، وهذا الابن موظف في السلك السياسي منذ ستة شهور على غير علم منه. ثم استطرد «المركيز» يقول في لهجة جادة لا تظرف فيها: لاحظ أني لا أرغب في أن أحملك على التخلي عما أنت فيه، لأن هذا خطأ ونحسٌ يقع فيهما وليّ النعمة والمولى. ثم قال في لهجة جافة: وحينما تزهد في قضاياي أو أستغني أنا عن خدماتك، سأطلب لك خورية تدرُّ عليك الرزق كخورية صديقنا الكاهن پيرار، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

أرضى هذا الوسام كبرياء «چوليان»، وأخذ يتكلم كثيراً أكثر من ذي قبل. واعتقد أن الإهانات أصبحت لا تتناوله في سهولة، وأخذ يزهو بما يقول، وإن كان بعض كلامه لا يخلو مما يجانب الأدب حين يكون النقاش حاداً حامي الوطيس، مثله في هذا مثل الناس جميعاً.

وسبَّب له هذا الوسام زيارة ما كانت تخطر له على بال، فقد أتى إليه البارون دى ڤالنو الذي وفد إلى پاريس ليشكر أولي الأمر على البارونية ويتفاهم معهم. وكان البارون على وشك أن يعين عمدة لڤرييرِ بدلا من «السيد دى رينال».

وكم ضحك «چوليان» في نفسه حين أخبره البارون دى ڤالنو أنهم قد اكتشفوا أن «السيد دى رينال» يعقوبي ثائر. والحقيقة هي أن انتخابات جديدة كانت تعدّ، وكان البارون الجديد مرشح الحكومة، وفي أكبر مدرسة في المقاطعة تعرف بالمغالاة، ناصر الأحرار «السيد دى رينال» وحاول «چوليان» عبثاً معرفة بعض أخبار «مدام دى رينال»، لأن البارون على ما يظهر كان لا يزال يذكر المنافسة القديمة بينهما من أجلها، فلم يقل له شيئاً. وانتهى الحديث بينهما بأن طلب البارون من «چوليان» صوت أبيه في الانتخابات التي ستجرى بعد قليل، فوعده «چوليان» بأنه سيكتب إلى أبيه. ثم قال البارون:

– عليك يا سيدي الفارس أن تقدمني إلى «المركيز دى لامول».

فقال «چوليان» في نفسه: يجب ذلك في الواقع ولكن يا له من وغد! ثم قال للبارون:

– في الحقيقة أنني أشغل مركزاً متواضعاً جداً في قصر «المركيز»، لا يسمح لي بأن أقدم إليه أحداً.

ثم أخبر «المركيز» بكل ما حدث، وقص عليه في المساء غرور ڤالنو وكل حركاته وأعماله منذ عام ١٨١٤. فقال له «المركيز» في جد:

– غداً تقدم إليّ البارون الجديد وسأدعوه لتناول الطعام بعد غد؛ إنه سيكون واحداً من حكام مقاطعاتنا الجدد. فأجابه في فتور:

– إذا عيّن البارون حاكماً فإني أطالب بوظيفة مدير صندوق الإحسان لوالدي.
فقال «المركيز» في مرح ظاهر:
– لك ما تريد؛ كنت أتوقع سماع محاضرة في الأخلاق، لكنك بدأت تدرك الأمور وتجاري الحوادث.

أخبر السيد ڤالنو «چوليان» أن رئيس مكتب «اليانصيب» قد مات ؛ فأراد «چوليان» أن يسند هذا المنصب إلى السيد شولان، ذلك الشيخ الأحمق الذي كتب طلباً إلى «المركيز» يرجوه فيه إسناد هذا المنصب إليه، وقد عثر عليه «چوليان» في الغرفة التي كان يشغلها «المركيز» بمنزل «السيد دى رينال». ضحك «المركيز» ضحكاً شديداً و«چوليان» يقرأ عليه طلب شولان، وهو يوقع خطاباً إلى وزير المالية يطلب لشولان فيه هذا المنصب.

ولم يكد السيد دى شولان يعيّن حتى علم «چوليان» أن وفداً من المقاطعة طلب هذا العمل للسيد «جرو» الرياضي الشهير، الذي لا يزيد دخله على ألف وأربعمائة فرنك في العام، وكان يستدين سنوياً من المدير المتوفي ستمائة فرنك ليواجه بها نفقات أسرته.

ذهل «چوليان» ذهولاً شديداً مما فعل، لكنه قال في نفسه: ليس فيما فعلت ضير عليّ، وسأرتكب مظالم أخرى إذا أردت أن أصل إلى ما أرمي إليه. على أن أخفيها تحت ستار عاطفي فأقول: مسكين السيد جرو! إنه هو الذي يستحق الوسام الذي أحمله، وعليّ أن أعمل وفق أهواء الحكومة التي منحتني هذا الوسام.

الفصل الثامن

أية زينة تجلب الفخار؟

قالت العبقرية الظمأى : إن ماءك لا يرويني ومع ذلك
فالبئر أعذب آبار ديار بكر.

بليكو

عاد «چوليان» يوماً من أرض ڤيلّيكيه الجميلة على شاطىء السين، تلك الأرض التي يعنى بها المركيز عناية شديدة، لأنها كانت ملكاً من قبل للرجل الشهير بونيفاس دى لامول، فلما عاد ألفى المركيزة وابنتها قد رجعتا من هيير.

أصبح «چوليان» الآن شاباً مولعاً بالزينة، يتقن فنّ الحياة في باريس. وقد أبدى فتوراً تاماً حين رأى «الآنسة دى لامول»، وتظاهر بأنه لم يبق في ذاكرته على أثر من أسئلتها الكثيرة المرحة التي كانت توجهها إليه لتعلم تفاصيل سقوطه عن ظهر الجواد. ثم لحظت «الآنسة دى لامول» أنه قد طالت قامته وازداد شحوب وجهه فأصبحت هيئته وطريقته في كل ما يأتي به لا تنمان عن شيء من عادات أهل الريف؛ أما حديثه فلا يزال مصطبغاً بصبغته الريفية القديمة ... فيه كثير من الجدّ، ويواجه الواقع من الأمور وفضلاً عن هذه الصفات الجميلة فإن حديثه ليس فيه شيء من ذلة المرءوس للرئيس، لما جبل عليه من عزة وكبرياء. ثم رأت أنه لا يزال يعلق أهمية كبرى على كثير من الأشياء، ولكنه كان يؤيّد ما يقول. فقالت لأبيها، وهي تداعبه فى أمر وسام چوليان:

– تنقصه يا أبي الخفة وإن كان يزينه العقل. لقد طلب منك أخي هذا الوسام ثمانية عشر شهراً متصلة، وهو من أسرة دى لامول! ...

– أجل يا بنيتي، ولكن «چوليان» يأتي بما لا يتوقع من الأمور، وهو ما لا يستطيعه من تتحدثين عنه من أسرة دى لامول.

وأعلن الخادم قدوم الدوق دى ريتز. فأحست «ماتيلد» في الحال بملل لا يقاوم، لأنها تعرف ما يملأ صالون أبيها من عاديّات مذهبة ومن يغشاه من الناس. وكانت في هيير تعرف مقدار السأم الذي سيستولي عليها حين تعود إلى باريس، ومع ذلك فكم أسِفَت على فراقها باريس.

قالت في نفسها: ومهما يكن من أمر، فأنا في التاسعة عشرا إنها سنّ السعادة، كما يزعم أولئك الحمقى في كتبهم ذات الجوانب المذهبة. ثم أخذت تنظر إلى ثمانية مجلدات أو عشرة من الشعر الحديث أحضرت أثناء رحلتها في «بروڤنس»، ووضعت فوق قطعة من

أثاث الصالون. وكان من سوء حظها أنها أكثر ذكاء من السادة دي كروازينوا، ودى كالوسى، ودى لوز وباقي أصدقائهم. وأخذت تتنبأ بما سيقولون حين يلقونها، فإن ما سيقولون لن يعدو جمال سماء البروڤنس والشعر وجنوب فرنسا ... ولحظت عيناها الجميلتان «چوليان»، عيناها الفاتنتان اللتان يشع منهما الملل الموجع، وما هو أدهى من الملل وأشدّ، يشع منهما القنوط من وجدان اللذة والسرور. فأخذت تقول في نفسها: إنه على الأقل ليس كغيره من الشبان. ثم قالت له في صوت قوي موجز العبارات ليس فيه شيء من صفات اللائي ينتمين إلى الطبقة الراقية:

- ياسيِّد سورل، هل ستشهد الليلة مرقص الدوق دى ريتز؟

- إنني يا آنستي لم أنل شرف التعرف بالدوق. ونطق هذه الكلمة بطريقة يخيل إلى السامع أنها قد جرحت فمه.

- لقد طلب من أخي أن يصحبك إلى المرقص، وحينما نلتقي هناك فستحدثني عن أرض ڤيلكييه وتمدني عنها بمعلومات، لأنني أريد أن أذهب إليها في الربيع. أحب أن أعرف هل يصلح القصر للسكنى، وهل الضواحي جميلة حقاً كما يصورونها، لأن الشهرة في كثير من الحالات لا تطابق الواقع!

وسمع «چوليان» هذا، فلزم الصمت. فقالت بلهجة جافة:

- تعال إلى حفلة الرقص مع أخي.

فحياها في احترام شديد، ثم قال في نفسه: حتى في حفلة الرقص ينبغي أن أدلي إلى أفراد الأسرة بمعلومات. ولم لا؟ ألست آخذ أجراً على أنني من رجال الأعمال؟ ثم استمع إلى وحي نفسه التي لم تكن صافية، فكانت تقول: يعلم الله ما إذا كان ما أفضى به إليها لا يعوق مشروعات أبيها، أو أخيها أو أمها! هذا القصر كأنه بلاط أمير من الأسرة المالكة. يجب أن يلغي المرء نفسه تماماً، على ألا يعطي أي إنسان سبيلاً لأن يشكو.

استدعت المركيزة إبنتها لتقدمها إلى بعض صديقاتها، فنظر إليها «چوليان» وهي تسير ثم قال: كم أكره هذه الفتاة المديدة القامة! إنها تبالغ فيما تلبس، وثوبها لا يعلق بكتفيها ... هي أكثر شحوباً مما كانت عليه قبل رحلتها ... يا لهذا الشعر الباهت من كثرة الشقرة! يخيل إلى المرء أن الضوء لا يتخلله! لشد ما فطرت على كبرياء تبدو وهي تحيى الناس ... ثم وهي تنظر إليهم! إن حركاتها حركات ملكة!

نادت «الآنسة دى لامول» أخاها ساعة غادر الصالون. واقترب الكونت نوربير من «چوليان» قائلاً له:

- إين تريد أن ألقاك يا عزيزي سورل عندما ينتصف الليل لتذهب معي إلى مرقص الدوق دى ريتز؟ لقد شدّد عليّ في ضرورة حضورك. فقال «چوليان» وهو يحييه في إكبار كثير:

- أنا أعرف لمن أنا مدين بهذه الرعاية الكبيرة.

ثم دفعه سوء مزاجه إلى التفكير فيما قاله له نوربير، فرأى أنه ينطوي على الأدب والاهتمام به؛ ولما استرجع ما قاله هو رأى أنّ إجابته عن هذه الكلمة الطيبة الرقيقة فيها شيء من الانحطاط.

ووصل إلى المرقص في المساء، فذهل لروعة قصر الدوق دى ريتز وفخامته: فناؤه مغطى كله بنسيج من الكتان قرمزي على شكل خيمة كبيرة، علقت في سمائها نجوم من الذهب، فدل هذا على روعة وأناقة. وتحوّل الفناء إلى غابة آهلة بأشجار البرتقال وأزهار الزقوم. ووضعت فيه أوان كثيرة على الأرض بعناية تخيل للناظر أن هذه الأشجار مغروسة في أرض الفناء نفسها. أما الطريق الذي تسير فيه العربات فقد كان مفروشاً بالرمال.

ورأى هذا الشاب الريفي ذلك المنظر خارقاً للعادة، لأنه لم يألف مثل هذه الروعة ولم ير لها نظيراً فاضطرم خياله حتى فارقه غضبه وحزنه. وكان نوربير مرحاً كل المرح وهو قادم إلى المرقص في صحبة «چوليان» الذي يبدو عليه هم وكآبة، ولكنهما ما دخلا الفناء حتى تبدل حالهما، فرأى نوربير أشياء صغيرة لم يعن بها العناية الكافية وسط هذه الزينة الفخمة فانتقدها ثم أخذ يقدر تكاليف كل ما يراه حتى إذا ما بلغ الرقم حداً عالياً، رأى «چوليان» الغيرة تدب في نفسه ويملك قلبه الغضب.

وصل «چوليان» إلى الصالون الأول الذي يدور فيه الراقصون فأعجب به كل الإعجاب وتنازعه إكبار وشيء من خجل لفرط ما تأثر بسحر هذه الزينة وذلك الزخرف. وكان الناس مزدحمين على باب الصالون الثاني ازدحاماً شديداً، فلم يستطع أن يتقدم خطوة واحدة، وكانت زينة هذا الصالون تمثل منظر الهمبرا بغرناطة. وطرق سمع «چوليان» حديث من شاب ذي شارب كان ملاصقاً له بحيث يمس كتفه صدر «چوليان» فسمعه وهو يقول لجاره:

- إنها ملكة المرقص ما في ذلك شك.

فقال الجار: إن الآنسة فورمون، التي ظلت طول الشتاء أجمل فتاة، ترى أنها أصبحت في المكان الثاني، أنظر إلى هيئتها العجيبة.

- حقاً إنها تستخدم كل وسيلة لتسحر الناس. أنظر إلى بسمتها الساحرة حين تكون وحدها في الرقص. هذا شرف بعيد المنال.

- والآنسة دى لامول تظهر بمظهر المسيطرة على نفسها وذلك لسرورها بانتصارها الذي تدركه تمام الإدراك. ويبدو عليها أنها تخشى من أن يعجب بها من تتحدث إليه.

- حسناً جداً! ذلك هو فن الإغراء.

حاول «چوليان» عبثاً أن يرى الفتاة الساحرة التي تحدثا عنها ولكن ثمانية رجال أطول منه قامة حالوا بينه وبين رؤيتها. ثم عاد ذو الشارب يقول:

– إن في التواضع النبيل الذي تظهر به لدلالاً وفتنة.

– وهاتان العينان الكبيرتان الزرقاوان تغضان البصر قليلاً حين تعتقد أنهما ستفضيان بما في نفسها. ليس في بنات حواء أمهر منها؛ وأقسم على ذلك. فقال شاب ثالث: إن الآنسة فورمون الجميلة لا تعد شيئاً بجانبها.

– وكأن هيئتها تقول: كم أقدم إليك من لذة وسرور، لو أنك كنت الرجل الذي يستحقني!

– ومن ذا الذي يستطيع أن ينال «ماتيلد» الرائعة؟ أمير من أمراء البيت المالك، جميل، ظريف، ممشوق القوام، بطل في الحرب، لا يزيد عمره على خمسة وعشرين عاماً.

– أو الإبن الطبيعي لإمبراطور روسيا ... على أن يتولى الحكم إكراماً لهذا الزواج... أو على الأقل الكونت دى تالير بمظهره الذي ينم عن ريفي أنيق الملبس.

ثم خفت وطأة الزحام على الباب فاستطاع «چوليان» أن يدخل الصالون.

وقال في نفسه: يجب أن أفحصها عن قرب ما دامت تعدّ فاتنة في نظر هذه الدّمى، لأرى مثل الجمال الأعلى في نظر هؤلاء الشبان. وجعل يبحث عنها بعينيه فأبصرته «ماتيلد». فقال في نفسه: إن الواجب يناديني، وقد كانت نفسه خالصة من الغضب والحزن، بحيث لم يبق لهما أثر إلا على مظهره فحسب. ودفعه حب الاستطلاع إلى أن يتقدم نحوها في سرعة وسرور، وزاد فرحه حين رأى ثوبها وقد كشف عن كتفيها، وإن كان يرى أن هرولته إليها لا ترضي كرامته. وأخذ يقول في نفسه: إن جمالها لينطوي على الشباب. وقف بينه وبينها خمسة من الشبان أو ستة عرف من بينهم أولئك الذين كانوا يتحدثون عنها بالباب. وخاطبته «ماتيلد» قائلة:

– لقد كنت هنا يا سيدي طول الشتاء، ألست توافقني أن هذه الحفلة خير حفلات الموسم؟ لكنه لم يجب، فاستطردت تقول.

– ورقصة كولان هذه بديعة حقاً، وكم تجيد رقصها السيدات.

فتلفت الشبان ليروا الرجل السعيد الذي تلح عليه «الآنسة دى لامول» في أن يجيبها لكنهم سمعوه يجيب إجابة غير مشجعة.

– لست أصلح حكماً في هذا يا سيدتي، لأنني أقضي حياتي في الكتابة. وهذا أول مرقص أغشاه فأرى الزينة البديعة الرائعة.

فارتاع ذوو الشوارب مما أجاب. وقالت «ماتيلد» في لهجة تدل على اهتمامها به:

– أنت حكيم يا «سيد سورل»، وإنك لترى هذه المراقص، وتشهد الأعياد والحفلات كما يراها الفيلسوف وكما كان يراها من قبل چان چاك روسو. فهذه الحماقات تدهشك أكثر مما تغريك. فأجابها قائلاً:

– أنا أعدّ چان چاك روسو أحمق حين يحكم على الطبقة الراقية، إنه لم يستطع أن

يفهمها، فكأنه في أحكامه خادم حديث العهد بالثراء. فقالت في لهجة كلها إجلال: لقد كتب العقد الاجتماعي.

– على أنه يدعو إلى الجمهورية وإلى القضاء على الملكية. وكم كان هذا المحدث ثملاً بالسعادة لو تفضل دوق فغيّر اتجاه نزهته بعد العشاء ليرافق صديقاً من أصدقائه.

فقالت في لذة من يفتخر بعلمه، لأنها في نشوة بما تعلم، وكأنها عضو المجمع الذي اكتشف وجود الملك فيريتريوس:

– آه! نعم، دوق لوكسمبورج في مونمورانسى حين اصطحب سيّدا يدعى كوانديه إلى ناحية باريس ... .

ولكن نظرات «چوليان»، ظلت عميقة قاسية، فأثر فيها فتوره تأثيراً كبيراً، وزايلتها الحماسة. وعجبت لأنها هي التي اعتادت أن تحدث هذا الأثر نفسه في نفوس الآخرين.

وهنا أقبل المركيز دى كروازنوا مسرعاً نحو «الآنسة دى لامول». وظل واقفاً لا يفصله عنها إلا ثلاث خطوات، ولكنه لم يستطع التقدم لشدة الزحام. فنظر إليها وابتسم لأنه لا يستطيع الوصول إليها، وكانت المركيزة دى روڤراى الشابة على مقربة منه، وهى ابنة عم الآنسة ماتيلد. وقد أمسك زوجها بذراعها، وقد تزوجها منذ خمسة عشر يوماً. والمركيز دى روڤراى شاب صغير السن، ينبعث من عينيه حب أبله، بعد أن تزوج زيجة لايد له فيها، وإنما هي من صنع الكتّاب الحاسبين، زواج المصلحة، إلا أنه وجد زوجته جميلة جداً فأحبها. وسيصبح هذا الزوج دوقاً بعد أن يموت عمه الذي بلغ من الكبر عتياً.

كان المركيز كروازينوا يبتسم لماتيلد ولا يستطيع الاقتراب منها من شدة الزحام، وكانت هي قد سلطت عليه وعلى أصدقائه عينيها الكبيرتين اللتين تحاكيان زرقة السماء وقالت في نفسها: ما أكثر بلادة هؤلاء الشبان وما أقل أهليتهم! ها هو ذا كروازنوا الذي يريد أن يتزوجني؛ إنه لظريف مؤدب، كريم الخصال مثل دى روڤراى. ولولا أن هؤلاء السادة يبعثون الملل في النفوس لكانوا على جانب كبير من الرقة والظرف. لو تزوجني لتبعني إلى المرقص بدوره، يبدو عليه الرضا وتشع من وجهه تلك الدلائل التي تدل على ضيق الأفق. ثم بعد عام من الزواج، أنعم بعربة وجياد وثياب وقصر على بعد عشرين فرسخاً من باريس، ولكن ما قيمة هذا كله بالنسبة إليّ؟ هذا الثراء يرضي حاجة امرأة حديثة العهد بالغنى ويشبع نفس سيدة كالكونتس دى رداڤيل.

ودبّ إلى نفسها الملل من كثرة ما أمّلت. واقترب منها المركيز دى كروازنوا، وأخذ يتحدث إليها؛ ولكنها كانت عنه في شغل بأحلامها، كان صوت كلماته يختلط بضوضاء المرقص دون أن تعي آذانها كلمة واحدة مما يقول. وأخذت تنظر إلى «چوليان» في غير وعي، بعد أن أبتعد عنها في احترام كبير فيه غضب وكبرياء. ورأت في ركن بعيد عن الجمهور الكونت ألتاميرا الذي حكم عليه بالإعدام في بلده، والذي عرفه القارئ من قبل. وكانت إحدى قريبات الكونت قد تزوجت أيام لويس الرابع عشر من أمير يدعى دى

كونتي، فحمته هذه الرابطة من شر رجال الشرطة.

ولما رأته ماتيلد قالت في نفسها: لا أكبر إلا رجلاً يحكم عليه بالإعدام، فهذا هو الشيء الوحيد الذي لا يشترى ولا ينفع فيه مال. آه! هذه كلمة طيبة تلك التي قلتها الآن! يا للخسارة، ليتني قلتها في مناسبة أخرى على مسمع من الناس لتجلب لي فخاراً! كانت «ماتيلد» ذات ذوق حسن في تنسيق جملة حسنة الوقع - صاغتها من قبل- في حديثها، ولكنها كانت من ناحية أخرى شديدة الكبرياء راضية عن نفسها دائماً. وعندما قالت هذه الكلمة حلّ محل الملل شعاع من السعادة والسرور، فظنّ المركيز كروازنوا الذي لا يزال يتكلم إليها أنها تتقبل كلامه قبولاً حسناً، فزادت ثرثرته ولم يسكت عن الحديث. على حين كانت هي لا تزال تقول في نفسها: من هذا اللعين الذي يستطيع أن يعترض على ما قلت؟ إني أردّ على نقده بأن أقول: إن لقب بارون أو ڤيكونت يشترى بالمال؛ والصليب يوهب، فقد ناله أخي، فما الذي فعله ليستحق الصليب؟ والرتبة تنال، إذا قضى الإنسان عشرة أعوام في ثكنة، أو كان وزير الحربية أحد أقاربه، أو كان رئيساً لكتيبة من الكتائب مثل نوربير، أو كان واسع الثروة!

على أن الشرط الأخير أصعب الشروط. إذاً فهو أقواها. هذا أمر عجيب يناقض تماماً ما نجده في الكتب ... إن من يبحث عن الثروة عليه أن يتزوج ابنة السيد روتشلد.

حقاً إن جملتي لها قيمتها ومغزاها. والحكم بالإعدام هو الشيء الوحيد الذى لا تنفع فيه الشفاعة. ثم سألت محدثها المركيز:

- أتعرف الكونت ألتاميرا؟

كان يبدو عليها أنها تحلق في آفاق بعيدة، لأن سؤالها بعيد كل البعد عما كان يتكلم فيه المركيز التعس منذ خمس دقائق. فجرحت كرامته دون أن تقصد. ولكن المركيز كان شاباً ذا فطنة عرف بها بين أقرانه.

قال في نفسه: إنها غريبة الأطوار، وهذه نقيصة فيها، ولكنها تكفل لزوجها مركزاً اجتماعياً فريداً! لا أدري ماذا يفعله «المركيز دى لامول»؛ إن علاقته وطيدة مع أحسن شخصيات الأحزاب كلها، وهو بعد رجل لا تفنى شخصيته ولا ينسى. على أن هذه الغرابة التي تظهر في «ماتيلد» قد تفسّر بالعبقرية .. والعبقرية ليست سخرية إذا زانها كرم المحتد والغنى العريض، هي فضيلة كبرى! و«ماتيلد»، إذا أردت، كانت ذات فطنة وخلق وصلاحية، وتلك هي الصفات التي تخلق الظرف في أتم معانيه ... .

من العسير أن يتقن الإنسان عمل شيئين في آن واحد، لقد أجاب المركيز عن سؤال «ماتيلد» بطريقة تافهة وكأنه يلقي درساً. قال لها:

- ومن ذا الذي لا يعرف هذا البائس التاميرا؛ ثم أخذ يقص عليها أمر مؤامراته الفاشلة التي ينكرها العقل وتدعو إلى السخرية كما وصفها لها نوربير. فقالت في صوت منخفض كأنها تحدث نفسها:

- في منتهى السخف؟ ثم قالت للمركيز كأنها ترد على كلامه:

- أريد أن أراه، فأحضره إليّ. فجرحت هذه الكلمات المركيز جرحاً بليغاً.

كان الكونت ألتاميرا من المعجبين إعجابا شديداً بتعالي «الآنسة دى لامول»، ذلك التعالي الذي قد يبلغ مبلغ القمة، وكان يعدها من أجمل فتيات پاريس. من أجل ذلك، أسرع في الذهاب مع المركيز وقال له:

- كم تكون رائعة لو تربّعت على عرش من العروش!

كثير من الناس يرون أن ليس في العالم ما هو أشر من التآمر؛ لأنهم يرون فيه تمرداً. وأى شيء أقبح من العصيان الذي يقضى عليه بالفشل؟

كانت نظرات ماتيلد تنم عن السخرية لحديث ألتاميرا مع دى كروازينوا، هذا الحديث الذي دلّ على الحرية وأنصتت إليه في لذة وسرور.

وكانت تقول في نفسها: إن وجود متآمر في مرقص لتناقض جميل.

ثم نظرت إلى ألتاميرا، فرأت شاربه الأسود، ووجهه كأنه أسد ربض ليستريح، ولكنها سرعان ما أدركت أن فطنته تنحصر في حالة واحدة: المنفعة، الإعجاب بالمنفعة.

كان هذا الكونت الشاب لا يعني إلا بشيء واحد هو أن يتيح لبلاده حكومة نيابية، ثم لا يهمه شيء بعد ذلك. ولم يكد ألتاميرا يرى چنرالاً من پيرو، حتى أسرع فترك «ماتيلد» أجمل فتاة في المرقص، لأن التعس كان قد وصلت به حاله إلى حدّ أن يئس من أوروبا كلها وهداه التفكير إلى أن ولايات أمريكا الجنوبية تستطيع أن تعيد إلى أوربا الحرية التي حققها لها ميرابو حينما تصبح هذه الولايات قوية فتية.

التفّت جماعة من الشبان ذوي الشوارب حول «ماتيلد» التي أدركت أن سحرها لم يؤثر في نفس الكونت ألتاميرا، وغضبت لانصرافه عنها، وكانت ترى عينيه السوداوين تفيضان بالحماسة وهو يتحدث إلى الچنرال. وكانت تنظر إلى هؤلاء الشبان الفرنسيين نظرات جدّ عميقة تتقن فنه الإتقان كله وتعجز عنه غريماتها. وأخذت تسائل نفسها: مَن من هؤلاء الشبان يستطيع أن يُقدم على عمل يؤدي إلى أن يحكم عليه بالإعدام، مهما يكن مقتنعاً بأن الأمور في صالحه كلها؟

وكانت نظراتها الغريبة هذه ترضي شعور أولئك الذين فطروا على ذكاء قليل، وإن أقلقت الآخرين الذين خافوا خوفاً عظيماً أن تصدمهم عبارة قاسية من هذه الغادة أو يعييهم جواب عن سؤال توجهه إليهم.

واستمرت تقول في نفسها: إن كرم المحتد يتيح للانسان صفات كثيرة تسرّ النفوس لا أجدها مثلاً في «چوليان»، ولكن شرف الأصل يقضي على صفات النفس التي تدفع المرء إلى أعمال تؤدي إلى أن يحكم عليه بالموت.

وفي هذه اللحظة، كان يتحدث على مقربة منها شخص وهو يقول: الكونت ألتاميرا

هو الابن الثاني لأمير سان نزار وپيمنتل، وقد أراد أحد أفراد أسرة پيمنتل أن ينجي كونرادان من الموت حيث شنق عام ١٢٦٨. وهذه أسرة من أشرف أسر ناپولي.

فقالت «ماتيلد» في نفسها: هذا برهان يؤيد نظريتي حين أقول: إن المحتد الكريم ينزع من النفوس قوة الخلق، التي لولاها ما استطاع الإنسان أن يقدم على ما يؤدى إلى الحكم عليه بالموت! لقد كتب عليّ الليلة إفلاس في التفكير، وما أنا إلا امرأة كغيري من النساء، إذاً فلأرقص. وأجابت المركيز إلى طلبه بعد أن ظلّ يلحّ عليها ساعة في أن تراقصه. وأرادت أن تشغل نفسها عما أصابها من فشل في الفلسفة، فعملت على أن تكون فاتنة مغرية تلعب بالقلوب، ولشد ما سرّ دى كروازينوا سحرها ودلالها!

غير أن الرقص والرغبة في أن تملك قلب رجل من خير رجال البلاط لم يرفها عنها. لقد نالت نجاحاً منقطع النظير، فكانت ملكة المرقص؛ وأدركت هذا كل الإدراك، لكنها لم تأبه له.

وتحدثت إلى نفسها قائلة حين عاد بها المركيز إلى مكانها بعد أن رقصا ساعة: أى حياة تافهة سأحياها مع شخص مثل كروازينوا! واستطردت تقول في حزن: أين السرور الذي ألقاه، بعد أن غبت عن پاريس ستة شهور، لم أجده في هذا المرقص الذي تتشهاه كل امرأة في پاريس؟ وإن كنت أسمع فيه ثناء كثيراً من طبقة راقية لا يصوّر لي الخيال خيراً منها ... مرقص ليس فيه من الطبقة البرجوازية إلا بعض أعضاء المجلس الأعلى، وربما كان فيه واحد أو اثنان مثل «چوليان». ثم ازداد حزنها فقالت: ومع ذلك فأي شيء ضنّ به القدر عليّ: أنا أتمتع بالجاه والثراء والشباب! وا أسفاه! لقد أعطاني كل شيء ثم حرمني من السعادة.

وأقوى صفاتي هي تلك التي تحدثوا إليّ عنها الليلة، ويخيّل إليّ أنني على جانب كبير من الذكاء لأنهم يخافونني جميعاً. وإذا واتتهم الشجاعة فطرقوا موضوعاً جدياً، فإن حديثهم لا يدوم أكثر من خمس دقائق تضيق بعدها نفوسهم، وكأنهم قد وصلوا إلى اكتشاف عظيم في أمر ظللت أتحدث إليهم فيه ساعة كاملة: أنا جميلة، وهذه ميزة أخرى ودت مدام دى ستايل أن تضحي بكل شيء في سبيلها، ومع ذلك كلّه يكاد يقتلني السأم وهل هناك ما يحملني على الاعتقاد بأنني حين أغيّر اسمى باسم دى كروازينوا فإني أشعر بملل أقل مما أشعر به الآن؟.

وودت لو أنها بكت ثم قالت: ولكن يا إلهي! ليس هو بالرجل الكامل؟ إنه تحفة من تحف تربية قرننا الحاضر؛ لا يقع بصر المرء عليه إلا رأى فيه شيئاً ينم عن ظرف وعن ذكاء كذلك، وهو شجاع ... .

ثم زايلها الحزن واستولى عليها الغضب وقالت: ولكن «سورل» هذا شاب عجيب. لقد قلت له إني أريد أن أتحدث إليه، ولكنه لا يسمح بالحضور إليّ مرة ثانية!

الفصل التاسع

المرقص

يا لروعة الثياب وبهجتها ولضياء الشموع وشذى العطور، ولتلك الأذرع الجميلة، والأكتاف الجذابة وباقات الأزهار، وموسيقى روسيني وصورسيرى! أنا لا أسيطر على نفسي حين أرى كل هذا!.

رحلات أوزيرى

قالت المركيزة دي لامول لابنتها: إني أراك غضبى، وهذا ما لا يستحسن في مرقص، وقد أعذر من أنذر. فأجابتها «ماتيلد» في ازدراء:

- إني لا أشعر إلا بصداع، لأن الجو هنا شديد الحرارة. وفي هذه اللحظة شعر البارون الشيخ دى تولى بوعكة سقط على إثرها، وكأنه إنما فعل هذا ليؤيد كلام «الآنسة دى لامول»، فاضطر بعض الحاضرين إلى حمله خارج المرقص. وقد قيل إنه أصيب بالسكتة فأحدث هذا في نفوس الحاضرين أثراً سيئاً.

أما «ماتيلد» فلم تعبأ بما جرى، لأنها أخذت على نفسها من قبل ألا تعبأ بالشيوخ ولا بالشخصيات الكبيرة إذا ما نزلت بهم نازلة حتى تعفي نفسها من العطف والرثاء. ثم أخذت ترقص لتفرّ من الحديث عن السكتة القلبية التي لم تكن سكتة، لأن البارون ظهر بين الناس بعد يومين.

وفرغت من الرقص فقالت: ولكنّ «السيد سورل» لم يأت بعد. فبحثت عنه بعينيها، حتى عثرت عليه في صالون آخر. ولشد ما دهشت حين رأت مظهره لم يعد يدلّ على الفتور الذي يوحى بأنه ثابت الجنان لا يؤثر فيه شئ وأن ذلك طبع فيه، لم تعد تبدو عليه الصبغة الإنجليزية. فقالت: إنه يتحدث مع الكونت ألتاميرا الذي حكم عليه بالموت! وعيناه يبدو فيهما شعاع غريب، كأنه أمير متنكر؛ وفي نظراته كبر أكثر من قبل.

اقترب «چوليان» من مكان «ماتيلد»، وهو لايزال يتحدث إلى الكونت فأخذت تنظر إليه في ثبات محاولة أن تتبين في وجهه تلك الصفات الرفيعة التي تؤهل الرجل لأن يحكم عليه بالإعدام. ومر «چوليان» بها وهو يقول للكونت:

- نعم، لقد كان مانتون رجلاً! فقالت في نفسها:

- أيصبح مثل دانتون في يوم من الأيام! ؟ إن وجهه يدل على النبل، أما دانتون فقد كان قبيحاً جداً، ... وكان وجهه وجه جزار على ما أعتقد. وكان «چوليان» لا يزال على مقربة منها، فلم تتردد في أن تناديه، وألقت عليه سؤالاً تعرف تماماً أنه لا يجدر بفتاة أن تسأل؛ ولكن كبرها دفعها إلى أن تقول:

- ألم يكن دانتون جزاراً؟

فقال لها «چوليان» في لهجة ازدراء لم يحاول أن يخفي ما فيها، ونظراته تنم عن قوة وحيوية، بقيتا من أثر حديثه مع الكونت، قال لها:

- نعم، يعدهّ بعض الناس كذلك، ولكنه كان محامياً في ميرى سيرسين، وهذا ما لا يرضي أرباب الحسب والنسب مع الأسف الشديد، ثم استطرد في لهجة شرسة: ومعنى هذا يا آنستي أنه بدأ حياته كما بدأها كثير من أعضاء المجلس الأعلى الذين أراهم هنا الليلة، ومن الحق أن أقرر أن دانتون كان منقصة في نظر الجمال، لأنه كان دميماً إلى أبعد حد.

قال عباراته الأخيرة في سرعة وبلهجة غير عادية ليس فيها أدب كثير، وسكت لحظة، وقد أحنى قليلاً من قامته المديدة بما يدل على تواضع ربما لا يخلو من كبر. فكان كأنه يقول لها: إنني أتقاضى منكم مالاً لأجيب عن أسئلتك، وأنا أعيش من مال آخذه منكم. ولم يشأ أن يرفع عينيه لينظر إليها. أما هي فكانت عيناها الجميلتان لا تفتآن تنظران إليه حتى كأنها جارية من جواريه. فلما رأى الصمت قد ساد وطال نظر إليها كما ينظر خادم إلى مولى ينتظر منه الأوامر. والتقت عيناه بعينيها اللتين كانتا لا تزالان تنظران إليه، فلم يعبأ بها وابتعد عنها في سرعة لم تخف عليها.

ولما أفاقت من أحلامها أخذت تقول: هو جميل، ومع ذلك يثني على القبح هذا الثناء المستطاب! إنه لا يخالف ضميره أبداً على عكس كايلوس وكروازينوا. ويشبه والدي بعض الشبه حين يحاكي ناپليون في المرقص محاكاة بديعة. وكانت «ماتيلد» قد نسيت تماماً حديثها عن دانتون فأخذت تقول: أنا في الواقع ملول هذه الليلة. وأمسكت ذراع أخيها واضطرته على كره أن يسير معها في المرقص قليلاً، مبتغية من وراء ذلك أن تنصت إلى حديث «چوليان» مع هذا المحكوم عليه بالإعدام.

كان الزحام شديداً، لكنها استطاعت أن تقترب منهما حين كان ألتاميرا يمد يده ليتناول بعض المثلجات من فوق صينية، وكان بينها وبينهما خطوتان لا تزيد، والكونت يتحدث إلى «چوليان» ملتفتاً إليه التفاتة غير كاملة، فرأى ذراعاً في كمّ مزركش تمتد لتنال قطعة من المثلجات إلى جوار القطعة التي أخذها. فأثار التطريز انتباهه، واستدار ليرى صاحبة هذا الذراع. وفى نفس اللحظة بدت فى عينيه الجميلتين اللتين تنمان عن السذاجة، علامات الاحتقار، وقال بصوت خفيض يخاطب «چوليان»:

- انظر إلى هذا الرجل، إنه أمير دى أراسيلى، سفير ... وقد طلب هذا الصباح من السيد دى نرڤال وزير الخارجية تسليمي إلى حكومتي. إنه هناك يلعب الورق. أما «السيد دى نرڤال» فلا يمانع في تسليمى لأنه كان من بيننا اثنان أو ثلاثة من المتآمرين هنا عام ١٨١٦. وإذا أسلمت إلى ملكي. فسأشنق بعد أربع وعشرين ساعة. وسيكون من يقبض عليّ واحداً من هؤلاء السادة ذوى الشوارب الجميلة. فصاح «چوليان» صيحة تكاد تكون مسموعة: يا لهم من أنذال!

ولم يفت «ماتيلد» من حديثهما حرف واحد فذهب عنها السأم. وقال الكونت:

- إنهم ليسوا أنذالاً كما نتصور. لقد حدثتك عن نفسي لتراني في صورة واضحة حيّة. أنظر إلى الأمير دى أراسيلى، إنه ينظر كل خمس دقائق إلى وسامه الذهبى؛ وهو شديد الإعجاب بالزخرف التافه الذي يزين صدره. هذا المسكين ليس في الحقيقة إلا غلطة تاريخية لأن الوسام الذي يفاخر به كان يشرف حامله منذ مائة عام، لقد قدم عليه العهد وأصبح لا يعتز به أحد إلا أمثال أراسيلى. وهو لم يتردد في أن يشنق مدينة بأسرها ليحصل على وسامه هذا. فسأله «چوليان» في قلق:

- أحصل عليه بهذا الثمن؟ فأجابه ألتاميرا في فتور:

- ليس هذا ما فعله بالضبط، ولكنه ربما ألقى بثلاثين من أثرياء بلده في النهر بحجة أنهم من الأحرار.

- يا له من شيطان رجيم!

كانت «الآنسة دى لامول» على مقربة كبيرة منه، وقد أحنت رأسها لاهتمامها الشديد بما يقول، حتى أن شعرها الجميل كان يلمس كتفه تقريباً وقال له ألتاميرا:

- أنت حديث السن! وقد أخبرتك بأن لي أختاً متزوجة في بروڤانس، لا تزال جميلة رقيقة ظريفة؛ وقل: هي أم صالحة، تقوم بواجباتها على خير وجه، تقية ولكنها غير متعبدة.

عندئذ تساءلت «الآنسة دى لامول». ماذا يريد أن يقول؟ فاستطرد ألتاميرا:

- وهي سعيدة بحياتها، كانت سعيدة عام ١٨١٥. وكنت في ذلك الوقت أختفي في أرضها القريبة من أنتيب؛ ولما بلغها خبر إعدام المرشال لي أخذت ترقص! فحزن «چوليان» لما سمع وقال:

- أيمكن أن تفعل هذا؟

- هذه روح الجماعة، لم نعد نرى في القرن التاسع عشر عواطف أكيدة متينة: وهذا هو السرّ في أن الناس يستولي عليهم الملل في فرنسا ... الناس يرتكبون الكبائر ولكن في غير قسوة.

- يا للخسارة! ولكن إذا ارتكب الإنسان جرائم، كان عليه أن يرتكبها في لذة وسرور: وهذا هو الجانب الحسن في ارتكابها، أو أنهم لا يستطيعون تقليل جرائمهم إلا بهذا السبب نفسه.

أنسيت «الآنسة دى لامول» نفسها ومكانتها، ووقفت بين ألتاميرا و«چوليان». وأخوها لا يزال يمد لها ذراعه، وقد تعود أن يطيعها، غير أنه كان ينظر في القاعة، ولكي يسوغ انصرافه عنها، تظاهر بأن الزحام الشديد حال بينه وبين أن يتقدم.

كان ألتاميرا يقول:

– إنك على حق ... الناس يقدمون على ما يفعلون فيرتكبون الجرائم دون لذة ودون أن يتذكروا ما يعملون. أستطيع أن أريك في هذا المرقص عشرة رجال، كان يجب أن يحكم عليهم بالإعدام لأنهم مجرمون سفاكون، ولكنهم نسوا ما فعلوا، ونسي الناس كذلك كل ما اقترفوه.

كثير من الناس يتأثر كثيراً حين تكسر رجل كلب من كلابه وعندما نرى الزهر ينثر فوق قبورهم في پيرل شزّ نعتقد –أو هم يحملوننا على أن نعتقد– أن هؤلاء الموتى كانت لهم كل صفات الفرسان والشجعان، وأن والد جده كان يأتي أعمالاً عجيبة في أيام هنرى الرابع. وإذا لم أشنق على الرغم من محاولات أراسيلى، وبقيت لي ثروتي في پاريس، فإني سأدعوك إلى تناول الطعام مع ثمانية أو عشرة من هؤلاء المجرمين المبجلين الذين نسوا آثامهم.

ستكون أنت وأنا وحدنا الذين لم يُلوّثا بالدماء بين هذه الجماعة، أما أنا فسأكون محتقراً ومكروهاً؛ لأنهم يعدونني شيطاناً سفاكا ويعقوبياً ثائراً، وأما أنت فستلقى منهم الاحتقار وحده؛ لأنك من صميم الشعب، وقد حشرت فى زمرة الطبقة الراقية. فقالت «الآنسة دي لامول»:

– أنت تقول الحق الذي لا مرية فيه.

فذهل ألتاميرا ونظر إليها، ولم يشأ «چوليان» أن ينظر إليها تعالياً وعظمة.

واستمر الكونت يقول:

– لاحظ أن الثورة التي كنت أقودها لم تنجح لسبب واحد، هو أني لم أشأ أن أقتل ثلاثة رجال ولم أرد أن أوزع على أنصاري ثمانية ملايين كانت في خزانة مفتاحها معي. وإن مليكى الذي يود اليوم من كل نفسه أن يقتلني –وكان قبل الثورة يخاطبني كصديق– ما كان يبخل عليّ بأعظم وسام في مملكته لو أنني قتلت هؤلاء الثلاثة ووزعت المال، لأني لو كنت فعلت هذا لأصبت نصف النجاح، ولأصبح لبلدي دستور مهما يكن من أمره فهو دستور على كل حال ... العالم ينسج على هذا المنوال، وهو بمثابة لعبة الشطرنج. فقال «چوليان» واللهب يشع من عينيه:

– لم تكن تعرف اللعبة من قبل، أما الآن ... .

– أتريد أن تقول إني سأقطع بعض الرؤوس، ولا أكون چيرونديا كما أردت أن تفهمني من بضعة أيام؟ ... ثم استطرد في لهجة حزينة:

– سأطلعك على رأيي حين تقتل رجلاً في مبارزة، وقتل الرجل في المبارزة خير ألف مرة من قتله بيد الجلاد.

– يخيّل إليّ أن الغاية تبرر الوسيلة! لو كان بيدي شيء من السلطان، لقتلت ثلاثة

رجال لأنجى أربعة، ولكني لست شيئاً مذكوراً.

وكانت عيناه لا تزالان تشعان بما يكنه ضميره من احتقار لهذه الأحكام التافهة التي يصدرها الناس، و«الآنسة دى لامول» على مقربة كبيرة منه فالتقى بصره ببصرها، وفي نظراته ازدراء شديد تزايد لما التقت عيونهما فحلّ محلّ ما كان ينبغي أن يكون من ظرف وأدب.

فغضبت أشد الغضب، وانصرفت حزينة تجر أخاها من ورائها ولم يعد في مقدورها بعد ذلك أن تنسى «چوليان».

قالت في نفسها: يجب أن أشرب كثيراً من البونش ويجب أن أرقص كثيراً. عليّ أن أتسلح بخير الوسائل لأحدث في النفوس أعظم الآثار بأي ثمن كان، حسناً، ها هو ذا الكونت فرڤاك المشهور بالقحة، ودعاها للرقص فقبلت قائلة في نفسها: سيرى أيهما أكثر قحة من صاحبه، ... فأحمله على الكلام لأستطيع أن أسخر منه سخرية شديدة ثم دفعها الكلام إلى أن تنسى الرقص، فهي توجه إلى الكونت عبارات قاسية اضطرب لها ولم يجد ما يجيب به «ماتيلد» إلا عبارات ظريفة، وأعيته الأفكار فاستاء وغضب. وكانت هي قاسية كل القسوة؛ لأنها غاضبة فخسرت صداقته. وبقيت ترقص حتى الصباح. ثم غادرت المرقص وقد أرهقها التعب وركبت العربة مستعينة بالبقية الباقية لها من القوة وأطلقت العنان للهم والتعاسة؛ وذلك لأن «چوليان» احتقرها ولكنها لم تستطع أن تزدريه.

كان «چوليان» في أوج سعادته، لقد أعجب بالموسيقى والأزهار والنساء الفاتنات، التي سيطرت على الحفل؛ على أن مصدر سعادته الحقيقة إنما كان يزينه له خياله من مكانة كبيرة لنفسه ومن خزية للناس جميعاً. قال للكونت:

- يا له من مرقص بديع! فأجابه ألتاميرا:

- ولكن تنقصه الفكرة.

ونمّ وجه ألتاميرا عن احتقار شديد يفر من الأدب، على الناس ألا يظهروه فقال له «چوليان»: إنك تمثلها يا سيدي الكونت. ثم أليست الفكرة تنطوي على شيء من التآمر؟

- لقد دعيت إلى المرقص، وكان لاسمي الفضل في دعوتي. ولكنّ الناس لا يحبون الأفكار في صالوناتكم. فالفكرة التي تقال في صالون يجب ألا تزيد عن الرأي الذي تحمله مقطوعة شعرية في رواية غنائية: عندئذ يتقبلها الناس أحسن قبول. أما من اعتاد التفكير، وحّمل قوله قوة ورأياً جديداً فإنهم يعدونه سفيهاً لا حياء فيه. ألم يصف أحد قضاتكم كوربيه بهذا الوصف؟ ولقد حكمتم عليه بالسجن كما حكمتم على بيرانچيه. وإن كل ما يصدر هنا عن فكرة أو فطنة وذكاء أو يعدّ شيئاً مذكوراً فإن الجمعية تدفع صاحبه إلى رجال الشرطة ليتولوا تأديبه، وتطمئن الطبقة الراقية إلى هذا الإجراء ذلك لأن مجتمعكم دبت الشيخوخة فيه، فهو يضع الأدب في المكان الأول ... وأسمى الصفات عندكم هي الشجاعة الحربية، لذلك تتمتعون بكثير من أمثال مورا وليس فيكم مثل

واشنجطن. إنني لا أرى في فرنسا إلا الزهو والغرور، فالرجل الذي يتحدث حديث الأذكياء أو يدلي بجديد سرعان ما يعثر لسانه فينطق بما لا يحسن قوله، وهنا تكون الطامة الكبرى لأن صاحب المنزل يؤمن بأنه قد جرح كرامته. وصل الكونت إلى هذا الحدّ من حديثه عندما وقفت عربته أمام قصر «المركيز دى لامول». ولقد أحبه «چوليان» حباً شديداً.
وأثنى الكونت عليه كذلك الثناء الجميل، أثنى عليه من كل قلبه حين قال له: لا أرى فيك طيش الفرنسيين! اذكر دائماً مبدأ المنفعة. وكان «چوليان» قد شهد أمس الأول تمثيل رواية مارينو فاليير و من وضع السيد كازيمير ديلافنى.

ثم أخذ هذا الشاب الشعبي الثائر يقول: أليس إسرائيل برتوكيو أقوى خلقاً من أهل البندقية جميعاً؟ ومع ذلك فإنهم عريقون في الأرستقراطية. إذ يرجع عهدهم بها إلى عام ٧٠٠ أى قبل شارلمان بقرن كامل، على حين أن كل أولئك الذين كانوا في مرقص دى ريتز هذه الليلة لا عهد لأسرهم بالأرستقراطية إلا منذ القرن الثالث عشر، وذلك أيضاً مع التساهل. وأشراف البندقية عريقو المحتد، لكن إسرائيل برتوكيو خيرهم جميعاً. إن مؤامرة واحدة كفيلة بالقضاء على هذه الألقاب التى تمليها نزوات المجتمع. إذ أن كل إنسان ينال مرة واحدة اللقب الذي تؤهله له طريقته في استقبال الموت. وفي هذه الحالة تفقد النفس الكثير من سيطرتها ... لو كان دانتون يعيش في هذا العصر، عصر أمثال ڤالنو ودى رينال، فماذا كان يصبح أمره؟ لو كان بيننا، ما وصل إلى منصب وكيل النائب ... ماذا أقول؟ لو أنه لا يزال حياً لباع نفسه للجمعية ولأصبح وزيراً، لأن دانتون العظيم كان قد سرق من قبل. ولقد باع ميرابو نفسه كذلك وسرق ناپليون الملايين من إيطاليا، ولولا هذا لحال الفقر بينه وبين انتصاراته العظيمة، ولكان مثله مثل پيكجرو. أما لافاييت فهو الشخص الوحيد الذي لم يسرق. ولكن هل ينبغي للانسان أن يسرق؟ أمن حق المرء أن يبيع نفسه؟ وحمله هذا السؤال على ألا يتمادى في التفكير، فقضى بقية ليلته يقرأ تاريخ الثورة الفرنسية.

وجلس يكتب خطابات في المكتبة في اليوم التالي، وهو لا يفكر إلا في حديث الكونت ألتاميرا. ثم أفاق من حلم طويل قائلاً في نفسه: الواقع أن هؤلاء الأسبانيين الأحرار لو أنهم ارتكبوا الجرائم وعرضوا الناس للخطر، ما قضى عليهم بهذه السهولة. كانوا أطفالاً ثرثارين متكبرين ... ثم صاح بغتة كمن يستيقظ مرتجفاً: وإن مثلي كمثلهم تماماً!

ثم واصل حديثه: ماذا فعلتُه من جليل الأعمال حتى أعرّض لنقد هؤلاء البائسين الذين لم يكادوا يولدون حتى ملكتهم الجرأة وأقدموا على العمل؟ إنني كمن يقول وهو يغادر مائدة الطعام: لن أتناول عشائي في الغد؟ ولن يحول هذا بيني وبين القوة والنشاط اللذين أشعر بهما اليوم. ومن ذا الذي يعرف ما يعتور الإنسان من شعور وهو مقدم على عمل جليل إلا أنه لا يزال في منتصف الطريق؟

ودخلت «الآنسة دى لامول» عليه المكتبة بغتة، فقطعت سلسلة أفكاره الجليلة. فقد كان تحت نوبة من الإعجاب بدانتون وميرابو وكارنو الذين عرفوا كيف يدفعون عن أنفسهم الهزيمة، فوقع نظره على «ماتيلد» ولكنه لم يفكر فيها، ولم يحيّها، بل لم يكد يراها. لكن عينيه الواسعتين اللتين كانتا تحملقان ما لبثتا أن رأتها ففترت نظراته. ورأت «الآنسة دى لامول» هذا التغير فأصابتها حسرة وكمد.

طلبت منه مجلداً من كتاب تاريخ فرنسا من تأليف ڤيلي، وهذا الكتاب في أعلى رف من الرفوف، فاضطر إلى إحضار أكبر السّلمين، ووضعه وأحضر لها الكتاب وقدّمه دون أن يفكر فيها لأنه لا يزال مشغول البال فاصطدم مرفقه بمرآة من مرايا المكتبة وهو يحمل السلم ليعيده إلى مكانه فسقطت المرآة وأحدث كسرها ضوضاء أيقظته من الأحلام واسترجعته من الأفكار، فسارع بأن يعتذر لها؛ أراد أن يكون مؤدباً فكان معها مؤدباً لا أكثر ولا أقل، وأدركت «ماتيلد» في وضوح أن حضورها سبّب له اضطراباً؛ وودّت لو عرفت ما كان يفكر فيه قبل أن تجيء، ثم ودت لو أنه تحدّث إليها. نظرت إليه طويلاً ثم غادرت المكتبة في خطوات ثقيلة. وأخذ هذا ينظر إليها وهي تسير. وأعجب بهذا الاختلاف الشديد بين ثيابها البسيطة التي ترتديها اليوم وبين زينة ليلة أمس وأناقة ثيابها في المرقص. وكان الفرق بين الوجهين كبيراً كذلك ... هذه الفتاة كانت هناك بالأمس مملوءة كبراً وغروراً، ولكن نظراتها الآن تنم عن الضراعة. وأخذ يقول: حقاً يظهر هذا الثوب الأسود جمال قوامها، ويصوره أبدع صورة وإن لها لسمت الملكات؛ ولكن لم تلبس ثياب الحداد؟ إني لو سألت أحداً عن سبب هذا الحداد، لارتكبت خطأ. وكان في هذه اللحظة قد زايلته الحماسة فقال! يجب أن أقرأ الخطابات التي كتبتها هذا الصباح، لأنه لا يعلم إلا الله وحده عدد الكلمات التي تركتها وما أثبته فيها من بلاهة وحمق. وجعل يقرأ الخطاب الأول، محاولا حصر انتباهه فسمع على مقربة منه حفيف ثوب من الحرير؛ التفت إليه في سرعة كبيرة فألفى «الآنسة دى لامول» على بعد خطوتين من منضدته وهي ضاحكة السن، لكنه حنق عليها لهذه المقاطعة الثانية أمّا هي فقد أدركت أنه لا يعبأ بها، وكانت ترمي من وراء ضحكتها إلى أن تخفي الاضطراب وقد أفلحت ثم قالت له:

– لا ريب أنك تفكر في أمر مفيد يا سيد سورل. أتفكر في ألتاميرا؟ قل لي فيما تفكر فإني أرغب في ذلك رغبة شديدة ؛ سأكون كتوماً للسر، وأقسم على ذلك! وذهلت حين سمعت نفسها تنطق بهذه العبارة، تُرى ماذا دهاها؟ أترجو مرءوساً لها؟ وزاد اضطرابها فقالت في لهجة لا تخلو من الخفّة:

– ما الذى غيّرك هكذا، فجعل منك شخصاً ملهماً، بعد أن كنت فاتر الطبع؟ أصبحت وكأنك ميكيل آنج.

كان في هذا السؤال حيوية، وكان داخلاً في صميم حياة «چوليان» الخاصة، فجرحه جرحاً بليغاً حتى ثارت ثائرته، وقال لها بغتة بلهجة ازدادت شدتها كلما أمعن في الحديث:

- هل أصاب دانتون حين سرق الأموال؟ هل كان على ثوّار پييمونت أو أسبانيا أن يلطخوا الناس بالجرائم؟ أمن العدل أن يعطى أناس لا أثر لهم في شيء، مناصب الجيش كلها وكل الأوسمة! وهؤلاء الذين حملوا الأوسمة، ألم يكونوا خائفين من عودة الملكية؟ أكان يجب أن تسلب كنوز توران؟ ثم اقترب منها والشر بادٍ على وجهه وقال لها: وأخيراً يا آنستي، أو تعتقدين أنه يجب على من يريد القضاء علىٰ الجهل والإجرام في الأرض، أن يكون كالعاصفة تصيب بالأذى كيفما اتفق؟

فارتاعت ولم تقو على نظراته وتقهقرت خطوتين. ثم نظرت إليه لحظة، ثم خجلت من خوفها فغادرت المكتبة.

الفصل العاشر

الملكة مرغريت

أيها الحب! أية حماقة تتدخل فيها ولا تغمرنا بالسرور؟

خطاب راهبة برتغالية

أعاد «چوليان» قراءة خطاباته. ودق جرس العشاء، فقال في نفسه: لشد ما كنت شيئاً يدعو إلى السخرية في نظر هذه الدمية الپاريسية! وكم كنت أحمق حين أفضيت إليها بحقيقة ما كنت أفكر فيه! لكنه ربما لم يكن هذا جنوناً كبيراً؛ فالصدق في هذه الحالة كان واجباً محتوماً. ولكن ما بالها تسألني عمّا يخصني أنا وحدي؟! لقد كان سؤالها فضولاً وتطفلاً وقد خالفت العرف؛ لأن آرائي في دانتون ليست داخلة في خدمتي لأبيها التي آخذ عليها أجراً.

ودخل غرفة الطعام فانصرف عن أفكاره وسكت عنه الغضب حين رآها في ثياب الحداد، لكنه زاد عجبه لما تبيّن أن بقية أفراد الأسرة لا يرتدون الملابس السوداء.

وفرغ من الطعام فرأى نفسه قد فرغت من الحماسة التي لازمته طول يومه، وكان عضو المجمع الذي يعرف اللاتينية يتناول الطعام معهم، فقال «چوليان» في نفسه: هذا هو الرجل الذي لن يسخر مني، كما أعتقد، إذا سألته عن أمر حداد «الآنسة دى لامول».

وكانت «ماتيلد» تنظر إليه نظرات عجيبة، فتحدّث إلى نفسه قائلاً: ذلك هو دلال الپاريسيات الذي حدثتني عنه «مدام دى رينال». لم أكن ظريفاً معها هذا الصباح، ولم أجبها إلى رغبتها التي سيطرت عليها في أن تتحدث إليّ. ومع هذا كله فأنا أزداد في نظرها إكباراً. هذا من عمل الشيطان، لأنها ولا شك ستنتقم فيما بعد لكبريائها المجروحة ... لقد أثرتها وأحرجتها. وما أعظم الفرق بينها وبين من فَقَدْتُ! كم كانت لطيفة بطبعها! وكم كانت ساذجة! كنت أدرك أفكارها قبل أن تفضى بها إليّ، وكنت أرى هذه الأفكار ساعة تولد في رأسها الجميل. ولم يكن لي من عدو في قلبها إلا خوفها على أطفالها من الموت؟ وكان هذا شعوراً طبيعياً معقولاً، أستسيغه وإن كان يؤلمني. كنت إذ ذاك أحمق؛ لأن الآراء التي شغلت نفسي وتفكيري الدائم في پاريس، حالت بيني وبين أن أتمتع بهذه السيدة الجميلة.

ما أبعد الفرق بين الحالين! ماذا أجد هنا؟ أجد كبرياء وتعالياً وكشفاً عن عزة النفس بكل ضروبها وألوانها، لا أكثر من ذلك ولا أقل. ولما غادروا مائدة الطعام، قال في نفسه:

عليّ ألا أترك عضو المجمع يشغل في الحديث مع الآخرين. واقترب منه وهو في طريقه إلى الحديقة، واتخذ له مظهراً يدل على الرقة والخضوع، وشاطره غضبه لنجاح تمثيلية هرنانى، وقال له:

- ليتنا كنا نعيش زمن الأوامر الملكية! ... فصاح عضو المجمع مشيراً إشارة تمثيلية ثم قال:

- إذاً لما جرؤ على كتابة ما كتب.

ثم رأى «چوليان» زهرة فتلا بعض عبارات من جيورچيك لڤرچيل، وقال إن أشعار الكاهن ديليل خير الأشعار كلها. وأقصد أن أقول: إنه توسل بكل الوسائل يتملقه حتى قال في لهجة عادية ليس فيها اثر من الاهتمام:

- يخيل إليّ أن «الآنسة دى لامول» قد ورثت عمّا من أعمامها تلبس الحداد عليه اليوم. فتوقف عضو المجمع عن المسير فجأة وقال:

- ماذا؟ أنت لا تعرف إذاً جنونها! إنني في الواقع أعجب من سماح أمها لها بمثل هذه الأشياء؛ ولكني لا أخفي عنك أن قوة الخُلُق ليست الصفة التي تسيطر على هذا القصر. و«الآنسة دى لامول» هي التي تتزين وحدها بهذه الصفة، لذلك فهي تسيطر عليهم جميعاً. نحن في الثلاثين من إبريل ... ثم سكت ونظر إلى «چوليان» نظرة لها مغزاها، فاستعان الشاب بكل ما وُهب من ظرف حتى ابتسم له، لكنه عاد يسائل نفسه: ما العلاقة بين كل هذا، سيطرتها على الأسرة، ولبس السواد، والثلاثين من إبريل؟ يجب أن أرتكب حماقة أخرى لأعرف السر. ثم نظر إليه نظرات تنم عما في نفسه، وقال:

- إني أعترف لك ... ووجد محدثه فرصة جميلة ليقص عليه قصة طريفة، فقال له:

- هيا بنا نسير في الحديقة. ماذا؟ ألا تعرف ما حدث في الثلاثين من إبريل سنة ١٥٧٤؟

- أين؟

- في ميدان جريڤ؟

فذهل «چوليان» ذهولا شديداً، لأن العبارة لم تشبع فضوله. ولمعت عيناه لمعاناً شديداً من حب الاستطلاع وتوقعه أن يسمع خبر مأساة، وهو يحب المآسي بطبعه، فسرّ عضو المجمع بما يرى، لأن القاص يحب دائماً أن يرى علامات الانتباه على وجه من يسمعه. ثم قال له: في الثلاثين من إبريل سنة ١٥٧٤ قتل بونيفاس دى لامول أجمل شاب في عصره مع صديقه أنيبال دى كوكوناسو، إذ قطع رأساهما في ميدان جريڤ. وكان دى لامول خليل الملكة مرغريت دى ناڤار التي عبدته عبادة. واستطرد يقول:

وعليك أن تذكر أن «الآنسة دى لامول» تدعى «ماتيلد» مرغريت. وكان بونيفاس في الوقت نفسه صديقاً مقرباً إلى دوق دالنسون، وصديقاً حميماً للملك ناڤار -زوج

خليلته– منذ عهد الملك هنرى الرابع. وفي يوم ثلاثاء المرفع من عام ١٥٧٤ كان الملك شارل التاسع وبلاطه في سان جرمان، وكان هذا الملك البائس يسلم أنفاسه الأخيرة، فأراد دى لامول أن يخلّص أصدقاءه الأمراء الذين احتجزتهم مارى دي موسيس في البلاط كمسجونين. فأحضر مائتي جواد تحت جدران سان جرمان روّعت دوق ألنسون، وسيق دى لامول إلى المشنقة.

وإن ما أثّر في نفس «الآنسة دى لامول» -كما أفضت إليّ من سبعة أعوام أو ثمانية حينما كانت في الثانية عشرة من عمرها، لأنها ذات عقل جبار، نعم لعمري هي ذات عقل جبّار! قال هذا ورفع بصره إلى السماء-أقول: إن ما أثر في نفسها من هذه المأساة التاريخية، هو أن مرغريت دى نافار قد اختفت في منزل مطل على ميدان جريف، وجرؤت أن تطلب رأس حبيبها من الجلاد. وفي منتصف الليلة التالية حملت الرأس في عربتها، وذهبت لتدفنه بنفسها في كنيسة صغيرة تقوم في أسفل تل مونمارتر. فذهل «چوليان» وسأل: أيمكن أن يحدث هذا؟

– الآنسة «ماتيلد» تحتقر أخاها لأنه لا يفكّر كما ترى في هذا التاريخ القديم، ولا يلبس الحداد في الثلاثين من إبريل.وأصبحت أسرة دى لامول منذ ذلك العهد تسمي كل رجل فيها باسم أنيبال، اعترافاً بوفاء ذلك الإيطالى كوكونسو الذي كان يدعى أنيبال كما أسلفت. ثم استطرد يقول في صوت منخفض! وكان كوكوناسو هذا، على ما قال شارل التاسع نفسه، من كبار مجرمي ٢٤ أغسطس عام ١٥٧٢. ولكن كيف تجهل يا عزيزي سورل هذه الأشياء وأنت تجالس آل دى لامول وتأكل معهم على مائدة واحدة؟

– هذا هو السب في أن «الآنسة دى لامول» دعت أخاها مرتين أثناء العشاء باسم أنيبال، وقد ظننت أني أخطأت السمع.

– لقد كان هذا تأنيباً وجهته إليه. ومن الغريب أن المركيزة تغضي عن مثل هذه الحماقات ... ويل لزوج هذه الفتاة!

ثم أردف قوله هذا بخمس أو ست جمل تنطوي على الهجاء. وكان الفرح والمودة يحدثان بريقاً في نظرات الرجل، فبعث ذلك غيظاً في نفس «چوليان»، وأخذ يقول: نحن الآن خادمان نتناول سادتنا بالقدح والنقد. على أنه لا ينبغي أن أعجب من شيء يصدر من هذا الرجل، لأن «چوليان» كان قد دهمه مرة وهو راكع أمام المركيزة دى لامول، يطلب منها تجارة تبغ تدر دخلاً على حفيد له في الريف. وفي المساء أخبرت «چوليان» وصيفة من وصيفات «الآنسة دى لامول»، كانت تتودد إليه كما فعلت إليزا من قبل، بأن مولاتها لا تلبس الحداد لتجلب إليها الأنظار، ولكنها ترتديه إرضاء لفكرة عميقة تأصلت في نفسها، وهي أنها تحب بونيفاس دى لامول حباً حقيقياً، وقد كان خليل ملكة تعد أذكى ملكات عصرها، وقد قتل لأنه أراد أن يخلص أصدقاءه، وأي أصدقاء! كان من بينهم هنرى الرابع وأول أمير من أمراء الأسرة المالكة.

اعتاد «چوليان» أن يرى في «مدام دى رينال» كمال الخلق في كل ما يصدر عنه، وعلى هذا لم ير في الپاريسيات إلا التكلف، وكان لا يجد ما يقوله لهنّ إذا خالطهن على الرغم منه. أما «الآنسة دى لامول» فلم يعد يحشرها في زمرتهن. وأصبح لا يرى في جمالها جفاء القلب الذي يعد من صفات طبقة الأشراف. وبدأ يتحدث معها أحاديث طويلة في الحديقة تحت نوافذ الصالون المفتوحة، حيث كانت تخرج معه للنزهة. أخبرته ذات يوم أنها قرأت تاريخ أوبينى وبرانتوم، فقال في نفسه: ذلك لون غريب من الاطلاع، مع أن المركيزة لا تسمح لها بقراءة روايات والتر سكوت!

وحدثته يوماً، وعيناها تلمعان بالسرور الذي يدل على إعجابها بما تقول أخبرته أن زوجة شابة كانت تعيش في عصر هنرى الثالث رأت أن زوجها يخونها فطعنته طعنة مميتة: قرأت هذا في مذكرات إتوال، وكانت مخلصة في تقديرها لهذه المرأة، صادقة في شعورها نحوها.

رضيت أنانية «چوليان» بهذه العلاقة الجديدة ووجد فيها لذة، لأن الفتاة التي يحيطها الكثير من التبجيل، والتي تقود الأسرة كلها كما قال عضو المجمع، نزلت عن كبريائها وأصبحت تتحدث إليه حديث ودّ وصداقة. لكنه قال بعد قليل! لقد أخطأت التقدير، فهي لا تأنس بي، إنما تتخذني نجياً وتتحدث إليّ لحاجتها إلى من تتحدث إليه. إنّ الأسرة كلها تعدني عالماً، فعليّ إذاً أن أقرأ الآن برانتوم وأوبينى وإتوال، عليّ أن أستطيع أن أنكر بعض القصص التي ترويها لي «الآنسة» أو لعلّي أجادلها فيها. إني أحب أن أخرج من هذ الموقف السلبي وألا أصبح كاتم السر فحسب.

ثم أصبحت أحاديثه مع هذه الفتاة الجامحة اللينة، أحاديث حلوة طلية. ونسى «چوليان» دوره، دور الشعبي الثائر، حين وجدها مثقفة معقولة. تغاير آراؤها التي تبديها في الحديقة أفكارها في الصالون تمام المغايرة، وكثيراً ما كان يراها متحمسة صريحة، وهي التي لا تظهر عادة إلا بمظهر التعالي والكبر وجمود العواطف.

قالت له يوماً: إن عصر الحروب الدينية هو عصر البطولة في فرنسا؛ لأن المرء كان يحارب لينال كسباً جديداً لحزبه ولينتصر لمبادئه، لا يقاتل من أجل وسام كما كان يحدث في عهد امبراطورك. أرجو أن تقرني على أن هذا العصر لم يكن عصر صغار ولا أنانية، كم أحب هذا العصر!. قالت هذا وعيناها تضيئان بحماسة وذكاء، فقال لها:

– وكان بونيفاس دى لامول بطل هذا العصر.

– كان على الأقل محبوباً جداً كما ينبغي أن يحب كل إنسان. ثم أية امرأة تعيش في عصرنا هذا، لاتشمئز إذا لمست رأس حبيبها بعد أن يقطع؟

دعت مدام دى لامول ابنتها. وقد رأينا «چوليان» يفضي إلى «ماتيلد» ببعض سره عن إعجابه بناپليون وكان عليه أن يداري نفاقه حتى يحصل على ما ينبغي من ورائه.

وظلّ في الحديقة وحده بعد أن فارقته «الآنسة»، فقال في نفسه: الميزة الوحيدة التي يفضلوننا بها، هي أن نسبهم يرفعهم عن كل عاطفة وضيعة، وهم لا ينزلون دائماً إلى التفكير في ضروريات الحياة! ثم استطرد في مرارة: يا للشقاء! لست أهلا للتفكير في مثل هذه المسائل الهامة. ليست حياتي إلا سلسلة من النفاق، لأن دخلي لا يبلغ ألف فرنك أشترى بها خبزاً. وعادت إليه «ماتيلد» وهي تجري وسألته:

– فيم تحلم الآن يا سيدي؟

وكان قد زهد من كثرة ما احتقر نفسه. ودفعته الكبرياء أن يعترف بحقيقة ما يفكر فيه، ولشد ما خجل وهو يتحدث عن فقره إلى هذه الفتاة الغنية. وحاول أن يفهمها أنه لا يطلب شيئاً منها، فعمد إلى لهجة تمّت عن الكبر. كان جميلاً في نظرها في تلك الساعة؛ لما بدا عليه مظهره من حساسية وصراحة، لم ترهما من قبل. ومضى أقل من شهر، وطاف «جوليان» يتنزه في حديقة القصر، وعلامات التفكير بادية على محيّاه؛ ولكن وجهه لم يعد يحمل الصلابة، ولا هذا الادعاء الفلسفي الذي كان يرضي دائماً مركب النقص الذي فطر عليه. ثم قاد «الآنسة دى لامول» حتى باب الصالون، وكانت قد زعمت له أن قدمها تؤلمها على أثر جريها مع أخيها. واتكأت على ذراعه بطريقة عجيبة! فأخذ «جوليان» يحدث نفسه: أأنا غرّ، أم أنها حقيقة تميل إليّ؟ أراها تصغى إليّ في ظرف شديد، ولو كنت أحدثها عن آلام نفسي! وكم يذهل المترددون على الصالون إن رأوا يوماً هذا الوجه وقد شعت منه هذه التعبيرات اللطيفة، إنها متكبرة على كل الناس! ولا شك أن هذه الطيبة وهذا الظرف لا تظهرهما لسواي من الناس.

وحاول ألا يبالغ في هذه الصداقة لأنه يؤمن بأنها خطيرة. وكانا حين يلتقيان وقبل أن تسود بينهما المودة التي سرت في حديثهما بالأمس، يسائل كل منهما نفسه: هل سنكون اليوم أصدقاء أو أعداء؟ وأدرك أنه إن ترك تلك الفتاة المتعجرفة تجرح كبرياءه مرة واحدة دون أن يقتص منها، لأضاع كل شيء. إذا كان لابدّ لي من أن أقطع صلتي بها، أفليس من المستحسن أن يكون ذلك منذ البداية بدفاعي عن كرامتي؟ هذا خير وأبقى من أن أقف منها موقف من يعمل على أن يدفع عن نفسه أذى احتقارها، إذا ما تهاونت في الاحتفاظ بالكرامة والعزة.

وحاولت «ماتيلد» مرات عديدة أن تتخذ معه لهجة السيدة الأرستقراطية في تلك الأيام التي كانا يختلفان فيها، مستعملة كثيراً من اللباقة في هذه المحاولات، ولكن «جوليان» كان يدفع أساليبها في خشونة وغضب. وقاطعها بغتة في يوم من الأيام قائلاً لها: هل لدى «الآنسة دى لامول» بعض الأوامر فتكلّف بها سكرتير أبيها؟ وأخذ ينصت إلى أوامرها وينفذها في احترام شديد، ولكنه لم يقل لها كلمة واحدة، لأن الأجر الذي يتقاضاه لا يدخل فيه الإفضاء بالآراء.

وقضت هذه الطريقة الجديدة في حياة «جوليان» هي وشكوكه العجيبة على الملل

الذي كان يملكه حين يجلس في الصالون الفخم الرائع، ولكن التقاليد قضت عليه ألا يتهكم من شيء أبداً.

أخذ يحدث نفسه يوماً فقال: قد يكون عجيباً أن تحبني! وسواء أحبّتني أم لم تفعل فإني أجد فيها فتاة ذكية أفضي إليها بما في النفس، فتتقبله قبولاً حسناً، وهى التي يرتاع منها كل من في القصر ويخافها المركيز دى كرازنوا خوفاً شديداً. وهو شاب فطر على الأدب الجمّ وعلى الظرف الكثير والشجاعة الفذّة، وفيه كل الصفات الحميدة التي يؤهله لها كرم محتده وعظم ثروته، والتي لو كان لي إحداها ما كنت معذب النفس وهو يحبها حباً شديداً، ويريد أن يتزوج منها. وكم من الخطابات يكلفني المركيز دى لامول أن أكتبها إلى مسجّلي الأسرتين ليعدّا عقد الزواج أما أنا، ذلك المرءوس الوضيع الذي يمسك القلم ليكتب ما يؤمر به، فإني أنتصر على ذلك الشاب الظريف بعد أن أفرغ من عملي بساعتين، نعم أنتصر عليه هنا في الحديقة، لأني ألقى منها رعاية وتفضيلاً لا يلقاهما غيري. ربما كانت تكرهه لأنه زوجها المنتظر. وهي شديدة الكبر بسبب ذلك. أما ظرفها وطيبتها معي فمصدرهما أني نجيّ ومرءوس أقل منها شأناً! ولكن لم هذه الظنون؟ إما أنني مجنون ... وإما أنها تغازلني، لأنني كلما أظهرتُ لها فتوراً واحتراماً اقتفت أثري وازدادت تقرباً مني، ربما تعمدت ذلك أو ربما كانت متصنعة، ولكني ألحظ دائماً أن عينيها تلمعان حين ألقاها بغتة. هل تستطيع نساء باريس المغالطة إلى هذا الحد؟ وماذا يضيرني من هذا كله؟ الظواهر كلها في صالحي، فلأستمتع بالظواهر. كم هي جميلة يا إلهي! وكم تعجبني عيونها الزرقاء الواسعة، حين أراها عن قرب، تنظر إليّ نظراتها الساحرة! ما أكبر الفرق بين هذا الربيع والربيع الماضي، حين كنت أعيش في بؤس وشقاء، وأستعين بقوة خلقي على دفع أذى ثلثمائة من المنافقين الأشرار القذرين! لقد كدت أصبح مثلهم شريراً.

أما في الأيام التي كان يعاوده فيها الحذر فكان يقول: هذه الفتاة تسخر مني. لقد اتفقت هي وأخوها على الهزء بي. ولكن كم تظهر لأخيها من احتقار شديد على فتوره! لقد قالت لي: إنه شجاع فحسب. وليس له أي رأي يدفعه إلى الخروج على النطاق الذي رسم أمامه؛ لأنه لا يجد في نفسه القوة على ذلك. وأنا الذي أتولى الدفاع عن هذا الشاب. يا لها من فتاة في التاسعة عشرة من عمرها! أفي هذه السن تستطيع فتاة أن تحاسب نفسها على كل ساعة من ساعات النهار فتنفذ مارسمته لنفسها من نفاق؟ ومن جهة أخرى فإن «الآنسة دى لامول» حين تنظر إليّ بعينيها الكبيرتين نظرات لها مغزاها فإن الكونت نوربير يبتعد عنا دائماً. وهذا المسلك يدخل الشك في نفسي، كان ينبغي أن يغضب ويثور حين يرى أخته تعامل خادماً من خدم منزلهم هذه المعاملة الكريمة. لقد سمعت الدوق دى شون يتحدث عني فيصفني بأني خادم. وتذكر «جوليان» ذلك فغضب واختفت من نفسه الآراء الأخرى. هل يعدّ استعمال هذه الكلمة إخلاصاً من هذا الدوق الأحمق للغة القديمة؟ ثم أخذ ينظر نظرات النمر، واستطرد يقول: إنها جميلة لابدّ أن أنالها

ثم أترك القصر من بعد ذلك، والويل لمن يتعقبني وأنا أولي الأدبار!

وشغلت هذه الفكرة عليه نفسه، حتى لم يعد يفكر في شيء آخر. وأصبحت أيامه تمر وكأنها ساعات. كان يحاول في كل ساعة من ساعات النهار أن يشغل نفسه بأمور جدّية فلم يطاوعه فكره، وكان يستيقظ من أحلامه وقلبه يدق دقات سريعة، ورأسه يضطرب اضطراباً شديداً، لا يعرف من أمره إلا هذه الفكرة: أهي تحبني؟

الفصل الحادي عشر
مملكة فتاة

أراني أعجب بجمالها ولكني أخاف ذكاءها.

مريمي

كان «چوليان» يشغل وقته في المبالغة بجمال «ماتيلد»، أو في التحمس والحنق على مركز هذه الأسرة الخطير الذي لم تعبأ به «ماتيلد» من أجله، ولو أنه لاحظ ما كان يجري في الصالون، لأدرك السرّ في مكانة «ماتيلد» وسيطرتها على كل من حولها. كانت إذا كرهت من شخص شيئاً عرفت كيف تعاقبه عليه فتوجه إليه نكتة لاذعة، تحسن اختيارها بحيث لا تنافي الأدب وترسلها في أوانها، وبذلك تجرح من كرهته جرحاً بليغاً، لأنه كلما فكّر في النكتة ازداد ألمه. وصارت شديدة الوطأة قاسية كل القسوة على من يجرح كرامتها. كانت لا تعنى بكثير مما تعدّه الأسرة على جانب كبير من الأهمية، فتظهر لهم دائما أنها ثابتة الجنان رابطة الجأش. وصالونات الطبقة الأرستقراطية لاتفيد في شيء إلا أن يذكرها الذاكرون ساعة مغادرتها. هذه كل حسناتها؛ أما الأدب وحده فلا وجود له إلاّ في الأيام الأولى فحسب، وهو ماوصل إليه «چوليان» بعد أن انقضت فترة انبهاره بما يرى، ووليّ ما أصابه من دهشة في حياته الجديدة. قال يحدث نفسه: كل الأدب الذي نراه في هذا الصالون هو أن يبتعد الإنسان عن الغضب الذي تخلقه العادات السيئة. وكثيرا ما كان يستولي الملل على نفس «ماتيلد» أو كثيراً ما كانت تجر على نفسها السآمة أينما حلّت؛ لذلك كانت كبرى لذاتها وأكثر ما يشغلها أن تؤلف قصيدة في الهجاء. وربما كانت تعمل على تشجيع المركيز دى كروازنوا والكونت كايلوس واثنين أو ثلاثة من الشبان أصحاب المركز الممتاز وتقريبهم إليها لتتخذ منهم نماذج لشعرها الهجائي، وهذا خير لها من أن تهجو أبويها أو مرءوسيها أمثال عضو المجمع وخمسة أو ستة ممن يعملون في القصر ويتملقون أسرتها. ونعترف في كثير من الأسى -لأننا نحب «ماتيلد»- أنها تسلمت خطابات كثيرة من بعض هؤلاء الشبان، وردت على بعضها. ولكننا نسارع فنقول: إنها لا تتقيد بأخلاق عصرها. على أننا لا نستطيع أن نقول إن تلميذات ذلك الدير الجليل، دير القلب المقدس لم يجبلن على الحذر.

وحدث أن ردّ لها المركيز دى كروازنوا خطاباً يحطّ من شرفها ويثير حولها الشكوك، كانت قد كتبته بالأمس، وكان يرجو من وراء هذه اللفتة التي تنطوي على الحذر والبصيرة أن تزداد مكانته في قلبها؛ ولكن «ماتيلد» كانت ترمي في خطاباتها إلى ألاّ تكون حذرة

لأن لها لذة في أن تقامر بمصيرها. وكان جزاء دى كروازنوا على فعلته هذه أنها خاصمته ستة أسابيع.

كانت تلهو وتعبث بخطابات هؤلاء الشبان، وإن كانت تعترف بأنها متشابهة كلها، لأنها تفيض جميعاً بحب عميق حزين. تحدثت إلى ابنة عمها قائلة:

- إنهم جميعاً مثل للرجل الكامل الذي يظهر أتم استعداد للرحيل إلى فلسطين. فهل تعرفين ما هو أتفه من هذا؛ هذه هي الخطابات التي لن تنقطع عني طول حياتي! وهي لا تتغير إلا كل عشرين سنة حين تتغير نظرات الناس إلى الحياة، ويطرأ عليهم مثل أخرى تشغل بالهم. ولا شك أن الخطابات أيام الأمبراطورية كانت أقل خرقاً مما هي عليه الآن؛ لأن هؤلاء الشبان الكرام الأصل شاهدوا أو أتوا بأعمال تعد حقيقة مجيدة. إن عمي الكونت ... كان في وجرام. فقالت لها: دى سانت هيريديتى ابنة عمها وهي تحاورها:

- أتعتقدين أن طعنة بالسيف تتطلب فطنة؟ ومع ذلك هم يملئون الدنيا حديثاً عنها حين يقدمون عليها!

- ولكن هذه القصص تدخل على نفسي السرور! إن الإشتراك في معركة حقيقية كإحدى معارك نابليون، حيث كان يقتل عشرة آلاف من الجنود، ليعدّ ضرباً من ضروب الشجاعة. والتعرض للخطر يسمو بالنفس ويشفي من الملل الذي يطغى على هؤلاء الشبان المعجبين بي. والسأم مُعْدٍ سرعان ما يتسرب من نفس إلى نفس. أي أولئك الشبان يفكر في الإقدام على عمل خارقٍ للعادة؟ كل همهم أن يحصلوا على يدي، فياله من عمل مجيد! إني غنية، وسيدفع والدي زوج ابنته إلى مدارج الرقي. آه! ليتني ألقى شاباً خيراً من هؤلاء!

وطريقة «ماتيلد» في حكمها على الأشياء شديدة واضحة بهيجة، لكنها تفسد لغتها كما نرى. وكثيراً ما تؤذي كلمة منها شعور أصدقائها الذين جبلوا على الأدب الكثير. ولولا أنهم يعرفون مكانتها في الأوساط الپاريسية لظنّوا أن لغتها لا تتلاءم تماماً مع ما في النساء من رقة.

وأما هي فلم تكن عادلة مع أولئك الفرسان الوسماء الذين ينتشرون في كل أرجاء غابة بولونيا. كانت نظرتها إلى المستقبل لا خوف فيها لأن الخوف شعور قوي، وإنما كانت نظرة اشمئزاز؛ وهذه عاطفة غريبة ممن كان فى سنها.

ثم ماذا كانت ترجو؟ إن يد القدر قد وهبتها الثروة والأصالة والذكاء والجمال الذي يشهد لها به الناس وتؤمن به هي كذلك.

هذه الآراء التي كانت تدور في رأس الوريثة التي تعيش في ربض سان چرمان، تلك الوريثة المحسودة على ما تنعم به، هذه هي أفكارها حين وجدت لذة في التحدث إلى «چوليان». لقد أذهلتها كبرياؤه، وأعجبت بمهارة هذا البرچوازي الضئيل. وأخذت تقول: سيعرف كيف يصل إلى منصب رئيس أساقفة كما فعل الكاهن مورى من قبل.

وسرعان ما شغلت «ماتيلد» بصلابته الشديدة التى لا تكلف فيها، وبتحفظه حين يستمع إلى الكثير من آرائها، وأصبحت تفكر فى هذا كله وقصت على صديقتها كل ما دار بينهما من أحاديث، ذاكرة كل حادثة وإن لم تستطع أن تصورها لها تصويراً دقيقاً وذات يوم تحدثت إلى نفسها والسرور يملأ قلبها قائلة: أراني رزقت اليوم سعادة الحب، إني أحب، نعم أحب، ما في ذلك من ريب! وفتاة في مثل سني وجمالي وذكائي، كيف تستطيع التنفيس عن مشاعرها إذا لم تحبّ؟ وقد حاولت عبثا أن أحب كروازنوا أو كايلوس أو غيرهما من باقي هذه الجماعة. إنهم كاملو الخلق، وربما كانوا أكمل خلقاً أكثر مما يجب، لكنهم يبعثون في نفسي السآمة.

وأخذت تستعيد إلى ذهنها كل أوصاف الحب، التي قرأتها في مانون ليسكو، وهلويز الجديدة، وخطابات راهبة برتغالية وغيرها. كانت تتوقع حباً عاصفاً عنيفاً، أما الحبّ الطارىء التافه فما كان يلائم فتاة في سنها ولا في شرف محتدها. الحب عندها هو تلك العاطفة المجيدة التي تنطوي على البطولة، والتي كانت تسود فرنسا في زمن هنرى الثالث وبسّومپيير، وهو الحب الذى كان لا يخضع فى سهولة ويسر للعواقب، بل كان دافعاً إلى أعمال عظيمة. ثم أخذت تقول في نفسها: يؤلمني حقاً أنه لم يعد في فرنسا بلاط حقيقى على نحو بلاط كاترين دى مدسيس أو لويس الثالث عشر! إني أشعر في نفسي بما يتطلبه مثل هذا البلاط من جرأة وعظمة. كم كان في استطاعتي أن أكون معبودة، وكم كان في مقدوري أن أحمل لويس الثالث على الركوع عند قدميّ! كان في استطاعتي أن أقوده إلى ڤنديه، ومن هناك يقوم بغزو مملكته من جديد، كما يقول غالباً البارون دى توللى، وإذا تمّ له ذلك ألغى الدستور ... وكان في استطاعة «چوليان» أن يعاونني على ذلك. وماذا ينقصه؟ اسم وثروة. أما الاسم، فأعماله كفيلة بتحقيقه له وأما الثروة فسيجمعها في يوم من الأيام.

أما كروازنوا فلا ينقصه شيء، وسيظل طول حياته دوقاً فيه مغالاة وفيه ميل للحرية، لكنه سيظل متردداً أبداً، بعيداً عن التطرف، وعلى هذا فسيظل دائماً في المكان الثاني. أي عمل مجيد لا يعدّ متطرفاً عندما يقدم عليه المرء؟ ولكنه حين يتم يراه العاديون من الناس سهلاً يسيراً. نعم، إن الحب سيْطر على قلبي بكل معجزاته، وأحسّ هذا من النار التي تتأجج بين ضلوعي.

لقد وهبتني السماء هذه الميزة، فهي لم تمنح عبثاً كل هذه الميزات لإنسان. وستكون سعادتي مثلي عظيمة رائعة. لن تكون أيام حياتي مملة متشابهة الحلقات، وإنّ مسلكي الآن لينطوي على العظمة والجرأة لأنني أحببت رجلا بيني وبينه فارق اجتماعي كبير. ولكن هل سيظل دائماً جديراً بحبي؟ سأهجره ولا شك حين يبدوً منه ضعف. لأن الفتاة الكريمة الأصل ذات المروءة، كما يقولون لي (وهذه من كلمات أبي)، لا يصح أبداً أن تكون حمقاء.

أليس هذا هو الدور الذي كنت أمثله، لو أنني أحببت المركيز دى كروازنوا ؟ لو أني فعلت لكانت سعادتي كسعادة بنات أعمامي، وأنا أحتقر هذا اللون من السعادة احتقاراً شديداً. وأعرف مقدّماً ما كل ما كان يقوله لي هذا المركيز التعس، كما أعرف ما كنت أجيبه به. ما قيمة الحب عندي أن أكون من الفاتنات العابدات. إني سأنال عقداً كالذي نالته صغرى بنات عمي التي بالرغم من شفقة والديها ، فانهما لم يتمالكا نفسيهما وأظهرا الغضب حين أضاف مسجل الزوج إلى العقد شرطاً جديداً.

الفصل الثاني عشر

أيكون مثل دانتون

الميل إلى القلق طابع خلق عمتي الجميلة مرغريت دى فالوا، التي تزوجت ملك نافار، والذي تراه اليوم يحكم فرنسا تحت اسم هنري الرابع.
أما الميل إلى اللعب فهو السر الذي ينطوي عليه خلق هذه الأميرة الظريفة؛ ومن هنا نشأت خلافاتها مع إخوتها، ومصالحتها لهم منذ كانت فى السادسة عشرة من عمرها. ولكن بم تستطيع فتاة أن تلعب؟ إنها تخاطر بأعز شيء عندها؛ تخاطر بعرضها الذي يعد علامة التبجيل لها طول حياتها.

مذكرات الدوق أنجولم، الأبن الطبيعى لشارل التاسع

لن يكون بيني وبين «چوليان» توقيع على عقد، ولن يتدخل بيننا مسّجل؛ كل شيء سينطوي على البطولة، ويكون وليد المصادفة. وإنّ لي من حب مرغريت دى ڤالوا للشاب دى لامول، الذي كان يعدّ خيرة شباب عصره، مثلا يغنيني عن ضعة محتد «چوليان». أعليّ يقع الخطأ إذا كان شباب البلاط شديدي التعصب «لما يليق». وتصفرّ وجوههم إذا سمعوا عن مخاطرة فيها شيء من الغرابة؟ إنّ رحلة إلى اليونان أو إلى إفريقيا تعدّ في نظرهم غاية في الجرأة، وهم فضلاً عن هذا لا يعرفون السّير إلا جماعات. وإذا رأوا أنفسهم بمعزل عن الناس، دبّ الخوف في قلوبهم لا من رمح البدوي، ولكن من السخرية وارتكاب ما لا يليق، وهذا الخوف يفقدهم عقولهم.

لكن عزيزي «چوليان» على نقيض هؤلاء تماماً، لا يحب أن يعمل إلا وحده. والموهوب لا يفكر أبداً أن يطلب العون من الناس أو يركن إليهم ليأخذوا بناصره إلا أنه يحتقر الناس، وهذا هو السّر في أنني لا أحتقره.

ولو كان شريفاً على الرغم من فقره، لكان حبي له ضرباً من الحماقة البلهاء، ولكان زواجي منه لا تكافؤ فيه، زواجاً وضيعاً لا أريده ولا أرغبه ؛ لأنه سيكون مقفرا مما يميز الحب القوي العاصف من صعاب شديدة يجب التغلب عليها، ومن شك قاتم يظلله.

ملكت هذه الأفكار الجميلة على «الآنسة دى لامول» نفسها، حتى أنها في اليوم التالي أخذت، على غير وعي، تمدح «چوليان» أمام المركيز دى كروازنوا وأخيها. وكان حديثها طلقا فصيحاً جرحت به كبرياءهما دون أن تحسّ. قال لها أخوها:

– احذري هذا الشاب يا أختاه تمام الحذر؛ لأنه موفور النشاط، وإذا نشبت الثورة مرة أخرى فإنه سيسوقنا جميعاً إلى المشنقة.

فلم تكلف نفسها مشقة الرد عليه، ولكنها سارعت فتهكمت عليهما لما يبديانه من خوف، هو في الواقع خوف من يخشى مواجهة شيء لا يتوقع حدوثه، وأنىّ لهما أن يواجها ما ينطوي على المفاجأة؟! ... ثم قالت:

- إنكم تخشون دائماً أيها السادة ما يعرضكم للسخرية، ولكن هذا الشبح المخيف الذي يبعث الرعب في قلوبكم قد مات -مع الأسف- في سنة ١٨١٦.

قال المركيز دى لامول يوماً: إن البلد الذي فيه حزبان ليس فيه ما يدعو إلى السخرية. وقد أدركت ابنته هذه الفكرة فقالت لأعداء «چوليان»:

- ولهذا أيها السادة، ستقضون حياتكم في خوف مقيم، وبعد فوات الوقت يُقال لكم: لم يكن هذا ذئباً، ولكنه كان ظل ذئب.

ثم سارعت فانصرفت، وقد بعثت عبارة أخيها في نفسها اشمئزازاً كبيراً؛ وأقلقتها كثيراً، لكنها في اليوم التالي أدركت أنها خير ثناء يثنى به على «چوليان».

في هذا الزمن الذي مات فيه كل نشاط، أصبح نشاطه يخيفهما سأحدثه بما قاله أخي لأرى ما يجيبني به. وسأختار لحظة من تلك التي تلمع فيها عيناه، لأنه لن يكذبني الحديث فيها. ثم قالت:

- أيكون مثل دانتون في يوم من الأيام! وإذا فرضنا أن ثورة جديدة نشبت، فأي دور يقوم به كروازنوا وأى دور يقوم به أخي؟ أعرف هذا مقدّماً: هو الاستسلام البديع. سيكونان في شجاعة الخراف، يذبحان من غير أن ينطقا بكلمة واحدة. وأخوف ما يخافانه وهما يلقيان حتفهما ألا يكونا مؤدبين لطيفين في ساعة الموت. أما عزيزي «چوليان» فسيقتل ذلك الثائر الذي يأتي للقبض عليه، مهما يكن سبيل النجاة غير مأمون، وهو لا يعبأ بأن يكون خشن المسلك غير ظريف في الطرق التي يتّبعها.

وجعلتها هذه العبارة الأخيرة تفكر طويلاً، وأيقظت في نفسها ذكريات أليمة، وانتزعت منها كل شجاعة وإقدام. ذكرتها سخرية كايلوس وكروازنوا ولوز وأخيها من «چوليان»، حين كانوا يصفونه بأنه قس: فيه وضاعة وفيه نفاق. ولكنها سرعان ما أخذت تقول وعيناها تلمعان من شدة الفرح:

- إنّ البغضاء، والسخرية ليقطعان، على الرغم منهم، بأنه خير رجل لقيناه هذا الشتاء. وماذا تضرني نقائصه وترهاته؟ إنه لعظيم، وهذا ما يغيظهم منه، على الرغم من أنهم فطروا على الطيبة والتسامح. لاشك أنه فقير، وأنه كان يدرس ليصبح قسّاً، أما هم فرؤساء كتائب، ولم يكونوا في حاجة إلى الدراسة ؛ وهذا أمر هيّن يسير.

وعلى الرغم من عيوب حلته السوداء التي يرتديها دائماً، ومن هيئة القسس التي يضطر إليها اضطراراً وإلا مات البائس جوعاً، على الرغم من هذا كله، فمزاياه تبعث الخوف في نفوسهم، وذلك لا يخفى على ذي بصيرة. على أن هيئة القسس لا تبدو عليه حين نكون معاً على انفراد في تلك اللحظات القصيرة التي يسمح بها الزمن. وحين يقول

هؤلاء السادة شيئاً ظنوا فيه الذكاء والتجديد، أليست نظراتهم توجه إلى «چوليان» أول ما توجه؟ لقد رأيت هذه الظاهرة في وضوح وجلاء، ومع ذلك هم يعلمون حق العلم أنه لا يوجه إليهم حديثاً إلا إذا سئل لو يوجه الكلام إلا إليّ، لأنه يؤمن بسموّ نفسي. ولا يجيب عن اعتراضاتهم إلا بالقدر الذي يظهر فيه أدبه في معاملتهم، ثم يظهر لهم بعد ذلك كل احترام. أما معي فهو يظل يناقش ساعات طويلة، وإذا أبديت أقل اعتراض تشكك في آرائه. لم يستعمل القوة طوال هذا الشتاء، وإنما أراد أن يجذب إليه الأنظار بالكلام وحده. وأبي رجل ممتاز حقاً، يعمل على رفع مستوى أسرتنا إلى حد بعيد، ويجل «چوليان» ويحترمه. أما الباقون فهم يكرهونه في غير احتقار، اللهم إلا صديقات أمس التقيات.

كان الكونت دى كايلوس مغرماً بالجياد أو كان متظاهراً بأنه مغرم بها على الأقل؛ يقضي حياته في حظيرة الخيل، وكثيراً ما كان يتناول طعامه فيها. وإذا أضيف هذا الولع الشديد إلى أنه لا يضحك أبداً، خلع عليه هذان المعنيان كثيراً من الاحترام بين أصدقائه فأهله ذلك لأن يكون نسر هذه الجماعة.

اجتمع هؤلاء الشبان في اليوم التالى خلف وثيرة المركيزة دى لامول، ولم يكن «چوليان» حاضراً، فبدأ كايلوس حين رأى «الآنسة دى لامول» يهاجم «چوليان» ويعرّض برأيها فيه، بدون ما سبب يدعو إلى ذلك، وعضّده في هجماته كروازنوا ونوربير ففطنت ماتيلد إلى ما يرمي إليه، وسرّت لهذه الحملة سروراً كبيراً. ثم أخذت تقول في نفسها: ها هم أولاء جميعاً قد تحالفوا ضد رجل له عبقرية ونبوغ، وإن كان لا يملك دخلاً يقدر بعشرة لويسات، ولا يستطيع أن يتحدث إليهم إلا إذا طلب منه الكلام. إنهم يخشونه وهو بملابسه السوداء فكيف بهم إن لبس زيّ العسكريين؟

وقد كانت «ماتيلد» في هذه الليلة بارعة كل البراعة؛ لم تكد ترى الهجمات الأولى حتى انهالت على كايلوس وحلفائه تهكماً وسخرية، حتى إذا ما كسرت تماماً شوكة هؤلاء الضباط الأذكياء قالت لكايلوس:

– ماذا تقول لو أن ثرياً من سكان جبال فرانش كونتيه، أعلن أن «چوليان» ابن طبيعي له، ومنحه اسمه وبضعة آلاف من الفرنكات؟ إنه بعد ستة أسابيع سيكون ذا شارب مثلكم أيها السادة، وبعد ستة أشهر يكون ضابطاً في الفرسان مثلكم أيها السادة. وعندئذ لا ترون في قوة خلقه لوناً من ألوان السخرية. أراك تتراجع أيها الدوق المنتظر، لتفضي إليّ بهذا الاعتراض القديم السخيف، وهو أن أشراف البلاط أعظم قيمة وأعز مكانة من أشراف الريف. ولكن ماذا تقول لو أنني جاريتك في اعتراضك، واستعملت معك الدهاء، وأخبرتك أن والد «چوليان» دوق أسباني أسير حرب في بيزانسون منذ زمن نابليون، ولما حانت وفاته، أراد أن يخلص زمته فاعترف ببنوة «چوليان».

وبعثت الاشمئزاز في نفسيّ كروازنوا وكايلوس هذه الفروض غير الشرعية حول نشأة «چوليان»، وهذا كل ما استطاعا أن يرداً به على ما ذهبت إليه ماتيلد. ومهما يكن تحكم

«ماتيلد» في أخيها، فإن حديثها عن «چوليان» كان واضح المرمى، لذلك اتخذ أخوها مظهر الجدّ الذي لم يكن يتلاءم مع وجهه الضاحك وتقاطيعه الطيبة البريئة -وجرؤ على أن يوجه إليها بعض العبارات. فأجابته متصنعة الوقار بدورها:

- ماذا دهاك يا صديقي؟ أنت مريض ما في ذلك شك، مادمت تتحدث إليّ في الأخلاق وأنا لا أقول إلا هزلاً. وهل تتحدث أنت عن الأخلاق؟ أتريد منصباً من مناصب حكام المقاطعات؟

وسرعان ما نسيت ما على كايلوس من غيظ، ونسيت غضب أخيها وهذا القنوط الصامت الذي يبدو على وجه كروازنوا، شغلت عنهم جميعاً بفكرة استولت على نفسها. وأخذت تقول: إنّ «چوليان» مخلص معي؛ ومن كان في سنه وبؤسه وطموحه الشديد كان في حاجة إلى صديقة، وربما كنت الصديقة التي ينشدها؛ ولكنني لا أرى في وجهه دلائل الحب. لو كان يحبني، لدفعه ما فطر عليه من إقدام إلى أن يفضي إليّ بعاطفته.

وهذا الشك وهذه النجوى، قد شغلا «ماتيلد» في كل لحظة من لحظات أيامهما؟ وكلما تحدث إليها «چوليان» رأت برهاناً جديداً على صدق ما فكرت فيه، لقد شغلتها هذه الفكرة، فلم يعد السأم يجد إلى حياتها سبيلاً.

كانت «ماتيلد» وهي في دير القلب المقدس موضع رعاية شديدة، وتملق لا حد له، لأنها ابنة رجل ذي فطنه قد يصبح وزيراً، فيمنح الكهنوت ما يملك من غابات. وهذا فساد لا سبيل إلى إصلاحه. بعثوا في نفسها الغرور، وأفهموها أنها أسعد حظاً من غيرها؛ لثروتها ونشأتها الكريمة ... وهذا هو مصدر السأم الذي يستولي على الأمراء، كما أنه مصدر الحماقات التي يرتكبونها.

ولم تسلم من الأثر السيء الذي تتركه هذه الفكرة المشئومة. ومهما يكن ذكاؤها فهي لا تستطيع وهي في العاشرة من عمرها أن تحذر تملق دير بأسره ولا أن تتأثر به، وقد دلّت الظواهر كلها على أنه من خير الأديرة.

ومنذ عزمت على أن تحب «چوليان»، لم يجد السأم إلى نفسها سبيلاً. وكانت كل يوم تهنىء نفسها بما اعتزمته من إقدام على هذا الحب القوي الجارف. ولكنها كانت تقول: هذه اللذة لها أخطارها. ليكن ذلك! نعم ليكن ذلك ألف مرة!

- لقد كنت فريسة للملل الشديد في أزهى أيام حياتي من السادسة عشرة إلى العشرين قبل أن أعرف الحب. ضاعت سدًى زهرة شباب، حين كنت أضطر إلى الإنصات إلى صديقات أمي وهن يثرثرن بكلام، اعتقدن عكسه في كوبلنتز عام ١٧٩٢ كما يقال، وأنهنّ في هذه الآونة كنّ أقلّ صرامة وحزماً من كلامهن اليوم. كان هذا هو كل السرور الذي أناله وأنا في هذه السن الفتية.

وبينما كانت هذه الشكوك الكثيرة تملكها، كان «چوليان» لا يدرك سرّ نظراتها الطويلة التي تلقيها عليه. وقد رأى أن الكونت نوربير ازداد فتوراً في معاملته، وأصبح

كايلوس ولوز وكرازنوا يظهرون تعالياً عليه ويشمخون بأنوفهم، أكثر من ذي قبل: على أنه اعتاد منهم هذا. وكان هذا الأذى يلحقه بعد انتهاء سهرة يظهر فيها من المواهب والذكاء أكثر من القدر الذي يسمح به مركزه. ولولا عناية «ماتيلد» به عناية خاصة، وحبُّ الاستطلاع الذي يدفعه إلى معرفة ما يدور في مجتمع هؤلاء الشبان الوسماء ذوي الشوارب، ما تبعهم إلى الحديقة حيث كانوا يذهبون بعد العشاء ومعهم «الآنسة دى لامول».

تحدث إلى نفسه قائلاً: نعم، من العسير أن أخدع نفسي، إن «الآنسة دى لامول» تنظر إليّ بطريقة عجيبة. على أني أرى في عينيها الجميلتين الزرقاوين، وهي تنظر إليّ نظراتها الساحرة لوناً من ألوان الاختبار لي، وهدوءاً وقسوة. أيمكن أن يكون هذا هو الحب؟ وما أبعد الفرق بين نظراتها ونظرات «مدام دى رينال»!

وحدث ذات مساء أن ذهب «چوليان» مع «المركيز دى لامول» إلى مكتبه ثم عاد سريعاً إلى الحديقة. وبينما كان يقترب في حذر من أصدقاء «ماتيلد»، سمع بعض كلمات تقال في صوت مرتفع، وتوجه إلى أخيها لوماً شديداً وسمع اسمه يذكر مرتين في وضوح. ولما وصل إليهم ساد بينهم بغتة صمت عميق، وكان من العسير عليهم أن يتحدثوا، لأن «الآنسة دى لامول» وأخاها كانا في هياج شديد، فلم يتح لهما أن يجدا موضوعاً آخر للحديث. أما كايلوس وكروازنوا ولوز وصديق آخر فقد قابلوا «چوليان» بفتور شديد، فانصرف عنهم.

الفصل الثالث عشر

مؤامرة

إن في الآراء التي لا ارتباط بينها، والمقابلات التي تسوقها المصادفة، دليلاً قاطعاً لمن كان واسع الخيال من الرجال على ما إذا كان القلب ينطوي على الحب.
شيلر

وفي اليوم التالي فاجأ نوربير وأخته وهما يتحدثان عنه مرة أخرى، ولما وصل إليهما ساد بينهما صمت عميق كالذي ساد بينهما أمس. فازدادت شكوكه وجعل يقول: هل اتفق هؤلاء الشبان الظرفاء فيما بينهم على أن يسخروا مني؟ يجب أن أعترف بأن هذا أكثر احتمالاً وأقرب إلى العقل من أن أعتقد أن «الآنسة دى لامول» تشعر بحبها سكرتيراً بائساً مثلي. ولكن أيعرف الحب هؤلاء الشبان؟. السخرية هي حصنهم؛ وهم يغارون مني لتفوقي عليهم في الكلام، وهو تفوّق تافه. والغيرة نقيصة من نقائصهم. كل شيء يفسر على هذا النحو: وهو أن «الآنسة دى لامول» تريد أن تقنعني بأنها تفضلني عليهم، وما ذلك إلا لأنها تريد أن تسخر مني أمام خطيبها.

وغيّر هذا الشك القاتل نفسيته، وصادف هذا الرأي في قلبه بداية حب لماتيلد، لم يكن من العسير أن يقضي عليه. حبٌ يستند إلى روعة جمالها أو إلى طرقها التي تشبه ما تفعل الملكات، وإلى زيّها البديع كذلك. وقد كان في هذا اللون من التفكير حديث عهد بالنعمة حقاً، لأن المرأة الجميلة التي تنتسب إلى الطبقة الراقية، هي كما يقولون : تلك التي تبعث الذهول في نفس ريفي ذكي الفؤاد حين يصل إلى مدارج تلك الطبقة. ولم يكن هذا فى خلق «ماتيلد» ولا في طبعها، وهي التي جعلت «چوليان» يحلم بها دائماً في الأيام السابقة. ولكنه فطر على سلامة الحكم على الأشياء، وهذا خلق جديد لم يعرفه من قبل. وكل ما كان يشهده من جديد عندها ربما كان مرجعه إلى ظواهر الأمور فحسب.

فمثلاً كانت لا تتخلف أبداً عن الصلاة يوم الأحد، وكثيراً ما صحبت أمها إلى الكنيسة في الأيام الأخرى، وإذا ما نسى أحد المترددين على صالون دى لامول جلال المكان الذي هو فيه، وسمح لنفسه بأن يشير إشارة بعيدة إلى العرش أو إلى الكنيسة في شيء قليل من السخرية، وعَرّضَ بمصالحها الحقة أو المفترضة، إذا حدث هذا، فإن ماتيلد تظهر في الحال بمظهر الجدّ الشديد الذي يحدث ارتباكاً شديداً للساخر، وتنقلب نظرتها العميقة إلى نظرة تنم عن الكبرياء البالغة، وهي نظرات تتجلى بوضوح في صورة قديمة من صور الأسرة.

كان «چوليان» يعلم حق العلم أن في غرفتها دائماً مجلداً أو مجلدين من أكثر كتب ڤولتير فلسفة. وكان هو بدوره كثيراً ما يسرق بعض مجلدات هذه الطبعة الفاخرة التجليد، ثم يباعد بين الكتب لئلا يظهر للعين أن أحدها ليس في مكانه؛ لكنه سرعان ما اكتشف أن شخصاً آخر يقرأ ڤولتير فعمد إلى حيلة من حيل المدرسة، ووضع خصلات صغيرة من شعر الخيل على الكتب التي يظن أنها تعجب «الآنسة دى لامول»، فاختفت هذه الكتب أسابيع كاملة.

وضاق «المركيز دى لامول» ذرعاً ببائع الكتب الذي يمد مكتبة القصر، لأنه يرسل دائماً -على حدّ تعبير المركيز- المذكرات المكذوبة، فكلفّ «چوليان» شراء الكتب الجديدة الجذابة. وأمره بوضعها في مكتبة صغيرة في غرفة «المركيز»؛ لئلا تنتشر سمومها بين أفراد أسرته. وكان «چوليان» على ثقة تامة من أن هذه الكتب سرعان ما ستختفي، مادامت تشهر عداء هيناً لمصالح العرش والكنيسة. ولا شك في أن الذي يقرؤها ليس الكونت نوربير.

بالغ «چوليان» في أثر هذه التجربة، إذ اعتقد أن «الآنسة دى لامول» في دهاء مكياڤلى. وكان يرى في أعمالها هذه فجوراً محبّباً إلى نفسه، بل ربما كان هذا هو العمل المعنوى الوحيد الذي يقع عليه بصره وترضى عنه نفسه؛ وذلك لأنه كان يلقى سأماً شديداً من النفاق، والآراء التي تنطوي على الفضيلة، فوقع في هذا الشطط.

وكان سلطان خياله عليه أكثر من سلطان حبه.

وظل يحلم وقتا طويلاً بجمال قامة «الانسة دى لامول»، وأناقة ثيابها، وبياض يدها وجمال ذراعها، ورشاقة حركاتها، حتى أحبّها أخيراً، ثم أراد أن يضفى عليها البقية الباقية من الروعة، فشبهها بكاترين دى مدسيس. فحمل تشبيهه هذا كثيراً من العمق والفجور. وهذا هو المثل الأعلى لنظائر مالون وفريلير وكاستاند الذين أعجب بهم «چوليان» في شبابه. وعلى الجملة فقد كان يعد هذا المثل الأعلى في پاريس.

ولكن، أهناك ماهو أدعى إلى الضحك من أن يعتقد الإنسان أن الخلق الپاريسى ينطوي على العمق أو الفجور؟

أخذ «چوليان» يقول في نفسه: يحتمل أنّ هذا الثالوث يسخر مني. وأخذت نظراته إليها -حين تلقى نظراتها- يبدو فيها الفتور الشديد وتكاد تنطق بالجفاء، وهذا لون من ألوان خلقه. فتذرعت بالجرأة وأظهرت له الودّ مرتين أو ثلاثا، فقابل هذا بتهكم ساخر. فأحنقتها هذه الغرابة المفاجئة، لكن قلبها ازداد تعلقاً به، وكان قلبها مجبولاً على الملل والفتور، لا يغريه شيء إلا الذكاء، لكنه عاد إلى طبيعته الأولى فأصبح قلب أنثى يشغلها الحب. وزهدت في السهرات والحفلات وفي اللذات من كل لون، وقد كانت من قبل راغبة فيها أشد الرغبة.

وكان أبغض شيء إلى نفسها أن تسمع الموسيقى التي يتخللها غناء فرنسي، لكن

«چوليان» رآها مرات عديدة في الأوبرا تلبي غالباً دعوة من يدعوها ؛ وكان يراها وهو واقف في مكانه بجانب باب الخروج تنفيذاً لأوامر «المركيز». وخيّل إليه أنها فقدت بعض الأشياء، فقدت تلك الميزة من الكمال التي تبدو سيماها فى كل ما تعمل. وكانت تجيب أصدقاءها أحيانا في سخرية شديدة، وذلك لحيويتها اللاذعة، وكان «چوليان» يرى أنها تعد المركيز دى كروازنوا شؤماً عليها ؛ وكثيراً ما حدث نفسه قائلا: يخيلّ إليّ أن هذا الشاب يحب المال حباً شديداً، مادام لا يقوى على دفع هذه الفتاة عنه، مهما تكن غنية! أما بطلنا فقد ازداد نحوها فتوراً لأنه يريد أن ينتقم منها لما توجهه إلى كرامة الرجال من إهانات، وكثيرا ماكان يجيبها إجابات لا تنطوي على الأدب.

كان عازماً على ألاّ يخدع بما تظهره له من عناية شديدة، لكن توددها إليه كان واضحاً جلياً فى بعض الأيام، فزالت الغشاوة عن عينيه حتى رآها رائعة الجمال، وحتى بهره حسنها في بعض الأحيان. فقال في نفسه: إن مهارة شباب الطبقة الراقية وأناتهم سيمكنانهم من الانتصار عليّ لأنني قليل الخبرة. ثم عهد إليه «المركيز» فى إدارة أراض قليلة وبعض منازل يملكها فى ناحية لنجدوك السفلى، وكان لابد من رحلة يقوم بها فى تلك الأراضي، فوافق «المركيز دى لامول» على كره منه. وقد أصبح «چوليان» شخصاً آخر فلم تبق له من صفاته الأصلية إلا طموحه الشديد.

قال في نفسه وهو يعد العدة للرحيل: ومهما يكن من أمر فإنهم لم يظفروا بي. وسواء أكانت نكات «الآنسة دى لامول» مع هؤلاء الشبان حقيقية أم كانت ترمي من ورائها إلى أن تبعث الثقة في نفسي فأنا مسرور بها. وإذا لم تكن هناك مؤامرة على ابن النجار، فإن مسلك الآنسة، حقيقة، غير مفهوم ؛ ولكنها تعامل «المركيز دى كروازنوا» مثل المعاملة التى تعاملني بها: فمثلاً كان غضبها بالأمس واضحاً جداً، وقد رأيت في سرور كبير أنها انتصرت لي، وما أنا إلا من العامة، ضئيل الشأن، انتصرت لي على هذا الشاب الكثير المال الكريم المحتد بحقّ. وهذا أكبر انتصار حصلت عليه، وسيبعث في نفسي السرور وأنا في رحلتي، جالساً في مقعد من مقاعد عربات البريد التي ستقطع بى سهول لنجدوك.

لم يذع أمر رحيله، ولكنّ «ماتيلد» كانت تعلم خيراً منه أنه سيغادر باريس في اليوم التالي، وستطول غيبته. فزعمت أنها مصابة بصداع شديد، فازداد الصالون انقباضاً على انقباضه. تنزهت في الحديقة وقتاً طويلاً وأخذت توجه إلى نوربير وكروازنوا وكايلوس ولوز، وغيرهم من الشبان الذين كانوا قد تناولوا الطعام على مائدة أبيها المركيز، أخذت توجه إليهم نكات شديدة لاذعة حتى اضطرتهم إلى الخروج، ثم أخذت تنظر إلى «چوليان» بطريقة عجيبة. فقال في نفسه: ربما كانت نظراتها هذه نظرات تمثيل لا عاطفة فيها، ولكن ما بالها سريعة التنفس مضطربة؟! ومن أنا حتى أحكم على هذه

الأشياء حكماً صحيحاً؟ إنها حقيقة أروع الپاريسيات وأكثرهن فطنة ودهاء. وما هذا التنفس السريع الذي يكاد يلفح وجهي إلا ما تعلمته من ليونتين فاى[1] التي تحبها «ماتيلد» حباً شديداً. وظلاً وحدهما في الحديقة، وقد دبّ فى حديثهما فتور وملل فأصابها حزن شديد وقالت: لا! إنه لا يحمل عاطفة نحوي. ولما استأذنها منصرفاً، ضغطت على ذراعة ضغطاً قوياً وقالت في صوت متهدج لاتبين نبراته:

– ستتسلم الليلة خطاباً مني. فتأثر سريعاً من هذه العبارة، على حين استطردت تقول:

– إن والدي يقدر خدماتك حق قدرها، يجب ألا تسافر في الغد، وعليك أن تنتحل أي عذر. ثم ابتعدت عنه وهى تعدو.

كانت قامتها بديعة، وقدمها رائعة الجمال، وكم كانت جميلة وهي تجرى! وفرح «چوليان» بما رأى، ولكن فيم كان يفكر بعد أن تورات عن بصره؟ لقد غضب من لهجتها التي تنم عن الأمر حين قالت: يجب عليك. وقد غضب لويس الخامس عشر من قبله وهو يموت حين قال له طبيبه: يجب عليك، وكان الطبيب غير موفق في تعبيره. ولويس الخامس عشر لم يكن محدث نعمة.

وبعد ساعة أتى إليه خادم وأعطاه خطاباً فيه اعتراف بالحب. فأخذ «چوليان» يطبق على خطابها ملاحظاته الأدبية، ليقدر على تحمل الفرح الذي ملأ نفسه وقلص خدوده واضطره إلى أن يضحك على الرغم منه وقال: إن أسلوبها لا تصنع فيه.

ثم صاح فجأة واستطرد يقول: كان الحب أقوى من أن يكتم، وقد ملك مشاعرها فأفضت به إليّ، أنا ذلك الفلاح الوضيع، لقد حصلت إذاً على اعتراف بالحب من سيدة كبيرة!

ثم حاول أن يخفي سروره ما استطاع. واستطرد يقول: لا بأس بما حدث، عرفت كيف أحتفظ بما في طبعي من كرامة. إنى لم أقل لها: إني أحبك. ثم أخذ يتأمل خطها الإنجليزى الصغير الجميل. وكان في حاجة إلى أن يشغل نفسه بشيء مادي ليخفف من حدة السرور الذى كاد يكون جنوناً:

«إنّ رحيلك يضطرني إلى أن أتكلم ... لأنه لم يعد في استطاعتي أن أحرم رؤياك».

ثم طرأت عليه فكرة كانت كاكتشاف جديد، صرفته عن دراسة خطابها، وزادت من سروره فصاح: لقد انتصرت على المركيز دى كروازنوا، مع أني لا أقول إلا كلاماً ينطوي على الجدّ! وكم هو جميل! له شارب وحلة بديعة؛ وهو يجد دائماً ما يقول، ويوفق إلى

---

(١) اسم ممثلة في مسرح «الجمناز» كانت تمثل مسرحيات سكريب ونالت نجاحاً كبيراً. «المعرب».

عبارات لطيفة يسوقها في موضعها وتنطوي على الفطنة.

كانت هذه اللحظة من أسعد لحظات حياة «جوليان»، غمرته السعادة وأخذ يسير في الحديقة على غير هدى. وبعد ساعة صعد إلى مكتبه، ثم ذهب ليرى «المركيز دى لامول» الذي لم يكن قد غادر القصر لحسن الحظ. وأطلعه على بعض أوراق وصلت من نورمانديا، وأقنعه في سهولة أن من مصالح القضايا النورماندية أن يؤجل سفره إلى لنجدوك. ولما فرغا من استعراض بعض الأعمال، قال له «المركيز»:

– يسرّني أنك قد أجلت الرحيل، لأني أحب أن أراك. وانصرف متضايقاً من هذه العبارة الأخيرة.

وحدث نفسه قائلاً: أما أنا فسأغري ابنته! وربما أفسدت مشروع زواجها بالمركيز كروازنوا، ذلك الزواج الذي يبني «المركيز» عليه آمالاً عظاماً: وإذا لم يصبح دوقاً، فإن ابنته ستكون على الأقل من أولئك اللائي يترددن على البلاط. وفكر في الرحيل إلى لنجدوك على الرغم من خطاب «ماتيلد» إليه، ومن الأعذار التي قدمها إلى «المركيز»؛ غير أن هذا التفكير الذي دفعته إليه الفضيلة، سرعان ما اختفى.

وأخذ يقول في نفسه: ما أكثر طيبتي! أنا هذا الشعبيّ الذي تأخذه الرحمة بهذه الأسرة الراقية؟ أنا الذي يصفني الدوق دى شون بأني خادم! كيف يعمل «المركيز» على زيادة ثروته؟ إنه يبيع إيراده حين يعلم من القصر أنّ الدلائل تدل على قيام ثورة فى اليوم التالي. لقد زجَّ بي القدر القاسي في أحط الدرجات، لقد أنعم عليّ القدر بقلب رقيق، وحرمني دخلاً يبلغ ألف فرنك، أي أنه حرمني كسرة الخبز، إذا لم نشأ أن نعرض لذكر الخبز، فكيف أعرض عن لذة تسعى إليّ؟! إنه ينبوع صاف يروي ظمئي وأنا في هذه الصحراء المحرقة، صحراء الوضاعة التي أقطع عرضها في جهد جهيد! فعليّ ألا أكون غبياً إلى هذا الحدّ؛ فكلٌّ يعمل لنفسه في فيافى الأنانية التي يسمونها الحياة.

ثم تذكر تلك النظرات التى كانت تنم عن الاحتقار التي كانت توجهها إليه «مدام دى لامول»، وصاحباتها على الأخص.

واستولى عليه سرور شديد لما انتصر على المركيز دى كروازنوا، فغاضت في نفسه كل فكرة توحي بها الفضيلة.

وأخذ يقول: كما أودّ لو غضب! لأني أعرف الآن كيف أطعنه بسيفي وأنا آمن مطمئن، وألزمه بأن يقوم بدور الجنيب في المبارزة! كنت من قبل وغداً، أعتمد في حقارة على شيء وهبتهُ من الشجاعة. أما بعد هذا الخطاب فقد أصبحت نداً له.

ثم تحدث إلى نفسه في لذة شديدة وبطء وهوادة: نعم، لقد فوضل بين صفاتي وصفات المركيز، ووضعت مزايا كل منا تحت الحكم، فرجحت كفة نجار چورا التعس.

وصاح: حسناً! لقد وجدت ما أجيبها به: يا «آنسة دى لامول» أننى لا أنسى حالتي.

سأفهمك وأشعرك بأنك قد تخليت عن واحد من سلالة هذا الرجل العظيم دى كروازنوا الذي اشترك مع سان لويس في الحروب الصليبية، نعم، تخليت عنه من أجل ابن نجار.

كان فرحه عظيماً، وسعادته تغمر نواحي قلبه، حتى خيل إليه أن غرفته التي أغلق بابها بالمفتاح، صغيرة لا تسع سروره العظيم، ولا يستطيع أن يتنفس فيها فنزل إلى الحديقة. وأخذ يردد ما قاله من قبل: ما أنا إلا فلاح تعس من چورا، حكم عليّ أن أرتدي دائماً هذه الملابس السوداء الحزينة! وأسفاه! لو أنني وجدت قبل ذلك بعشرين عاماً إذاً للبست الحلل العسكرية كما يلبسون! لقد كان من على شاكلتي من قبل يقتل في الحرب أو يصبح جنرال، وهو في السادسة والثلاثين من عمره. وكان ذلك الخطاب الذي ظل ممسكاً به في يده قد خلع عليه هيئة الأبطال وصفاتهم. فاستطرد يقول: أصبح هذا الثوب الأسود في الواقع يدرّ عليّ لابسه الذي يبلغ الأربعين أجراً قدره مائة ألف فرنك والوسام الأزرق مثل نولك رئيس أساقفة بوفييه.

ثم ضحك ضحكة مفيستوفليس، وقال: حسنا! إنني أذكى منهم جميعاً، وقد عرفت كيف أختار ملبسا يلائم عصري. وأحس طموحه يزداد وتعلقه بالثياب السوداء الكنسية يشتد وقال: كم من كردينال كان أكثر ضعة مني، ومع ذلك كانت في أيديهم مقاليد الأمور! وأنا أعرف مثلاً لذلك ... هو مواطني جرانفل.[1]

وهدأ اضطرابه قليلاً قليلاً، وعاد إليه حذره الفطري وأخذ يتمثل بقول أستاذه ترتوف، الذي كان يحفظ دوره عن ظهر قلب:

«أستطيع أن أصدق هذا القول، فهو دهاء يقبله العقل ... لن أشك بعد هذا في هذه الآراء اللطيفة الطلية. فبعض مظاهرها الطيبة تجعلني أطمئن إلى تصديقها جميعاً، بعد أن كانت نفسي مسرحاً للتنهدات».

ترتوف : الفصل الرابع، المنظر الخامس

لقد أضاعت ترتوفَ امرأة، وكان مثله مثل أى إنسان آخر ... واستطرد «چوليان» يقول في بطء وقسوة شديدة: قد يطلع المركيز على إجابتي ... على أني استعمل لذلك هذا العلاج، سنبدأ بعبارات قوية نشير فيها إلى خطاب «ماتيلد» الرائعة.

نعم، ولكن ربما هاجمني أربعة من خدم كروازنوا وانتزعوا مني خطابها. لا، لن يتمكنوا من هذا، لأني مسلّح تسليحاً كاملاً، وهم يعلمون أني اعتدت اطلاق النار على الخدم.

ولكن، قد يكون فيهم خادم شجاع، فيهجم عليّ، لأنهم وعدوه مكافأة قدرها مائة نابليون. سأقتله أو سأجرحه، وهذا ما يريدونه من كل قلبهم. وسيزجّ بي في السجن

---

(١) اسم ولد الكردينال جرانفيل في بيزانسون عام ١٥١٧ وكان وزيرا زمن شارلكان وفي عهد فيليب الثاني. «المعرب».

تطبيقاً للقانون؛ وأحاكم على فعلتي هذه، ويرسلونني إلى پواسى لأشترك في السجن مع السيدين فونتان[1] وماجلون، ويكون هذا جزاء عادلاً، وحكماً تقضي به عدالة القضاة. على أني سأنام في پواسى مع أربعمائة من الرعاع لا فارق بيننا جميعاً ... .

ثم نهض وصاح في حدة: وسيعطف عليّ هؤلاء الناس بعض العطف! ولكن هل يعطفون على أبناء طبقة العامة حين يقعون تحت رحمتهم؟!

وكانت هذه العبارة بمثابة انتزاع عطف «المركيز دى لامول» عليه من نفسه، الذى كان على الرغم منه يقسو عليه.

مهلا، أيها السادة الأشراف، إنني أدرك هذه الخديعة التافهة؛ وليس في استطاعة الكاهن مالون أو السيد كاستاند اللذين غادرتهما في المدرسة، أن يفعلا أحسن مما فعلتم. إنكم ستأخذون مني خطاب الإغراء هذا، وسيكون مثلي كمثل الكولونل كارون[2] دى كولمار.

أمهلوني قليلاً أيها السادة، فسأرسل الخطاب الذي ساقه إليّ القدر إلى الكاهن پيرار، وأضعه في حزمة تكون وديعة عنده، بعد أن أحسن ختمها. إنه رجل أمين، لن يجد المال سبيلاً إلى إغرائه: نعم، إنه لكذلك، ولكنه يفتح الخطابات ... سأرسله إلى فوكيه.

ويجب أن نعترف بأن نظرات «چوليان» كانت قاسية، وأن وجهه كان كريهاً، تظهر فيه الجريمة واضحة جلية. لقد كان هذا الرجل البائس الذي يشتبك في حرب مع المجتمع كله. وصاح بطلنا وهو يقول: إلى السلاح! ثم قفز درجات السلم الخارجى للقصر قفزة واحدة. وذهب إلى كوخ الكاتب في زواية الشارع، فأدخل الرعب في قلب الرجل، وأعطاه «چوليان» كتاب «الآنسة دى لامول»، وقال له:

– اكتب هذا.

كان الرجل مكباً على نسخ الخطاب، و«چوليان» يكتب إلى فوكيه: ورجاه أن يحتفظ له بوديعة لها قيمتها عنده. ولكنه انقطع فجأة عن الكتابة وقال: إن المكتب الأسود في مصلحة البريد سيفتح خطابي ويسلمكم الكتاب الذي تحاولون الحصول عليه... ، لا أيها السادة، لن أمكنكم من ذلك. ثم ذهب واشترى إنجيلاً ضخماً من صاحب مكتبة إنجيلاً بروتستانتي، وأخفى خطاب «ماتيلد» في غلاف الإنجيل بمهارة فائقة، وأرسله إلى عامل من عمال فوكيه، لا يعرف أحد في پاريس اسمه.

ثم عاد إلى قصر دى لامول بعد ما عمل، والسرور يملأ جنبيه، وقال بعد أن أغلق

---

(١) كانا مديرين لمجلة صغيرة هجائية تسمى «الألبوم» وقد سجنا عام ١٨٣٠ بسبب نشرة هجائية. «المعرب». (٢) كان الكولونيل كارون دى كولمار قد أعدم عام ١٨٢٢ بسبب التآمر. وكثيراً ما تحدث ستندال في مؤلفاته عن إعدامه. «المعرب».

باب غرفته وخلع ثيابه السوداء: لقد جاء دورنا! ثم كتب إلى «ماتيلد»:

« ماذا! أهي الآنسة دى لامول التي أرسلت مع أرسين خادم أبيها، خطاباً مغرياً إلى نجار بائس من چورا، إنها ولا ريب تريد العبث به ...» ثم كتب العبارات الجليلة التي جاءت في الخطاب الذي تسلمه.

وكان خطابه ينطوي على حذر سياسي شديد يرجع الفضل فيه إلى الفارس دى بوڤوازى. كانت الساعة لا تزال العاشرة؛ وقد أحس «چوليان» أن السعادة تغمره، وملكه شعور بقوته، لا يزال جديداً بالنسبة لهذا البائس، فذهب إلى الأوبرا الإيطالية. وسمع صديقه چيرونيمو وهو يغني، ولم يتأثر من قبل بالموسيقى كما تأثر بها هذه الليلة لأن نغماتها كانت إلهية.

الفصل الرابع عشر
أفكار فتاة

كم ألاقي من قلق وحيرة! وكم أقضي ليالي لا أنام فيها! يا إلهي! هل سأكتب على نفسي أن تحتقر؟ إنه سيحتقرني هو نفسه. ولكنه سيرحل، ويبتعد عني
ألفرد دي موسيه

وجدت «ماتيلد» عناء شديداً في الكتابة إلى «چوليان». ومهما يكن من أمر بداية تعلقها به، فإنها سيطرت على كبريائها التي شغلت قلبها منذ عرفت الحياة. وشُغلت هذه النفس المتعالية الفاترة لأول مرة بعاطفة قوية عاصفة، كبحت جماح الغرور وإن لم تقض عليه تماماً.وظلت «ماتيلد» شهرين كاملين فريسة لمشاعر جديدة غيرت كيانها تغييراً شاملاً.

ظنت أن السعادة أضحت في متناول يدها. وهذا الشعور الكبير إذا سيطر على نفس قوية شديدة الذكاء، كان عليه أن يكافح طويلاً ضد الكرامة، وضد كل المشاعر التي تتعلق بالواجبات التافهة. وحدث أن دخلت «ماتيلد» على أمها صباح يوم في الساعة السابعة، ورجتها أن تسمح لها بالالتجاء إلى ڤيلكييه، فلم تشأ المركيزة أن تجيبها وطلبت منها أن تأوي إلى الفراش فكانت هذه المحاولة آخر مجهود بذلته، مدفوعة بالحكمة العامية واحترام الآراء التي شبت عليها.

أما خشيتها من أن ترتكب شططاً أو أن تخرج على الآراء التي يعدها مقدسّة أمثال كايلوس ولوز وكروازنوا، فكانت لا تقيم لهذا وزناً؛ لأن أمثال هؤلاء لا يستطيعون أن يفهموها كما تزعم؛ إنها لا تتردد في أن تستشريهم لو كانت عازمة على شراء عربة أو أرض. وكان أخوف ما تخافه ألا يرضى عنها «چوليان».

ولكن أليس من الجائز ألا يكون مخبره كمظهره، وألا يكون الرجل الممتاز الذي تنشده! وهي تكره ضعف الخلق كراهة شديدة، وكان هذا هو اعتراضها الوحيد على الوسماء من الشبان الذين يحيطون بها. وكلما سخروا في ظرف مما لا يتفق مع ذوق العصر أو مما ينحرف عنه، قلّ تقدير «ماتيلد» لأفكارهم، لأنهم قوم يؤمنون باتباع ما فرضه عصرهم.

قالت «ماتيلد» في نفسها: أهم صفاتهم الشجاعة. ولكن ما سبيل هذه الشجاعة؟ أهي المبارزة، لكن المبارزة ليست إلا حفلاً، يعرف مقدماً كل شيء فيه، حتى ما يقال وقت أن يقع الإنسان على الأرض. فهو حين يتمدد على العشب، ويده فوق قلبه، يجب على

خصمه أن يصفح عنه صفحاً كريماً، ويقول كلمة لفتاته الجميلة التي قد لا تكون إلا في خياله، أو تذهب إلى المرقص يوم موته خوفاً من أن تثير حولها الشكوك.

إن المرء ليواجه الأخطار وهو يقود كوكبة تلمع بالفولاذ، ولكن الخطر العجيب غير المتوقع الذي يهدد المرء في عزلته، أيعد حقاً خطراً قبيحاً؟

ثم استطردت: وا أسفاه! كان بلاط هنري الثالث مملوءاً برجال عظماء الخُلق والنشأة معاً! آه! لو أن «چوليان» خدم في چار ناك أو في مونكوتور، إذا لتبددت كل شبهاتي، ولزالت مخاوفي جميعاً. لم يكن الفرنسيون في ذلك الزمان كالدمى؛ لأنه كان عصر بأس وقوة. فاليوم الذي كانت تقوم فيه معركة، يعتبر أقل الأيام قلقاً وحيرة.

لم تكن حياتهم حبيسة كالأجسام التي حنّطوها لقدماء المصريين، ولم تكن ذات لون واحد، لا تتغير ولا تتبدل. ثم استطردت: نعم، كانت الشجاعة في ذلك العصر أقوى منها في عصرنا هذا، وكان الخروج من قصر سوسون حيث تقيم كاترين دى مدسيس في الساعة الحادية عشرة مساء، عملاً ينطوي على الشجاعة أكثر من المغامرة في الجزائر. وكانت حياة كل رجل سلسلة من المصادفات. ولكن الحضارة قضت اليوم على المصادفات، واختفى من حياتنا عنصر المفاجأة. وإذا ظهر في آرائنا جديد قوبل بالهجاء والقدح الشديد، وإذا تناول بعض الحوادث ذعرنا منه. ومهما ارتكبنا في سبيل الخوف من حماقات، فإن ذلك لا يضيرنا. فياله من قرن انحطت فيه القيم وأصبح مجلبة للسأم! ماذا كان يقول بونيفاس دى لامول لو رفع رأسه المقطوع من قبره ورأى في عام ١٧٩٣ سبعة عشر شخصاً من سلالته يقبض عليهم كما تمسك الخراف، ويشنقون بعد ذلك بيومين؟ لقد كان الموت محققاً، ولكن الدفاع عن النفس وقتل واحد أو اثنين من الثوار كان في نظرهم خطيئة. آه! لو أننا كنا نعيش في ذلك العصر المجيد، عصر بونيفاس دى لامول، لكان «چوليان» رئيساً لكتيبة من الفرسان، ولكان أخي قساً شاباً له أخلاق عالية، تنطوي نظراته على الحكمة، ويغترف لسانه من عقل مكين.

وكانت «ماتيلد» من قبل ذلك ببضعة شهور تألم؛ لأنها رأت رجلاً يخالف ما تواضع عليه الناس، ويحيد عن سبيل عصرها. وكانت تجد في سماحها لنفسها أن تكتب لبعض شبان الطبقة الراقية لوناً من السعادة. وهذه جرأة لا تتفق أبداً مع الأخلاق، ولا مع الحذر الذي ينبغي للفتاة، وقد تثلم شرفها في نظر المركيز دى كروازنوا ووالده الدوق دى شون، وفي نظر جميع من يترددون على قصر الدوق دى شون، الذين يرون أن الزواج المنتظر لم يتم، ويحبون أن يعرفوا سبب ذلك. وفي تلك الأيام التي كانت «ماتيلد» تكتب فيها الخطابات، كانت تظل ساهرة لا تعرف إلى النوم من السبيل. لكن كتبها لم تكن إلا ردوداً على خطابات هؤلاء الشبان.

وفي هذه المرة جرؤت على أن تقول: إنها تحب، فكتبت أول خطاب -ويالها من عبارة قاسية- إلى رجل من أدنى طبقات المجتمع. ولو كشف هذا الأمر لجرّ عليها عاراً أبدياً.

وأية امرأة من النساء اللائي يترددون على أمها تجرؤ على أن تنتصر لها؛ ثم أي عبارة يمكن أن تردّد لتجفف من المهانة التي تلحق بهم من هذه الزلة في الصالونات كلها؟

كان الكلام وحده في هذا يجر العار، فما بالك بالكتابة! «إنّ هناك من الأشياء مالا يكتب. وهذه عبارة قالها نابليون عندما علم بتسليم بايلن، وأخبرها «چوليان» بها! وكأنه كان يعطيها درساً مقدماً.

على أن هذا كله لم يكن شيئاً، فقد كان خوف «ماتيلد» يرجع إلى أسباب أخرى. لقد تغاضت عن كل ما تحدثها فعلتها من أثر سيء في المجتمع، فهي تجرّ عليها العار والامتهان، نسيت هذا كله، لأنها كانت تسبّ طبقتها دائماً، وكتبت إلى شخص يخالف كروازنوا ولوز وكايلوس وأمثالهم مخالفة تامة. وكان عمق «چوليان» في خلقه، وما يخفى عليها منه يرعبها حين تقوم بينها وبينه علاقة عادية، فكيف يكون خوفها وقد أرادت أن تجعل منه خليلاً وتتخذه سيّداً!

أيّ كبر لا يظهره إذا ما أصبح مسيطراً عليّ؟ولو صحّ هذا لتمثلت بقول ميدى! أنا وسط هذه الأخطار الكثيرة، أحتفظ بكلمة أنا.

ظنت أن «چوليان» لا يحترم بتاتاً طبقة الأشراف بالدماء. وخيّل إليها أن نفسه لا تحمل لها لوناً من ألوان الحب! وفي اللحظات الأخيرة لشكها القاتل، شغلتها الآراء التي تسيطر على الغرور النسوي. وفرغ صبرها، فصاحت تقول: كل شيء يجب أن يكون غريباً في مصير فتاة مثلي. وأضحى كبرها الذي تعلمته وهي في المهد في نزاع مع الفضيلة. وعزم «چوليان» على الرحيل في هذه الفترة، فكان ذلك سبباً في تعجل الأمور. ومثل هذا الخلق نادر جداً لحسن الحظ.

وفي ساعة متأخرة من الليل، طرأت على «چوليان» فكرة خبيثة، فقد أنزل عند البواب حقيبة ثقيلة، ودعي الخادم الذي يغازل وصيفة الآنسة دى لامول ليحملها. وأخذ يقول في نفسه: قد لا تترتب على هذا العمل نتيجة، ولكنه إن نجح ظنت أنني سافرت. ونام فرحاً مسروراً من هذه الدعابة. أمّا «ماتيلد» فلم تذق للنوم طول ليلتها طعماً.

وأصبح الصباح فغادر «چوليان» القصر في ساعة مبكرة حتى لا يتنبه لخروجه أحد، لكنه رجع ثانياً قبل الساعة الثامنة. ولم يكد يدخل المكتبة حتى كانت «الآنسة دى لامول» ببابها؛ فأعطاها رده على خطابها. واعتقد أن الواجب يفرض عليه أن يتحدث إليها، ولم يكن هذا أمرا عسيراً عليه، ولكن «ماتيلد» لم تشأ أن تسمع إليه فتركته منصرفة بسرعة، وسرّه هذا لأنه لم يكن يعلم ما يقوله لها.

ثم أخذ يقول: لو لم يكن كل هذا أمراً دبّره الكونت نوربير، فلا شك أن نظراتي التي يشع منها الفتور، هي التي أوقدت نار حب نزق تشعر به هذه الفتاة الكريمة المحتد. لو أنني تركت نفسي تنقاد لهذه الدمية الشقراء، لكنت على جانب كبير من الحمق. وشغلته هذه الفكرة فزاد فتوراً وحذراً. واستطرد: والمعركة التي ستدور بيننا، وسيكون فيها أصلها

النبيل كأنه تلّ عالٍ يكون بيني وبينها موقعاً حربياً. إنني أحب أن أهاجمها من هذه الناحية. لقد أخطأت كثيراً إذ أقمت في باريس؛ وتأجيل سفري سيحط من شأني كثيراً، ويقلل من قيمتي إن صح أن كل هذا الأمر حيلة أريد بها السخرية مني. وأيّ خطر لو أنني رحلت؟ لو فعلت هذا! لسخرت أنا منهم على حين أنهم يريدون أن يعبثوا بي. ولو أنها تهتم بي حقاً، لزاد اهتمامها مائة مرة لو أنني لم أؤجل سفري.

لقد سبب له خطابها فرحاً شديداً واستمتاعاً ينطوي على الكبر، وأخذ يضحك مما حدث، حتى أنساه ضحكه أن يفكر في السفر تفكيراً جدّياً.

كان يحس ما يرتكب من الأخطاء إحساساً بعيداً، وهذا لون من ألوان طبعه لا مفرّ له منه. وكان غاضباً على نفسه من جراء ذلك، ولم يعد يفكر في هذا النصر الكبير الذي سبق هذا الفشل اليسير؛ غير أن «الآنسة دى لامول» ظهرت بباب المكتبة في الساعة التاسعة وألقت إليه خطاباً ثم ولت الأدبار. فجعل يحدث نفسه وهو يتناول الخطاب: يخيّل إليّ أنها قصة في رسائل. لقد زلت قدم العدو، أما أنا فسأظهر الفتور والفتور. وسألته في خطابها أن يرد عليها رداً شافياً، لكن لهجتها كانت متكبرة، فزاد هذه من فرحه الداخليّ. ووجد لذة كبيرة في أن يكتب إليها صفحتين، تناول فيها بالقدح كل أولئك الذين يحاولون أن يسخروا منه، ثم أخذ يعبث بها في آخر الخطاب فأخبرها بأنه راحل في صباح اليوم التالي.

ولما انتهى من كتابه، قال: ستتيح لي الحديقة فرصة أسلمها فيها كتابي لأنها ولا شك ذاهبة إليها. وأخذ يطالع نافذة غرفتها التي تقع في الطابق الأول بجوار مسكن أمها، غير أن هناك طابقاً مرتفعاً بين أسفل المنزل وأعلاه. وكان هذا الطابق مرتفعاً جداً حتى أن «چوليان» وهو في الحديقة يتنزه ماشياً في طرقات أشجار الزيزفون والخطاب في يده، كان لا يُرى من نافذة «الآنسة دى لامول»، لأن الأشجار -وإن كانت مشذبة- إلا أنها تكوّن قبّة تستر السائر في الحديقة فلا يراه من كان في النافذة. وسرعان ما استولى عليه الغضب، وأخذ يقول: ماذا أنا فاعل؟! إننى لأرتكب حماقة جديدة! لو فرضنا أنهم يعملون على السخرية مني، فليس لي أن أظهر وبيدى خطاب، لأن هذا يخدم أعدائي.

وكانت غرفة نوربير فوق غرفة أخته تماماً، بحيث لو غادر «چوليان» القبة التي تضربها الأغصان المشذبة، لرآه الكونت وأصدقاؤه، ولاستطاعوا أن يتتبعوا حركاته كلها في سهولة ويسر.

ثم ظهرت «ماتيلد» خلف زجاج نافذتها، فأشار «چوليان» إليها إشارة خفيفة، وأظهر لها جزءاً من الخطاب، فلما غضّت من بصرها أسرع يجرى إلى غرفته، وهناك على السلم الكبير قابلته مصادفة، «ماتيلد» الجميلة الفاتنة، وأخذت منه الخطاب في غير مشقّة وعيناها تضحكان. عندئذ قال في نفسه: كم كانت نظرات «مدام دى رينال» التعسة، تنطوي على حب قويّ وسعادة، حين جرؤت على أن تأخذ من يدي الخطاب بعد أن

عاشرتها ستة شهور! ويخيل إليّ أنها لم تنظر إليّ مرة واحدة في حياتها بعينين باسمتين.

ولكنه اقتضب فكرته ولم يُبنها بوضوح ... هل كان يرى أنّ مايسوقه من الأدلة لا قيمة له؟ ولكن خاطره سرعان ما أدرك البون الشاسع بين «ماتيلد» ومدام دى رينال، عندما رأى أناقتها في ثوب الصباح؛ وبالروعة قدها وجماله! وإذا ما أبصرها الناظر السليم الذوق على بعد ثلاثين خطوة أدرك مكانتها الاجتماعية. وهذا هو ما يسمونه الميزة الظاهرة.

كان «چوليان» يعبث لكنه لم يكشف تماماً عن فكرته؛ فمدام دى رينال لم يكن بجانبها شخص مثل المركيز دى كروازنوا تضحي به من أجله. وما كان له من غريم فيها إلا هذا التافه الحقير السيد شاركو، نائب حاكم المقاطعة، الذي أطلق على نفسه اسم دى موچيرون، حين علم أن سلالة موچيرون فنيت كلها.

وفي الساعة الخامسة وصل إليه خطاب ثالث، ألقت به إليه من باب المكتبة، ثم ولت الأدبار كما فعلت من قبل. فضحك «چوليان» قائلاً: ما أعجب هذا الجنون! في مقدورنا أن نتحدث معاً في سهولة ويسر!. من المحقق أنّ العدو يريد أن يحصل مني على كتب كثيرة! ولم يتعجل فتح الخطاب الجديد. ثم قال في نفسه: لعلها جمل طريفة في هذه المرة كذلك. لكن الشحوب علا وجهه وهو يقرأ، ولم تكن «ماتيلد» قد كتبت إلا ثمانية سطور لا تزيد، وكانت تقول: أريد أن أتحدث إليك، يجب أن أتحدث إليك الليلة عندما تدق الساعة الأولى صباحاً فاذهب إلى الحديقة، ثم خذ السلم الكبير الذي يستعمله البستاني -وهو على مقربة من البئر- وضعه على نافذتي وادخل إليّ. إن القمر مكتمل الضياء ولكن ذلك لا يضير.

الفصل الخامس عشر
أهذه مؤامرة؟

آه! ما أقسى الزمن الذى نقضيه بعد الشروع في عمل عظيم وقبل تنفيذ هذا العمل! ويا لتلك المخاوف التي لا مسوغ لها! ويا للحيرة والتردد! إنها هي الحياة بل إنها أعز من الحياة: إنه الشرف!.

شيلر

أخذ «چوليان» يعمل فكره ويتحدث قائلاً: أصبح الأمر جداً، وصار واضحاً جلياً. ماذا! هذه الآنسة الجميلة تستطيع أن تتحدث إليّ في المكتبة في حرية واسعة. والحمد لله على أن «المركيز» يخشى أن أطلعه على الحسابات، فهو لذلك لا يدخل عليّ المكتبة أبداً. ثم ماذا! إن «المركيز دى لامول» والكونت نوربير هما اللذان يترددان على المكتبة، وهما غائبان طول النهار، ويمكن بكل سهولة أن تعلم ساعة عودتهما إلى القصر. على الرغم من هذا كله أرى الغادة الجميلة؛ التي إن طلب يدها أمير من الأسرة المالكة كان الرابح، أراها تريد مني أنا أن أرتكب هذه الحماقة البالغة!

من الواضح أنهم يريدون القضاء عليّ، أو هم على الأقل يحاولون السخرية مني. لقد حاولوا أول الأمر أن يقضوا عليّ بخطاباتي، فألفَوْها رزينة لا تطرف فيها، فعمدوا الآن إلى عمل أكثر وضوحاً من بياض النهار! ويعتقد هؤلاء السادة الشبان الوسماء، أنني على جانب عظيم من الغباء أو الحماقة. يا للشيطان! أأصعد بسلم إلى الطبقة الأولى في ليلة يضيء فيها القمر وأكون على ارتفاع خمس وعشرين قدماً! سيتاح لهم وقت لرؤيتي، وسيراني أصحاب المساكن المجاورة كذلك. كم أكون جميلاً فوق سلمي!

وصعد إلى غرفته وأخذ يعد حقيبته وهو لا ينقطع عن الصفير. وذلك لأنه عزم على الرحيل دون أن يردّ على خطابها. ولم يبعث هذا القرار الحكيم الطمأنينة في قلبه، فسرعان ما أخذ يقول في نفسه بعد أن فرغ من إعداد الحقيبة: إذا صحّ أنها صادقة العاطفة فسيصبح دورى في رأيها دور جبن وحقارة! إنني لا أنتسب إلى أسرة كريمة، ولهذا يجب أن أنال ميزات جديدة لها قيمتها، لابدّ لي من المال الحقيقي الذي يتمثل في أسهم عظيمة القيمة.

وفكر ربع ساعة، ثم قال في نفسه: لم أنكر هذه الحقيقة؟ سأصبح جباناً في نظرها. ولن أفقد أجمل وأذكى فتاة في الطبقة الراقية كما وصفوها في مرقص الدوق دى ريتز فحسب، بل أفقد أيضاً لذة كبيرة حين أراها وهى تضحي من أجلي بالمركيز دى كروازنوا، وهو ابن دوق وسيصبح دوقاً كذلك. وهو شاب وسيم له كل ما ينقصني من صفات: فهو

سريع البديهة، وكريم الأصل، كثير المال. إنني لو فعلت هذا لحالفني الندم طول حياتي، لا من أجلها، فإن في العالم كثيراً من الخليلات!

... ولكن ليس لأحد من الناس إلاّ شرف واحد! كما يقول الشيخ دون دييج، وإنني لأتراجع الآن أمام أول خطر حقيقي يعترضني ما في ذلك شك؛ لأن مبارزتي مع السيد دى بوڤوازى لم تكن إلا شيئاً تافهاً. أما الآن فهذه مسألة أخرى فيها كثير من الجد. وقد يطلق عليّ النار أحد الخدم، وهذا أهون الأخطار، وقد يتعرض شرفي للاهانة ويلحقني العار. ثم استطرد في فرح شديد وفي لهجة فيها كبرياء: الأمر جدّ أيها الشاب فالشرف هو الذي يتعرض للأذى. إن شخصاً آخر يائساً مثلي، لم تعرض له في حياته هذه المصادفة السعيدة، ولم تتح له هذه الفرصة التي لا تعوض، سأحصل على مال كثير، ولكن عن طريق غيري.

وأخذ يفكر طويلاً، وهو يسير بسرعة ويتوقف عن المسير بين آونة وأخرى. كان في غرفته تمثال جميل من الرخام للكردينال ريشيليو، فكان ينظر إليه بين لحظة وأخرى على الرغم منه. وكأن هذا التمثال كان يؤنبه أشد تأنيب على خور عزيمته، وعلى أنه لا يتمسك بالشجاعة التي تعد فضيلة من فضائل الفرنسيين. فأخذ يقول: لو كنت في زمنك أيها الرجل العظيم فهل كنت أقع تحت طائلة التردد؟

واستطرد: إن فرضنا أسوأ الفروض، وكان هذا فخاً ينصب لي، فمن المؤكد أنه يلوث سمعتها ويقضي على شرفها. فهم يعلمون أنني لا أركن إلى الصمت. وعلى هذا يجب عليهم أن يقتلوني. على أن قتلي كان ممكناً عام ١٥٧٤ أيام بونيفاس دى لامول، أما اليوم فلن يجرؤ أحد عليه؛ لقد تغيرت طباع هؤلاء الشبان. وكم يحسد الناس «الآنسة دى لامول»! إن أربعمائة صالون ستردد في الغد فضيحتها في لذة وسرور! والخدم يثرثرون فيما بينهم بما يكنونه لي من الاحترام، أعرف هذا تماماً؛ فاني سمعتهم يتحدثون به. وخطاباتهم من ناحية أخرى!. ربما اعتقدوا أنني أحملها معي. وإذا ما باغتوني في غرفتها، فسيحاولون أخذها مني. وهل ستقع معركة بينى وبين رجلين أو ثلاثة أو أربعة؟ الله أعلم بعددهم. ولكن أنّى لهم بالرجال؟ أفي باريس مرؤوسون يكتمون الأسرار؟ إن العدالة تخفيهم. يالله من أمثال كايلوس وكروازنوا ولوز!

في اللحظة التي أباغت فيها، ستعلو وجهي، وأنا بينهم، علامات الحماقة التي أعجبتهم من قبل. فحذار من مصير أبيلارد، أيها السكرتير! ولكن حذار أيها السادة! إنني سأترك في وجوهكم آثار صفعاتي، كما فعل جنود القيصر في فرسال. أما الخطابات ففي استطاعتي أن أضعها في مكان أمين.

ونسخ «چوليان» صوراً من الخطابين الأخيرين، وأخفاها في مجلد جميل من كتب ڤولتير، أما الخطابان فقد ذهب بهما بنفسه إلى البريد. ولما عاد أخذ يسائل نفسه في دهشة وذعر: أية حماقة سأرتكبها؟ ثم ظل ربع ساعة لا يستطيع التفكير جدياً في

مشروع الليلة القادمة.

سأحتقر نفسي فيما بعد إذا أنا تراجعت! وسينتابني الشك طول حياتي، والشك عندي شر البلايا جميعاً. ألم أندم من قبل يوم تركت خليل أماندا؟! ويخيل إليّ أنني أصفح صفحاً كريماً عن جريمة واضحة المعالم، فإني لا أعود أفكر فيها حين أعترف بها. ماذا يعتريني! أتتاح لي فرصة في أن أكون منافساً لرجل يحمل اسماً من أشرف الأسماء الفرنسية وأشهرها، ثم أنزل عن ذلك فأكون أقل منه قيمة وقدراً؟! هذا في الواقع منتهى الجبن. وقطعت هذه العبارة سبيل كل شك. فنهض وصاح: إنها لرائعة الجمال.

لو لم تكن هذه خيانة منها، فأي جنون ترتكبه من أجلي! وإذا كان الأمر سخرية واستهزاء، فأقسم لكم أيها السادة على أنني سأبدل الهزل جداً، وإني على ذلك لقدير!

ولكن، ما العمل إذا ما ربطوا ذراعيّ عندما أدخل الغرفة؟ إنهم يرتكبون بذلك عملاً ينطوي على المهارة حقاً! وربما استعملوا حيلة ماهرة للايقاع بي. ثم ضحك وقال: إنها ستكون أشبه بمبارزة يمكن تجنب كل طعنة، كما قال لي معلمي في السلاح، أما إذا أراد الله أن يقضي على حياة أحد المتبارزين فإنه ينسيه أن يدافع عن نفسه. وعلى كل حال، فستكون هذه إجابتي: وأطلق من مسدساته التي في جيبه عدة طلقات، ثم غيّر طلقاتها وإن كانت تدوّي.

ثم رأى أنّ في الوقت متسعاً، فأراد أن يقوم بعمل، فجلس يكتب إلى فوكييه: لا تفتح يا صديقي الخطاب الذي تجده داخل كتابي هذا إلا إذا حدث لي حادث، أو سمعت أن شيئاً غريباً وقع لي. وإذا علمت بشيء من ذلك، فامح أسماء الأعلام الواردة في الخطاب الذي أرسله إليك، وانسخ منه ثماني نسخ ترسلها إلى صحف مرسيليا وبوردو وليون وبروكس وما إليها؛ وبعد ذلك بعشرة أيام، اطبع هذا المخطوط وأرسل أول نسخة منه إلى «المركيز دي لامول»؛ ثم ألق بباقي النسخ ليلاً في شوارع ڤريير، بعد ذلك بخمسة عشر يوماً.

كانت هذه المذكرة الصغيرة التي تبرر موقفه، والتي أمر فوكييه بألا يفتحها إلا إذا حدثت لـ«چوليان» حادثة، قد جُعلت على شكل قصة، وقد حاول «چوليان» قدر استطاعته ألا يتهم فيها «الآنسة دي لامول»، ولكنه رسم فيها بوضوح موقف هذه الفتاة.

ولما انتهى من كتابه، دقّ جرس العشاء، فدقّ له قلبه، لأن خياله كان في شغل بالقصة التي كتبها، ويغلب على شعوره الشؤم والفجيعة. كان يرى نفسه وقد أحاط به الخدم، وقيدوه ووضعوه في قبو مكمّم الفم ثم أقاموا على حراسته خادماً، وإذا اقتضى شرف هذه الأسرة الكريمة أن تختم هذه المغامرة بخاتمة محزنة، فمن اليسير أن يقضوا عليه بالسموم التي لا تترك وراءها أثراً؛ وعندئذ يزعمون أنه مات على إثر مرض ثم ينقل إلى غرفته ميتاً.

وكان متأثراً حقاً بالقصة التي ألفها، كأنه مؤلف دراما تأثر لما ألّف، وقد شعر بخوف

حقيقي وهو يدخل غرفة الطعام. وأخذ ينظر إلى هؤلاء الخدم في ملابسهم البديعة ويتأمل وجوههم، ويسائل نفسه: أي هؤلاء قد اختير اليوم للحملة الليلية؟ هذه الأسرة لا تزال تحتفظ بذكريات بلاط هنرى الثالث، وترددها كثيراً، فإذا ما أحست إهانة، كانت أكثر إقداماً من كل الأسر التي على شاكلتها. ثم أخذ ينظر إلى «الآنسة دى لامول» ليقرأ في وجهها ما دبرته له أسرتها، فألفاها شاحبة، وجهها كوجه آل العصور الوسطى. ولم يرها من قبل أجمل مما هي عليه الآن، فقد كانت حقيقة رائعة عظيمة. فأصبح مغرماً بها، وأخذ يقول في نفسه: إنّ شحوبها لينبئ بما اعتزمته من جليل الأعمال.

وحاول عبثاً أن يتنزه في الحديقة بعد العشاء، لأن «الآنسة دى لامول» لم تذهب إليها. ولو أنه تمكّن من أن يحدثها لأزال عن قلبه هما كثيراً. ولم لا نعترف بالحقيقة؟ لقد كان «چوليان» خائفاً مذعوراً. وبما أنه عزم على أن يعمل، فإنه صمم على ألا يخجل أو يستحي، وأخذ يقول: كل ما أطلبه أن تواتيني الشجاعة وقت العمل، وما قيمة ما أشعر به الآن؟ ثم ذهب ليرى مكان السلم ويعرف مقدار ثقله. وضحك قائلاً في نفسه: لقد عزمت على استعمال هذه الأداة! وإنني هنا كما كنت في ڤريير: ولكن ما أعظم الفرق! ثم تنهد واستطرد: كنت هناك لا أشك في إخلاص المرأة التي أعرض حياتي من أجلها للخطر. ثم ما أعظم الفرق بين الخطرين!

كان من اليسير أن أقتل في حدائق «السيد دى رينال»، ولكن شرفي ما كان يجرح، لأنه من السهل عليهم أن يخفوا سبب موتي. أما هنا، فأي قصص كريهة مؤلمة ستقص في صالونات شان وكايلوس ورتز وغيرها! وأي تصوير مريع يضفي عليّ في كل مكان؟ سأكون شيطاناً في نظر الأجيال القادمة. ثم ضحك ساخراً من نفسه واستطرد يقول: سأظل شيطاناً يتحدثون عني عامين أو ثلاثة أعوام. ولكن من ذا الذي يستطيع التماس المعاذير لي؟ وإذا فرضنا أن فوكييه طبع المنشور فيما بعد، فلن يكون ذلك إلا حقارة جديدة. ماذا! أأعيش في منزل ألقى فيه الحفاوة والإكرام البالغين، ثم تحدثني نفسي أن أطبع منشوراً يعرض لما حدث! وأهاجم فيه أعراض النساء! آه! إني أفضل ألف مرة أن أكون غراً جاهلاً! وكانت السهرة كريهة ممقوتة.

الفصل السادس عشر

الساعة الأولى صباحاً

كانت هذه الحديقة شاسعة، خططت منذ سنوات قليلة في كثير من الروعة. ولكن الأشجار كان قد مضى عليها أكثر من قرن، وهي مصطبغة بالصبغة القروية.
ماسنجر

كان يكتب إلى فوكييه خطابا آخر، يطلب منه ألا ينفذ ما كلفه به في خطابه السابق، حين دقت الساعة الحادية عشر. وأخذ يعبث بقفل الباب محدثا جلبة؛ ليوهم السامع بأنه أغلق على نفسه باب غرفته. ثم ذهب بعد ذلك في خفة وحذر ليرى ما يحدث في البيت؛ وخاصة في الطبقة الرابعة التي يقيم فيها الخدم، فلم يجد شيئاً خارجاً عن المألوف. وكانت وصيفة من وصيفات المركيزة تحيي سهرة والخدم يشربون البنش في فرح وسرور ؛ فأخذ «چوليان» يقول في نفسه: إن الذين يضحكون هكذا لن يشتركوا في الحملة الليلية، بل سيكون المشتركون أكثر جداً ووقاراً من هؤلاء.

وذهب أخيراً إلى الحديقة واتخذ مقعده في جانب مظلم، وتحدث قائلاً: إن كانوا عازمين على أن يخفوا الأمر على الخدم فلابد أنهم سيحضرون من كلفوهم القيام بهذه المهمة من فوق جدران الحديقة ليباغتوني في غرفتها. وإذا كان السيد دي كروازنورا يحتفظ بشيء من الهدوء في كل هذه المغامرة، فعليه أن يباغتني قبل أن أدخل غرفة الفتاة التي يريد أن يتزوجها حتى يصون عليها عرضها. ثم جعل يستكشف المكان استكشافاً حربياً على جانب كبير من الدقة، وقال: شرفي هو الذي يتعرض للضياع، فلو انني ارتكبت خطأً أو عثرت في عثرة ما جاز لي أن أقول: لم أفكر في هذا؛ وليس هذا يعد عذراً.

كانت ظلمة الليل حالكة سوداء، شقّها بزوغ القمر في الحادية عشرة حتى أضاء واجهة القصر التي تطلّ على الحديقة في منتصف الساعة الأولى.

ودّقت الساعة الأولى صباحاً، ونوافذ الكونت نوربير لا يزال الضوء يرى من خلالها ، ولم يستول على «چوليان» رعب طول حياته كما استولى عليه الرعب في هذه الليلة، فقد رأى أن العمل محفوف بالمخاطر، وفقد كل حماسة في أن يقدم عليه وأخذ يقول: إنها لمجنونة!

ولكنه ذهب وأحضر السلم، وانتظر خمس دقائق، علّها تشير عليه بأن يرجع ومضت خمس دقائق بعد الساعة الأولى فوضع السلم على نافذة «ماتيلد»، وصعد في خفة، ويده

تقبض على مسدسه، والذهول يملكه لأنهم لم يهجموا عليه. ولما اقترب من النافذة، فتحت في سكون شديد، وسمع «ماتيلد» تقول في تأثر شديد:

– هأنتذا قد جئت! إنني متتبعة حركاتك منذ ساعة.

وكان شديد الاضطراب لا يعرف ما يفعل، لأن قلبه لم يكن يحمل لها شيئاً من الحب، وحسب وهو حيران أنه لابد له من الجرأة، فحاول أن يقبلها، لكنها دفعته قائلة: تباً لك! وسرّه كثيراً أنه أعفي مما كان مقدماً عليه، وأسرع فألقى نظرة على ما حوله: كان ضوء القمر ساطعاً وّضاء؛ حتى أن الظلال التي ألقاها في غرفة «ماتيلد» كانت شديدة الظلمة، فأخذ «چوليان» يقول: قد يكون هنا رجال كامنون بحيث لا أراهم، فسرها أنها وجدت موضوعاً تتحدث إليه فيه، لأنها كانت فريسة لعذاب أليم، من مشاعر الخجل والتحفظ التي سيطرت عليها من جديد، وهي مشاعر تتصف بها كل فتاة تنشأ نشأة كريمة، سألته قائلة:

– ما هذا الذي أراه في جيبك الجانبي؟

وسره هو كذلك أنه وجد ما يقوله: هي أسلحة مختلفة ومسدسات كثيرة.

– يجب أن ترفع السلم من موضعه.

– إنه ضخم وأخشى أن يكسر زجاج نوافذ الصالون أو زجاج الطبقة الأرضية.

– يجب ألا يكسر الزجاج. وحاولت وهي تقول هذه العبارة أن تتخذ لهجة الحديث العادي، ولكنها لم تستطع، ثم استطردت: يمكنك أن تخفض السلم بواسطة حبل تربطه في الدرجة العليا. وإني أحتفظ دائما بشيء من الحبال في غرفتي.

فعجب لأمرها وأخذ يقول: أهذه فتاة عاشقة؟! إنها لتجرؤ على أن تقول إنها تحب! وهذا الهدوء الشديد، والحكمة البالغة فيما تتخذه من احتياط، يدلانني على أنني لن أنتصر على كروازنوا كما كنت أعتقد جهلاً وغفلة، نعم لن أنتصر عليه وإن كنت أخلفه فقط. ولكن ماذا يضيرني من وراء ذلك؟! هل أحبّها؟ إني أنتصر على المركيز في أن سيكون له من يخلفه وهذا يغضبه، ويزداد غضبه حين يعلم أنني أنا الذي أخلفه! كم كانت نظراته إليّ بالأمس في مقهى تورتوني تنطوي على الكبر! لقد زعم أنه لا يعرفني. ولما لم يجد مفراً من أن يحييني، كانت تحيته تنم عن الكراهية والشر!

ربط الحبل في الدرجة العليا وأخذ يخفض السلم قليلاً قليلاً، وانحني من الشرفة انحناءة شديدة حتي لا يكسر زجاج النوافذ، وبينما هو يفعل، قال في نفسه: إنها للحظة طيبة لقتلي، إذا كان هناك من اختفى في غرفة «ماتيلد» ليفتك بي. ولكن السكون كان شاملاً في كل مكان.

وصل السلم إلى الأرض، واستطاع «چوليان» أن يضعه في ممشى الحديقة بجوار الحائط في مكان زرعت فيه نباتات غريبة تعنى بها المركيزة. فقالت «ماتيلد»:

– ماذا ستقول أمي حين ترى نباتاتها الجميلة وقد تلفت! ثم استطردت تقول في هدوء تام: يجب أن نلقي بالحبل بعيداً، لأنه لو شوهد معلقاً بالشرفة، لكان من العسير عليّ أن أسوّغ وجوده. فسألها «جوليان» في لهجة مرحة، متخذا لغة سكان المستعمرات (وكانت إحدى وصيفات القصر من سكان سان دوينج):

– وكيف أنصرف أنا إذن؟ فقالت والسرور يغمرها:

– ستخرج من الباب. ثم قالت في نفسها: آه! هذا الرجل جدير بحبي حقاً!

ترك «جوليان» الحبل يسقط في الحديقة، وضغطت «ماتيلد» على ذراعه، فظن أن عدوا من أعدائه قد أمسك به، فاستدار مسرعاً وأمسك بخنجر. وخيل إلى «ماتيلد» أنها تسمع فتح إحدى النوافذ، فظلا واقفين وهما جامدان لا يتحركان. وكان ضوء القمر يغمرهما. ولم يلبث الصوت الذي سمعته «ماتيلد» أن انقطع، فزايلها القلق.

لكن ارتباكهما بدأ مرة أخرى، وكان شديداً. وذهب «جوليان» إلى الباب ليرى أهو مقفل بكل المزاليج؛ وود لو أنه فتش تحت السرير كذلك لكنه لم يجرؤ، وخيّل إليه أنه ربما يكون قد كمن تحته خادم أو خادمان. ثم خشي أن يلوم نفسه في المستقبل على ذلك فتشجع ونظر. أما هي فكانت تحت سطوة حياء شديد، واشمأزت من مسلكها كثيراً، ثم سألته:

– ماذا فعلت بخطاباتي؟

فقال في نفسه: هذه فرصة طيبة أبعث بها القلق في نفوس هؤلاء السادة الذين ربما كانوا يسترقون السمع، ولأتجنب معركة تنشب بيني وبينهم! ثم أجابها:

– أما الخطاب الأول فقد أخفي في إنجيل بروتستنتي ضخم وحملته عربة سفر الأمس إلى مكان بعيد.

كان يتكلم في وضوح شديد محاولاً ذكر كل التفاصيل ليسمع أولئك الذين عساهم أن يكونوا كامنين في صوانين كبيرين من خشب الكابلي، لم يجرؤ على تفتيشهما. ثم استطرد:

– أما الخطابان الآخران فهما في طريقهما بالبريد إلى المكان الذي أرسل إليه الأول.

فذهلت وقالت:

– يا إلهي! ولكن لم كل هذه الاحتياطات؟

فسأل نفسه: لم أكذب عليها؟ ثم قصّ عليها كل ما خالجه من خوف فصاحت في لهجة تحمل الجنون أكثر مما تحمل الحب:

– ذلك إذن هو سبب الفتور في خطاباتك!

ولم يفطن إلى ما في حديثها من رقة، لأن مخاطبته بصيغة المفرد أذهلته، أو بددت

وساوسه على الأقل. وجرؤ على احتضان هذا الجمال الرائع الذي طالما بعثت صاحبته في نفسه كثيراً من التجلة والاحترام. فدفعته عنها في رفق هذه المرة. واستعان بذاكرته كما فعل في بيزانسون من قبل مع أماندا بينيه، وأخذ يصبّ في أذنيها بعض عبارات جميلة من هلويز الجديدة. فقالت وهى لا تصغى كثيراً إلى مايقول:

- إن قلبك قلب رجل، وأعترف لك أني أردت أن أتبين مقدار شجاعتك. إن شكوكك وعزمك على القيام بما طلبت منك لتدل على أنك أكثر إقداماً وشجاعة مما ظننت.

وبذلت مجهودا كبيراً في مخاطبته بصيغة المفرد، حتى شغلتها طريقة التحدث معه أكثر مما شغلها ما تقوله له، لأنها لم تعتد ذلك من قبل. إلا أن طريقة حديثها معه كانت لا تنم عن الحب، فلم يسرّ «چوليان» وذهل من أنها لا تشعر بشيء من السعادة. وقد أراد هو أن يرجع إلى عقله ليستوحيه سعادة يشعر بها. فرأى أن هذه الفتاة المتكبرة تقدره تقديراً شديداً، وقد فطرت على ألا تسوق المدح جزافاً؛ وساعده هذا التفكير على أن يرضي كبرياءه ويشعر بشيء من السعادة. لكن هذه السعادة لم تكن تضارع لذة روحية لقيها في بعض الأحيان عند «مدام دى رينال»؛ لأن عواطف «ماتيلد» لم يكن فيها شيء من الحنان في تلك اللحظات الأولى. لقد أرضى طموحه إرضاء كاملاً -وهو طموح بطبعه- وشرع يتحدث إليها مرة أخرى عن الذين تدور حولهم شبهاته، وعن الاحتياطات التي اتخذها ودفعه خياله إليها؛ ثم حاول وهو يتحدث أن يستغل الانتصار الذي ظفر به.

كانت لا تزال كبيرة الاضطراب شاعرة بالأسف على ما فعلت، ولكن سرها أن تجد موضوعاً للحديث. وتناول حديثهما طريقة اللقاء، فسر «چوليان» مرة أخرى من الفطنة والشجاعة اللتين أبداهما. كانا يعلمان أن لابد لهما أن يحذرا أناساً فطروا على الذكاء والحرص، فتانبو الصغير جاسوس ما في ذلك ريب، ولكن «چوليان» و«ماتيلد» لم يكونا أقل منهم حرصاً ومهارة. ثم هل هناك طريقة أجدى عليهما من أن يلتقيا في المكتبة ليتفقا على كل شيء؟ قال لها «چوليان»:

- في استطاعتي أن أذهب إلى أى مكان في القصر دون أن تحوم حولي الشبهات، وفي مقدوري أن أدخل مخدع المركيزة، دون أن تظن بي شيئاً. وكان على السائر أن يمر بغرفة المركيزة كي يصل إلى مخدع ابنتها، ولكن إذا فضلت «ماتيلد» أن يلقاها عن طريق السلم، فانه يتعرض لهذا الخطر الضئيل وقلبه يرقص من الفرح.

وغاظ «ماتيلد» منه وهي تنصت إلى حديثه، أن تسمعه يتكلم بلهجة المنتصر. فعجبت قائلة في نفسها: لقد أصبح إذا السيد المسيطر عليّ! فصارت فريسة لتأنيب شديد، وأوحى إليها عقلها أنها ارتكبت جنوناً وحماقة لا حد لهما. وخيل إليها أنها لو استطاعت أن تقضي على نفسها وعليه لفعلت، كان ينتابها شعور بالخجل الشديد والخفر المهدر فتحس ألماً قاسياً. إنها لم تفكر إطلاقاً في الحالة التي تنتابها الآن!

وأخيرا أخذت تقول في نفسها: على أنه يجب عليّ أن أتحدث إليه، فالتقاليد

تقضي بأن تتحدث الفتاة إلى عشيقها. ثم بدأت تكلمه، مدفوعة بالواجب لا أكثر ولا أقل، ففاض كلامها بحب وحنان، وإن خلت منهما لهجة الحديث؛ وأفضت إليه بكل ما اعتزمته في سبيله في هذه الأيام. كانت مصممة على أن تهبه نفسها إن استطاع الوصول إليها بسلم البستاني كما قضت مشيئتها. ولكنها قالت ذلك في هدوء كامل وأدب كثير. ولكن مثل هذه العواطف تلقى إلى الأحباب في غير هذه الصورة: إذ لا يزال لقاؤهما حتى الآن فاتراً إلى أبعد الحدود، جديراً بأن يقلب الحب كراهية؛ فياله من درس في الأخلاق تتلقاه فتاة طائشة! أتساوي هذه اللحظة أن تضيع مستقبلها؟

وسادت بينهما شكوك كثيرة يظنها من يراهما بنظرة عابرة أنها نتيجة كراهية شديدة، مادامت المرأة متحكمة في عواطفها بقوة إرادتها، سامعة نداء العقل معرضة عند نداء المشاعر. لكنها أخيراً أسلمته جوهرة عرضها وأصبحت له خليلة ظريفة. وأبدت من النشوة واللذة قدراً كانت تريد أن تظهره، ولم يكن هو ما تحسه في الواقع لأن الحب الجارف إنما كان مثلاً يحتذى أكثر مما كان حقيقة واقعة.

وقد اعتقدت «الآنسة» أنها تقوم بواجب نحو نفسها وعشيقها إذْ حدثت نفسها قائلة: هذا الشاب التعس أبدى شجاعة كبيرة، فمن حقه أن يكون سعيداً، وإلا كنت تافهة المسلك. على أنها ودت لو تخلصت من حالتها الراهنة، ولو تحملت في سبيل ذلك شقاء مقيماً. وعلى الرغم من اضطرابها الشديد كانت مسيطرة تماماً على ما تقول.

لم يفسد ليلتهما ندم ولا عتاب، تلك الليلة التي اعتبرها «چوليان» غريبة أكثر مما اعتبرها سعيدة. وأي بون شاسع يا إلهي بين ليلته تلك وبين ما استمتع به في أربع وعشرين ساعة قضاها في ڤريير! هذه الطرق الپاريسية الجميلة قد وجدت سبيلاً إلى إفساد كل شيء، حتى الحب. كان هذا حديث «چوليان» مع نفسه وكان مدفوعاً فيه بظلم شديد. وهذه هي الآراء التي شغلت تفكيره وهو قائم في أحد الصوانين الكبيرين المصنوعين من خشب الكابلي، دخله حين أحسا الحركة تدب في المسكن المجاور لمخدع «ماتيلد»، وهو مسكن المركيزة. وذهبت الفتاة مع أمها إلى الكنيسة، ثم شعر «چوليان» أن الوصيفات غادرن الغرفة، ففر من مخبئه في سهولة ويسر قبل أن يعدن ليتممن أعمالهن. وركب جواداً ليبحث عن العزلة في مكان بإحدى الغابات التي تجاور باريس، لأنه كان ذاهلاً أكثر مما كان سعيداً، بحيث كانت سعادته التي يشعر بها بين الفينة والفينة مثل السعادة التي تهبط على قلب ملازم أتى بعمل مجيد، فرقاه رئيسة دفعة واحدة إلى رتبة «الكولونل». شعر بأن مركزه قد سما سمواً كبيراً، فأصبح ما كان بعيد المنال بالأمس بين يديه الآن أو أقل من ذلك شأناً. ثم أخذت سعادة «چوليان» تزداد قليلاً قليلاً كلما ابتعد عن القصر وعن باريس.

أما عدم شعوره بالحب والحنان وما يشابه الحب والحنان، فذلك راجع إلى أن «ماتيلد» كانت مدفوعة في سلوكها معه بواجب تقوم به، وإن بدا ذلك غريباً. لم تجد جديداً في

ليلتها هذه، إذ حدث كل ما رسمته وتوقعته من قبل؛ فلم تشعر إلا بالخزى والألم بدل أن تحس السعادة التي تحدثت عنها القصص. وأخذت تسائل نفسها: أتراني أخطأت التقدير، فإنني لا أحس في قلبي أي لون من ألوان الحب له؟!

الفصل السابع عشر

سيف قديم

أريد الآن أن أكون وقوراً فقد حان وقت الجد، وأصبح
الضحك في أيامنا هذه يعد تفريطاً فى جانب الجد
وسخرية الفضيلة من الرذيلة تدعى جريمة.

دون جوان

لم تظهر «ماتيلد» في غرفة الطعام وقت الغداء، وذهبت في المساء إلى الصالون وبقيت فيه لحظة لكنها لم تنظر إلى «جوليان»، حتى عجب من مسلكها الغريب، لكنه قال في نفسه: أنا أجهل عاداتهم، وستفسر هي هذا تفسيراً واضحاً. على أنه كان مدفوعاً بحب استطلاع شديد، فأخذ يدرس تقاطيع وجهها حتى رأى في وضوح وجلاء أن فيه جفوة وشراً كانت ولا شك امرأة غير امرأة الليلة الماضية التي أظهرت من النشوة والسعادة ما لا يمكن أن يصدّق، وما لا يمكن أن يكون حقاً لأنه كان أكثر مما ينبغي.

وأظهرت له في اليومين التاليين نفس الفتور، كانت لا تنظر إليه، وكأنها لا تشعر بوجوده. فاستولى عليه قلق واضطراب لا حد لهما ولم يعد يفكر إطلاقاً في شعور الانتصار الذي ملك عليه نفسه في اليوم الأول. وأخذ يسائل نفسه: هل يعد مسلكها هذا رجوعاً إلى الفضيلة؟ ولكن هذه العبارة كانت مما يليق بالبرجوازيين، لا ب«ماتيلد» الجبارة واستطرد: إنها لا تؤمن بالدين في الحوادث العادية الأخرى التي تصادفنا في الحياة، بل تحب الدين لأنه يفيد مصالح طبقاتها فائدة كبيرة. ولكن ألا تدفعها رقتها إلى أن تؤنب نفسها تأنيباً شديداً على الجرم الذي ارتكبته؟ وقد اعتقد «جوليان» أنه أول عشيق عرفته «ماتيلد».

ولكنه في لحظات أخرى كان يقول: عليّ أن أعترف بأن ليس في مسلكها ما ينطوي على البساطة والسذاجة أو الرقة؛ لم أرها من قبل أشد جبروتاً منها الآن. فهل تحتقرني؟ إنها جديرة بأن تؤنب نفسها على ما فعلت من أجلي لأنني سيء النشأة حقير الأصل.

كانت الأوهام مسيطرة عليه، تلك التي تعلمها من الكتب ومن ذكريات ڤريير، وجعل يتتبع أباطيل خليلة رقيقة لم تعد تفكر في نفسها منذ أسعدت عشيقها، كان هو كذلك وكبرياء «ماتيلد» ثائرة عليه أشد ثورة. ولم يجد السأم إلى نفسها سبيلاً منذ شهرين فأصبحت لا تخافه كما كانت تخافه من قبل، ولهذا فقد «جوليان» في نظرها أكبر ميزة له دون أن يتسرب إليه أدنى شك من ذلك. واستولى عليها حزن قاتل كانت فريسة له في كل آن، وأخذت تقول: لقد فرضت على نفسي سيداً! إنه يتمسك بالشرف من حسن

حظي، ولكني إذا جرحت كبريا ء انتقم مني بأن يذيع سرّنا بين الناس. لم يكن لـ«ماتيلد» عاشق من قبل، وجرت العادة بأن نرى، في مثل هذا الظرف موجة من السعادة والحنان والرقة تغمر أكثر النفوس قسوة وجفوة، ولم تكن هي كذلك بل كانت فريسة لأشد الآرا ء مرارة وهولاً.

كانت تقول: إنّ له عليّ سلطاناً كبيراً، ما دام يتحكم فيّ بما يوحيه من تخويف، وفي استطاعته أن يعاقبني عقاباً صارماً، إذا أغضبته. وكان هذا الرأي وحده كفيلاً بأن يدفعها إلى إهانة «چوليان»، لأن الشجاعة من أقوى صفاتها، فهي تخاطر بحياتها دائماً، تضطرب تارة ويزول السأم الذي يستولي عليها في كثير من الحالات، وتلك نفسها فكرة، هي أن حياتها كلها رهينة المصادفة. وكانت في اليوم الثالث مصرة على ألاّ تنظر إليه، فتبعها بعد الطعام إلى حجرة البلياردو وإن كانت لا تريد، فغضبت غضباً شديداً، وقالت له:

- إنك تعتقد يا سيدي أنه قد صارت لك حقوق عليّ، ما دمت تريد أن تتحدث إليّ وأنا لا أريد، أليس كذلك؟ أتعرف أن ليس في العالم كله من جرؤ على أن يفعل ما تفعل؟

وكان حديث العاشقين ينطوي على السخرية؛ فقد كان كل منهما مدفوعاً بكراهية صاحبه دون أن يحس. فلا يحتمل ما يقوله الآخر، ولو أنهما متخلقان بأخلاق الطبقة الراقية، وسرعان ما وصل الأمر بينهما إلى أن يعلنا القطيعة في صراحة. قال لها «چوليان»:

- أقسم ألا أبوح بالسر أبداً، وأستطيع أن أقول: إنني لن أتحدث إليك، إذا كان كلامي يؤذي سمعتك، أو إذا كنت تشعرين بالندم على ما حدث. ثم حياها في احترام وانصرف.

عمل هذا في سهولة كأنه يقوم بواجب مفروض، لأنه كان واثقاً من أنه ليس مولعاً بها ولا محباً لها. ولا شك في أنه ما كان يحبها قبل ذلك بثلاثة أيام، ليلة أخفته في الصالون الكبير في مخدعها. ولكن سرعان ما تغير في نفسه كل شيء حين رأى أن أمرهما قد صار إلى القطيعة. وأخذت ذاكرته الجبارة ترسم من جديد كل ظروف الليلة التي قضاها معها. وتذكره بأدق التفاصيل، وإن لم يشعر بلذة في تلك الليلة. وفي الليلة التي أعلن فيها قرار القطيعة، كاد يجن حين ألفى نفسه مضطراً إلى أن يعترف بأنه يحب «الآنسة دى لامول».

وصارت نفسه ساحة لنزاع شديد حين اكتشف هذا، وتبدلت عواطفه تماماً. وبعد ذلك بيومين كاد يقبل المركيز دى كروازنوا ويبكي بين يديه، بعد أن كان يظهر له العزة والكبرياء. ثم أكسبه ما اعتاده من الألم نوراً أضاء بصيرته، فعزم على الرحيل إلى «لنجدوك»، وأعدّ حقيبته، وذهب إلى حيث عربات السفر.

وقد كاد يغشى عليه حين وصل إلى مكتب السفر فأُخبر بأنّ المصادفات العجيبة قضت بأن يكون له مكان في اليوم التالي في العربة الذاهبة إلى تولوز. فحجز هذا المكان وعاد إلى القصر ليعلن «المركيز» بعزمه على السفر.

كان «المركيز» قد خرج، فذهب «چوليان» إلى المكتبة منهوك القوى لينتظر عودته. ولكن ماذا أصابه حين وجد فيها «الآنسة دى لامول»؟ وقع بصرها عليه فتصنعت القسوة وبدت غاضبة الملامح، فظن أن الأمر جد خالص، وكان متضعضعاً من الألم مذهولاً من المفاجأة، فقال لها بلهجة رقيقة خرجت من أعماق نفسه: ألم تعودي تحبينني إذن؟

فترقرقت في عينيها دموع الأسف على نفسها وقالت:

– شدّ ما أحتقر نفسي لأنني فرطت في عرضي لأول قادم. فصاح «چوليان»: لأول قادم! ثم أسرع فأمسك بسيف قديم من سيوف العصور الوسطى كان في المكتبة كأثر من الآثار.

وكان «چوليان» معتقداً ساعة تحدث إليها أنه شديد الألم، ولكن ألمه زاد مائة مرة حين رآها تسكب دموع الندم. واعتقد أنه سيكون أسعد الناس لو أنه استطاع أن يقتلها. وجعل يخرج السيف الأثرى من غمده القديم ملاقياً في ذلك بعض الصعوبة فهبطت على «ماتيلد» في هذه اللحظة راحة وسعادة بهذا الإحساس الجديد، الذي لا عهد لها به من قبل، فتقدمت نحوه في كبرياء وقد جفّت دموعها المسفوحة.

وتذكر «چوليان» «المركيز دى لامول» فجأة، تذكر الرجل الذي يحسن إليه، فقال في نفسه، أأقتل ابنته! يا للعار! ثم استدار ليلقي السيف من يده. واستطرد يقول: لا شك أنها ستغرق في الضحك حين ترى هذه الحركة التمثيلية، وأعادت إليه هذه الفكرة هدوء نفسه. فأخذ ينظر إلى حد السيف القديم في عناية وإعجاب، كما لو كان يفتش عن بقعة من الصدأ، ثم وضعه في غمده، وعلقه من جديد في مسماره البرنزي المذهب وهو هادئ ساكن؛ وكانت حركاته جدّ بطيئة آخر الأمر فاستغرقت دقيقة؛ فأخذت الآنسة تنظر إليه في ذهول، وقالت في نفسها: لقد كنت على وشك أن أقتل بيد عشيقي!

وذكرتها هذه الفكرة بأحسن الأيام زمن شارل التاسع وهنرى الثالث. كانت واقفة تجاه «چوليان» لا تبدي حراكاً، وكان قد أعاد السيف إلى مكانه، وأخذت تنظر إليه بعينين لا ترى فيهما الكراهة. ويجب أن نعترف بأنها كانت مغرية في هذه اللحظة إلى أبعد حدود الإغراء، لأنها ولا ريب دمية پاريسية (وكان هذا هو الاعتراض الشديد الذي يبديه «چوليان» على نساء پاريس).

وأخذت تقول في نفسها: إني أشعر نحوه بشيء من الضعف، إنه يحس حقاً أنه أصبح سيدي ومولاي، وإلا ما استطاع أن يسدد إلي هذه الضربة في اللحظة التي كنت أتحدث إليه فيها بجد وصرامة. ثم ولّت الأدبار.

ورآها «چوليان» تجرى فقال في نفسه: يا إلهي! كم هي جميلة! إنها بعينيها تلك

التي كانت تعانقني بقوة منذ ثمانية أيام. وهذه اللحظات لن تعود أبداً! وما ذلك إلاّ من خطئي! لأنني لم أقدر عملها في حينه حق قدره، لم أقدر عملها الخارق الذي غمرني بلذة لا حد لها! فيجب إذن أن أقرر أنني فطرت على خلق فيه غفلة وسفاهة. ثم عاد «المركيز»، فأسرع «چوليان» يخبره برحيله. فسأله:

- إلى إين؟

- إلى لنجدوك.

- لا أوافق إذا سمحت، لأني أريد أن أكلفك القيام بعمل خير من ذلك وأكرم، وإذا قدِّر لك السفر فسيكون نحو الشمال. وإن شئت أن أستعمل المصطلحات الحربية نبهت عليك بعدم مغادرة القصر. إنك تضطرني ألاّ أتغيب عن القصر ساعتين أو ثلاث ساعات، وربما احتجت إليك بين لحظة وأخرى.

فحياه «چوليان»، وأنصرف دون أن يتكلم، وترك «المركيز» في ذهول شديد، لأن بطلنا كان في حالة لا تسمح له بالكلام. ثم ذهب إلى غرفته وأغلق عليه الباب، حيث يستطيع أن يبكي، في حرية واسعة، قسوة مصيره. قال في نفسه: لم أعد قادراً إذاً على الابتعاد عن هذا المكان! ويعلم الله كم يوماً يستبقيني فيها المركيز بپاريس. يا إلهي! ماذا سيكون أمري؟ وليس لي صديق أستطيع مشاورته: فالكاهن پيرار لا يتيح لي فرصة أتم فيها أول جملة أقولها له، والكونت ألتاميرا يقترح عليّ أن أشترك في مؤامرة من المؤامرات. ومع ذلك فأنا مجنون، نعم، أشعر بأنني مجنون! فمن ذا الذي يرشدني؟ وماذا سيكون أمري؟

الفصل الثامن عشر
لحظات قاسية

وإنها لتعترف لي بذلك! وتذكر في إسهاب أدق الظروف وأتفهها! إن عينها الجميلة تنظر إلى عيني، ويرتسم فيها الحب الذي تشعر به نحو غيري!

شيلر

سرّت «الآنسة دى لامول»، ولم تعد تفكر إلا في السعادة التي ملكت نفسها حين كانت على وشك أن تقتل. وأخذت تقول في نفسها: إنه جدير بأن يكون سيدي؛ لأنه جرؤ فهمّ بقتلي. فكم شاباً من الذين نلقاهم في المجتمع، نستطيع أن نصهرهم جميعاً ليقدروا على الإتيان بمثل حركته هذه، الصادرة عن شعور صادق؟ يجب أن أعترف بأنه كان رائع الجمال في اللحظة التي وقف فيها على المقعد؛ ليضع السيف في مكانه الأنيق الذي اختاره له النجار! لم يكن حظي من الجنون كبيراً حين أحببته. ولو عرضت عليها في هذه اللحظة طريقة مشرفة تعود بها سيرتها الأولى مع «چوليان»، لأقبلت عليه في لذة وسرور. أما «چوليان» فقد أغلق باب غرفته عليه، وكان فريسة لأشد الآلام: تعتريه آراء جنونية فيود لو ارتمى عند قدميها. ولو أنه انتقل بين الحديقة والقصر بطريقة تمكنه من انتهاز الفرص، بدل أن يعتزل كل من في المنزل، لأمكن أن يتبدّل حزنه الأليم سعادة تامة في لحظة واحدة.

غير أنه لو كان ماهراً لحالت مهارته بينه وبين الاتيان بهذه الحركة البديعة حين أخذ السيف، تلك الحركة التي خلعت عليه جمالاً كثيراً في نظر «الآنسة دى لامول». ولكنه ليس ماهراً، فقد ظلّ في غرفته نهاراً كاملاً. أما «ماتيلد» فقد أخذت تصور لنفسها تلك اللحظات القصيرة التي أحبته فيها، وندمت على فوات هذه اللحظات.

وتحدثت إلى نفسها قائلة: هذا الشاب التعس يرى أني لم أحببه إلا ابتداء من الساعة الأولى بعد منتصف الليل، حين صعد إلى غرفتي بالسلم، وقد حمل سلاحه في جيبه الجانبي، حتى الساعة الثامنة صباحاً. على أني لم أبدأ في التفكير في أنه سيصبح ذا سلطان مطلق عليّ إلا بعد ذلك بربع ساعة، وأنا أستمع إلى الصلاة في سانت ڤالير، وخيّل إليّ أنه سيُخضعني لطاعته بما يبثه في نفسي من رعب وتخويف.

وبعد العشاء، لم تفر «ماتيلد» من «چوليان» بل تحدثت إليه وحملته على أن يتبعها إلى الحديقة. فامتثل دون أن ينتبه إلى هذا الدليل المادي، ذلك أنها -على غير علم منها- استجابت لداعي الحبّ وأحست لذة كبيرة وهي تسير إلى جواره، وأخذت تنظر إلى يديه في شغف عظيم، وهما اليدان اللتان قبضتا على السيف في الصباح تريدان أن

تقتلاها.

لقد قضى هذا العمل وكل ماحدث بينهما على حديثهما القديم. وأخذت «ماتيلد» تكشف له عن قلبها شيئاً فشيئاً. وكانت تجد لذة كبيرة في هذا الضرب من الحديث، وأخبرته بما أحسته من قبل، للسيدين دى كروازنوا وكايلوس؛ وإن كان هواها لهما هوى عابراً. فصاح «جوليان» والغيرة الشديدة تفيض من عبرات هذا العاشق الموله:

- ماذا! والسيد دى كايلوس أيضاً! غير أنها أدركت أن الغيرة هي التي دفعته إلى ما قال، فلم تغضب.

وظلت تعذبه عذاباً شديداً، فقصت عليه أدق تفاصيل مشاعرها الماضية في صورة جذابة وفي لهجة صدق ومودة. ورآها تصور له ما كان يقع تحت بصرها، وتألم كثيراً وهي تحدثه حين وجدها تكتشف بعض دخائل نفسه. وتسلطت عليه نار الغيرة وأخذت تعذّبه عذاباً شديداً؛ لأن مجرد الشك في أن غريمه ينال بعض حبها أو يحظى ببعض عطفها، يؤلمه ألماً بالغاً، فما بالك به وهو يراها الآن تعترف له في إطناب، بما أوحته من هوى، وتحدثت إليه عن مشاعرها نحو الآخرين. لقد بلغ به الألم أقصى الغايات، لأنه أصبح يعبدها. وكم لقي جزاءه في هذه اللحظة على تلك الحركات التي تنطوي على الكبر، والتي كانت تصدر منه حين يتيه على كروازنوا وكايلوس! وكم أخذ يبالغ الآن على الرغم منه في صفاتهما الضئيلة! ثم كم كان مخلصاً في احتقاره لنفسه!

كان يراها جديرة بالعبادة، وأعجب بها إعجاباً لا سبيل إلى وصفه. وبينما كان يسير إلى جانبها كان يسترق النظر إلى يديها وذراعيها وقوامها المياس. وود أن يركع عند قدميها وقد سحقه الحب والألم ويصيح بها: رحمة بي! على أن هذه الغادة الرائعة الفذّة في كل شيء، إذا كانت تحبني الآن فستحب بعدي وعما قريب السيد دى كايلوس!

كان لا يشك في إخلاصها وصدقها في كل ما قالت له، وأرادت أن تزيد في ألمه، فقصت عليه حقيقة مشاعرها نحو كايلوس أيام أن كانت تحبه، قصّتها في صورة أوحت إليه أنها مازالت تكن له الحب، حتى رأى في وضوح وجلاء أن لهجتها تنم حقيقة عن الحب.

ولو أن رصاصا صُهر وصبّ في صدر «جوليان»، لكان عذابه أقل مما يلقاه الساعة وكيف السبيل إلى أن يعرف هذا الشاب التعس، وهو يلقى ما يلقاه، أنّ «الآنسة دى لامول» أخذت تستعيد في ذاكرتها هذا الحب الذي أحسته لكايلوس ولوز، ووجدت لذة في ذلك، لأنها تتحدث إليه هو وحده؟ وأحسّ بضيق شديد، وهو ينصت إلى اعترافها المطول عن حبها لأناس، وهما في نفس المكان الذي كان يجلس فيه منذ أيام تحت أشجار الزيزفون، ينتظر دقات الساعة الأولى صباحاً ليصعد إلى غرفتها. لا يستطيع الإنسان أن يتحمل من الألم أكثر من هذا المقدار.

وظل هذا الود القاسي ثمانية أيام كوامل. وكانت «ماتيلد» تبحث عنه تارة ولا تفر

من لقائه تارة أخرى وتتحدث إليه. على أن موضوع الحديث ما كان يتغير، فكانا كأنهما يجدان لذة قاسية ممضة في أن تتحدث إليه عن عواطفها نحو الآخرين، وحبها لهم: وذكرت له الخطابات التي كتبتها إليهم، وقصت عليه بعض ما فيها وقرأت بعض جملها. وفي الأيام الأخيرة بدت كأنها تنظر إليه في فرح ينطوي على الخبث. وكانت آلامه مصدر لذة كبيرة لها.

ويظهر لنا واضحاً أن «چوليان» ليس خبيراً بالحياة، وأنه لم يقرأ شيئا حتى القصص؛ ولو أنه كان أقل غفلة مما هو عليه؛ لقال لهذه التي يعبدها في هدوء تام حين أفضت إليه بما أفضت: عليك أن تعترفي بأني أنفرد بحبك من دونهم جميعاً، وإن كنت أقل شأناً من هؤلاء السادة.

لو أنه قال لها هذا لكان من المحتمل أن تشعر بالسعادة من أنه أدرك ما ترمي إليه، أو كان لجاحه -على الأقل- متوقفاً على ما يبديه من ظرف ساعة يقول لها هذا، وعلى حسن اختياره للمناسبة التي يختارها. لكنه قد خرج من هذا المأزق منتصراً على كل حال، بعد أن كادت «ماتيلد» تسأم من هذا الموقف، فقد حدث يوماً أن قال لها وهو فريسة للحب والألم:

- إنك لم تعودي تحبينني وأنا الذي أعبدك! فكان هذا التصريح أشد حماقة ارتكبها، لأنه قضى في طرفة عين على اللذة التي كانت تلقاها «الآنسة دى لامول» في الإفضاء إليه بما في نفسها. وبدأت تعجب من أن لم تجرحه كل هذه القصص التي قصتها على مسامعه، حتى أضحت على وشك الاعتقاد بأنه ما كان يحبها، قبل أن يفضي إليها بهذا التصريح المنطوي على الحمق والبلاهة، وكانت تقول في نفسها: لا ريب أن كبره قد قضى على حبه إياي. إنه ليس بالرجل الذي يرى نفسه خيراً من كايلوس ولوز وكروازنوا، فهو يعترف بأنهم جميعاً أفضل منه، لا، لن أراه بعد الآن راكعًا عند قدميّ!

كان «چوليان» في الأيام الماضية يتحدث إليها في سذاجة، مثنياً في إخلاص على صفات هؤلاء السادة وفضائلهم، كان يبالغ كثيراً فيما يقول. ولم يخف هذا على «الآنسة دى لامول»، وقد عجبت منه، لكنها لم تدرك السر في ذلك. غير أن «چوليان» كان ينشد السعادة وهو يثني على غريم يعتقد أن قلب حبيبته لا يزال يضمر له حباً.

على أن هذه العبارة الصريحة إلى أبعد الحدود، والتي تنطوي على الغفلة، غيّرت الموقف كله في الحال، فقد أصبحت «ماتيلد» واثقة من أنها محبوبة، فاحتقرته تماماً.

كانت تتنزه معه ساعة أفضى لها بهذا التصريح السفيه، فغادرته في الحال، وفي نظراتها الأخيرة التي ألقتها عليه احتقار شديد، وعادت إلى الصالون، ولم تنظر إليه نظرة واحدة طول السهرة. وجاء اليوم التالي والاحتقار يملأ قلبها، ولم تعد تفكر في هذه الحركة التي أتاها، والتي رفعته في عينها ثمانية أيام كاملة، وجعلته صديقها المقرب. لقد أصبحت الآن لا تطيق أن تنظر إليه، واستولى عليها شعور بالاشمئزاز منه، وكرهت كراهية

شديدة أن تملأ منه بصرها إذا وقعت عيناها عليه.

لم يستطع «جوليان» أن يدرك شيئاً مما يدور في نفسها منذ ثمانية أيام، لكنه أدرك ما تنطوي عليه نفسها من التحقير. فرأى ألا يظهر أمامها إلاً قليلاً، وألا ينظر إليها إذا ما التقيا. ثم عزّ عليه ألاّ يلقاها، وشعر بألم مرير من حرمانه منها، وأحسّ أن شقاءه قد زاد كثيراً عن ذي قبل، فقال: إن شجاعة الرجل لا تزيد على ذلك.

وأخذ يقضي أيامه في نافذة الطبقة العليا في القصر؛ مغلقاً مصراع النافذة في عناية شديدة، وناظراً إلى «الآنسة دى لامول» حين تسير في الحديقة.

وماذا كان أمرها حين تتنزه بعد الطعام هناك مع كايلوس ولوز وغيرهما من الشبان الذين اعترفت له بأنها كانت تحبهم من قبل؟؟ وكان «جوليان» يشعر حين يراها بألم شديد، فكم من مرة كاد يصيح، وأصبحت هذه النفس القوية الجريئة مضعضعة خائرة.

وكانت كل فكرة لا تمت بصلة إلى «الآنسة دى لامول»، تعدّ بغيضة إلى نفسه، ولم يعد قادراً على أن يكتب أسهل الخطابات، حتى قال له «المركيز» يوماً: إنك لمجنون.

فاضطرب «جوليان» لأن «المركيز» قد كشف أمره، وادعى أنه مريض فصدقه «دى لامول» في كل ما قاله. وأخذ من حسن حظه يداعبه وقت العشاء متحدثاً عن رحلته المستقبلة؛ فادركت «ماتيلد» أنها ربما كانت طويلة الأمد. وكان «جوليان» منذ أيام حريصاً على أن يفرّ منها، وحاول الشبان الذين كان لهم من الصفات والمزايا ما حرمه ذلك الشاب الشاحب العبوس أن ينتزعوا «ماتيلد» من أحلامها، فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلاً.

كانت تقول في نفسها: إن الفتاة العادية تبحث عن بغيتها بين هؤلاء الشبان الذين ترمقهم الأبصار في كل الصالونات، لكن الفتاة الممتازة في الخلق والعبقرية، لا تنزل إلى هذا المستوى العادي. ستتجه إلى الأنظار دائما حينما أكون رفيقة رجل ك«جوليان»، لا ينقصه إلاّ المال، الذي أملك منه الكثير، ولن أصبح في الحياة شيئاً مهملاً. لن أخشى دائماً قيام الثورات، كما تخشى ذلك بنات عمومتي اللائي يخفن العامة كثيراً لا يجرؤن على تأنيب سائق عربة يسيء معاملتهن، أما أنا فواثقة من أنني سألعب دوراً خطيراً هاماً، لأن الرجل الذي اخترته شريكاً في حياتي، يتصف بالخلق الطيب وبالطموح الشديد. ثم ماذا ينقصه؟ الأصدقاء والمال؟ سأتيح له الأصدقاء وسأمنحه المال. ولكن عقلها كان يجعل من «جوليان» شخصاً وضيعاً، تضطره إلى أن يحبها متى شاءت.

الفصل التاسع عشر

أوپرا بوف

كم يشبه ربيع الحب هذا، تلك البهجة الخادعة ليوم من أيام أبريل ؛ تشرق فيها الشمس بكل جمالها. ثم لا تلبث سحابة أن تخفي معالم اليوم.

شكسبير

كانت «ماتيلد» مشغولة بالتفكير في المستقبل، وبالدور العجيب الذي تطمع في أن تقوم به، وأخذت تندم على ما فرط منها من مناقشات جافة مع «چوليان»، وأحاديث تتناول ما وراء الطبيعة كثيراً ما كانت تعرض لها إذا تحدثت إليه. لقد سئمت الأفكار السامية، وكانت تأسف أحياناً على فوات لحظات السعادة التي لقيتها بجواره، على أن هذه الذكريات الأخيرة شابها بعض الندم، وكثيراً ما كانت تلقى العذاب الأليم من هذه الذكريات.

كانت تقول في نفسها: إذا صحَّ أن لكل إنسان ناحية ضعيفة، فمن واجب فتاة مثلي ألا تنسى ما كتب عليها إلاَّ من أجل رجل ممتاز؛ لن يقال: إن شاربه الجميل هو الذي سحرني، ولا رشاقته وهو يركب جواده هي التي فتنتني، ولكن سحرني منه آراؤه العميقة عن مستقبل فرنسا، وأفكاره عن مشابهة الأحداث السيئة التي ستقع لنا، للثورة التي قامت في إنجلترا عام ١٦٨٨. وكثيراً ما كانت تواجه الندم الذي يلاحقها فتقول: لقد أغريت، فيالي من امرأة ضعيفة! ولكني على الأقل لم أضل، ولم تخدعني المظاهر الخارجية التي تؤثر في قلوب الدمى.

وإذا شبت ثورة فلم لا يلعب «چوليان سورل» فيها دور رولان، وأقوم أنا بدور مدام رولان؟ إني أفضل هذا الدور علي دور مدام دى ستايل: إن الانحلال الخلقي سيكون عقبة في عصرنا هذا. لا شك أنني لن آلام إذا سقطت مرة ثانية، ولكنني إن فعلت متّ من الخجل.

لم تكن أحلامها كلها خطيرة كالقدر الذي نقلناه من أفكارها. كانت تنظر إلى «چوليان»، فتجد أعماله جميعاً تنطوي على ظرف كبير. وكانت تحدث نفسها: لا شك أنني توصلت إلى القضاء على كل فكرة في نفسه، ترمي إلى أن تكون له أدنى حقوق عليَّ. لقد كانت هيئته وهو يدلي إليَّ بهذا التصريح الغرامي منذ ثمانية أيام، تدل على الألم والحب الشديد، وتؤيد قولي في أن ليس له عليَّ حق من الحقوق ؛ وينبغي أن أعترف بأن مسلكي كان خطأً لأنني غضبت من عبارة فيها احترام شديد وفيها حب عنيف.

ولِمَ أغضب؟ ألست زوجته! لقد كانت عبارته طبيعية، ولابد لي من الاعتراف بأنه

كان ظريفاً. إنه لا يزال يحبني على الرغم من المناقشات الكثيرة التي دارت بيني وبينه، وكنت قاسية عليه حين اعترفت له بأنني أحببت بعض هؤلاء الشبان الذين يغار منهم، على أن هذا الحب إنما دفعني إليه سأم الحياة التي كنت أحياها. آه! ليته يعلم أنه لا خطر عليه منهم! وليته يعلم أنني أفضله عليهم، وأنهم جميعاً صور متطابقة، يشبه بعضهم بعضاً!

كانت مستغرقة في أفكارها، فأخذت تخطط بالقلم كيفما اتفق على ورقة من مجموعة صورها. ثم نظرت فرأت أنها أتمت صورة جانبية ذهلت من رؤيتها ،وأعجبت بها إعجاباً كبيراً، فقد كانت الصورة تشبه «چوليان» شبهاً تاماً. ففرحت كثيراً وصاحت قائلة: إنه صوت السماء! وإنه من معجزات الحب، وقد رسمت صورته من حيث لا أدري.

ثم فرت إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب، وحاولت أن ترسم صورة له بصفة جدية وبمهارة، ولكنها لم تفلح؛ لأن الصورة الجانبية التي رسمتها المصادفة كانت تشبهه أكثر من الأخرى، وسرت بها ماتيلد ورأت فيها برهاناً قاطعاً على الحب العميق.

ولم تترك مجموعة الصور إلا في ساعة متأخرة حين استدعتها المركيزة لتذهب إلى الأوبرا الإيطالية. ولم تطرأ عليها في هذه اللحظة إلا فكرة واحدة ملكت نفسها، وهى أن يقع نظرها على «چوليان»، فتطلب من أمها أن يرافقهما، لكنها لم تصادفه، ولم يكن معهما في المقصورة إلا أشخاص عاديون. وظلت ماتيلد طول الفصل الأول تحلم بالرجل الذي أحبته حباً ملك عليها قلبها؛ أما في الفصل الثاني فقد سمعت مقطوعة غنائية عن الحب، تصحبها موسيقى بديعة جديرة بسيما روزا. فأثرت في نفسها أثراً بليغاً، وكانت البطلة تغني قائلة: يجب أن أعاقب على شدة حبي إياه، إني لأهيم به وأعبده!

سمعت «ماتيلد» هذه الأغنية الرائعة، فلم تعد تفكر في أي شيء في العالم. كانوا يتحدثون إليها، ولكنها لا تجيب ؛ ولامتها أمها، فلم تستطع أكثر من أن تنظر إليها. كانت روحها تحلق بعيداً عمن ترى في حمية شديدة وحب قوي، وانتابتها نفس المشاعر التي ملكت چوليان منذ بضعة أيام من أجلها هي. كانت الأغنية تنطوي على ظرف غير محدود وخيل إليها أن الحكمة التي تنطق بها الأغنية تنطبق على حالتها تماماً، فشغلت بها في اللحظات التي كانت لا تفكر فيها في «چوليان» بطريقة مباشرة. ودفعها حبها للموسيقى أن تكون في تلك الليلة كما كانت «مدام دى رينال»، دائماً، وهي تفكر في «چوليان». إن الحب الذي مصدره العقل أكثر فطنة من الحب الحقيقي ما في ذلك ريب، ولكنه لا يكون قوياً إلا في بعض اللحظات؛ إنه يعرف نفسه حق المعرفة، ويحكم دائماً على نفسه، ولا يضل الفكر لأن الفكر هو الذي خلقه.

ولما عادت إلى المنزل، لم تستمع إلى قول أمها، وادعت أنها محمومة، وقضت شطراً من الليل تردد على معزفها الأغنية التي سمعتها. أخذت تغني عبارات هذا اللحن الجميل الذي ملك عليها نواحي نفسها: ... Devo Punirmi, devo Punirmi Se troppo amai
يجب أن أعاقب على فرط عبادتي له،

إني أهيم به وأحبه حباً عميقاً ...

ثم كانت نتيجة هذه الليلة الجنونية أن ظنت «ماتيلد» أنها انتصرت على حبها.

(ستسيئ هذه الصفحة إلى المؤلف التعس، إساءة بالغة لأن النفوس البليدة ستتهمه بعدم التحفظ والاحتشام. وافتراض وجود فتاة واحدة تتأثر بحركات جنونية تفسد خلق «ماتيلد»، لا يضير الباريسيات اللائي يزدهرن في الصالونات. على أن هذه الشخصية من خلق الخيال، وقد روعي فيها إخراجها من العادات الاجتماعية التي تطبع حضارة القرن التاسع عرش بطابع رفيع. واللائي اشتركن في مراقص هذا العام من الفتيات، لا ينقصهن العقل ولا تعوزهن الفطنة. وأنا لا أعتقد أنهن قد يتهمن بإظهار الاحتقار الشديد للثراء العريض أو الخيل أو الأراضي الجميلة أو لكل ما يكفل مركزاً ممتازاً لصاحبه في الحياة. ونحن لا نؤمن بأن هذه المزايا تنطوي على السأم فحسب، فهي عادة بيت القصيد لرغبات يسعى إليها دائماً، ولو وجد في القلوب حب لكان لها.

وليس الحب هو الوسيلة لجلب المال لشبان يمتازون ببعض العبقرية مثل «چوليان»، إنهم يرتبطون بعصبة سياسية ارتباطاً قوياً، وحينما يثرى هذا الحزب، تتساقط عليهم خيرات المجتمع. وويل للمتعلم الذي لا ينتمي إلى جماعة من هذه الجماعات، فهو يلام حتى على ما يصيبه من نجاح تافه ضئيل، وينتهي به الأمر إلى أن تنتصر عليه الفضيلة العامة فتسلبه ماله. ومع ذلك فالقصة يا سيدي مرآة ينعكس فيها كل ما في الطريق العام، فهي تارة تعكس زرقة السماء، وتارة تعكس الوحل الذي يجلّل الطريق. أما الرجل الذي يحمل المرآة فأنت لا تتردد في اتهامه بأنه لا يرعى الأخلاق؛ لأن مرآته تريك الوحل، وأنت تتهم المرآة! أولى بك أن تتهم الطريق العام الذي جلّلته الأوحال، بل أولى من ذلك وأصح أن تتهم مفتش الطرق الذي ترك الماء يأسن، فتراكمت بسببه الأوحال. وعلى هذا فمن المتفق عليه أن خلق «ماتيلد» لا يوجد في عصرنا الذي يرعى الحذر والفضيلة. ولا أحب أن أستمر في سرد حماقات هذه الفتاة).

وظلت «ماتيلد» طول اليوم التالي ترقب المناسبات؛ لتتأكد من أنها انتصرت على حبها الجنوني. وكان أهم ما يشغلها أن تأتي من الأعمال ما يغضب «چوليان» ؛ ولكنها لم تفتها أي حركة من حركاته.

أما «چوليان» فكان بائساً كل البؤس مضطرباً أشد الاضطراب، فلم يدرك شيئاً من مناورات هذا الحب المعقد، ولم يفطن إلى ما يدور في نفسها من إكبار لشخصه: لقد كان فريسة، ولم يبلغ به الألم من قبل ما بلغه الآن من عذاب أليم. ولم تكن أعماله تخضع لفطنته إلا قليلاً، ولو أن فيلسوفاً محزوناً قال له: «فكّر في أن تنتهز هذه الميول التي في صالحك بسرعة: لأن هذا اللون من الحب العقلي الذي نراه في پاريس قلبٌ، لا يدوم على حال واحدة أكثر من يومين.» لو أن هذا الفيلسوف قال له ذلك، ما فهم «چوليان» ما يرمي إليه. وعلى الرغم من أنه ذو حمية وحماسة، فهو يحافظ على الشرف ويتمسك به. وكان

الكتمان أول واجب عليه؛ وقد قدره حق قدره. ولو أنه طلب المشورة، فأفضى بآلامه لإنسان لشعر بسعادة تعادل سعادة التعس الذي يخترق الصحراء في شدة القيظ فتمطره السماء ماء عذباً كثيراً. لكنه أدرك الخطر الذي يتهدده إن كشف عن دخيله نفسه، وخشي أن يذرف الدموع بين يدي سائله الذي يحب أن يعرف كل شيء، فآثر أن يبقى في غرفته بمعزل عن الناس.

رآها تتنزه في الحديقة وقتاً طويلاً، فمكث إلى أن غادرتها ثم نزل هو إليها؛ واقترب من شجرة ورد كانت قد اقتطفت منها وردة. وكان الليل شديد الظلام، وفي استطاعته أن يطلق لآلامه العنان ولا يخشى أن يراه أحد. وكان يؤمن بأن «الآنسة دي لامول» تحب أحد الضباط الذين كانت تتحدث إليهم في مرح شديد. لقد أحبته هو كذلك ولكنها كانت تشعر بوضاعته.

وأخذ يقول في نفسه ودلائل الاقتناع بادية عليه: إن مؤهلاتي ضئيلة في الواقع إلى أبعد حد! لست إلاّ رجلاً لئيماً، دنيئاً، مملاً في نظر الآخرين، ولا أحتمل في نظر نفسي. لقد زهد زهداً شديداً في مزاياه وفي كل شيء أحبه من قبل كثيراً، وكان خياله وهو في تلك الحالة، خيالاً معكوساً وقد أخذ يحكم على الحياة بهذا الخيال. وهذا خطأ يقع فيه الرجل الممتاز.

فكر مرات عديدة في الانتحار، وظهر له هذا الرأي في صورة جذابة، لأن فيه راحة لذيذة، فكان مثل كوبة من الماء المثلج تقدم للمسافر التعس الذي يحرقه الظمأ في مجاهل الصحراء. ولكنه سرعان ما صاح قائلاً: سيزيد موتي من احتقارها لي: فأي ذكريات هذه التي أتركها بعد مماتي!

وحينما يصل المرء إلى مثل هذه الحالة من الألم والشقاء، فإنه لا يجد مأوى له إلا شجاعته! ولكن «جوليان» لم تسعفه المواهب في أن يقول: يجب أن أتذرع بالجرأة والإقدام؛ ثم رآها تطفيء النور وهو ينظر إلى نافذتها، فاستعاد ذكريات هذه الغرفة البديعة التي لم يرها -مع الأسف الشديد- إلا مرة واحدة في حياته! ولم يستطع أن يستخلص خياله مما يدور فيها حتى دقت الساعة الأولى ؛ وسمع دقاتها فقال: سأصعد إلى الغرفة بالسلم ولو لحظة قصيرة.

وتتابعت عليه آراء سديدة وأسباب معقولة كقبس النور، فأخذ يقول: هل في المقدور أن أكون أشد تعاسة مني الآن! ؟ ثم جرى إلى السلم فوجد البستاني قد ربطه بسلسلة، فاستعان على قطعها بأحد مسدساته الصغيرة، وكان يشعر في ذلك الوقت بقوة خارقة، فلوي حلقة السلسلة التي تربط السلم في بضع دقائق، ثم حمله ووضعه إلى نافذة «ماتيلد».

هل ستغضب مني، أو تزدريني؟ هذا كله لا يضيرني. سأقبلها القبلة الأخيرة ثم أصعد إلى غرفتي أقتل نفسي. ستلمس شفتاي وجهها قبل أن أموت؟

ثم صعد إليها في سرعة كبيرة، وطرق مصراع النافذة؛ وبعد لحظات سمعت «ماتيلد» الطرقات، فأرادت أن تفتح النافذة، ولكن السلم حال دون ذلك: فتعلق «چوليان» بالمزلاج الحديدى الذي تفتح به النافذة، مخاطراً بحياته، ثم هزّ السلم هزة عنيفة فنقله قليلاً من مكانه. ثم قفز داخل الغرفة أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. ورأته «ماتيلد» فارتمت بين ذراعيه قائلة: أهو أنت إذاً!

كيف السبيل إلى وصف سعادة «چوليان»؟ أما «ماتيلد» فكانت سعادتها تعدل سعادته. قالت وهي تضمه بين ذراعيها ضماً قوياً يكاد يخمد أنفاسه:

– عاقبني على كبريائي الشديدة؛ إنك سيد، وأنا عبدة لك، يجب أن أركع أمامك؛ لأني أردت أن أثور عليك. ثم تركت ذراعيه لتجثو عند قدميه. وغمرتها السعادة والحب فاستطردت تقول. نعم، أنت مولاي وسيدي، تحكم فيّ كيفما شئت، وعاقب أمتَك عقاباً صارماً حين تحدثها نفسها بأن تثور عليك أو تعصي لك أمراً.

ثم انتزعت نفسها من بين ذراعيه، وأوقدت شمعة، ثم أرادت أن تقص كل شعرها الذي يغطى جانباً من رأسها، فحال بينها وبين ذلك، ووجد مشقة كبيرة فيما فعل، فقالت له:

– أريد أن أتذكر دائماً أني خادمتك: وإذا أضلتني هذه الكبرياء الكريهة مرة أخرى، فلوّح لي بهذا الشعر وقل لي: لم تعد المسألة بيننا الآن حباً، ولست أبالي بما يدور في نفسك في هذه اللحظة، لقد أقسمت على طاعتي، فتمسكي بالشرف، وأطيعيني، والحكمة تفرض علينا ألا نعرض لوصف هذا الضلال البعيد، وتلك السعادة البالغة.

وكانت شجاعة «چوليان» تعادل سعادته، وحين رأى نور الفجر يبزغ على أعلى المداخل في الناحية الشرقية من الحديقة، قال لها: يجب أن أغادر الغرفة بالسلّم كذلك، وإن التضحية التي أقدم عليها لهي جديرة بك، إني لأحرم نفسي من سعادة بضع ساعات، وهي ألذّ سعادة تتذوقها روح بشرية، إنها لتضحية من أجل سمعتك؛ لو أنك عرفت ما يدور في قلبي، لأدركت جسامة ما أقدم عليه. هل ستظلين لي دائماً كما أراك في هذه اللحظة؟ ولكن الشرف استولى عليه، فقال لها: يجب أن تعلمي أن الشكوك لم تتجه إلى اللصوص بعد لقائنا الأول. فقد أقام «المركيز» حرساً في الحديقة، وأصبح السيد دى كروازنوا محاطاً بجواسيس، يعلمون ما يفعله في كل ليلة.

فضحكت ضحكة عالية، فاستيقظت أمها وإحدى وصيفاتها على إثر ضحكتها؛ ثم حدثتاها من خلف الباب. فنظر «چوليان» ورآها وقد اصفر لونها وهي تؤنب الخادمة، ولم تشأ أن تجيب على حديث أمها، فقال لها:

– لو أنهما فتحتا النافذة لرأيتا السلم!

واحتضنها مرة أخرى، وأسرع إلى السلم فانزلق فوقه بأسرع مما لو كان ينزل درجاته، وفي لحظة واحدة كانت قدماه على أرض الحديقة. وبعد ثلاث ثوان، كان السلم في موضعه

في ممر أشجار الزيزفون، فسلم شرف «ماتيلد». ثم انتبه «چوليان» إلى نفسه فوجد الدماء تنزف منه، لأنه كان شبه متجرد من ثيابه. لقد جرح وهو ينزلق نازلاً على السلم في غير حذر.

وردت عليه السعادة التي غمرته، صلابة خلقه وقوته؛ حتى لو أن عشرين رجلاً هاجموه في هذه الساعة، لوجد لذة كبيرة في دفعهم عنه. لكنه لحسن الحظ لم تتعرض لشيء من ذلك شجاعته الحربية، ولم توضع في موضع التجربة.

ووضع السلم فى موضعه الأصلى ثم أعاد السلسلة التي تربطه ؛ ولم ينس أن يزيل الآثار التى تركها السلم في ممر النباتات الغريبة من تحت نافذة ماتيلد. وجعل يتحسس الأرض الطرية في الظلام ليتأكد من أن جميع الآثار قد زالت تماماً، فشعر بشيء يسقط فوق يده، فلما أمسكه وجده خصلة كبيرة من شعر ماتيلد، قصتها ورمتها إليه، وكانت لا تزال في النافذة، ثم قالت له في صوت عال:

- هذا ما ترسله إليك خادمتك دليلاً على الطاعة الأبدية. ولن أعمد بعد ذلك إلى الاعتماد على عقلي، فكن سيداً لي.

فأحس «چوليان» أنه قد غلب على أمره، وكاد يذهب ليعيد السلم ويصعد إليها مرة أخرى؛ ولكن عقله تغلب عليه. ولم يكن الدخول من الحديقة إلى القصر أمرا سهلاً يسيراً. وقد تمكن من أن يكسر باباً من أبواب القبو، فلما أصبح داخل المنزل، كسر باب غرفته دون أن يحدث جلبة أو ضوضاء. وقد دفعه الاضطراب والعجلة إلى أن ينسى في غرفة ماتيلد كل شيء حتى مفتاح بابه الذي كان في جيب ثوبه. فأخذ يقول: لعلها لا تنسى أن تخفي الآثار التي تركتها! وكان سعيداً كل السعادة، ولكن التعب غلبه، والشمس تبزغ من خدرها وقت الصباح، فاستسلم لنوم عميق حتى دق ناقوس الغداء، فاستيقظ متثاقلاً وذهب إلى غرفة الطعام على كره. ثم أتت «ماتيلد» بعد قليل فرأى الحب يشع من عيني هذه الفتاة الرائعة الجمال، المحاطة بالإجلال والإكبار، فشعر بسعادة أرضت غروره، ولكن الحذر عاوده فدب في نفسه الخوف.

وزعمت «ماتيلد» أن لم يكن لديها من الوقت ما يكفى لتصفيف شعرها. وقد نظمته بطريقة تسمح لچوليان أن يرى من أول نظرة جسامة التضحية التي ضحتها من أجله، حين قصت شعرها في الليلة الماضية. لقد قصت جانباً كبيراً من شعرها الأشقر الجميل، بحيث لم تترك منه إلا ما يقرب من نصف بوصة. ولو أن وجهها الوسيم كان يفسده شيء، ما أحجمت «ماتيلد» عن عمله من أجل الحبيب.

وكانت كل حركاتها أثناء الطعام تنم عما يدور في نفسها من حماقات شديدة، بحيث يخيل إلى الناظر أنها أخذت على نفسها أن تكشف للناس جميعاً عن حبها الجنوني لچوليان. لكن لحسن الحظ كان «المركيز دى لامول» والمركيزة مشغولين بالحديث عن إنعامات جديدة بالأوسمة الزرقاء، ولم يكن اسم السيد دى شون من الذين أنعم عليهم.

وفي نهاية الوجبة تحدثت «ماتيلد» إلى «چوليان» فنادته بقولها: يا مولاي. فالتهب وجهه بحمرة الخجل.

لم تبق وحدها لحظة واحدة في ذلك اليوم، ولسنا ندري ما إذا كان ذلك قد وقع مصادفة، أو كان من تدبير المركيزة دى لامول. وفي المساء بينما كانت في طريقها إلى الصالون وجدت لحظة وهي تغادر غرفة الطعام فقالت لچوليان:

– لقد قررت والدتي أن تقضى إحدى الوصيفات الليل كله معي في مخدعي، فأرجو أن تصدقني ولا تعتقد أنني أتعلل.

ثم انقضى اليوم كأنه كان لحظة، وشعر «چوليان» بسعادة كبيرة تغمره، وفي الساعة السابعة من صباح اليوم التالي، ذهب إلى المكتبة على أمل أن تتفضل «الآنسة» فتذهب لتلقاه، وكان قد كتب لها خطاباً طويلاً. ولكنه لم يرها إلا بعد ذلك بساعات طويلة. رآها وقت الغداء، وقد صففت شعرها في عناية شديدة، مخفية ما جُزَّ منه في مهارة وفن. ونظرت إليه مرة أو مرتين نظرات مهذبة هادئة، لم يقرأ «چوليان» فيها ماناداته به من قبل، حين دعته بقولها: يا سيدي. فذهل ذهولا شديداً حتى لم يقدر على التنفس، لأنها ندمت على ما فعلته من أجله أشد الندم.

لقد فكرت في الأمر تفكيراً هادئاً ناضجاً، فهداها التفكير إلى أنه إذا لم يكن عادياً جداً، فهو على الأقل ليس ذا أصل كريم فيستحق هذه الأعمال الجنونية التي أقدمت عليها من أجله. وعلى الجملة فقد كانت لا تفكر في الحب في يومها هذا، لأنها كانت متعبة من الحب.

أما «چوليان» فقد كان ما يضطرم في قلبه أشبه شيء بما يضطرم في قلب طفل في السادسة عشرة من عمره، استولى عليه شك قاتل، وذهول وقنوط أثناء هذه الوجبة التي خيل إليه أنها دامت دهراً طويلاً.

ولم يكد يغادر المائدة في وقار وتؤدة، حتى أسرع إلى حظيرة الخيل ووضع السرج بنفسه على جواده، وركبه ثم استحثه على العدو، وكان أخوف ما يخافه أن يظهر الضعف فيلحقه الذل والهوان. كان الجواد يركض به في غابة ميدون، وهو يقول: يجب أن أقتل قلبي، بما أجرُّه على جسمي من التعب والنصب، ماذا فعلت؟ وماذا قلت حتى تعرض عني وتقابلني بهذا الصدود؟ ثم أخذ يقول وهو يعدو إلى القصر: يجب ألا أقول اليوم شيئاً، فليمت جسمي كما ماتت نفسي. وقد أصبح «چوليان» جسداً يتحرك لا أكثر ولا أقل.

الفصل العشرون

الزهرية اليابانية

لم يدرك قلبه أول الأمر مقدار شقائه؛ لقد كان يغلب عليه الاضطراب أكثر من التأثر. ولكن كلما ثاب إليه رشده، زاد إحساسه بهوة الآلام التي يتردى فيها. وأصبحت لذات الحياة كلها لهواً وعبثاً بالنسبة إليه فأعرض عنها، ولم يعد يشعر إلا بالقنوط الشديد الذي يكلله. ولكن ما قيمة الحديث عن الألم الجسماني؟ وأي قيمة للالم الذي يحسه الجسم اذا ووزن بما يلقاه من ألم؟

چان پول

ودق جرس العشاء، فأسرع في ارتداء ملابسه، ودخل الصالون، فألفى «ماتيلد» ترجو أخاها والمركيز دى كروازنوا ألا يذهبا إلى سورن ليقضيا السهرة عند المرشالة مدام دى فرڤاك.

وكان من العسير أن تكون أكثر فتنة وظرفاً معهما مما كانت عليه تلك الليلة. وبعد العشاء أتى السادة دى لوز، ودى كايلوس وكثيرون من أصدقائهما. وكان يخيل إلى من يرى «الآنسة دى لامول» أنها عادت سيرتها الأولى فأصبحت الصداقة الأخوية قريبة إلى قلبها، كما رجعت إلى التقاليد الحقة. وعلى الرغم من أن الجو كان بديعاً في ذلك المساء، فقد أصرت على ألا تذهب إلى الحديقة؛ وأرادت ألا تبتعد هي ومن معها عن الوثيرة التي جلست عليها المركيزة دى لامول. وأصبحت الوثيرة الزرقاء محوراً التف حوله الشبان كما كانوا يفعلون أيام الشتاء.

كانت «ماتيلد» مغيظة من الحديقة، أو كانت تبعث في نفسها مللاً شديداً، لأنها مرتبطة بذكريات «چوليان». وإن الألم ليضعف الفطنة، من أجل ذلك ارتكب بطلنا حماقة حين ذهب ووقف بجوار ذلك المقعد الصغير المصنوع من القش، الذي كثيراً ما شهد من قبل، ما أصابه چوليان من نجاح كبير. لم يلتفت إليه أحد، ولم يخاطبه إنسان، وكأنهم لم يشعروا بوجوده، وحتى أصدقاء الآنسة دى لامول الذين كانوا على مقربة منه، عمدوا إلى أن يديروا ظهورهم إليه، أو أنه ظن ذلك على الأقل. فأخذ يقول في نفسه: إنه كسخط عام من البلاط. ثم أراد أن يتفرس في أولئك الذين يحاولون أن يحتقروه.

كان عم السيد دى لوز يشغل في بلاط الملك مركزاً خطيراً، لذلك كان يقول لمن يتحدث إليه أول ما يقول: إن عمه ذهب إلى سان كلو في الساعة السابعة صباحاً، وهو يعتزم أن يقضي الليلة هناك. وكانت هذه الخاصة اللاذعة ترد في كلام دى لوز كأنها فكاهة، ولكنه كان لا ينساها إذا ما تحدّث.

وكان «چوليان» يرقب دى كروازنوا بالعين القاسية عين الشقاء، فلاحظ أن هذا الشاب الظريف الطيب يعلق أهمية كبيرة على الأسباب الخلفية المستترة، إلى حدّ أنه كان يحزن ويغضب إذا رأى حادثاً تافهاً يرجع لسبب بسيط وطبيعي.

فقال «چوليان» في نفسه: إن مسلكه هذا ينطوي على قليل من الجنون وهذا الخلق يشبه شبهاً كبيراً خلق الإمبراطور اسكندر كما وصفه لي الأمير كورازوف.

كان «چوليان» في السنة الأولى من إقامته في باريس يعجب بهؤلاء الشبان الظرفاء؛ لأن كل شيء كان يبهره بجدته عليه، ولأنه جاء إلى باريس بعد أن ترك المدرسة الاكليريكية، لكن خلقهم الحقيقي بدأ يتكشف له شيئاً فشيئاً. ثم قال في نفسه بغتة: إن مقامي هنا ليس مرغوباً فيه. وكان عليه أن يغادر مقعده الصغير بطريقة فيها بعض المهارة. فأراد أن يخترع شيئاً جديداً فكان هذا عسيراً عليه؛ لأن خياله سابح في آفاق بعيدة. وعمد إلى ذاكرته، ولنعترف بأن ذاكرته لم تكن غنية في مثل هذه الظروف فلم تسعفه. وكان هذا الشاب التعس يجهل في الواقع كثيرا من العادات التي يألفها غيره، فأدركه الفشل وأحاط به الارتباك وهو ينهض ليغادر الصالون.

وفطن الحاضرون كلهم إلى ما أصابه، وكان الألم الشديد يظهر واضحاً في كل حركاته، لأنه ظل ثلاثة أرباع الساعة يمثل دور شخص غير مرغوب فيه، شخص هو أدنى الموجودين جميعاً، فلم يخف عليه أنهم لا يتحملون مئونة التفكير فيه.

وكانت ملاحظاته في نقد منافسيه تحول بينه وبين أن يعد ألمه كارثة حقيقية نزلت به؛ وكانت ذكريات ليلة أمس الأول تقوي من كبريائه، إذ أخذ يقول وهو يدخل الحديقة: إن «ماتيلد» لم تهب واحداً منهم ما تفضلت به عليّ مرتين في حياتي.

وقضت عليه الحكمة ألا يقول أكثر من هذا. على أنه لم يستطع أن يدرك أبداً خلق هذه الفتاة الغريبة، التي ساقتها له المصادفات لتتحكم في سعادته تحكماً مطلقاً. وعزم في اليوم التالي على أن يقتل نفسه وحصانه تعباً وإعياء، وقد فعل، وفي المساء، لم يحاول أن يقترب من الوثيرة الزرقاء التي جلست عليها ماتيلد والتف من حولها جماعة الشبان. ولحظ «چوليان» أن الكونت نوربير لا يكلف نفسه مشقة النظر إليه إذا لقيه في المنزل. فقال: إنه يبذل في ذلك جهداً كبيراً، لأنه فطر على الأدب الكثير.

كان النوم له رحمة كبيرة. وعلى الرغم من النصب الجسمي الذي كان يلقاه، فقد كانت ذكريات جميلة قد بدأت تملأ خياله. ولم تهده العبقرية إلى أن يدرك أن هذه المسافة الطويلة التي يقطعها على ظهر جواده في غابات ضواحي باريس لا تؤثر إلا فيه وحده، وليس لها صلة بما يدور في قلب ماتيلد أو في نفسها، وقد ترك للأقدار أن تبت في مصيره. وخيل إليه أن لألمه هذا نهاية، وأن الشيء الوحيد الذي يخفف ما يلقاه هو أن يتحدث إليها. ولكن هل يجرؤ على أن يقول لها شيئاً؟

وفي الساعة السابعة من صباح أحد الأيام، كان «چوليان» غارقاً في أحلامه، فرآها

تدخل المكتبة عليه بغتة وتقول له:

- أنا أعرف يا سيدي أنك تريد أن تتحدث إليّ

- يا إلهي! ومن أنبأك هذا؟

- أعرف ذلك، فما شأنك أنت إذاً؟ سأتخلى عنك حتى لو فقدت الشرف، أو أنا أحاول ذلك على الأقل، ولكن هذا الخطر الذي أعتقد أنه ليس خطراً حقيقياً لا يحول بيني وبين أن أكون مخلصة لك فيما أقول. إنني لم أعد أحبك يا سيدي، لقد خدعني خيالي.

كان قولها هذا شديد الوقع عليه، فحاول أن يدافع عن نفسه مدفوعاً بما يضمره لها من حب وبما في نفسه من ألم وشقاء. ولكن يا للسخرية! كيف يدافع إنسان عن أنه ليس بمحبوب؟ لكن العقل لم يعد يتحكم في أعماله. ودفعته غريزة عمياء إلى أن يؤجل قرار الحكم في مصيره. وقد ظنّ أن ما بينهما لم ينته مادام يتكلم إليها، ولكنها لم تكن تصغي إليه، وكان صوته يثيرها ويغضبها، ولم تكن تتصور أنه قد وهب من الجرأة ما يدفعه إلى مقاطعتها. استولت عليها في هذا الصباح فضيلة وكبرياء حتى ملكها الندم وأشقاها، وكانت فريسة لفكرة ملكت عليها زمام نفسها وهي أنها أعطت قساً وضيعاً حقوقاً عليها، وهو قسٌ ابن فلاح حقير. وكانت تقول في اللحظات التي يشتد فيها ألمها: إنّ هذا يعدّ جرماً كبيراً كما لو أنني ارتكبت إثماً مع خادم. وإن الطباع التي فطرت على الجرأة والكبر لا تفرق كثيراً بين غضب الإنسان على نفسه، وغضبه على الآخرين، وثورات الغضب في هذه الحالة تعدّ سروراً كبيراً.

وقد استطاعت «الآنسة دى لامول» في لحظة واحدة أن تصب على «چوليان» كل ألوان الازدراء الشديد. لقد كانت ذات فطنة عظيمة، يسعفها ذكاؤها في أن تعذب الناس، وتجرح كبرياءهم جروحاً بليغة قاسية.

ولأول مرة في حياة «چوليان»، وجد نفسه أمام ذكاء خارق يسلطه عليه الكره الشديد. ولم يدر في نفسه أن يدفع الأذى في هذه اللحظة، بل زاده ما يسمعه احتقاراً لنفسه، وخيل إليه أنها على حق فيما تقول، بل أنها لم تقل فيه ما يكفي، مع أنها كانت تعمد إلى أن تقضي على حسن ظنه بنفسه بما ساقته من عبارات تحقير محكمة ظهر فيها جانب كبير من ذكائها وفطنتها.

أما هي فكانت تلقى لذة كبيرة، وترضي كبرياءها حين تعاقب نفسها وتعاقبه على ما شعرت به نحوه من إجلال شديد قبل ذلك ببضعة أيام. ولم تكن فى حاجة إلى أن تخترع هذه الأقوال الجارحة التي تلقيها في ملاطفة شديدة، ولم تكن تفكر فيها لأول مرة، إنما كانت تعيد ما دار في قلبها منذ ثمانية أيام، من قول كان يردده ذلك المحامي عدو الحب. وزادت كل كلمة من كلماتها شقاء «چوليان» مائة مرة، حتى أراد أن يفر منها لكنها أبقته بأن أمسكت ذراعه في قوة وسلطان. فقال لها:

- أرجو أن تلحظي أنك تتحدثين بصوت عال، وإن من في الغرفة المجاورة ليسمع ما

تقولين. فأجابته في كبرياء.

- لست أقيم وزناً لذلك! ومن ذا الذي يجرؤ على أن يقول إنه سمعني؟ أريد أن أشفي كبرياءك شفاء تاماً من تلك الآراء التي كونتها لنفسك على حسابي.

ولما غادر «چوليان» المكتبة، كان مذهولاً إلى أبعد حدود الذهول، فشفاه هذا من قسوة ألم كان يلقاه. وأخذ يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع كأنه يريد أن يعرّف نفسه حقيقة مركزه: حسناً! إنها لم تعد تحبني. يخيل إليّ أنها أحبتني ثمانية أيام أو عشرة، أما أنا فسأحبها طول حياتي. هل لي أن أصدق الآن أنها لم تكن شيئاً مذكوراً! نعم لم تكن لقلبي شيئاً مذكوراً منذ أيام قلائل!

ونعمت «ماتيلد» بالكبرياء التي أظهرتها وارتاح قلبها؛ فقد استطاعت أن تقطع صلتها بچوليان إلى الأبد! وشعرت بسعادة كبيرة لأنها شفت نفسها من ميل قوي سرى في فؤادها. وعلى هذا فقد فهم السيد الصغير أن لم يكن له عليّ من سلطان ما حييت، ولن يكون. وشعرت بالسعادة تملك عليها نفسها حتى أنها لم تعد تحسّ الحب في هذه اللحظة.

لو أن هذا التوبيخ القاسي المقذع الهادم للكرامة، وجّه إلى من هو أقل كرامة من «چوليان» لقضى على حبه القضاء الشامل. و«الآنسة دى لامول» لم تحد لحظة واحدة عما يجب عليها نحو نفسها، فوجهت إلى «چوليان» هذا الكلام القاسي الذي أعدّته في مهارة فائقة، فكان كأنه حقيقة حتى عند من يتذكره في هدوء.

وقد فهم «چوليان» منذ اللحظة الأولى بعد هذا التأنيب الشديد، أن «ماتيلد» عظيمة الكبرياء. وكان يؤمن إيماناً ثابتاً بأن كل شيء بينهما قد انتهى إلى الأبد، ومع ذلك كان في اليوم التالي وقت الغداء حيياً مرتبكاً أمامها. وذلك ضعف منه لم يؤنّب عليه بعد. على أنه كان يعرف تماماً ما يريد أن يعمله، ويقوم به على أكمل وجه، سواء أكان ما يعرض له من الأمور تافهاً أم جدّياً.

وبعد الغداء من اليوم نفسه طلبت منه مدام دى لامول أن يعطيها منشوراً ثورياً نادراً، كان كاهنها قد قدّمه إليها سراً وقت الصباح. فقام «چوليان» ليأخذ المنشور من فوق قطعة أثاث، فأسقط زهرية قديمة من الصيني الأزرق تعتبر قبيحة إلى أبعد حدّ.

فنهضت المركيزة من مكانها صارخة بشدة، وأتت لتنظر إلى حطام الإناء عن قرب، ثم قالت: لقد كانت زهرية يابانية ورثتها عن أخت جدتي الكاهنة شل؛ وهى هدية قدمها الهولنديون إلى الدوق أورليان الوصي على العرش، وقد أهداها بدوره إلى ابنته.

وكانت «ماتيلد» تتبع حركات أمها في انتباه، فرحة بكسر هذه الزهرية التي تراها قبيحة إلى أبعد حد. على حين لزم «چوليان» الصمت، ولم يبد عليه شيء من الاضطراب، ورأى «الآنسة دى لامول» على مقربة شديدة منه، فقال لها: لقد كسرت هذا الإناء كسراً لا يجبر، كما قضي تمام القضاء على عاطفة تسلطت على قلبي من قبل، فأرجو أن تتكرمي فتغفري لي كل الحماقات التي دفعتني إليها هذه العاطفة، ثم تركها وانصرف. فقالت

«مدام دى لامول»:

– يخيل إليّ أن السيد سورل قد سرّه ما فعل، أو هو على الأقل يُظهر ذلك وهو منصرف.

فوقعت هذه العبارة على قلب «ماتيلد» وقعاً شديداً، وقالت في نفسها: حقا إن أمي على صواب، فهذه هي العاطفة التي يكّنها قلبه. ثم زال من نفسها في هذه اللحظة وحدها، أثر السرور الذي داخلها من عراكها مع «چوليان» بالأمس. وأخذت تحدث نفسها في هدوء ظاهر: حسناً، لقد انتهى كل شيء، وبقي لي مما فعلت مثل رادع، فيا لشناعة ما ارتكبت ويا لقبح جريمتي! ولكن هذا كله سيكون عظة لي طول الحياة.

أما «چوليان» فكان يقول في نفسه: ألم أقل الحق؟ فلماذا لا يزال الحب الذي كنت أضمره لهذه المجنونة معذِّباً قلبي؟

كان حبه «لماتيلد» بعيداً كل البعد عن أن يخبو أو يموت، بل لقد زاد زيادة شديدة، وأخذ يقول: حقا إنها مجنونة، ولكن هذا لا يمنع من أن تعبد! أمن الممكن أن توجد فتاة في مثل روعتها وجمالها؟ ثم ألم تخلع عليها المدنية المترفة كل مظاهر اللذات، حتى فاقت بنات جنسها جميعاً؟ وتغلغلت هذه الذكريات في نفسه، فقضت في الحال على ما كان يرشده إليه العقل والتفكير. واحتدم صراع عنيف بين العقل والذكريات، غلبَ فيه العقل على أمره، وزادت الذكريات في نفسه حلاوة.

وبعد أن كسر الإناء اليابانى بأربع وعشرين ساعة، كان «چوليان» من أتعس الناس.

الفصل الحادي والعشرون

المذكرة السرية

كل ما أقصه عليك قد شاهدته بنفسي، وإذا كنت قد خدعت وأنا أراه، فلا شك أنني لا أخدعك وأنا أقوله لك.

خطاب إلى المؤلف

استدعى «المركيز» «چوليان» ؛ وكان كأنه قد عاد فتياً، وظهر البريق في عينيه، ثم قال لكاتب سره: لنتحدث قليلاً عن ذاكرتك، فقد قيل إنها ذاكرة جبارة! أفي استطاعتك أن تحفظ جيّداً أربع صفحات ثم تذهب إلى لندن لتتلوها هناك؟ بشرط ألا تغير فيها كلمة واحدة!

وتناول المركيز صحيفة أخبار اليوم، وهو يحاول عبثاً أن يظهر بمظهر الجد والوقار، والذي لم يره «چوليان» إطلاقاً على محيا «المركيز» من قبل حتى وهو يتناول أمر قضايا فريلير. وكان «چوليان» قد تعلم أن يظهر بمظهر الغفلة، إذا ما تحدث إليه في لهجة تنطوي على الاستخفاف، فقال للمركيز:

- وربما كان عدد هذه الجريدة غير مسلّ ؛ ولكن إذا سمح سيدي المركيز تلوته عليه غداً.

- ماذا! حتى الإعلانات؟

- حتى الإعلانات كذلك، ودون أن أنسى كلمة واحدة. فاصطبغ وجه «المركيز» بغتة بجدّ ووقار، وسأله:

- هل تعدني بشرفك أن تفعل هذا ؟

- نعم يا سيدي، وإن الخوف من النسيان ربما كان هو الذي يربك ذاكرتي.

- نسيت أن ألقي عليك هذا السؤال بالأمس: لا أريد أن أستحلفك على ألا تذيع ما تسمع؛ لأني أعرفك حق المعرفة فلا أحب أن أجرحك حين أستحلفك على ذلك. لقد أعطيت أنا كلمة عنك بالأمس، وسأذهب بك إلى أحد الصالونات حيث يجتمع اثنا عشر شخصاً؛ وستكتب ما يقوله كل منهم. وأحب ألا تقلق، لأن حديثهم لن يكون مضطرباً، فسيتكلم كل شخص بدوره ولا أريد أن أقول إن كلا منهم سيتكلم بنظام. قال له «المركيز» هذا بلهجته الرقيقة التي تبدو طبيعية. واستطرد: وحين نأخذ نحن في الحديث، تكون أنت مكباً على الكتابة، وستكتب عشرين صفحة، ثم تعود معي إلى هنا، فنختصر ما كتبت في أربع صفحات، وهذه الصفحات الأربع هي نفس التي ستتلوها عليّ غداً صباحاً بدلاً

من عدد الجريدة، ثم تسافر بعد ذلك تواً ويجب أن تظهر وأنت مسافر بمظهر الشاب الذي يطلب اللذات في الأسفار. واعمد إلى ألا يفطن إليك إنسان؛ وستذهب لتلقى شخصية خطيرة، فاصطنع المهارة الشديدة؛ ويجب أن تخدع كل من حوله، لأن بين كاتبي سره وخدمه أشخاصاً يعملون لمصلحة أعدائنا، ويتجسسون على رجالنا حين يفدون عليه، وأينما حلوا. وستزودّ بخطاب توصية لا قيمة له، وإذا ما نظر إليك صاحب السعادة، فاعمد إلى أن تخرج ساعتي هذه من جيبك وسأعيرك إياها إلى أن تعود من هذه الرحلة. خذها معك، لأن هذا يفيدك. خذها وهات ساعتك. وسيتفضل الدوق فيكتب بنفسه الصفحات الأربع التي ستمليها عليه، والتي حفظتها عن ظهر قلب.

وإذا ما أقمت المهمة وسألك صاحب السعادة عما دار في الإجتماع الذي ستشهده الليلة فقص عليه ما سترى وتسمع، ولكن حذار أن تقول شيئاً في غير موعده أو متطوّعاً به. والذي سيباعد السأم عنك طوال هذه الرحلة من باريس إلى مقر الوزير، أن هناك أناساً على طول الطريق لا يطمعون في أكثر من أن يقتلوا الكاهن سورل برصاصة، فيقضون على المهمة التي أوفد فيها، وهي مهمة لا تحتمل التأجيل. فكيف نعلم يا عزيزي بقتلك إذا ما قتلت؟ إن حميّتك ونشاطك لن يصلا إلى حدّ أن يخبراني بمقتلك.

ثم قال له «المركيز» في لهجة جادّة:اذهب حالاً واشتر لنفسك حلّة كاملة. ثم اتخذ النمط الذي كان سائداً منذ عامين. أما الليلة فلا أحب أن تكون أنيقاً. وأما في الرحلة فأحب أن تكون على نقيض ذلك. هل تعجب من هذا؟ هل وصل حذرك إلى معرفتك ما أرمي إليه؟ نعم، يا صديقي، إن بين الأشخاص الوقورين الذين ستسمعهم الليلة، من يقدر على أن يرسل بمعلومات عنك تؤدي على الأقل إلى دسّ شيء من الأفيون لك في أي نزل تقصده لتتناول عشاءك. فقال «چوليان»:

– خير لي أن أسير ثلاثين فرسخاً من أن أتخذ الطريق العادي المباشر الأقل طولاً. ويخيل إليّ أن الحذر من روما ... .

فَعَلَتْ وجه المركيز علامات الكبر والاستياء، وهي شيء لم يره «چوليان» عليه منذ أن رآه في براى العليا، وقال لچوليان:

– ستعرف يا سيدي حين ما يبدو لي أن أقول لك: أنا لا أحب الأسئلة. فاضطرب «چوليان» وقال:

– أقسم لك يا سيدي أنني لم أقصد سؤالك، وقد كنت حسن القصد، أفكر في خير الطرق وآمنها.

– نعم، يخيل إليّ أنك كنت محلّقاً في آفاق بعيدة. ثم لا تنس أن رسولاً في سنك، لا ينبغي له أبداً أن يظهر بمظهر الراغب في معرفة كل شيء.

فتألم «چوليان» ألماً شديداً، لأنه كان مخطئاً. وحاولت كبرياؤه أن تجد عذراً لكنه لم يوفّق، وقال له المركيز:

- أحب أن تعرف أن المرء إذا أخطأ ندم على ما فعل بقلبه.

وبعد ذلك بساعة، كان «جوليان» في غرفة المركيزة وقد لبس ثياباً قديمة، ورباط رقبة فيه شبه بياض، وعلى ملامحه طاعة المرءوس، بحيث تدل هيئته كلها على هيئة وغد لئيم. ورآه المركيز فقهقه ضاحكاً، وصفح عنه صفحاً جميلاً. ثم أخذ يقول في نفسه: لو خانني هذا الشاب، فعلى من أعتمد إذاً؟ على أنه لابدّ لمن يعمل من أن يعتمد على إنسان. وابني وأصدقاؤه الميامين الذي هم على شاكلته يتصفون بالشجاعة والإخلاص الشديد، وإذا دخلوا في حرب ماتوا جميعاً على درجات العرش مدافعين عنه، إنهم يعرفون كل شيء ... إلا ما يريده الإنسان الآن. ليس من بينهم من يستطيع أن يحفظ أربع صفحات عن ظهر قلب، ويقوم برحلة تبلغ مائة فرسخ دون أن يلفت إليه الأنظار. إن نوربير ليعرف كيف يقتل مثل أسلافه، وهذه ميزة الشخص الذي يُقْتَرع حديثاً.

ثم أخذ يفكر مستغرقاً في أحلام عميقة، ثم قال وهو يتنهد: ويقتل أيضاً، وربما كان «سورل» هذا أعرف منه بذلك. ثم قال لجوليان كمن يطرد فكرة استولت على ذهنه:

- لنصعد إلى العربة. فقال له «جوليان»:

- لقد حفظت الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم يا سيدي في الوقت الذي شغلوا فيه بإعداد هذه الحلة.

فأخذ المركيز الصحيفة وابتدأ «جوليان» يتلو ولا يخطئ في كلمة واحدة. فقال المركيز في نفسه، وكان في تلك الليلة على جانب كبير من المهارة السياسية: حسناً، هذا سيشغله عن ملاحظة الشوارع التي نسير فيها.

ثم دخلا صالوناً قاتم المظهر، يغطي الخشب جزءاً منه ويغطي المخمل الأخضر منه جزءاً آخر، وفي وسطه خادم عابس الوجه قد أعد مائدة طعام، صارت فيما بعد منضدة للعمل، بأن وضع عليها بساطاً أخضر كبيراً لطّخه المداد، وقد سرق من إدارة حكومية.

وكان ربّ الدار رجلاً بديناً، لم يذكر اسمه أبداً، تدلّ هيئته وفصاحته على أنه رجل أكول. وأشار «المركيز» إلى «جوليان» إشارة، فاتخذ له مكاناً في الطرف الأقصى من المائدة. وأراد أن يشغل وقته بشيء، فأخذ يبري ريشة يكتب بها. وأحصى «جوليان» بطرف عينه سبعة أشخاص لم ير إلا ظهورهم. كان اثنان منهم يتحدثان مع «السيد دى لامول» حديث الأنداد، أما الآخرون فكانت لهجتهم لهجة احترام.

ثم دخل آخر دون أن يعلن الخادم مقدمه ولا اسمه. فعجب «جوليان» وقال في نفسه: إنهم لا يعلنون القادمين في هذا الصالون، فهل هذا احتياط اتخذوه من أجلي؟ ونهض الحاضرون جميعاً ليستقبلوا الزائر الجديد، وكان يتزين بنفس الأوسمة الرفيعة التي كانت تزين صدور ثلاثة من الحاضرين.

كان الحديث يدور بصوت منخفض. وأراد أن يعرف شيئاً عن هذا القادم فاكتفى بالنظر إلى تقاطيع وجهه وهيئته، فألفاه قصير القامة، ضخم الجسم، وردي اللون، براق

النظرات، تنم عينه عن الشر كأنه خنزير بريّ.

ثم أتى بعد ذلك رجل يخالف الحاضرين كل المخالفة، فأعرض «چوليان» عن الآخرين وأخذ ينظر إليه. كان مديد القامة، نحيلاً، يلبس ثلاث صدر أو أربعة، تنم نظراته عن اللطف، وتنبيء حركاته عن الأدب.

فقال «چوليان» في نفسه: إن هيئته كهيئة الشيخ الوقور رئيس أساقفة بيزانسون. هو من رجال الكنيسة ما في ذلك شك، ولم يبلغ بعد الخمسين أو الخامسة والخمسين من عمره، ومن العسير أن تجد نظرات أشد حناناً من نظرات هذا الرجل.

ثم أتى بعد ذلك رئيس أساقفة آجد، فذهل حينما رأى «چوليان»، وهو ينتقل ببصره بين الحاضرين. ولم يكن بطلنا قد خاطبه منذ حفلة براى العليا، فاضطرب وغضب من هذه النظرات التي تدل على دهشة هذا الرئيس الشاب، وأخذ يتحدث إلى نفسه قائلاً:

- ما معنى هذا! أ إذا ما عرفت رجلاً كانت معرفته شؤماً عليّ؟ إنّ كل هؤلاء السادة الذين لم أرهم من قبل لا تعنيني نظراتهم إطلاقاً، أما نظرات هذا الرئيس الشاب فهي تبعث في نفسى فتوراً! يجب أن أعترف بأنني رجل عجيب حقاً، وعلى درجة كبيرة من البؤس والشقاء.

ثم قدم بعد ذلك رجل قصير القامة، شديد السواد، دخل في جلبة شديدة وأخذ يتحدث منذ وطأت الباب قدماه؛ كان شاحب الوجه، تدل هيئته على نزق وطيش. ومنذ وصل هذا الثرثار، تكونت جماعات من الحاضرين، ليجتنبوا فيما يظهر ما يستولي عليهم من ملل لسماع حديثه.

كانوا يبتعدون عن المدفأة، فكانوا يقتربون من طرف المائدة الآخر الذي يشغله «چوليان». فأخذ يتخاذل قليلاً قليلاً، لأن كلماتهم كانت تصل إلى أذنيه على الرغم مما كان يبذله من الجهد، لكيلا يسمع ما يقولون، ومع قلة خبرته رأى أنهم يتحدثون عن أشياء خطيرة دون مواربة أو مداورة، وإن كان هؤلاء السادة يحرصون حرصاً شديداً على أن يظل ما يقولونه سرا مكتوماً!

أخذ «چوليان» يبري ريشة يكتب بها في بطء شديد، فبرى عشرين ريشة، ثم بطلت هذه الحيلة التي عمد إليها. وحاول عبثاً أن يتبين في عيني «المركيز» أمراً يقوم بتنفيذه، لكن «السيد دى لامول» كان قد نسي وجوده.

كان «چوليان» يبري ريشة فأخذ يقول في نفسه: إن ما أفعله الآن يدعو إلى السخرية، على أن هؤلاء السادة ذوي الوجوه العادية الذين يقومون بهذا العمل من تلقاء أنفسهم أو مدفوعين إليه من غيرهم، على درجة كبيرة من النزق. إن نظراتي التعسة التي تنم عن التساؤل ولا تنطوي على الاحترام، تغيظ هؤلاء السادة. ولو أنني أغضيت بصري، لكنت كمن يسترق السمع ليعرف ماذا يقولون. وكان شديد الاضطراب، لأنه يسمع أشياء غريبة.

الفصل الثاني والعشرون

المناقشة

الجمهورية - إذا كان هناك فرد يضحي بكل ما يملك في سبيل المصلحة العامة، فهناك آلاف بل ملايين من الناس لا يعرفون إلا لذاتهم، وما يرضى كبرياءهم. ففي باريس يحترم المرء من أجل عربته لا من أجل فضائله.

نابليون: المذكرات

دخل الخادم على عجل وهو يقول: سيدي دوق ... فقال له الدوق وهو يدخل:

- صه، فما أنت إلا أحمق. قال هذه العبارة في كثير من العظمة، حتى أن «چوليان» اعتقد -على الرغم منه- أن مواهب هذا الرجل العظيم محصورة في أنه يعرف كيف يغضب من خادم. ورفع «چوليان» بصره ثم غضه في الحال، لأنه أدرك من هو هذا القادم الجديد، فخشي أن تكون نظرته إليه لا تتفق مع المحافظة على الأسرار.

كان الدوق في الخمسين من عمره، أنيق الملبس، مختالاً في مشيته، ضيق الرأس، ذا أنف كبير، ووجه مقوس بارز، ومن العسير أن تجد مظهراً يدل على الأرستقراطية والتفاهة معا كمظهر هذا الدوق. وبحضور هذا الرجل افتتح الاجتماع.

وكان «چوليان» مشغولاً بملاحظاته في تفرس وجوه الحاضرين، فانتزعه صوت «المركيز دى لامول» من تأملاته العميقة حين قال:

- أقدم لكم «الشماس سورل»، وهو ذو ذاكرة عجيبة؛ لقد تحدثت إليه منذ ساعة عن المهمة التي سيتشرف بالقيام بها، ولكي يقيم الدليل على قوة ذاكرته، حفظ الصفحة الأولى من جريدة أخبار اليوم. فقال صاحب المنزل:

- آه! إنها أخبار غريبة بالنسبة إلى هذا التعس ... ثم تناول الصحيفة على عجل، ونظر إلى «چوليان» في لطف، وكان يحاول أن يظهر بمظهر الجد والوقار ثم قال له: تكلم يا سيدي. وساد صمت عميق، واتجهت الأنظار كلها إلى «چوليان»، الذي كان يتلو تلاوة حسنة، حتى أن الدوق قال له، بعد أن تلا عشرين سطراً: يكفي هذا القدر.

وكان الرجل القصير ذو النظرات الوحشية قد جلس، وكان هو رئيس الاجتماع؛ إذ لم يكد يتخذ مكانه من المنضدة حتى أشار إلى «چوليان» أن يحضر منضدة صغيرة بجواره، وكانت تستعمل للعب. وجلس «چوليان» إلى هذه المنضدة الصغيرة ومعه كل أدوات الكتابة، وقد أحصى وهو في مكانه اثنى عشر شخصاً جالسين حول البساط الأخضر ثم

قال الدوق:

- اذهب إلى الغرفة المجاورة يا «سيد سورل» حتى نستدعيك.

فقلق صاحب المنزل قلقاً شديداً، وقال لجاره بصوت يكاد يكون مسموعاً: إن مصاريع النوافذ ليست مقفلة. ثم قال لچوليان في غفلة: يحسن ألا تطل من النوافذ. وقد أخذ بطلنا يتحدث إلى نفسه: ها أنذا قد زُجَّ بي في مؤامرة، غير أنها لحسن الحظ ليست من المؤامرات التي تقود إلى ميدان چريف. على أنه إذا كان هناك خطر فأنا أستهين به من أجل «المركيز». كم أكون سعيداً لو أتيحت لي فرصة أخفف بها الآلام التي سببتها له بالأعمال الجنونية، التي ارتكبتها والتي سيعلمها يوماً من الأيام!

كان يفكر في حماقاته وشقائه، وهو ينظر إلى المكان بطريقة لا تتيح له أن ينساه. ثم تذكر أن «المركيز» لم يذكر للسائق اسم الشارع، وأنه استأجر عربة على خلاف عادته.

أخذ «چوليان» يفكر كثيراً، لأنه أتيح له وقت طويل يفكر فيه، وكان جالساً في صالون فرش بالمخمل الأحمر وبه أشرطة مذهبة. وكان على قطعة من الأثاث تمثال من العاج للمسيح وهو مصلوب، وفوق المدفأة كتاب «البابا» من تأليف السيد دى ميتر، مذهب الجوانب وعليه جلد فاخر. ففتحه حتى لا يظن أنه يسترق السمع لأن المجتمعين في الغرفة المجاورة كانوا يتحدثون بصوت عال بين لحظة وأخرى. وأخيراً فتح الباب، واستدعي ليشهد الجلسة قال الرئيس للحاضرين:

- تذكروا أيها السادة أننا منذ الآن نتحدث أمام الدوق دى ... ثم أشار إلى «چوليان»، واستطرد يقول: وإن هذا السيد الشاب المنتمي إلى قضيتنا المقدمة، سينقل إليه كل ما نقوله، مستعيناً بذاكرته العجيبة، ولن يفلت منه أتفه التفاصيل. ثم أشار الرئيس إلى الرجل ذي النظرات الرقيقة الذي يلبس ثلاث صُدر أو أربعاً، وقال: الكلمة الآن لك يا سيدي. وخيل إلى «چوليان» أنه كان من الأفضل أن يدعى هذا السيد باسمه. ثم تناول ورقاً وكتب كلاماً كثيراً.

وهنا أراد المؤلف أن يضع نقطاً على صفحة كاملة، فقال له الناشر: إن هذا ليس محموداً، خصوصاً وأن ما تكتبه ضرب من اللغو، فاذا لم يتوفر الظرف فيما تكتب حكمت عليه بالموت. فقال له المؤلف:

- إن السياسة كحجر يشدّ إلى عنق الأدب، فلا يلبث أن يغرقه في زمن لا يزيد على ستة شهور. السياسة بين الانتاج العقلي كطلقة نارية في وسط حفل موسيقي. هي ضجة مفزعة، لكنها ليست قاضية، فهي لا تلائم أي صوت من أصوات آلات الموسيقا. وهذه السياسة ستضايق نصف القراء ضيقاً شديداً، وتوقعهم في الحرج ثم تجلب السأم إلى نفوس النصف الآخر حين يقرؤها في جريدة الصباح بصورة أخرى.

إذا لم ترد السياسة على ألسنة شخصيات قصتك، فهم ليسوا إذن فرنسين يعيشون في سنة ١٨٣٠، ولن يكون كتابك مرآة للحوادث كما تزعم.

كان محضر الجلسة الذى كتبه «چوليان» يتكون من ست وعشرين صفحة، وهاك ملخصاً موجزاً شديد الإيجاز؛ لأنه ينبغى دائماً أن تحذف الأقوال التي تدعو إلى السخرية والتي تدل كذلك على السفه ومخالفة الواقع (انظر جريدة المحاكم).

كان الرجل ذو الصُدر الأربع يبتسم كثيراً (ربما كان رئيس أساقفة) وحين كان يبتسم تلمع عيناه المسبلتان ببريق عجيب وحزم تراه في تزايد. وقد طلب منه أن يبدأ الكلام أمام الدوق «ولكن أى دوق؟ كما كان چوليان يسائل نفسه» يبدأ الكلام ليشرح الآراء على ما يظهر وليقوم بمهمة النائب العام، ثم رأى «چوليان» أن الرجل وصل إلى نتائج غامضة غير التي قررت، وتسرب الشك إلى نفسه كما يحدث عادة لرجال القضاء. وفي أثناء النقاش وصل الأمر بالدوق إلى أن يلومه على ذلك. وبعد أن ذكر هذا الرجل، ذو النظرات العطوف والصُدر الأربع، عبارات تنطوي على الأخلاق والفلسفة التي ترمي إلى الصفح، قال:

– إن انجلترا النبيلة التي كان يقودها رجل خالد عظيم هو پت، قد انفقت أربعين ملياراً من الفرنكات للقضاء على الثورة. وإذا سمحت لي هذه الجميعة أن أطرق في شيء من الصراحة فكرة مؤلمة، قلت: إن انجلترا لم تدرك تماماً أن رجلاً مثل بونابرت الذي لم يؤخذ عليه إلا كثير من المقاصد الحميدة، والذي لم تنفع معه إلا الطرق الشخصية ... فقاطعه رب الدار والقلق بادٍ على وجهه، وقال:

– آه! إنك تمدح القاتل من جديد! وصاح به الرئيس في غضب وعينه التي تشبه عين الخنزير البري تلمع فيها وحشية غريبة، قائلا:

– أرجو أن تعفينا من مواعظك العاطفية. ثم احمرت جبهته، والتهب خداه وقال للمتكلم: استمر. فاستطرد الرجل يقول:

– إن انجلترا العظيمة قد تهدمت اليوم، فكل إنجليزي يضطر اضطراراً إلى أن يدفع فوائد الأربعين ملياراً التي أنفقت في سبيل القضاء على اليعاقبة، قبل أن يدفع ثمن الخبز الذي يأكله. ولم يعد يوجد بين ساسة الانجليز رجل مثل پت ... فقاطعه أحد العسكريين بعد أن تظاهر بالخطورة قائلاً:

– إن انجلترا لا يزال فيها دوق ولنجتون. فصاح الرئيس:

– أرجو أن تلتزموا الصمت أيها السادة، وإن كنتم لا تزالون مختلفين فيما بينكم، فقد كان من العبث أن نستدعي «السيد سورل». ثم قال الدوق في غضب وهو ينظر إلى المقاطع، وقد كان جنرالاً في جيش ناپليون:

– نحن نعرف أن السيد رجل غني بأفكاره. وقد رأى «چوليان» أن هذه العبارة تنطوي على شيء شخصي يؤلم أشد الألم؛ لأن الحاضرين تبسموا جميعاً، فغضب هذا الجنرال المتخلي عن ناپليون غضباً شديداً. ثم استطرد المتحدث، وقد ظهرت عليه علامات القنوط التي تبدو على من لا يستطيع إقناع سامعيه بما يقول:

- لم يعد في انجلترا رجل مثل پت، وإذا كان فيها پت جديد، فلن يتلاعب بأمة مرتين بنفس الوسائل ... فقاطعه العسكري مرة أخرى:

- ولهذا السبب نفسه، لن يوجد في فرنسا قائد عسكري غاز فاتح مثل بوناپرت.

وفي هذه المرة لم يجرؤ الرئيس أو الدوق على إظهار الغضب؛ وإن كان «چوليان» قد قرأ في وجهيهما الرغبة فيه، وغضا من ابصارهما واكتفى الدوق بأن تنهد تنهداً سمعه كل الحاضرين.

غير أن المتحدث ساءه أن يقاطع مرة أخرى، وأخذ يتكلم بحماسة، حتى نسي الأدب اللطيف واللغة المتزنة، وكان «چوليان» يحسبهما طبعاً فيه لا تطبعاً بتكلف، قال:

- إنكم تتعجلونني وتريدون أن أنتهي حالاً مما أقوله. مع أنكم لا تلحظون أبداً مقدار ما أبذله من جهد حتى لا أسيء إلى أحد منكم، فلا أجرح أسماعكم، مهما يبلغ طول آذانكم. حسنا أيها السادة، سأوجز القول. وإني أستطيع أن أقول لكم في عبارات عامية: إن انجلترا لم تعد تملك شيئاً أبداً تنفقه في تلك القضية العادلة. ولو أنّ پت نفسه عاد مرة أخرى، ما استطاع على الرغم من عبقريته ونبوغه أن يعبث بصغار الملاك الأنجليز، لأنهم يعلمون أن معركة واترلو القصيرة الأجل، كلفتهم وحدها ملياراً من الفرنكات. ثم استطرد وحميته تزداد شيئاً فشيئاً:

- أقول لكم ما دمتم حريصين على سماع الواضح المفهوم: «اعتمدوا على أنفسكم»، لأن انجلترا لا تملك جنيهاً واحداً تقدمه لكم؛ وإذا توقفت انجلترا عن الدفع فإن النمسا والروسيا وبروسيا، تلك الدول التي تملك الشجاعة دون المال، لا تستطيع أن تحارب فرنسا إلا في معركة أو معركتين فقط.

إن الإنسان ليأمل أن ينهزم الجنود الشبان الذين يعدهم الثوريون في معركة أو معركتين، أما في الثالثة فسيكون لكم جنود عام ١٧٩٤، الذين لم يكونوا على شاكلة الفلاحين ممن أدخلوا العسكرية عام ١٧٩٢، أقول هذا على الرغم من أنكم ترونني. ثورياً بعيونكم الحذرة. وهنا قوطع من ثلاث جهات أو أربع دفعة واحدة، فقال الرئيس لچوليان:

- أذهب أيها السيد إلى الغرفة المجاورة، وابدأ في تبييض مقدمة محضر الجلسة التي كتبتها. فخرج آسفاً؛ لأن المتحدث كان قد بدأ يعرض لاحتمالات كانت دائماً موضع تفكير «چوليان» وتأملاته. وأخذ يقول في نفسه: إنهم يخشون أن أسخر منهم. ولما استدعي ليشهد الجلسة، كان «السيد دى لامول» يقول بلهجة وقار يعده «چوليان» مدعاة إلى السخرية لكثرة ما عرف «المركيز»:

- نعم أيها السادة، هذا الشعب التعس هو الذي يقال فيه: هل سيكون إلها، مائدة أو إبريقاً؟ إن مؤلف الأمثال يصيح فى قوة: إنه سيكون إلها! وهذه العبارة القوية العميقة النبيلة إلى أبعد الحدود، يتوقف تحقيقها عليكم أنتم أيها السادة. اعملوا بأنفسكم، وستعود فرنسا سيرتها الأولى التي تركها عليها أسلافنا، أو إلى حالة قريبة منها، كما كنا

تراها قبل موت لويس السادس عشر. إن إنجلترا أو لورداتها النبلاء على الأقل، يكرهون اليعقوبية المرذولة، كما نكرهها نحن تماماً: وبدون الذهب الإنجليزي، لا تستطيع النمسا ولا الروسيا ولا بروسيا القيام بمعركتين أو ثلاث معارك. فهل هذا يكفي في القيام باحتلال ثابت، كذلك الاحتلال الذي اتفق عليه السيد ريشيليو فى سنة عام ١٨١٧؟ أنا لا أعتقد ذلك.

فقوطع المركيز لكنه قُضي على المقاطعة من كل جانب. وكان مصدرها في هذه المرة أيضاً ذلك الجنرال الامبراطوري السابق، الذي كان يود الحصول على الوسام الأزرق، ويريد أن يكون بين الذين يحررون المذكرة السرية.

ثم استطرد «المركيز دى لامول» يقول بعد أن انتهت الضجة: أنا لا أعتقد ذلك. وضغط على كلمة أنا في قحة أعجب بها «چوليان» الذي أخذ يقول في نفسه وهو يكتب في سرعة كبيرة تعادل سرعة المركيز في كلامه: هذه غمزة لطيفة، فقد قضى «المركيز» بعبارة لطيفة على المعارك العشرين التي اشترك فيها الجنرال.

ثم قال «المركيز» في لهجة متزنة: إننا لا نستطيع أن نعتمد على الأجانب وحدهم في احتلال عسكرى جديد. فهؤلاء الشبان الذين يكتبون مقالات مثيرة في «الجلوب» سيعطوننا ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف قائد، قد نجد بينهم قواداً مهرة مثل كليبر وهوش وجوردان وپيشجرد، ولكنهم ليسوا أسلم طوية من القواد السابقين. فقال الرئيس:

- إننا لم نستطع تمجيده التمجيد الحق، فكان يجب أن يكون من الخالدين.

واستطرد «المركيز دى لامول»: ثم يجب أن يكون في فرنسا حزبان ولا أريدهما حزبين اسميين، وانما أرمي إلى أن يكونا حزبين متميزين مختلفين تمام الاختلاف. لنعرف من ينبغي لنا أن نحطمه. فمن جهة سنواجه الصحفيين، والقراء أو الرأي العام بإيجاز، ثم الشبيبة وكل ما تمجده. وبينما تكون مكبة على إثارة هذه الآراء التافهة التي لا يقام لها وزن، نكون نحن مكبين على استنفاد الميزانية.

وهنا قوطع مرة أخرى. فقال المركيز لمقاطعه في كبرياء شديدة ويسر عجيب:

- أنت يا سيدي لا تستنفد إذا كان التعبير لا يرضيك، وإنما تبتلع من ميزانية الدولة أربعين ألفا من الفرنكات وثمانين ألفا نتسلمها من القائمة المدنية. ومادمت يا سيدي تستثيرني فسأضرب بك المثل في جرأة. كان يجدر بك يا سيدي وأنت تحصل على مائة وعشرين ألفا من الفرنكات أن ترينا -كأجدادك البواسل الذين ذهبوا مع لويس المقدس واشتركوا في الحرب الصليبية- كتيبة من الجند، أو فرقة أو نصف فرقة مكونة من خمسين رجلاً مستعدين للقتال، مخلصين لقضيتنا العادلة إخلاصاً أكيداً! ولكن ليس لديك إلا خدم، إذا قامت ثورة، كانوا مصدر رعب لك.

إن العرش والكنيسة وطبقة الأشراف قد يُقضى عليها في الغد أيها السادة، مادمتم لم تخلقوا في كل مقاطعة قوة مكونة من خمسمائة رجل مخلصين، وإني أقول مخلصين،

لأن الشجاعة الفرنسية وحدها لا تكفي وإنما أبغي أيضاً أن يكونوا متصفين بالجلد الأسباني كذلك.

يجب أن يكون نصف الجند من أبنائنا وأبناء أبنائنا وأحفادنا ومن أبناء الأشراف الحقيقيين. وسيكون بجانب كل ابن من أبنائنا فلاح ساذج فطر على الصراحة مثل كاتلينو، لا برجوازي ثرثار؛ مستعد لأن يرفع العلامة الثلاثية الألوان إن جدّت حوادث عام ١٨١٥ مرة أخرى؛ فيستطيع أبناؤنا تلقين هؤلاء الفلاحين المبادىء التي يسيرون عليها، ويا حبذا لو كانوا إخوتهم في الرضاعة، ليضحّ كل منا بخمس دخله حتى نكوّن هذه الفرق الصغيرة المخلصة، في كل مقاطعة خمسمائة جندي. وفي هذه الحالة تستطيعون أن تثقوا أن الجنود الأجانب سيعجزون عن التوغل في بلادنا، لأن الجندي الأجنبي لن يقدر على الوصول إلى أكثر من ديجون إذا لم يكن على ثقة من أن في كل مقاطعة جنداً منا يشدون أزره.

ولن يصغي لنا الملوك الأجانب إلا إذا أعلنا أن لدينا عشرين ألفاً من السادة الأشراف على أتم استعداد لأن يفتحوا لهم أبواب فرنسا بقوة السلاح. إنها مهمة شاقة كما تقولون، ولكن سلامتنا أيها السادة تتطلب ذلك. ثم إن حرية الصحافة تتعارض أشد المعارضة مع حياتنا وبقائنا كأشراف، فعليكم أن تختاروا. إمّا أن تصبحوا صناعاً أو فلاحين وإمّا أن تقاتلوا في سبيل وجودكم. كونوا متواضعين إذا شئتم ولكن لا تكونوا أغبياء، وافتحوا أعينكم جيداً.

إني أهيب بكم أن تكوّنوا فرقكم كما تقول الأغنية اليعقوبية، وفي هذه الحالة سيوجد شخص نبيل مثل جوستاف أدولف يحزنه ما يهدد الملكية من خطر، فيندفع ثلثمائة فرسخ خارج بلاده، ويعمل لكم ما عمله جوستاف أدولف للأمراء البروتستانت. هل تريدون أن تظلوا تقولون ولا تعملون؟ إنكم لو اتبعتم هذه الطريقة فلن يكون في أوربا بعد خمسين عاماً ملك واحد، وسيصبح الحكم في أيدى رؤساء جمهوريات وهذه الحروف الثلاثة R.O.I كفيلة بالقضاء على القسس والأشراف. إنني لم أعد أرى إلا طلاب منافع يتملقون هذه الأغلبيات الملوثة.

من العبث أن تقولوا: إن فرنسا ليس لها في الوقت الحاضر قائد فذّ معروف محبوب من الجميع، وإن الجيش الفرنسي أصبح الآن منظماً بطريقة تهدف إلى خدمة العرش والكنيسة، وقد انتزع منه المحاربون القدماء، على حين يوجد في كل فرقة من الفرق البروسية والنمساوية خمسون من صف الضباط الذين اشتركوا في المعارك. إن مائتي ألف شاب من الطبقة البرجوازية يحبون الحرب حباً شديداً، ويودون لو اشتركوا في قتال ...

فقال رجل عظيم، يشغل فيما يظهر مركزاً خطيراً في الكنيسة، بلهجة متكبرة لم يغضب لها «المركيز دى لامول»، بل ابتسم منها ابتسامة رقيقة، فكان هذا دليلاً لجوليان على أن الرجل من الشخصيات الكبيرة:

– دع تعداد هذه الحقائق المرة، ولنوجز أيها السادة: إن الرجل الذي كتبت عليه أن

تقطع ساقه لأنها تعفنت، لا يجدر بنا أن نقول لجراحه: هذه الساق المريضة سليمة جداً، فأرجو أن تسمحوا لي بأن استعمل نفس العبارة، وأردّد هذا القول. أيها السادة إن جرحنا هو ذلك الرجل الكريم الدوق . . . .

عندئذ قال «چوليان» في نفسه: وأخيرا عرفت الجهة التي سأذهب إليها الليلة، إنني سأركض الليلة نحو . . . .

الفصل الثالث والعشرون

الكهنوت، الغابات، الحرية

القانون الأول الذي يتمسك به كل إنسان هو المحافظة على نفسه، ومعنى ذلك أن يعيش. إنك لا تجني من الشوك العنب.

مكيافيلي

واستطرد هذا الرجل العظيم يتحدث، ومما لاشك فيه أنه كان يعرف ما يقول، فأخذ يعرض آراءه في بلاغة حلوة معتدلة أعجب بها «چوليان»، وذكر الحقائق التالية:

أولا: إن انجلترا لا تضيّع في سبيل خدمتنا جنيهاً واحداً؛ لأن الاقتصاد وهيوم هما أهم ما يشغل الأنجليز في الوقت الحاضر، والقديسون أنفسهم لن يعطونا شيئاً من المال، وسيسخر منا السيد بروجهام.

ثانيا: لن يتسنى لنا أكثر من حملتين إذا لم يتح لنا الحصول على الذهب الإنجليزي، وهاتان الحملتان لا تكفيان إطلاقاً للقضاء على البرجوازية الصغيرة.

ثالثا: ضرورة تكوين حزب مسلح في فرنسا، وإلا ما أتيح لمبدأ الملكية في أوربا مطمعه في هاتين الحملتين.

أما النقطة الرابعة التي أقدم على عرضها عليكم مسألة بديهية هى أنه لا يمكن تكوين حزب مسلح في فرنسا بدون الرجوع إلى الكهنوت. أقول لكم هذا في جرأة ؛ لأني سأبرهن لكم أيها السادة على ما أقول يجب أن تعطوا كل شيء للكهنوت لأنه: يعني بالأمور ليلاً ونهاراً، وعلى رأسه رجال أكفاء وممتازون بعيدون عن هذه العواطف، فهم على مسافة ثلثمائة فرسخ من حدودكم. فصاح رب الدار قائلاً: آه! روما، روما! فقال الكردينال في فخار:

– نعم يا سيدي، روما! ومهما تكن النكات التي كنت تسمعها، وأنت شاب، لاذعة ومنتشرة في ذلك الوقت، فإني أستطيع أن أقرر في قوة ونحن في عام ١٨٣٠ أن الكهنوت وعلى رأسه روما هو الذي يستطيع أن يتحدث إلى الشعب. خمسون ألفاً من القسس على أتم استعداد لأن يرددوا ما أقوله في اليوم الذي يعلنه زعماؤهم. والشعب الذي نستمد منه الجنود سيصغى إلى صوت هؤلاء القسس أكثر مما يصغى إلى أي شيء آخر في العالم كله ... (كانت هذه الشخصية تثير همسات من الحاضرين) واستطرد الكردينال في صوت مرتفع: رجال الدين لهم عبقرية أسمى من عبقريتكم؛ فالخطوات التي قمتم بها في هذه النقطة الجوهرية وهي أن يكون في فرنسا حزب مسلح، قد قمنا نحن بها. فمن ذا

الذي أرسل ثمانين ألف بندقية إلى ڤندى؟

وما دام الكهنوت لم يحصل بعد على غاياته، فلن يقوم بأى عمل. ففي الحرب الأولى كتب وزير المالية إلى عماله أنه لم يعد في الخزانة مال إلا للكهنة. والواقع أن فرنسا لا تؤمن بهذا، وهى تحب الحرب. ومهما يكن الباعث على هذه الحرب، فانها ستصبح عامة يقبل عليها الناس جميعاً؛ لأن نشوب الحرب يجيع اليسوعيين إذا استعملنا التعبير العامي؛ الحرب تشفي من الكبرياء هؤلاء المردة وهم الفرنسيون، وتدفع عنهم التهديد الذي يصيبهم من التدخل الأجنبي.

كان الحاضرون يصغون إلى الكردينال في انتباه كبير. ثم قال: يجب أن يتخلى السيد دى نرڤال عن الحكم، لأن اسمه يغضب الناس في غير جدوى.

ولما سمع الحاضرون هذه العبارة وقفوا جميعاً، وتحدثوا جميعاً دفعة واحدة. وأخذ «چوليان» يقول في نفسه: سيطلبون مني مرة أخرى أن أغادر قاعة الاجتماع. ولكن الرئيس الحكيم كان قد نسي وجود هذا الشاب بينهم فأغفله تماماً. واتجهت الأبصار كلها نحو رجل عرفه «چوليان» عندما رآه، لأنه قد رأى من قبل السيد دى نرڤال رئيس الحكومة في مرقص الدوق دى ريتز.

وساد اضطراب، وعمت ربع ساعة، ساد النظام الاجتماع بعض الشيء. فنهض السيد دى نرڤال واتخذ لهجة الرسل، وقال في صوت غريب:

– لا أريد أن أقول لكم: إني زاهد في الحكم. لقد ثبت لي أيها السادة أن اسمي يضاعف من قوة اليعاقبة؛ لأنه يغري ضدّنا كثيراً من المعتدلين. كان من الممكن أن أتخلى عن الحكم في سرور، لولا أن الله عهد إليّ برسالة، وإرادة الله لا يدركها إلا القليلون. ثم نظر إلى الكردينال واستطرد: لقد عهدت إليّ السماء برسالة تقول: إما أن تحمل رأسك إلى المقصلة وإما توطد الملكية في فرنسا، وتقلل من سلطة مجلس النواب والشيوخ، بحيث تعود سلطتها كما كانت زمن لويس الخامس عشر، وهذه المهمة أيها السادة سأقوم أنا بها.

ثم سكت وجلس، فساد صمت طويل. وأخذ «چوليان» يقول في نفسه: إنه لممثل ماهر. لقد أخطأ هذه المرة، كما يخطىء دائماً حين يفترض أن الناس مفطورون على فطنة كثيرة. لقد كان دى نرڤال متأثراً بما حدث الليلة من مناقشات، ومن الإخلاص الذي كان يطبع هذه المناقشات. فكان يؤمن في هذه اللحظة بالرسالة التي تحدث عنها. وهذا الرجل خلِو من كل فطنة وإن كان كبير الشجاعة.

دقت ساعة الحائط معلنة منتصف الليل حين خيّم السكون بعد هذه العبارة الجميلة التي نطق بها دى نرڤال: إني سأقوم بهذه المهمة. ولحظ «چوليان» أن دقات الساعة كانت تحمل شيئا من الحزن والجلال فتأثرت بها نفسه.

وسرعان ما احتدمت المناقشة من جديد في كثير من الحمية، وإن لم تخل من سذاجة كبيرة. فكان «چوليان» يقول في نفسه: في بعض اللحظات: سيدسّ هؤلاء القوم السّم

لي: إذ كيف يتحدثون بمثل هذه الأشياء أمام شخص من الشعب؟

ثم دقت الساعة الثانية، وهم لا يزالون يتحدثون، أما صاحب المنزل فكان قد أوى إلى فراشه منذ وقت طويل. واضطر «المركيز دى لامول» إلى أن يدق الجرس ليغير الخدم الشموع. وغادر السيد دى نرڤال الاجتماع في الساعة الثانية إلا ربعاً، بعد أن أخذ ينظر طويلاً إلى «چوليان» في مرآة بجواره. وقد شعر جميع الحاضرين بالارتياح لرحيله.

قال الرجل ذو الصُدر الأربع لجاره في صوت منخفض -والخدم يغيرون الشموع- يعلم الله ما سيقصه هذا الرجل على الملك! إن في استطاعته أن يصورنا في صورة تدعو إلى السخرية وتقضي على مستقبلنا. ومما لا شك فيه أن وجوده بيننا الليلة، ينطوي على عجرفة لا نظير لها قد تصل إلى حد السفه والقحة. لقد كان يأتي إلينا قبل أن يصل الحكم، ولكن منصب الوزارة يغير كل شيء، ويقضي على اللفتات الطيبة كلها، وقد طغى هذا الشعور على صاحبنا الطغيان الكامل.

ولم يكد يخرج الوزير حتى أسبل چنرال بوناپرت عينيه، وأخذ يتحدث عن صحته وجروحه، ثم نظر في ساعته وانصرف. فقال الرجل ذو الصُدر:

- أراهن على أن الجنرال يعدو خلف الوزير الآن، ليقدم المعاذير عن وجوده الليلة بيننا، ومع ذلك هو يدّعي أنه يريد أن يقودنا.

وحينما انتهى الخدم من تجديد الشموع وهم بين اليقظة والنوم، قال الرئيس: لنتداول إذن أيها السادة، ولنترك النزاع جانباً، ولنفكر الآن في نص المذكرة التي ستكون بعد ثمان وأربعين ساعة في أيدى أصدقائنا في الخارج. لقد تحدثوا عن الوزراء، ونستطيع أن نقول الآن: إن السيد دى نرڤال قد تخلى عنا، وماذا يضيرنا من الوزراء؟

فوافق الكردينال على ما قيل بابتسامة فيها دهاء. وتحدث رئيس أساقفة آجد الشاب في حمية شديدة ونفّس عن نفسه ما كان يعتلج بين ضلوعه من تعصب شديد فقال:

- يخيل إليّ أن الأمر يسير حين نريد أن نوجز موقفنا. وكان هذا الشاب قد التزم الصمت طوال الوقت. وقد لحظ «چوليان» أن عينيه الرقيقتين الوديعتين كانتا ترميان بالشرر بعد الساعة الأولى من النقاش. أما الآن فقد أخذت روحه تثور وتضطرم كما تثور حمم بركان فيزوف، واستطرد يقول:

- خطأ انجلترا في المدة ما بين ١٨٠٦ و١٨١٤ يرجع إلى أنها لم تعمل ضد ناپليون بصفة مباشرة وشخصية. فهذا الرجل منذ اتخذ أدواقاً وحجاباً، ومنذ أحيا العرش من جديد زالت عنه الرساله التي كلفه الله أداءها. ولم يعد يصلح لشيء إلا لأن يقضى عليه. والكتب السماوية تعلمنا في أكثر من موضع كيف نقضي على الطغاة. (وهنا أخذ يتلو نصوصاً لاتينية كثيرة). واليوم أيها السادة، لسنا بصدد القضاء على رجل، وإنما نحن بصدد القضاء على باريس. إن فرنسا كلها تحاكي باريس. فما الفائدة من تعبئة خمسمائة رجل في كل مقاطعة؟ هذا مشروع ليس النجاح محققاً فيه، وهو بعد هذا لا ينتهي. فلماذا

تدخل فرنسا في أشياء تعتبر باريسية محضة؟ وباريس وحدها بصحفها وصالوناتها هي التي توحي بالشر، فلتسقط إذن بابيلون الجديدة.

يجب أن نقضي على ما بين باريس والكنيسة. وإن في هذه الكارثة فائدة كبرى لمصالح العرش، ثم لم تستطع باريس أن تعترض أو تثور أيام بوناپرت؟ سلوا عن هذا مدافع سان روش.

لم يغادر «چوليان» و«المركيز» قاعة الاجتماع إلا في الساعة الثالثة صباحاً. وكان «المركيز» خجلاً متعباً، تنم لهجته عن الضراعة للمرة الأولى وهو يتحدث إلى «چوليان». وقد استحلفه بشرفه ألا يبوح بما سمعه من طفرات النشاط على حد تعبير «المركيز»، عما ساقته المصادفات إلى سماعه. ثم قال له: لا تتحدث بهذا إلى صديقنا في الخارج إلا إذا أصر على معرفة ما يدور في نفوس شبابنا المجانين. وماذا يضيرهم لو انقلب نظام الحكم؟ إنهم سيصبحون كرادلة ويفرون إلى روما أما نحن فسيمزقنا الفلاحون في قصورنا شر ممزق.

ولم ينته «المركيز» من كتابة المذكرة السرية إلا في الساعة الرابعة إلا ربعاً، كتبها على ضوء المحضر الذي سطره «چوليان» عما دار في الاجتماع وكان يقع في ست وعشرين صفحة؛ ثم قال لجوليان:

– أكاد أموت من فرط التعب، ويظهر هذا جلياً في المذكرة التي ينقصها كثير من الوضوح في الجزء الأخير منها، وذلك يحزّ في نفسي أكثر من أي شيء آخر اقترفته في حياتي. ثم استطرد يقول. هيا يا صديقي واذهب لتستريح بضع ساعات، وسأغلق عليك باب غرفتك بنفسي خشية أن يختطفوك.

وحلّ اليوم التالي فقاد «المركيز» «چوليان» بنفسه إلى قصر منعزل بعيد عن باريس. وهناك رأى بطلنا نزلاء عجيبين ظنهم قسساً، أعطوه جواز سفر بإسم مستعار، لكنه يشير إلى غرض الرحلة الحقيقي الذي كان يدّعي دائماً أنه يجهله. ثم استقل عربة وحده.

وكان «المركيز» مطمئناً تمام الاطمئنان إلى ذاكرة «چوليان»، فقد تلى عليه المذكرة السرية عدة مرات،. لكنه كان يخشى أن يحال بينه وبين أن يستمر في الرحلة؛ فأخذ يقول له في ود وعطف وهو يغادر الصالون:

– لا تنس أن تتظاهر بأنك أحمق يقتل الوقت بالأسفار. لأنه ربما كان في اجتماع الأمس أكثر من زميل زائف.

كانت الرحلة سريعة حزينة إلى أبعد الحدود. ولم يكد «چوليان» يبتعد عن «المركيز» حتى نسي المذكرة السرية ونسي المهمة التي أوفد فيها، ولم يعد يذكر شيئاً إلا أن «ماتيلد» تحتقره.

وفي قرية تبتعد عن متز ببضعة فراسخ، أخبره رئيس مركز البريد بأن ليس لديه خيل. كانت الساعة العاشرة مساء، وقد أصبح «چوليان» كاسف البال، فطلب طعاماً يتناوله. وأخذ يسير أمام الباب، بحركات غير إرادية فمر بحظيرة الخيل دون أن يفطن إليه أحد، فلم يجد بها جياداً غير أنه أخذ يقول في نفسه: ومع ذلك فنظرات هذا الرجل تنطوي على كثير من الغرابة. لقد ظل يتفرسني في قحة.

وأخذ يتشكك كما ترى في صدق ما يقال له. وفكر في أن يتسلل بعد العشاء، فغادر غرفته وذهب إلى المطبخ يطلب الدفء. وما ذلك إلا ليعرف شيئاً عن المكان الذي هو فيه. وكم كان سروره كبيراً حين التقى بالسنيور جيرونيمو، ذلك المغني الشهير!

كان يجلس على مقعد وضع له على مقربة من النار، وكان الرجل كثير الشكوى يتكلم بصوت مرتفع، لكنه كان يتحدث إلى نفسه أكثر مما يتحدث إلى غيره من الألمانيين العشرين الذين جلسوا حوله وعلى وجوههم علامات الذهول. وما كاد المغني يرى چوليان حتى قال:

- إن هؤلاء الناس سيقضون عليّ، لقد وعدت أن أغني غداً في ماينس، وقد هرول إلى البلدة سبعة من الأمراء العظام ليستمعوا إلى غنائي. ثم استطرد يقول في لهجة لها مغزاها: هيا بنا نستنشق الهواء.

وحينما سارا ما يقرب من مائة خطوة على الطريق وآمن جيرونيمو أن لم يعد هناك من يسمعه، قال لچوليان:

- هل تعرف ما يجري؟ إن رئيس مركز البريد وغد لئيم، وقد كنت أتنزه فأعطيت رجلاً من المشردين فرنكاً فأخبرني بكل شيء. إن هناك اثني عشر جوادا في حظيرة في الطرف الآخر من القرية. وهم يعمدون إلى تأخير بعض المسافرين. فقال له «چوليان» في لهجة تنم عن البراءة:

- أحقاً ما تقول؟

ولم يكن اكتشاف هذه المكيدة هو كل شيء، إذ كان عليهما أن يرحلا، لكنهما لم يتمكنا بعدما أملا فكرهما في سبيل الفرار، فقال جيرونيمو: علينا أن ننتظر حتى الصباح؛ لأنهم يخشوننا ويخدروننا وربما كانوا يريدونني أو يبحثون عنك. في صباح غد نطلب طعام الإفطار وندعهم يعدونه ثم نخرج لنتنزه، وهناك نستأجر جوادين إلى مركز البريد التالي.

وظن «چوليان» أن چيرونيمو ربما أرسل إلى القرية ليحول بينه وبين مواصلة السفر. فسأله قائلاً: وماذا تفعل بأمتعتك؟

ثم تناولا الطعام وذهبا ليناما.

كان «چوليان» تحت سيطرة النعاس الأول حين استيقظ فزعاً على صوت رجلين

يتحدثان في غرفته دون مبالاة.

ونظر فرأى رئيس مركز البريد وبيده مصباح يرى به من يحمله ولكن لا يُرى حامله. وكان الضوء مسلطاً على صندوق العربة الذي طلب «چوليان» أن يحمل إلى غرفته. وبجانب رئيس البريد وقف رجل يفتش الصندوق المفتوح في هدوء وسكينة، ولم ير چوليان منه إلا أكمامه فألفاها سوداء وضيقة جداً. فقال في نفسه: إنه لباس الكهنوت، وأمسك بهدوء مسدساته الصغيرة التى وضعها تحت وسادته. ثم سمع رئيس البريد يقول:

– لا تخش أن يستيقظ يا سيدي الكاهن، لأن النبيذ الذي قدّم إليهما من الصنف الذي تحضره بنفسك. فقال الكاهن:

– إنني لا أجد أوراقاً أبداً، ولكني أرى كثيراً من الملابس والروائح والأدهان وأشياء تافهة أخرى؛ إنه شاب من شبان العصر، ملكت ملذاته عليه نفسه. أما الرسول فهو الشخص الآخر الذي يلوى لسانه بلهجة إيطالية.

واقتربا من «چوليان» ليفتشا جيوب ثيابه. وكم كان يود أن يقتلهما متعللاً بأنهما يسرقانه، وليس في هذا خطر عليه فيما بعد، وتملكته رغبة قوية في أن يودي بحياتهما، لكنه قال في نفسه: لو فعلت لكنت حقاً أحمق، ولمنيت المهمة التي كلفتها بالفشل. ثم انتهى الكاهن من تفتيش ثيابه فقال: ليس هذا الشخص ممن يقومون بمهمة سياسية. ثم ابتعد وحسناً فعل.

كان «چوليان» يقول في نفسه في هذه اللحظة. إذا لمسني في فراشي، فالويل له كل الويل، إن في استطاعته أن يطعنني بخنجر، وهذا مالا أطيقه وأدار الكاهن رأسه، و«چوليان» يفتح عينيه قليلاً، ولشد ماذهل! لقد كان الكاهن كاستانيد! ولو أنه بدا للرجلين أن يتحدثا بصوت منخفض، فقد بدا لچوليان من أول الأمر أنه يعرف صوت الكاهن. واستولت عليه رغبة قوية في أن يسقي الأرض من دم هذا الوغد الذي كان يمقته مقتاً شديداً. غير أنه كان يعود فيقول في نفسه: ولكن ... المهمة التي بعثت من أجلها!

وخرج الكاهن وحامل الضوء. وبعد ربع ساعة، تظاهر «چوليان» بأنه استيقظ، وأخذ ينادي فأيقظ كل من في المنزل. ثم صاح قائلاً:

– لقد تسممت، كم أقاسي من آلام شديدة! وقد فعل هذا في الواقع ليسعف جيرونيمو! ثم ذهب إليه فوجده يكاد يختنق من أثر خلاصة الأفيون التي دست له في النبيذ. وكان «چوليان» يخشى أن يصيبه ما أصاب صاحبه، فلم يطعم إلا الشوكلاته التي أحضرها من پاريس. ولقد لاقى عناء كبيراً حتى أيقظ چيرونيمو، لكنه لم يتمكن من إقناعه بالرحيل، إذ قال له المغني:

– لو أنهم أعطوني مملكة ناپولى، ما قبلت في سبيل أن أنام الآن.

– ولكن ما بال الأمراء العظام الذين ينتظرونك!

- فلينتظروا.

سافر «چوليان» وحده، ووصل إلى العظيم الذي أرسل ليلقاه، دون أن يحدث له في الطريق حدث آخر. وظلّ صباحاً كاملاً يحاول عبثاً أن يحظى بلقاء هذا العظيم؛ ولحسن الحظ أراد الدوق أن يستنشق الهواء في الساعة الرابعة، ورآه «چوليان» يسير على قدميه، فلم يتردد في أن يقترب منه ويسأله صدقة. ولما أصبح على بعد خطوتين منه، أخرج «چوليان» ساعة «المركيز دى لامول» من جيبه بتصنع، فلم يلتفت إليه الدوق وقال له: اتبعني من بعيد.

وعلى بعد ربع فرسخ من مكان لقائهما، دخل فجأة مقهى صغيراً وفي حجرة منسقة أبدع التنسيق في هذا المنزل، تشرف «چوليان» بتلاوة الصفحات الأربع على الدوق. وحينما انتهى قال له: أعدها ثانية ولكن على مهل.

وأخذ الأمير يدوّن مذكرات، ثم قال له: اذهب إلى مركز البريد المجاور سعياً على الأقدام واترك هنا متاعك وعربتك. سافر إلى ستراسبورج كما اتفق لك، وفي اليوم الثاني والعشرين (وكان اللقاء في اليوم العاشر) تعال إلى هذا المقهى بالذات وفي منتصف الساعة الواحدة. لا تخرج قبل نصف ساعة. والزم الصمت.

هذه هى العبارات التي سمعها «چوليان». وكانت وحدها كافية لأن تملأ قلبه إعجاباً بهذا الدوق؛ فأخذ يقول في نفسه: هكذا تُقضى الأعمال؛ ماذا كان يقول هذا الرجل العظيم لو أنه أنصت إلى ما كان يدور من ثرثرة شديدة منذ ثلاثة أيام؛

ثم قطع الرحلة إلى ستراسبورج في يومين، لأنه ظن أن ليس له هناك عمل، فسلك طريقاً طويلاً؛ وأخذ يقول: لو أن هذا الشيطان الكاهن كاستانيد عرفني، ما تخلف عن اقتفاء أثري لحظة، وكم يسره أن يسخر مني وأن أُمْنَى بالفشل في مهمتي!

والأب كاستانيد، رئيس كل الشرطة التي وكل إليها مراقبة الحدود في الشمال، لم يعرف «چوليان» من حسن حظه. أما اليسوعيون في ستراسبورج فلم يفكروا أبداً في مراقبة هذا الشاب وإن كانوا متحمسين إلى أبعد حد. وأما بطلنا فقد شغل بوسامه وحلته الزرقاء، وكان يبدو -كأنه من شباب الجيش- معنياً بنفسه وشخصه.

الفصل الرابع والعشرون

ستراسبورج

يا له من سحر! إن لك من الحب قوته وبأسه لتشعر بمرارته وقسوته. إن ملذاته الحلوة ومتعه الجميلة ليست في متناول يدك. وحينما أراها نائمة لا أستطيع أن أقول: إنها لي بجمالها السماوي وضعفها الرقيق! ها هي ذى مستكينة لقوتي، كما خلقتها السماء برحمتها لتسر قلوب الرجال.

مقطوعة من شعر شيلر

اضطر «چوليان» إلى البقاء في ستراسبورج ثمانية أيام، فأخذ يتسلى بآراء: بالآراء الحربية المجيدة والإخلاص للوطن. فهل هو محب إذن؟ إنه لا يعرف شيئاً، غير أنه رأى «ماتيلد» مسيطرة على سعادته سيطرة مطلقة وتملك عليه دائماً خياله. وكان لابد له من أن يستعين بكل ما في خلقه من قوة كي لا يتسرب إلى نفسه اليأس. ولم يكن في مقدوره أن يفكر في شيء لا تربطه بالآنسة دى لامول أية رابطة.

كان طموحه وما يصيبه من توفيق ضئيل يشغله من قبل عن أن يُعنَى بالعواطف التي كانت «مدام دى رينال» تبثها في قلبه، وكان غروره يحول بينه وبين تعهد هذه المشاعر. أما الآن فقد سيطرت «ماتيلد» على كل شيء في نفسه؛ بحيث يجدها ماثلة أمامه كلما نظر إلى المستقبل.

وكان «چوليان» يرى الفشل في كل ناحية من نواحي مستقبله. وهذا الشخص الذي رأيناه في ڤريير معتداً بنفسه الاعتداد كله، متكبراً إلى أبعد حدود الكبر، أصبح الآن متواضعاً إلى درجة مزرية.

فمنذ ثلاثة أيام ملكته رغبة قوية في أن يقتل الكاهن كاستانيد، أما اليوم فلو أن طفلاً من أطفال ستراسبورج تحامل عليه من غير حق وتشاجر معه، لأظهر بطلنا أن الطفل على صواب، وأنه هو المخطيء وحينما يأخذ في استعراض غرمائه وأعدائه الذين لاقاهم في حياته، يجد نفسه أنه قد كان على خطأ وأنهم كانوا هم المحقين. أصبح خياله الآن عدوه الحقّ القوي، وهو الذي كان يرسم له من قبل نجاحاً باهراً ويمنيه بالتوفيق في الحياة.

وقد زادته الوحدة التي لقيها في هذه المدينة ألما على ألم، وقوّت من الصور السود التي كان يرسمها له الخيال. كم ودّ أن يعثر على صديق له! فالصديق في مثل هذه الحالة كنز، ولكنه كان يسائل نفسه: وهل في العالم قلب يخفق من أجلي؟ وإذا كان لي صديق، أفلا يفرض عليّ الشرف أن ألتزم معه الصمت المطلق؟

كان يتنزه على ظهر جواده والحزن يملأ قلبه في ضواحى «كهْل»، الواقعة على ضفة

نهر الرين والتي خلدها ديزيه وجوڤيون سان سير. وكان فلاح ألماني يريه الجداول الصغيرة والطرقات وجزر الرين التي خلعت عليها شجاعة هؤلاء القواد اسماً خالداً. وكان «چوليان» ممسكاً عنان جواده بيده اليسرى، أمّا اليد اليمنى فقد أمسك بها مصّوراً رائعاً زينت به مذكرات المارشال سان سير. كان ينظر إلى المصوّر حين حملته صيحة فرح على أن يلتفت إلى مصدرها.

إنه الأمير كورازوف صديقه في لندن، الذي كشف له القناع منذ بضعة شهور عن قواعد الادعاء الشديد. وكورازوف على عادته مخلص لهذا الفن، فأخذ يشرح لچوليان كل ما تقع عليه عينه، مع أنه لم يصل إلى ستراسبورج إلا أمس فقط، وذهب إلى «كهْل» منذ ساعة، ولم يقرأ من قبل شيئاً عن حصار سنة ١٧٩٦. فأخذ الفلاح الألماني ينظر إليه ذاهلاً، لأنه يعرف الفرنسية بالقدر الذي يمكنه من تمييز الأخطاء الفاحشة التي يخطئها الأمير. وما كان «چوليان» يُعْنَى إطلاقاً بآراء الفلاح، بل كان ينظر في ذهول إلى هذا الشاب الجميل، معجباً بظرفه وهو يركب جواده.

وأخذ «چوليان» يقول في نفسه: يا له من خلق ينطوي على السعادة! إن سراويله متقنة الصنع، وشعره مقصوص بشكل بديع! وا أسفاه! لو أنني كنت كذلك، ما وقع لي أنها أحبتني ثلاثة أيام فقط، ثم أبغضتنى بعدها بغضاً شديداً.

ولما انتهى الأمير من الحديث عن حصار «كهْل» قال لچوليان: إن وجهك وجه رجل من رجال الدين، لقد تجاوزت مبدأ الوقار الذي حدّثتك عنه في لندن. إن الوجه الحزين لا يدل على الظرف، وإنما هو الوجه الذي ينم على السأم. وإذا كنت حزيناً، كان ذلك دليلاً على أن شيئاً ينقصك أو أن هناك شيئاً لم يكتب لك النجاح فيه. ومعنى ذلك أنك تظهر بمظهر النقص. أما إذا بدا عليك السأم، فمعناه أن الشخص الذى يحاول عبثاً أن يرضيك هو الذي يشعر بهذا النقص. فعليك أن تدرك إذن يا عزيزي أن الاحتقار وقعه خطير.

وألقى «چوليان» قطعة من النقود للفلاح الذي كان يصغى إلى ما يقال فاغراً فاه، ثم قال الأمير.

- حسناً، إن هذا شيء ظريف، عليك بالاحتقار الرفيع! حسناً جداً!

ثم ركض بجواده، و«چوليان» يتبعه، وهو مبد إعجاباً ينطوي على الغباء.

وتحدث إلى نفسه قائلاً: آه! لو أنني كنت كذلك، إذن ما فضلت على كروازينوا! وكلما حدثة عقله بتفاهة ما يقوله الأمير، احتقر نفسه لأنه لا يعجب بما يقال له، واعتقد أنه بائس حقاً؛ لأنه خلو من هذه الصفات. وإن احتقار المرء لنفسه لا يمكن أن يذهب إلى أبعد من هذا.

ورآه الأمير حزيناً حقاً فقال له وهما يدخلان ستراسبورج: ماذا بك يا عزيزي؟ هل فقدت كل مالك أم تراك تحب ممثلة صغيرة؟ إن الروس يحاكون الفرنسيين، في أخلاقهم، ولكنهم يحاكونهم فيما مضى عليه نصف قرن. فهم الآن إذن قد وصلوا إلى عصر لويس

الخامس عشر.

وجعل حديث الأمير العابث عن الحب، الدموع تترقرق في عيني «چوليان»، فسأل نفسه بغتة: لم لا استشير هذا الرجل الظريف ثم قال للأمير:

– نعم يا عزيزي، إنك تراني في ستراسبورج محباً لأبعد حد، وإن كانت حبيبتي قد هجرتني. إن امرأة ظريفة تسكن بلدة مجاورة، قد تخلت عني بعد أن أحبتني ثلاثة أيام، وهذا التغير يكاد يقتلني قتلاً. وصور للأمير أعمال ماتيلد وخلقها وإن كان قد خلع عليها اسماً مستعاراً، فقال له:

– حسبي ماذكرت، وسأقص عليك أنا باقي قصتها، لتثق بطبيبك. إن زوج هذه المرأة الشابة يتمتع بثراء عريض أو أنها هي تنتسب إلى أعرق الأسر في المقاطعة. ولابد أنها معتدة بشيء ما.

فأومأ إليه چوليان برأسه، لأن الشجاعة ما كانت تواتيه ليتحدث إليه.

– سأصف لك ثلاثة أدوية كلها مرّة، وعليك أن تتناولها في الحال:

١– يجب أن ترى كل يوم السيدة ... ما اسمها؟

– مدام دى بوا. فقال الأمير ضاحكاً:

– يا له من اسم عجيب! ولكن معذرة فهو اسم بديع في نظرك، ينبغي أن ترى مدام دى بوا كل يوم، على ألا تظهر أمامها بمظهر الفاتر الغاضب، وعليك أن تذكر دائماً أهم مبدأ لعصرك: كن دائماً على عكس ما ينتظر منك. واظهر أبداً بالمظهر الذي كنت عليه قبل أن تظهر لك الود والعطف بثمانية أيام. فصاح «چوليان» في يأس شديد:

– آه! لقد كنت أتمتع بهدوء كبير، وقد ظننت أول الأمر أن شفقتي عليها هي التي تدفعني نحوها.

– إن الفراشة لتحترق حين تقترب من الشمعة، وهذا تشبيه قديم قدم العالم.

١– يجب أن تراها كل يوم.

٢– عليك بمغازلة امرأة من طبقتها، ولكن دون أن تبدو عليك علامات الحب، فهل تفهم هذا؟ لا أخفي عليك أن الدور الذي تقوم به سيكون شاقاً، فأنت تمثل دوراً، وإذا أدركت هي ذلك فقدتها إلى الأبد. فأجابه «چوليان» في حزن شديد:

– إنها عظيمة الفطنة، وأنا على جانب قليل من الذكاء، فيا لضيعتي!

– لا، لست قليل الذكاء ولكنك كثير الحب، إنك تحبها أكثر مما كنت أظن. إن مدام دى بوا مشغولة بنفسها إلى أبعد حد، مثلها في هذا مثل جميع النساء اللائي وهبتهن السماء: إما أصلاً عريقاً وإمّا مالاً كثيراً. إنها تعجب بنفسها أكثر مما تعجب بك، فهي إذن لا تعرفك. أما الحب الذي أظهرته لك مرتين أو ثلاثاً فيرجع إلى عمل الخيال وقدرته، فقد ظنت أنك بطل أحلامها، ولم تدركك على حقيقتك. ولكن يا للشيطان! هذه مبادىء

أولية يا عزيزي سورل، فهل لا تزال تلميذاً غريراً؟ يا إلهي! هيا بنا ندخل هذا الحانوت، فإني أرى ياقة سوداء بديعة، يظنها الرائي من صنع چون أندرسون في شارع برلنجتون، فاسمح لي أن آخذها وأن أطوّح بعيداً بهذا الحبل الذي يتدلى من عنقك.

ثم استطرد الأمير يقول، وهو يغادر أشهر محل للحياكة وبيع الشرائط في ستراسبورج: من هنّ صديقات مدام دى بوا؟ يا له من اسم! يا إلهي! لا تغضب يا عزيزي «سورل»، أنا لا أستطيع إلا أن أعجب من هذا الاسم ... من ستغازل؟

– سأغازل فتاة تتظاهر بالوقار الشديد، إنها ابنة تاجر جوارب غني جداً. عيونها فاتنة حقاً، هي أجمل عيون في الدنيا، تسبيني إلى أبعد حد حين أنظر إليها؛ وهي ولا شك تحتل المكانة الأولى في المقاطعة كلها؛ ولكنها على الرغم من عظمتها هذه، تخجل خجلاً شديداً يبلغ الاضطراب حين يُتحدث إليها عن التجارة والحوانيت. وكان أبوها لسوء الحظ من أشهر تجار ستراسبورج فضحك الأمير وقال:

– إنك إذا تحدثت إليها عن الصناعة، فأنت واثق من أن فتاتك الجميلة ستفكر في نفسها لا فيك. إنها لسخرية بديعة ومفيدة، فهي لن تتيح لك أن تظهر أية حماقة لهذه العيون الجميلة. إن النجاح مؤكد.

كان «چوليان» يفكر في أرملة المرشال فرڤاك التي كانت تتردد كثيراً على قصر دى لامول. وهي أجنبية جميلة تزوجت المارشال قبل أن يموت بعام واحد. وقد وقفت حياتها كلها على أن تنسى أنها كانت ابنة رجل من رجال الصناعة، ولكي تُخْلَق لها مكانة في پاريس، ظهرت دائماً بمظهر الفضيلة.

أعجب «چوليان» بالأمير كثيراً حتى ودّ لو قدّم أي شيء في سبيل الحصول على تفاهاته؛ وطال الحديث بين الصديقين؛ وكورازوف مسرور كل السرور، لأن چوليان أول فرنسي استمع إلى حديثه كل هذه المدة الطويلة. وأخذ يحدث نفسه في سرور بالغ: لقد أصبحت إذن قادراً على أن ألقي دروساً على أساتذتي، وهم مع ذلك يصغون لي تمام الإصغاء! ثم أعاد على «چوليان» ما قاله من قبل:

– نحن إذن متفقان، علي ألاّ يظهر في حديثك مع الفتاة الجميلة، ابنة تاجر الجوارب، لون من ألوان الحب وأنت تتحدث إليها أمام مدام دى بوا. ولكن إذا كتبت إليها فاجعل كتبك، تنم عن حب عنيف؛ فقراءة خطاب حب كتب بأسلوب جيد يعد أكبر متعة تلقاها الفتاة؛ إنها لحظة لا تشغل فيها إلا بما تقرأ. وهي لا تمثل مهزلة من المهازل، بل تجرؤ على الاستماع إلى ما يقوله قلبها؛ وعلى هذا فاكتب إليها خطابين كل يوم. فأجابه چوليان في قنوط:

– أبداً، أبداً! لخير لي أن تسحق عظامي في هاون من أن أكتب ثلاث جمل؛ لقد أصبحت جثة هامدة يا عزيزي، فلا ترج خيراً من ورائي ودعني أمت على حافة الطريق.

– ومن ذا الذي طلب منك أن تنمق الخطابات بنفسك؟ عندى ستة مجلدات من

خطابات الحب، كلها مخطوطة. وهي تمثل ألوان النساء على اختلاف طباعهن وأخلاقهن. عندي منها ما يلائم أكثر النساء تمسكاً بالفضيلة. ثم ألا تعرف أن كاليسكي غازل أجمل زاهدة في انجلترا كلها، تلك التي كانت تقيم في ريشمند لاترأس على بعد ثلاثة فراسخ من لندن؟

كان «چوليان» أقل ألماً وتعاسة حين غادر صديقه في الساعة الثانية صباحاً. وفي اليوم التالي استدعى الأمير نسّاخاً، ومضى يومان كان بعدهما عند «چوليان» ثلاثة وخمسون خطاباً من خطابات الحب، رقِّمت كلها، وتنطوي على الفضيلة في أرفع درجاتها، وفي أشد حالتها حزناً وكآبة. وقد قال له الأمير:

– أما الخطاب الرابع والخمسون فلم يكتب، لأن الراهبة الجميلة تخلصت من كاليسكى، ولكن ماذا يضيرك إذا عاملتك ابنة تاجر الجوارب معاملة سيئة، مادمت لا ترمي إلا لكسب قلب مدام دى بوا؟

كانا يركبان الجياد كل يوم، وقد أصبح الأمير متعلقاً بچوليان تعلقاً شديداً. ولم يعرف كورازوف كيف يعبّر له عن صداقته المفاجئة، وعرض عليه أن يزوجه بإحدى قريباته، وهي بنت من بنات أعمامه ورثت ثروة طائلة في موسكو؛ واستطرد يقول: وحينما يتم هذا الزواج سأستعمل نفوذي فأجعلك أمير آلاى بعد عامين، وسيساعدني في ذلك هذا الوسام الذي نلته.

– ولكن عليك أن تذكر أن هذا الصليب لم يمنحه لي نابليون.

– وماذا يعنينا، أليس هو مخترع هذا الوسام؟ إنه لا يزال خير الأوسمة في أوربا كلها.

وكاد «چوليان» يقبل ما عرض عليه، لكن واجبه استدعاه فذهب للقاء هذا الشخص العظيم، ووعد كورازوف أن يكتب إليه. تسلم ردّ المذكرة السرية ثم أسرع عائداً إلى باريس. ولم يكد يقيم بها وحده يومين متواليين، حتى رأى أن في مغادرة فرنسا وترك «ماتيلد» عذاباً أليماً، أشق على نفسه من الموت. وقال في نفسه: لن أتزوج الملايين التي عرضها عليّ كورازوف، ولكني سأتبع ما نصحني به.

إن فنّ الإغراء -على كل حال- مهنة هذا الأمير ... هو شغله الشاغل منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، لأن عمره الآن ثلاثون سنة. ولا يستطيع المرء أن يصفه بأنه قليل الفطنة، فهو ذكيّ مراوغ؛ لا يعرف الحماسة ولا الشعر، وهو نائب، وقد علمه منصبه ألا يقع في خطأ.

يجب أن أغازل مدام دى فرڤاك. ربما جرّت عليّ بعض السآمة، ولكني سأنظر دائماً إلى عينيها الجميلتين اللتين تشبهان تماماً عينين لست أبغى عنهما بديلاً في العالم بأسره. إنها أجنبية، وسيتيح لي هذا فرصة دراسة خلق جديد.

إني لمجنون، إني أجر على نفسي المهالك؛ لأني أتبع نصائح صديق وأنا لا أومن به،

الفصل الخامس والعشرون

وزارة الفضيلة

لو أنني أقبلت على هذه اللذة في حذر شديد وتحفظ كبير، ماعدت أشعر بأنها لذة.

لوب دى فيجا

لم يكد «چوليان» يعدو إلى پاريس، ويغادر مكتب «المركيز دى لامول» الذي كان مضطرباً جداً من الرسائل التي قدمت إليه، حتى أسرع ليلقى الكونت ألتاميرا. فهذا الأجنبي الجميل تنطوي نفسه على وقار، ويشعر بسعادة العبادة، فضلاً عن أنه حكم عليه بالإعدام؛ وهاتان الصفتان إذا أضيف إليهما كرم محتد الكونت، كان مفضلاً عند مدام دى فرڤاك التي تراه كثيراً.

واعترف له چوليان في وقار، بأنه مغرم بها محب لها إلى أبعد الحدود. فقال له الكونت:

- إنها تمثل الفضيلة في أنصع معانيها وأرفع مراتبها، لكنها منافقة قليلاً، محبة للعظمة. ففي بعض الأيام أفهم كل كلمة تقولها، ولكني لا أفهم الجملة كلها بصفة عامة. وكثيراً ما أفكر في أني لا أعرف الفرنسية كما تعرفها هي حين تتحدث إليّ. على أن معرفتك بها ستذيع اسمك، وتثقل موازينك في المجتمع. هيا بنا نذهب إلى بوستوس فقد غازل المرشالة وتودد إليها من قبل.

أخذ دون دييجو بوستوس، ينصت طويلاً إلى ما يعرض عليه، دون أن يقول شيئاً، مثله مثل المحامي في مكتبه. وهو ذو وجه ضخم كوجوه الرهبان وشارب أسود، ووقار ما له من نظير. وهو على الجملة ماسوني صالح. وبعد فترة طويلة، قال لچوليان:

- إني أفهم ماتريد. ولكن المرشالة دى فرڤاك! هل اتخذت لها عشاقاً، أم لم تعرف تلك العلاقات؟ ثم هل لك أمل في أن تكسب قلبها؟ هذا هو الإشكال. أما أنا فاعترف لك بأنني أخفقت. ولم أعد الآن ناقماً عليها، وقد كونت لنفسي عنها هذا الرأى. إن الغضب يتسلط عليها في بعض الأحيان كما سأخبرك، وهي لهذا محبة للانتقام. ولا أراها تتصف بالمزاج الصفراوي الذي يميز العبقرية ويخلع على الأعمال كلها لوناً من ألوان الشغف. بل هي على عكس ذلك تميل إلى الخمول والهدوء، وهما طابعا الهولنديين، وإليهما يرجع جمالها النادر ولونها الرائع.

فرغ صبر «چوليان» من بطء هذا الإسپاني ومن هدوئه الشديد؛ وعلى الرغم منه

كانت تفلت من بين شفتيه بعض كلمات من آن إلى آخر، فكان دون دييجو بوستوس يقول له في وقاره المعهود:

- أتريد أن تصغي إليّ؟

- أرجو أن تغفر لي هذه الحدة الفرنسية ؛ أنا مصغ إليك كل الإصغاء.

- إن مدام دى فرفاك تملأ الكراهية نفسها ويستولي عليها الحقد، فهى تقاضي أناساً لم ترهم في حياتها، وتضطهد محامين بائسين وأدباء ألفوا أغاني مثل «كوليه»، فهل تعرفها: إنى مولع بحب ماروت ولعاً شديداً .... .

واضطر چوليان إلى سماع الأغنية كلها، لأن هذا الإسباني كان يشعر بارتياح شديد وهو يغني بالفرنسية. ولم يكتب لهذه الأغنية الجميلة أن تُسمع في ضيق وفروغ صبر، على النحو الذى سمعها به «چوليان». ثم انتهت فقال له دون دييجو بوستوس: لقد طردت المرشالة مؤلف هذه الأغنية: الحب ذات يوم في الحانة .... .

وقد ارتاع «چوليان» وخشي من أن يضطر إلى سماع هذه الأغنية كذلك، لكن الإسباني اكتفى بتحليلها. وقد كانت تنطوي في الواقع على الفجور والإلحاد.

ثم استطرد دون دييجو يقول: لما استولى الغضب على المرشالة بسبب هذه الأغنية، أخبرتها بأنه لا يجمل بسيدة في مكانتها أن تقرأ كل الحماقات التي تنشر. ومهما انتشر التقى والوقار في فرنسا، فسيظل بها دائماً أدب الحانة. وعندما طرد المؤلف البائس من منصبه الذي كان يدرّ عليه ألفا وثمانمائة من الفرنكات، قلت لها: حذار من هذا الرجل، فقد استعنت بأسلحتك الخاصة على عزله من منصبه، ولكنه كشاعر يستطيع أن يبادلك شراً بشر مستخدماً قوافيه: سيؤلف أغنية في الفضيلة. ستكون الصالونات المذهبة إلى جانبك وتقرك على ما تفعلين، ولكن الذين يؤثرون الضحك سيرددون أهاجيه. فهل تعرف يا سيدي ماذا كان جوابها؟ قالت: إنني لا أعبأ في سبيل الله بأن تحشرني پاريس في زمرة الشهداء، وسيكون هذا منظراً جديداً لم تشهده من قبل فرنسا. وسيتعلم الناس كيف يحترمون الجوهر. وإنّ هذا سيكون أجمل يوم في حياتي. وكم كانت عيناها جميلتين وهي تقول ما قالت. فصاح «چوليان»: - إن لها عينين ساحرتين.

- أرى أنك عاشق حقاً. واستطرد دون دييجو بوستوس في وقار: إنها لم تفطر على الشر الذي يؤدي إلى الانتقام. أما رغبتها في الإيذاء فترجع إلى أنها هي نفسها بائسة. وأعتقد أن بؤسها في قرارة نفسها. أليست امرأة جميلة زهدت في مهنتها نفسها؟

ثم أخذ الأسبانى ينظر إلى «چوليان» في صمت لحظة طويلة. ثم قال له في وقار: هذه هي المسألة بحذافيرها قد عرضتها عليك، ويخيل إليّ أنك إن أصبت نجاحاً فإنما تصيبه من هذه الناحية. لقد فكرت فيها كثيراً أثناء العامين اللذين كنت فيهما خادمها المطيع. وإن مستقبلك أيها السيد العاشق متوقف على هذه المعضلة الكبيرة: أهي سيدة زهدت في مهنتها، وتقدم على الشر لأنها بائسة؟ وهنا بدأ الكونت ألتاميرا يتكلم بعد أن لزم

صمتاً طويلاً فقال:

- أو أنها كما قلت لك عشرين مرة تتصف بالكبرياء الفرنسية؟ وذكرى أبيها الذي كان تاجراً مشهوراً للأصواف، هي التي خلعت عليها هذا الخلق الجافّ الحزين. إن سعادتها الحقة هي أن تقيم في تولد، وهناك تلقى كل يوم قسيساً تعترف أمامه، فيعذبها عذاباً شديداً، ويريها جهنم فاغرة لها فاهاً.

وبينما كان «چوليان» يهم بالانصراف، قال له دون دييجو في وقاره الدائم: لقد أخبرني ألتاميرا أنك منا. إنك ستساعدنا يوماً في أن نستعيد حريتنا، وإذن يسرني أن أعاونك في هذه المهمة الصغيرة. يحسن أن تعرف أسلوب المرشالة، فإليك أربعة خطابات بخطها. فقال له چوليان:

- سأنسخها وأردها إليك.

- على ألا يعلم إنسان بكلمة واحدة مما دار بيننا، أتفعل ذلك؟

- نعم، وأقسم لك بشرفي!

- أسأل الله لك المعونة! ثم التزم الصمت، وشيّع «چوليان» وألتاميرا إلى سلم المنزل. سرّ چوليان بهذا المنظر حتى كاد يبتسم، وأخذ يقول في نفسه: ها هو ذا ألتاميرا الورع يعاونني في مشروع ينطوي على الفجور.

وكان «چوليان» أثناء هذا الحديث الذي يسوده الجدّ والوقار منتبهاً إلى دقات ساعة قصر اليجر. إن جرس العشاء سيدق بعد قليل، وسيرى «ماتيلد» إذن! عاد إلى القصر، وارتدى ملابسه في كثير من العناية. وأخذ يقول وهو يهبط السلم: ها هي ذي أولى الحماقات التي أرتكبها، ولكن عليّ أن أتبع إرشادات الأمير وأطبقها حرفياً.

ثم عاد إلى غرفته ولبس حلة من ثياب الرحلة فظهر بمظهر البساطة.

ثم أخذ يقول: والآن وقد انتهيت من ملبسي، فقد جاء دور النظرات. كانت الساعة السادسة قد انتصفت، والعشاء في تمام السادسة، فخطر له أن ينزل إلى الصالون فألفاه خالياً. ثم وقع بصره على الأريكة الزرقاء، فتأثر كثيراً حتى كادت تدمع عيناه؛ واحمر خدّاه احمراراً شديداً. فغضب وقال في نفسه: يجب أن أشغل هذه الحساسية بشيء لأنها تخونني. ثم تناول صحيفة ليقطع الوقت في قراءتها، وتردد بين الصالون والحديقة ثلاث مرات أو أربعاً.

اختفى خلف شجرة من أشجار السنديان: فعراه اضطراب شديد، ثم أقدم على النظر إلى نافذة غرفة «الآنسة دى لامول». كانت النوافذ مقفلة كلها تماماً؛ وكاد يقع على الأرض لولا أن ظلّ يستند إلى الشجرة وقتاً طويلاً. ثم ذهب في خطوات مضطربة ليرى سلم البستاني. فوجد الحلقة التي كسرها من قبل في ظروف تغاير -ويا للأسف- ظروفه الحاضرة، لا تزال كما هي، لم يصلحها أحد، فقربها من شفتيه في حركة جنونية. وبعد أن

ظل وقتاً طويلاً ينتقل بين الصالون والحديقة، أحس أنه متعب إلى أبعد حدّ فشعر شعوراً قوياً بأن هذا أول نجاح يصيبه، قال: لن تكون نظراتي براقة. ولن تفضح أمري! ثم أخذ المدعوون يفدون على الصالون قليلاً قليلاً، ولم يفتح الباب مرة من المرات إلا ودبّ الفزع في قلب «چوليان».

اختلف المدعوون جميعاً إلى المائدة، وظهرت أخيراً« الآنسة دى لامول» التي تتمسك بعادة فطرت عليها، وهي أن تتأخر عن الحضور. ووقع بصرها على «چوليان»، فاحمر وجهها جداً؛ لأنها لم تكن تعلم من قبل أنه قد حضر. واتبع «چوليان» إرشادات الأمير كورازوف، فأخذ ينظر إلى يديها فوجدها ترتجف. وكان هو كذلك مضطرباً كثيراً حين اكتشف الرجفة التي أصابتها، ثم كان سعيداً لأن وجهه لا ينم إلا عن التعب.

أثنى «المركيز دى لامول» على «چوليان»، ووجهت إليه المركيزة الحديث بعد لحظة واحدة، وامتدحت الإعياء الذي يبدو عليه. وكان «چوليان» يقول في نفسه دائماً: يجب ألا أنظر طويلاً إلى «الآنسة دى لامول»، ولكن ينبغي أن لا تفوت عينيّ أى حركة من حركاتها. ثم عليّ أن أظهر بما كنت عليه قبل أن يصيبني الشقاء بثمانية أيام.

وفرح بما أصابه من نجاح، وبقي في الصالون، ولأول مرة كان شديد الانتباه إلى ربة الدار، فبذل مجهودا كبير في أن يحمل من معها من الرجال على الحديث، لتظل المناقشة قوية.

وقد كوفيء على أدبه، إذ حضرت المارشالة دى ڤرڤاك في الساعة الثامنة. فاختفى من الصالون ثم عاد سريعاً وقد تزيا بأحسن زي. فقدرت مدام دى لامول عمله حق قدره لأنه ينطوي على الاحترام والتبجيل، وأرادت أن تبرهن له عن رضاها عنه، فأخذت تحدّث مدام ڤرڤاك عن رحلته.

وجلس «چوليان» على مقربة من المرشالة في وضع لا يسمح لماتيلد بأن ترى عينيه. جلس هذه الجلسة متبعاً كل قواعد الفن، وأخذ يبدي إعجابه بمدام دى ڤرڤاك قوياً شديداً. واستعار قطعة نثرية تعالج هذه العاطفة الناشئة، جاءت في الخطاب الغرامي الأول من تلك المجموعة التي أهداها إليه الأمير كورازوف.

ثم أعلنت المرشالة أنها ذاهبة إلى أوپرا بوفا. فأسرع «چوليان» بالذهاب إلى الأوپرا، وهناك وجد الفارس دى بوڤوازى الذي قاده إلى مقصورة السادة أعضاء مجلس النواب، الواقعة بجوار مقصورة المرشالة. وأخذ «چوليان» ينظر إليها دائماً، ويقول في نفسه: يجب أن أدوّن حين أعود إلى القصر مذكرات الحصار وإلا نسيت خطوات الهجوم. وتحامل على نفسه فكتب صفحتين أو ثلاث صفحات عن هذا الموضوع الممل، ولشد ما دهش حين وفق في كتابتها! ولم يكد يفكر في «الآنسة دى لامول» وهو يكتبها.

أما «ماتيلد» فقد نسيته أثناء رحلته. وأخذت تقول في نفسها: إنه إنسان عاديّ على الرغم من كل شيء، وإن اسمه سيذكرني دائماً بما وقعت فيه من أكبر خطأ ارتكبته في

حياتي. يجب أن أومن بالآراء العامية التي تنطوي على الحكمة والشرف ؛ وإن المرأة لتفقد كل شيء حين تنساها. وقد أظهرت استعداداً في أن يتم زواجها بالمركيز كروازنوا الذي أعدت له العدة منذ زمن طويل. وفرح المركيز الشاب بهذا فرحاً شديداً: ولشد ما يذهل لو قيل له: إن «ماتيلد» تشعر بالاستسلام في قرارة نفسها، لقد كان الكبر يملك عليه نفسه.

ولكن «الآنسة دى لامول» ما كادت ترى «چوليان» حتى غيرت رأيها تماماً، وأخذت تقول في نفسها: هذا -في الواقع- هو زوجي، ولو أني أخذت بالحكمة، لتزوجته هو دون سواه.

كانت تتوقع لجاجة من «چوليان»، وألواناً من الشقاء يظهرها لها، وكانت قد أعدت العدة لذلك، وعرفت ماذا تجيبه به؛ إذ خيل إليها أنه سيحاول أن يقول لها بعض كلمات حين ينتهي العشاء. ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا أبداً، وظلّ جالساً في الصالون في عزيمة قوية، ولم يلتفت إلى الحديقة مرة واحدة، ويعلم الله مقدار ما بذل من جهد في سبيل ذلك! فقالت في نفسها: يحسن أن أعرف سبب ذلك في الحال. وذهبت وحدها إلى الحديقة، لكن «چوليان» ظل جالساً في الصالون. ثم عمدت إلى أن تسير على مقربة من أبواب الصالون المطلة على الحديقة، فرأته مشغولاً بوصف آثار القصور القديمة، التي تتوج التلال التي على ضفاف الرين وتخلع عليها روعة وجمالاً. وكان حديثه متجهاً إلى مدام دى فرڤاك. وقد أفلح في أن يطرق موضوعاً عاطفياً جميلاً يسمى اللّقانة في بعض الصالونات.

لو كان الأمير كورازوف في باريس لكان فخوراً بما أولاه من نصح وإرشاد، فقد انقضت هذه السهرة على النحو الذي أراده تماماً. لو كان في باريس لأقر «چوليان» على مسلكه نحو «ماتيلد» في الأيام التالية.

وقامت مؤامرة خفيّة بين أعضاء الحكومة، ترمي إلى الاستئثار ببعض الأوسمة الزرقاء، إذ صممت المرشالة فرڤاك على أن يُمنح أخو جدها وساماً من طبقة فارس. وطلب «المركيز دى لامول» الطلب نفسه لصهره ؛ وتضافرت جهود المركيز والمرشالة، فكانت تأتي كل يوم إلى قصر دى لامول. وقد علم منها «چوليان» أن «المركيز» سيُعين وزيراً، وأنه قدّم لرجال البلاط مشروعاً دقيقاً يرمي إلى تعطيل الدستور ثلاثة أعوام دون أن يحدث شغب مّا.

وكان «چوليان» يطمع في أسقفية إذا ما أصبح المركيز وزيراً ؛ إلا أن هذه المصالح الكبيرة كلها كانت قد أسدل عليها ستار، فعيناه لا تراها، وخياله لا يدركها إلا في غموض شديد، لبعدها عنه، ولأنها في آفاق سحيقة وقد كتب عليه شقاؤه أن يصبح مضعضع الحواس، وصوّر له مقدار السعادة التي ينالها لو عاش مع «ماتيلد». وبدأ يعتقد أنه لو بذل مجهوداً وعني بها لأحبته مرة أخرى بعد خمسة أعوام أو ستة.

فنحن نرى إذن أن هذا العقل الذي كان يتناول الأمور في هدوء وفتور قد أصيب

بالغباء والركود. وذهبت عنه كل صفاته الحميدة ولم يبق إلا قليل من العزم. لقد طبقّ مبدأ الأمير كورازوف مادياً، وسار على النهج الذي رسمه له، فكان يجلس كل ليلة على مقربة من مقعد مدام دى فرڤاك، ولكنه كان يجد مشقة كبيرة في أن يقول لها شيئاً.

كان المجهود الذي يبذله حتى يظهر أمام «ماتيلد» بأنه قد شفي من حبها تماماً، وقد استنفد جميع القوى المسيطرة على نفسه، فكان يجلس بجوار المارشالة وكأنه شخص زايلته الحياة، وفقدت عيناه كل بريق، كأنه فريسة لآلام بدنية حادّة. وبما أن آراء مدام دى لامول تعدّ صدى لآراء زوجها الذي يستطيع أن يجعلها دوقة، فقد أخذت تطري مزايا «چوليان» إطراء كثيراً.

الفصل السادس والعشرون

الحب الخلقي

وكان في أدلين بالطبع نعومة هادئة في الحديث شأنها
في ذلك شأن النبلاء الرومانيين؛ فهي لا تتجاوز إطلاقاً
خط الاستواء من كل ما تتجلى عنه الطبيعة،
كالموظف الصيني الذي لا يسره شيء، وأقل ما هنالك
أن مسلكه لا ينم على أن شيئاً مما يقع عليه بصره
يمكن أن يثير الأعجاب.

دون چوان:الفصل ١٣ - المقطوعة ٨٤

كانت مدام دى فرڤاك تقول في نفسها: في هذه الأسرة مسّ من الجنون، إنهم جميعاً مولعون بقسّهم الشاب الذي لا يعرف إلا أن يصغي إلى الحديث بعينين جميلتين ما في ذلكشك.

أما «چوليان» فقد وجد بدوره أن في طرق المرشالة هدوءاً تاماً، فهي مثل للهدوء البطريقي الذي يوحي بالأدب الحق، ولا يصدر عنه انفعال قوي. والحركات غير المتوقعة وعدم سيطرة الإنسان على نفسه يؤذيانها أشدّ إيذاء، كما يؤذيها عدم الظهور بالعظمة أمام من هم أقل منها شأناً. وأقل علامة تدل على الحساسية تعتبرها مدام دى فرڤاك لوناً من ألوان النشوة النفسية التي تخجل منها، وتؤذي صاحب المكانة العالية وتحط من قدره. وأكبر سعادة لها هي أن تتحدث عن آخر رحلات الملك في الصيد، وكتابها المفضل هو مذكرات الدوق سان سيمون، وعلى الأخص الجزء الذي يتناول الأنساب.

كان «چوليان» يعرف المكان الذي يتلاءم مع نوع جمال مدام دى فرڤاك، تبعاً لموقع الأنوار. فكان يجلس على مقربة منه إلى أن تأتي، لكنه كان حريصاً على أن يدير مقعده حتى لا تراه «ماتيلد»، التي أعجبت من مثابرته على إخفاء وجهه منها. فغادرت الأريكة الزرقاء ذات يوم وأتت تعمل بجانب منضدة صغيرة قريبة من مقعد المرشالة. ورآها «چوليان» قريبة منه، وكانت نظراته تمتد إليها من تحت قبعة المرشالة، فأزعجته عيناها أول الأمر؛ لأنهما تملكان البّت في مصيره، ثم انتزعتاه بعد ذلك من البلادة التي رافقته أخيراً، فأخذ يتحدث، وكان موفقاً في الحديث.

كان يخاطب المرشالة على حين يرمي إلى أن يؤثّر في نفس «ماتيلد». واستولت عليه حمية شديدة حتى أن مدام دى فرڤاك لم تعد تفهم ما يقول. وكانت هذه الطريقة أولى الميزات، ولو أن «چوليان» أضاف إلى طريقته هذه عبارات من العبادة الألمانية، فيها تقى شديد وتنطوي على اليسوعية، لعدته المرشالة طفرة واحدة من أولئك الممتازين الذين يصلحون للحكم.

عندئذ قالت الآنسة دى لامول في نفسها: لن أصغي إلى حديثه ما دام غير سليم الذوق، فيتحدث هذا الحديث الطويل إلى مدام دى فرڤاك في حمية شديدة. ونفذت ما قالته طوال السهرة وإن لاقت في سبيل ذلك عنتاً شديداً.

وفي منتصف الليل كانت تحمل الشمعدان لتوصل أمها إلى غرفة نومها، فوقفت مدام دى لامول على السلم وأخذت تثني على «چوليان» ثناء مستطاباً، فزاد ذلك في غيظ «ماتيلد» حتى لم يطرق النوم جفونها طوال ليلتها. على أن فكرة طرأت عليها فبعثت في نفسها الهدوء: إن من أحتقره، يستطيع أن يكون في نظر المرشالة رجلاً ذا مواهب كثيرة.

أما «چوليان» فقد قل شقاؤه، لأنه عمد إلى العمل؛ وقع بصره مصادفة على الحقيبة التي اتخذت من الجلد الروسي والتي وضع فيها الأميركورازوف الثلاثة والخمسين خطاباً حين أهداها إلى «چوليان». ورأى «چوليان» في أسفل الخطاب الأول هذه الملحوظة: يرسل هذا بعد اللقاء الأول بثمانية أيام.

فصاح قائلاً: لقد تأخرت كثيراً! لأني أرى مدام دى فرڤاك منذ زمن طويل. وسرعان ما أخذ ينسخ الخطاب الغرامي؛ لقد كان موعظة حافلة بعبارات في الفضيلة، وموعظة مملة إلى أبعد حد؛ حتى إنه شعر بسعادة كبيرة حين نام وهو ينسخ الصفحة الثانية.

وبعد ذلك ببضع ساعات، طلعت عليه الشمس وهو نائم على المنضدة. وكان يعدّ طلوع النهار شؤماً عليه حين يستيقظ من النوم، لأن كل صباح يذكره بشقائه: أما في ذلك الصباح فقد أتمّ الخطاب وهو يضحك، وأخذ يقول: أمن الممكن أن يكون هناك شاب يكتب بهذه الطريقة! وأخذ يحصي عدة جمل، تشغل كل منها تسعة سطور. ورأى في أسفل الخطاب ملحوظة أخرى كتبت بالرصاص، جاء فيها:

على الرجل أن يحمل بنفسه هذه الخطابات إلى محبوبته: راكباً جواداً، لابساً رباط رقبة أسود وردنجوتاً أزرق. ويسلم الخطاب إلى البواب بطريقة حزينة: وأن تنمّ النظرات عن همٍّ كثير. وعليه إذا رأى وصيفة أن يمسح عينيه خفية، وأن يتحدث إلى الوصيفة. ونفّذ «چوليان» هذا كله فى دقة كبيرة.

وعندما كان يغادر قصر دى فرڤاك أخذ يقول: هذا عمل ينطوي على الجرأة، ولكن هذه هي تعليمات كورازوف. أأجرؤ على الكتابة إلى من اشتهرت بالفضيلة والطهر؟! سأنال الكثير من احتقارها، على أنّ هذا سيسرّي عن نفسي كثيراً. وهذا الأمر هو المهزلة الوحيدة التي أستطيع تمثيلها. نعم، إني لأسرّ حين تسخر سخرية لاذعة من هذا البغيض الذي هو أنا، وأن الأمر ليصل بي في بعض الأحيان إلى التفكير في ارتكاب جريمة لأسرّي عن نفسي.

كانت أسعد لحظة في حياة «چوليان» منذ شهر هي اللحظة التي كان يدخل الحصان فيها إلى الحظيرة. وقد حرم عليه كورازوف تحريماً باتاً أن ينظر إلى الخليلة التي هجرته مهما يكن الباعث إلى هذه النظرة. ولكن خطوات الحصان التي تعرفها «ماتيلد» معرفة

تامة، وطريقة «چوليان» في قرع باب الحظيرة بعصاه ليستدعي سائساً. كل ذلك كان يجذب «ماتيلد» إلى النافذة فتختفي من وراء ستار. ولكن النسيج كان رقيقاً مكّن «چوليان» من أن يرى ما وراءه. وكان ينظر بطريقة خاصة من تحت حافة قبعته، فيرى قوام «ماتيلد» دون أن يرى عينيها. وكان يقول في نفسه: وعلى هذا فهي لا تستطيع أن ترى عيني، إذن فكأنني لا أراها.

وفي المساء، كانت معاملة مدام دى فرڤاك له لا تخالف إطلاقاً معاملتها له في الليالي السالفة، كأنها لم تتسلم هذا البحث الفلسفي المتصوّف المتدين، الذي أعطاه «چوليان» لبواب قصرها في حزن وكمد.

لقد ساقت إليه المصادفة بالأمس الطريقة التى يكون بها فصيح اللسان، فجلس جلسة يرى فيها عينى «ماتيلد» التي غادرت بدورها الأريكة الزرقاء بعد وصول المرشالة بلحظة قصيرة، ومعنى هذا أنها قد هجرت من تجلس عادة معهم. وبدا الحزن على وجه المركيز دى كروازنوا لهذه النزوة الجديدة، فانتزع هذا الألم الظاهر من نفس «چوليان» ما كان يلقاه من شقاء مرير.

كانت هذه المباغتة الجديدة كبيرة الوقع على نفسه، فأخذ يتكلم في روعة وطلاوة؛ وبما أن حبّ الذات قد يصل إلى القلوب التي تعد معابد للفضيلة، فقد أخذت مدام دى فرڤاك تقول في نفسها وهي تصعد إلى عربتها: إن مدام دى لامول لعلى حق، فهذا القسّ الشاب ممتاز حقاً. يظهر أنه كان يخجل مني في الأيام الأولى. والواقع أن كل ما نلقاه في هذا المنزل ينطوي على الخفة؛ إنني لا أرى غير فضائل مصدرها الكهولة، كانت في حاجة شديدة إلى مرآة الشيخوخة لتنعكس عليها. وقد أدرك هذا الشاب الفرق بين الحالتين، إنه يكتب كتابة حسنة، لكنني أخشى أن يكون طلبه في أن أهديه سواء السبيل كما جاء في كتابه، ليس إلا عاطفة لا يزال يجهلها. ومع ذلك فكم بدئت تغيرات على هذا النحو! ومما يجعلني أتفاءل بهذا الخطاب أن أسلوبه يغاير أساليب الشبان الذين قرأت خطاباتهم. ومن العسير ألا يعرف المرء الطلاء الظاهريّ، ونثر هذا الشاب الديني فيه جدّ عميق، وأنا واثقة من أنه يعتقد ما يقول اعتقاداً راسخاً، إنه سيتحلّى بهذه الفضيلة الحلوة، فضيلة ماسيّون.

الفصل السابع والعشرون
خير مناصب الكنيسة

الخدمات! المواهب! النبوغ! كل ذلك لا قيمة له! فانتم إلى حزب من الأحزاب.

تليماك

أصبحت فكرة الأسقفية مرتبطة في رأس «چوليان» للمرة الأولى بفكرة امرأة ستوزع عاجلاً أو آجلاً خير مناصب الكنيسة في فرنسا. لكن هذه الميزة لم تكن موضع تفكير عند «چوليان» ؛ لأن فكره أصبح مشغولاً بما يلقاه من شقاء فحسب، وقد كان كل شيء يزيد في ألمه وبؤسه، فكان -مثلاً- حين يرى غرفته لا يطيق النظر إليها. وإذا ما صعد إليها في المساء والشمعة في يده، كانت كل قطعة من الأثاث، وكل حلية من الحلى كأنها تذكره بشقائه، وتوحي إليه في صوت بغيض لوناً جديداً من ألوان العذاب.

كان يتحدث إلى نفسه، وهو عائد إلى غرفته في ذلك اليوم، في حمية لم يعهدها في نفسه منذ زمن طويل. كان يقول: إني مكلف اليوم عملاً شاقاً، وأرجو أن يكون الخطاب الثاني كثير الإملال كالخطاب الذي سبقه.

لكن الخطاب كان أكثر من سابقه إملالاً، بحيث رأى أن ما ينسخه ينم عن سخف شديد؛ حتى إنه أخذ ينسخ سطراً بعد سطر دون أن يفكر في معنى ما ينسخ. وقد أخذ يقول في نفسه: إن أسلوبه أكثر جزالة من الوثائق الرسمية لمعاهدة مونستر التي كلفني كتابتها أستاذي في علم السياسة بلندن.

وتذكر في هذه اللحظة، خطابات مدام دى فرڤاك التي نسي أن يردّ أصولها إلى الإسپاني الوقور دون دييجو بوستوس. فبحث عنها وقرأها فإذا بها تنطوي على مثل هذا الهذر الذي جاء في خطابات السيد الروسي الشاب. كانت شديدة الغموض، قد يفهم الإنسان منها كل شيء وقد لا يفهم شيئا أبداً. هذا الأسلوب عجيب حقاً، فبينما أجد فيه آراء سامية عن الفناء والموت واللانهاية وما إليها، إذ بي ألمح خوفاً شديداً حقيقياً من السخرية.

كانت مناجاة «چوليان» نفسه، هذه التي عمدنا إلى اختصارها، تشغل عليه حياته خمسة عشر يوماً متتالية. كان النوم يغلبه وهو مكب على نسخ خطابات هي كشروح لأپوكاليپس، ويذهب في اليوم التالي حاملاً الخطاب في وجوم شديد، ثم يعيد الحصان إلى الحظيرة علّه يرى ثوب «ماتيلد»، ثم يؤدي عمله، وفي المساء يذهب إلى الأوپرا إذا لم

تأت مدام دى فرڤاك إلى قصر دى لامول؛ هذه هي الأحداث المملة التي شغلت حياة «چوليان».

أما إذا أتت مدام دى فرڤاك إلى قصر دى لامول، فإن حياته تتغير بعض الشيء، لأنه كان يرى عيني «ماتيلد» من تحت قبعة المرشالة فينطلق لسانه. وتنحو عباراته الجميلة العاطفية نحواً مؤثراً أنيقاً.

كان «چوليان» يؤمن بأن ما يقوله لا تعده «ماتيلد» إلا هراء ولغواً، ولكنه كان يرمي إلى أن يؤثر في نفسها ببراعة إلقائه. وكان يقول في نفسه: كلما أمعنت في تناول ما ليس صحيحاً من الآراء، تعجب بي؛ ثم دفعته جرأة مرذولة إلى أن يغالي في بعض مظاهر الطبيعة. وسرعان ما فطن إلى أن المرشالة لا تحب الآراء المنطقية البسيطة، فكان يجتنب هذه الآراء حتى لا تسقط عندها مكانته. فظل على هذا يطنب مرة ويوجز أخرى، حسبما يراه من نجاح أو فشل في عيون هاتين السيدتين اللتين يحرص على إرضائهما. وتبدو حياته أقل شقاء وبؤساً حين يشغل بما بين يديه من أعمال، ولكن الويل إذا ما هبطت عليه البطالة.

أخذ يحدث نفسه ذات مساء ويقول: هأنذا أكتب الآن الخطاب الخامس عشر من هذه البحوث الكريهة، وقد سلمت بنفسي أربعة عشر خطاباً من قبل إلى حاجب المرشالة. ويخيل إليّ أنني سأتشرف بملء أدراج مكتبها. ومع ذلك هي تعاملني كما تعامل من لا يكتب إليها! ثم ما نهاية كل ذلك؟ هل تبعث هذه المثابرة في نفسها السأم كما تبعثه في نفسي؟ يجب أن أعترف بأن هذا الروسي صديق الأمير كورازوف، والذي كان يحب راهبة ريشموند الجميلة، كان رجلاً مزعجاً في زمانه، إذ لا يمكن أن يصل إنسان إلى ماوصل إليه من إقلاق وإملال.

لم يفطن «چوليان» إلى الطريقة التي اتبعها الشاب الروسى للتأثير في قلب الانجليزية الحسناء، فكان مثل بطلنا كمثل الأشخاص العاديين الذين تسوقهم المصادفة إلى رؤية خطط قائد كبير. كان الأربعون خطاباً الأولى ترمي إلى طلب الصفح عنه منها لأنه جرؤ على الكتابة إليها. وقد أراد أن تألف هذه الفتاة الرقيقة عادة تسلّم خطابات منه كل يوم، وربما كانت حياتها تنطوي على السأم، بل ربما كانت هذه الكتب أقل مرارة من حياتها اليومية.

وتسلّم «چوليان» ذات صباح خطاباً عرف منه علامات دى فرڤاك، فأسرع في فضّه، وكان يرى ذلك مستحيلاً منذ بضعة أيام: لكن الكتاب لم يكن إلا دعوة لتناول العشاء.

جرى ليستشير تعليمات الأمير كورازوف، ولكنه -لسوء حظه- رأى أن الشاب الروسي في هذه الحالة كان نزقاً إذ مثل دوراً كان ينبغي أن يكون بسيطاً ومفهوماً؛ وعلى هذا لم يستطع «چوليان» أن يعرف مكانته المعنوية عند المرشالة أثناء العشاء.

كان الصالون في أبهى زينة، وهو مذهب مثل قسم ديانا بقصر التويلرى، وفيه

لوحات زيتية تزّين الجدران، ولكن بها بقعاً ظاهرة. وقد علم «چوليان» فيما بعد أن موضوعات هذه اللوحات لم تكن عفيفة طاهرة في نظر ربة الدار، فعدّلت ما فيها من رسوم؛ فأخذ «چوليان» يقول: يا له من عصر خلقي!

رأى في هذا الصالون ثلاثة أشخاص ممن حضروا كتابة المذكرة السرية. أحدهم هو مونسنيور رئيس أساقفة ... عم المارشالة، وكان معه قائمة الرواتب الدينية، وهو كما يقولون لا يرفض لابنة أخيه طلباً. فابتسم چوليان في حزن وقال: ما أعظم الخطوة التي خطوتها، ولكن ما أقلّ شأنها عندي! ها أنذا أتناول الطعام مع هذا الرجل المعروف رئيس أساقفه.

كان العشاء متوسطاً، والحديث يدعو إلى الجزع، فلم يرض «چوليان» عن مائدة المرشالة. وكان المدعوون يتناولون الموضوعات العويصة في التفكير الإنساني في زهو كثير؛ لكنه لا يكاد المرء يستمع إليهم ثلاث دقائق حتى يتساءل: ما الذي يعنيه من سماع هذه الجزالة التي يعمد إليها المتكلم في أسلوبه، ثم يرى في وضوح، مقدار الجهل الذي ينم عنه كلامه.

لعل القارئ قد نسي هذا الشاب الأديب الذي يدعى تانبو حفيد عضو المجمع والذي سيصبح مدرساً، ذلك الذي يخيل إلى المرء أنه كلف تسميم جو قصر دى لامول بأحقاده الوضيعة. كان هذا الشاب أول من أخبر «چوليان» بأن مدام دى فرڤاك -وإن كانت لا ترد على خطاباته- راضية عن هذه العاطفة التي توحي بكتابة ما يكتب. كان الحقد يتأجج في نفس السيد تانبو التي فطرت على الشر حين يرى ما يناله «چوليان» من نجاح وما يصيبه من توفيق. وكان يحدث نفسه قائلاً: إن مثل صاحب المواهب كمثل الأحمق تماماً لا يستطيع أن يوجد في مكانين في وقت واحد، فلو أن «چوليان» أفلح في أن يصبح خليل المرشالة، لأسندت إليه منصباً رفيعاً فى الكنيسة، وبذلك يخلو لي الجو في قصر دى لامول.

ووجه الكاهن پيرار إلى چوليان مواعظ طويلة لنجاحه في قصر دى فرڤاك. وكانت تنطوي على الغيرة المذهبية بين هذا الرجل المتعصب لمذهب ينسينوس وبين هذا الصالون اليسوعي الذي أحيته المرشالة دى فرڤاك وبث فيه المبادئ الملكية.

الفصل الثامن والعشرون

مانون ليسكو

حينما اقتنع تماماً بحماقة رئيس الدير وبلادته، نجح بعض النجاح في تسمية الأسود أبيض والأبيض أسود.

ليشتنبرج

كانت التعليمات الروسية تقضي بصفة قاطعة ألا يعارض الإنسان بصوت مرتفع آراء من يكتب إليها. وعليه ألا يحيد مهما تكن الظروف عن أن يظهر بها إعجاباً شديداً؛ وكانت الخطابات كلها ترتكز على هذه المبادئ.

وفي إحدى الأمسيات أخذ «چوليان» يثني كثيراً على المقطوعة الموسيقية مانون ليسكو وهو في مقصورة مدام دى فرڤاك في الأوپرا. ولم يكن الباعث على هذا القول إلا أنه ألفى الرواية تافهة. وقالت المارشالة: إن هذه الرواية الموسيقية أقل شأناً من قصة الأب پريڤو. فأخذ «چوليان» يسائل نفسه في ذهول وعبث: كيف هذا! سيدة تتمسك بالفضيلة إلى هذا الحد تسمح لنفسها بأن تثني على قصة! وكانت مدام دى فرڤاك تظهر احتقارها الشديد للكتّاب مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع وتنحى عليهم باللائمة؛ لأن كتبهم الفاسدة تتلف الشبيبة التي تتقبل هذه الآراء بكل أسف، قبولاً حسناً!

ثم أخذت المارشالة تقول: هذا اللون الخطر من الأدب الذي لا ينطوي على الخلق القويم يشغل مكانة كبيرة في مانون ليسكو، إذ يقال أن الضعف والهلع الشديد يظهران بوضوح وجلاء، في ذلك القلب الذي فطر على الإجرام والذي تصوره هذه القصة تصويراً حقيقياً عميقاً، حتى أن بوناپرت الذي تعجب به أنت إعجاباً شديداً، قال عنها وهو في سانت هيلانه إنها قصة كتبت للخدم.

أثارت هذه العبارة كل ما فى نفس «چوليان» من حمية وقوة. وحدّث نفسه قائلاً: لقد أريد أن أفقد مكانتي عند المرشالة، فحدثوها عن إعجابي بناپليون وتحمسي له. وقد ساءها ذلك ولم تستطع أن تمنع نفسها من الإفضاء به إليّ. وسرّه هذا الاكتشاف طول السهرة، وخلع عليه ظرفاً تجلى في حديثه. وبينما كان يستأذن المارشاله في أن ينصرف، وهما في ردهة الأوپرا قالت له: تذكر يا سيدي أنه لا ينبغى لك أن تحب بوناپرت مادمت تحبني. وكل ما يطيقه الإنسان هو أن يقبله كضرورة فرضها علينا القدر. أمّا فيما عدا هذا فإن نفس هذا الرجل لم تكن من المرونة بحيث تحسّ ما في الفنون من روعة وجمال.

فأخذ «چوليان» يردد في نفسه قولتها: مادمت تحبني! ويقول: هذه الجملة تفيد كل

شيء أو لا تفيد شيئاً. فهذه أسرار اللغة التي لا يعرفها المساكين من أهل الريف. وظلّ يفكر طويلاً في «مدام دى رينال» وهو ينسخ خطاباً طويلاً ليبعث به إلى المرشالة. وفي اليوم التالي سألته المرشالة في لهجة عمدت فيها إلى عدم المبالاة، فقالت:

- كيف تحدثت إليّ في الخطاب الذي كتبته مساء أمس، بعد أن غادرت دار الأوبرا على ما أعتقد، عن لندن وريشموند؟

فارتبك أشد ارتياك، لأنه كان ينسخ الخطاب سطراً سطراً دون أن يفكر فيما كتب، وقد نسى أن يبدل بلندن وريشموند، باريس وسان كلو وحاول أن يقول لها جملة أو جملتين، لكنه كان يبدأ الحديث ولا يعرف كيف يتم الجملة؛ وأحسّ بأن رغبة قوية تدفعه إلى أن يغرق في الضحك. وبينما كان يبحث عما يقوله، طرأت عليه هذه الفكرة: لقد كانت نفسي تحلّق وأنا أكتب إليك في آفاق بعيدة، فشغلت بأسمى ما يشغل النفس الإنسانية، من أجل هذا أنسيت، فخطت يدى هذين الاسمين دون أن أحسّ.

ثم أخذ يقول في نفسه: أراني قد استطعت أن أؤثر في نفسها، وعلى هذا أحب أن أوفر على نفسي الليلة ما ألقاه من ملل. ثم غادر قصر مدام دى فرڤاك وهو يعدو. ولما رجع إلى أصل الخطاب الذي نسخه لها بالأمس، فانه سرعان ما وجد المكان الذي تحدث فيه الشاب الروسي عن لندن وريشموند. ولشدّ ما ذهل «چوليان» حين ألفى هذا الخطاب ينم عن عاطفة رقيقة.

كانت آراء «چوليان» تنطوي على شيء من النزق وتتعارض مع خطاباته التي تنم عن عمق وسموّ وامتياز. وكان طول الجمل أهم ما يعجب المارشالة فيها، فكانت تقول: لست أرى أسلوبه راقصاً كأسلوب ڤولتير هذا الرجل الكافر، الذي نشر هذا اللون من الكتابة بين الناس! ومع ما بذله «چوليان» من مجهود كبير في أن يخلو حديثه من سلامة المنطق، فقد نمّ حديثه عن شيء من الإلحاد ومعاداة الملكية، لم يخفيا على مدام دى فرڤاك. وكانت محاطة بقوم تمسكوا بالأخلاق والدين، إن كنت لا تكاد تسمع منهم رأياً واحداً طوال السهرة، لكن هذه السيدة كانت تتأثر بما يبدو عليه أنه جديد، وإن احتفظت لنفسها بالحق في أن تغضب منه. وكانت تسمي هذه النقيصة: الاحتفاظ بطابع النزق الذي يسود العصر.

مثل هذه الصالونات لم يكن يغشاها المرء إلا إذا رغب في أن يغشاها، وإن القارئ ليشعر بالسأم الذي ملأ حياة «چوليان» التي أصبحت تافهة عديمة الجدوى، وتلك هي الأرض القاحلة التي نلقاها في رحلتنا.

كانت «الآنسة دى لامول» في أشد حاجة إلى أن تتحامل على نفسها حتى لا تفكر في «چوليان»، وهو منصرف عنها متقرباً من مدام دى فرڤاك وكانت نفسها فريسة لأشد الأهواء وأكثرها تبايناً: فكانت تثني على نفسها حين تحتقر هذا الشاب الكاسف البال، ولكنها على الرغم منها كانت عذوبة حديثه تشجيها. وكان أكثر ما يذهلها هو الطابع الكاذب الذي ينم حديثه عنه؛ إنه لم يقل للمارشالة كلمة واحدة تنطوي على الصدق،

فحديثه معها كذب كله، أو يخفي بطريقة مرذولة حقيقة آرائه التي عرفتها «ماتيلد» من قبل، في كل موضوع من الموضوعات معرفة كاملة. لقد أذهلتها هذه المراوغة إذهالاً شديداً، فأخذت تقول في نفسها: ما أعمق تفكيره! وما أوسع البون بينه وبين أولئك الحمقى المتحذلقين، أو اللصوص العاديين أمثال السيد تانبو من أولئك الذين يتكلمون نفس اللغة!

ومع ذلك كله فقد كان «چوليان» يلقى في بعض الأيام آلاماً شديدة. فكان عليه أن يتردد كل يوم على صالون المارشالة أداء لهذا الواجب الثقيل على نفسه. واستنفد قواه هذا المجهود الذي يبذله في تمثيل دوره. وكثيراً ما كان يتغلب على القنوط الذي كان يملكه، وهو يغادر قصر المارشالة أثناء الليل، بما فيه من بقية من قوة الخلق وآثار من فطنة.

وكان يقول في نفسه: لقد تغلبت على اليأس وأنا في المدرسة الأكليريكية، مع أنني كنت أحيا هناك حياة مرة! لقد كنت في طريق بناء مستقبلي أو إضاعته، على أنني في الحالتين كنت أراني مضطراً إلى أن أقضي حياتي مع قوم هم أحقر بني الإنسان وأشدهم وضاعة. وفي الربيع التالي أي بعد مضي أحد عشر شهراً فحسب، كنت أسعد أندادي من الشبان جميعاً.

لكن هذه الحجج القيمة كانت لا تقلل من وطأة الحقيقة المرة. كان يرى «ماتيلد» مرتين كل يوم أثناء الغداء والعشاء. وكان قد عرف من الخطابات التي أملاها عليه «المركيز دى لامول» بالأمس، أنها ستتزوج السيد دى كروازنوا. وكان هذا الشاب الظريف يغشى قصر دى لامول مرتين في كل يوم؛ وكانت عين الغيرة لهذا العاشق المهجور ترى كل حركة من حركات هذا الشاب السعيد.

ولما ظن «چوليان» أن «ماتيلد» تعامل خطيبها معاملة حسنة، لم يستطع أن يحول بين نفسه وبين النظر إلى أسلحته في كثير من الحب والولع. وأخذ يحدث نفسه قائلا: آه! لو أنني كنت عاقلاً لحددت موقفي، ولذهبت إلى غابة منعزلة تبعد عن باريس عشرين فرسخاً، ولوضعت حدا لهذه الحياة الكريهة! وبما أنني غير معروف بين أهالي المنطقة التي أنتحر فيها، فلن يعرف موتي قبل خمسة عشر يوماً، ومن ذا الذي يفكر فيّ خمسة عشر يوما من مماتي.كان هذا الرأى سديداً، لكنه رأى ذراع ماتيلد في اليوم التالى تبدو في كم ثوبها وقفازها، فكان ذلك كافياً لأن يعيد إلى رأس فيلسوفنا الشاب، ذكريات شديدة الوقع على قلبه، ولأن يحمله على المسك بالحياة. وأخذ يقول في نفسه: حسناً! سأطبق السياسة الروسية حتى النهاية. ولكن ما مصير كل هذا؟ إنني حين أنتهي من نسخ الثلاثة والخمسين خطاباً للمرشالة، فلن أكتب لها أكثر من ذلك. وأما «ماتيلد» فإن هذه الأسابيع الستة التي أمثل فيها مهزلة شاقة على نفسي، ربما جعلتها تتمسك بغضبها عليّ، وربما أتاحت لي لحظة أصالحها فيها. يا إلهي! لو تمّ هذا لكنت أسعد الناس! ولم يستطع أن يتمم رأيه.

وبعد أن ظلّ غارقاً في أحلامه وقتاً طويلاً أخذ يعاود التفكير ويقول في نفسه: سيتاح لي يوم سعيد، ثم تظهر لي القسوة مرة أخرى. وا أسفاه عليّ! إنّ السلطان القليل الذي كان لي في نفسها قد انقضى وولّى، لقد ضعت إلى الأبد وانتهى أمري عند هذا الحد. أي ضمان تستطيع أن تضعه بين يدي وهي على هذا الخلق؟

وا أسفاه! لست جديراً. إن طرقي ليست رقيقة، وكيفية حديثي مملة ثقيلة يا إلهي! لم خلقتني هكذا.

الفصل التاسع والعشرون
السأم

ليضح الإنسان فى سبيل أهوائه، ولكن هل يضحى في
سبيل أهواء لا وجود لها فى نفسه؟! يا لك من قرن
تعس! أيها القرن التاسع عشر!

جيروديه

أصبحت «مدام دى فرڤاك» مشغولة بالخطابات الطويلة التي يكتبها لها «چوليان» بعد أن كانت تقرؤها فى غير لذة أول الأمر، لكن شيئا واحدا كان يحز فى نفسها فتقول: أية خسارة فى أن «السيد سورل» لم يصبح بعد قسّيسا؟ لو أنه كان ذلك لاتخذته رفيقاً لي في حياتي الخاصة؛ ولكن هذا الثوب البرچوازى وهذا الوسام يعرضاني لأسئلة قاسية، وبم أجيب؟ ولم تتم فكرتها. ولعل صديقة ماكرة تستطيع أن تفترض وتذيع بين الناس أنه أحد أقاربها، أسندت إليه عملاً لأنه قريب أبيّ، أو هو تاجر أنعم عليه الحرس الوطني بوسام.

كانت «مدام دى فرڤاك» حتى اللحظة التى عرفت فيها «چوليان»، يّسرها كثيراً أن تكتب إلى جوار اسمها كلمة مارشالة. ثم استولت عليها كبرياء من كانت حديثة النعمة، وهو غرور مَرَضِيّ يجرحه كل شيء، فكانت تقاوم ما بدأت تحس فى نفسها من اهتمام به.

كانت المارشالة تناجي نفسها قائلة: من اليسير عليّ جداً أن أعينه نائب أسقف في أسقفية بجوار پاريس! ولكن «السيد سورل» فحسب، وفوق هذا سكرتير المركيز دى لامول! إنه لشيء محزن.

وللمرة الأولى أصبحت هذه النفس التي كانت تخشى كل شيء، متأثرة بمصلحة لا تمتّ إلى ما يملك عليها قلبها من عجرفة الطبقات والصدارة الاجتماعية. وكان بوابها العجوز يلحظ أنه ما من مرة يحمل إليها خطاباً من هذا الشاب الوسيم الذي يبدو عليه الحزن، إلا اختفت علامات الضجر والسهو التي تظهر بها حين يقترب منها أحد خدمها.

والملل من تلك الطريقة الطُّموح التي ترمي إلى التأثير في الجماهير، دون أن يثير نجاحها فى قلبها أي فرح حقيقي، قد أصبح عسيراً لا يحتمل منذ عرفت «چوليان»، وكان يكفي أن تقضي مع هذا الشاب العجيب ساعة أثناء السهرة لترضى عن وصيفاتها طول اليوم التالي. وهذه الثقة التي نشأت في نفسها لم تتأثر بالخطابات المجهولة التى كانت تتلقاها، وقد كتبت كتابة حسنة. ولم تجد الوشايات التي لفّقها في مهارة تانبو الصغير وأخبر بها السادة دى لوز ودى كروازنوا ودى كايلوس، فأذاعها هؤلاء في لذة كبيرة دون أن

يتحققوا من صحة هذه الاتهامات. أفضت المارشالة إلى «ماتيلد» بشكوكها، فكانت تجد عندها العزاء في كل وقت، لأن نفس مدام دى فرڤاك لم تكن من تلك النفوس التى تقاوم هذه الطرق الوضيعة.

وسألت مدام دى فرڤاك في يوم واحد ثلاث مرات عن خطابات لها، وعزمت بغتة على أن تجيب على رسائل «چوليان». وفي هذا انتصار على الملل الذى استولى عليها. وفي الخطاب الثاني كادت تتوقف عن الكتابة لأنه لا يليق بها أن تكتب بخطها هذا العنوان المسف: إلى السيد سورل طرف السيد المركيز دى لامول.

وقالت فى المساء لچوليان بلهجة جافة: يجب أن تحضر إلي ظروفاً قد كتب عليها عنوانك. فأخذ يقول: هأنذا قد أصبحت صديقاً فى منزلة خادم. ثم انحنى في سرور مقطباً وجهه، كما يفعل أرسين العجوز خادم المركيز.

وفى المساء نفسه أعطاها ظروفاً، فتسلم في ساعة مبكرة جداً من اليوم التالي خطاباً ثالثاً: قرأ منه خمسة سطور أو ستة من أوله وسطرين أو ثلاثة من آخره ... وقد كتب الخطاب في أربع صفحات بخط صغير ضيق.

ثم ألفت مدام دى فرڤاك هذه العادة اللذيذة، عادة الكتابة كل يوم. أما هو فكان يرّد على خطاباتها بنسخ أمينة من الكتب الروسية، وهذه هي ميزة الأسلوب المتصنع الذى يرمي إلى الجزالة. ولم تدهش المارشالة كثيراً من أن الردود ليس لها علاقة بخطاباتها.

ما أشّد ما كانت تجرح كبرياء مدام دى فرڤاك، لو أن تانبو الصغير أخبرها بأن «چوليان» يلقي بخطاباتها جميعاً فى الدرج كيفما اتفق دون أن يفض غلاف واحد منها، وقد جعل من نفسه جاسوساً يتتبع حركات «چوليان» وسكناته.

وفي صباح يوم حمل إليه البواب فى المكتبة خطاباً من المارشالة؛ وكانت «ماتيلد» قد قابلت الرجل ورأت الخطاب معه وقد كتب عنوانه بخط «چوليان». فدخلت المكتبة والبواب يغادرها، وكان الخطاب لا يزال على حافة المكتب؛ و«چوليان» مكب على الكتابة فلم يكن قد وضعه بعد في الدرج.

فتناولت «ماتيلد» الخطاب وصاحت قائلة: لا أستطيع احتمال ذلك. أنت تنساني تمام النسيان، وما أنا إلا زوجتك. إن سلوكك شائن يا سيدي.

ولم تكد تنطق بهذه العبارات حتى ذهلت كبرياؤها من شناعة ما فعلت، فاضطربت اضطراباً شديداً؛ وضّجت بالبكاء، ورآها «چوليان» بعد قليل تأخذ أنفاسها بصعوبة. أما هو فقد ذهل واضطرب، حتى لم يستطع أن يحسّ ما تنطوي عليه هذه الغضبة من سعادة وتوفيق. وساعدها على الجلوس، فكادت ترتمي بين ذراعيه.

غمرة فرح شديد في اللحظة الأولى حين أبصر هذه الحركة، أما في اللحظة الثانية فقد اتجه فكره إلى كورازوف، وقال في نفسه: إن كلمة واحدة قد تفقدني كل هذا.

وتصلبت ذراعاه، لأن المجهود الذي كان يبذله في مراعاة الأدب كان شاقاً. وأخذ يقول في نفسه: لا ينبغي أن أسمح لنفسي بأن أضم هذا الجسم اللدن البديع إلى صدري حتى لا تحتقرني وتسيء إليّ. فياله من خلق ممقوت!

وبينما كان يسب أخلاقها، كان حبه لها قد زاد مائة مرة عن ذي قبل، وخيل إليه أنه يضم ملكة بين ذراعيه.

زاد فتوره الشديد في جرح كبرياء «الآنسة دى لامول»، واستولى عليها ألم كان يمزق نفسها. وفارقها هدوؤها؛ فلم تفطن إلى أن تنظر فى عينيه لترى ما تكنه لها نفسه فى هذه الساعة. ولم تستطع أن تعمد إلى النظر إليه، فقد كانت تخشى أن تنم نظراته عن الاحتقار. كانت جالسة على أريكة المكتبة، جامدة فى مكانها، ورأسها فى الناحية المضادة لچوليان، وكانت فريسة لأشد آلام الكبر والحب، التي لا تقوى نفس بشرية على احتمالها. إنها لذلة عظيمة تلك التي ارتكبتها، وهوان لا قبل لها به!

لقد كتب عليّ هذا، فيا لي من بائسة! كتب عليّ أن يدفعني عنه! ومن ذا الذي يطردني؟ فتجيب كبرياؤها المجروحة. يطردني خادم من خدم أبي. ثم قالت في صوت مرتفع: إنني لا أطيق هذا.

ووقفت فى غضب شديد، وفتحت درج منضدة «چوليان» وهي على بعد خطوتين منها. ولكنها ظلت جامدة مذهولة من شدة الرعب حين رأت ثمانية خطابات أو عشرة لم تفتح بعد، وهى تشبه تماماً ذلك الخطاب الذى تسلمه «چوليان» من البواب. وقد عرفت خط «چوليان» في جميع عناوين تلك الرسائل، وإن حوّر بعض التحوير.

فغضبت غضباً شديداً وصاحت قائلة: إذن فليست علاقتك بها وطيدة فحسب، ولكنك تحتقرها كذلك أنت رجل لا تساوي شيئا ومع هذا تحتقر المارشالة دى فرڤاك!

وركعت أمامه واستطردت تقول: آه! معذرة يا صديقي، احتقرني إذا شئت، ولكن أحببني، لن أستطيع بعد الآن أن أعيش إذا حرمت حبّك. ثم سقطت وقد أغمي عليها إغماءة شديدة. فقال «چوليان» في نفسه: ها هي ذي إذن تلك المتكبرة عند أقدامي!

الفصل الثلاثون
مقصورة في أوپرا بوف

كما تنبىء السماء القاتمة عند أغزرالعواطف.
دون جوان ١-٧٣

وقف «چوليان» إزاء هذه الحركات المثيرة ذاهلاً أكثر مما هو سعيد، فقد علمته شتائم «ماتيلد» مقدار ما تنطوي عليه السياسة الروسية من حكمة وأخذ يقول. خير طريقة لسلامتي أن أتكلم قليلاً وأن أعمل قليلاً.

ثم أنهضها من سقطتها وأعادها إلى الأريكة، فجعلت الدموع تترقرق في عينيها قليلاً قليلاً. وأرادت أن تشغل نفسها بشيء فأخذت خطابات مدام دى فرڤاك فى يدها وفضتها في بطء. وملكتها حركة عصبية شديدة حين عرفت خط المارشالة. وأخذت تنظر إلى صفحات هذه الكتب دون أن تقرأها، وكان أكثر هذه الرسائل قد كتب في ست صفحات.

وأخيراً قالت له في صوت ينم عن الضراعة؛ وهي لا تجرؤ على النظر إليه:

- أجبنى. أنت تعلم حق العلم أنني متكبرة بفطرتي. وأعترف بأن هذا أتعس ما فى موقفي وخلقي. هل استولت مدام دى فرڤاك على قلبك فسلبتني إياه؟ .. هل ضحت لك بما ضحيت أنا به؟

فكان جواب «چوليان» عن أسئلتها صمتاً مخيفاً. وأخذ يسائل نفسه: بأى حق تطالبني بإذاعة سرّ وهذا لا يليق برجل أمين؟.

وحاولت «ماتيلد» أن تقرأ خطابات المارشالة، ولكن عينيها كانتا مملوءتين بالدمع، فلم تستطع متابعة القراءة. كانت تشعر منذ شهر بشقاء كبير، ولكن نفسها الأبية ما فكرت أبداً في الاعتراف بما ينتابها من عواطف. والمصادفة وحدها هي التي أدت إلى هذا الانفجار. وقد تغلبت الغيرة والحب في هذه اللحظة على الكبرياء. كانت جالسة على الأريكة على مقربة شديدة منه، فرأى شعرها وأبصر جيدها وكأنه من مرمر أبيض ؛ فنسى كل ما أخذه على نفسه من عهود، وطوق خصرها بذراعه، وكاد يضمها إلى صدره.

فأدارت نحوه رأسها في بطء: وذهلت لشدة الألم الذي ارتسم في عينيه، لقد كانتا تنمان عن ألم دفين أخفى عنها معالمهما الطبيعية.

وأحسّ «چوليان» أن قواه قد خارت، لأنّ تكلفه بالشجاعة كان قد حمّله فوق ما

يطيق. ثم قال في نفسه: لن ينطبع في عينيها إلا الازدراء الشديد، إن تركت نفسي على سجيتها فسعدت بحبها. ومع ذلك فإنه اعتذر لها عما بدر منه في صوت خافت وعبارات لم تواته شجاعته على أن يتمها، وأخبرها بأن كرامته هي التي دفعته إلى أن يفعل ما فعل، قال لها:

– إنّ لي كرامة أنا كذلك. قال هذا في صوت ضعيف خافت، وتقاطيع وجهه مكسوّة بتعب بدنيّ شديد.

فالتفتت إليه بقوة، لأن سماع صوته سعادة كبيرة لم تعد تؤمل فيها. ولم تذكر كبرياءها في هذه اللحظة إلا لتصب عليها أشد اللعنات، إذ كانت تودّ أن تحدث أعمال خارقة بعيدة عن أن تُصدّق؛ لتبرهن على مقدار حبها له وبغضها لنفسها. واستطرد «چوليان» يتحدث:

– ربما كان السبب في تفضيلي على غيري في وقت مضى هو ما يملأ نفسي عزة وكرامة، على أن تقديرك الآن يرجع إلى هذا الحزم الجريء الجدير برجل شجاع. قد أكون محباً للمرشالة . . . .

فانتفضت وشعّت من عينيها نظرات غريبة. لقد سمعت الحكم على نفسها. ولم تفت «چوليان» هذه الحركة فشعر بقواه تخور. وأخذ يقول في نفسه وهو يسمع تلك الكلمات الكاذبة التي يجرى بها لسانه، وكأنه يسمع وقع ضوضاء غريبة عليه: آه! ليتني أستطيع أن ألثم خديْك الشاحبين هذين، دون أن تنتبهي إلى ذلك! ثم استطرد يقول وصوته يضعف شيئاً فشيئاً:

– قد أكون عاشقاً للمرشالة ... على أني لا أرى دليلاً قاطعاً على أنها تحبني.

فنظرت إليه، لكنه استطاع أن يصمد لنظراتها، أو كان يرجو على الأقل ألا تخونه تقاطيع وجهه. وأحسّ الحب يتغلغل في نفسه حتى وصل إلى قلبه من الداخل. لم يعبدها من قبل كما يعبدها الآن، كان مجنوناً كجنونها تماماً. ولو أنها تذرعت في حركاتها بشجاعة وهدوء لجثا عند قدميها، وأعرض عن هذه المهزلة السخيفة. لكنه كانت لا تزال لديه بقية من شجاعة، فأخذ يناجي نفسه قائلاً: آه! ليتك هنا يا كورازوف! كم أنا في أشد الحاجة إلى كلمة منك، تبين لي الخطة التي أسلكها! وفي أثناء ذلك كان صوته يقول لـ«ماتيلد»:

– لو أنني أغضيت عن كل العواطف الأخرى، لكان الاعتراف بالجميل كافياً لانتزاعي من المارشالة؛ لقد أظهرت لي الود، وغمرتني بعطفها حين كنت تحتقرينني ... إن الظواهر كلها تدل على أنها تبدي لي عطفاً شديداً يرضي كبريائي ويحسدني غيري عليه، ولكن ربما لن يدوم ذلك طويلاً. فصاحت «ماتيلد»:

– آه! يا إلهي! عندئذ قال لها في لهجة حازمة قوية، وكأنه آثر أن يدع جانباً عباراته التي يمليها عليه الحذر وتحتمها عليه السياسة:

- حسناً! ولكن ما الضمان الذى تبذلينه لي؟ أي ضمان يكفل لي أن ما تعرضينه عليّ الآن قد لايدوم أكثر من يومين؟ فالتفتت إليه وأمسكت بيديه وقالت:

- فرط حبي لك، وشدة شقائي من أنك لم تعد تحبني.

التفتت إليه بقوة فانحسر رداء كتفيها عنهما قليلا. فرأى «چوليان» كتفيها الجميلتين، وذكره شعرها المبعثر قليلاً بشيء عزيز عليه.

كان على وشك أن يُسلمها زمامه، لكنه أخذ يقول في نفسه: إن كلمة طائشة تجعلني أحيا من جديد تلك الحياة المريرة التي يملؤها القنوط.

كانت «مدام دى رينال» تجد من الأسباب ما يحملها على عمل ما يمليه عليها قلبها: أما هذه الفتاة الأرستقراطية فلا تترك قلبها ينبض بالحب، إلا إذا اقتنعت هي بأن هناك أسباباً وجيهة تحمله على ذلك.

أدرك هو هذه الحقيقة في طرفة عين، وسرعان ما استرد شجاعته.

فسحب يده من يدى «ماتيلد» وكانت تضغطهما، ثم ابتعد عنها قليلاً في احترام كثير. وإن شجاعة الرجل لا تستطيع أن تذهب إلى أبعد من هذا. ثم أخذ يجمع خطابات مدام دى فرڤاك المبعثرة على الأريكة، وقال في أدب جم، لكنه كان قاسياً أشد القسوة في تلك اللحظة:

- هل تسمح لى «الآنسة دى لامول» في أن أفكر في كل هذا؟ ثم ابتعد مسرعاً وغادر المكتبة؛ وسمعته يغلق الأبواب كلها خلفه. فقالت في نفسها: هذا الوحش لم يضطرب أبداً .. ولكن لم أقول وحشاً؟! إنه عاقل، حذر، طيب؛ أنا التي ارتكبت خطأ شنيعاً لا يمكن تصوّره.

وظلت تفكر على هذا النحو وقتاً طويلاً. وشعرت في ذلك اليوم بسعادة كبيرة؛ لأن الحب وحده سيطر على عواطفها كلها؛ ومن رآها في يومها هذا ظن أنها لم تعرف الكبرياء من قبل، وأي كبرياء!

وجلست في الصالون وقت المساء، ولم يكد الخادم يعلن قدوم مدام دى فرڤاك حتى انتفضت ذعراً؛ فقد كان صوت هذا الرجل نذير سوء في رأيها، ولم تستطع أن تنظر إلى المارشالة؛ فأسرعت منصرفة، ولم يستول الكبر على «چوليان» كثيراً لهذا الانتصار المرير، وكان يخشى أن تفضحه نظراته فلم يتناول عشاءه على مائدة دى لامول.

وزاد حبه وسعادته زيادة كبيرة كلما ابتعد عن زمن المعركة: حتى إنه ليلام على ذلك. وأخذ يحدث نفسه قائلاً: كيف كنت أستطيع أن أظهر لها الهجر، لو أنها لم تعد تحبني؟! إن لحظة واحدة لكفيلة بأن تغير هذه النفس المتجبرة، ويجب أن أعترف بأنني عاملتها معاملة سيئة.

وعزم في المساء على أن يذهب إلى مقصورة مدام دى فرڤاك في أوپرا بوف. وقد

ألحت المارشالة عليه في أن يحضر: وسرعان ما تعرف «ماتيلد» حضوره أو تتبين غيابه الذي لا ينطوي على الأدب. وعلى الرغم من وجاهة هذا التفكير، لم تواته الشجاعة في أن يختلف إلى الناس في أول السهرة؛ لأنه إذا تكلم فقد نصف السعادة التي غمرته.

دقت الساعة العاشرة مساء، وكان لزاماً عليه أن يذهب إلى المارشالة. ولحسن حظه وجد مقصورتها قد امتلأت بالنساء، فجلس وحده على مقربة من الباب، وقد أخفته قبعات السيدات. وأنقذه هذا المجلس من سخرية كانت ستناله لا شك؛ لأن النغمات الساحرة اليائسة التي كانت ترددها كارولين في ماتريمونيو سجريتو، قد جعلته يضج بالبكاء. ورأت مدام دى فرڤاك دموعه التي كانت لا تلائم حزم رجولة ينم عنها وجهه، فتأثرت بذلك، تأثرت هذه السيدة الكبيرة بما بقي في قلبها من مشاعر جميلة لم يقض عليها غرور جلبته حداثة النعمة. وحملتها البقية الباقية لها من قلب المرأة على أن تتحدث إليه. فقد أرادت أن تنعم بسماع صوته في هذه اللحظة، فقالت له:

- هل رأيت سيدات دى لامول؟ إنهن في المقصورة الثالثة.

فاتكأ «جوليان» في الحال على حافة المقصورة بطريقة غير مؤدبة، فرأى «ماتيلد» والدموع تترقرق في مآقيها. فقال في نفسه: لقد جاءتا، ومع ذلك فليس اليوم يوم مجيئهما إلى الأوبرا. فيا لها من عجلة شديدة!

كانت «ماتيلد» قد زينت لأمها أن تذهبا معا إلى أوبرابوف، على الرغم من أن المقصورة التي أهدتها إليهما سيدة من المترددات على القصر لم تكن تتفق مع مكانتهما. وكانت ترمي بذهابها إلى الأوبرا إلى أن تعرف هل يقضي «جوليان» السهرة مع المارشالة دى فرڤاك.

الفصل الحادي والثلاثون

شبح الخوف

إن هذه لهي المعجزة الخارقة لمدينتكم! لقد جعلتم من الحب أمراً عادياً.

بارناف

أسرع «چوليان» إلى مقصورة مدام دى لامول، والتقت عيناه أول الأمر بعيني «ماتيلد» المغرورقتين بالدموع؛ فقد كانت تبكي بكاء شديداً، ولم يكن في المقصورة إلا بعض ناس لا خطر لهم مثل الصديقة التي أعارتهما المقصورة وبعض رجال من معارفها. وضعت «ماتيلد» يدها على «چوليان» ؛ كأنها نسيت كل خوفها من أمها. وكانت دموعها تحول بينها وبين الكلام فلم تقل له إلا هذه الكلمة وحدها: ضمانات!

وكان كذلك متأثراً إلى حد كبير، فأخذ يخفي عينيه بقدر مايستطيع متعللاً بأن ضوء الشموع مسلط على الطابق الثالث للمقاصير، وكان يقول فى نفسه: يجب عليّ أن ألزم الصمت، لأنني إذا حدثتها أدركت بسهولة أنني متأثر مثلها، وسيكشف صوتي عن أمري وفي هذا ضياعي مرة أخرى.

وهذه كما يخيل إليّ خُلّة ليست من خلال «چوليان»، فإن من يستطيع أن يبذل هذا المجهود، وأن يضبط نفسه إلى هذا الحد، لجدير بأن يقطع فى الحياة شوطاً بعيداً.

وصممت «الآنسة دى لامول» على أن يعود معهما «چوليان» إلى القصر. وكان المطر غزيراً لحسن الحظ، فأجلسته المركيزة أمامها، وأخذت تتحدث معه طوال الوقت، حتى لم تمكنه من أن يقول لابنتها كلمة واحدة. وكان يخيل إلى الإنسان أن المركيزة حريصة على إسعاد «چوليان»؛ ولم يعد يخشى أن يفقد شيئاً لأنه لن يطلق لتأثره العنان.

هل لي أن أجرؤ على أن أقول: إن «چوليان» لم يكد يعود إلى غرفته حتى جثا على ركبتيه، وأخذ يقبل رسائل الحب التى أخذها من الأمير كورازوف؟ وصاح من جنونه يقول: يا لك من رجل عظيم! كم أنا مدين لك!

ثم أخذ هدوؤه يعود إليه قليلاً قليلاً. وصار يوازن بين نفسه وبين قائد كاد يكسب معركة كبيرة. ثم قال في نفسه: لقد كسبت اليوم كسباً عظيماً، ولكن ترى ماذا سيحدث في الغد؟ إن لحظة واحدة لكفيلة بأن تضيع كل شيء.

وأقبل في شغف على المذكرات التي أملاها نابليون في سانت هيلانة وظل ساعتين

كاملتين يحمل نفسه على أن يقرأ، كان يقرأ بعينيه فحسب، ولكن ماذا يضيره مادام يحمل نفسه على القراءة. وبينما كان يضطلع بهذه القراءة العجيبة، كان عقله وقلبه يعملان دون أن يحس ويحلقان في آفاق سامية.

وأخذ يحدث نفسه: إن هذا القلب يغاير قلب «مدام دى رينال» ... ولم يذهب إلى أكثر من ذلك. ثم طوح بالكتاب وصاح فجأة: عليَّ أن أبث في قلبها الرعب، فالعدو لن يطيعني إلا إذا أخفته، وعلى هذا فلن يقدم على احتقاري. وأخذ يسير في غرفته الصغيرة وقد غمره الفرح. وقد كانت السعادة التي سيطرت على نفسه -في الواقع- ترجع إلى الغرور أكثر من رجوعها إلى الحب.

ثم ردد عبارته في زهو: عليّ أن أبث في قلبها الرعب! وقد كان على حق في غروره. واستطرد يقول: إن «مدام دى رينال» كانت في أسعد لحظاتها تخاف أن يكون حبي لها معادلاً حبها لي. أما هذه فشيطان يجب أن يخضع؛ إذن فعليّ أن أذلها.

كان يعلم حق العلم أن «ماتيلد» ستذهب إلى المكتبة في تمام الساعة الثامنة من صباح الغد؛ فلم يذهب هو إلا في التاسعة، يكاد الحب يلهب نفسه ولكن عقله كان مسيطراً على قلبه. وكان يقول في كل دقيقة: هل لي أن أتركها فريسة لهذا الشك المرير: أهي تحبني؟ إن مكانتها الكبيرة، وما تسمعه دائما من ثناء، ليبعثان في نفسها الغرور.

ولما دخل المكتبة وجدها هناك شاحبة هادئة جالسة على الأريكة، تبدو كأنها لا تستطيع حراكا. ثم مدت يدها إليه وقالت:

- لقد أهنتك يا صديقي، وهذا حق لا مرية فيه ؛ فهل أنت غاضب عليّ؟

لم يكن يتوقع منها هذه اللهجة البسيطة، وكاد أمره يفتضح. وساد بينهما صمت، كانت ترجو أن يقطعه حبيبها بالحديث، فلما لم يفعل استطردت تقول:

- أنت تريد ضماناً يا صديقي، وأنت محقّ في ذلك. اخطفني، ولنذهب معاً إلى لندن ... سأفقد مكانتي وشرفي إلى الأبد ... وجدت في نفسها الشجاعة لتسحب يدها من «جوليان» لتغطي عينيها. لقد استولت عليها كل معاني الفضيلة والاستقامة .. ثم تنهدت وقالت: حسنا! جردني من شرفي، فهذا ضمان بين يديك.

فقال في نفسه: لقد كنت بالأمس سعيداً لأن الشجاعة واتتني، فكنت شديداً على نفسي. وبعد فترة قصيرة ساد فيها الصمت، قال لها بلهجة بالغة الفتور، بعد أن تمكن من السيطرة على نفسه:

- من ذا الذي يضمن لي حبك. ونحن في طريقنا إلى لندن، أو إذا جردت من شرفك، على حد ما تقولين؟ كيف أعلم أنك لا تعدين وجودي بجوارك في مقعد العربة إزعاجاً لك؟ أنا لست شيطاناً مريداً، فإذا فقدت مكانتك بين الناس كان هذا شقاء جديداً يحل بي. ليس مركزك في المجتمع هو العقبة، بل العقبة الحقيقية هي أخلاقك. فهل

تستطيعين أن تؤكدي لنفسك أن حبك لي يدوم ثمانية أيام؟

وأخذ يناجي نفسه في صوت منخفض: آه! ليتها تحبني ثمانية أيام! لو أنها فعلت لمت من فرط سعادتي. وماذا يضيرني من المستقبل؟ وما قيمة الحياة عندي بعد ذلك؟ إنّ هذه السعادة الكبيرة قد تبدأ من الآن، لو أنني أردت ذلك، فكل شيء يتوقف عليّ أنا وحدي!

ورأته «ماتيلد» يفكر، فأخذت بيده وهي تقول له:

- إذن أنا لست جديرة بك أبداً.

فقبلها «چوليان»، ولكنه سرعان ما أمسكت اليد الحديدية، يد الواجب قلبه؛ وقال في نفسه: إذا تبينت مقدار حبي ضاعت مني إلى الأبد. واسترد كرامته كاملة قبل أن تفلتها ذراعاه، استردّ تلك الكرامة الجديرة برجل. وهكذا استطاع في ذلك اليوم، وفي الأيام التالية أن يخفي عنها ما كان يشعر به من سعادة وهناءة؛ وكانت تمرّ به لحظات يرفض فيها لذة العناق والتقبيل، وهناك لحظات أخرى طغت فيها نشوة السعادة على كل نصيحة أملاها عليه الحذر.

اعتاد من قبل، أن يذهب إلى الحديقة، فيلجأ إلى عريش من بنات زهر العسل يُخبّأ السلم فيه، ومن هناك يرقب مصراع نافذة «ماتيلد» من بعد، ويبكي لصدّها وهجرها. وكان على مقربة منه شجرة سنديان ضخمة، يخفيه جذعها فلا يراه الرقباء.

كان يسير هو و«ماتيلد» في نفس المكان الذي يذكره بقوة مالاقاه من عذاب أليم، فكان التناقض الشديد بين الألم الذى افترسه في الماضي، والسعادة الهانئة التي يحظى بها الآن - أقوى بكثير من أن يحتمله خلقه؛ فترقرقت في عينيه الدموع، وتناول يد صديقته فقبلها، وقال لها:

- لقد عشت هنا مفكراً فيك؛ وكنت أنظر من هنا إلى مصراع نافذتك؛ ولطالما انتظرت ساعات طويلة أرقب تلك اللحظة السعيدة التي أرى فيها هذه اليد تفتح الشباك...

وغلبه الوهن، فأخذ يصور لها ما كان يلقاه من مرارة الألم تصويراً صادقاً، لم يكن في حاجة إلى أن يخترعه؛ لأنه كان يحسه، ولكن هتافات قصيرة تدل على سعادته الحاضرة، وضعت حداً لهذا الشقاء الكبير ... ثم عاد «چوليان» إلى نفسه فأخذ يقول: يا إلهي! ماذا قلت؟ لقد أضعت نفسي.

وفي سورة الرعب الذي ملكه، ظن أنه يرى الحب في عينيها أقلّ من قبل، وكان هذا وهماً لا حقيقة، ولكنه سرعان ما تغير وجهه وكساه شحوب كشحوب الموتى. ثم انطفأ بريق عينيه لحظة، فنمّت نظراته بعد ذلك عن كبر شديد ينطوي على الشر، بعد أن كان يلمع في عينيه الحب الحق، الذي لا يعرف قيداً من القيود. فارتاعت لما رأت وقالت له في

رقة وحنان:

- ماذا بك يا صديقي! فأجابها مغضباً:

- إنني أكذب، نعم إنني أكذب عليك. وأنا أؤنب نفسي على ذلك، ويعلم الله أني أجلّك فكان ينبغي ألاّ أكذب. إنك تحبينني، وتخلصين لي، فلست في حاجة إلى أن أخترع ما أنال به رضاك من كلام.

- يا إلهي! أكان هذا الكلام الحلو الذي قلته منذ دقيقتين شيئا اخترعته؟

- وإني لنادم على مافعلت يا صديقتي العزيزة. كنت أعددتها من قبل لامرأة أحبتنى وبعثت في نفسي السأم ... هذا عيب في خلقي، وها أنذا أكشف لك عن نفسي فاغفري لي.

فسالت على خديها دموع غزيرة مريرة. على حين استطرد «چوليان»:

- إننى لا أكاد أستغرق في حلم، حتى توحي إليّ ذاكرتي اللعينة شيئاً يعكر عليّ صفوي فأبالغ فيه، وأنا أصبّ اللعنة على هذه الذاكرة. فقالت له في سذاجة طريفة:

- لقد ارتكبت إذن ما يسوؤك وأنا لا أدري؟

- أذكر أني كنت أمرّ في يوم من الأيام على مقربة من نبات زهر العسل، فرأيتك تقطفين زهرة، فأخذها منك السيد دى لوز، وتخليت عنها له. كنت على بعد خطوتين منكما يومئذ. فأجابته وقد ظهرت من ملامحها الكبرياء التي طبعت عليها، قالت له:

- السيد دى لوز؟ هذا مستحيل، فما أنا ممن يفعلن ذلك. فأجابها في حمية شديدة:

- أنا واثق مما أقول تمام الوثوق. فغضت من طرفها في حزن، وقالت له:

- حسنا! إن ما قلته صحيح يا صديقي. وكانت واثقة تماماً من أنها لم تسمح لدى لوز من أن يفعل هذا منذ بضعة شهور.

فنظر إليها «چوليان» في حنان شديد وقال في نفسه: لا، إن حبها لي لم ينقص.

وأخذت في المساء تضاحكه وتلومه على هيامه بمدام دى فرڤاك: برچوازي يحب امرأة حديثة عهد بنعمة! إن قلوب مثل هذه الطبقة من النساء هي القلوب التي تستعصي على حبيبي «چوليان». وأخذت تعبث بشعره وتقول: لقد جعلت منك رجلاً مهتما بالثياب والزينة، وقد كان «چوليان» في الوقت الذي اعتقد فيه أن «ماتيلد» تحتقره، مولعاً بملابسه، حتى كان من أكثر الباريسيين أناقة. لكنه كان يمتاز عن غيره بأنه لا يفكر في ثيابه ولا يهتم بها بعد أن يرتديها.

وداوم «چوليان» على نسخ الرسائل الروسية وإرسالها إلى المرشالة، وهذا ما كان يغضب «ماتيلد».

الفصل الثاني والثلاثون

النمر

وا أسفاه! لم حدثت هذه الأشياء ولم يحدث سواها.

بومرشيه

يقول سائح انجليزي عاش مع نمر في مودّة وصفاء: لقد ربّيته وداعبته، ولكني كنت أضع دائماً على مائدتي مسدساً حشوته بالرصاص.

لم يكن «چوليان» يظهر السعادة التي تغمره إلا في اللحظات التي لاتستطيع «ماتيلد» قراءة ذلك في عينيه. وقد أخذ ينفذ في دقة مافرضه على نفسه من أن يسمعها كلمة قاسية بين آن وآن. وإذا بلغ حنان «ماتيلد» وإخلاصها له منتهاهما، حتى يكادا يفقدانه سلطانه على نفسه، كانت الشجاعة تواتيه على أن يتركها فجأة، وإن كانت رقتها تذهله.

لقد أحبت «ماتيلد» لأول مرة في حياتها. وأصبحت ترى الأيام تمرّ سراعاً بعد أن كانت بطيئة الخطا من قبل. وبما أن الكبر لابد له أن يظهر في أي لون من الألوان، فقد أرادت «ماتيلد» أن تتعرض في جرأة لكل الأخطار التي يجلبها عليها هذا الحب. وكان «چوليان» هو الذي يوصيها بالحذر، فكانت لا تنزل على إرادته إلا فيما يختص بمواجهة الأخطار. أصبحت مطيعة له، خاضعة لأمره بقدر ما كانت تظهر لوالديها وخدمها وجميع من يقترب منها في القصر من تعال وكبرياء. وفي المساء كانت تناديه وهما في الصالون على مرأى ومسمع من ستين شخصاً، ثم تتحدث إليه حديثاً خاصاً طويلاً.

وجلس تانبو الصغير على مقربة منهما يوماً، فطلبت منه أن يذهب إلى المكتبة ليحضر لها كتاب «سمولت» الذي تحدث فيه عن ثورة ١٦٨٨. ولما رأت علامات التردد على وجهه، قالت له في كبرياء ظاهرة، كانت برداً وسلاماً على قلب «چوليان»: ليس هناك ما يدعو إلى العجلة. فقال لها «چوليان» عندئذ:

– هل لحظت نظرة هذا الشيطان الصغير؟

– إن عمه قد قضى عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً في هذا الصالون يؤدي خدمات، ولولا هذا لعملت على طرده في الحال.

وكان مسلكها نحو دى كروازنوا ودى لوز وغيرهما ينطوي على الأدب الجم شكلاً،

لكنه كان في الواقع مثيراً. وأخذت «ماتيلد» تلوم نفسها لوماً شديداً على ما اعترفت به من قبل لـ«چوليان»، خصوصاً وهي لا تستطيع أن تصرح له بأنها بالغت فيما قصته عليه من قبل، وأن علاقتها بهؤلاء السادة كانت علاقة بريئة.

وعلى الرغم من أنها كانت تصرّ كل يوم على أن تقول له: لقد شعرت باللذة وأنا أتحدث إليك، واصفة لك هذا الضعف الذى يحملني على أن أسحب يدي، حين كان السيد دى كروازنوا يضع يده على مائدة رخامية فمسّ يدى مسًا رقيقاً. كانت تودّ أن تقول له ذلك، ولكن غرورها النسوي كان يمنعها.

أما اليوم فلا يكاد شاب من هؤلاء الشبان يتحدث إليها بضع لحظات حتى تجد شيئاً تقوله لـ«چوليان»، وكان ذلك ذريعة إلى أن تستبقيه على مقربة منها. ثم أحست بالجنين في أحشائها، فزفت إلى «چوليان» البشرى فرحة مستبشرة:

- والآن هل تشك فيّ؟ أليس هذا ضماناً؟ إنني زوجتك إلى الأبد.

فذهل لهذا الخبر ذهولا شديداً. وكان على وشك أن يتناسى مبدأه الذي سار عليه في معاملة «ماتيلد». وقال: كيف يتسنى لي أن أظهر بالفتور فأجرح هذه الفتاة البائسة، التي تقضي على نفسها من أجلي؟ لقد كان الإعياء بادياً عليها، فلم يعد يجد في نفسه الشجاعة على أن يقول لها كلمة قاسية، وإن كانت ضرورية -بحسب خبرته- لمدّ أجل الحب بينهما، نعم لم يعد يجرحها حتى في الأيام التي كانت توحي إليه الحكمة بأن يفعل ذلك.

قالت له ذات يوم:

- أريد أن أكتب إلى والدي؛ إنه ليس والدي فحسب، بل وصديقي كذلك. وعلى هذا فإني أجد أنه لا يجدر بي ولا بك أن نحاول خديعته، ولو برهة قصيرة. فارتاع «چوليان» وقال لها: يا إلهي! علام تقدمين؟ فلمعت عيناها فرحاً وقالت:

- سأعمل ما يفرضه عليّ الواجب.

لقد كانت أعلى همة من عشيقها.

- ولكنه سيطردني شر طرده!

- هذا حق له، فعلينا أن نحترم هذا الحق. سأمدُّ لك ذراعي لنخرج معاً من بوابة القصر في وضح النهار.

فذهل ورجاها في أن تؤجل الكتابة أسبوعاً آخر، فقالت:

- لا أستطيع، إن الشرف يتكلم، والواجب يناديني، فلألبّه في الحال.

- حسناً! ولكني آمرك بأن تؤجلي الكتابة. إن شرفك في مأمن من أن يمس، وأنا زوجك. وحالة كل منا ستتغير تغيراً تاماً بهذا العمل الهام. وأنا بدوري لا أعدو حقي. اليوم يوم الثلاثاء؛ والثلاثاء القادم هو يوم الدوق دى ريتز؛ وحين يعود «السيد دى

لامول» في المساء إلى القصر يسلمه البواب الكتاب المشئوم .. إنه لا يفكر إلا في أن تكوني دوقة، وأنا على تمام الثقة من هذا، فتصوري إذن مقدار ألمه!

- هل تريد أن تقول: تصوري مقدار انتقامه؟

- قد أشعر بالشفقة على من أحسن إليّ، ويملكني الحزن إذا أسأت إليه، ولكني لا أخشى ولن أخشى أي إنسان.

فصدعت بالأمر. وكانت هذه أول مرة يتحدث إليها «چوليان» فى سلطة وسيادة، منذ أنبأته بحالتها الجديدة. ولم يحبها من قبل كما أحبها الآن. وكان يجد سعادة كبيرة في أن ناحية الحنان تغلب عليه لما قد حدث لها، فلم يعد يسمعها كلاماً يؤذيها. لكن الاعتراف للسيد دى لامول كان يسبب له اضطراباً شديداً. وأخذ «چوليان» يسائل نفسه: هل سيحال بيني وبين «ماتيلد»؟ ثم ما مقدار حزنها على فراقي؟ ولكن هل ستفكر فيّ بعد أن يمضي شهر على رحيلي؟

كانت نفس «چوليان» تلقى من الأذى بمقدار التأنيب العادل الذى سيصبه عليه «المركيز». وفي المساء، أفضى إلى «ماتيلد» بالسبب الثانى لحزنه، وبعد قليل غلبه الحب على أمره، فحدثها عن السبب الأول.

فتغير لونها، وقالت له:

- هل تشعر حقيقة بالألم إذا ابتعدت عني ستة شهور؟!

- أشعر بألم شديد، هو الألم الوحيد الذي أخشاه في هذه الحياة.

فغمرت نفسها السعادة، وواصل «چوليان» تمثيل دوره في مهارة فائقة، حتى تمكن من أن يجعلها تفكر في أنها محبوبة أكثر منها محبة.

- وجاء يوم الثلاثاء الموعود، وعاد «المركيز» إلى القصر في منتصف الليل فوجد خطاباً بالعنوان الذى يحمله على أن يفتح الخطاب بنفسه حين يكون وحده.

والدي:

لقد انقطعت بيننا كل العلاقات الاجتماعية، ولم يعد يربطنا إلا علاقتنا الطبيعية. وأنت بعد زوجي أعزّ إنسان عليّ في الدنيا، وستظل كذلك. عيناي تمتلآن بالدموع ... إني أفكّر فيما أسببه لك من آلام، ولم أشأ أن يصبح العار الذي لحقني معروفاً عند جميع الناس، وقد أردت أن يتاح لك وقت كاف لتنظر في الأمر وتعمل، فلم أرغب في أن أؤجل الاعتراف الذي أفضي به إليك. ولو أملت عليك صداقتك أن ترتب لي معاشاً صغيراً لذهبت أنا وزوجي لنقيم في أي مكان تشاء، وليكن في سويسرا مثلا، وإني لأعلم أن نفسك تحمل لي صداقة كبيرة. إن اسمه مجهول جداً، فلن يعرف الناس أن ابنتك هي مدام سورل، زوجة ابن نجار ڤرييرٍ. هذا هو الاسم الذى يؤذيني ويحملني على الكتابة إليك. وإني أخشى أن تصب على «چوليان» جام غضبك، وهو غضب جدّ عادل لو أننا أخذنا

بالظواهر. لن أكون دوقة يا والدي؛ ولكني كنت أدرك ذلك حين أحببت؛ أني أنا التي أحببته أولاً، وأنا التي أغريته كذلك. لقد أخذت عنك نفساً عالية تترفع عن أن تلتفت إلى كل ما هو حقير تافه، أو تحاول أن تفعل ذلك. وحاولت عبثاً أن أفكر في دى كروازنوا لأنال رضاك. فلماذا وضعت نصب عيني الرجل الممتاز الجدير بي؛ لقد قلت لي حين عدت من هيير: إن الشاب «سورل» هو الشخص الوحيد الذى يروقني. وهذا الشاب التعس حزين مثلي لما يسببه لك هذا الخطاب من ألم. لا أستطيع أن أحول بينك وبين الغضب كوالد، ولكن أحببني دائماً كصديق.

لقد احترمني «چوليان». وهو إذا كان قد تحدث إليّ في بعض الأحيان، فما ذلك إلا لأنه يشعر شعوراً عميقاً بما لك من فضل عليه؛ لأن طبيعته المتعالية تحمله دائما على أن يجيب من هم أعلى منه إجابة رسمية. إنه يشعر شعوراً كبيراً بما بين الطبقات الاجتماعية من فروق. أنا التي ضغطت ذراعه يوماً ما في الحديقة، وكم يملكني الخجل حين أعترف لك بهذا، ولكني واثقة من أنني أكشف عن نفسي لخير أصدقائي، ولا أفكر في أن أقول ذلك لأي إنسان آخر.

إذ بعد مضى أربع وعشرين ساعة من تسلمك هذا الخطاب، لم تظل غاضباً عليّ؟ إن خطئي لا يمكن إصلاحه. وإذا صممت على شيء، فأنا على استعداد كامل لأن أؤكد لك، بالنيابة عنه، احترامه الشديد لك، وخوفه من أن يغضبك. ولن تظفر به بعد الآن؛ ولكني سألحق به أينما أراد. هذا حق له، هو ما يفرضه عليّ الواجب، لأنه والد طفلي. إن تفضلت علينا بستة آلاف من الفرنكات نعيش بها، كنت مدينة لك بفضل كبير، وإلا فإن «چوليان» سيقيم في بيزانسون ليعلّم اللاتينية والأدب، وأنا واثقة من أنه سيسمو عما قريب، وإن كان وضيع النشأة. لن أخشى أن يعيش طول حياته في ظلام مقيم، فأنا واثقة من أنه سيقوم بالدور الأول إن نشبت ثورة. فهل تستطيع أن تقول ما أقوله عن أى شاب من أولئك الذين أرادوا أن يتزوجوني؟ إنهم يملكون أراضي جميلة! وأنا لا أستطيع أن أجد في هذا السبب وحده باعثاً على أن يعجبوني. أما «چوليان» فسيصل إلى مركز سام حتى في ظل هذا النظام الحاضر، لو أن لديه مليونا من الفرنكات وتمتع برعاية أبي له ...»

كانت «ماتيلد» تعرف أن المركيز رجل يتبع دائماً أول فكرة تطرأ عليه، فكتبت له ثماني صفحات.

وبينما كان «المركيز» يقرأ الخطاب، كان «چوليان» يتحدث إلى نفسه قائلاً:

ما العمل؟ أين واجبي أولا ومصلحتي ثانياً؟ إني مدين له بكل شيء، فلولاه لكنت من حثالة الناس، بل من تلك الحثالة التي يصب عليها الناس كراهيتهم واضطهادهم. لقد جعل مني رجلاً من رجال المجتمع، ومنحني هذا الصليب، وكلفني مهاماً سياسية رفعت شأني. هذا كله خير عندي من أن يعطيني مليونا من الفرنكات؛ غير أني كفرت بنعمته.

لو أنه أمسك ريشته وبدأ يصف مسلكي، فماذا يكتب؟ ...

وبينما كان يسبح في هذه الأفكار إذ قاطعه فجأة هذا الوصيف العجوز الذى يقوم على خدمة «المركيز»، وقال له: إن المركيز يطلبك في الحال، سواء أكنت مرتدياً ثيابك أم غير مرتديها. ثم قال له الخادم بصوت خفيض وهو يمشي إلى جواره: إنه غاضب أشد الغضب، فكن على حذر.

الفصل الثالث والثلاثون

جحيم الضعف

كان جوهري غير ماهر يقطع هذه الماسة، فنزع منها بعض شرارات قوية. ماذا أقول؟ لقد كان الفرنسي في العصور الوسطى ... وحتى في عصر ريشيليو يتصف بقوة الإرادة.

ميرابو

وجد «چوليان» أن «المركيز» غاضب، وكان هذا السيد سفيها وربما كان كذلك لأول مرة فى حياته. أخذ يسب «چوليان» سباً قبيحا بكل الشتائم التي تدور على لسانه. فذهل ونفذ صبره، لكن اعترافه بالجميل ظل ماثلاً أمامه. فكم مشروع من المشروعات الجميلة، التي ظلت عزيزة عليه محببة إلى نفسه وقتاً طويلاً رآها هذا الرجل المسكين وقد قضي عليها في لحظة واحدة!

عليّ أن أجيبه، لأن سكوتي يزيد فى غضبه ؛ وأمده دور ترتوف بما يقوله:

– لست ملاكاً .. وقد أخلصت في خدمتك، وكنت كريماً فى دفع أجري ... كنت معترفاً بفضلك ولكنني في الثانية والعشرين من عمري .. وأفكاري كلها، وأنا مقيم في هذا المنزل، لم تكن تتجه إلا إليك وإلى هذه الفتاة الظريفة ... .

– يا لك من شيطان! ظريفة! ظريفة! كان عليك أن تهرب في اليوم الذي وجدتها ظريفة فيه.

– حاولت ذلك، وطلبت منك أن أسافر إلى لنجدوك.

وأتعبت «المركيز» شدة غضبه وسيره في الغرفة، وغلبه الألم فجلس على مقعد، وسمعه «چوليان» يقول لنفسه: إنه ليس شريراً. فجثا عند ركبتيه وقال:

– إنني لست شريراً معك، ولكن سرعان ما استولى عليه خجل شديد من هذه الحركة التي أتاها، فنهض فى الحال.

كان «المركيز» شارد اللب حقاً. فلما رآه يجثو، انهال عليه مرة أخرى بالتشائم التى لا تصدر إلا من سائق عربة. وربما كانت حدة هذه الشتائم مدعاة إلى التسرية عنه.

– ماذا ؟ أستدعى ابنتي مدام سورل! ماذا! لن تكون! لن تكون ابنتي دوقة!

وفي كل مرة كانت هاتان الفكرتان تظهران أكثر وأوضح، حتى أصبحت نفس المركيز فريسة لآلام شديدة، فلم يستطيع السيطرة على حركاته، حتى خشي «چوليان» أن ينهال عليه ضرباً.

أما في اللحظات الهادئة، حين أخذ «المركيز» بعناء ما حل به من ألم، فكان يلوم «چوليان» في هدوء قائلاً له:

- كان عليك أن تفر يا سيدي .. كان الواجب يحملك على أن تهرب .. إنك أحقر الرجال .. فدنا «چوليان» من المنضدة وكتب ما يلى:

أصبحت الحياة مرة منذ وقت طويل، من أجل ذلك عمدت إلى الانتحار، وإنى أرجو سيدى المركيز أن يتقبل مني خالص شكري واعترافي بجميله الذي لا حدّ له، وأسفي الشديد لما قد يسببه موتي في قصره من حيرة وارتباك.

- ليسمح سيدي المركيز فيلقي نظرة على هذه الورقة .. اقتلني أو كلف أحد خدمك أن يقتلني. نحن الآن في الساعة الأولى صباحاً، وسأذهب إلى الحديقة أتنزه فيها عند الجدار الداخلى. فصاح «المركيز» به وهو ينصرف:

- إلى الجحيم.

ثم تحدث «چوليان» إلى نفسه قائلاً: أنا أدرك أنه لن يغضب مادمت قد وكلت أمر القضاء على حياتي إلى خادمه .. ليقتلني، على بركة الله، هذه ترضية أقدمها له ... ولكن يا إلهي! إني أحب الحياة ... وعليّ واجب نحو ابني.

طرأت عليه هذه الفكرة ووضحت لأول مرة في ذهنه، وشغلته تماماً بعد أن قضى بضع دقائق في هذه النزهة الخطرة.

وخلق منه هذا الاهتمام الجديد بابنه انساناً حذراً، فأخذ يقول: انني في حاجة إلى من يشير عليّ، مبتغياً عنده النصح في الطريقة التي أسلكها مع هذا الرجل الأهوج .. ليس في رأسه مسكة من عقل، وهو قادر على كل شيء. وفوكيه بعيد عني، وهو مع ذلك لا يدرك العواطف التى تستولي على قلب كقلب المركيز.

والكونت ألتاميرا ... ولكن هل أنا واثق من أنه يحفظ السرّ؟ يجب ألا يكون طلبي للمشورة مثيراً لعراك، جالباً على موقفي تعقيداً جديداً. وا أسفاه! لم يبق أمامي من أستشيره إلا ذلك الرجل القاتم النفس، ألا وهو الكاهن پيرار ... لقد أثر فيه مذهب ينسينيوس فضيق أفقه العقلي ... إن وغداً من اليسوعيين ليعرف الحياة خيراً مما يعرف، وليستطيع أن ينير لي السبيل ... والسيد پيرار لن يتردد في أن يضربني إذا ما أخبرته بجرمي.

إلا أن براعة ترتوف أسعفت چوليان فقال: سأذهب إليه لأعترف أمامه. وكان هذا آخر قرار اتخذه بعد أن ظلّ يتنزه في الحديقة ساعتين كاملتين. ولم يعد يفكر في طلقة نار تباغته، ثم غلبه النعاس فنام.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، كان چوليان على بعد بضعة فراسخ من پاريس يطرق باب هذا الكاهن الصارم. ولشد ما ذهل حين رأى الأب پيرار لم يعجب كثيراً

مما أفضى به «چوليان» إليه من أسرار.

فقال الكاهن في لهجة حزينة أكثر منها لهجة غضبى: ربما كنت ملوماً في ذلك، فقد خيلّ إليّ أني أرى هذا الحب، ولكن صداقتي لك أيها التعس حالت بيني وبين إخطار الوالد. فسأله «چوليان» في حمية:

– ماذا تظن أنه فاعل؟

وكان «چوليان» يحب الكاهن في هذه الحظة، ولو أن پيرار تشاجر معه لكان لذلك أسوأ وقع على نفسه.

واستطرد يقول: إني أرى ثلاث طرق: أولاها: أن «السيد دى لامول» سيقتلني؛ ثم قص على الكاهن قصة خطاب الانتحار الذي أعطاه للمركيز وثانيتها: أنه سيغري ابنه بي، فيطلبني الكونت نوربير إلى المبارزة. فغضب الكاهن ونهض واقفاً وقال:

– هل تقبل مبارزته؟

إنك لا تدعني حتى أتمّ لك ما أقول. ومما لاشك فيه أنني لن أطلق النار على ابن من أحسن إليّ. أما الثالثة: فهي أنه قد يفكر في إبعادي. ولو طلب مني أن أذهب إلى ادنبرج أو نيويورك ما خالفت له أمراً. وفي استطاعتهم إذن أن يخفوا ما بالآنسة دى لامول؛ ولكني لا أوافق أبداً على أن يقتل ابني.

– أؤكد لك أن هذه ستكون أول فكرة تخطر على بال هذا الرجل اللعين ... .

أما فى پاريس، فكانت «ماتيلد» قد بلغت درجة كبيرة من اليأس. كانت قد رأت أباها في الساعة السابعة، وأطلعها على خطاب «چوليان» وكانت تخشى كثيراً أن يكون قد قتل نفسه تلبية لنداء الشرف. ثم أخذت تسائل نفسها في ألم بعثه الغضب: أيقتل نفسه دون أن يستأذنني؟ ثم قالت لأبيها:

– إذا كان قد مات، فسأموت أنا كذلك، وستكون أنت سبب موته ... ربما كان يلذّ لك ذلك ... ولكن أقسم لك بروحه أنني سألبس عليه الحداد أولاً، وسيعلم الناس جميعاً أني أرملة سورل، ثم سأرسل بطاقات الدعوة للعزاء، فثق بهذا تماماً. ولن تجد في نفسي أى لون من ألوان الجبن أو الخور.

كان حبها لچوليان قد وصل إلى حدّ الجنون. أما «المركيز» فقد ظل ساكتاً لا يدري ماذا يقول. وبدأ ينظر إلى هذه الأحداث في شيء من العقل والرويّة. لم تتناول «ماتيلد» الغذاء مع أسرتها، فخففت كثيراً بغيابها عن أبيها، وقد لحظ أنها لم تقل لأمها شيئا فسرّه ذلك، وأرضى كبرياءه.

ترجّل «چوليان» ونزل عن جواده، فنادته «ماتيلد» وارتمت بين أحضانه على مرأى من وصيفاتها. لكنه لم يظهر فرحاً بهذا اللقاء الذي يفيض غبطة وسروراً، فقد أصبح على إثر حديثه الطويل مع الكاهن، سياسياً ماهراً كثير الحيطة والحذر. وكان خياله في شغل

دائم بإحصاء ما سيحدث. وأخبرته «ماتيلد» والدموع تترقرق في عينيها بأنها رأت خطاب الانتحار، وقالت له:

– لقد يغير والدي رأيه، فأرجو أن ترحل حالاً إلى ڤيلكييه. امتط جوادك قبل أن يفرغوا من الطعام.

ولما رأته لا يزال يبدو عليه الفتور والعجب، ذرفت عيناها دموعاً غزيرة، وصاحت قائلة في حمية شديدة:

– دعني أنا أشرف على أمورنا. إنك تعلم أني لا أحب أن أفارقك طائعة مختارة. اكتب إليّ باسم وصيفتي، على أن يكون العنوان بخط غير خطك، أما أنا فسأكتب إليك مجلدات. وداعاً! اهرب.

فجرحته الكلمة الأخيرة، لكنه نزل على إرادتها، وأخذ يقول في نفسه: لقد كتب على هؤلاء الناس حتى في أسعد لحظاتهم أن يجدوا كلمة واحدة يجرحونني بها.

عارضت «ماتيلد» في كل المشروعات المعقولة التي عرضها عليها أبوها معارضة حازمة. ولم ترد إطلاقاً أن تتناول المفاوضات أساساً آخر غير هذا الأساس: فهى لا تقبل إلا أن تكون «مدام سورل»، وتعيش مع زوجها فقيرة في سويسرا أو عند أبيها في باريس. ورفضت رفضاً باتاً اقتراح أبيها في أن تعمل لها عملية إجهاض، وقالت له: لو أنني أطعتك لكنت عرضة للأحاديث ولحقني العار. ولكني سأقوم برحلة مع زوجي بعد زواجنا بشهرين، وسيكون من اليسير علينا أن نقول: إن ابني ولد بعد أن نحدّد الزمن المناسب.

لاقى «المركيز» ثبات «ماتيلد» بغضب كثير أول الأمر، غير أن الشكوك أخذت تتسرب إلى قلبه. وفى لحظة من لحظات الحنان والشفقة، قال لها:

– خذي! هذا صكٌ بدخل يبلغ عشرة آلاف من الفرنكات، ابعثي به إلى چوليانك، وحذراً أن يقع في يدي.

وكان «چوليان» قد قطع أربعين فرسخاً بدون جدوى، لا لشيء إلا ليطيع «ماتيلد» التي يعرف عنها شغفها بالأوامر، ذهب إلى ڤيلليكيه ليرصد حساب الفلاحين، ثم عاد إلى باريس على أثر هبة المركيز. ذهب إلى الأب پيرار يطلب الضيافة عنده. وكان الكاهن أثناء غياب بطلنا قد أصبح لماتيلد حليفاً نافعاً. فكان في كل مرة يسأله فيها «المركيز» رأيه يبرهن له على أن أي حل آخر غير الزواج العلني، يعدّ عند الله إثماً عظيماً. وكان يقول له:

– من حسن الحظ أن الحكمة الدنيوية لا تتعارض مع الدين. هل نستطيع أن نضمن أن «الآنسة دى لامول» ستحافظ على سرّ لاتريد هي أن تكتمه، مع ما تعرفه عنها من خلق ثائر؟ إننا إذا لم نوافق على هذا الطريق القويم في الزواج العلني، فإن المجتمع سيتخذ من هذا الزواج الذي لا تكافؤ فيه، مادة غزيرة للحديث وقتاً طويلاً. فعلينا أن نقول كل

شيء دفعة واحدة، دون التظاهر بأدنى شيء، ودون أن يبدو فيما تقول أو تفعل، لون من الغموض. ففكر «المركيز» فيما سمع وقال:

- صحيح ما تقول. لكن الطريقة التى ترمي إلى إعلان الزواج بعد ثلاثة أيام تكشف عن رجل لا رأي له. يجب أن ننتهز فرصة حركة كبيرة من جانب الحكومة ضد اليعقوبية فنندسّ في أثرها متنكرين.

كان صديقان أو ثلاثة من أصدقاء «المركيز دى لامول» يوافقون الكاهن پيرار على ما يقترحه. غير أن العقبة الكبرى في نظرهم هو هذا الخلق الحازم الذي تتمسك به «ماتيلد». وعلى الرغم من تلك الحجج المنطقية الوجيهة، فإن نفس «المركيز» لم تستطع أن تعتاد التنازل عن الأمل في أن تكون ابنته من المترددات على البلاط.

كان خيال المركيز وذاكرته لا يزالان محشوين بالدهاء والزيف على اختلاف ألوانهما، مما كان في طبعه في شبابه. فهو يؤمن بأن الخضوع للضرورة، والخوف من القوانين أمور تافهة مخلة بشرف من هو في مثل مكانته. لقد أخذ يدفع الآن ثمنا غالياً لأحلامه الساحرة، وآماله التي بناها على مستقبل ابنته العزيزة.

وأخذ يناجي نفسه قائلاً: من ذا الذي كان يتنبأ بمثل هذا المصير؟ إنها فتاة ذات نفس سامية، ونبوغ عظيم وهي أكثر فخراً مني بالاسم الذي تحمله! لقد طلب مني يدها خيرة شباب فرنسا وأكثرهم مجداً! عليّ أن أدع الحذر جانباً. لقد قلب هذا القرن كل الأوضاع! وإننا في طريقنا إلى التخبط!

الفصل الرابع والثلاثون

رجل ذو فطنة

كان الحاكم يركب جواده يوماً ويقول:
لم لا أصبح وزيراً، رئيساً للوزراء، دوقاً؟ ها هي ذي
طريقتي في الحرب ... إنني بهذه الوسيلة أكبل
المجددين بالأغلال.

لى جلوب

لم يستطع برهان من البراهين أن يقضي على سلطان الأحلام الجميلة التي لازمت «المركيز» عشرة أعوام. ثم وجد أن الحكمة تقضي عليه بألا يغضب، ولكنه لم يقدر على الصفح. وكثيراً ما كان يقول: ليت «چوليان» هذا يموت في حادث من الحوادث ... وإذن كان خياله الحزين يسبح في آفاق للنجاة، ليست سوى أمان وهمية تحقيقها عسير، كانت تعطل إثر النصائح الحكيمة التي يبديها الكاهن پيرار. ومضى شهر على هذه الحالة، لم تتقدم فيه المفاوضات خطوة واحدة.

طرأت على «المركيز» آراء سديدة في هذه المشكلة العائلية، كما تطرأ عليه في الأمور السياسية، وظلت تملكه ثلاثة أيام، فكان شديد التحمس لها. من أجل هذا لم يقبل خطة عرضت عليه؛ لأنها تستند إلى آراء حكيمة وهو لا يؤمن بالآراء الحكيمة إلا إذا دعمتها الخطة التي تتراءى له. وظلّ يعمل ثلاثة أيام في جدّ وحماسة، كما لو كان شاعراً يجد في إتمام قصيدة لينتهي في هذه المشكلة إلى حلّ، وفي اليوم التالي لم يعد يفكر فيما فعل.

كان «چوليان» مضطرباً لبطء «المركيز» أول الأمر، ولكنه بعد بضعة أسابيع اعتقد أنه ليس لدى «المركيز» خطة معينة فيما حدث.

أما مدام دى لامول وجميع من فى المنزل، فقد اعتقدوا أن «چوليان» في رحلة في الريف لادارة شئون بعض الأراضي؛ وما كان «چوليان» إلا مختفياً في دار الكاهن پيرار، وهو يرى «ماتيلد» كل يوم تقريباً ؛ أما هي فكانت تلقى أباها ساعة كل يوم، وقد ظلا أسابيع كاملة لا يتحدثان عن هذه المشكلة التي تشغلهما معاً. وفي يوم من الأيام قال لها «المركيز»:

– لا أريد أن أعرف مكان هذا الرجل، فأرسلي إليه هذا الخطاب.

فقرأت «ماتيلد» فيه:

«إن أرض لنجدوك تدرّ ستمائة وعشرين ألفا من الفرنكات، أمنح ابنتى منها ستمائة

وعشرة آلاف وأعطى السيد «چوليان سورل» عشرة آلاف فرنك. فاطلب إلى الكاتب أن يعدّ عقدي هبة منفصلين ثم يحضرهما إليّ في الغد، وبعد هذا تنقطع الصلة بيننا تماماً. آه يا سيدي، هل استحق منك كل هذا؟»

«المركيز» دى لامول

فقالت «ماتيلد» في غبطة: أشكرك كل الشكر. وسنقيم في قصر آجيّون بين آجن ومارماند، لأن هذه المقاطعة -كما يقال- تضارع إيطاليا في جمالها.

أذهلت هذه الهبة «چوليان» ذهولاً شديداً. ولم يعد ذلك الرجل الصارم الفاتر الذي عرفناه من قبل. إن مصير ابنه كان يشغل أفكاره كلها مقدماً. وقد خلقت منه شخصاً طموحاً هذه الثروة غير المتوقعة، والتي تعدّ ثراء عريضاً بالنسبة إلى رجل فقير مثله. لقد أصبح دخله هو وزوجته ستة وثلاثين ألفا من الفرنكات.

أما «ماتيلد» فقد كانت في شغل عن هذا كله بحبها الشديد لـ«چوليان»، ذلك الحب الذي غمر نفسها، وفرضت عليها كبرياؤها دائماً ألا تدعوه إلا بزوجها. وكان طموحها الشديد الذي تمكن من نفسها، هو أن يعترف بزواجها منه. كانت تقضى حياتها في المبالغة الشديدة بأنها أحسنت صنعاً حين ربطت مصيرها بمصير ذلك الرجل الممتاز. فقد كانت المواهب الشخصية تملك عليها لبّها كلّه.

وكان غياب «چوليان» عنها، والأعمال الكثيرة التي بين أيديهما، والوقت القصير الذي يستطيعان التحدث فيه عن الحب. كان هذا كله عوامل خدمت السياسة الحكيمة التي ابتدعها «چوليان» خدمة كبيرة.

وعيل صبر «ماتيلد» من ندرة ما ترى الرجل الذي أصبحت تحبه حباً حقيقياً عنيفاً. وفي ساعة من ساعات الغضب كتبت إلى أبيها خطاباً وبدأته على طريقة عطيل:

«لقد فضلت «چوليان» على كل اللذات التي يقدمها المجتمع لابنة «المركيز» دى لامول؛ لقد وقع اختياري عليه، لأني لا أعتد أبداً بمظاهر الاحترام ولا بتلك الكبرياء التافهة. ومضت عليّ ستة أسابيع عشت فيها بعيدة عن زوجي. وهذا يدلك على مقدار احترامي لك. لكنني سأغادر منزلك قبل يوم الخميس القادم. لقد أصبحنا غنيين بما غمرتنا من كرمك.

ولا يعرف سري إلا الكاهن الجليل پيرار. سأذهب إليه ليزوجنا، وبعد حفل الزواج بساعة سنكون في طريقنا إلى لنجدوك، ولن نعود إلى باريس أبداً إلا إذا أذنت لنا في أن نعود. غير أن ما يحزّ في نفسي، هو أن الناس سيتخذون من أمري سبباً في اغتيابي واغتيابك. هل تعتقد أن الهجاء الذي سيصدر عن هذا الجمهور الأحمق، سيحمل عزيزنا نورپير على أن يصطدم «بچوليان»؟ إنه إن فعل، ما استطعت التأثير على زوجي، فإني أعرف خلقه جيداً، فنفسه نفس رجل من الشعب ثائر دائماً. أى والدي! أتوسل إليك أن

تحضر زواجي في كنيسة الكاهن پيرار يوم الخميس القادم. إن أثر وقع هذا الأمر على نفسك سيكون قد خفّ، وستصبح حياة ابنك الوحيد وحياة زوجي في مأمن من كل خطر...».

وأحدث هذا الخطاب في نفس «المركيز» ارتباكاً عنيفاً. كان عليه إذن أن يتخذ قراراً. لم تؤثر فيه العادات التافهة، وفقد أصدقاؤه كل سيطرة عليه، فقد كان ينظر إلى آرائهم بازدراء.

وتسلطت عليه طبائعه أيام شبابه، تلك التي كانت تصقل نفسه، وتذكر هذا كله في محنته الحاضرة. لقد خلق منه شقاء الهجرة وبؤسها رجلاً ذا خيال. فبعد أن تمتع عامين بثراء عريض ومكانة كبيرة في البلاط، طوح به عام ١٧٩٠ في أشد حالات البؤس، بعد أن هاجر مع غيره من الأشراف. وقد غيّرت هذه المدرسة القاسية من اتجاهات نفسه الفتية، نفس شاب في الثانية والعشرون من عمره. والواقع أنه كان يعسكر الآن وسط ثروته الحاضرة، دون أن يتحكم فيه غناه. غير أن هذا الخيال الذي حال بينه وبين الوقوع تحت سيطرة الذهب، زيّن له رغبة ملّحة في أن يرى ابنته تحمل لقباً جميلاً يناسبها.

استولت على «المركيز دى لامول» نزوة في الأسابيع الستة المنصرمة، فأراد أن يصبح «چوليان» غنياً، لأنه كان يرى الفقر عاراً ومخلاً بالشرف بالنسبة إليه، ويعدّ شيئاً لا يطاق بالنسبة لزوج ابنته؛ فأخذ يبذر المال عن سعة. وكان خياله في اليوم التالي يصور له فكرة جديدة، فقد كان يعتقد أن «چوليان» سينصت إلى هذه اللغة الصامتة، لغة الجود في بذل المال، فيعمد إلى تغيير اسمه، وينفي نفسه في أمريكا، ويكتب إلى «ماتيلد» يطلب منها أن تقطع كل صلة به وتعده بالنسبة إليها ميتاً. وكان «المركيز» يؤمن بأنه ما دام هذا الخطاب قد أصبح بين يدي «ماتيلد»، فإنه استطاع أن يبسط نفوذه على ابنته من جديد ....

وفي اليوم الذى انتزعه خطاب «ماتيلد» من آرائه التي لا تليق إلا بشاب، فحمله على التفكير في الأمر على ضوء الواقع، بعد أن فكر وقتاً طويلاً في أن يقتل «چوليان» أو يخلي طريق ابنته منه، أخذ يفكر الآن في أن يعد له مكانة سامية. فسمّاه باسم ضيعة من ضياعه، ولم يجعله نداً له فيلحقه بطبقة الأشراف، فكثيراً ما حدثه صهره الدوق دى شون عن رغبته في أن يخلع لقبه على الكونت نورپير، بعد أن قتل ابنه الوحيد في أسبانيا.

ثم أخذ «المركيز» يقول في نفسه: لا يستطيع المرء أن ينكر أن «چوليان» ذو مقدرة كبيرة على العمل، وأنه جريء، وربما كان ذا فطنة وفكر ثاقب ... على أني ألمح في خلقه شيئاً يبعث الرعب في النفوس. وهذا أثر يتركه في قلوب الناس جميعاً. فهو إذن حقيقي. وكلما صعب على «المركيز» الشيخ أن يدرك كنه هذه الحقيقة الواقعة، سيطر الخوف على نفسه المتشبعة بالخيال.

لقد ذكرت ابنتي هذه الحقيقة منذ أيام في كثير من المهارة والتوفيق، في خطاب لم تعرض له. فقالت. إن «چوليان» لم يشترك في صالون ولا يمت بصلة إلى أي حزب. ولو أني تخليت عنه، ما وجد من يعضده في العمل ضدي، ولن يعمد حتى إلى أتفه الوسائل. ولكن هل يعد هذا جهلاً منه بالحالة الحاضرة للمجتمع؟ لقد قلت له مرتين أو ثلاث مرات: إن الصالونات هي الأماكن الوحيدة التي تضمن للمرء مركزاً حقيقياً كثير النفع. لا، إن نفسه لم تفطر على النبوغ الذي ينم عن المهارة والمراوغة، كنبوغ النائب الذي لا يضيع دقيقة ولا يترك فرصة تفلت من بين يديه. خلقه ليس كخلق عصر لويس الحادى عشر. ومن ناحية أخرى أراه يدين بالمبادئ التي تعد على جانب كبير من الوضاعة. إني لأضل هل سيستعين بهذه المبادئ ليقيم منها سوراً يقي به أهواءه؟

وعلى الجملة فقد بقي شيء، وهو أنه لا يصبر على الاحتقار، إني أملكه من هذه الناحية. هو لا يؤمن بالحسب والنسب، واحترامه لنا -في الواقع- ليس غريزة فيه، وهذا خطأ كبير؛ وعلى كل حال فنفس طالب العلوم الأكليريكية لا تثور إلا لحرمانها من المتعة والمال. أما هو فعلى نقيض ذلك تماماً، لأنه لا يصبر على الإهانة أبداً. حمل خطاب «ماتيلد» أباها على أن يتخذ قراراً عاجلاً في هذا الأمر، فأخذ يحدث نفسه قائلاً: المسألة تنحصر على الجملة في: هل أقدم «چوليان» على مغازلة ابنتي والتودد إليها، لأنه يعلم أنني أحبها كثيراً وأن دخلي مائة ألف إيكو في السنة؟ أما «ماتيلد» فإنها تنزهه عن هذا. لا، يا سيد «چوليان»، هذا أمر يجب أن أعرف حقيقته تمام المعرفة.

هل كان مدفوعاً نحوها بحب حقيقي مفاجيء؟ أم دفعته رغبة دنيئة في أن يصل إلى مركز رفيع؟ إن «ماتيلد» بعيدة النظر، لقد فطنت إلى أن هذا الشك جدير بأن يقضي على مكانته في نفسي، فاعترفت لي بأنها هي التي أحبته أولاً. أتنسى فتاة رفيعة الخلق نفسها، وتقدم على ارتكاب هذه الوسائل المادية: تضغط ذراعه في الحديقة ذات مساء، فياللخزي! تفعل هذا كما لو كانت لا تعرف مائة طريقة أخرى أقل منافاة للآداب، لتبرهن له بها على أنه موضع رعايتها.

الاعتذار دليل الاتهام، وعلى هذا فأنا أحذر قول «ماتيلد». كانت آراء «المركيز» في ذلك اليوم قاطعة أكثر من ذي قبل. لكن العادة تغلبت عليه، فعزم على أن يكسب بعض الوقت، ويكتب إلى ابنته وكان هو وابنته قد جريا على عادة الكتابة من أحد جوانب القصر إلى جانبه الآخر؛ لأن «المركيز» لم يكن ليقدم على مناقشة «ماتيلد» وجهاً لوجه، لأنه كان يخشى أن ينتهي كل شيء وفق ما تهوى.

خطاب

«حذار من أن ترتكبي حماقات جديدة، وإليك شهادة لضابط في الخيالة باسم السيد الفارس «چوليان» سورل دى لاڤرناى. إنك ترين ما أفعله له فلا تغضبيني ولا توجهي إليَّ أي سؤال. وليسافر إلى ستراسبورج ليلحق بفرقته بعد أربع وعشرين ساعة. وإليك

حوالة مالية على عميلي هناك، وعليكما بطاعتي». فتجاوز حب «ماتيلد» وفرحها كل حد يوصف، فأرادت أن تنتهز فرصة هذا النصر وترد على خطاب أبيها في الحال ؛ فكتبت إليه:

«لو أن السيد دى لاڤرناى عرف ما تفضلت عليه به، لكان الآن جاثياً عند قدميك شكراً لله واعترافاً بجميلك. لكنك يا والدي وسط هذا الفضل العميم قد نسيتني، نسيت أن شرف ابنتك في خطر. وقد لحقها عار أبدي، لا يستطيع دخل قدره عشرون ألف إيكو أن يمحوه أبداً. إنني لن أرسل البراءة إلى السيد دى لاڤرناى، إلا إذا وعدتني بشرفك أن زواجنا سيتم في الشهر القادم بصفة علنية في ڤيلكيه. وإني أتوسل ألا تتجاوز هذا الموعد لأن ابنتك لن تستطيع الظهور أمام الناس بعد ذلك إلا باسم مدام لاڤرناى.

أشكرك كل الشكر أيها الوالد العزيز على أن خلصتني من هذا الاسم: سورل.»

وكان الرد على هذا الخطاب غير متوقع:

«أطيعيني وإلا نقضت كل شيء. ارتعدي أيتها الحمقاء. إنني لم أعرف بعد شيئاً عن «چوليان» هذا، وأنت تجهلين من أمره أكثر مما أجهل.

فليسافر إلى سترا سبورج، وليضع نصب عينيه أن يسلك طريقاً مستقيماً، وسأبدي لك رأيي بعد خمسة عشر يوماً».

فذهلت «ماتيلد» من هذه الإجابة الحازمة. «أنا لا أعرف «چوليان»» ثم أطلقت العنان لأحلامها لما قرأت هذه العبارة، فزينت لها الأحلام فروضاً خلع عليها خيالها ألواناً ساحرة، فآمنت بها على أنها حقائق. وأخذت تناجي نفسها قائلة: إن نفس عزيزي «چوليان» لم تعتد أن تلبس لباس الذلة الذي تخلعه الصالونات على النفوس، ومع ذلك فوالدي لا يؤمن بسمو نفسه، لأنه شديد الإيمان بالصالونات.

ومع هذا فأنا إذا لم أنزل على ما يمليه هذا الخلق الضعيف، فإني أخشى أن تحدث فضيحة علنية، تنقص مكانتي في نظر الناس، وقد تقلل من حب «چوليان» لي. وسنقضي بعد هذه الفضيحة عشرة أعوام في فقر شديد ؛ وحماقة اختيار زوج ذي مواهب لن تسلم من السخرية إلا إذا بذلنا في سبيلها المال الكثير. ولو أنني عشت بعيدة عن والدي، فقد ينساني لشيخوخته، وقد يتزوج توريير امرأة ظريفة مستقيمة: لقد غوت دوقه برجونى لويس الرابع عشر في شيخوخته!

لقد عزمت على أن تطيع أمر أبيها، ولكنها لم تشأ أن ترسل خطاب أبيها إلى «چوليان»، مخافة أن يحمله ما في خلقه من نفور إلى ارتكاب عمل جنوني. ولما أخبرت «چوليان» في المساء بأنه أصبح ضابطاً في الخيالة، كان سروره لا يقدر ؛ فقد تحقق ما كان يبتغيه طول حياته من طموح، وأصبح الآن حبه لابنه يملك عليه كل نفسه، من أجل ذلك كان فرحه كبيراً إلى أبعد حد، وأذهله تغيير اسمه ذهولاً شديداً.

وأخذ يناجي نفسه: إن قصتي -في الواقع- قد انتهت، والفضل في نجاحها راجع إليّ وحدي! ثم نظر إلى «ماتيلد» وقال: لقد عرفت كيف أحمل هذا الشيطان الغرور على أن تحبني، إن أباها لا يطيق أن يحيا بدونها، وهي لا تستطيع أن تعيش بعيدة عني.

الفصل الخامس والثلاثون

عاصفة

يا إلهي! هبني ضعة الشأن!

ميرابو

كانت نفس «چوليان» مشغولة بما أخبر به، لذلك قابل حب «ماتيلد» الشديد بحب ضعيف فاتر. وظلّ صامتاً عبوساً. ومع ذلك كان في نظرها أعظم وأروع في هذه اللحظة منه في أي وقت آخر، لكنها كانت تخشى ثورة من ثورات الكبر فيفسد عليها كل أمر.

إنها ترى الكاهن پيرار يتردد على القصر في كل صباح. فهل أطلع «چوليان» على بعض نوايا «المركيز»؟ أم كتب له أبوها تحت تأثير نزوة من النزوات؟ وإلا فما السر في هذا العبوس في ساعة هي من أسعد ساعات حياتهما؟ لكنها لم تجرؤ على سؤاله. إنها لم تجرؤ! «ماتيلد» بنفسها! لقد تكوّنت في نفسها منذ هذه اللحظة عاطفة تنطوي على الغموض، وعلى المفاجأة والخوف منه: وأصبحت نفسها الغليظة تشعر بأقصى ما تشعر به نفس درجت وسط هذه الحضارة التي تُعجب بها پاريس.

وفي ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، كان «چوليان» في دار الكاهن پيرار. ثم وصل إلى فناء الدار جياد من خيل البريد، وكرسي ممزق استؤجر من المحطة المجاورة. فقال له الكاهن الصارم في تقطيب:

– مثل هذا الركب لم يعد يليق بك. لك عشرين ألفاً من الفرنكات من «المركيز دى لامول» هدية لك؛ وهو يطلب منك أن تنفق المبلغ كله في هذا العام، على ألا تكون عرضة للسخرية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً. (إن وضع هذا المبلغ الكبير بين يدي هذا الشاب ليحمله على ارتكاب الآثام كما يظن هذا القسيس). واستطرد الكاهن يقول على لسان المركيز: على السيد «چوليان دى لاڤرناى» أن يزعم بأنه أخذ هذا المال من أبيه، ومن العبث أن يقول إنه أخذه من مصدر آخر. وربما وجد «السيد دى لاڤرناى» أنه يحسن به أن يقدم هدية إلى السيد سورل النجار فى ڤريير، مكافأة على عنايته به في طفولته. واستطرد الكاهن يقول:

– أستطيع أن أقوم بهذه المهمة عنك؛ وقد حملت «المركيز» على مصالحة الكاهن فريلير لأنه متطرف في اليسوعية، بعد أن تبين لنا أن سلطانه أقوى من سلطاننا. وسيكون الاعتراف بكرم محتدك أحد الشروط الضمنية في هذا الصلح، إذ لابد لنا من

اعتراف ذلك الرجل -الذي يحكم بيزانسون- بما نريد.

لم يتمكن «چوليان» من السيطرة على نفسه لشدة فرحه، حين وجد أن المركيز قد اعترف به، فعانق الكاهن، لكن الأب پيرار دفعه عنه وقال:

- اخسأ! فما هذا الغرور الدنيوي؟ أما فيما يختص بسورل وأولاده فسأرتب لهم معاشاً سنوياً قدره خمسمائة فرنك، يدفع لكل منهم مادمت راضياً عنهم.

كان «چوليان» قد أصبح متعالياً فاتر اللهجة، فشكر الكاهن بعبارات غامضة لا تربطه إطلاقاً بأي شيء. وأخذ يقول في نفسه: أيمكن أن يقول بأنني ابن طبيعي لسيد من كبار الأشراف، نفاه إلى جبالنا ناپليون الطاغية؟ وخيل إليه من لحظة إلى أخرى أن هذا الرأي ليس بعيد الاحتمال، ودليل على ذلك كراهيتي لوالدي. لو أنني كنت ابنه حقاً ما كنت شيطاناً رجيماً!

وبعد هذا الحديث بأيام قلائل، كانت الفرقة الخامسة عشرة للخيالة، التي هي من خير فرق الجيش كله، في معركة في ميدان السلاح باستراسبورج. وكان السيد الفارس دى لاڤرناي على ظهر جواد جميل من الألزاس، كلفه ستة آلاف من الفرنكات. ونال رتبة الملازم، وإن لم يكن صف ضابط من قبل، إلا في فرقة لم يسمع عنها خبراً طول حياته. كان ثبت الجنان، ذا نظرات قاسية قد تكون شريرة، شاحب اللون، هادئ النفس إلى حدّ كبير، فبدأ يشتهر في الفرقة منذ يومه الأول. وبعد قليل ظهر أدبه الجم، الذي ينطوي على كياسة بالغة، وبدت مهارته في إطلاق النار وحمل السلاح، وقد تعلمهما في شغف لا تصنع فيه، فلم يعد أحد من زملائه يرفع صوته ساخراً منه. ظلّ الرأى العام في الفرقة متردداً في أمر «چوليان» خمسة أيام أو ستة، ولكنه أصبح بعد ذلك في صالحه تماماً، فقد روى عنه أولئك الضباط المسنون الساخرون: هذا الشاب يتصف بكل شيء إلا بالشباب.

وقد كتب «چوليان» من ستراسبورج إلى السيد شيلان كاهن ڤرير السابق، الذي أصبح الآن في آخر أيام حياته، وبلغت به الشيخوخة منتهاها:

«لقد سررت حين بلغك خبر الظروف التي حملت أسرتي على أن تغمرني بالمال، وأنا لا أشك إطلاقاً في مقدار فرحك لذلك. إليك خمسمائة فرنك، أرجو أن تتفضل بتوزيعها على الفقراء والمحتاجين الذين كنت أنا مثلهم منذ زمن قريب، وإني لأعلم أنك تتصدق عليهم كما كنت تتصدق عليّ من قبل».

كان «چوليان» تحت سلطان نشوة من الطموح لا من الغرور؛ على الرغم من اهتمامه الشديد بمظهره الخارجي، إذ كانت جياده وملابسه، وثياب خدمه وأتباعه موضع رعاية شديدة منه، فكأنه سيد إنجليزي، كثير الولع بالمحافظة على مظهره. لقد أصبح ملازماً بطريق الاستثناء منذ يومين، ومع ذلك فقد أخذ يحسب أنه سيصبح رئيس فرقة وهو في سن الثلاثين ككلّ القواد العظماء، فيجب أن تكون رتبته وهو في الثالثة والعشرين أعلى من رتبة ملازم، لم يكن يفكر إلا في المجد وفي ولده.

وبينما هو غارق فيما يصوره له هذا الطموح الجامح، أذهله أن رأى خادماً من خدم قصر المركيز دى لامول يأتي مسرعاً إليه ومعه الرسالة التالية من «ماتيلد»: «فقدنا كل شيء، فأسرع بالحضور إليّ، مضحيًا بكل شيء، أهجر الجيش إذا لم يكن من ذلك بدّ. وانتظرني بمجرد وصولك في عربة على مقربة من باب الحديقة الصغيرة رقم ... المطل على شارع ... سآتي لأتحدث إليك وربما تمكنت من إدخالك الحديقة. لقد ضاع من أيدينا كل شيء، وأخشى أن نصبح ولا مورد لنا، ولكن اعتمد عليّ، فستجدنى في الشدة مخلصة حازمة. إني أحبك».

وفي بضع دقائق، حصل «چوليان» على إذن من رئيسه الكولونل، وغادر ستراسبورج إلى پاريس على عجل، غير أن قلقه الشديد لم يسمح له بأن يواظب على هذه السرعة الجنونية بعد أن بلغ متز، فقطع باقي المسافة في عربة من عربات البريد، ثم ذهب في سرعة لا تصدق إلى باب حديقة قصر المركيز دى لامول. فتح الباب، وظهرت «ماتيلد» في الحال، وارتمت بين ذراعيه، ناسية كل وقارها غير مبالية بشيء على الإطلاق. ولحسن حظها كانت الساعة لا تزال الخامسة صباحاً والشارع لا يزال مقفزاً من المارة، وقالت له:

- لقد ضعنا؛ خاف أبي دموعي فسافر يوم الخميس مساء. إلى أين؟ لا يعلم أحد إلى أين ذهب. وترك لي هذا الخطاب فاقرأه. ثم صعدت إلى جانبه في العربة. «أستطيع أن أصفح عن كل شيء، ولكني لا أغفر مطلقاً أمر إغرائك؛ لأنك غنية. هذه هي الحقيقة المرة أيتها الفتاة التعسة. أقسم بشرفي أنني لست أوافق إطلاقاً على أن تتزوجي هذا الرجل. إني أمنحه معاشاً قدره عشرة آلاف من الفرنكات إذا قبل أن يعيش بعيداً، خارج حدود فرنسا، بل في أمريكا على الأصح. إقرئي الخطاب الذي تسلمته رداً على معلومات طلبتها. لقد طلب مني هذا الوقح بنفسه أن أكتب إلى «مدام دى رينال»: فأنا لا أريد أن أقرأ سطراً واحداً تكتبينه يخص هذا الرجل. لقد اشمأزت نفسي من پاريس ومنك. وأطلب إليك أن تلزمي الكتمان وتحافظي على سرية كل ما حدث، تخلّي تماماً عن هذا الوضيع لتجدى أباك بجانبك.»

فرغ «چوليان» من قراءة الخطاب، فقال في فتور:

- أين خطاب مدام دى رينال؟

- ها هو ذا. لم أشأ أن أطلعك عليه قبل أن تتهيأ لذلك.

خطاب

«إنني يا سيدي تمشياً مع المبادىء السامية للدين والأخلاق أحمل نفسي هذه المهمة الشاقة التي أقوم بها من أجلك؛ إن قاعدة لا يتطرق إليها الخطأ تأمرني أن أذم إنساناً في هذه اللحظة، ولكنها تحول دون وقوع فضيحة خلقية كبرى، وإن الألم الذي أشعر به من جراء ذلك يخففه شعوري بالقيام بالواجب سلوك الشخص الذي تسألني عنه يا سيدى قد يبدو غير مفهوم أو على جانب كبير من الاستقامة، وقد يعمد الإنسان إلى أن يخفي

بعض الحقيقة، أو أن يخلع عليها قناعاً يسترها، والحكمة تقتضي ذلك ويريده الدين. ولكن هذا المسلك الذي تريد أن تعرفه كان مسلكاً شائناً إلى حد لا أستطيع وصفه. وذلك لأن هذا الشخص كان فقيراً وجشعا ؛ وقد عمد إلى أبشع ألوان النفاق، ليغري امرأة ضعيفة تعسة، فينال مكانة أو يصبح شخصاً مذكوراً. ويخَيل إليّ أن من واجبي الشاق أيضاً أن أراني مضطرة إلى أن أقول: إن السيد ج ... لا يؤمن باى مبدأ من مبادئ الدين. وأراني مرغمة على أن أقول: إنه يعمد إلى إغراء السيدة التي يكون لها شأن في المنزل، متخذاً ذلك طريقة من الطرق التي تكفل له النجاح، أقول لك هذا إرضاء لضميرى. إنه ليتذرع بمظاهر القناعة؛ ويردّد عبارات اقتبسها من القصص، ليصل إلى الغرض الذي ينشده، ويسعى إليه سعياً حثيثاً وهو أن يضع يده على صاحب الدار ويملك ثروته. ثم يترك من ورائه الشقاء والندم المرير ... » .

هذا الخطاب الطويل الذي كادت الدموع تمحى نصفه، كان بخط «مدام دى رينال» مكتوباً بعناية أكثر من المعتاد. وانتهى «چوليان» من قراءته فقال:

- لا أستطيع أن ألوم «المركيز دى لامول»، لأنه عادل وفطن. فأي أب يقدم على أن يزوج ابنته العزيزة رجلاً هذا خلقه؟! الوداع!

وقفز «چوليان» من العربة ثم جرى إلى مقعده في عربة البريد التي كانت بانتظاره في طرف الشارع حتى كأنه نسى «ماتيلد»، فسارت خلفه بضع خطوات، لكن نظرات التجار الذين كانوا يسيرون إلى حوانيتهم، وكانوا يعرفونها، اضطرتها إلى أن تهرول فتدخل الحديقة.

كان «چوليان» في طريقه إلى ڤريير. لم يستطع أن يكتب إلى «ماتيلد» وهو في طريقه إلى بلدته كما كان عازماً على ذلك؛ لأن يده كانت لا تخط على الورق إلا حروفا لا تقرأ.

وصل إلى ڤريير. في صباح يوم الأحد. ودخل حانوت بائع الأسلحة الذي أخذ يثني عليه أجمل الثناء لثروته الحديثة. وكان هذا أهم خبر يتحدث به أهل هذه الناحية. ووجد «چوليان» مشقة كبيرة في أن يفهم الرجل أنه جاء ليشترى مسدسين. وحشاهما التاجر بالرصاص كما طلب منه «چوليان».

جلجلت الدقات الثلاث، وهي علامة يعرفها كل من في قرى فرنسا، تنبىء الناس ببدء الصلاة في الحال، بعد أن نبهتهم دقات أجراس الصباح إلى الصلاة. فدخل «چوليان» الكنيسة الجديدة في ڤريير. وكانت النوافذ العليا مغطاة كلها بستائر قرمزية. ووجد نفسه خلف مقعد «مدام دى رينال» ببضع خطوات. وخُيل إليه أنها كانت تصلي في حَمية وحرارة. ولما وقع نظره على تلك السيدة التي أحبها حباً جماً، اضطربت ذراعه فلم يقو على تنفيذ مشروعه اول الأمر. وأخذ يقول في نفسه: لا أستطيع ذلك، إنني لا أستطيع أن أقدم على ذلك مادياً. وفي تلك اللحظة، دقّ الشماس الذي يقوم بالصلاة علامة السمو.

فخفضت «مدام دى رينال» رأسها الذي كان من قبل مختبئاً تماماً في ثنايا محرمها. ولم يعرفها «چوليان» تمام المعرفة، ومع ذلك فقد أطلق عليها رصاصة من مسدسه فأخطأ المرمى، فأطلق عليها ثانية سقطت على إثرها.

الفصل السادس والثلاثون

ظروف محزنة

لا تنتظري أن أظهر بمظهر الضعف. لقد ثأرت لنفسي.
إني أستحق الموت؛ وها أنذا أموت، فصلي على
روحي.

شيلر

ظل «چوليان» واقفاً وهو جامد في مكانه، ولم يعد يرى شيئاً. وحينما أفاق قليلاً وجد المؤمنين جميعاً قد غادروا الكنيسة، وترك القسيس مكانه من المذبح. وتبع «چوليان» في بطء بعض نساء كن يولولن وهن منصرفات. وكان بينهن امرأة تحاول الإسراع أكثر من غيرها، فدفعته بقوة فسقط على الأرض. وكانت قدماه قد عثرتا في مقعد، أوقعه الجمهور وهو يفرّ من الكنيسة، فوقع وحاول النهوض فشعر بضغط على رقبته؛ كان الواقف بجواره شرطياً بملابسه الرسمية وقد قبض عليه. ورأى نفسه يحاول أن يمسك مسدسيه ليطلق النار على الشرطي، ولكنّ شرطياً آخر كان قد أمسك بذراعيه.

واقتيد إلى السجن حيث أدخل غرفة من غرفه، وكبّلت يداه بالأغلال، ثم ترك وحده وأغلق الباب عليه بإحكام. جرى كل ذلك بسرعة عظيمة، لكن «چوليان» لم يهتم إطلاقاً بالقبض عليه. ولما ثاب إلى رشده، قال في صوت مرتفع:

– كل شيء قد انتهى في الواقع، فبعد خمسة عشر يوماً سأساق إلى المشنقة، أو أقتل نفسي قبل ذلك.

لم يهده تفكيره إلى أكثر من هذا؛ وقد شعر كأن رأسه مضغوط بشدة، وخيل إليه أن إنساناً قد أمسك به. وبعد لحظات قليلة، استغرق في نوم عميق.

لم تجرح «مدام دى رينال» جرحاً عميقاً، إذْ اخترقت الرصاصة الأولى قبعتها وأصابتها الثانية وهي تلتفت، فمسّت كتفها، والغريب في الأمر أن عظمة الكتف -وإن كانت قد كسرت- ردت الرصاصة فأصابت عموداً غوطياً من أعمدة الكنيسة، فاقتلعت جزءاً كبيراً من حجر العمود.

ضمّد جرحها واستغرق ذلك وقتاً طويلاً، وتألمت منه ألماً شديداً، لكن الجراح -وكان رجلا وقوراً- قال لها: إني ضامن حياتك فلا تخافي شيئاً. فحزنت حزناً شديداً حين سمعت منه ما قال. كانت تنتظر الموت منذ زمن طويل في رغبة صادقة. والخطاب الذي أرغمها القسيس الذي اعتادت أن تعترف أمامه الآن، فأرسلته إلى «المركيز دى لامول»، كان الضربة القاضية على هذه السيدة التعسة، التي هدمها ما تلقاه من شقاء مقيم. كان بؤسها

في غياب «چوليان» عنها، كانت تناديه، والندم يلاحقها. وقد كشف المدير الأمر، وهو قس شاب متمسك بالفضائل، متحمس، كان قد وصل أخيراً من ديچون.

وكانت تقول في نفسها: خير لي أن أموت هكذا، وألا أقتل نفسي بيدي لأنها معصية كبرى؛ ويغفر الله لي فرحي بالموت. ولم تجرؤ على أن تقول: والموت بيد «چوليان» منتهى السعادة.

ولم تكد تتخلص من الجراح ومن الأصدقاء الذين جاءوا للسؤال عنها مسرعين، حتى استدعت إليزا وصيفتها، وقالت لها والخجل الشديد يستولى عليها:

– إن السجان رجل قاس. ولا شك أنه سيسيء معاملته، معتقداً أنه يحسن بذلك إليّ، هذه الفكرة تؤلمني أشد الألم. أفلا تستطيعين أن تذهبي وتلقي هذا السجان كأنك ذاهبة إليه من تلقاء نفسك، ثم تعطيه هذه الصرة التي بها بضعة لويسات؟ قولي له: إن الدين لا يسمح بأن يعامله معاملة سيئة .. وعليه ألا يتحدث إطلاقاً عن هذا المال.

وسعد «چوليان» بمعاملة حسنة بسبب هذا؛ وكان السجان هو دائماً السيد نوارو، ذلك الموظف المستقيم، الذي ذعر ذعراً شديداً من حضور السيد آپير لزيارة السجن.

أتى إلى السجن أحد القضاة فقال له «چوليان»: لقد قتلت مع سبق الإصرار، واشتريت المسدسين من فلان بائع الأسلحة وأمرته أن يحشوهما بالرصاص والمادة ١٣٤٢ من القانون الجنائي واضحة، فأنا أستحق الموت وأنتظره. فذهل القاضي من هذه الإجابة، وأراد أن يوجه إليه أسئلة عديدة لعل المتهم يرجع عن قوله. فابتسم «چوليان» وقال:

– ولكن ألا ترى أنني أعترف بأكثر مما كنت ترجو أن تحصل عليه؟ إنك يا سيدي لن تضيع الفريسة التي تطاردها. وستنال بالحكم عليّ لذة كبيرة فأعفني إذن من حضورك!

وبعد ذلك أخذ يقول في نفسه: بقى عليّ واجب يدعو إلى الملل، فعليّ أن أكتب إلى «الآنسة دى لامول». وكتب لها يقول:

«لقد ثأرت لنفسي. وسيظهر اسمي في الصحف لسوء الحظ، ولن أستطيع أن أخرج من هذا العالم متنكراً. سأموت بعد شهرين. وكان الانتقام مريعاً، كما كان فراقك مريراً مؤلماً. لقد حرّمت على نفسي منذ الآن أن أكتب اسمك أو أن أنطق به، لا تتحدثي عني بتاتاً حتى إلى ولدي، فالسكوت خير طريقة لتمجيدي. أما عامة الناس فسيقولون: إنني قاتل دنيء. واسمحي لي أن أقول لك الحقيقة في هذه اللحظة الأخيرة: حاولي أن تنسيني. إن هذه الكارثة الكبرى التي أنصح لك بألا تتحدثي عنها إلى أي إنسان بعد الآن، قد قضت – إلى سنوات بعيدة– على ما في خلقك من حب للمغامرة واندفاع وراء الخيال. لقد خلقت لتعيشي مع أبطال القرون الوسطى، فأظهري الآن ما كانوا يتصفون به من خلق حازم. إن كل ما سيحدث يجب أن يتمّ سراً، دون أن تثيري حولك الشبهات. اتخذى لك اسماً مستعاراً، ولا تبوحي بسرك لإنسان. وإذا كان لابد لك من أن يعاونك صديق، فأنصحك بالاعتماد على الكاهن پيرار. لا تكاشفي أى رجل آخر بما يدور في

نفسك، وبخاصة أولئك الذين هم من طبقتك أمثال دى لوز وكايلوس.

وبعد موتي بعام تزوجي السيد دى كروازنوا، أرجوك بل آمرك بهذا بصفتي زوجك. لا تكتبي إليّ بعد الآن، لأنني لن أردّ عليك.إنني -وإن كنت أقلّ أذى من ياجو على ما يظهر لي- إلا أنني أقول لك ما قاله: لن أقول منذ الآن كلمة واحدة.

لن يراني أي إنسان أتكلم أو أكتب؛ وهذه آخر كلماتي لك كما أبعث إليك بآخر عبارات حبي».

ج.س

وبعد أن بعث بهذا الخطاب، ثاب إليه رشده لأول مرة، فشعر بشقاء كبير. وكانت آماله التي يمليها طموحه تنتزع من قلبه الواحد تلو الآخر، على أثر هذه العبارة المخيفة: إني سأموت. لم يكن الموت في حد ذاته مخيفاً في نظره؛ لكن حياته كلها كانت سلسلة من الشقاء، إلا أنه لم يتفاد نسيان هذا الشقاء الذي يعده الناس جميعاً أشد أنواع الشقاء.

ثم أخذ يتحدث إلى نفسه، ماذا دهاني! لو أنني سأبارز بعد ستين يوماً رجلاً ماهراً في استعمال السلاح، أكنت أفكر في هذا الأمر دائماً، والرعب يملأ نفسي؟

وقضى أكثر من ساعة يبحث هذا الأمر بينه وبين نفسه. وحينما اتضح له، وظهرت الحقيقة ماثلة أمام عينيه في وضوح كمثول أعمدة السجن، أخذ يفكر في الندم! ولكن لم أندم؟ لقد امتهنت بطريقة مؤلمة؛ لقد قتلت، فأنا أستحق الموت، وهذا هو كل شيء. ولكنني أموت بعد أن صفيت حسابي مع البشرية. ولم أترك أى التزام لم أقم به، لست مديناً لأحد بشيء، وليس في موتي شيء يعيبه غير الآلة التي ستستعمل في قتلي: على أن هذا وحده كفيل في الواقع بأن يجعل كلّ البرچوازيين في ڤريير يحتقرونني، ولكن ما قيمة حكمهم إذا سلطنا عليه ضوء العقل! لديّ طريقة ترفع مكانتي في نظرهم وهى أن أنثر الذهب وأنا مسوق إلى المشنقة. إن ذكراي ستظل مقترنة بالذهب، ويبقى في أذهانهم زماناً طويلاً. وبعد هذا التفكير الذي وضح في ذهنه بعد دقيقة، أخذ يقول: لم يعد لديّ شيء أعمله في الحياة. ثم نام نوماً عميقاً.

وفي الساعة التاسعة مساء، أيقظه السجّان وحمل إليه عشاءه، فسأله:

- ماذا يقولون في ڤريير؟

- يا سيدي «چوليان»، إن اليمين التي أقسمتها أمام الصليب في المحكمة يوم عينت في مكاني هذا، تحتم عليّ الصمت.

ثم سكت ولكنه ظلّ في مكانه. غير أن هذه الصورة من صور النفاق الدنئ قد سرّت عن نفس «چوليان»، وقال في نفسه: يجب أن أتركه يترقب قطعة خمسة الفرنكات التي يريدها ليبيعني ضميره وقتاً طويلاً.

ولما رأى السجان أن الوجبة قد انتهت دون أن يحاول «چوليان» إغراءه، قال له في لهجة كاذبة رقيقة:

- الصداقة التي أكنّها لك يا سيد «چوليان» تدفعني إلى أن أتكلم، ومهما قيل إن هذا مخالفة للعدل، لأن ما أقول ربما يساعد دفاعك. إن السيد «چوليان» ذلك الشاب الطيب، سيسر حين أخبره بأن «مدام دى رينال» قد تحسنت صحتها. فثار وصاح قائلاً:

- ماذا تقول! أو لم تمت؟ فأجابه السّجان في لهجة تنم عن الغباء، ولكنها سرعان ما دلت على الطمع الشديد:

- عجباً! لم تكن تعرف شيئاً عن هذا! يجمل بك يا سيدي أن تعطي شيئاً للجراح الذي يقضى عليه القانون وتحتم عليه العدالة بألا يقول شيئاً. ولكنني رغبة في أن أدخل السرور على نفسك، ذهبت إليه في منزله بنفسي فقص عليّ كل شيء. فثارت ثائرة «چوليان» وقال:

- الجرح إذن لم يكن خطراً، فهل تضمن لي ذلك بحياتك؟

ومع أن السجان كان عملاقاً يبلغ ارتفاع قامته ست أقدام، فإنه ذعر وأوى إلى جانب الباب. فأدرك «چوليان» أنه يسلك طريقاً معوجّاً لمعرفة الحقيقة، فجلس وألقى بناپليون إلى السيد نوارو. ولما استطلع «چوليان» من قصة هذا الرجل أن جرح مدام دى رينال لم يكن مميتاً، شعر بالدموع تترقرق في عينيه، فصاح به بغتة: اخرج!

فأطاع السجان. ولم يكد الباب يغلق، حتى صاح «چوليان» وركع على ركبتيه ثم أخذ يبكي بكاء مراً ويقول: يا إلهي! إنها لم تمت!

وفي هذه اللحظة التي تعدّ من لحظات سمو النفس، كان «چوليان» مؤمناً بالله. وما قيمة نفاق القسس؟ أيستطيع هذا النفاق أن ينزع شيئاً من تلك الحقيقة السامية التي تعبر عن فكرة الإله؟ وبدأ يشعر بندم شديد على الجرم الذي ارتكبه. واتفق في تلك اللحظة فقط أن ذهب عنه غضبه الشديد وجنونه منذ أن غادر باريس إلى ڤريير، زايلته تلك الحالة النفسية فلم يستول عليه اليأس حين علم بأن «مدام دى رينال» لم تمت.

كانت دموعه غزيرة، لأنه لم يشك إطلاقاً في الحكم الذي سيصدر ضده. وأخذ يقول في نفسه: إنها ستعيش إذن! ستعيش لتغفر لي ولتحبني. وفي ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، أيقظه السجان وقال له:

- أنت رجل ثابت الجنان يا سيد «چوليان». لقد أتيت مرتين ولم أشأ أن أوقظك. إليك زجاجتين من أجود النبيذ يرسلهما لك كاهننا الأب مالون.

- كيف ذلك؟ ألا يزال هذا الوغد هنا؟ فقال له السجان في صوت منخفض:

- نعم يا سيدي.. ولكن لا تتكلم بصوت مرتفع، لأن هذا قد يجر عليك الأذى. فضحك «چوليان» في مرح شديد وقال:

– أينالني الأذى أكثر مما أنا فيه؟ أنت وحدك يا صديقي الذي تستطيع إيذائي إن تجردت من العواطف الإنسانية الرقيقة. سأجزل لك العطاء. قال له «چوليان» هذه العبارة في لهجة تدل على العظمة، ولكي يسوّغ ذلك في الحال نفحه قطعة من النقود. وأعاد عليه السيد نوارو كل ما سمعه عن «مدام دى رينال»، ولكنه لم يخبره بزيارة الآنسة إليزا.

كان هذا السجان وضيعاً مغلوباً على أمره إلى أبعد حد. فطرأت ل«چوليان» فكرة: إن هذا المارد القبيح قد يكسب ثلثمائة أو أربعمائة فرنك فقط، لأن السجن غير مزدحم بالنزلاء؛ وفي استطاعتي أن أضمن له مبلغ عشرة آلاف من الفرنكات لو أنه فرّ معي إلى سويسرا. لكن الصعوبة هي كيف أقنعه بحسن طويتي؟ ثم عدل عن هذا الرأي لأن نفسه اشمأزت من الحديث الطويل الذي سيدور بينه وبين هذا المخلوق الدنئ حتى يقنعه، وجعل يفكر في أشياء أخرى.

وفي المساء فات أوان هذه الفكرة، فقد أرسل إليه مقعد من مقاعد عربات البريد في منتصف الليل. وسرّ من رجال الشرطة الذين رافقوه في رحلته. ولما وصل في الصباح إلى سجن بيزانسون، ترفقوا به فوضعوه في الطبقة العليا من برج قوطي. ورأى أن هندسته ترجع إلى أوائل القرن الرابع عشر، وأعجب بأناقتها وخفتها التي تنطوي على المهارة. ومن بين جدارين هناك، رأى فرجة تطل على منظر بديع رائع.

وفي اليوم التالي، حُقّق معه، ثم ظل هادئاً بضعة أيام. لقد كانت نفسه وديعة. ووجد أن مسألته تنطوي على جانب كبير من البساطة: أردت أن أقتل فيجب أن أُقتل.

ولم يعُدْ رأيه هذا النوع من التفكير. أما المحاكمة، والضيق الذي يحمله على أن يظهر أمام الناس، وكذلك الدفاع، فقد كان يعد كل ذلك مضايقات يسيرة وحفلات مملة، يكفي للتفكير فيها يوم حدوثها وحده. ولم يعد يفكر في الموت إطلاقاً. قال: سأفكر فيه بعد المحاكمة. ولم يعد يرى الحياة مملة بل نظر إلى الأشياء كلها نظرة جديدة. وولىّ عنه طموحه ولم يعد يفكر في «الآنسة دى لامول» إلا قليلاً. شغله النوم عن كل شيء، وكانت صورة «مدام دى رينال» ماثلة أمام عينيه في معظم الأوقات. وخاصة في سكون الليل الرهيب، الذي يخيم على البرج، ولا يعكره إلا زقزقة العقاب البحري!

وكم شكر السماء كثيراً على أنه لم يجرح «مدام دى رينال» جرحاً مميتاً. وأخذ يحدث نفسه قائلاً: إن ما يدعو إلى العجب أنني كنت أعتقد أن خطابها إلى «المركيز دى لامول»، قد قضى تماماً على سعادتي المستقبلة، أما الآن، أي بعد أن كتبت خطابها بخمسة عشر يوماً فلم أعد أفكر فيما كان يشغلني من قبل. إن دخلاً يبلغ ألفي فرنك أو ثلاثة آلاف، يكفيني لأحيا حياة هادئة في مكان جبلي مثل فچى ... كم كنت سعيداً وأنا أعيش هناك! ولكنني لم أكن أقدّر سعادتي حق قدرها!.

وفي لحظات أخرى كان ينهض من مقعده فزعاً ويقول: لو كنت قد قتلت «مدام دى رينال»، لقضيت على حياتي. كم أنا في حاجة إلى أن أعلم علم اليقين، بأنها لم تجرح

جرحاً مميتاً حتى لا أحتقر نفسي. أأقتل نفسي! هذه هي المشكلة الكبيرة. هؤلاء القضاة المبالغون في التدقيق والمتحمسون ضد كل متهم تعس، لا يترددون في أن يشنقوا خير المواطنين ليحصلوا على وسام. إنّي سأنجو من سلطانهم ومن شتائمهم التي ينطقونها بلغة فرنسية رديئة، ومع ذلك تصفها صحيفة المقاطعة بالبلاغة. سأعيش ما يقرب من خمسة أسابيع أو ستة. ثم أخذ يقول بعد بضعة أيام: أأقتل نفسي! ولم ذلك؟ لقد عاش ناپليون!

ثم ضحك وقال: ومع ذلك فالحياة جميلة، والإقامة هنا هادئة، لا يعكر صفوها أولئك الذين يبعثون الملل في النفوس. ثم أخذ يكتب قائمة بأسماء الكتب التي يريد أن تُحضر من پاريس.

الفصل السابع والثلاثون

برج

قبر صديق.

ستِرن

سمع «چوليان» ضوضاء شديدة في الردهة ؛ ولم يكن الموعد الذي يصعد فيه السجانون إلى غرفته قد حان بعد ؛ وصاح العقاب البحرى في هذه اللحظة وطار، وفتح الباب، فرأى «چوليان» الكاهن المبجل شيلان يرتعد رعدة شديدة، والعصا في يده، فارتمى «چوليان» بين ذراعيه، وقال الكاهن:

- آه! يا إلهي! أمن الممكن يا بني؟ أأقول: إنك شيطان! ولم يستطع هذا الشيخ الجليل أن يقول أكثر من ذلك، فخشي «چوليان» أن يقع الكاهن على الأرض، فاضطر إلى اقتياده نحو مقعد. لقد أثرت يد الزمن في هذا الشيخ الفاني، وقد كان على جانب كبير من النشاط. فلم ير «چوليان» من هذا الرجل الفتي إلا شبحاً واهياً.

وحينما استرد بعض قواه قال: لقد تسلمت أمس الأول فقط، الخطاب الذي أرسلته إليّ من استراسبورج وبه خمسمائة فرنك لفقراء ڤرييـر ؛ أحضروه إليّ وأنا في الجبل عند ليڤيرو، حيث أعيش الآن في عزلة عند حفيدى چان. وعلمت أمس بالكارثة، فيا للسماء! كيف حدث هذا! ولم يعد الشيخ قادراً على البكاء، وكأن الآراء قد نضبت من عقله، فقال بلهجة آلية: إنك في حاجة إلي مبلغك، وقد أحضرت لك خمسمائة الفرنك. فقال له «چوليان» في رفق وحنان:

- إني في حاجة إلى أن أراك يا والدي، أما المال فعندي منه ما يكفيني.

لكنه لم يسمع بعد ذلك من الكاهن جواباً معقولاً. وكان الأب شيلان يذرف من آن إلى آخر، بعض دموع تسيل على خدّه. ثم ينظر إلى «چوليان» في خفة وطيش، حين يأخذ يده ويضعها على شفتيه. كان وجه الكاهن من قبل مملوءاً بالحياة، تنطبع على صفحته أسمى العواطف، أما الآن فلم يعد يرى الإنسان فيه غير البلادة. ثم أتي بعد ذلك فلاح ليأخذ العجوز قائلاً: يجب ألا نتعبه أكثر من ذلك. وقد أدرك «چوليان» أنه چان ابن أخي الكاهن. سببت هذه الزيارة لـ«چوليان» شقاء كبيراً، وحالت بينه وبين الدموع. فقد بدا كل شيء أمامه حزيناً لا يجدي فيه العزاء، وشعر كأن قلبه قد تحجّر بين ضلوعه.

كانت هذه اللحظة من أقسى اللحظات عليه منذ ارتكب جرمه. لقد رأى الموت مائلاً

أمامه في أبشع صوره. أما ما كان يظنه من سمو النفس، ومن الشجاعة ساعة الموت، فكان مثل سحابة تبددها العاصفة. وظلت هذه الحالة السيئة ساعات طويلة. وساءت حالته النفسية؛ فعمد إلى الترفيه عن بدنه بشرب نبيذ شمبانيا. وقد رمى نفسه بعد ذلك بالخور حين عمد إلى شرب النبيذ ليخفف ما به. وقضى يوماً ثقيل الوطأة عليه، في التنزه في برجه الضيق، وفي نهاية اليوم أخذ يصيح قائلاً: يالي من مجنون! لو أنني كنت سأموت كما يموت الناس، لبعث منظر هذا الشيخ الفاني الأسى في نفسي، أما الموت العاجل في زهرة الشباب فلا يجب أن يجرّ عليّ هذا الألم.

وفشل في أن يقنع نفسه، لأنه كان في ذلك اليوم خائر النفس مضعضعها، شقياً من أثر هذه الزيارة. ولم يعد يّتصف بالخشونة، ولا بالسمو الذي فطرت عليه نفسه، ولا بتلك الفضائل الرومانية. كان يرى الموت فوق هذا كله شيئاً لا يعد هيّنا.

وأخذ يقول في نفسه: هذا هو ميزان حرارتي. أنا الليلة خائر القوة، «فالترمومتر» يدلني على عشر درجات تحت مستوى الشجاعة التي تلزمني للمشنقة. أما فيما عدا ذلك فقد كانت لي هذه الشجاعة، ومع ذلك، فماذا يضيرني مادامت شجاعتي تواتيني في الوقت المناسب! وسرّ بفكرة الترمومتر، ونسي حزنه.

وفي اليوم التالي، حين استيقظ من النوم خجل من نفسه؛ لما أبداه من خور في اليوم السابق. وأخذ يقول: إنّ سعادتي وراحتي يكاد يقضي عليهما. وعزم على أن يكتب إلى النائب العام، يطلب إليه ألا يسمح بأن يزوره أحد. غير أنه أخذ يسائل نفسه: وإذا أتى فوكييه؟ لو أنه حضر إلى بيزانسون ولم يرني، فأي ألم يستولي عليه!

كان قد مضى على «چوليان» شهران لم يفكر خلالهما في فوكييه. فقال في نفسه: لقد كنت أحمق أيام إقامتي في استراسبورج؛ لأن أفكاري لم تكن تتجاوز ياقة ثوبي. وشغلته ذكرى فوكييه كثيراً، وتركته في حالة حنان شديد. فأخذ يتنزه في اضطراب وهو يقول: ها أنذا قد أصبحت في درجة العشرين تحت مستوى الموت، وإذا زاد هذا الضعف، فيحسن بي أن أقتل نفسي. أي فرح يستولي على نفوس أمثال الكاهن مالون وڤالنو، لو أنني قتلت نفسي كما يفعل الجبناء!

وأتى إليه صديقه فوكييه، وكان هذا الرجل الساذج الطيب يكاد يموت حزناً على صديقه، فالرأي الوحيد الذي يشغله، إن صحّ أن لمثله أفكاراً، هو أن يبيع كل ما يملك ويغري السجان بالمال لينقذ «چوليان». وتحدث إليه طويلاً عن فرار السيد دي لاڤالت، فقال له «چوليان»: إنك تبعث الأسى في نفسي إن السيد لاڤالت كان بريئاً، أما أنا فقد ارتكبت جريمة. أنت تحملني على التفكير في هذا الفرق دون أن تشعر. ثم انقلب بغتة حذراً كمن يدرس خلق صاحبه فسأله:

– ولكن أتقول حقاً؟ ماذا؟ أتريد أن تبيع أملاكك؟

فسرّ فوكييه حين رأى صديقه قد استجاب لفكرة ملكت عليه نفسه، وأخذ يبين له

في إطناب ودقة، ثمن كل جزء من أملاكه.

فقال «چوليان» في نفسه: يا له من جهد جبار، ذلك الذي يبذله مالك من ملاك الريف! إنه يضحى من أجلي بما اقتصد، وبما بخل به على نفسه، فاقتصده من شحّ كنت أخجل منه حين كان هو يقدم عليه! إن أي شاب جميل من أولئك الذين كنت ألقاهم في قصر دى لامول، ممن يقرءون «رينيه»، لا يتصف بأى لون من ألوان هذه التضحية: من ذا الذي يقدم على مثل هذه التضحية، من بين أولئك الپاريسيين الوسماء، إذا استثنينا الذين لا يزالون صغار السن، وقد ورثوا المال ولم يعرفوا بعد قيمته؟

أنسي «چوليان» جميع أخطاء الفرنسيين والحركات العامية التي كانت تصدر عن صديقه، وارتمى بين ذراعي فوكييه. وفي الواقع أن الريف لم ينل من قبل هذا الإكرام، حين كان يقارن بپاريس. وخرج فوكييه بما كان يبدو في عيني صديقه من بريق عجيب ظنه موافقة على اقتراحه بأن يفرّ من السجن.

ردّ سمو فوكييه ونبله إلى «چوليان» تلك القوى التي فقدها حين زاره الكاهن شيلان، وعاد فتيًا مرة أخرى، لكنه كان كالنبات الجميل على ما يظهر لي. فبدل أن ينتقل من الحنان إلى الحذر مثل أغلب الرجال، أعطته السنّ طيبة هينة، ترقّ بها عواطفه في سهولة ويسر، ولم يعد يفقد ثقته بالناس، وقد كان يحذرهم حذراً يصل في بعض الأحيان إلى حد الجنون. ولكن ما فائدة هذا التنبؤ بالغيب الذي لا طائل من ورائه؟

كثر التحقيق على الرغم من المجهود الذي كان يبذله «چوليان»، إذ كانت كل إجاباته تهدف إلى الإيجاز في هذا الأمر، فكان يقول كل يوم:

- لقد قتلت أو حاولت على الأقل أن أقتل مع سبق الإصرار. ولكن القاضي كان يحرص على استيفاء الإجراءات قبل كل شيء. فكانت تصريحات «چوليان» لا تؤدي إلى الإيجاز الذي كان ينشده إطلاقاً؛ فضلاً عن أنها تجرح كبرياء القاضي. ولم يعلم «چوليان» أنهم أرادوا نقله إلى سجن ممقوت، فسعى فوكييه سعياً حثيثاً؛ حتى تركوه في غرفته الجميلة المرتفعة التي يصعد إليها بثمانين ومائة درجة من درجات السلم.

كان الكاهن دى ڤريلير من بين أولئك الذين كانوا يكلفون فوكييه إحضار خشب ليستدفئ به. فذهب هذا التاجر الماهر إلى ذلك الرجل القوي، نائب الأسقف؛ وفرح فرحاً لا حد له حين قال له ڤريلير: إنه يعجب كثيراً بمزايا «چوليان»، وبالخدمات الجليلة التي أداها أثناء وجوده بالمدرسة الأكليريكية، وأنه سيوصي به القضاة خيراً. فتراءى لفوكييه أمل تخليص صديقه. ثم ركع أمام الكاهن في خشوع عظيم ورجاه أن يوزع مبلغ عشرة لويسات في صلاة تقام تضرعاً إلى الله أن ينجي صديقه.

لقد خدع فوكييه خديعة كبرى؛ لأن السيد دى ڤريلير لم يكن على شاكلة ڤالنو، فرفض المال، وحاول أن يفهم هذا الريفي الساذج أنه يحسن به أن يحتفظ بماله. ولكنه رأى أن فوكييه كان واضح القصد ولكن في حذر شديد، فنصح له أن يتصدق بهذا المبلغ على

الفقراء من المسجونين الذين يحرمون من كل شيء في الواقع.

ثم أخذ ڤريلير يتحدث إلى نفسه قائلاً: إن «چوليان» هذا مخلوق عجيب فعمله لا يمكن أن يفسّر بسهولة، ولم أستطع الوصول بعد إلى شيء مقنع، وربما كان من السهل أن أجعل منه شهيداً. وعلى كل حال سأعرف سر هذا الأمر، وربما وجدت فرصة لأبعث الرعب في نفس «مدام دى رينال» التى لا تجلنا، بل هي تكرهني في الواقع، وربما وفقت إلى طريقة مجدية لأصالح «المركيز دى لامول»، الذي أعلم أنه يميل إلى هذا الشاب ميلاً كبيراً.

كان الصلح في القضية قد وقع قبل ذلك ببضعة أسابيع، وسافر الكاهن پيرار من بيزانسون، بعد أن تحدث عن مولد «چوليان»، في اليوم الذي اعتدى فيه هذا الشقي على «مدام دى رينال» في كنيسة ڤريير.

وأصبح «چوليان» لا يخشى، بعد خشيته من الموت، إلا حادثاً واحداً لا يسره: هو أن يزوره أبوه. فاستشار فوكييه في فكرة أن يكتب إلى النائب العام، طالباً منه أن يعفيه من الزيارات بأجمعها. غير أن اشمئزازه من رؤية أبيه في مثل هذه المناسبة، قد أدخل إلى قلب هذا التاجر البرچوازى الطيب، غضاضة شديدة، فاعتقد أنه قد أدرك السر في أن كثيراً من الناس يكرهون صديقه كراهية شديدة. ولكنه احترم بؤس «چوليان» ولم يشأ أن يظهر له ما يحسه، ثم قال له في فتور:

- مثل هذا الأمر لن ينطبق على أبيك على كل حال.

الفصل الثامن والثلاثون

رجل قوي

ولكن في حركاتها كثير من الغموض، وفي قامتها كثير من الأناقة! فمن تكون؟

شيلر

فتحت أبواب البرج في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي، فاستيقظ «چوليان» فزعاً، وقال في نفسه:

- آه! يا إلهي! هذا أبي فياله من مشهد أليم!

وتقدمت إليه في نفس اللحظة سيدة تلبس الثياب الريفية، وارتمت بين ذراعيه، فوجد صعوبة في التعرف عليها، مع أنها لم تكن سوى «الآنسة دى لامول»، قالت له:

- لم أعرف مكانك أيها اللعين إلاّ من خطابك. إن ما تسميه (جريمتك) ليس في نظري إلا إنتقاماً شريفاً، يدلني على سمو قلبك الذي ينبض في هذا الصدر، إنني لم أعلم بالأمر إلا في ڤرييـر.

وعلى الرغم من الشبهات التي كانت تعتوره بالنسبة إلى «الآنسة دى لامول»، وإن كان لا يعترف بها صراحة، فقد وجدها على جانب كبير من الجمال. ولم ير الإنسان في تلك الطريقة التي تعمد إليها في العمل وفي الحديث، عاطفة نبيلة لا ترمي إلى أية مصلحة أسمى من كل ما تنطوي عليه نفس حقيرة تافهة؟ كان يعتقد أنه لا يزال يحب ملكة، وبعد لحظات قليلة، قال لها في منطق رفيع وبيان يدل على سمو النفس:

- لقد وضح لي المستقبل وضوحاً جلياً. إنني بعد موتي أزوجك للسيد دى كروازنوا الذي سيتزوج أرملة. ولكن النفس السامية التي تميل إلى الخيال والشاعرية قليلاً، نفس هذه الأرملة الظريفة، ستذهل وتؤمن بمبدأ الحذر والفطنة الذي يسير عليه عامة الناس، بعد أن حدثت هذه الحادثة المؤلمة العجيبة وإن كانت تعدها هي عظيمة، وتتفضل بأن تدرك المزايا الحقة التي تنطوى عليها نفس هذا المركيز الشاب. ستنقادين إلى السعادة بما تقدمه لك الحياة من احترام وثراء، ومكانة رفيعة. ولكن يا عزيزتي «ماتيلد»، لو عرف مجيئك إلى بيزانسون لكان ضربة قاضية على «السيد دى لامول»، وهذا ما لا أغفره بتاتاً لنفسي. لقد سببت له كثيراً من البلاء! وسيقول عضو المجمع عنه: إنه احتضن حية فأدفأها. فكادت «الآنسة» تغضب وقالت:

- أعترف بأنني لم أتوقع سماع هذا المنطق الفاتر، ولا هذه العناية الشديدة

بالمستقبل. إن وصيفتي حذرة مثلك، فقد حصلت على جواز سفرها، وسافرت باسم مدام ميشليه.

– وهل استطاعت مدام ميشليه أن تصل إليّ بمثل هذه السهولة؟

– آه! أنت دائماً ذلك الرجل الممتاز الذي فضلته على كل الناس! لقد قدمت مائة فرنك أولاً لسكرتير القاضي الذي كان يزعم أن دخولي إلى هذا البرج أمر مستحيل. ولكنه حين تسلم المال، طلب مني أن أنتظر ثم أثار اعتراضات، فظننت أنه يفكر في سرقة مالي. ثم توقفت عن الكلام، فقال لها:

– ثم ماذا؟ فقبلته وقالت له:

– لا تغضب يا عزيزي «چوليان»، لقد اضطررت إلى أن أخبره باسمي الحقيقي، وقد كان يظنني كما صرح لي، أنني عاملة پاريسية صغيرة دلهني حب «چوليان» الجميل. فأقسمت له أنني امرأتك. وأنني سأحصل على تصريح لأراك كل يوم.

فأخذ «چوليان» يقرل في نفسه: لقد ارتكبت حماقة كبيرة، ولم أستطع أن أحول بينها وبين ارتكابها. ومع كل فالسيد دى لامول رجل ذو مركز خطير، وسرعان ما يجد الرأي العام عذراً للأميرالاي الشاب الذي سيتزوج هذه الأرملة الظريفة. إن موتي القريب سيقضي على كل شيء! ثم أخذ يتمتع في لذة كبيرة بحب «ماتيلد» وكان ما يفعله جنوناً، كان سمواً في النفس، كان كل ما يوصف به أنه خقاً غريب. واقترحت عليه ماتيلد في حزم وجد، أن يموتا معاً.

وبعد هذه اللحظات الثائرة من الحب العنيف، التي سعدت فيها برؤية «چوليان»، ملك نفس «ماتيلد» حب الاستطلاع. فأخذت تنظر إلى حبيبها الذي وجدته فوق كل ما صورته لها نفسها من سمو ورفعة، وخيل إليها أن روح بونيفاس دى لامول قد تقمصت جسد «چوليان». ولكن «چوليان» أشجع منه.

رأت «ماتيلد» خير محاميّ الأقليم، لكنها جرحت كبرياءهم حين قدمت إليهم الذهب في غير مواربة، ثم عادوا فوافقوا على الدفاع عنه.

وسرعان ما هداها تفكيرها إلى أن كل أمر ملتو مشكوك فيه، أو كل مسألة هامة، أو كل شيء يحدث في بيزانسون، إنما يرجع فيها إلى الكاهن دى ڤريلير؛ فتقدمت للقاء هذا الرجل الخطير باسم مدام ميشليه، فوجدت صعوبات كثيرة لا يمكن التغلب عليها، تحول بينها وبين لقائه. غير أن أمر جمال البائعة الپاريسية، المتيمة بحب «چوليان»، والتي قدمت من پاريس إلى بيزانسون لتسري عن نفس القس الشاب «چوليان سورل»، قد ذاع في أرجاء المدينة.

كانت «ماتيلد» تقطع شوارع المدينة سيراً على القدمين، وكانت تبغي من وراء ذلك ألا يعرفها أحد. كانت على كل حال تؤمن بأن قضيتها في حاجة إلى عطف الشعب،

فحاولت أن تحدث في نفسه أثراً كبيراً.

وقد زين لها جنونها أن تحضه على الثورة؛ ليخلص «چوليان» وهو في طريقه إلى الموت. كانت «الآنسة دي لامول» تعتقد أن ثيابها بسيطة، ثياب امرأة بائسة معذبة، فكانت تتبعها الأبصار أينما تسير. كانت في بيزانسون موضع انتباه الجميع، وبعد ثمانية أيام بذلتها في محاولة الحصول على موعد تلقى فيه الكاهن دى ڤريلير، استطاعت أن تفوز بالموعد.

اضطربت «ماتيلد» -على الرغم من شجاعتها- وهي تدق جرس باب الأسقفية، لأن ما عرفته عن ڤريلير، وعما فطر عليه من فسق كبير وحذر شديد، تسلط على نفسها، فخافت كثيراً حتى كادت لا تقوى على السير، حين اضطرت إلى أن تصعد درجات السلم المؤدي إلى جناح النائب الأول. وبعث هدوء دار الأسقفية في نفسها ذعراً، فأخذت تقول: من الممكن أن أجلس على مقعد من هذه المقاعد، فتربط ذراعاي وأختفي من الوجود. فأين تطلبني وصيفتي، ومن ذا الذي يصبح مسئولاً عني؟ إن رئيس الشرطة سيأخذ حذره من أن يعمل شيئاً، وأنا وحيدة لا عضد لي في هذه المدينة الكبيرة!

ولم تكد الآنسة تلقي نظرة على الشقة، حتى عادت إلى نفسها السكينة رأت أول ما رأت خادماً في ملابس أنيقة فتح لها الباب. أما الصالون الذي طلب منها أن تنتظر فيه، فقد فرش بأثاث فخم، يدل على سلامة الذوق ويبعث البهجة، ليس فيه هذا اللون من الزينة التافهة، فكان كخير منازل باريس. ولم تكد ترى الكاهن دى ڤريلير يقبل عليها في هيئة تدل على الحنان، حتى تبددت المخاوف التي تسلطت عليها من ارتكاب جريمة شنعاء. ولم تجد في هذا الوجه الجميل حتى ذلك الطابع القاسي لتلك الفضائل القوية الخشنة، الذي يكرهه المجتمع الپاريسى كراهية شديدة، وتلك الابتسامة الخفيفة، التي كانت ترتسم على وجه هذا القسيس الذي يتحكم في بيزانسون كلها، تدل على أن الرجل ظريف المعشر، وعلى أنه كاهن مثقف وإداري حازم. فظنت «ماتيلد» أنها في پاريس.

ولم يكن دى ڤريلير في حاجة إلا إلى لحظات قصيرة، حتى يحمل «ماتيلد» على الاعتراف له بأنها ابنة خصمه القوى «المركيز دى لامول».

فقالت له وقد استردت كل ما تنطوي عليه لهجتها من كبر:

- أنا لست - في الواقع مدام ميشليه، وهذا الاعتراف لا يكلفني شيئاً، لأني جئتك أستشيرك يا سيدي في أمر احتمال فرار «السيد دى لاڤرناى» من السجن. فهو ليس مذنباً إلا في ارتكاب حماقة؛ لأن المرأة التي أطلق عليها الرصاص تتمتع بصحة جيدة. ولكي نضمن سكوت المرءوسين، فأنا مستعدة لأن أغريهم بالمال فأستطيع أن أدفع في الحال خمسين ألف فرنك، على أن أضاعف هذا المبلغ، إنني وأسرتي كلها سنكون مدينين بالفضل لمن ينقذ «السيد دى لاڤرناى»، ولن نضن عليه بشيء إطلاقاً.

دهش دى ڤريلير من سماع هذا الاسم، فأطلعته «ماتيلد» على خطابات كثيرة من

وزير الدفاع إلى السيد «چوليان سورل دى لافرناى».

- أنت ترى يا سيدي أن والدي مهتم بأمره. لقد تزوجته سراً ووالدي يريد أن يكون ضابطاً عظيماً قبل أن يصبح الزواج رسمياً، ويذيعه بين الناس؛ لأنه زواج غريب لفتاة من أسرة دى لامول.

ولاحظت «ماتيلد» أن وجهه الذي كان ينم عن طيبة وسرور هادئ ظريف، قد تغير حين وصل إلى هذه الاكتشافات الخطيرة، وطبع وجهه بدهاء يمازجه خداع عميق وتسرب الشك إلى نفس الكاهن، فأخذ يعيد قراءة الوثائق الرسمية في بطء. ثم أخذ يسائل نفسه: أية فائدة أستطيع الحصول عليها من هذه الاعترافات العجيبة؟ لقد ساقت إليّ الظروف بغتة الصديقة الحميمة لتلك السيدة الشهيرة المارشالة «دى فرڤاك» حفيدة الرجل القوي مونسنيور رئيس أساقفة ... الذي يملك تعيين رؤساء الأساقفة في فرنسا. إنّ ما كنت أظنه بعيداً الآن عني، وتركت أمر تحقيقه للمستقبل، قد تهيأت فرصته وقد يصل بي إلى ما كنت أبتغيه في الحياة.

انزعجت «ماتيلد» أول الأمر من هذا التغير الفجائي الذي بدا على وجه هذا الرجل القوي، وهي جالسة وحيدة معه في مسكن منعزل. وأخذت تقول في نفسها: ماذا دهاه! أليست أسوأ الفروض هي ألا أحدث تأثيراً في نفس هذا الرجل الجشع الفاتر، ذلك القسيس الذي يتمتع بالسلطان واللذات؟

بهر دى ڤريلير من هذا الصوت المباغت السريع، الذي انبعث أمامه مبشراً برآسة أسقفية؛ وأذهلته براعة ماتيلد، فنسي أن يأخذ حذره، وقد رأته «الآنسة دى لامول» يكاد يركع أمامها، والطموح الشديد يغلبه ويهزه هزاً عصبياً شديداً.

فأخذت تحدث نفسها: لقد وضح كل شيء، فليس هناك صعوبة في وجه صديقة مدام دى فرڤاك. وعلى الرغم من شعور الغيرة المريرة التي كانت لا تزال تستولي على نفسها، فقد وجدت في قلبها الشجاعة على أن تخبر دى ڤريلير بأن «چوليان» كان صديقاً حميماً للمرشالة، وكان يلقى كل يوم في منزلها مونسنيور رئيس أساقفة. فأخذ نائب الرئيس ينظر إليها، والطمع الشديد يشع من عينيه ويضغط على كل كلمة يقولها، ثم قال لها:

- عندما يريدون أن يسحبوا بالقرعة خمس مرات أو ست قائمة بأسماء ستة وثلاثين من الأعيان من سكان المقاطعة، فإنّ لي في كل قائمة ثمانية أصدقاء أو عشرة من خير الجماعة ومن أكثرهم ذكاء، وإلا عددت نفسي سيء الحظ. ستكون لي الأغلبية دائماً، تلك الأغلبية التي تصدر الحكم؛ إنك ترين يا آنستى أنني أستطيع في سهولة ويسر أن أبريء ساحته.

ثم توقف بغتة، كأنه ذهل من صوت كلماته: لقد كان يعترف بأشياء لا تقال أبداً لأهل الحياة الدنيا. ولكنه بدوره أذهل «ماتيلد» ذهولاً شديداً حين قال: إن ما عجب منه المجتمع في بيزانسون، وزاده شغفاً بتلك المخاطرة العجيبة التي أقدم عليها «چوليان»، هو

أن «مدام دى رينال» كانت تحبه حباً شديداً، وكانت خليلة له زمناً طويلاً. ولاحظ دى ڤريلير أن «ماتيلد» قد اضطربت كثيراً من هذه القصة.

وأخذ يقول في نفسه: لقد ثأرت لنفسي! لقد وفقت إلى طريقة أسيطر بها على هذه الفتاة العنيدة إلى أبعد حد؛ وإني أخشى ألا أوفق في ذلك. لقد أثر في نفسه منظرها الممتاز، الذي يوحى بأنه صعب المراس، فزاد جمالها الرائع في ناظريه، ذلك الجمال الذي كان يضرع له بأن ينقذ «چوليان».

فعاد إليه هدؤوه، ولم يتردد في أن يسدد الخنجر مرة أخرى إلى قلبها. ثم قال لها في لهجة تدل على المرح:

– لا أعجب إطلاقاً إذا علمت أن الغيرة هي التي دفعت «السيد سورل» إلى أن يطلق عليها رصاصتين من مسدسه، لأنه كان يحبها حباً كثيراً قبل ذلك. ربما كانت محرومة من اللذائذ، لأنها منذ زمن قليل كانت ترى كثيراً كاهناً من ديچون يدعى ماركينو، وهو شخص لا خلق له من أتباع ينسينيوس، مثله مثل أنصار هذا المذهب جميعاً.

ثم أخذ الكاهن دى ڤريلير يسحق قلب الفتاة الجميلة، في لذة شديدة وعلى مهل، حين تبين ناحية الضعف فيها. ثم أخذ ينظر إلى ماتيلد نظرات ملتهبة ويقول: لماذا اختار «السيد سورل» الكنيسة في هذا الوقت، أكان يرمي إلى أن غريمه في هذه اللحظة بالذات يقيم بها الصلاة؟ واستطرد يقول: والناس جميعاً يصفون الرجل السعيد الذي يتمتع بحمايتك بأنه شديد الذكاء والفطنة، كبير الحذر. فلم لم يختف في حدائق «السيد دى رينال» التي يعرفها تمام المعرفة؟ كان هذا من أيسر الأمور عليه، وكان يستطيع أن يقتل المرأة التي تبعث الغيرة في نفسه، وهو واثق تمام الثقة من أنه لن يُرى ولن يُقبض عليه، ولن يُشك في أمره.

وبعث هذا الرأي الذي يبدو صحيحاً كل غيظ في نفس «ماتيلد». إن هذه النفس المتعجرفة، التي تشبعت بهذا اللون من الحذر الشديد الذي يعدّه الناس صورة صادقة للقلب، لم تفطر على أن تدرك سهولة ما يلقاه الإنسان من سعادة، حين يسخر من كل حذر تعده النفس القوية عاملاً فعالاً في الحياة. والطبقات الراقية في المجتمع الپاريسي الذي تحيا فيه «ماتيلد»، جبلت على أن تدرك أن الحب لا يخلو من الفطنة إلا في القليل النادر، وأن الإنسان حين يريد أن يلقي بنفسه من النافذة، فلا يكون ذلك إلا من الطابق الخامس.

وأخيراً رأى الكاهن دى ڤريلير أنه قد سيطر عليها سيطرة تامة. وأوحى إلى «ماتيلد» أنه سيستعين –من أجلها– بالسلطة العامة التي كلفت اتهام «چوليان» حتى تكون في صالحه. (ولا ريب في أنه كان يكذب). وحينما يختار المحلفون الستة

والثلاثون بالقرعة، فسيتوسط لدى ثلاثين منهم على الأقل، باذلاً نفوذه الشخصي المباشر في سبيل ذلك.

لو لم تكن «ماتيلد» جميلة رائعة الحسن في نظر الكاهن، ما تحدث إليها بهذا الوضوح، وبهذه الصراحة إلا في المقابلة الخامسة أو المقابلة السادسة.

الفصل التاسع والثلاثون

الدسيسة

كاستر عام ١٦٧٦ - قتل أخ أخته في المنزل المجاور لمنزلي ؛ واتهم هذا السيد بجريمة القتل. فوزع الاب سراً خمسمائة إيكو على المستشارين فأنقذ حياة ابنه؟

لوك : رحلة في فرنسا

لما غادرت «ماتيلد» دار الأسقفية، لم تتردد في أن ترسل خطاباً إلى مدام دى فرڤاك، ولم يثنها عن ذلك لحظة واحدة تعريض شرفها للهوان. ورجت غريمتها أن تحصل على خطاب للكاهن دى ڤريلير يكتبه مونسنيور رئيس أساقفة، كله بخط يده. وتمادت «ماتيلد» فتضرعت، إليها أن تأتي بنفسها إلى بيزانسون. وكان هذا عملاً يدل على البطولة؛ لأنه صادر عن نفس متكبرة غيور.

نصح لها فوكييه أن تتذرع بالحكمة، فلا تقص على «چوليان» ما تقوم به. وكان مجرد حضورها يسبب له اضطراباً، لأنه كلما اقترب من الموت كان أقرب إلى الأمانة أكثر مما كان عليه في حياته الماضية، وقد أخذ يشعر بالندم لا من أجل «المركيز دى لامول» فحسب. بل من أجل «ماتيلد» كذلك.

تحدث إلى نفسه قائلاً: ماذا دهاني! إني أجد لحظات أنساها فيها وهي معي، وأشعر بالملل يساورني. إنها تضيع نفسها في سبيلي، أفيكون ذلك جزاؤها مني! فهل أنا إذن شرير؟ كان لا يحفل بهذا السؤال كثيراً حينما كان طموحاً، لأن عدم توفيقه فيما يسعى وراءه، كان هو الشيء الوحيد الذي يخجله.

كان الاضطراب الأدبي الذي يلقاه بالقرب من «ماتيلد» على أشده، مع أنها كانت تحبه في ذلك الوقت حباً جنونياً عنيفاً. ويدور حديثها دائماً حول التضحيات الغريبة، التي تريد أن تقوم بها لتكتتب له النجاة.

كانت العاطفة التي تستولي عليها ترضي نفسها، فهي فخور بها، لا تبالي من أجلها بكبريائها، ولا تترك لحظة من لحظات حياتها تمر دون أن تقوم بعمل خارق للعادة. وكانت مناقشاتها وأحاديثها مع «چوليان» لا تتناول إلا أكثر المشروعات غرابة وخطورة. أجزلت العطاء للسجانين فتركوها تتحكم في السجن كما تشاء. وكانت آراء «ماتيلد» لا تنطوي على التضحية بمكانتها فحسب، بل هي لا تبالي أن يعرف المجتمع كله صلتها بچوليان. وكان خيالها الخصب الذي فطر على الشجاعة، يرسم لها صوراً وهمية، أقلها هي أن تركع أمام عربة الملك وهي تنهب الأرض نهباً؛ لتطلب منه الصفح عن «چوليان»، إنها

بذلك تلفت نظر الأمير إليها وهي لا تبالي أن تمزقها العربة شر ممزق. أما أصدقاؤها الذين يعملون على مقربة من الملك، فسيساعدونها في أن تلقاه في الأرجاء الخاصة ببستان «سكان كلو».

أما «چوليان» فكان يعتقد أنه ليس أهلاً لهذا الإخلاص الشديد، لأنه قد ملّ البطولة في الواقع؛ لقد كان في حاجة إلى شفقة بسيطة ساذجة، تنطوي على الحياء، على حين أن نفس «ماتيلد» المتكبرة، كانت تهتم بما يقوله الناس وتتناقله الجماعات.

وبينما كانت تظهر كل هذه المخاوف، وتخشى على حياة حبيبها خشية عظيمة، وتريد ألا تعيش بعده – نازعتها فكرة أخفتها في نفسها، واحتفظت بها على أنها سر لا يذاع، وهى أنها كانت تريد أن تبهر الجماهير بقوة حبها وجرأة مشروعاتها.

غضب «چوليان» من نفسه حين ألفاها تتأثر بهذه البطولة. وماذا كان يعمل إذن، لو أنه عرف كل الأعمال الجنونية التي تقدم عليها «ماتيلد» وتفضي بها إلى فوكييه، وصديقه المخلص الطيب، ذي العقل الكبير والنفس الضيقة المحدودة؟ وفوكييه كان لا يدرى كيف يلوم «ماتيلد» على إخلاصها، لأنه كان بدوره على أتم استعداد للتضحية بثروته، وتعريض حياته لأشد الأخطار؛ كي ينقذ «چوليان». وأذهلته كثرة الذهب الذي نثرته «ماتيلد». وقد كان يجلّ المال إجلالاً شديداً، فأدهشته المبالغ الطائلة التي أنفقت في الأيام الأولى، ومثله في احترام المال كمثل أى رجل من رجال الريف.

وأخيراً وجد أن مشروعات «الآنسة دى لامول» كثيراً ما تتغير، ولشدّ ما سرى عن نفسه، حين عثر على كلمة يصف بها هذا الخلق الذي يتعبه أشد التعب، فوصفها بأنها متغيرة. وليس بين هذه الصفة وصفة العناد التي تعد أكبر لعنة في الريف إلا خطوة واحدة.

كانت «ماتيلد» خارجة من السجن ذات يوم، فقال «چوليان»: من الغريب أن هذا الحب العنيف الذي تبديه لا يؤثر في نفسي إطلاقاً! وقد كنت أعبدها منذ شهرين! قرأت أن اقتراب الموت يزهد الإنسان في كل شيء؛ لكنه من الصعب على النفس أن يشعر المرء أنه منكر للجميل، ثم لا يستطيع لذلك تغييراً ولا تبديلاً. فهل أنا إذن أنانيّ؟ وجعل يلوم نفسه على ذلك أشد اللوم. لقد مات الطموح في قلبه، وانبعث من الرماد شعور جديد هو الندم على أنه اعتدى على «مدام دى رينال». إنه كان في الواقع يحبها حباً شديداً، وكان يجد سعادة كبيرة حين يخلو إلى نفسه، ولا يخشى أن يقطع عليه عزلته أحد، ثم يسبح في ذكريات تلك الأيام السعيدة، التي قضاها في ڤريير أو فى ڤرجى. وكانت أتفه أحداث ذلك الزمن الذي مر به في سرعة عظيمة، تتراءى له بمظهر الجدة، مغمورة بظرف لا يقاوم. ولم يفكر بتاتاً فيما أصابه من نجاح في پاريس؛ لأن ذلك يبعث في نفسه الملل.

وهذه المشاعر التي تقوى في اطراد، أدركت غيرة «ماتيلد» طرفاً منها، ففطنت في سرعة ووضوح إلى أن عليها أن تحارب في «چوليان» حب العزلة. وكانت تنطق أحياناً باسم

«مدام دى رينال» في خوف ورعب. فرأت «چوليان» وقد اهتز جسمه هزة شديدة، فأصبح حبها له واسعاً لا يعرف حداً ولا قدراً، بل لقد عصف بنفسها.

وأخذت تناجي نفسها في صدق شديد: لو أنه مات لقضيت على نفسي. ماذا تقول صالونات پاريس حين ترى فتاة في مكانتي تعبد حبيباً مصيره القتل، هذه العبادة. على أن الشعور بمثل هذه العاطفة يرجعنا إلى عصر الأبطال؛ فقد كانت قلوب أهل عصر شارل التاسع وهنري الثالث تنبض بمثل هذا الحب.

وبينما كانت تحت سلطان هذه العواطف الجامحة، وهي تضم رأس «چوليان» إلى صدرها، حدّثت نفسها في اشمئزاز شديد قائلة: ماذا! هل سيقطع هذا الرأس الجميل؟ ثم تملكتها حماسة قوية، وشجاعة لا مثيل لها فأخذت تقول: إن فعلوا هذا لجفت بعد موته شفتاي اللتان تقبلان شعره الجميل، في أقل من أربع وعشرين ساعة.

إن ذكريات هذه اللحظات الحافلة بالبطولة واللذة الشديدة، كانت تربطها به برباط خفي. وسيطرت على نفسها فكرة الانتحار، وتغلغلت فيها، وتسلطت عليها تسلطاً شديداً. فكانت تحدث نفسها في كبر قائلة: لا، إنّ دم أجدادي لم يصل بارداً إلى قلبي.

وذات يوم قال لها حبيبها:

- إن لي عندك رجاء، وهو أن تضعي ابنك عند مرضعة في ڤرييير، وستكون المرضعة تحت إشراف «مدام دى رينال».

فامتقع لونها وقالت:

- إن ما تقوله لشديد القسوة عليّ. فتخلص «چوليان» من أحلامه واحتضنها وقال:

- هذا صحيح، وأسألك الصفح ألف مرة على ما بدر مني.

وبعد أن جفف دموعها، عاد إلى فكرته، ولكن في مهارة كثيرة، فصبغ حديثه بصبغة فلسفية حزينة، وتطرق إلى هذا المستقبل الذي سيغلق في وجهه بعد قليل، فقال لها:

- يجب أن تؤمني يا صديقتى العزيزة بأن العواطف القوية لا تمثل إلا حادثاً عرضياً في الحياة، ولا يصيب هذا الحادث إلا النفوس السامية. إن موت ابني سيعدّ في الحقيقة سعادة كبرى ترضى كبرياء أسرتك، وهذا ما يتنبأ به صغار الشأن من الناس. والإهمال سيكون نصيب هذا الطفل الذي خلق من الشقاء والعار. فأرجو أن تستمعي إلى وصاياي الأخيرة، في وقت لا أحب أن أحدده، ولكن شجاعتي تدلني عليه، هذه الوصايا هي: أن تتزوجى بالمركيز دى كروازنوا.

- ماذا! وأنا مثلوبة الشرف!

- إن العار لا يلحق اسماً كاسمك. ستكونين أرملة، وأرملة مجنون، هذه هي المسألة. بل إني لأذهب إلى أبعد من ذلك. فالمال لم يكن هو باعثي على الجريمة، إذن فجريمتي غير

مخلة بالشرف. ربما تتاح لنا في الوقت الذي تتزوجين فيه، مقّننون فلاسفة لا يتمسكون بأوهام معاصريهم فيلغون الحكم بالأعدام. وعلى هذا فسنسمع صوتاً يبدي لنا الصداقة يقول مثلاً: زوج «الآنسة دي لامول» الأول كان مجنوناً، ولكنه لم يكن خبيثاً ولا فاجراً، فكان من العبث أن يقطع رأسه. وإذن فلن تكون ذكراي ذكرى سيئة، أو على الأقل ستنسى ذكراي السيئة بعد أن تمضي فترة من الزمن. إن مكانتك في العالم وثروتك، واسمحي لي أن أقول: وعبقريتك أيضاً ستتيح للمركيز دى كروازنورا إذا ما أصبح زوجاً - أن يصل إلى مكانة لا يستطيع الوصول إليها وحده. لأن كرم محتده وشجاعته هي كل ما يمتاز بهما من صفات. وقد كانت صفات الرجولة الكاملة سنة ١٧٢٩، ولكنهما أصبحتا الآن هفوة تاريخية في عصرنا الحاضر، ولا تخلقان إلا الغرور. أما الآن فلابدّ للمرء من صفات أخرى تتيح له أن يكون على رأس الشبيبة الفرنسية.

ستؤيدين زوجك في الحزب السياسي الذي ستختارينه له بما فطرت عليه من حسن خلق قوي أخاذ. وستكونين بمثابة أمثال شڤرير ولونجڤيل في الفروند. ولكنّ النار المقدسة التي تشتعل بين ضلوعك الآن يا صديقتي المحبوبة ستخبو قليلاً. واستطرد يقول لها بعد أن تحدث إليها حديثاً يعدها لما يقول: إنك بعد خمسة عشر عاماً ستنظرين إلى حبك لي، على أنه كان حماقة لها ما يسوّغها، ولكنها حماقة على كل حال.

ثم توقف عن الكلام فجأة، وجعل يحلم، فقد وجد نفسه مرة أخرى يذكر هذه الفكرة التي أغضبت «ماتيلد» غضباً شديداً وهي: إن «مدام دى رينال» ستعبد ابنه بعد خمسة عشر عاماً، أما أنت يا «ماتيلد» فستنسينه!

الفصل الأربعون

الهدوء

إنني الآن عاقل وقد كنت من قبل مجنوناً. فيا أيها الفيلسوف الذي لا يرى الشيء إلا حين وقوعه، كم أنت قصير النظر! إن عينك لم تخلق لتتبع الأعمال الخفية التي تقوم بها العواطف.

مدام جوته

قطع هذا الحديث عليهما تحقيقٌ ثم حديث طويل، جرى بين «چوليان» وبين المحامي الموكل بالدفاع عنه. وكانت هذه اللحظات هي اللحظات الثقيلة على نفس «چوليان»، الذي كان يحيا حياة فراغ وأحلام جميلة. قال «چوليان» للقاضي والمحامي: هناك قتل، وقتل مع سبق الإصرار، ثم ابتسم وقال: يؤسفني أيها السادة، أن هذا يؤدي إلى التقليل من شأن مهمتكم.

ولما خلا بنفسه، بعد أن تخلص من هذين الرجلين أخذ يقول: ينبغي أن أكون شجاعاً، أكثر شجاعة في الظاهر من هذين الرجلين؛ إنهما يريان أن حالتي تدعو إلى الحزن الشديد، والإشفاق والرعب، فهما يعلمان مصيري المؤلم، لكنني لن أفكر في هذا إلا يوم التنفيذ. ثم أخذ يتفلسف قائلاً: وذلك لأني قد عرفت شقاء أشد وطأة من شقائي الحاضر. لاقيت العذاب الشديد في رحلتي الأولى إلى ستراسبوج، حينما كنت أومن بأن «ماتيلد» قد هجرتني. لكم تمنيت في رغبة أكيدة هذه الصداقة الخالصة التي تظهرها اليوم لي فلا أهتم بها! وأنا أشعر بالسعادة في الواقع حين أكون وحدي أكثر مما أشعر بها حينما تكون هذه الفتاة معي.

كان محاميه رجلاً يحترم القواعد والإجراءات، فاعتقد أنه مجنون؛ وشارك الجماهير الرأي في أن الغيرة هي التي دفعته إلى ارتكاب ما ارتكب. وذات يوم قال له اعتباطاً:

- إن هذه الحجة سواء أكانت صحيحة أم باطلة - مجدية في الدفاع. فسرعان ما يصبح بها المتهم في طرفة عين مخلوقاً متحمساً حاد الطبع.

ولم يستطع «چوليان» أن يسيطر على نفسه فصاح قائلاً:

- أستحلفك بحياتك يا سيدي ألا تنطق بهذه الأكذوبة مرة أخرى. فذعر المحامي الحذر برهة حتى خشي أن يقتله «چوليان».

وأعدّ دفاعه لأن اللحظة الفاصلة قد حان وقتها. وكانت بيزانسون والمقاطعة كلها لا تتحدث إلا عن هذه القضية المثيرة. لكن «چوليان» كان يجهل هذا الأمر الهام، وقد رجا من كان يأتي إليه ألا يذكر له شيئاً مطلقاً عن مثل هذه الأحداث.

في ذلك اليوم كان فوكييه و«ماتيلد» يريدان أن يقصا عليه بعض إشاعات ذاعت بين الجماهير، وتحمل على الاعتقاد بأن هناك أملاً في نجاته، فقطع «چوليان» عليهما سبيل الكلام عندما نطقا بأول كلمة، وقال لهما:

- لا تعكرا عليّ صفو حياتي المثالية: فالترهات التي تقصانها عليّ، وتفاصيل الحياة المادية التي تؤذيني، تهبط بي من سمائي التي أعيش فيها. إن الإنسان ليموت كما قدّر له، ولكني أحب أن أفكر في الموت كما أريد أنا، فماذا يضيرني مما يقول الآخرون؟ إن علاقتي بالناس سيقضى عليها بغتة. فترفقوا بي، ولا تتحدثوا إليّ عن الناس، ويكفي أنني أرى القاضي والمحامي.

وأخذ يقول في نفسه: يخيل إليّ أنه قد كتب عليّ أن أموت وأنا غارق في أحلامي، لا ينبغي لمجهول مثلي يعلم أنه سينسى بعد خمسة عشر يوماً من مقتله، أن يخدع نفسه فيمثل مهزلة، يجب أن أعترف بذلك. ومن الغريب حقاً أنني لم أعرف فنّ الاستمتاع بالحياة، إلا منذ أدركت أنني سأموت بعد قليل.

أخذ يقضي أيامه الأخيرة يتنزه على الرصيف الضيق للبرج المرتفع وهو يدخن صنفاً فاخراً من السيجار، أرسلت «ماتيلد» في طلبه من هولنده مع رسول خاص؛ وكان لا يعرف أن ظهوره فوق البرج يترقّب كل يوم. وأن النظارات المكبرة ترصد عليه حركاته. كانت أفكاره متجهة دائماً إلى ڤرچي. وكان لا يتحدث بتاتاً مع صديقه فوكييه عن «مدام دى رينال»، لكنه سمعه يقول مرتين أو ثلاث مرات: إن صحتها تقدمت تقدماً سريعاً، فكان لهذه العبارات أجمل وقع على قلب «چوليان».

كانت نفسه تحلق دائماً في جوّ من الأحلام والآراء، على حين كانت «ماتيلد» لا تعنى إلا بالمسائل الحقيقية المادية، وهذا ما ينبغي لقلب أرستقراطي، فعرفت كيف توطد العلاقة بين مدام دى فرڤاك والكاهن دى ڤريلير، فكانا يتراسلان بطريقة مباشرة، وقد وردت كلمة أسقفية في تلك الرسائل.

كان الحبر الجليل قد عهد إليه بقائمة الرواتب الدينية، فكتب بخطه في ذيل خطاب كتبته حفيدته العبارة الآتية: هذا المسكين «سورل» ليس إلا أحمق، وأرجو أن يعاد إلينا.

ولما رأى الكاهن دى ڤريلير هذه العبارة، لم يعد يسيطر على نفسه، ولم يكن يشك في أنه سينقذ «چوليان». فقال لـ«ماتيلد» قبل عملية سحب المحلفين الذين يبلغ عددهم ستة وثلاثين رجلاً:

- لولا هذا القانون الثوري الذي يقضي بأن يشترك محلفون كثيرون في الجلسة، وما ذلك إلا ليقضوا على نفوذ ذوي المحتد الكريم، وما يراد بهذا القانون غير ذلك، لولا هذا لكنت أتحمل مسئولية رأى المحلفين. لقد برأت من قبل الخوري.

وفي اليوم التالي سرّت «ماتيلد» وشاركها الكاهن دى ڤريلير سرورها حين وجد أسماء خمسة أشخاص تخرج في صندوق الانتخابات من أعضاء جمعية بيزانسون، ثم وجد

بين الأسماء الأجنبية ڤالنو وموارو وشولان، فقال لـ«ماتيلد»: أنا مسئول أولاً عن هؤلاء الثمانية، فالخمسة الأولى بمثابة آلات في يدي، وڤالنو من رجالي، وموارو مدين لي بكل شيء، أما شولان فهو رجل أحمق يخشى كل شيء.

وأذاعت الجريدة في المقاطعة كلها أسماء جميع المحلفين، وأرادت «مدام دى رينال»، على الرغم من الذعر الشديد الذي أبداه زوجها، أن تذهب إلى بيزانسون. وكل ما استطاع «السيد دى رينال» الحصول عليه من زوجته، هو ألا تغادر فراشها حتى لا يساء إليها فتستدعى لأداء الشهادة، وقال لها:

- إنك لا تدركين حقيقة مركزي، أنا الآن من الأحرار المتخلين[1] عن حزبهم كما يقولون، ولا شك أن هذا الوغد ڤالنو والسيد دى ڤريلير سيحصلان في سهولة من النائب العام ومن القضاة على كل مايؤلمني.

فأذعنت «مدام دى رينال» في سهولة لأوامر زوجها. وأخذت تقول في نفسها: لو شاهدوني في المحكمة لظنوا أني أتيت للأخذ بالثأر.

وعلى الرغم من الوعود التي تنطوي على الفطنة والحذر التي أفضت، بها إلى زوجها وإلى القسيس الذي تعترف له، فإنها ما كادت تصل إلى بيزانسون حتى كتبت بخطها إلى كل واحد من المحلفين:

«لن أذهب يا سيدي إلى المحكمة يوم نظر القضية، لا لشيء إلا لأن حضوري ربما يسيء إلى «السيد سورل». وليس لي في العالم إلا مطلب واحد أريده بكل قواي هو أن تكتب له النجاة. أرجو أن تثق كل الثقة بما أقول، فإنّ هذه الفكرة الكريهة التي تتسلط عليّ حين يموت بريء بسببي، ستسمم الأيام الباقية لي في الحياة. وتؤدي بي سريعاً إلى الموت. كيف تستطيع أن تحكم عليه بالإعدام، مادمت أنا على قيد الحياة؟ لا، ومما لا شك فيه أن المجتمع ليس له الحق في أن يقضي على حياة إنسان، وبخاصة إنسان مثل «چوليان سورل». الناس جميعاً في ڤريير يعرفون أن له لحظات تختل فيها قواه العقلية. وهذا الشاب المسكين له أعداء على جانب كبير من القوة والجاه، ولكن من ذا الذي ينكر عليه من أعدائه الكثيرين، مواهبه الممتازة وعلمه الغزير؟ إن من ستحاكمونه ليس مواطناً عادياً يا سيدي. لقد عرفناه خلال ثمانية عشر شهراً، فكنا جميعاً نؤمن بتقواه وعقله ومهارته، لكنه كان يصاب مرتين أو ثلاث مرات في كل عام بحزن شديد يؤدي إلى اضطراب في قواه العقلية. وجميع سكان ڤريير، وكل جيراننا في ڤرچي حيث كنا نقضي فصل الربيع، وأسرتي كلها والسيد نائب حاكم المقاطعة نفسه. هؤلاء كلهم يشهدون له بالتقى الشديد؛ إنه يحفظ عن ظهر قلب الإنجيل كله. فهل يصبر كافر على مشقة حفظ

---

(١) يرى «جول مرسان» أن هذه إشارة جديدة إلى الأحداث السياسية في ذلك العصر: إذ تحالف جماعة من حزب اليمين مع المعارضة اليسارية بعد انتخابات عام ١٨٢٧، وأصبح البرلمان الجديد يضم طائفة من النواب عرفوا «بالمتخلين عن اليمين». «المعرب».

الكتاب المقدس سنوات عديدة؟ سيتشرف أبنائي بتقديم خطابي هذا إليك، وما هم إلا أطفال، فأرجو أن تتفضل يا سيدي فتسألهم عن معلمهم، وأنا واثقة أنهم سيفضون إليك بكل المعلومات اللازمة؛ لتقتنع بأن من الوحشية أن تحكم عليه بالإعدام. إنك لن تنتقم لي إن فعلت هذا، ولكنك ستحكم عليّ أنا بالموت.

ثم ماذا يستطيع أعداؤه أن يقولوا في هذه الحقيقة؟ وهي أن الجرح الذي كان نتيجة لحظة من لحظات الجنون الذي يعرفه أطفالي في معلمهم، كان جرحاً لا خطورة فيه إطلاقاً، وقد سمح لي في أقل من شهرين أن اسافر من ڤربير إلى بيزانسون في عربة من عربات البريد. لو ظننت أنك تتردد قليلاً يا سيدي؛ في أن تدفع عن هذا البرئ ما تنطوي عليه القوانين من وحشية، لغادرت فراشي، الذي ألزمه تنفيذاً لأوامر زوجي لا أكثر ولا أقل، ولأتيت لأجثو عند قدميك ضارعة لك في أن تصفح عنه.

أرجو أن تعلن يا سيدي أن سبق الإصرار لم يكن متوفراً، ولن تندم بعد ذلك على إراقة دم رجل برئ ... »

الفصل الحادي والأربعون

المحاكمة

إن البلاد ستذكر هذه القضية الشهيرة زمناً طويلاً؛ فالاهتمام بالمتهم قد بلغ الذروة، وكاد يؤدي إلى الشغب. وما ذلك إلا لأن جريمته كانت عجيبة وليست شنيعة. كم كان هذا الشاب جميلاً! إن مركزه السامي -وإن كان قد قضي عليه- زاد في علق الناس به. هل سيحكمون عليه؟ هذا هو السؤال الذي كانت توجهه السيدات إلى معارفهن من الرجال، وكانت وجوههن تعلوها الصفرة وهن ينتظرن الجواب.

سانت بف

وأخيراً جاء اليوم الذي كانت تخشاه «مدام دى رينال» و«ماتيلد» خشية عظيمة. كان منظر المدينة عجيباً، فزاد من خوفهما وقلقهما، وأثر حتى في نفس فوكييه، تلك النفس الحازمة. لقد هرع أهل الريف إلى بيزانسون ليشهدوا هذه المحاكمة الغريبة. وكانت الفنادق كلها قد ازدحمت منذ بضعة أيام. وكثر الإلحاف على رئيس المحكمة في طلب تذاكر حضور المحاكمة، وكانت سيدات بيزانسون جميعاً حريصات على الحضور ؛ وبيعت صورة «چوليان» في الشوارع.

كانت «ماتيلد» تحتفظ لهذه الساعة الرهيبة بخطاب كتبه بخطه مونسنيور رئيس الأساقفة، وقد تفضل هذا الحبر، الذي يدير كنيسة فرنسا ويعين رؤساء الاساقفة، فطلب العفو عن «چوليان»، ورفعت «ماتيلد» هذا الخطاب إلى الرجل القوي نائب الأسقف. وفي نهاية المقابلة، بينما كانت «ماتيلد» تنصرف وهى تضج بالبكاء، تأثر الكاهن دى ڤريلير وخرج عن تحفظه السياسي وقال لها:

– إني أضمن لك قرار المحلفين، فالإثنا عشر محلفاً الذين وكّل إليهم معرفة ما إذا كانت الجريمة ثابتة، وخاصة إذا كان هناك سبق إصرار، أعرف منهم ستة جميعهم أصدقائي ويتمنون لي منزلة سامية، ولقد أفهمتهم أن منصب رئيس الأسقفية الذي سيسند إليّ يتوقف عليهم. والبارون ڤالنو الذي عينته أنا عمدة لڤريير، له مطلق السلطان على اثنين من مرؤسيه وهما السيدان موارو وشولان. وقد ساق القدر لنا في الواقع اثنين من المحلفين متعبين إلى أبعد حد، وهما وإن كانا من الأحرار المتطرفين، إلا أنهما يأتمران بأمري في المشاكل وفي المسائل العويصة، وقد أرسلت إليهما ليصوتا كما يصوت السيد ڤالنو. وعلمت أن محلفاً سادساً من أصحاب الصناعة كثير المال، حر ثرثار، يحاول سراً أن يحصل على إذن توريد إلى وزارة الدفاع، ومما لاريب فيه أنه لن يحاول إغضابي. وقد أرسلت إليه

كذلك أخبره أن ڤالنو يعلم باتجاهي في هذه القضية. فقلقت «ماتيلد» وسألته:

- ومن يكون السيد ڤالنو هذا؟

- لو عرفته ما شككت إطلاقاً في توفيقنا في هذا الأمر. فهو متكلم جرئ، سفيه، فظ غليظ، خلق ليكون على رأس الحمقى. كان فى عام ١٨١٤ فقيراً جداً، وسأعينه حاكماً من حكام المقاطعات. إنه كفيل بأن يضرب باقي المحلفين إذا أبوا أن يصوتوا في صفه.

فاطمأنت «ماتيلد» قليلاً، وكانت مناقشة أخرى تنتظرها في المساء. كان «چوليان» قد قرر ألا يتحدث في المحكمة، حتى لا يطيل أمراً سيئ الوقع على نفسه، وهو واثق من النتيجة مقدماً، فقال لـ«ماتيلد»:

- سيتكلم المحامي الموكل بالدفاع عني، وفي قوله الكفاية. إنني إن تحدثت فلن يفيدني حديثي إلا في أني أعرض نفسي على أعدائي وقتاً طويلاً. هؤلاء الريفيون يحقدون عليّ ما أصبت من مكانة في وقت قصير، وأنا مدين لك بذلك، وليس بينهم جميعاً من لا يتمنى أن يحكم عليّ بالإعدام، وإن بكى بكاء الأحمق يوم أساق إلى الموت.

- هم يبتغون هوانك، ما في ذلك شك، ولكني لا أعتقد أنهم قساة القلوب. إن حضورى إلى بيزانسون والأسى الذي ألقاه، قد جذبا انتباه كل السيدات؛ ووجهك الجميل كفيل بالباقي. سيكون النظارة جميعاً في صفك إن قلت كلمة أمام قضاتك.

وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، غادر «چوليان» السجن إلى القاعة الكبرى بدار المحكمة. وقد لاقى رجال الشرطة عناء شديداً في أن يفسحوا له طريقاً بين الجمهور المزدحم في فناء المحكمة، لقد نام «چوليان» في ليلته السابقة نوماً كثيراً، فكان يبدو عليه الهدوء الشديد، ولم يشعر إلا بشفقة تنطوي على الفلسفة لهذا الجمهور الذي يحسده، والذي سيصفق في غير قسوة، لحكم الإعدام الذى سيصدر عليه. ولكم ذهل حين وجد أن هذا الجمهور لا يضمر له إلا شفقة رحيمة، وكان قد اضطر أن يقف أكثر من ربع الساعة وسط الناس حتى يفسح له رجال الشرطة مكاناً، فلم يسمع كلمة واحدة تؤذيه، فأخذ يقول في نفسه: هؤلاء الريفيون ليسوا أشراراً كما كنت أعتقد.

ولما دخل قاعة المحاكمة، أعجب بأناقة هندستها. كان طرازها قوطياً خالصاً؛ ورأى عددا كبيراً من الأعمدة الصغيرة الجميلة، المنحوتة في الحجر بعناية شديدة. فخيل إليه أنه في انجلترا. ولكنه سرعان ما حوّل انتباهه إلى اثنتي عشرة امرأة جميلة، كن يجلسن تجاه مقعد المتهم، وقد امتلأت بهن الشرفات الثلاث التي تطل على القضاة والمحلفين.

وحينما التفت إلى الجمهور، رأى أن الشرفة المستديرة المعدة للمشاهدين والتي تشغل الجزء الأعلى من المدرج قد ملئت بالنساء؛ وخيل إليه أن أكثرهن صغيرات السن جميلات؛ وكانت عيونهن براقة، وقد بدا الاهتمام فيها. أما باقي أرجاء القاعدة فقد ازدحمت ازدحاماً شديداً؛ وكانت المعارك تدور على الأبواب، ولم يتمكن الحراس من أن

يفرضوا على الناس السكون كانت العيون تبحث عنه، وحين رآه الناس يجلس في هذا المكان المرتفع قليلاً المخصص للمتهمين، انبعثت همهمة تدل على العجب والشفقة الكبيرة.

كان من يراه في ذلك اليوم يعتقد أن سنه لا تزيد على عشرين عاماً، وكان يلبس ملابس بسيطة ولكن في أناقة شديدة، وشعره وجبهته ينمان عن ظرف وجمال. وقد أرادت «ماتيلد» أن تشرف بنفسها على هندامه. كان شديد الشحوب في ذلك اليوم. ولم يكد يجلس على المقعد المعد له حتى سمع الناس يقولون من كل جانب: يا إلهي! كم هو صغير السن! إنه لا يزال طفلاً. هو أجمل من صورته بكثير. وأخذ الشرطي الذي يجلس عن يمينه يحادثه فقال له:

- أتعرف يا متهمي أولئك السيدات اللاتي يشغلن هذه الشرفة؟ وأشار إلى مكان بارز فوق المدرج الذي يشغله المحلفون، ثم استطرد يقول:

- إن هذه السيدة حرم الحاكم، وبجوارها المركيزة دى م ... وهي تحبك حبك شديداً فقد سمعتها تتحدث عنك إلى قاضي التحقيق، ثم مدام درڤيل ... فصاح «چوليان»، واحمرت جبهته من شدة الخجل.

- مدام درفيل! ثم أخذ يقول في نفسه: إنها حين تغادر المحكمة ستكتب إلى «مدام دى رينال». وكان يجهل مجئ زوجة العمدة السابق إلى بيزانسون.

وسمعت شهادة الشهود في وقت قصير. ولم يكد النائب العام يوجه أولى كلمات الاتهام حتى ضجت سيدتان بالبكاء، وكانتا تجلسان في الشرفة المقابلة ل«چوليان». فقال «چوليان» في نفسه: إن مدام درڤيل لا تشعر نحوي بمثل هذه الشفقة، غير أنه لحظ أن وجهها كان شديد الاحمرار.

أخذ النائب العام يتكلم كلاماً مثيراً عن وحشية الجريمة التي ارتكبت، لكن لغته الفرنسية كانت رديئة، وقد لحظ «چوليان» أن جارات مدام درڤيل كن يخالفنه مخالفة شديدة كما يبدو على وجوههن. وكان بعض المحلفين يتحدثون إلى هؤلاء السيدات، وكانوا على مايبدو من معارفهن وكأنهم يبعثون في قلوبهن السكينة. فقال «چوليان» في نفسه: هذا لا يترك سبيلاً إلى التفاؤل.

وكان حتى هذه اللحظة يشعر باحتقار شديد لكل الرجال الذين كانوا يشهدون المحاكمة: وقد زادته الفصاحة التافهة التي فاه بها النائب العام كراهية لهم واحتقاراً. ولكنّ صلابة نفسه اختفت شيئاً فشيئاً إزاء ما كانوا يظهرونه من عطف وود. وسر من هيئة محاميه التي كانت حازمة، ولما وقف المحامي ليبدأ دفاعه طلب منه «چوليان» ألاّ يظهر بلاغته، فقال له الرجل:

- لقد سرقت جزالة بوسويه واستخدمت ضدك، ولكنها ستفيدك. والواقع أن المحامي لم يكد يتكلم خمس دقائق حتى أخرج النساء جميعاً مناديلهن. فتشجع المحامي ووجه إلى المحلفين عبارات قوية جداً.

فارتعد «چوليان» وشعر بحاجة إلى البكاء، ولكنه سرعان ما قال:

يا إلهي! ماذا يقول أعدائي إذا رأوني أبكي؟

غير أنّ الشفقة كادت تستولي على نفسه، ولكنه لحسن حظه، رأى البارون دى ڤالنو ينظر إليه نظرات تنطوى على القحة. فأخذ يقول في نفسه إنّ عينَي هذا الدنئ لتشعان ببريق عجيب، فأي نصر نالته هذه النفس الحقيرة! إذا كانت جريمتي لم تجلب عليّ إلا أن أرى هذه النظرات الوضيعة فإني لألعنها أشد اللعنة. ويعلم الله ما سيقوله عني لـ«مدام دى رينال»!

وتغلبت هذه الفكرة على ما عداها. وبعد ذلك بقليل، ثاب «چوليان» إلى نفسه من علامات الاستحسان التي كان يبديها الجمهور. وكان المحامي قد فرغ من دفاعه. وتذكّر «چوليان» أنه يجمل به أن يصافح محاميه وكان الزمن يمضي سريعاً.

وأحضر له ولمحاميه ما يشربانه، فرأى «چوليان» في عجب شديد أن السيدات جميعاً لا يزلن في المحكمة، ولم تذهب إحداهن لتناول عشائها.

قال المحامى:

- أؤكد لك أني أكاد أموت جوعاً! وأنت؟

- وأنا كذلك.

- أنظر، ها هي ذى حرم الحاكم تتناول عشاءها، ثم أشار المحامى إلى الشرفة الصغيرة وقال: تشجع، كل شئ على ما يرام. وأعيدت الجلسة.

أعلنت الساعة منتصف الليل والرئيس يسرد موجزاً للقضية، فاضطر إلى أن يتوقف عن الكلام، وبين هذا السكون الشامل الذي يسوده قلق شديد، كانت دقات الساعة تملأ أرجاء القاعة. فقال «چوليان» في نفسه: لقد بدأ آخر يوم لي في الحياة. وهنا انتابته نوبة شديدة من نوبات الواجب. لقد استطاع ألا يظهر أي تأثر حتى الآن وأخذ على نفسه ألا يتكلم، ولكن حينما سأله رئيس الجلسة عما إذا كان عنده ما يقوله، نهض واقفاً، وكان يرى أمامه عيني مدام درڤيل، وخيل إليه أنهما تبرقان. فأخذ يسائل نفسه: أهى تبكي؟ وكيف كان ذلك؟

« سادتي المحلفون.

« إن الاحتقار الشديد الذي كنت أقدر أني سأواجهه ساعة موتي هو الذي يدفعني إلى الكلام. إنني أيها السادة لم أنل شرف الانتساب إلى طبقتكم، فما أنا إلا ريفي ثار على ضعة مكانته.

وأنا لا أطلب منكم تسامحاً ولا صفحاً. ولا أحب أن أخدع نفسي، فالموت بانتظاري، وإنه عقوبة عادلة. لقد اعتديت على حياة سيدة جديرة بكل احترام ورعاية: فقد كانت «مدام دى رينال» لي بمثابة الأم فجريمتى شنيعة، لأني دبّرت قتلها من قبل. وعلى هذا فأنا

استحق أيها السادة المحلفون عقوبة القتل: ولكن إذا كان جرمي أقل من ذلك، فإني أرى رجالاً لا يتأثرون بما يدره شبابي من شفقة ورحمة، فيعمدون إلى أن يقتصوا من طبقة الشبان الذين نشأوا نشأة وضيعة، وقد أعوزهم الفقر الشديد، وأسعدهم الحظ فتعلموا تعليماً راقياً، واختلطوا بما يسميه الأغنياء المجتمع كبراً وغروراً. نعم هؤلاء الرجال يريدون القضاء على هذه الطبقة ويوجهون لها أشد الضربات في شخصي. هذه هي جريمتي أيها السادة، وسأعاقب عليها عقاباً شديداً، مادام أندادي لم يشتركوا في محاكمتي. إنني لا أرى فوق مقاعد المحلفين فلاحاً أثرى، ولكني أرى برجوازين تشمئز نفوسهم من فعلتي...»

وأخذ يتكلم بهذه النغمة عشرين دقيقة، فقال كل ما كان يجول في خاطره؛ كان النائب العام يهتز في مقعده، لأنه كان يحاول أن ينال رضا الطبقة الأرسقراطية؛ وعلى الرغم من الطابع المجرد الذي خلعه «چوليان» على المناقشة، فإن النساء جميعاً قد أخذن في البكاء. وكانت مدام درڤيل نفسها تغطي عينيها بمنديلها. وقبل أن ينتهي «چوليان» من حديثه، عاد فتحدث عن سبق الإصرار وعن ندمه، واحترامه لـ«مدام دى رينال»، وإلى حبه البنوي لها حباً شديداً، فصرخت مدام درڤيل وأغمي عليها.

ودقت الساعة الأولى فانسحب المحلفون إلى غرفتهم، ولم تغادر أية امرأة مكانها، وكان كثيرون من الرجال تلمع الدموع في عيونهم. كانت مناقشات المحلفين أول الأمر شديدة جداً، ولكن أخذ القرار يتضح قليلاً قليلاً، وأخذ الهدوء يشمل الجمعية لما يلقاه المحلفون جميعاً من تعب ونصب. وكانت اللحظة رهيبة؛ فقد أخذت الأضواء تخبو. ونال التعب من «چوليان»، وسمع مَنْ على مقربة منه يتناقشون فيما إذا كان هذا التأخير يعدّ نحساً أو يمناً. وكم سعد حين رأى الناس جميعاً يتمنون له النجاة. لم يعد المحلفون في قاعة الجلسة، ومع ذلك فلم تغادر أية امرأة مكانها.

وحينما أعلنت الساعة الثانية صباحاً، سمعت حركة شديدة، وفتح باب غرفة المحلفين الصغرى، وتقدم البارون دى ڤالنو في خطوات مسرحية بطيئة، وتبعه باقي المحلفين. ثم سعل، وأعلن بعد أن أقسم بنفسه وضميره، أن قرار المحلفين الذي صدر بالإجماع يقضي بإدانة «چوليان سورل» بالقتل، وبالقتل مع سبق الإصرار. ثم توقف قليلاً وقال: وهذه التهمة عقوبتها القتل. فنظر «چوليان» إلى ساعته، وتذكر السيد دى لاڤالت، وكانت الساعة الثانية والربع، ثم قال في نفسه: إن اليوم يوم الجمعة.

نعم إنه لأسعد أيام ڤالنو حين يحكم عليّ ... (وكان النساء من حوله يبكين بكاءً مراً) إن الرقابة عليّ شديدة فلن تستطيع «ماتيلد» أن تخلصني كما نجحت مدام دى لاڤالت زوجها وعلى هذا فبعد ثلاثة أيام وفي مثل هذه الساعة سأعرف ما يجرى عليّ.

وفي هذه اللحظة، سمع صيحة فارتد بفكره إلى الحياة الدنيا، وكان النساء حوله يجهشن بالبكاء، والتفت فرأى الوجوه كلها مستديرة نحو شرفة قائمة في ركيزة قوطية.

وعرف بعد ذلك أن «ماتيلد» كانت مختفية فيها.

لم تتكرر الصيحة فاستدارت الوجوه إلى «چوليان»، وأخذ رجال الشرطة يفسحون له الطريق وسط زحام الجماهير.

ثم قال في نفسه: عليّ أن لا أتيح الفرصة لهذا الوغد ڤالنو فيسخر مني. كم كان الخداع والنفاق يرتسمان على وجهه وهو ينطق بقرار الحكم عليّ بالإعدام! بينما كان هذا الرئيس المسكين يترقرق الدمع في عينيه ساعة الحكم عليّ، مع أنه قاض منذ سنوات طويلة. يا لفرح السيد ڤالنو حين أتيحت له فرصة الانتقام لتنافسنا على «مدام دى رينال»! إنني لن أشاهدها إذن! لقد حدث ماحدث، وإني لأشعر أنه لن يتاح لي أن أودعها الوداع الأخير. كم كنت أود أن أكشف لها عما أحسه من اشمئزاز كبير من جراء فعلتي!

لن أقول لها أكثر من هذه العبارة: لقد حكم عليّ، وهو حكم عادل.

الفصل الثاني والأربعون

حينما اقتيد «چوليان» إلى السجن، أدخل غرفة أعدّت للمحكوم عليهم بالإعدام. ولم ينتبه إلى أنه لم يصعد إلى برجه، مع أنه لا يفوته أن يدرك أقل حركة وأتفه شيء. كان يفكر فيما يقوله لمدام دى رينال لو سعد برؤيتها قبل أن تحين ساعته الأخيرة. وأخذ يفكر في أنها ستقاطعه، وهو يود لو استطاع أن يعبر لها عن ندمه في أول كلمة يقولها لها. ثم أخذ يحدث نفسه: كيف أستطيع أن أقول لها بعد أن فعلت فعلتي هذه: إني لم أحبب سواها؟ وأنا لم أحاول قتلها إلا طموحاً مني أو حباً لماتيلد.

وآوى إلى فراشه فأحس أنه مغطى بنسيج خشن.فزالت الغشاوة عن عينيه، وأخذ يقول: آه! إنني في السجن المظلم، كجميع المحكوم عليهم بالإعدام. إنه جزاء عادل. لقد قصّ عليّ الكونت ألتاميرا أن دانتون صاح بصوته الغليظ قبل أن يعدم بيوم واحد وقال: من الغريب أن فعل «شنق» لا يتصرف في كل الأزمنة، فيستطيع الإنسان أن يقول: سأشنق، ستشنق ولكنك لا تستطيع أن تقول: كنت شُنِقتُ.

واستطرد «چوليان» يقول: ولم لا، إذا كانت هناك حياة أخرى؟ أنا واثق من أنني سأضيع إن لاقيت إله المسيحيين، لأنه طاغية، ولذلك فهو شديد الانتقام، والإنجيل لا يتحدث إلا عن العقاب الشديد. إنني لم أحببه إطلاقاً، ولم أشأ أن أصدق أن بين الناس من يحبه حباً صادقاً. إنه لشديد الانتقام (ثم أخذ يتذكر كثيراً من آيات الأنجيل) إنه سينزل بي عقابا صارماً. ليتني ألقى إله فنلون! فلربما قال لي: إننا سنعفو عن كثير من خطاياك لأنك أحببت حباً صادقاً. ولكن هل أحببت كثيراً؟ آه! لقد أحببت «مدام دى رينال» ولكن سلوكي نحوها كان قاسياً غليظاً. ضحيت بتلك المزايا البسيطة المتواضعة: لأنني شغفت بما هو براق، فكنت أسير على سنة الناس جميعاً. ولكن أي أمل كنت أراه نصب عيني! أميرالاي في الخيالة وقت الحرب، وسكرتير في مفوضية وقت السلم؛ ثم بعد هذا أصبح سفيراً، لأني سرعان ما كنت أتقن ما بين يدي من الأعمال، ولو كنت أحمق غبياً، فهل يتاح لصهري «المركيز دى لامول» أن يلقى منافسة يخشى منها؟ إنّ سيئاتي كلها كانت تغتفر بل تعدّ حسنات وأصبح رجلاً ذا مواهب، يعيش عيشة راضية هانئة في فيينا

أو لندن.

– ليس الأمركما تظن يا سيدي فستشنق بعد ثلاثة أيام.

فأخذ «چوليان» يضحك كثيراً من هذه اللفتة النفسية. وأخذ يقول: إن الرجل -في الواقع- ذو نفس مزدوجة. فيا للشيطان، ما هذه الفكرة الخبيثة؟ ثم قال رداً على هذه الفكرة: حسناً يا صديقي! نعم سأشنق بعد ثلاثة أيام. إن السيد دى شولان سيستأجر نافذة مع الكاهن مالون، ويدفع كل منهما نصف المبلغ. فمن ذا الذى سيسرق الآخر من هذين الشخصين الجليلين؟ ثم تذكر فجأة قطعة من ڤنسيسلاس لتروترو:

لا ديسلاس

... إن روحي لعلى أتم الاستعداد.

الملك، والد لا ديسلاس

والمشنقة كذلك، فاحمل إليها رأسك.

ثم قال: إنها إجابة رائعة! ثم استغرق في النوم. وفي الصباح استيقظ على إثر ضمة شديدة، ففتح عينيه الزائغتين، وقد ظنّ أنه بين يدى السياف، وقال:

– ماذا! هل حان وقت إعدامي؟

كانت «ماتيلد» هي التي تحتضنه، ولم تفهم لحسن حظه ما قاله. وقد ردت له هذه الفكرة هدوءه. ووجد أنّ «ماتيلد» قد تغيرت تغيراً تاماً، كأنها ظلت مريضة ستة شهور، فقد كانت لا ترحم نفسها. ثم قالت له وهي تفرك يديها، ولم يمكنها الغضب من البكاء.

– إنّ هذا الحقير فريلير قد خدعني.

– ألم أكن جميلاً أمس حين تكلمت؟ لقد ارتجلت الحديث لأول مرة في حياتي! وأخشى في الواقع أن تكون آخر مرة.

كان «چوليان» في هذه اللحظة يعبث بخلق «ماتيلد» في هدوء شديد، كأنه عازف ماهر على البيان. ثم استطرد يقول: إني لا أنكر ضعة نشأتي، ولكن نفس «ماتيلد» العالية قد رفعت إليها حبيبها. فهل تعتقدين أن بونيفاس دى لامول كان خيراً مني أمام قضاته؟

وكانت «ماتيلد» في ذلك اليوم رقيقة في غير تكلف. كأنها فتاة بائسة ممن يسكن في الطابق الخامس من المنازل؛ ولكنها لم تستطع حمله على أن يقول أبسط مما كان يقول. لقد أشقاها دون أن يدري، كما أشقته هي من قبل.

وأخذ يقول في نفسه: إن المرء لا يعرف منابع النيل، ولم تر عيناه ملك الأنهار جدولاً صغيراً: إذن فلن تتاح لأى عين بشرية أن ترى «چوليان» ضعيفاً، خائر القوى، لأنه قبل كل شيء ليس كذلك. ولكن قلبي سريع التأثر؛ فلو قيل الكلام السائر في صدق

وإخلاص لرق صوتي وسالت دموعي. وكم من مرة احتقرتني القلوب القاسية من أجل هذه النقيصة! فكانوا يعتقدون أنني أطلب الصفح، وهذا ما لا أطيقه.

قيل إن دانتون ذكر امرأته وهو في أسفل المقصلة فتأثر، ولكن دانتون وهب الحياة لأمة أهلها طائشون وحال بين العدو وبين باريس. أنا وحدي أعرف ما أستطيع أن أفعله، أما الآخرون فهم لا يؤمنون بقدرتي.

لو أن «مدام دى رينال» هي التي كانت معي الآن في السجن بدلاً من «ماتيلد»، أكنت أقول هذا في نفسي؟ إن قنوطي الشديد وندمي البالغ قد يفسرهما ڤالنو وباقي أشراف المقاطعة، بالخوف الشديد من الموت؛ إن في قلوبهم خوراً، ولكنهم متكبرون إلى أقصى حد؛ لأن مركزهم المالي يضعهم دائماً فوق الشبهات! والسيدان: دى موارو ودى شولان اللذين حكما عليّ بالاعدام ربما قالا: هكذا يكون من يولد ابن نجار! قد يصبح الإنسان عالماً، ماهراً، ولكن القلب! القلب لا يدخل في محيط التعليم. وحتى هذه الفتاة المسكينة «ماتيلد» التي تبكي الآن، أو على الأصح التي لا تستطيع أن تبكي الآن، قد أنساها الألم الحق جدها المنطقي. قال هذا وهو ينظر إلى عينيها المحمرتين، ثم ضمها بين ذراعيه وأخذ يحدث نفسه: ربما قضت ليلتها باكية، ولكن أى خزي تلقاه في المستقبل حين تذكر ذلك! ستعدّ نفسها كمن ضلت في شبيبتها الأولى، وأغوتها طرق تفكير شاب من عامة الشعب. وكروازنوا ضعيف فسيتزوجها، ويخيل إليّ أنه يحسن صنعاً، فهى ستجعله يقوم في الحياة بتمثيل دور! وذلك بما للنفس القوية المتشعبة المقاصد من سلطان على النفوس الضعيفة لعامة الناس.

آه! هذا عجيب حقاً! فمنذ حكم عليّ بالاعدام، أصبحت أتذكر الأشعار التي كانت لا تخطر من قبل على ذاكرتي. وهذه علامة من علامات التدهور.

قالت له «ماتيلد» بصوت ضعيف خافت: إنه في الغرفة المجاورة. وأخيراً انتبه إلى ماتقول، فحدث نفسه: إن صوتها لضعيف، ولكنها لا تزال تحتفظ بكل ما في خلقها من سيطرة تنم عنها لهجتها. إنها تخفض صوتها حتى لا تغضب. وسألها «جوليان» في رقة وحنان:

– ومن الذي هناك؟

– المحامي، أتى لتوقّع طلب الاستئناف.

– لن أستأنف. فنهضت وعيناها يشع منها الغضب وقالت:

– ماذا تقول؟ لن تستأنف! ولم ذلك من فضلك؟

– لأني أشعر بقوة أستقبل بها الموت فلن يسخر الناس مني. ومن يدريني أنني بعد أن أقيم في هذا السجن الرطب شهرين أكون متمتعاً بالقوة التي أحسها الآن؛ إني أتنبأ بمحادثات ستجري بيني وبين القسس وبيني وبين والدي، وهذا أكره شيء إلى نفسي فى

الوجود. فلأمت.

أثارت معارضته كل ما في نفسها من كبر وعظمة. إنها لم تستطع أن تلقى الكاهن دى ڤريلير قبل الساعة التي تفتح فيها سجون بيزانسون، فصبت جام غضبها على «چوليان». كانت تعبده، ومع ذلك ظلت ربع ساعة وهي تصب عليه اللعنات لسوء طبعه، وتعلن ندمها الشديد على أنها أحبته، فرأى «چوليان» في هذا كله نفسها المتكبرة التي كثيراً ما كانت تسبه سباً مقذعاً في مكتبة قصر دى لامول. فقال لها:

- كان يجدر بالسماء أن تخلقك رجلاً لو أنها أرادت بطبقتك خيراً. وأخذ يقول في نفسه: أما أنا فسأكون غراً إن عشت شهرين آخرين في هذا المكان المرعب، معرضاً لكل ما ترميني به عصبة الأشراف من دناءة وحط من كرامتي، وعزائي الوحيد هو أن شتائم هذه المجنونة ستنهال عليّ. حسنا، سأبارز بعد غد صباحاً رجلاً عرف بهدوئه وحذقه الشديد، ويقول حزب الشيطان إنه ماهر إلى أبعد حد، فضرباته لا تفلت أبداً. حسناً، سأفعل ذلك (وكانت «ماتيلد» لا تزال تبدي فصاحتها) فقال في نفسه: يا للشيطان، إنني لن أستأنف!

وعندما اتخذ هذا القرار، بدأ يحلم: سيحمل إليهم الجريدة ساعي البريد في الساعة السادسة كعادته؛ وفي الساعة الثامنة حين يفرغ من قراءتها «السيد دى رينال»، تتناولها إليزا وتسير على أطراف قدميها لتضعها على سريرها. بعد هذا تستيقظ من نومها، وتتناول الصحيفة، فتضطرب فجأة وهي تقرأ، فترتعش يدها الجميلة ولكنها تقرأ كل شيء حتى هذه العبارة: وفي الساعة العاشرة والدقيقة الخامسة، انتهت حياته.

ستبكي بكاء مراً، فأنا أعرفها؛ وستنسى أنني حاولت قتلها. إن السيدة التي حاولت الاعتداء على حياتها ستكون السيدة الوحيدة التي تبكي لموتي بكاء حاراً. آه! هذه على النقيض منها! وظلت «ماتيلد» تتشاجر معه أكثر من ربع ساعة وهو منصرف عنها إلى التفكير في «مدام دى رينال». وعلى الرغم منه، لم تكن نفسه تتخلى عن ذكريات غرفة النوم في ڤريير. وإن كان كثيراً ما يجيب «ماتيلد» على ما تقول وهي دائبة على التحدث إليه. كان يرى جريدة بيزانسون على ذلك الغطاء الحريرى البرتقالي اللون، ويرى تلك اليد البيضاء تتناولها في حركة قلقة، وكان يرى «مدام دى رينال» تبكي، وكان يتتبع كل دمعة تسقط على وجهها الفاتن.

ولما يئست «الآنسة دى لامول» من أن تنال منه شيئاً، استدعت المحامي. ومن حسن الحظ كان هذا المحامي قائداً سابقاً في جيش إيطاليا من عام ١٧٩٦، وكان صديقاً لمانول. وأخذ يعارض قرار المتهم، لكن «چوليان» أراد أن يعامله بكل احترام فشرح له الأسباب التي حملته على ألا يستأنف الحكم.

وأخيرا قال له السيد فيلكس ڤانو المحامي: اللهم إن الإنسان ليستطيع أن يفكر تفكيرك. وأمامك ثلاثة أيام كاملة لاستئناف الحكم؛ وواجبى يقضي عليّ أن أحضر إليك كل يوم. لو أن بركاناً انفجر تحت السجن، من الآن إلى أن يمضى شهران، لأنقذت حياتك.

ثم نظر إلى «چوليان» وقال له:

- قد تموت على إثر مرض.

فصافحه «چوليان» وضغط على يده وقال له:

- أشكرك كل الشكر، فإنك رجل كريم. سأفكر في هذا.

ولما انصرفت «ماتيلد» مع المحامي، كان «چوليان» يشعر نحو السيد ڤانو بصداقة كبيرة أكثر من صداقته لها.

الفصل الثالث والأربعون

بعد ذلك بساعة، كان «جوليان» نائما نوماً عيمقاً، فأيقظته دموع تتساقط على يده. فأخذ يقول في نفسه وهو بين اليقظة والنوم: آه! إنها «ماتيلد»، جاءت مرة أخرى لتطبق نظرية تحطيم القرار بالعواطف الرقيقة. كان يملّ حدوث منظر جديد من المناظر المؤثرة المحزنة، فآثر أن يغمض عينيه. وتذكر أشعار بلفجور وهو يفر من زوجته. لكنه سمع تنهداً عجيباً، ففتح عينيه، ورأى «مدام دى رينال». فارتمى عند أقدامها وأخذ يقول:

– آه! أهكذا أراك قبل أن أموت! أواهم أنا؟ ثم ثاب إليه رشده في الحال وقال: ولكن معذرة يا سيدتي، فلست في نظرك إلا قاتلاً أثيماً.

– سيدي، جئت أرجوك أن تستأنف الحكم بعد أن عرفت أنك لا تريد ذلك. وكانت دموعها تكاد تخنقها فلم تستطع أن تتكلم.

– تفضلي بالصفح عني. فنهضت من مكانها وارتمت بين ذراعيه وقالت:

– إن أردت الصفح فاستأنف حكم الإعدام في الحال.

فأخذ «جوليان» يمطرها بالقبلات.

– هل ستأتين لرؤيتي كل يوم خلال هذين الشهرين؟

– أقسم لك على ذلك، كل يوم، إلا إذا حرّم ذلك عليَّ زوجي.

– أوقّع! ماذا تقولين؟ أتغفرين لي ذنبي؟ هل هذا ممكن؟!

ثم احتضنها في جنون، فصاحت صيحة خافتة ثم قالت:

– لا شيء، إلا أنك آلمتني قليلاً.

فبكى وقال:

– في كتفك. ثم ابتعد عنها قليلاً وأخذ يقبل يدها في حرارة شديدة. من الذي كان يظن أني سأفعل ما فعلت يوم أن رأيتك آخر مرة في غرفة نومك في ڤرييير؟

– ومن ذا الذي كان يعتقد أنني سأكتب هذا الخطاب الدنيء إلى «المركيز دى لامول»؟

- اعلمي أنني أحببتك دائماً، ولم أحبَّ سواك.

- أحقاً ما تقول؟!

كانت سعيدة بما سمعت، واستندت إلى «چوليان» وهو جاث عند ركبتيها. وأخذا يبكيان في صمت وقتاً طويلاً.

لم يشهد «چوليان» في حياته كلها لحظة كهذه اللحظة. وبعد وقت طويل، وبعد أن استطاعت أن تتكلم قالت له:

- ولكن ما شأن هذه السيدة الشابة مدام ميشليه أو على الأصح «الآنسة دى لامول»؟ لأني بدأت في الواقع أصدق هذه القصة.

- هي ليست صحيحة إلا في الظاهر. إنها زوجتي وليست خليلتي.

كان كل منهما كثيراً ما يقاطع الآخر، فلم يستطيعا أن يقص كلٌّ على صاحبه ما يجهله الآخر إلا في عسر ومشقة. فالخطاب الذي أرسل إلى «المركيز دى لامول»، كتبه القس الشاب الذي تعترف أمامه «مدام دى رينال»، ونسخته هي بخطها. وقالت له:

- لقد حملني الدين على أن أرتكب عملاً حقيراً! على أني خففت كثيراً من لهجة بعض فقرات الخطاب التي كانت شائنة إلى أقصى حد.

كانت السعادة التي تغمره وفرحه الشديد بلقائها يدلانها على أنه قد غفر لها زلتها غفراناً جميلاً، لأنه لم يكن في يوم من الأيام متطرفاً في حبه إلى هذا الحد. ثم قالت له «مدام دى رينال» أثناء الحديث.

- أنا أعتقد مع ذلك أنني تقية، إني أومن بالله إيماناً شديداً؛ وأومن كذلك بأن الجريمة التي ارتكبتها شنيعة، وقد اتضح لي ذلك. إنني حين أراك حتى بعد أن أطلقت عليَّ رصاصتين ... (فانهال عليها يقبلها على الرغم منها).

- دعني، لأني أريد أن أتحدث معك حتى لا أنسى ما أريد أن أقول. إنني حين أراك، تختفي جميع الواجبات، وتصبح كل ناحية في نفسي وكل جارحة في جسمي تشعر بالحب العنيف لك، إن كلمة الحب واهية جداً لا تؤدي ما أرمي إليه. أشعر نحوك بما ينبغي لي أن أشعر به نحو الله فحسب: إذ يملك نفسي خليط من الاحترام والحب والطاعة. أنا في الواقع لا أدرى ما توحي به إليَّ. فلو أنك أمرتني أن أطعن السجان بسكين، لارتكبت هذه الجريمة قبل أن أفكر فيها. فبيِّن لي سبب ذلك في وضوح قبل أن أتركك، أريد أن أتبين تماماً ما يدور في قلبي، إننا سنفترق بعد شهرين ... ثم ابتسمت وقالت: وبهذه المناسبة هل سنفترق؟ فنهض وصاح قائلاً:

- إني أسحب ما وعدتك به، لن أستأنف حكم الإعدام، إذا كنت ستعمدين إلى السم أو إلى سكين أو مسدس أو فحم أو أية مادة أخرى لتقضي على حياتك أو لتسيئي إلى نفسك.

فتغيرت ملامحها في الحال؛ وارتسم على وجهها أشد حالات الحنان بعد أن كان مرتسماً عليه أعمق الأحلام، ثم قالت له:

- ماذا تقول لو متنا الآن معاً؟

- من يعلم ما سنجده في الحياة الأخرى؟ ربما وجدنا العذاب، وربما لا نجد أي شيء. ألا نستطيع أن نقضي معاً شهرين لذيذين؟ شهران، إنهما لأيام كثيرة. إنني لم أشعر بمثل هذه السعادة!

- لم تشعر بمثل هذه السعادة!

- أبداً، وإني أتحدث إليك كما أتحدث إلى نفسي. وقاني الله المبالغة.

فابتسمت ابتسامة خجلة حزينة ثم قالت:

- لك أن تأمرني، لا أن تتحدث إليّ بهذه الطريقة.

- حسناً! أقسمي لي بما تكنه نفسك لي من حب بأنك لن تعتدي على حياتك بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. واستطرد يقول:

- إعلمي أنه ينبغي لك أن تعيشي من أجل ولدي، لأن «ماتيلد» ستتركه في رعاية الخدم حينما تصبح المركيزة دى كروازنوا. فقالت في فتور:

- أقسم لك على ذلك، ولكني أريد أن آخذ طلب الاستئناف مكتوباً بخطك وموقعاً عليه منك. وسأذهب بنفسي إلى النائب العام.

- حذار أن تفعلي هذا، وإلا ثارت حولك الشبهات. فقالت له في حزن ظاهر:

- إنني بعد أن أتيت إليك في السجن، أصبحت في نظر أهل بيزانسون وسكان مقاطعة فرانش كونتي بطلة من أبطال القصص. لقد تخطيت حدود هذا الحياء الشديد، أصبحت امرأة تجردت من الشرف؛ الواقع أنني من أجلك ... .

وكانت لهجتها تنطوي على حزن شديد، فأخذ يقبلها في سعادة كبيرة لم يعرف مثلها من قبل، ولم يكن مصدرها نشوة الحب، ولكنه الاعتراف الكبير بالجميل. ورأى لأول مرة مقدار التضحية التي أقدمت عليها من أجله. ويظهر أن بعض النفوس الخيرة أخبرت «السيد دى رينال» أن زوجته تزور «چوليان» في سجنه وتقضي معه وقتاً طويلاً، لأنه أرسل عربته إليها بعد ثلاثة أيام وطلب إليها أن تعود في الحال إلى ڤريير.

كان هذا الفراق القاسي نذير سوء، بدأ «چوليان» به يومه. فقد قيل له بعد ذلك بساعتين أو ثلاث ساعات: إن قسيساً في الشارع قائم بباب السجن منذ الصباح. إنه لقس دسّاس ومع ذلك فلم يتمكن من أن يشق طريقه بين يسوعيّي بيزانسون. كان المطر شديداً والرجل في مكانه لا يبرحه ويزعم أنه شهيد.

كان «چوليان» متضايقاً، ولكن هذه الحماقة أثرت فيه تأثيراً شديداً. كان قد رفض

في الصباح أن يستقبل هذا القس، ولكن الرجل أصرّ على أن يعترف «چوليان» أمامه؛ ليذيع اسمه بين نساء بيزانسون بالاعترافات التي سيزعم أن «چوليان» أفضى بها إليه.

صرّح القسيس في صوت عال بأنه سيقضي اليوم كله والليل أمام باب السجن، قائلاً: لقد أرسلني الله لأدخل الإيمان في قلب هذا الكافر، فاجتمع الناس حوله على نحو ما يفعل العامة حين يرون منظراً غريباً، فقال لهم:

– نعم يا إخواني، سأقضي هنا يومي وليلتي والأيام والليالى المقبلة. لقد تحدث إليّ الروح القدس، فلديّ رسالة من السماء؛ إنني أنا الذي كلفت بأن أخلص روح «سورل» الشاب. رددوا معي صلواتي ....

كان «چوليان» يكره الفضيحة كراهية شديدة، ولا يحب ما يلفت إليه الأنظار. وفكر في أن ينتهز هذه الفرصة ليخرج من العالم مجهولاً؛ ولكنه كان يأمل في أن يرى «مدام دى رينال»، التي ولّهه حبها.

كان باب السجن في شارع مزدحم، وكانت فكرة هذا القس القذر التي جمعت الناس حوله وأثارت فضيحة تؤلم «چوليان» أشد الألم، فأخذ يقول: لا شك أن اسمي يردد على لسانه في كل لحظة من اللحظات! وكان ذلك أشق على نفسه من الموت.

واستدعى سجاناً كان يخلص له مرتين أو ثلاث مرات كل ساعة وطلب منه أن يذهب ليرى ما إذا كان القس لا يزال بالباب. فكان يقول له في كل مرة:

– إنه يا سيدى راكع في الوحل، يصلي بصوت عال ويتلو أوراداً على روحك. فأخذ «چوليان» يقول: يا له من وقح! وكان قد سمع في تلك اللحظة ضجيج أصوات الناس وهم يرددون الأوراد. وزاد غيظه حين رأى السجان يحرك شفتيه مردداً الكلمات اللاتينية. ثم قال له:

– لقد بدأ الناس يقولون بأنك قاسي القلب، إذ ترفض لقاء هذا الرجل الورع وتعرض عن مساعدته الروحية لك. فصاح في غضب شديد:

– واحسرتاه عليك يا وطني! إنك لا تزال تتردى في مهاوي الجهل! ثم أخذ يتحدث بما يجول في نفسه ولا يقيم وزناً لحضور السجان. هذا الرجل يريد أن يكتب عنه في الصحف مقال، وهو واثق من أنه سيحصل على ما ينبغي. آه! يا لكم من ريفيين حقراء! لو أنني كنت في پاريس ما لقيت هذا الغيظ؛ فالناس هناك أكثر علماً بالشعوذة. ثم قال للسجان:

– أحضر هذا القس القديس. وكان العرق يتصبب من جبهته غزيراً فرسم السجان علامة الصليب وخرج فرحاً مسروراً.

كان القسيس قبيحاً إلى أبعد الحدود، وعلى جانب كبير من القذارة، وزاد المطر البارد، الذي كان يتساقط، السجن رطوبة وظلاماً. أراد القس أن يقبّل «چوليان» وأخذ

يتحدث إليه حديثاً رقيقاً. فغضب «چوليان» كثيراً لأن النفاق كان بادياً في حديث القس واضحاً جلياً.

وبعد أن ظلّ القس معه ربع ساعة، أحس «چوليان» جبناً شديداً. وبدا له الموت للمرة الأولى كريهاً ممقوتاً. وأخذ يذكر تعفن جسمه بعد يومين من إعدامه. وكاد أمره يفتضح بما يبديه من ضعف وخور، أو يهجم على القس فيخنقه بسلسلته، إلا أن فكرة طرأت عليه فأعطى القس أربعين فرنكا ورجاه أن يصلي من أجله في نفس اليوم.

وأوشك النهار أن ينتصف حين انصرف من عنده القس.

الفصل الرابع والأربعون

خرج القس، فأخذ «چوليان» يبكي بكاء شديداً؛ كان يبكي فزعاً من الموت. وأخذ يقول في نفسه، بعد أن حملها على ذلك: لو أن «مدام دى رينال» لا تزال في بيزانسون لأفضيت بضعفي إليها.

وبينما كان يأسف لغياب هذه السيدة المحبوبة، سمع وقع خطوات «ماتيلد». فقال في نفسه: إن شرّ ما في السجن، إنني لا أستطيع أن أغلق عليّ بابي. وكان يقابل بالغضب كل ما تقوله له «ماتيلد».

قصت عليه أن السيد ڤالنو كان يعلم يوم المحاكمة أنه عيِّن حاكماً، فجرؤ على السخرية من السيد دى فريلير، وترك نفسه تنعم بالحكم عليه بالإعدام. ثم أخبرته بما قاله لها دى فريلير: «أية فكرة كانت تدور في ذهن صديقك حين أيقظ غرور الطبقة الأرستقراطية من البرچوازيين ثم هاجمها بعد ذلك! لم أخذ يتحدث عن الطبقات؟ لقد بين لهم ما ينبغي أن يعملوه طبقاً لمصالحهم السياسية: كان أولئك الحمقى لا يفكرون فيما قاله، وقد كادوا يبكون. غير أن صالح الطبقات قد غطىّ على أعينهم فلم يتبينوا ما ينطوي عليه الحكم بالإعدام من ضعة وقسوة. يجب أن نعترف بأن «السيد سورل» ليس فطناً بالأمور. إننا إذا لم نستطع أن نصل إلى الحصول على عفو عنه، فسيكون موته نوعاً من الانتحار ...».

ولم تشأ أن تخبر «چوليان» بما لم تكن تشك فيه وهو أن الكاهن فريلير وجد من الخير له أن يخلف «چوليان» بعد أن أيقن بهلاكه، وذلك إرضاء لطموحه.

كان «چوليان» قد فقد كل سيطرة على نفسه من شدة الغضب والمعارضة التي يلقاها فقال لـ«ماتيلد»: إذهبي واستمعي إلى القداس الذي سيقام من أجلي، واتركيني لحظة أنعم بالهدوء. وكانت «ماتيلد» شديدة الغيرة من زيارات «مدام دى رينال» له، وقد علمت أنها غادرت بيزانسون، فأدركت السرّ في غضبه، وأخذت تبكي.

كان ألمها حقيقياً، لكن لم يزد «چوليان» إلا غضباً على غضب. كان في حاجة ملحة إلى العزلة، وكيف له أن ينالها؟ وبعد أن حاولت «ماتيلد» بكل الوسائل أن تستدر عطفه

فلم تفلح، تركته وحده، إلا أن فوكيه جاء إليه نفس اللحظة التي كانت تهم فيها بالانصراف ورأى «چوليان» هذا الصديق المخلص فقال له:

- أنا في حاجة لأن أبقى وحدي. وحينما رأى فوكيه متردداً قال: إنني أكتب مذكرة في التماس العفو ... وفضلا عن هذا ... أرجو أن تترفق بي فلا تتحدث إليّ عن الموت. وإذا كنت أنا في حاجة إلى خدمة خاصة فدعني أبدأ أنا بالحديث.

ولما نال «چوليان» العزلة التي ينشدها، شعر بوطأة الاضطراب والخور أكثر من قبل، وذلك لأن البقية الباقية له من قواه كان قد استخدمها في أن يخفي عن «ماتيلد» وفوكيه حقيقة ما يشعر به.

وجنّ الليل، فطرأت عليه فكرة خففت عنه كثيراً: لو أنهم استدعوني لينفذوا الحكم فيّ هذا الصباح حين كان يبدو لي الموت قبيحاً كريهاً لحملتني عيون الجماهير إلى المجد والفخار، ولربما كان في مسلكي شيء من التصنع كمثل المختال الخجول الذي يدخل أحد الصالونات. وقد ينتبه بعض الريفيين من بعيدي النظر، إذا صحّ أن بين الريفيين أذكياء، إلى ما أشعر به من ضعف. ولكن لن يرى أحد ضعفي. وأحسّ أن بعض همه يخفّ عن كاهله، فجعل يغني ويقول: ما أنا إلا جبان في هذه اللحظة، ولكن لن يعلم بذلك أحد.

وكان حادث آخر أشد مرارة ينتظره في اليوم التالي، وذلك أن والده كان عازماً على زيارته منذ زمن طويل. وقبل استيقاظ «چوليان» من نومه، كان النجار الشيخ في سجن ولده.

وشعر «چوليان» بضعف شديد، لأنه كان يتوقع من والده أشد اللوم. وقد زاد في همه أنه أحس ندماً شديداً على أنه لم يحبب أباه. وأخذ يقول في نفسه والسجان يرتب بعض حاجات السجن: لقد ساقتنا المصادفة إلى أن يعيش كل منا على مقربة من الآخر، وقد آذى كل منا صاحبه. إنه يجئ إليّ ساعة موتي ليوجه إليّ الضربة الأخيرة.

وبدأ الشيخ يؤنب ابنه تأنيباً شديداً حين خرج السجان، ولم يستطع «چوليان» أن يكفكف من دموعه، فقال يحدث نفسه في غضب: يا له من ضعف مخجل إنه سيذهب إلى كل مكان ويبالغ في خوري وضعفي؟ فياله من نصر عظيم لأمثال ڤالنو وكل أولئك المنافقين الذين يحكمون ڤريير! إن لهم مكانتهم في فرنسا، فهم يتمتعون بكل المزايا الاجتماعية. لقد كنت أقول حتى الآن: إنهم يصيبون مالاً كثيراً، ومما لا شك فيه أنهم ينعمون بكثير من التبجيل، أما أنا فإني أتمتع بشرف النفس. وقد أتيح لي الآن شاهد لن ينكر أحد شهادته، ليذيع في ڤريير مبالغاً فيما يذيع، أنني كنت خائر القوى إزاء الموت! سأكون في نظرهم جباناً فيما أقدمت عليه!

كان «چوليان» على وشك القنوط، ولم يهتد إلى طريقة يصرف بها أباه كما أنه لم يوفق إلى طريقة يخدع بها هذا الشيخ الذكي الذي لا تخفى عليه خافية، لأن قواه كانت لا تواتيه. غير أن ذكاءه استعرض كل طريقة ممكنة، ثم صاح قائلاً على حين غرة:

- لقد اقتصدت بعض المال.

فلما نطق بهذه العبارة التي تدل على العبقرية، تغير وجه الشيخ وتبدل مركز «چوليان» الذي أخذ يقول في هدوء، لأن الأثر الذي تركته عبارته قد قضى على ما كان يشعر به من مركب النقص:

- ماذا أفعل بهذا المال؟

كان النجار العجوز يرغب في أن يستولى على كل هذا المال رغبة شديدة، وقد خُيِّل إليه أن ابنه سيعطى جزءاً منه لأخويه، وأخذ الشيخ يتحدث في قوة وحرارة، و«چوليان» يصغى إليه ساخراً، ثم قال:

- حسناً! لقد ألهمني الله وأنا أكتب وصيتي، وسأعطي كل أخ من اخوتي ألف فرنك ولك الباقي.

- حسناً! ولكنك مدين لي بهذا الباقي ؛ وبما أن الله قد بعث الطيبة في قلبك، فأردت أن تموت مسيحياً مخلصاً، فيجب إذن أن تدفع ما عليك من ديون. أنت مدين لي بما أنفقته عليك من طعام وتعليم ولكنك لا تفكر في هذا.

وانصرف الشيخ فأخذ «چوليان» يقول في غضب شديد: هذا إذن هو حب الأب لابنه! ثم أتى إليه السجان وقال له:

- لقد اعتدت يا سيدي أن أحمل لضيوفي بعد زيارة أهليهم زجاجة من نبيذ شمبانيا، وهو نبيذ طيب وإن كان غالي الثمن، فالزجاجة بستة فرنكات ولكنها تنعش القلب. فأجاب «چوليان» في عجلة شديدة جديرة بالأطفال:

- أحضر ثلاث كؤوس، وأدخل اثنين من المساجين الذين أسمع وقع خطاهم وهم يتنزهون في الممر.

فأحضر له السجان اثنين من المجرمين العائدين يستعدان لأن يرجعا إلى المنفى. إنهما وغدان على جانب كبير من المرح، ودقة الفهم والشجاعة والهدوء. قال أحدهما لـ«چوليان»:

- إن أعطيتني عشرين فرنكا، قصصت عليك حياتي بالتفصيل، وهي قصة ممتعة.

- ولكن هل تكذب عليّ؟

- لا، إن صديقي هذا لتتحرق نفسه غيرة من العشرين فرنكاً، فلو أني عمدت إلى الكذب في قصتي لأخبرك بذلك.

إن قصة هذا اللص كريهة، تدل على قلب شجاع خلا من المشاعر كلها، ما عدا حبه للمال.

وبعد انصراف المسجونين، تبدل حال «چوليان»، وذهب عنه غضبه وحنقه على نفسه.

كان الألم الشديد الذي يلقاه ممزوجاً بخور كبير، منذ رحيل «مدام دى رينال»، قد تبدل حزناً.

وأخذ يحدث نفسه: لو لم تخدعني المظاهر، لوجدت صالونات پاريس قد غصت برجال أمناء كوالدي، أو بلصوص ماهرين كهذين المسجونين. إنهم لعلى حق، فرجال الصالونات حين ينهضون في الصباح من نومهم لا تشغل أذهانهم هذه الفكرة اللاذعة: أين أتناول اليوم غدائي؟ ومع ذلك فهم يدّعون الأمانة! وحينما يختارون محلفين، يحكمون في نزاهة على رجل كاد يقتله الجوع؛ فسرق بعض أوان من الفضة. ولكن إذا وجد بلاط يحرص على أن ينصب وزيراً أو يسقط آخر، فإن رجال الصالونات الأمناء، يرتكبون جرائم مماثلة تماماً للجرائم التي يرتكبها هذان المسجونان، مدفوعين بشدة الفاقة ..

لم يعد في العالم حق طبيعي، لقد أصبحت هذه الكلمة تدل على غفلة قديمة، لا يعتد بها إلا النائب العام الذي كان يطاردني منذ أيام والذي أثرى أحد أجداده من مصادرة، أمر بها لويس الرابع عشر.

ليس هناك حق إلا إذا وجد قانون يحرم مثل هذه الأشياء، ويفرض عقوبة على مرتكبها. إذا لم يسن قانون، فلن يكون هناك حق طبيعي إلا قوة الأسد، أو حاجة الرجل الجائع الذي يطارده البرد القارس، الحاجة على كل حال ... لا، إن كثيرين من الناس الذين تمجدونهم ليسوا إلا لصوصاً، سعدوا بعدم القبض عليهم، وهم متلبسون بالجريمة. والشخص الذي وكلت إليه الجماعة أمر اتهامي قد أثرى بطريقة غير شريفة. لقد ارتكبت جريمة قتل، فحكم عليّ بالعدل، ولكن ڤالنو الذي حكم عليّ قد أساء إلى المجتمع، أكثر مما أسأت إليه. ثم استطرد في حديثه حزيناً لا غاضباً، فقال:

- حسنا! والدي على الرغم من بخله خير من أولئك الناس جميعاً. إنه لم يحبني قط، وقد زدت الطين بلّة بموتي الذي لا شرف فيه، والذي سيجر عليه العار. وخوفه من فقد المال، وتلك النظرة التي بالغت فيها قسوة الرجال، والتي يسمونها بخلاً، قد دفعاه إلى انتحال باعث قوي لمصالحتي، ووجد في المبلغ الذي أتركه له وهو ثلثمائة أو أربعمائة لويس، أماناً وضماناً من الفقر. إنه سيطلع كل حساده في ڤريير على الذهب الذي يملكه، في يوم من أيام الآحاد بعد العشاء، وستنطق نظراته بهذه العبارة: من منكم لا يود إذن أن يكون له ابن يموت مشنوقاً؟

قد تكون هذه الفلسفة صحيحة، ولكنّ عليها طابعاً يدفع الإنسان إلى أن يتمنى الموت. انقضت خمسة أيام طويلة على هذا الحال. فكان مؤدبا ظريفاً مع «ماتيلد»، التي كانت الغيرة الشديدة تأكل قلبها. وفكر «چوليان» جدياً في أن يقتل نفسه في إحدى الأمسيات ؛ إذ كانت نفسه تنطوي على الأسى الشديد لرحيل «مدام دى رينال». ولم يعد معجباً بشيء لا في حياته المادية ولا في حياته العقلية. كان طول إقامته في السجن يحال بينه وبين الرياضة؛ فضعفت صحته، وأصبح خلقه متحمساً ضعيفاً كأنه خلق طالب ألماني.

وفقد الرجولة المتعالية، التي تدفع عنه بيمين قوية بعض الآراء العقيمة، التي تصدر عن النفوس الوضيعة.

لقد أحببت الحقيقة. فأين هي الحقيقة؟ إن الإنسان ليجد النفاق في كل مكان، أو على الأقل يلقى الشعوذة، حتى عند أولئك الذين يتصفون بالفضائل، وحتى عند عظماء الرجال. وبانت على شفتيه علامة الامتعاض والاحتقار. لا، إن الرجل لا يستطيع أن يثق بالرجل.

كانت مدام ... تجمع الصدقات لليتامى الفقراء، فقالت لي: إن الأمير فلاناً أعطاها عشرة لويسات، هذا كذب. ولكن ماذا أقول؟ إن نابليون في سانت هيلانة! إنها شعوذة حقيقة، وإعلان في صالح ملك إيطاليا.

يا إلهي! إذا كان مثل هذا الرجل يسفّ فيعمد إلى الشعوذة، فماذا ينتظر من باقي البشر؟ إن الشقاء يناديه في قسوة أن يؤدي واجبه. أين الحقيقة؟ في الدين. ثم ابتسم ابتسامة مرة، تنطوي على الاحتقار الشديد وقال: نعم، في أفواه أمثال مالون وفريلير وكاستاند، ربما وجدت في المسيحية الحقيقية؛ حيث لا يتناول القسس من المال إلا بمقدار ما كان يأخذه الحواريون؟! ولكن القديس بولص كان أجره اللذة في الحكم، وفي الحديث وفي التحدث عنه. آه! ليت لنا ديناً قوياً. يالي من أحمق! أرى كنيسة قوطية وزجاجاً جميلاً، فيندفع قلبي الضعيف يذكر قسيس هذه الكنيسة، ونفسي تدرك ذلك؛ لأنها في حاجة إليه، ولكني لا أجد إلا رجلاً بليداً ذا شعر قذر، أو رجلاً معنياً بزينته، مثل الفارس دى بواڤوازيه.

ولكن أين القس الحقيقي؟ أين ماسيون وأين فنلون؟ إن مذكرات سان سيمون قد أفسدت، على ما أرى، فنلون، وإن كان قسّاً حقيقياً، وعلى هذا فستجد النفوس الكريمة، تتجمع كلها حول نقطة واحدة في هذا العالم، إننا لن نعيش فى عزلة وهذا القس الصالح سيتحدث إلينا عن الإله. ولكن أى إله؟ ليس إله الأنجيل، ذلك الطاغية الصغير القاسي، المتعطش إلى الانتقام والذي لا يغفر ولا يصفح، نريد إله ڤولتير، نريد الإله العادل، الطيب الذي وسعت رحمته كل شيء.

وهزته نصوص الإنجيل الذي يحفظه عن ظهر قلب، وأخذ يسائل نفسه: ولكن كيف يتأتى لنا إذا كنا ثلاثة معاً، الإيمان بهذا الاسم الكبير: الله بعد أن أساء إليه القسس إساءة كبرى؟ وبعد أن جعلوا الحياة في عزلة! يا له من شقاء!

ثم ضرب بيده على جبهته وقال: لقد أصبحت مجنوناً غير عادل، إني أعيش في هذا السجن بمنأى عن الناس، ولكني لم أعش على الأرض معتزلاً الناس، وكنت أومن بواجبي إيماناً كبيراً. لقد كان الواجب الذي كتب عليّ أداؤه، إن صواباً وإن خطأً، كجذع الشجرة، استند إليه في وقت العاصفة. كنت أتأرجح وأضطرب؛ لأني لم أكن إلاّ رجلاً، ومع ذلك فلم تقتلعني العاصفة.

إن الهواء الرطب الذي أحسه في هذا السجن، هو الذي يدفعني إلى التفكير في العزلة. ولم أظل منافقاً وأنا ألعن النفاق؟ ليس الموت ولا السجن ولا الهواء الرطب، هي التي تحزنني، وإنما يحزنني غياب «مدام دی رينال» عني. لو أنني اضطررت إلى العيش أسابيع طويلة، مختفياً في قبو منزلها بڤريير، بغية أن أراها، أتراني كنت أضجر من ذلك؟

ثم ابتسم ابتسامة مرة، وقال بصوت مرتفع: إن أثر معاصريّ فيَّ لقوي إلى أبعد حد. إني لأتحدث إلى نفسي، وأنا قاب قوسين أو أدنى من الموت، ومع ذلك فمازلت منافقاً، فيا للقرن التاسع عشر! يطلق الصياد رصاصة في غابة فيقتل فريسته، ثم يجري ليأخذها، ويرتطم حذاؤه بمسكن النمل الذي لا يزيد ارتفاعه على قدمين، فيحطمه ويلقي بالنمل بعيداً ويقضي على بيضه. إن أكثر النمل فلسفة، لا يستطيع أن يدرك هذا الجسم الأسود، الضخم، المخيف، ألا وهو حذاء الصياد الذي وطئ مسكنه في سرعة خاطفة، وسبق ذلك ضوضاء شديدة، صحبها وميض من نار حمراء.

هكذا الموت والحياة والخلود، هي أشياء بسيطة عند أولئك الذين تتسع حواسهم لإدراكها. قد تولد ذبابة في الساعة التاسعة من صباح يوم من أيام الصيف، لتموت في الساعة الخامسة مساء، فكيف تفهم كلمة ليل؟ إنها ابنة يومها، لو أنها عاشت خمس ساعات أخرى، لرأت وأدركت الليل.

وأنا كذلك، سأموت في الثالثة والعشرين من عمري، فامنحني خمس سنوات أخرى لأعيشها مع «مدام دى رينال». ثم أخذ يضحك ضحكة شيطانية ويقول: ما أشد حماقتي إذ أناقش مثل هذه المسائل العويصة! إنني منافق في حديثي مع نفسي، كما لو كان هناك من يسمعني. إنني أنسى الحياة والحب، مع أنه لم يبق لي إلا أيام معدودة أعيشها! وا أسفاه! «مدام دى رينال» غائبة، وربما لا يتركها زوجها تعود إلى بيزانسون، وتهدر عرضهاوشرفها.

هذا هو السبب الحقيقي في حنقي وغيظي، وليس هو عدم وجود إله عادل طيب قوي، ليس متكبراً ولا جباراً، ولا متعطشاً إلى الانتقام، آه! لو وجد هذا الإله! وا أسفاه! لكنت أخرّ له ساجداً. ولقلت له: لقد حقّ عليّ الموت، ولكن أيها الإله العظيم، أيها الإله الطيب، أيها الغفور الرحيم، ردّ إليّ تلك التي أحبها!

كان الليل قد تقدم، وبعد أن نام «چوليان» نوماً هادئاً مدة ساعة أو ساعتين، أتى إليه فوكيه. أحس «چوليان» في نفسه القوة والعزم، كرجل يعرف تماماً ما يدور بنفسه.

الفصل الخامس والأربعون

قال «چوليان» لفوكيه: أنا لا أود أن أمثل هذا الدور الخبيث، مع الكاهن شاس برنارد، فلا أحب أن أستدعيه؛ لأنه لن يأكل ثلاثة أيام إن أتى إليّ، ولكن اجتهد في أن تعثر على قس من أنصار ينسينيوس يكون صديقاً لكاهن پيرار، ولا يقبل الاشتراك في دسيسة.

كان فوكيه ينتظر هذه البداية بفارغ الصبر. وأتم «چوليان» واجباته أمام الرأي العام في الريف، في وقار شديد. فبفضل الكاهن دى فريلير، وعلى الرغم من سوء اختياره للقس الذي اعترف أمامه، كانت رعاية المجتمع تحوطه في سجنه، حتى لو أنه وهب بعض الذكاء في مسلكه لاستطاع أن يفرّ. ولكن رداءة جو السجن، أحدثت أثرها في نفسه، فقلّ إدراكه. وكم سرّ بعودة «مدام دى رينال» إليه. قبلته وقالت له:

- أول واجب عليّ نحوك هو أني هربت من ڤريير.

ولم يعد «چوليان» يظهر أمامها بالعزة، فقص عليها كل ما انتابه من ضعف، فكانت معه طيبة رقيقة.

ولم تكد تغادر السجن في المساء، حتى أرسلت في طلب هذا القس الذي كان يمسك بتلابيب «چوليان» كأنه فريسة اقتنصها، ليتذرع بالتشبث به إلى كسب قلوب سيدات الطبقة الراقية في بيزانسون، أرسلت تستدعيه عند عمتها، وكلفته الذهاب إلى دير «براى لاهو» لعمل تساعيّة، فقبل ذلك عن طيب خاطر.

لقد كان «چوليان» يحب «مدام دى رينال» حباً عنيفاً، لا نستطيع وصفه.

وقد تمكنت هذه السيدة من الحصول على إذن؛ لكي تراه في اليوم مرتين، وذلك بفضل الذهب الذي أنفقته، وبفضل عمتها تلك السيدة الثرية المعروفة في أوساط بيزانسون.

وقد اضطرمت الغيرة في قلب «ماتيلد» اضطراماً شديداً أفقدها صوابها. واعترف لها الكاهن دى فريلير بأنه يجمل بها -حفظاً لمكانتها- ألا ترى صديقها إلا مرة واحدة في

اليوم. وكانت «ماتيلد» قد بثت حول «مدام دى رينال» العيون؛ لتعرف كل ما تعمله. وبذل الكاهن دى فريلير كل ما تنطوي عليه نفسه من مرونة وذكاء، ليبرهن لـ«ماتيلد» على أن «چوليان» ليس جديراً بها. وعلى الرغم من هذه المتاعب جميعاً كانت «ماتيلد» تزداد له حباً، وتتشاجر معه كل يوم مشاجرة عنيفة.

أما هو فقد حاول جهده أن يظل أميناً حتى النهاية، مع هذه الفتاة التي لوثت سمعتها وأضاعت شرفها، ولكن الحب الجامح الذي يضمره لـ«مدام دى رينال» كان يغلبه على أمره. ولما أخفق في إقناع «ماتيلد» ببراءة زيارات «مدام دى رينال»، قال في نفسه: ستنتهي عما قريب هذه المأساة؛ وهذا عذر أنتحله؛ مادمت لا أحسن المداراة.

علمت «الآنسة دى لامول» بموت المركيز دي كروازنوا. ذلك أن السيد دى تالير، ذلك الرجل ذو الثراء العريض، سمح لنفسه بأن يذكر أشياء شائنة عن اختفاء «ماتيلد»؛ فذهب إليه المركيز دى كروازنوا، ورجاه في أن يكذب ما قال، فأطلعه دى تالير على خطابات مجهولة، أرسلت إليه، وقد ورد فيها كثير من التفصيلات التي تقرب مما قاله، وقد سردت في لباقة شديدة، فكان من العسير على المركيز البائس ألا يصدقها.

وسمح دى تالير لنفسه بأن يسخر ويعبث في غير لباقة، فاستولى الغضب الشديد، والألم المر على دى كروازنوا، وطلب من دى تالير تعويضات جسيمة على هذه الإهانات، فرفض المليونير وفضل المبارزة. وانتصرت الحماقة، ومات شاب من أفضل رجال پاريس، ومن أحبهم إلى القلوب، ولما يبلغ الرابعة والعشرين من عمره.

أثر هذا الموت في نفس «چوليان» التي ضعفت، تأثيراً غريباً مرضيًا، وأخذ يتحدث إلى «ماتيلد» قائلاً:

– كان المسكين كروازنوا عاقلاً جداً، وأميناً إلى حد بعيد بالنسبة إلينا، كان يكرهني ويحاول أن يتشاجر معي، حين كنت ترتكبين حماقاتك في صالون السيدة والدتك، لأن الكراهية التي تلي الاحتقار، تكون شديدة في العادة.

غيّر موت دى كروازنوا كل آراء «چوليان» في مستقبل «ماتيلد»، وظلّ عدة أيام يدلل على ضرورة قبول السيد دى لوز زوجاً لها. وقال لها:

– إنه رجل خجول، ليس كثير النفاق، ولاريب أنه سيكون مطيعاً لك. إن طموحه معقد، وأكثر تطلعاً من طموح المسكين كروازنوا. ليس في أسرته دوقية، ولذلك لن يقيم أية عقبة في أن يتزوج أرملة «چوليان سورل». فقالت له «ماتيلد» في فتور:

– وأرملة تحتقر العواطف العنيفة الجامحة؛ لأنها عاشت طويلاً ورأت حبيبها يفضل عليها بعد ستة شهور امرأة أخرى، امرأة كانت هي أصل كل بلاء!

– إنك ظالمة، فزيارات «مدام دى رينال»، ستمد محامينا في پاريس بأقوال غريبة، حين يطلب العفو عني. فهو سيصور القاتل في صورة يلقى فيها من ضحيته عناية

شديدة. قد يكون لهذا أثره، وربما رأيتني يوماً من الأيام موضوع رواية محزنة ذات ألحان.

ملكت «ماتيلد» غيرة عمياء، ولكنها لم تكن تستطيع الانتقام من غريمتها، وهدّ قواها الشقاء الدائم، الذى لا أمل في أن تخرج منه، ثم الخزي والألم من أن تحب هذا الخائن أكثر من أى وقت آخر. وحملها كل ذلك على صمت رهيب لم تستطع عناية فريلير الشديدة، ولا صراحة فوكيه الجافة أن تخرجاها منه. ولو فرضنا جدلاً ونجا «چوليان»، فكيف تستطيع التسلط على قلبه من جديد؟

كان «چوليان» يحيا حياة خالصة للحب، ولا يكاد يفكر في المستقبل، إلا في اللحظات التي كانت تغتصبها منه «ماتيلد». والعجيب في هذا الحب أنه كان حين يبلغ أقصاه ولا يُرى أثر التكلف فيه، كانت «مدام دى رينال» تبادل حبيبها عدم المبالاة والسرور الرقيق. قال لها «چوليان»:

– حينما كانت السعادة قريبة مني، ونحن نتنزه معاً في غابات ڤرجى، كان طموح شديد يحمل نفسي على التحليق في أماكن خيالية. فبدلا من أن أضم ذراعك الجميلة إلى قلبي، وقد كانت على مقربة من شفتيّ، كنت أرى المستقبل يحول بيني وبينك؛ لقد كان عليّ أن أخوض معارك شديدة لأحرص على هذه المكانة الكبيرة. لا، لقد كنت على وشك أن أموت، دون أن أعرف هذه السعادة لو لم تجيئي إليّ في هذا السجن.

وقعت حادثتان عكرتا صفو هذه الحياة الهادئة. فالقس الذي اختاره «چوليان» ليعترف أمامه، من أنصار ينسينيوس، لكنه لم ينج من مؤامرة يسوعية، فأصبح على الرغم منه أداة في أيديهم.

وجاء ذات يوم يقول لـ«چوليان»: إنه إذا لم يرتكب هذا الإثم الكبير، إثم الانتحار، فعليه أن يعمد إلى كل الوسائل الممكنة لينال العفو. وبما أن لآل الكهنوت تأثيراً كبيراً فى وزارة العدل بپاريس، فهناك طريقة سهلة يسيرة: هي أن ترجع إلى الإيمان الصحيح على ملأ من الناس.

– على ملأ من الناس! آه! إني لأ[illegible] الذي أنك تمثل المهزلة التي يمثلها أي مبشر.

– إن سنك يا بني، وجمال وجهك الذي وهبك الله إياه، والباعث على الجريمة الذي ظل غامضاً، ومساعي «الآنسة دى لامول»، التي تدل على بطولة كبيرة في سبيل العفو عنك، وحتى تلك الصداقة الغريبة التي تبديها لك ضحيتك، كل هذا قد خلع عليك بطولة في أذهان نساء بيزانسون كلهنّ. لقد نسي النساء كل شيء بسببك حتى السياسة.

سيكون لرجوعك إلى الإيمان وقعه في القلوب، وسيترك أثراً عميقاً في النفوس. وفي استطاعتك أن تخدم الدين خدمة صادقة، وإني لا أومن بالباعث التافه، الذي يحمل اليسوعيين على أن يسلكوا الطريق الذي أسلكه معك الآن! وهم حتى في هذه الحالة الخاصة، التي لا يصل إليها طمعهم، يفسدون أيضاً! ومهما يكن من أمر، فإن الدموع

التي ستذرفها العيون بسبب رجوعك إلى الإيمان، ستقضي على الأثر السيء الذي تتركه عشر طبعات من كتب ڤولتير التي تحمل الإلحاد. فقال «چوليان» في فتور:

– وماذا يبقى لي حين أحتقر نفسي! لقد كنت طموحاً، ولا أحب أن ألوم نفسي؛ وقد سلكت الطريق الذي رسمه لي العصر الذي أعيش فيه. وأصبحت الآن أعيش من يوم إلى يوم. ولكنني سأكون شقياً جداً إذا أتيت عملاً يدل على الجبن.

أما الحادثة الثانية التي أثرت في نفس «چوليان»، فقد جاءته من «مدام دى رينال». ولا أدري أية صديقة ما كره، استطاعت أن تقنع هذه النفس الساذجة الحيية: بأن واجبها يقضي عليها أن تذهب إلى سان كلو لتجثو عند أقدام الملك شارل العاشر.

لقد وطدت العزم على أن تضحي بلذتها في البقاء مع «چوليان»، وبعد أن قامت بهذا المجهود الجبار، لم تكن تعنى بعد ذلك بأن تقدم على هذا العمل، ويقول الناس فيها ما يقولون. وكانت من قبل تخشى هذا أكثر من خشيتها الموت. قالت له:

– سأذهب إلى الملك، وسأعترف له صراحة بأنك عشيقي: إن حياة رجل، ورجل مثل «چوليان»، يجب أن توضع فوق كل اعتبار. سأقول: إن الغيرة هي التي دفعتك إلى أن تعتدي عليّ. هناك أمثلة كثيرة لشبان مساكين، أنقذتهم في مثل هذه الحالة شفقة المحلفين أو رحمة الملك.

– لن أراك بعد الآن، سأغلق السجن في وجهك، وفي اليوم التالي سأقتل نفسي يأساً، إذا لم تقسمي لي بأنك لن تقدمي على هذا العمل، الذي يجعلنا مضغة في أفواه الجماهير. هذه الفكرة التي ترمي إلى الذهاب إلى پاريس ليست فكرتك، فاذكري لي اسم تلك التي أوحت بها إليك.

لنكن سعداء في تلك الأيام القليلة التي سأعيشها. لنخف حياتنا، فإن جريمتي واضحة جلية. إن «الآنسة دى لامول» ذات أثر كبير في پاريس، فثقي بأنها تعمل كل ما في طاقة البشر عمله. أما هنا في الريف، فجميع الأثرياء، وذوو المكانة يعملون كلهم ضدي، سيزيد ما تعتزمين الإقدام عليه، سخطهم وكراهيتهم لي، لأنهم أغنياء معتدلون؛ والحياة عندهم سهلة هينة. فلا تعرضينا لسخرية أمثال مالون وڤالون وغيرهما ممن هم خير منهما.

أصبح «چوليان» لا يطيق جو السجن. وفي اليوم الذي عرف فيه خبر إعدامه، كانت الشمس ساطعة لحسن الحظ، والطبيعة مزدهرة، و«چوليان» يتمتع بشيء من الشجاعة. وكان السير في الهواء الطلق منعشاً له إلى أبعد حد، فكان مثله مثل ملاّح يتنزه على اليابسة، بعد أن غاب عنها وقتاً طويلاً. وأخذ يقول في نفسه: هيا بنا، فالحالة والحمد لله على ما يرام، إنني لا تنقصني الشجاعة.

ولم يكن رأس «چوليان» جميلاً شاعرياً مثل ما كان في ذلك اليوم، الذي قطع فيه. فأخذ يستعيد ذكريات الساعة اللذيذة، التي تمتع بها في غابات ڤرچى، وقد تجمعت كلها

في ذهنه في قوة ونشاط.

وتم تنفيذ الحكم في بساطة ووقار، ولم يكن «چوليان» بدوره متكلفاً في مسلكه[1]. لقد قاله لفوكيه قبل أن يموت بيوم واحد:

– أما الانفعال فلا أضمنه، لأن هذا السجن القبيح الرطب يؤثر فيّ فتصيبني الحمى بعض الأحيان فلا أعرف نفسي؛ وأما الخوف فلا تخشه، لن يراني أحد شاحب اللون.

وقد أعدّ «چوليان» عدته مقدّماً فكلف فوكيه أن ينتزع «ماتيلد» و«مدام دى رينال» من السجن، في صباح اليوم الأخير. ثم قال له:

– خذهما معك في عربة واحدة، وأعد العدة في أن تركض خيل البريد دائماً، فربما وقعت إحداهما بين ذراعي الأخرى، أو أظهرت كل منهما الكراهية الشديدة لصاحبتها. وعلى كل حال فهاتان السيدتان المسكينتان، ستنسيان قليلاً لوعتهما الشديدة.

وكان قد ألحّ على «مدام دى رينال» في أن تعيش لتعنى بابن «ماتيلد»، وأقسمت له على ذلك. ثم قال لفوكيه:

– من يدري؟ ربما كانت هنا لك بعد الموت لذات! إني أود أن أرقد في هذا الكهف الصغير، الذي يوجد بالجبل الكبير المطل على ڤربير. لقد قلت لك مرات كثيرة: إنني ذهبت إلى هذا الكهف ذات ليلة، وامتد بصري بعيداً فوقع على أكثر أراضي فرنسا ثراء، فألهب الطموح قلبي، فكان هذا أكبر هوى لي في الحياة. هذه المغارة عزيزة عليّ، وليس هناك من ينكر أن موقعها جميل، تطمح إليه نفس كل فيلسوف. وعلى هذا، فاعلم أن أعضاء مجمع بيزانسون، يجمعون المال بكل الوسائل، فاذا استعملت معهم المهارة، استطعت الحصول على جثتي.

نجح فوكيه في هذه المهمة المؤلمة. وكان يقضي الليل في غرفته بجانب جثة صديقه، ولشد ما دهش حين رأى «ماتيلد» تدخل الغرفة، لأنه تركها قبل ذلك بساعات قليلة، على بعد عشر فراسخ من بيزانسون. وكانت نظراتها زائغة، وعيناها مضطربتين. وقالت له:

– أريد أن أراه.

وكانت شجاعة فوكيه لاتواتيه، فلم يستطع النهوض ولا الكلام. وأشار بأصبعه إلى المعطف الأزرق فوق أرض الغرفة، وقد لفّ فيه ما بقى من «چوليان».

فركعت على ركبتها، ومما لاشك فيه أن ذكرى بونيفاس دي لامول ومرجريت دى ناڤار، قد أمدتها بقوة فوق قوى البشر. وفتحت المعطف بيدين مرتجفتين. فأدار فوكيه

(١) لقد اتخذ ستندال شخصية «انطوان برتيه» نموذجاً لبطله «چوليان سورل» ونحن نعلم أن برتيه كان قد أعدم في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم السبت ٢٣ من فبراير سنة ١٨٢٨ بميدان جرينيت في جرينويل، حيث أبدى ساعة موته شجاعة حقيقية لا تصنع فيها. «المعرب».

رأسه حتى لا يرى.

وسمع «ماتيلد» تمشي في الغرفة على عجل، وقد أوقدت عدة شموع. وحين واتته الشجاعة في أن يلتفت، رأى أنها وضعت رأس «چوليان» على منضدة صغيرة من الرخام، وقبلت جبهته.

وشيعت «ماتيلد» حبيبها إلى القبر الذي اختاره، وسار خلف نعشه عدد كبير من القسس. أما «ماتيلد»، فقد ظلت وحدها في عربتها المغطاة، وقد وضعت على ركبتيها رأس الرجل الذى أحبته حباً شديداً.

وصل الركب على هذه الصورة إلى أعلى نقطة في جبال چورا، في منتصف الليل، ووقف عند هذا الكهف وكانت الأنوار البديعة تسطع فيه، فأوقدوا شموعا كثيرة، وصلّى عشرون قسيساً صلاة الموتى. وأخذ سكان القرى الجبلية، التي مرّ بها الركب يتبعونه لغرابة هذا المأتم الذي لم يعتادوه من قبل.

ووقفت «ماتيلد» في وسطهم وقد لبست ثياب الحداد. ولما انتهى الحفل الديني، نثرت بضعة آلاف قطعة من ذات خمسة الفرنكات على الحاضرين.

وحينما انفردت بفوكيه، أرادت أن تكفّن رأس حبيبها بيديها. وقد كاد فوكيه يجنّ من شدة الألم.

وأصبح هذا الكهف الذى كان موحشاً من قبل، مزيناً بالرخام الإيطالي؛ وذلك بفضل عناية «ماتيلد» التي لم تضن عليه بالمال.

ووفت «مدام دى رينال» بما وعدت، فلم تحاول أن تعتدي على حياتها بأية وسيلة؛ ولكنها ماتت بعد «چوليان» بثلاثة أيام وهي تقبل أبناءها[1].

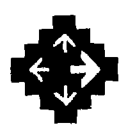
---

(١) إن من مثالب سيطرة الرأي الحر أنه، وإن كان يكفل الحرية للناس، فإنه يتدخل عادة فيما لا يعنيه ... في حياتهم الخاصة مثلا. ومن هنا، نشأت المساوئ التي نشاهدها في أمريكا وأنجلترا. ولكى يتجنب المؤلف كل ما يمس الحياة الخاصة، فقد عمد إلى اختراع بلدة صغيرة أطلق عليها اسم «فريير». وحينما كان يجد نفسه في حاجة إلى ذكر قس أو قاض أو محكمة، كان يختار أولئك جميعاً من بلدة بيزانسون التي لم يزرها مرة واحدة في حياته. «ستندال».

المحتويات

الجزء الأول

الجزء الثاني



إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

روايات

اللجنة / صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل / إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو / إدوار خراط
عهدة الصفر / ألان نادو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
الكلمات / جان پول سارتر (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
الأحمر والأسود / ستندال (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)
المكان / أني إرنو (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



قصص

السرائر/ منتصر القفاش
الديوان الأخير / عبد الحكيم قاسم
أمواج الليالي / إدوار الخراط
ضوء ضعيف لا يكشف شيئا / محمد البساطي
القمر في اكتمال / نبيل نعوم
شرفات قريبة / هناء عطية



شعر

فاصلة ايقاعات النمل / محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج / إبراهيم داوود
الآثار الشعرية الكاملة / إديت سودرجران (سلسلة عيون الأدب الأجنبي)



دراسات

من أوراق الرفض والقبول / فاروق عبد القادر
مسرح الشعب / د. علي الراعي
البحث عن المنهج في النقد الأدبي الحديث / د. سيد البحراوي
يوميات الحب والغضب / فريدة النقاش
الكتابة عبر النوعية / إدوار الخراط



كاريكاتير

ناجي العلي في القاهرة / ناجي العلي
(بالاشتراك مع دار المستقبل العربي)



عيون الأدب الأجنبي

يصدر منها

- **عبَدَة الصفر**
  ألان نادو
  ترجمة: البستاني و البطراوي
- **مدام بوڤاري**
  جوستاڤ فلوبير
  ترجمة: محمد مندور
- **الكلمات**
  چان پول سارتر
  ترجمة: خليل صابات
- **الأحمر والأسود**
  ستاندال
  ترجمة: عبد الحميد الدواخلي
- **المكان**
  آني إرنو
  ترجمة: أمينة رشيد
  و سيد البحراوي



دار شرقيات للنشر و التوزيع

